الهيئة العامة لقصور الثقافة



تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

7

إعداد و تحقيق:
عبد العزيز جمال الدين

لم يكن ابن المقفع آخر المؤرخين المصريين، لكنه ومخطوطته كانا الأشهر فى هذا السياق، وقد تعاقب من بعده من الآباء والرهبان المصريين من عكفوا على استكمال هذا التأريخ حتى بداية القرن العشرين. وبجهد الباحث المجد عكف المحقق المصرى عبد العزيز جمال الدين على جمع هذه المخطوطات وتحقيقها والتعليق عليها، موضحاً ما كتب فيها وما كتب فى التاريخ الرسمى الشهير، ليضع أمامنا عملاً قل أن نجده فى الثقافات الحديثة، لنقف أمام وجهتى نظر للتاريخ متأملين كيفية عمل الفعل البشرى فى تسجيل الأحداث حسب الانتماء الثقافى، وليفتح الباب على مصراعيه أمام العاملين فى مجال البحث التاريخى ليعيدوا التأمل فى آلية ومسار واحدة من أهم عمليات التدوين الذى حكم مخيلة البشر فى رؤيتهم لماضيهم التليد.

وزارة الثقافة



السعر: سبعة جنيهات

تصميم الغلاف: أحمد اللباد

تاريخ مصر

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

الجزء السابع

وزارة الثقافة



مطبوعات
الهيئة العامة لقصور الثقافة

• تاريخ مصر
من خلال مخطوطة
تاريخ البطاركة (الجزء السابع)
• إعداد وتحقيق:
عبد العزيز جمال الدين
• طبعة:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة -2012م
17×24 سم
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ٢٠١٢/٢٦٤٢
• الترقيم الدولي: 978-977-704-939-9
• المراسلات:
باسم / المشرف العام
على العنوان التالي: 16 أ شارع
أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947897
التجهيزات والطباعة:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

تاريخ مصر

من بدايات القرن الأول الميلادى
حتى نهاية القرن العشرين

من خلال مخطوطة

تاريخ البطاركة

لساويرس بن المقفع

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

الجزء السابع

من الأب يوحنا حتى أنبا يوانس البطرك ٧٤ (١١٨٩-١٢١٦م)

الاب يوحنا البطرك

وهو من العدد الثانى والسبعون

[١١٤٧/١١٦٦م]

جلس هذا الاب فى مملكه الحافظ(*) والظافر ولده والفايز ولد الظافر ومده مقامه على الكرسى تسعه عشر سنه وثمانيه شهور وتنيح فى الرابع من بشنس سنه ثلث وثمانين وثمان مايه للشهدآ. هذا كان راهباً قديسا قسم شماساً عفيفا صالحاً مذكورا

(*) ولد الحافظ فى المحرم سنة ٤٦٧هـ = ١٠٧٤م وتوفى فى ٥ جماد الاخر سنة ٥٤٤هـ = ١١٤٩م.

(*) الظافر: ولد ١٥ ربيع الثانى سنة ٥٢٧ هـ = ١١٣٣م. وأغتيل فى ٣٠ المحرم سنة ٥٤٩ هـ = ١١٥٤م.

ولكن خطاب اوربان الثانى النارى لم يستمع اليه الفرسان والاقطاعيون وحدهم. فقد استمع اليه كذلك اهل الريف المتضوررون جوعا والمعذبون فى العبودية القنية، وكان الفلاحون الفقر اء يرغبون ، اشد ما يرغبون، فى التخلص من نير الاقطاعيين، ولهذا السبب بالذات كانوا يحلمون بالمأثرة التكفيرية. وان البابا،سواء شاء ام ابى، قد اوضح لهم الآن من حيث الجوهر، مباشرة وصراحة ما يجب ان يكون عليه قوام هذه المأثرة، اوليس الى عذاباتهم قد ألمح حين قال ان هذه الارض بالكاد تطعم الذين يحرثونها؟ وبالوعد بخلاص «الشهداء» الابدى، بخلاص المجاهدين من اجل القضية المقدسة، واكثر من ذلك بالشقشقات عن بلد الحكايات حيث يسيل العسل واللبن انهارا، اهاج البابا الفلاحين الفقراء ايضا. الأرض والحرية. هذا ما كان يتراءى فى خطابه للزراع المغبونين والمحرومين. وهذه وتلك ـ الارض والحرية ـ كانتا تبدوان لهم ممكنتى البلوغ تماما؛ ذلك ان البابا، سعيا منه الى التعجيل فى حملة الفرسان الذين كانت مآثرهم اللصوصية تهدد رفاهية كبار المالكين الاقطاعيين وطمأنينتهم، قد اكد للصليبيين المقبلين ان السبيل الى القدس ليس طويلا وان بلوغ المدينة المقدسة لايتطلب جهودا جدية ما. ولربما كان هكذا يفكر ايضا بالفعل ؛ ذلك ان التصورات عن البلدان الآسيوية فى اوروبا كانت لاتزال فى ذلك الزمن غامضة جدا ومتغيرة على العموم؛ ولكن لربما استصغر البابا قصدا وعمدا اعباء الحملة المقبلة امام المستمعين الذين كانوا يعرفون حقيقة الامر اقل من البابا نفسه، لادراكه ان الهلاك المحتم يتهدد الالآف «ممن لاارض عندهم» ومن الفلاحين الفقراء الذين يدفعونهم الآن فى درب الرب العلى.

(*) الفـائز: ولد فى ٢١ المحـرم سنة ٥٤٤هـ = ١١٤٩م، توفى فى ١٧ رجـب سـنـة ٥٥٥هـ = ١١٦٠م.

فى الرهبـان من دير ابو يحنس، وكـان قـد حـضـر تقدمه انبا ميـخاييل المتنيح وذكر اسمه فى الرقاع الثلثه التى كتـبوها ورفعوها على الهيـاكل كـما شـرحنا فيما تقدم فاتفق الراى على تقدمته وسيرو اليه من الكهنه من يحضـره الى مـصـر فاحضروه، واقـسم قـسـاً ثم قـمـصـاً بكنيـسـه المعلقـه بمصـر، وحـضـر يونس ابن كـدران الذى تقـدم شـرحـه فى سيـره انبـا مـيـخـاييل المتنيح وجـدد الطلب من

ومهما يكن من امر، فقد سرى مفعول خطاب البابا اوربان الثانى فى كليرمون، متجاوزا كثيرا توقعات البابا بالذات، وحتى غير متطابق بقدر ما، مع مصالح المبادرين الاقطاعيين الى الحرب الصليبية. اغلب الظن ان البابا اوربان حزر احتمال مثل هذا الصدى، والا لما طفق ينصح الناس الضعفاء ممن لا يحسنون استعمال السلاح بالبقاء فى مطارحهم؛ فان هؤلاء الناس، كما قال البابا، هم عقبة كبيرة اكثر منهم عون، وهم بالاحرى عبء، ولن يعودوا بالنفع . ولكنه كان من المستحيل ايقاف الفقراء وردعهم.

اما الفرسان والاسياد، فان النداء الى تحرير الارض المقدسة قد وقع بينهم فى تربة صالحة تماما.

حملة الفقراء

نشرت الشائعة على آلاف الالسن بسرعة فى عموم الغرب بما فيه الجزر البحرية الانباء عن مجمع كليرمون وعن الحملة العتيدة الى القدس. وقد بدأت الاستعدادات فى فرنسا قبل كل شئ لانه كان يسود فيها بالذات جو مفعم كليا بالانفعال الدينى. وقد ساعد نشاط رجال الكنيسة الوعظى بقسط كبير فى كنائسهم من اجل الحرب الصليبية. وبعد فترة قصيرة، كلف بمثل هذه المهمة بعضا من اوسع الاساقفة ورؤساء الاديرة نفوذا؛ بعضهم كلفوا بالوعظ فى وادى اللوار وبعضهم الآخر فى نورمنديا، والخ..

السلطان الحاضر على يد من توسط حاله عنده، وخرج امره بعقد مجلس له ولمن طلب غيره، فحضرو الاساقفه بحضور خواص الدوله وصاحب الباب وقاضى القضاه وصاحب ديوان الانشا وغيرهم من صدور الدوله وكبارها والمميزين، وجرى فى ذلك خطوب ومفاوضات، فقال من حضر من الاساقفه والكهنه ليس لهم بطرك الا من طلبوه ورغبو فيه ولا يكون هو طالب ولا راغب

والبابا اوربان الثانى نفسه بقى فى فرنسا، وذلك لمدة ثمانية اشهر بكاملها. وفى هذه الحقبة، راح الى ليموج وانجيه، والقى خطابات فى مجمعى تور ونيم، ودعا الى الحرب الصليبية . كتب مؤرخ فرنسي: «حيثما كان، كان يأمر فى كل مكان باعداد الصلبان وبالتوجه الى القدس لاجل تحريرها من السلجوقيين . كذلك ارسل البابا رسائل بمثل هذه الدعوات الى الفلاندر والى مدينتي بولونيا وجنوه الايطاليتين.

وفضلا عن ذوى المقامات الرفيعة في الكنيسة ، اخذ يدعو الى الحرب الصليبية وعاظ متعصبون من عداد الاخوة الرهبان ظهروا فى مختلف الاماكن، وكذلك مجرد معتوهين شرعوا يدعون المستمعين الى القتال من اجل المقدسات المسيحية. فان الحرب الصليبية ، كما كانوا يقولون ، عمل ربانى وليست عملا انسانيا؛ وللبرهان على ذلك كانوا يروون شتى الخرافات ـ عن الرؤى النبوئية، وعن ظهور المسيح ومريم العذراء والرسل والقديسين، وعن العلامات السماوية التى تنبئ بمعركة المسيحيين المقبلة ضد اتباع الاسلام.

ان رئيس الدير والمؤرخ الالمانى ايكيهارد من آورر، الذين كتب في اوائل القرن الثانى عشر، اى بعد الحرب الصليبية الاولى، والذى كان مقتنعا حقا وفعلا بان حرب القدس لم يقررها الناس بقدر ما قررتها الافضال الربانية، وبانها قامت وفقا للتنبؤات الانجيلية، يورد فى الفصل

وهذه سنه القــوم من اول مــا عــبــدو الله بدين النصـرانيـه والى هذا الوقت، وقد سبق داوود النبي بالنبوه على ما يكون لكونهم ما يقيمو الا من رغبو فيه لا من رغب فيهم فقال في المزمور ١٤٩ : يوثقو ملوكـهم بالقـيـود واشرافـهـم بسلاسل من حـديد. فهم اذا صح عندهم ان الرجل الذى يريدو يقدموه عليهم كامل اوصاف شريعتهم من القدس والدين والعلم والصـلاح والعـفـاف والرحـمـه وبقيـه مـا

العاشر من مؤلفه («عن اضطهاد وتحرير وبعث كنيسة القدس المقدسة»)قائمة طويلة بالعجائب التى وقعت سنة ١٠٩٦عشية الحملة. وفى هذه القائمة الفريدة نجد سحبا حمراء دموية تسبح من الشرق الى الغرب ثم تتصادم فيمـا بينها، وبقع تظهر على الشمس، ومذنبات متطايرة بسرعة خاطفة. وانبأ احد الكهنة رعيته انه رأى فى السماء فارسين يتقاتلان. وقد انتصر ذاك الذى قاتل حاملا بيده صليبا كبيرا. وكانوا يتحدثون عن هدير المعارك المدداح فى السماء وعن مدينة سماوية تراءت لاحدهم ولم تكن بالطبع سوى القدس.

وانتشرت على نطاق واسع شهادات زُعم انها سقطت من السماء واعلن فيـها الرب عن عزمه على حماية فرسان الرب، المقاتلين من اجل الرب. ويؤكد ايكيهارد من آوور انه امسك فى يديه نسخة عن هذه الرسالة السماوية(اما الاصل، فيزعم انه كان محفوظا فى كنيسة القبر المقدس فى القدس).

وكتب رئيس الدير المؤرخ ان بعض الناس«كانوا يعرضون علامة الصليب منطبعة من تلقاء ذاتها، بطريقة ربانية، على جباههم او على ألبستهم او على جزء ما من اجسامهم»، وانها كـانت حـسب رأى الجـمـيع، اشارة من الاله العلى بانه يجب بدء الحـرب ضـد الهـراطقـة. والظاهرات غير العادية فى الطبيعية وفى الحياة البشرية، ايا كانت، ومنها، مثلا، وضع المرأة قبل الموعد، كانوا يعتبرونها دليلا على اقتراب احداث رهيبة.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

يحتاجوه ان يكون فيه على حكم مذهبهم اخذوه
كرها من غير اختياره وقيدوه بالقيد الحديد ليلا
يهرب منهم الى البريه الجوانيه فلا يقدرو عليه، لان
قليل هم اهل هذه الصفه، وان كانو الكل ابانا
واخوتنا فاهل هذه الطبقه لا يوجد منهم الا من
الالف واحد يكون قد توحد وقد تفرد وترك العالم
وهرب منهم وجعل حياته مع وحش الجبال وسباع
البريه فنقل الله طبع السباع الكاسره والوحوش

ولكن كانت مواعظ الاساقفة ورؤساء الاديرة معدة لاجل الفرسان ولاجل الاعيان الاقطاعيين، فان الرهبان والمعتوهين كانو ا يخاطبون الناس البسطاء. ولهذا اكتسب آنذاك اكبر قدر من الشعبية بين الجماهير الراهب روبر دابريسل ولاسيما الراهب بطرس الناسك من بيكاردى، الواعظان المتعصبان للحرب المقدسة، اللذان خطبا فى شتاء ١٠٩٥-١٠٩٦ بصورة رئيسية فى القسم الشمالى الشرقى من فرنسا وفى اللورين، علما بان بطرس الناسك وعظ كذلك(بعد فترة من الوقت) فى مدن منطقة الرين فى المانيا، وهذا وذاك عملا، بموجب تكليف من اوربان الثانى.

يصور مدونو الاخبار ومن بعدهم كثيرون من المؤرخين من القرن التاسع عشر والقرن العشرين بطرس الناسك بصورة متعصب متحمس مهووس. وهو ايضا عرض رسالة تلقاها، حسب زعمه، من الرب يطالب فيها الكلى القدرة بتحرير القدس. وكان بطرس الناسك يروى للجموع المحتشدة حوله انه، اثناء الحج فى القدس. رأى فى نومه الرب بذاته، وان الرب امره، هو الراهب الوضيع بان يوجه اقدامه الى بطريرك القدس، وبان يعرف منه بلايا الارض المقدسة تحت نير الكفار، وبان يعود الى الغرب ويوقظ فيه «قلوب المؤمنين لاجل تطهير الاماكن المقدسة». وها هو ذا الآن ، بطرس، الذى اجتاز البحر بمصاعب كبيرة ونقل ارادة الرب الى بابا روما، يدعو مستمعيه الى امتشاق السلاح.

الضاريه الى مسالمته. وان الاسوده اذا راته تاتى اليه وتسجد عند رجليه فيبارك عليها ويستانس بها ولا تضـره. لمثل ذلك الشـخص يطلبـو النصـارى ان يكون مقدم عليهم، فان لم يجدوه قدمو غيره من اهل الاتضـــاع والعلم والدين ومن يشـــهـــد له بالعفاف والطهر ولا يجوز لهم ان يقدمو عليهم من رغب فيهم ولا من طلب بالسلطان. فلما قالو هذا الكلام تقرر ان يكتب سجلا ويسير الحاجب معهم

من قديم الزمان اثبت الباحثون بطلان هذه الخرافات. ولكنه من المعلوم كذلك ان بطرس الناسك(او بطرس من اميان، كما يسمونه احيانا نسبة الى مسقط رأسه) كان يتحلى بموهبة خطابية ممتازة؛ فـان خطابات هذا الراهب لم تكن تؤثر فى الشـعب وحسـب، بل ايضـا فى الفرسان. ان نمط حياة بطرس الناسك، وتقشفه وزهده، ونزاهته (كان يمضى مرتديا اسمالا صوفية على جسم عار، ولم يكن يأكل لا الخبز ولااللحم، وكان يتغذى بالسمك فقط، وكان ملكه الوحيد بغلا)، كان يكسبه شهرة كبيرة بين الفلاحين؛ فكانوا يرون فيه رجل الرب وكانت الجموع تسير وراءه كأنما وراء قديس او نبى. كان يستهويهم فقره وسمعته كراهب براء من كل بذخ، ويعرف كيف يصالح بين المتجادلين والمتنازعين. ويروى جيبرت من نوجان:«كان كثيرون ينتفون الشعر من جلد بغله لكى يحفظوه كذخيرة... انا لا اتذكر شخصا حظى ذات يوم بمثل هذا التشريف».

وقد فهمت الجماهير الشعبية على طريقتها الاهداف التى نادت بها البابوية من الحملة الصليبية؛ فان برنامج الكنيسة الكاثوليكية كان يتحول فى وعى الفلاحين وفقا لمصالحهم، المعادية من حيث الجوهر لمصالح منظمى وملهمى الحملة الصليبية الكنسيين والاقطاعيين . ومع ان بطرس الناسك، مثله مثل الواعظين الآخرين من امثاله، كان يطبق خطط البابا فعلا

الى مدينه الاسكندريه ليعقد لهم فيها مجلس
ويحضره اكابر النصارى واراختنتها وكهنتها واى
من رغبو فيه، اما يوحنا واما يونس ابن كدران
فيقدموه لوقته. فسارو الى مدينه الاسكندريه وعقد
لهم مجلس في دار الاماره بحضور الوالى والقاضى
وكبار اراختنتها والنصارى المستخدمين والتجار
والاساقفه السايرين اليها من كراسيهم والمصريين
والقاهريين ومن كان معهم. وسال الوالى والقاضى

ورسميا ، الا انه كان يعبر في الوقت نفسه على طريقته، والى حد ما، عن امانى الفئات السفلى. على كل حال، من المشكوك فيه ان يكون البابا اوربان الثانى قد فكر في انتزاع الكادحين من اماكنهم، والاسهام في فرار الاقنان من أسيادهم؛ وفي افضل الاحوال، كان يريد، اغلب الظن، ان يحمل الشعب على تقديم الدعم المادى للفرسان. وحين رأى رجال الكنيسة بعد فترة وجيزة اى غليان واسع استثارته في الفئات الدنيا، وفي المقام الاول بين الفلاحين، النداءات الى الحرب الصليبية، قاموا بمحاولات لحجز الاقنان، ولكن عبثا.

في شتاء ١٠٩٥ـ ١٠٩٦اجتمعت في فرنسا قوات مدنية غفيرة من الفقراء المستعدين للذهاب الى المناطق البعيدة.

ان افعال جماهير الفلاحين قد اشترطها العوز المدقع والرهيب الذى كانت تعانيه القرى آنذاك واشتراطها اقوى بكثير مما اشترطتها المواعظ التقية. كان الجوع يجبر الفلاحين على التسرع، ولذا كانت تجمعاتهم تجرى في تسرع محموم. كان كل امرئ، كما يقول مدونوا الاخبار، «يبيع افضل قسم من امواله بسعر زهيد، كآنما كان في عبودية قاسية او كان معتقلا في السجن ».

والفقها الحاضرين عقد المجلس النصارى قايلين قد امر مولانا سلام الله عليه ان الذى ترغبو فيه من هذين الرجلين قدموه عليكم فاتفقو على من ترتضو به منهما. فصاحو جميعهم بكلمه واحده يونس [يوحنا] ابن ابو الفتح بطركنا وهو مستحق لهذه الرتبه. وكان ذلك فى ايام خلافه الحافظ وذكر من حضر عقد هذا المجلس من المسلمين ان رجلا منهم قال ليونس [يوحنا] ابن ابو

يقينا انه لم يكن بمقدور جيبرت دى نوجان ان يفهم الى النهاية دوافع الفلاحين الحقيقية. وقد نشأ عنده انطباع كأن الفلاحين الفقراء كانوا يخربون قصدا وعمدا انفسهم :«كانوا يشترون كل شئ باسعار غالية ويبعون باسعار بخسة... كانوا يشترون كل ما كانوا بحاجة الى استعماله فى الطريق ويبيعون باسعار بخسة ما يجب به تغطية التكاليف». ويؤكد دقة مزاج الجماهير الفلاحية. وعن التسرع الاعظم الذى كان يحاول الفلاحون الفقراء النزوح به يكتب آخرون من مدوني الاخبار. كان يخيل ـ وكان ذلك بالفعل ـ ان الفلاحين يتحرقون بفارغ الصبر للذهاب الى ملاقاة الخطر.

وبديهى ان كثيرين منهم كانوا منتشين بالحماسة الدينية المفرطة؛ كان الذاهبون يصلون بفائق الحرارة، وكان بعضهم يوسم بالنار صليبا على جسمه؛ وكان ذلك مطابقا تماما لروح الزمن . ولكن فقراء الريف كانوا يسرعون لانهم كانوا لايريدون انتظار الاسياد. كان الاقنان يسرعون بالاحرى للخلاص من مضايقات الاسياد، وهذا السعى كان يخنق جميع دوافع التقى فى جماهير الفلاحين.

فى مارس ١٠٩٦ نهضت اول جموع الفلاحين الفقراء من فرنسا الشمالية والوسطى ومن الفلاندر ولورين والمانيا(من الرين الاسفل) ثم من بلدان اخرى فى اوربا الغربية (مثلا، من

الفـتح فى المجلس مـا تقـول انت فى هذا الرجل اعنى يونس ابن كـدران اهو مـسـتحق لهـذه الرتبـه دونك. فقال: نعم هو اصلح منى واعلم بالشريعه. فاستحسنو ذلك منه وعظم قدره فى اعينهم منجل [من اجل] هذا الكلام، وللوقت قدموه بطركا فى يوم الاحد ثانى النسى سنه ثلث وستين وثمان مايه للشـهـدا الابرار، وكـمل تكريزه بالاسكندريه وعـاد الى مصـر، وتلقاه النصارى بالقاهره ومصر باحسن

انجلترا) الى «الحج المقدس». كان الفلاحـون يمضـون بلا سـلاح تقـريبـا. كـانت الهـراوات والمناجل والفؤوس والمذارى تقوم عندهم مقام الرماح والسيوف، ناهيك بان ليس الجميع كانوا يملكون ادوات العمل الزراعى هذه.«الجموع العزلاء من السلاح». هكذا ستسميهم فيما بعد الكاتبة المؤرخة اليونانية حنة كومنينة. ولم يكن معهم اى حصان او اية احتياطيات تقريبا. كانوا يتحركون مثل حشود غير منتظمة من الناز حين، بعضهم مشيا على الاقدام، وآخرون على عربات من عجلتين تجرها ثيران ، مع نسائهم واولادهم وامتعتهم البيتية الحقيرة. كان الاقنان يبتعدون عن الاسر الاقطاعى ، عن المضايقات والمجاعة ، آملين سرا فى تدبير امورهم بنحو افضل فى اماكن جديدة، فى «ارض الميعاد». وعلى الطرقات التى سبق ان طرقها الحجاج بمحاذاة نهر الراين ونهر الدانوب إلى القسطنطينية، كانت تمتد ارتال العربات. كان ثمة طريقان كبيرتان تجتازان شبه جزيرة البلقان وتؤديان الى عاصمة بيزنطية. لم يكن الحال هادئا فى هذه الطرق بسبب من غارات قبائل البتشنيغ، وكان الحجاج يمضون عادة على طريق اغناطيوس. ولكن فصائل الفلاحين الفقراء كانت تندفع بالضبط عبر بلغراد ـ نيش ، الى الجنوب الشرقى، الى القسطنطينية.

كان يمضى عشرات الآلاف من الفقراء المساكين. وكانت فصيلة الفلاحين من فرنسا

ملقا وسارو بين يديه الى كنيسه ابو مرقوره مستقر سكنه، وفرحو به فرحاً عظيما. وقصد ان يطيب قلب يونس ابن كدران واخوته الرهبان بان يقسمه اسقفا على سمنود فامتنع ولم يطيعه ولم يزل وقت مقيم بالدير ووقت مقيم بالريف حتى مات.

وفى ايام الحافظ نقب رضوان ابن ولخشى الموضع الذى كان فيه بالقصر وخرج من النقب

الشمالية الذين كان يقودهم الفارس جوتيه المعدم (Gautier Sans Avoir) تضم زهاء ١٥ الفا (كان ٥آلاف منهم فقط مسلحين كيفما اتفق)؛ وكانت الفصيلة برئاسة بطرس الناسك تضم زهاء ١٤ الفا. وكان ٦ آلاف فلاح يسيرون بامرة الفارس الفرنسى فولهير دى اورليان. والعدد نفسه تقريبا من الفلاحين سار وراء الكاهن جوتشالك الذى ليس عبثا نعته ايكيهارد دى آوورا «بالخادم الكذاب للرب»؛ وكانت الفصيلة الانجليزية اللوينية تتألف من زهاء الفين. وجمع فئات الصليبيين هذه كانت تتصرف متشتتة، دون تناسق. وكانت محرومة من كل انضباطا وطاعة.

وآنذاك ، حاول اشد الفرسان نزعة الى القتال استغلال الحركة الفلاحية فى اهدافهم. ومن هؤلاء كان الفرسان الفرنسيون جوتيه المعدم واخوته الثلاثة وعمه (واسمه جوتيه ايضا)، وفولهير دى اورليان، وغليون النجار، وفيكونت ميلان وغاتينه (قد نال لقبه بسبب قوة قبضته؛ ومع الفلاحين الذين انطلقوا من المانيا، توجهت كذلك جملة من الفرسان المغامرين ــ من مقاطعات الرين وفرنكونيا وشوابيا وبافاريا. وكان منهم المدعو فولكمار، والكونت اميخ دى لينينجن، الذى لم يكن من فئة الفقراء (فان ممتلكاته كانت تقع بن ترير ومايتس وكان على قرابة من رئيس اساقفة ما ينس)، ولكنه كان يتميز ببخل لايصدق وباخلاق اللصوص وقطاع الطرق، وهوج توبنجن ، والكونت هارتمان فون ديللينجن.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

وعـدى الى الجيـزه(*) وحشـد جـماعـه من الاجناد والعـربان والمغـاربه ودخل الى القـاهره وامر ونهى، وفي بقيه يوم دخوله اليها قتل داخل الجامع الاقـمر الذى عند الركن المخلق بيـد السـودان ومن اتفق معهم من الاجناد. واستمر الامام الحافظ بغير وزير الى ان مـات. وبعـد ان قـتل رضـوان ابن ولخـشى الوزير اعاد مولانا الحافظ الشيخ صنيعه الخلافه ابن يونس الى ديوانه بالقـصـر واثبـات خطه فـيـه

(*) هروب رضـوان ابن ولخـشى وجمعه للعربان والمغاربه واحتلال القـاهرة ورغم ذلك قـتله الجند السودان فى جامع الأقمر.

اراد الفرسـان ان يستولوا على قيادة الشعب البـسيط ، وقد افلحوا جزئيا فى ذلك. فان الفرسان القادة من طراز غليوم النجار واميخ دى ليننجن كانوا يبدون اثناء الزحف اكبر قدر من الوقاحة والقساوة. وللمناسـبة نقول ان هذين الاثنين قد نهبا قبل سفرهما الكنائس فى ممتلكاتهما لكى يؤمنا لنفسهما النقود للطريق.

صحيح ان فصائل الفلاحين كانت تتخللها عناصر اقطاعية، ولكن طابع الحركة بمجملها لم يتغير ، بل انها احتفظت حتى بسيماتها الخارجية. ان حركة الفلاحين، العفوية منذ نشأتها، قد جرت بدون أى تنظيم صحيح، بدون خطة عامة. كان الفلاحون الفقراء الصليبيون يتصورون تصـورا غامضـا الغاية مكان الهدف النهائى من حملتهم . ويستفاد من أقوال جيبرت دى نوجان ان الاولاد الصغار الذين كانوا مع كبار فى عربات والذين كنوا يستمعون الى احاديثهم عن مدينة المقدسة المجهولة، كانوا كلما رأوا فى الطريق قصرا او مدينة ما ، يسألون ما اذا لم تكن هذه القدس التى يمضون اليها.

فى مقدمة فصيلة بطرس الناسك، كانت تسيـر.....وزة وعنزة. كانتا تعتبران مفعمتين بالهناءة الربانية وتتمتعان باحترام كبير بين الفلاحين؛ يقول ألبر دى آخن انهم كانوا «يبدون» ازاءهما «علائم الاحترام التقى فوق الحد، وكانت العساكر العظيمة ، مثل الماشية، تسير اثرهما مؤمنة فى ذلك من صميم الروح». كان الفلاحون يرون فى الحيوانين زعيمين لهم.

بامضايه، واستخدم الشيخ صنيعه الخلافه من قبله صاحبى ديوان احدهما ديوان المجلس، والاخر لديوان التحقيق، وصار منه الى الخليفه ومنهما اليه وهو الواسطه بين الخليفه وبين كافه الناس من الكبار وغيرهم. وكان يستخدم ولاة الحروب فى الولايات كبارها وصغارها، ونكته [عزله] الحافظ واخذ منه مالا كثير ثم اعاده واستخدمه، واستمر معه هكذى نكته وخدمه دفعه بعد اخرى الى ان

صحيح ان الفرسان انضموا الى جموع الفلاحين، ولكن الاقنان انفسهم كانوا يحاولون ان يتخلصوا قدر الامكان من رفاق الطريق النبلاء. وعندما وصلت فصيلة بطرس الناسك إلى كولونيا (١٢ إبريل ١٠٩٦) تابعت جماهير الفلاحين مسيرتها بينما تخلف عنها زهاء ٣٠٠فارس فرنسى لم يغادروا المدينة الا بعد مرور اسبوع على الاقامة فيها. وكان من الجلى ان الاقنان لا تطيب لهم رفقة الفرسان فى الطريق. كان يتعين عليهم احيانا ان يقبلوا المغامرين الاقطاعيين بصفة آمرين عسكريين؛ ولكن تطلعات الفلاحين الفقراء وتطلعات الفرسان كانت من حيث جوهرها متضادة تماما.

فى الطريق سلك الصليبيون سلوك النهابين. فاثناء مرورهم فى اراضى المجر والبلغار، كانوا ينتزعون المأكولات بالعنف من السكان، ويسوقون الاحصنة والبقر والغنم ويقتلون ويغتصبون. كان النهب والسلب بالنسبة للفقراء الاسلوب الوحيد لتحصيل ما ياكلونه. وكان الفرسان يواصلون النهب والسلب بعد دخلولهم اراضى بيزنطية. لم يكن لدى الفلاحين نقود لكى يدفعوا ثمن المؤونة المقدمة لهم بامر الامبراطور الكسيوس كومنينوس. ناهيك بان عددا لايستهان به من العناصر الإجرامية الذين كانوا يرون فى المشروع الصليبى مجرد وسيلة ملائمة لاجل النهب والسلب، ـ..«ان كثيرين من شتى الأوباش قد التحقوا بالعسكر الصليبى، لاكى

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

تممو عليه الكتاب الذى استخدمهم المستمرين
اصطفاهم وقربهم اليه ومال اليهم وانكشف عليهم
واطلعهم على سره فرافعو ووافقوه واثبتو فى جهته
مال كثير فامر الحافظ باعتقاله فى خزانه البنود،
ولم يزالو يفسدو قلب الحافظ عليه الى ان قتله
بالسيف هو واخ له صغير يسمى ابو المحاسن، لان
اعداه حملو [سجنوا] زهر الدوله الصقلابى الى
خزانه البنود الى ان نقل عنهما انهما شتما الخليفه

يكفروا عن الخطايا، بل لكى يقترفوا خطايا جديدة». هكذا يصف احد مدونى الاخبار هؤلاء الصليبين.

ويقع قسط كبير من المسؤولية عن النهب والسلب فى اراضى المجريين والبلغار على عاتق عصابات الفرسان التى انضمت الى جموع الفلاحين.

رد المجريون والبلغار واليونانيون ردا حازما على محررى قبر السيد المسيح غير المنتظرين. فقد كانوا يبيدون الصليبين بلا رحمة، وينتزعون منهم الغنيمة التى استولوا عليها، ويطاردون الباقين. وفى الاشتباكات كان الصليبيون يكابدون خسائر كبيرة. ويستفاد من شهادة البرت دى آخن ان فصيلة بطرس الناسك التى اضطرت الى مقاتلة عساكر بيزنطيين فى جوار مدينة نيش قد غادرت المنطقة بعد ان خسرت ربع اعضائها.

اتجه الفلاحون الفقراء الصليبيون نحو عاصمة الروم متجنبين فيليبوبول وادريانوبول. وشرعت جموع الفلاحين تصل الى العاصمة منذ اواسط يوليو ١٠٩٦ وكانت قد نقصت كثيرا: ذلك انه كان قد مضى اكثر من ثلاثة اشهر منذ بداية الحملة. كانت فصيلة جوتيه المعدم اول فصيلة تقترب من القسطنطينية، ثم بعد اسبوعين، فى اول أغسطس، انضمت اليها فصيلة بطرس الناسك. ان كثيرين من الفلاحين الذين كانوا يأملون فى نيل الحرية فى اراضى

فامر للوقت بقتلهما فضربت اعناقهما بالسيف ظلما، فلما يهمل الله امرهما ولا غفل عن دماهما فابتلا زهر الدوله الصقلابى بمرض الاستسقا فاقام به اياما يسيره حتى شاهدو الناس فيه قدره الله وعرفو انه عاقبه بسببهما وانهما بريان وتعجبو من سرعه المكافاه له والمقاصصه ومجدو الله على ذلك. وكانو قوم سحره مستخدمين مع صنيعة الخلافه وهم الذين[حسدوه و] حملو عليه زهر

العسل واللبن، لم يتسن لهم حتى ان يصلوا الى القسطنطينية؛ فان الصليبيين قد خسروا فى اوروبا زهاء ٣٠الف رجل. وكادت تهلك كليا فصائل فولكمار وجوتشالك واميخ لينين، رغم ان قادتها انفسهم سلموا ووصلوا الى القسطنطينية.

ان الصليبيين الذين فسدت معنوياتهم باعمال السلب والنهب السابقة قد سلكوا فى عاصمة الامبراطورية البيزنطية ايضا سلوكا منفلتا لاضابط له. فقد كانوا يدمرون ويحرقون القصور فى ضواحى المدينة، ويتخاطفون صفائح الرصاص التى كانت سطوح الكنائس مصنوعة منها.

فى البدء حاولت الحكومة البيزنطية ان تبدى الصبر حيال القادمين ذوى الثياب الرثة. حتى ان الامبراطور الكسيوس كومنينوس استقبل فى قصره بطرس الناسك وفولكمار. ويروى البر دى آخن فى مؤلفه «تاريخ القدس» عن هذا اللقاء كما يلى«كان بطرس، على صغر قامته، يتحلى بعقل عظيم ويتميز بالبلاغة. وقد ساقة رسل الامبراطور مع فولكمار الى الامبراطور، لكى يتأكد من صحة الشائعة التى بلغته عن بطرس ووقف بطرس بثقة امام الامبراطور وحياه باسم السيد يسوع المسيح وحدثه بجميع التفاصيل عن مغادرته لوطنه بدافع حبه للمسيح ورغبته فى زيارة قبرة المقدس. كذلك ذكر البلايا التى اضطر الى تحملها فى وقت قصير وقال

الدوله الصقلابى حتى فعل به ما تقدم شرحه
لعداوه بينه وبينه فلقاهم الله فعلهم ومشيهم على
الدمآ فقتلهم مولانا الحافظ بالسيف الذى قتله به
فى الموضع الذى قتل فيه صنيعه الخلافه واخيه
ووقعت دما السحره على دماهما، وصدق كلام
الله القايل: «من اهرق دم فى العالم يهرق دمه».
وكانت مكافاه السحره بذلك بعد ان قتل صنيعه
الخلافه بدو السنه.

للامبراطور ان الاسياد الجبابرة، والكونتات، والدوقات اللامعين سيظهرون عما قريب على اثره . ونصح الامبراطور الكسيوس الاول بدوره زعيم الصليبيين (بطرس) ذوى الثياب الرثة بانتظار الصليبيين الفرسان. وقال:«لاتعبروا البوسفور قبل وصول القوات الرئيسية من العساكر الصليبية، فأنتم قليلون للغاية حتى تقهروا الاتراك». بل ان الفاسيلفس زود الفقراء ببعض الاموال لكى يمكنهم من البقاء بعض الوقت فى العاصمة. ولكن عبثا!

كان الفلاحون يندفعون الى «ارض الميعاد»؛ وبما ان الامبراطور الكسيوس الاول قد اقتنع بان لاجدوى من محاولات الاقناع، فقد رأى من الافضل التخلص بأسرع وقت من الحلفاء غير المدعوين. وبعد مرور اقل من اسبوع على وصول بطرس الناسك الى القسطنطينية، بدأ الامبراطور ينقل الصليبيين الى الساحل الآسيوى من البوسفور. وقد جمعوا جموع القادمين واسكنوهم مخيما على الساحل الجنوبى من خليج نيقوميديا، على بعد زهاء ٣٥ك م الى الشمال الغربى من مدينة نيقية، ومن هنا، اخذت بعض الفصائل تقوم على عهدتها ومسؤليتها بغارات بعيدة الى هذا الحد او ذاك وتقاتل السلجوقيين. واخذ بطرس الناسك على نفسه مهمة القيادة العامة، ولكنه لم يكن يصلح لها البتة؛ وقد حاول ان يوقف عساكره، ولكن عبثا. فعاد الى القسطنطينية.

ثم مات الحافظ فى الرابع من جمادى الاخره سنه اربع واربعين وخمس مايه الهلاليه(*)، وجلس بعده ولده ابو منصور ابن اسمعيل وبويع له اهله واخوته ورجال دولته وانعتوه بالامام الظافر، ووزر له من امرا دولته امير نعته نجم الدين ابن مصال لانه كان من خواص الحافظ ابوه ومن كبار دولته، وكان يرجع الى رايه ومشورته. فنافق عليه امير يسمى على ابن السلار كان واليا بثغر الاسكندريه

(*) من الملاحظ شيوع استخدام التأريخ الهجرى فى هذا الجزء من السير وما بعدها. ولذلك سوف ارصد إلى جانبه التأريخ القبطى حتى يتصل بسلسال التواريخ السابقة. اما سنة ٥٤٤هـ فتعادل سنة ٨٦٥ قبطيه و سنة ١١٤٩م.

وبعد فترة وجيزة سرت فى المخيم الرئيسى اشاعة مفادها ان النورمانيين احتلوا نيقية. فهيج هذا الخبز سائر الصليبيين الذين كانوا يخافون من تفويت نصيبهم من الغنيمة. واندفعوا فى الحال الى نيقية. وقبل ان يصلوا اليها، قابلتهم العساكر السلجوقية التى استعدت فى الوقت المناسب للاشتباك مع عساكر المسيح (هكذا يسميهم فى المعتاد مدونو الاخبار الاثينيون). وفى ٢١اكتوبر ١٠٩٦ سحق السلجوقيون من فصائل الصليبيين ٢٥الف رجل. وفى عداد من سقطوا، كان بعض القادة وبينهم جوتيه المعدم. ووقع كثيرون من الفلاحين الفقراء الاسر وبيعوا عبيدا. واستطاع زهاء ٣آلاف رجل تحاشى القتل والاسر بالفرار العاصف الى القسطنطينية. وحاول بعضهم بعد بيع امتعته هنا ان يعود الى الوطن، وبقى الآخرون ينتظرون وصول الكونتات والدوقات اللامعين.

هكذا كانت النهاية الفاجعة لمحاولات الاقنان الفرار من سلطة الاسياد. ان حملة الفقراء الصليبية لم تكن فى اساسها سوى عمل اصيل، مزين برداء الدين، اعرب به الاقنان عن احتجاجهم الاجتماعى على الاوضاع الاقطاعية. وكانت نوعا ما مواصلة لنضالات الريف القنى السابقة، الطائشة، ضد الاقطاعية. وتأتى لجماهير الاقنان ان تدفع ثمنها غالبا لمحاولتها تحقيق حلمها فى التحرر بانجاز مأثرة دينية. ان الاوهام الساذجة التى غذتها الكنيسة فى جماهير

فحشد الاجناد وعدى الى الغربيه فاجتمع معه
اجنادها وعربانها وصار معه عسكر كبير، وكان
امير من جنس ملوك الملمين [المسلمين] بالغرب
يسمي عباس من اولاد الامير تميم ابن باديس واليا
بالغربيه، وكانت امه اسمها بلوره زوجه هذا على
ابن السلار، فلما بدى [ذهب] الى الغربيه اخذ
عباس واليها معه وسار الى القاهره فدخلها على
ابن السلار وملكها في شعبان سنه اربع واربعين

الاقنان المسحوقة تحت وطأة الفقر الفكرى قد تبددت لدن اول اصطدام بالواقع الفعلي. ان الفلاحين لم يكسبوا في الشرق الارض والحرية، بل كسبوا هلاكهم وحسب..

بداية حرب الفرسان

بينما كان الاقنان الذين اندفعوا نحو الشرق اما قد لقوا مصرعهم واما فى الطريق الى هذه النهاية، بدأت حرب الفرسان الصليبية، والاصح القول، الحرب التى كانت يعود فيها الدور الحاسم اليهم، اذ ان جماهير الفلاحين الفقراء التى كانت تابعة للكونتات والدوقات قد اشتركت فيها.

في اغسطس ١٠٩٦، تحركت طوابير كبيرة من اللورين ومن على الضفة اليمنى من نهر الرين وكان يرأسها دوق اللورين السفلى جودفرى دى بوين الرابع Godefroy IV de Boulone dit Bouillan (بويون قصر في جبال الاردين). الا ان اللقب الدوقى والاصل النبيل الاريستقراطى لم يؤمنا له ثبات ممتلكاته؛ فلم يكن سيدا مطلق السيادة الا فى دوقية انفرس وفى قصر بويون، بينما القسم الباقى من اللورين السفلى كان الامبراطور الالمانى قد انعم به عليه كاقطاع. وبفتح الاراضى فى البلدان الشرقية كان جودفروا الر ابع يأمل فى شغل مواقع اشد رسوخا وثباتا في العالم الاقطاعي.

وخمس مايه، واخذ الوزاره وانعتوه بالسيد الاجل العادل امير الجيوش، فهرب نجم الدين ابن مصال وعدى الى الجيزه، فتحرك معه السودان فتجردت لهم العساكر فكسروهم، وقتل من السودان خلق كثير. واخذت راس ابن مصال وطيف بها القاهره على رمح.

وقصد [وأمر] النصارى بالقاهره ومصر فى ايام العادل ابن السلار ان يشدو الزنار ويقلعو

والى جودفروا دى بوبون انضم اخوه الاكبر الكونت يفستافى دى بولون واخوه الاصغر بودان (Baudouin)، من بولون ايضا. وهذا الاخير كان من قبل من رجال الدين، ولم يكن يملك فى وطنه أية ممتلكات، من هنا كان حافزه للاشتراك فى الحروب المقدسة. والى دوق بوين انضم كثيرون من اتباعه، بمن فيهم بودوان دى بورج، ابن عم جودفروا الرابع، والكونت بودوان دى اينو، والكونت رينو دى تول. وكان كل منهم يقود فصائله المسلحة. وجميع هذه القوات اتجهت نحو نقطة تجمع الصليبيين ـ القسطنطينية ـ على طريق الرين ـ الدانوب التى سارت عليها قبل ذاك بقليل فصائل الفلاحين الفقراء.

ان الملك المجرى كولومان – الذى مرت للتو فصائل الفلاحين فى اراضيه قائمة بالنهب والسلب ـ لم يوافق على منح حرية عبور اراضيه الا شرط أن يعطوه ضمانات كان على جودفروا الرابع ان يبقى له رهائن. تقابل كولومان والدوق على جسر فوق نهر ليتا، ثم مرة اخرى فى القصر الملكى؛ وبعد مهاترات طويلة، عقدا اتفاقية.وقد تركوا بودان دى بلون مع اقرب الناس اليه رهائن فى يد كولومان. وعندما وصلت قوات جودفروا الى بلغاريا وعبرت نهر سافا، اعاد المجريون الرهائن. وكان ذلك فى نوفمبر ١٠٩٦ وواصل الصليبيون من اللورين سبيلهم الى الممتلكات البيزنطية. وبدون حوادث تذكر، وصلوا قبيل عيد الميلاد الى ضواحى القسطنطينية.

طيالسهم فلم يستمر ذلك سوى ثلثه ايام، وكان السبب فى ذلك قوم فقها من المبغضين للنصارى اجتمعو بناصر الدين نصر ابن عباس وكان قد ولاه العادل مصر فحملوه على ذلك وقالو له: انك اذا فعلت هذا بالنصارى صانعوك بمال كثير حتى تزيله عنهم. فلما فعل ذلك بهم واقام ثلثه ايام ينتظر ان احد منهم يحضر اليه او يتحدث معه بسبب مصانعه او غيرها فلم يحضر اليه احد علم

ان الاساطير من زمن اقرب الينا قد جعلت من جودفروا الرابع البطل الرئيسى فى الحرب الصليبية. وقد نسبوا اليه غيرة دينية خاصة، وشجاعة شخصية مدهشة وكفاءات عسكرية بارزة وان البرت دى آخن، الذى يشكل مؤلفه «تاريخ القدس» مديحا لدوق اللورين، يعتبر ان هذا السيد كان يستهدى بدوافع سامية. وعندما اعتزم السير فى درب الرب، «كان غالبا من يطلق الزفرات، لان زيارة مدينة القدس المقدسة ورؤية قبر السيد يسوع قبل كل شئ كانتا اكبر رغائبه، وغالبا ما كان يكشف مكنون قلبه لاقربائه». كان تدخل غودفروا الرابع تدخلا جريئا فى المعركة العامل الحاسم فى انتصار الصليبيين. حسبه ان يظهر على صهوة حصان حتى «يطلق» السلجوقيون «الاعنة لخيولهم ويولوا الادبار بسرعة عاصفة، بعد تأكدهم من صلابة روح الدوق ومقاتليه». ويستمع لصوته ونصائحه. ويشبه مدون اخبار آخر غودفروا دى بوين – من حيث القوة، والضرواة فى القتال، والالهام – بالبطل هكتور من ملحمة هوميروس.

ان جميع هذه المدائح لاتتفق مع الواقع. فمعلوم ان هذا السيد التقى كان فى موطنه يقوم بدأب وانتظام بنهب الاديرة فى جوار بويرن. ولكى يعزز جودفروا الر ابع سمعته ومكانته، عمد بنصيحة امه، قبل انطلاقه فى الحملة، حتى الى تقديم بعض الهدايا والتبرعات الى الاديرة التى نهبها. اما المواهب العسكرية، فلم يتميز بها. وعلى العموم، لعب جودفروا الرابع فى المشروع

ان الفقهـا غروه فنادى فى اليوم الرابع ان يجرو على عادتهم.

واستمر العادل ابن السلار فى الوزاره الى ان دخل عليه نصر ابن عباس من باب سردار الوزاره(*) فقتله واخذ راسه واخرجها واشهرها بين القصرين. وكان عباس ابوه والى الشرقيه مقيم فى بلبيس فانفذ اليه نصر يعرفه بما فعل فدخل عباس

(*) سردار الوزارة: سردار كلمة فارسية دخلت اللغة المصرية فى هذه الفترة واستمرت طوال الحكم المملوكى والاحتلال العثمانى، وهى تعنى صاحب أو القائد، وبهذا فهى تعنى هنا فى الغالب صاحب باب الوزير.

كله دورا متواضعا جدا؛ واغلب الظن ان كفاءاته المتوسطة تماما، وميله الى الحلول الوسط فى الجدالات الحادة، ـ خلاصة القول، انتماءه الى انصار الوسط الذهبى، ـ كل هذا بالذات هو الذى بدأ بنجاح بعد نهاية الحملة الصليبية، ولكن الذى سرعان ما قطع الموت المفاجئ حبله.

وكان قائدا فصائل الفرسان من ايطاليا الجنوبية وفرنسا الجنوبية الامير بوهيموند دى تارنتو Bohemond de Tarente، وريمون دى سانجيل، كونت تولوز، شخصيتين ابرز من غيرهما فى الحرب الصليبية.

فقد ترأس الاول الفرسان النورمانيين الايطاليين. وكان ماضى هذا الامير مرتبطا بحروب النورمانيين ضد بيزنطية. وفى اوائل الثمانينيات اشترك فى حملة والده روبر جيسكار، وسعى الى اقتطاع ارض لنفسه فى البلقان. الا ان الروم هزموه فى سنة ١٠٨٣ فى جوار لاريسا. والآن سنحت لهذا الامير فرصة ملائمة لتحقيق نواياه المزمنة، كانت ممتلكات بوهيموند فى ايطاليا الجنوبية تافهة؛ فلم يرث غير امارة تارنتو الصغيرة؛ اما جميع اراضى جيسكار الاخرى، فقد ورثها ابنه من زواجه الثانى، روجه بورسا. وتلاحظ حنة كومنينة التى تحدثت فيما بعد عن عساكر بوهيموند انها لم تكن كثيرة لان هذا القائد كانت تنقصه النقود. ان الحملة الى الشرق التى دعا اليها البابا جاءت توفر لامير تارنتو امكانيات واسعة؛ وكان قد سمع الكثير عن

من بلبيس الى القاهره واخلع عليه الوزاره وانعتوه بالسيد الافضل.

وفي ايامه فتحو الفرنج عسقلان(*) ولم يكن بقي بيد المسلمين من الشام سواها وكان فتوحها بيد الافرنج في مده سنه في جمادى الاخر سنه ثمان واربعين وخمس مايه [٨٦٩ قبطية = ١١٥٣م].

(*) سقوط عسقلان آخر مدن الفاطميين بالشام في يد الصليبين.

وكانو النصارى قد اعمرو كنيسه بالمطريه التي

ثروات البلدان الشرقية وعن الخلافات بين حكامها؛ فقد كان يحمل الانباء عن كل هذا تجار باري واماالفي، بعد عودتهم من سوريا وفلسطين. وقد اصبح تأسيس امارة مستقلة في الشرق حلم بوهيموند الحميم. وخلافا لجودفروا دي بويون، كان يتحلى بكفاءات عسكرية وديبلوماسية غير عادية، وبخبرة الآمر العسكري طوال سنوات عديدة؛ ومنذ بادئ بدء اخذ يطبق برنامجه بصورة منهاجية وبعد تفكير عميق.

ان صاحب الاخبار «افعال الفرنجة»، الفارس النورماني من محيط بوهيموند، يصور ظروف انطلاق بوهيموند في الحملة من باب الصدفة. فاثناء حصار اما لفي المنتفضة، رأى بوهيموند قوات الفرسان الفرنسيين تمر على غير بعد كبير عنه، وحين علم انها تمضي للقتال من اجل القبر المقدس، اعلن في الحال انه هو ايضا يأخذ الصليب (اي يأخذ النذر باشتراكه في الحملة الصليبية). وتواجد من الراغبين عدد كاف لانه كان في ايطاليا، كما يقول مدون آخر للاخبار هو جوفريد مالاتير، كثيرون من الفرسان الشبان المحترقين الى المغامرات، الامر الطبيعي جدا في عمرهم.

اما في الواقع، فان بوهيموند، كما بينت الاحداث اللاحقة، كان يعرف من زمان عن المشروع البابوي وقد بنى في هذا الصدد خططا بعيدة المدى. هناك امر صحيح واحد فقط، هو ان كثيرين من الاسياد الصغار من ايطاليا الجنوبية وصقلية قد اقتدوا به بالفعل في الحال؛

فيها بير البلسم(*) التى يستخرج منه دهن الميرون علي [خرائب] الكنيسه القديمه وكرزوها على اسم القديس مارى جرجس وقدسو فيها قبل ان يكملو صورها، فهدموها المسلمين وبنو مكانها مسجد.

(*) يعتقد اقباط مصر انها بير من الماء العذب تفجر حيث سقطت بعض المياه من ثياب المسيح وهو طفل بعد غسلها ونبت بجوارها شجرة البلسان التى يستخرج منها دهن (زيت) الميرون.

وكان ناصر الدين ابن عباس قد صار له خلطه بالامام الظافر ويدخل اليه بالليل الى قصره ياكل

فانها لمعروفة اسماء ابنى عمه ريتشار دى ساليرنو ورواينولوف وابنه ريشا ومحاربين نورمانيين آخرين.واخذ الصليب ابن اخى بوهيموند، المقرب منه، تنكريد (Tancrede)، البالغ من العمر عشرين سنة، والذى لم تكن له حصة من الارض، ولذا كان فارسا يتميز بنزعة حادة ، خاصة، الى القتال، وكان بلا ريب جريئا وباسلا، لكنه كان مغامرا جشعا، انانيا، شقيا، متغطرسا، مكارا، وخاليا تماما من صفات القائد العسكرى.

وهكذا رفع الحصار عن اما لفى ١٠٩٦ ، ركب مقاتلو بوهيموند دى تارنتو السفن فى بارى. ومن هناك، تحركوا عبر مقدونيا وتراقيا الى عاصمة بيزنطية. ولاريب في ان قائد هذا الجحفل بوهيموند دى تارنتو كان من بين جميع زعماء الصليبيين اوفرهم موهبة وذكاء وفكرا سليما، كما كان في الوقت نفسه، اكثرهم وقاحة وصفاقة في وسائل بلوغ الاهداف المنشودة.

وكما عند جوفروا دى بويون، ظهر كذلك عند بوهيموند، متملقون في عداد مدونى الاخبار. فان النورمانى راوول من كايان يصوره بصورة زعيم سانده شعب بلاد الغال بأسرها، وشعب ايطاليا بأسرها، وفضلا عن ذلك، شعوب اوروبا بأسرها. «ليس ثمة بلد من ذلك الجانب من جبال الالب، من ايليريا الى المحيط، يمتنع عن تقديم المساندة المسلحة لبوهيموند» . هذه، بالطبع ، مبالغة شديدة. ولكن بوهيموند لعب بالفعل دورا بارزا فى احداث الحرب الصليبية.

عنده ويشرب ويبات ويصبح، وكان الخليفه يخرج
معـه بالليل الى داره فـيـقـعـد عنده بعض الليل
ويسمع الغنا ثم يودعه حتى يدخل به الى قصره،
فصعب ذلك على عباس ابوه وخاف ان يقتله كما
قتل على ابن السلار، وحكى من كان معاشرهم
ان عباس ابوه بلغه ان الخليفه قال لنصر الدوله
اقتل ابوك وكن انت الوزير فانك اجمل من ابوك
لها، فدبر عباس الحيله في السلامه فكان فيها

آنذاك، في اكتوبر١٠٩٦، انطلق جيش كبير من فرنسا الجنوبية. وكان ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، على رأسه. ولقد سبق ان دفعه التحرق الى الفتوحات فى الثمانينيات الى الاشتراك في الريكونكيستو الاسبانية، ولكنه منى هناك بالاخفاق (مثلما بوهيموند دى تارنتو لم يبلغ شيئا في بيزنطية). غير ان هذا الفشل اسعر حمية الكونت كثيرا. ورغم تقدمه في السن (وكان قد تجاوز الخمسين كثيرا)، كان اول من استجاب لخطاب البابا اوربان الثانى في كليرمون.

يصف مدون الاخبار بودرى دى دول وصفا معبرا المشهد الذى جرى في كليرمون بعد خطاب البابا. فقد ظهر هناك رسل ريمون دى تولوز،واعلنوا امام الملأ عن رغبة الكونت فى الدفاع عن قضية الايمان المسيحى استجابة لنداء الكرسى الرسولي. ولكن ما قام به رسل الكونت الفرسان في كليرمون لم يكن سوى مشهدية مؤثرة ظاهرية. فان الكونت ريمون دى سانجيل، كما يسميه في المعتاد مدونو الاخبار، كان قد تجند في عداد المشتركين في الحرب الصليبية قبل زمن طويل من اعلانها رسميا. وكان ريمون الرابع يقوم بكل اعماله وتصرفاته بالاتفاق مع البابا اوربان الثاني؛ وقد تلاقى معه، كما نعلم، في كاتدرائية كليرمون. وفى البدء، كان البابا قد اعتزم حتى تعيين الكونت رئيسا للقوات الصليبية، ولكن التخوف من

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

العطب والهلكه، وذلك انه حمل نصر الدوله على قتل الخليفه بقوله له: ان الناس قد استباحو عرضك وصار لهم فيك حديث قبيح بما سمعوه من خلطتك بالظافر فباى شي يكون منك مما يقولون. وضحك عباس، فقال له نصر الدوله: انت تضحك اني اخاف عليك ان لا ترجع تضحك. فتوهم منه انه يعنى قتله ولم يخطر بباله الداهيه التى عملها من قبل الخليفه، ولما كان ليله ذلك

اثارة استياء الاسياد الآخرين، المفعمين بالطموح، المشتركين فى الحملة، حال دونه ودون تحقيق عزمه.

استعد ريمون الرابع سنة بكاملها للحملة. فقد كان يسعى إلى ان يثبت قدميه، ويستقر فى الشرق، بانشاء امارة له هناك.

سار تحت راية ريمون دى سانجيل، كونت تولوز المئات ولربما الآلاف من الاقطاعيين المتوسطين والصغار من فرنسا الجنوبية ـ من بورجونيا وجاسكونيا واوفرنيه. وبروفانس وغيرها من المقاطعات، بمن فيهم بضعة اساقفة. ومن بين كبار الاحبار، برز نائب البابا (القاصدالرسولى) اسقف مدينة بوى، اديمار. فقد عهد اليه بالسهر على مصالح البابوية السياسية اثناء الحملة. ولكن خادم الرب هذا كان في الوقت ذاته محاربا محنكا يروى مدون الاخبار ان اسقف بوى كان يرتدى خوذة الفارس ودرعه ويتسلح باسلحته ويقاتل الاسياد المجاورين الذين يعتدون على املاك الكنيسة. وكان يجيد استعمال السلاح، وكان، كما يقول يجيد ركوب الخيل. ولكنه لم يكن بمقدوره ان يأخذ على عاتقه واجبات القائد العسكرى للمقاتلين الصليبيين. فان اديمار، اسقف بوى مثله مثل ممثلين آخرين ارسلهما البابا اوربان الثانى ايضا الى الصليبيين، لم يقم الا بدور الرئيس الروحي للصليبيين، وكان يؤدى بعض الوظائف التنظيمية.

اليوم دخل قصر الخليفه على جارى عادته وقعد
عنده ساعه ثم ساله المشى معه والفرجه على
العوام متنكرين فخرج معه من باب الزهومه ووقفا
عند دكان الفقاعى الذى مقابله وشربا منه فقاع
ومشيا، فساله ان يمضى معه الى داره الذى فى
السيوفيين يقعد ساعه ويعود، فمضى معه وكان
الخليفه متنكر ببرده ملتف بها وكان معه استاذين،
فلما حصل معه فى مجلسه وقعد عنده ساعه امر

تحركت قوات فرنسا الجنوبية عبر جبال الالب وبمحاذاة بحر الادرياتيك، وتجنبت استريا ودلماسية، ثم واصلت سيرها على طريق اغناطيوس نحو العاصمة البيزنطية.

وفى الوقت نفسه تقريبا ركب فرسان فرنسا الشمالية والوسطى خيولهم. وقبل الجميع، انطلق هوج فرمندو (Vermandois) الشقيق الاصغر لملك فرنسا. فيليب الاول، الفارس المغرور، الذى لم يكن يملك سوى كونتية صغيرة جدا، كانت دوطة (صداق) زوجته ،ولذا كان يسعى بمثابرة وعناد وراء السلطة والثروة. وقد جمع فصيلة غير كبيرة من اتباعه واتباع الملك، وانطلق فى اغسطس ١٠٩٦ الى ايطاليا. وفى الطريق، عرج على روما، حيث سلمه البابا راية القديس بطرس؛ هذه الراية كان القصد منها ان ترمز الى تطلعات الكونت الدينية. ومن بارى سافر بحرا الى سواحل بيزنطية، الا ان هذا المغامر المنحوس لم يحالفه الحظ منذ الخطوات الاولى بالذات؛ فان العاصفة قد حطمت مراكبه عند سواحل الادرياتيك الشرقية، وهلك كثيرون من الفرسان والمجدفين؛ وهوج ذاته، كما تقول حنة كومنينة، قذفته الامواج الى ساحل بجوار دراتش.

بعد فترة وجيزة، انطلقت الجموع المسلحة للفرسان الفرنسيين اللجبة بقيادة روبرت، دوق نورمنديا، وايتيان كونت بلواوشارتر، المتزوج من اخت الدوق اديل، وروبرت كونت الفلاندر (ابن الحاج المذكور سابقا، روبرت الاول من فريزيا).

واحد من اصحابه خنقه بمنديله حتى مات، ثم قتل الاستاذين ورماه في بير معين، ورما الاستاذين فوقه ثم اردم البير وبلطها حتى لم تصير تعرف. وكان ذلك بتاريخ التاسع والعشرين من المحرم سنه تسع واربعين وخمس مايه[٨٧٠ قبطية= ١١٥٤م]، واخفى امرهم عن الناس فاظهره الله وانتقم لهم، وذلك انه مضى لابوه عباس واعلمه بما فعله، فخاف ان يقومو عليه العوام ويخرجوه

كان روبرت النورمندى، الملقب«بالسراويل القصيرة»، والابن البكر لغليوم الفاتح، في احوال حرجة جدا. كان يقاتل على الدوام ضد اخيه ملك انجلترا، غليوم الاشقر، وكان ينازعه عبثا على حقوقه في العرش. وكاد«السروايل القصيرة» يخسر نورمنديا ذاتها. وجاءت الحملة الصليبية تخلصه من جميع المشاكل والمخاصمات، وتعده بفتح البلدان المقدسة.

وكانت دوافع مختلفة، دنيوية وعادية تماما، تدفع الى الاشتراك في الحملة الصليبية، ايتيان، كونت بلوا دى شارتر، الميسور جدا، ولكن الطامح الى اكثر، وان يكن صغير النفس للغاية،وكونت الفلاندر روبرت الثاني. ولم ينضم الى دوق نورمنديا اتباعه الفرنسيون وحسب، بل انضم اليه بارونات وفرسان من انجلترا واسكتلنده. كذلك التحق عدد لا يستهان به من الصليبين بقائدين آخرين. فعند كونت الفلاندر، مثلا، كان زهاء الف تابع؛ وقد اشترك كثيرون منهم في الحملة الصليبية.

جميع هذه الجحافل الفرنسية الانجليزية عبرت جبال الالب ووصلت في نوفمبر ١٠٩٦الى ايطاليا حيث بقى معظمها لقضاء الشتاء. وفي لوكا، تقابل روبرت النورمندى وروبرت الثانى من الفلاندر، وايتيان دى بلوا «وغيرهم من جماعتنا ممن ارادوا مواصلة طريق الحرب المقدسة ثم انطلقوا بحرا الى دراتش، ومن هناك على طريق اغناطيوس الى القسطنطينية».

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

من الملك، والذى خاف منه وقع فيه وكان تدميره فى تدبيـره، وذلك انه اصـبح ركب الى القـصـر واحـضـر زمـام [قـائد حـرس] القـصـر وطلب ان يستاذن الخليفه عليه، ولم يكن عند زمام القصر ولا غيره علم من خروج الخليفه ولا ما جرى عليه، فدخل يطلبـه فلم يقدر عليـه فاخـذ عبـاس زمام القصر وطالبه به فحلف وكثر الايمان انه لم يعرف له مكان، فقـال له: احـضـر لى اخـوته ليلا [لئلا]

وهكذا، بسبل مختلفة، ولكن بدوافع واحدة تقريبا، انطلقت فى الحملة الصليبية فصائل الفرسان والامر اء، ومعها جموع ضخمة جديدة من الفقراء الذين كانوا يأملون فى مصير افضل فى البلدان البعيدة.

كان الفرسان مهيئين للحملة افضل بما لاقياس له من جموع النازحين من الفلاحين التى سبقتهم. فقد تزودوا للطريق. وكثيرون رهنوا أو باعوا عقاراتهم واملاكهم الأخرى. وعقد جودفروادى بوين صفقات مع اسقف لييج واسقف فردان، فقد باعهما مقابل ٣آلاف مارك فضى بعضا من ضيعه، بل انه رهن عند اسقف لييج قصر بويون السلالى، المتوارث أبا عن جد. والشئ، نفسه فعله ريمون دى تولوز وعدد من انصاره المقبلين من لانجيدوك ببعض ممتلكاتهم. كذلك روبر، دوق نورمنديا، اختطف ١٠آلاف مارك فضى من اخيه المتوج؛ وبحثا عن هذا المبلغ، فرض هذا الملك بدوره ضريبة استثنائية على رعاياه بالذات بمن فيهم رجال الدين، فاعرب هؤلاء عن تذمرهم. ثم ان الاقطاعيين من مرتبة ادنى باعوا هم ايضا حقوقهم (الحقوق القضائية، حقوق الصيد) ورهنوا الاموال غير المنقولة.

ان رهبان كلونى الذين كانوا يذمون ببلاغة وبالاقوال الجشع والطمع، لم يكونوا ضد اكثار ثروات اديرتهم على حساب الصليبيين. كذلك حاول الاساقفة ورؤساء الاديرة فى اللورين

يكونو قتلوه. فدخل القصر واحضر له يوسف وجبريل اخوته وصلح [صالح] ابن حسن اخوه، فطلبه منهم وادعى عليهم انهم قتلوه، وامر اجناده يقتلوهم فقتلوهم وقتلو زمام القصر ونهب مجلس القصر الملك بيد اصحابه وقتلهم جميعهم في قاعه باب الذهب، واخذ ولد الخليفه وهو طفل صغير وكان اسمه عيسى فاجلسه خليفه في سلخ المحرم

وفرنسا الجنوبية وغير ذلك من المقاطعات، ان لايفوتوا الفرص السانحة؛ فقد كان الصليبيون بحاجة الى النقود، بينما هبطت اسعار الاموال غير المنقولة. فاشترى احبار الكنيسة بالرخص ضيع الاسياد والفرسان الذين اعتزموا الذهاب الى الحرب الصليبية. وهكذا، كما قال المؤرخ الاميركي دانكلف، قامت الكنيسة ببزنس جيد في المشتريات وفي رهن ممتلكات الصليبيين لقاء النقود.

تزود الفرسان بالنقود الرنانة، واهتموا في الوقت نفسه بالسلاح. كانت اسلحة القوات الاقطاعية عتادها ارقى بكثير مما لدى الفلاحين. كان لكل فارس سيف قاطع من الفولاذ ذو حدين. واحيانا كانوا يستعملون السيف من هذا النوع للاغراض الدينية. فان العارضة التي تفصل القبضة عن الشفرة كانت تضفي على السيف شكل الصليب وكان بوسع الفارس، بغرز السيف في الارض، ان يصلي امامه. كذلك كان للفارس رمح خشبي ذو سنان معدنية، شكله في المعتاد بشكل المعين. وكان الرمح علاوة على الغاية المباشرة منه ـ طعن العدو ـ يؤدي وظيفة معاونة؛ فتحت السنان كان الفارس يعلق راية ذات اشرطة طويلة تخيف حصان العدو اذ ترف وتخفق اثناء ركض الحصان. كذلك كان الدرع (المستدير او المستطيل) الخشبي الملبس بصفائح معدنية من ضروريات سلاح الفارس. وكان الفارس يمسكه أثناء القتال بيده

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

سنه تسع واربعين وخمس مايه الهلاليه، وانعتوه بالامام الفايز.

ولم يزل عباس مستمر فى الوزاره الى ان نافق عليه امير يسمى طلايع ابن رزيك، كان والى البهنسى والاشمونين من اعمال الصعيد، انفدو له نسا من القصر شعورهم فاخذها وجعلها على رماح، وعمل رايات سود وحشد حشود كثير من راجل وفارس ووصل الى القاهره فى اليوم الرابع

- -

اليسرى. وكان الفارس يغطى رأسه بخوذة، وجسمه بصدرة مزرده (مزدوجة احيانا) او بدرع. وكان يغطى كلا من ركبتيه بواقية جلدية أو يحتذى حذاء مزودا بصفائح معدنية. وكان الفارس يبدو بكامل اسلحته اشبه بقلعة متحركة على حصان. وعلاوة على الاسلحة والاعتدة كان الفرسان يأخذون معهم كلاب الصيد والاقفاص مع الصقور (لأجل الصيد فى الطريق).

كذلك كانت البنية التنظيمية لقوات الفرسان اصح نسبيا (بالقياس الى ما كانت عليه عند الفلاحين). ومع ذلك لم تكن البتة، منذ بداية الحملة حتى نهايتها، عبارة عن قوات موحدة. فلم يكن ثمة قادة، لا كبار ولاصغار، معينون رسميا من قبل احدما، ولم تكن ثمة قيادة واحدة، مشتركة للجميع. ولم يكن يخطر فى بال احد ان يرسم خطة عامة، مشتركة ما للحملة، او ان يقرر على الاقل مسيرة دقيقة لاجل الفصائل. وكان قوام مختلف الواحدات المتجمعة عفويا حول اشهر الاسياد يتغير لان الفرسان كانوا غاليا ما ينتقلون من قائد الى آخر بأمل الحصول منه على هذه الفوائد او تلك.

وهذه العساكر اللصوصية المزينة بالصلبان على صدورها بدأت تنهب وتغتصب قبل ان تصل الى القسطنطينية. فان الفرسان اللورينيين قد امضوا ثمانية ايام بكاملها فى اعمال النهب

عـشـر من ربيع الاول سنه تسع واربعين وخـمس مايه. وعند وصوله الى القاهره خرج عباس ونصر ابنه وجماعه اصحابه وقد اوسق كلما له وكلما نهبه من القصر على البغال والجمال والخيل وخرج من القاهره طالب الشام، فاجتمع عليه الافرنج والعربان فاخذوكلما معه ولم يزل يحمل فيهم هو وولده ويقتل حتى قتل واسر ولده. واما طلايع ابن

والسلب في تراقيا السفلي؛ وكانت الذريعة لمقاتلي جودفروا دى بويون النبأ القائل ان هوج فرمندوا اسير عند الامبراطور الكسيوس. ونكل الفرسان النورمانيون التابعون لبوهيموند من تارنتو تنكيلا قاسيا بسكان ابيروس ومقدو نيا وتراقيا. ويعترف فارس مجهول دون الاخبار وكان في هذه الفصيلة بانهم كانوا ينتزعون من السكان كل ما يجدونه . وبين مدينة كاستوريا ونهر فاردار، دمر النورمانيون مدينة بكاملها فقد كان يسكنها الهراطقة فى ايام بولس الرسول وكان ذلك كافيا لابادتهم عن بكرة ابيهم.

كذلك تميز مرور صليبيي كونت تولوز عبر دلماسية باعمال لصوصية لاتقل وحشية. فان مدون اخباره كابيالانه دى اجيل، يروى في مؤلفه«تاريخ الفرنجة الذين استلوا على القدس» كيف ان سكان دلماسية (سلافونيا)، «البلد الصحراوى والجبلي والخالي من الطرق، الذى لم نر فيه طوال ثلاثة اسابيع لاوحوشا ولاطيورا»، قد رفضوا ان يبيعوا الفرسان شيئا ما وان يعطوهم الادلة، وانهم كانوا يفرون من القرى لدن اقتراب الفرسان، وكانوا يتخفون، في المغاور الجبلية والغابات الكثيفة، حيث «لم يكن من السهل على فرسننا المسلحين ان يطاردوا قطاع الطرق هؤلاء غير المسلحين» – هكذا ينعت مدون الاخبار من بروفانس (فرنسا الجنوبية) سكان دلماسية المسالمين.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

رزيك فاخلع عليه للوزاره فركب الى القصر وعقدو
له عقد الوزاره وطوقوه به وكتب ووقع ونفد امره،
فركب الى دار ابن عباس ومعه جماعه من الامرا
والاستاذين وقاضي القضاه وداعى الدعاه وقدامه
صدور ذهب وفضه فيها مباخر مملوه عود وعنبر،
واستاذ صغير كان لابن عباس كان حاضر قتل
الخليفه والاستاذين ورميهم البير، فحدثهم بخبرهم
ودلهم على موضعهم، فحفروه وطلعو بهم منه

اما فى الواقع، فان الصليبين انفسهم كانوا بالطبع قطاع الطرق. فقد كسب ريمون دى تولوز لنفسه سمعة مؤسفة، مخزية فى دلماسية بوحشياته: فذات مرة (وكابيللانه يروى الحادثة بدون اطراء ومديح) امر بسمل عيون ستة من الدلماسين اسرهم الفرسان وبتر انوفهم ، وقطع ايديهم وارجلهم. وفى مدينتى روسا وريدستو فى تراقيا، استحصل فرسان الكونت ريمون دى سانجيل، كما يقول مدون الاخبار ذاته ريمون دى اجيل، على غنيمة هائلة. فقد هاجموا مدينة روسا مطلقين الصيحة القتالية «تولوز! تولوز!» واقتحموها واعملوا بسكانها قتلا وذبحا.

ان تقدم الصليبيين فى شبه جزيرة البلقان قد رافقته اعمال النهب والسلب بلاحسيب ولارقيب. ولكن هذا لم يكن سوى البداية . فان الصليبيين سيظهرون فيما بعد بكل قباحتهم وسفالتهم ووحشيتهم.

الصليبيون فى بيزنطة

قلق الامبراطور الكسيوس الاول وحاشيته اقصى القلق من الانباء القائلة ان الغرب كله، وجميع قبائل البرابرة، وجحافل الفرنجة التى لاعد لها تتجه الى القسطنطينية. ان زحف هؤلاء «المخلصين» المندفعين صوب الشرق بنوايا الفتح، كان من الممكن ان يكون فادح الخطر على بيزنطة؛ ذلك ان عدد الصليبيين لم يكن يقل عن ١٠٠ الف. ناهيك بانه كان بينهم قادة

وحـملوهم الى القـصـر غـسلوهم وكـفنوهم ودفنوهم.

واسـتقـر طلايع ابن رزيك فى الوزاره وانعتـوه بالملك الصـالح وكـان مـحبـا لجـمع المال واهلك نفـوس كـثيـره فى المطالبه بالمال وجـمع منه شى كـثيـر من غيـر وجـوهه، وكـان يقـرب الرفـاعين [المنجمين] ويحسن اليهم ويسمع اقوالهم، مبغضا للنصـارى وبعض مـذاهب المسلمين، لان مـذهبـه

- -

معادون من قـديم الزمان لبـيـزنطة، من امثـال بوهيـموند وانصـاره، وكـانوا، كـمـا قـالـت حنة المذكورة اعلاه، يتحرقون من قديم الزمان للاستيلاء على امبراطورية الروم. ان الكاتبة البيزنطية حنه تتخـذ مـوقـفـا احادى الجانب، اذ افـترضـت ـ وغنى عن البـيـان ان هذا الرأى كـان واسع الانتشار فى الاوساط الحكومية البيزنطية ايضا ـ أن «الكونتات وبخاصة بوهيـموند كانوا يكنون عداوة قديمة للامـبراطور وكانوا يترصـدون الفرصـة السـانحة للانتقام منه لذلك النصر الباهر الذى احرزه على بوهيموند الذى تقاتل معه فى جوار لاريسا» (سنة ١٠٨٣).

قابل الامبراطور الكسـيوس الاول الصليبيين بالحذر وعدم الثقة. واتخذ التدابير لاجل تجنيب الممتلكات البيزنطيـة التى تمر بها الجمـوع المسلحة للفرسان انفلات اللاتينيين قدر الامكان. فصدر الامر الى فـصائل قبائل البتشينيغ العاملة فى خدمة الامبراطورية، كما تفيد حنة كومنينة ، بان «تتبع وتراقب البرابرة ، وتطلق النار على فصائلهم وتطردها اذا ما شرعت تهاجم وتنهب الاراضى المجاورة» . وهذا الامر جرى تنفيـذه بكل دقـة، الامـر الذى يحكى عنه مـدونو الاخبـار اللاتين بامتعاض.

الا ان الامبراطور الكسيوس الاول، رغم خوفه من المقاتلين الصليبيين ورغم اقامته مختلف العراقيل فى طريقهم، ولم يكن الامبراطور ضد استغلال قوات القادمين من الغرب فى مصلحة بيزنطة. فقرر ان يستميل زعماءهم الى حلف يمين التبعية الاقطاعية له عن جميع الاراضى التى

كـان امـامي [شـيـعي]. و أمـر ان لا يكون لعـمـايم النصارى ولا اليهود دوايب(*). وكان الغلا في اول سنه من وزارته وابيع القمح فيها بخمسه دنانير الاردب مده اربع شهور لا غير، ثم تراخت الاسعار في طول مده وزارته، وكان سعر الغله لا يثبت على حال بل يزيد وينقص من اردبين بدينار الى الى اردب الى نصف اردب بدينار، فظهر في ايامه موت البقر بالريه [طاعون الماشية](*) ولم يكن عرف

(*) كانت العمامة ذات الذوائب خاصة بالفاطمين فقط.

(*) ظهور طاعون الماشية بمصر لأول مرة.

سيستولي عليها الصليبيون والتى خسرتها بيزنطة من قبل نتيجة لنجاحات السلجوقيين وسائر الشعوب الشر قية: اى آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين. ولكى يجعل الامبراطور زعماء الفرسان اسهل للانقياد، بدأ (حتى عندما كان الصليبيون لايزلون يعيثون فسادا فى البلقان) يسدد اليهم ضربات محسوسة بوساطة خيالة البتشينيغ. وقد هزم البيزنطيون فى جوار ريدستو بضعا من فصائل ريمون دى تولوز؛ وقد فر الصليبيون من ساحة الوغى رامين السلاح والحمولة.

وفى الوقت نفسه، بدأت الديبلوماسية البيزنطية تعمل بكل مهارتها وفنها؛ وكان البيزنطيون اساطينها الذين لايضاهيهم احد. فقد ارسل الامبراطور الى لقاء فصائل الصليبيين موظفيه، وامرهم، كما كتبت حنة كومنينة، بان «يقابلوا بمودة الذين عبروا البحر (بحر الادرياتيك) ويضعوا فى طريقهم وفرة من احتياطات المؤن». وعندما قذفت العاصفة البحرية فى نوفمبر ١٠٩٦ الى الساحل هوج فرمندوا ونقلوه إلى القسطنطينية، استقبله الكسيوس الاول، كما تروى ابنته. «باجلال واعرب له بجميع الوسائل عن عطفه، واعطاه الكثير من المال، واقنعه فى الحال بان يصبح تابعا له، ويقسم له اليمين العادية عند اللاتين».

ولكن فرض علاقات التبعية على سائر قادة الصليبيين كان من ذلك اصعب. فعندما اقتربت فصائل جودفروا دى بويون من اللورين ومن المانيا فى ٢٣ (ديسمبر)١٠٩٦ من

قبل ايامه بمصر، وتردد ذلك وقت بعد وقت في سنين مختلفه حتى صار الناس يحرثو على الخيل والجمال والحمير.

وبعد هذه الامور مات الامام الفايز في ايام وزارته في شهر رجب سنه خمس وخمسين وخمس مايه الهلاليه [٨٧٦ قبطية = ١١٦٠م] وجلس بعده عبدالله ابن يوسف ابن الحافظ وانعتوه بالامام العاضد، ثم ان الصالح ازوجه ابنته على

القسطنطينية، واقامت معسكرا لها في جوار مدخل خليج القرن الذهبي، نشأ وضع نزاعي حاد. فقد تهرب الكونت من حلف اليمين التبعية الاقطاعية للامبراطور البيزنطي رغم ان هوج فرمندوا نفسه استماله الى ذلك باسم الامبراطور. آنذاك، طرح الكسيوس الاول الملابسات الديلوماسية جانبا، وطوق معسكر جودفروا بخيالة البتشينيغ.

في ٢ (ابريل) ١٠٩٧، وقع اشتباك بين فصائل الامبراطور وفرسان اللورين؛ فقد انهال عليهم قواسو الكسيوس الاول من اسوار القسطنطينية بوابل من الاسهم. صحيح ان الامبراطور، كما تزعم حنة كومنينة، امر «بالتصريب الصوري أي من أجل تخويف اللاتين وحسب، ولكن معركة حقيقية نشبت، كما يتبين من وصف حنة كومنينة نفسها اللاحداث:»درات رحى معركة ضارية ورهيبة؛ فبعناد قاتل الفرسان خارج المدينة وقاتل الذين وقفوا على الاسوار. وزج الامبراطور في المعركة بقواته الخاصة وحمل كتائب اللاتين على الفرار».

منى الصليبيون بهزيمة شنعاء، فاضطر جودفروا دى بويون الى التراجع والتنازل، وحلف اليمين التى طلبها منه. ويستفاد من شهادة البرت من آخن ان الكسيوس مضى حتى الى تبنى تابعه الاقطاعي الجديد، وفقا للعادات البيزنطية، وخصصوا له الكثير من الاموال، وأقاموا على شرفه المآدب الفاخرة ثم نقلوه بتسرع عبر البسفور. و من جديد صدر الامر بتأمين الوفرة من

كره منه واستمر الصالح فى الوزاره الى يوم الاثنين
الثامن عشر من شهر رمضان سنه ست وخمسين
وخمس مايه الهلاليه [٨٧٧ قبطية = ١١٦١م]،
ركب الى القصر على جارى العاده فعرض له فى
دهليز العمود وهو خارج من عند الخليفه رجل من
صغار الاجناد واحقرهم يعرف بابن الراعى ومعه
رجلين من السودان احدهما يسمى مقبل، فنخسه
ابن الراعى بسيف فى بطنه اخرج امعاه ثم ضرباه

شتى المؤن للصليبيين الذين انطلقوا من خلقيدون فى الطريق الى نيقوميديا ونصبوا مخيمهم فيما بعد فى يليكان.

كان للتسرع فى عبور البوسفور اسبابه؛ فان الكسيوس لم يشأ ان يسلم باقامة جميع فصائل الصليبيين فى آن واحد بجوار القسطنطينية ، اى باقامة تجمعات المقاتلين البرابرة الذين كانوا يهددون باحباط مشاريعه.وقد تخوف الامبراطور على الاخص من قوات عدو بيزنطة المزمن، قائد النورمانيين الايطاليين الصقليين بوهيموند بالذات، فى الآونة الاولى على الاقل، هو الذى تسبب للامبرطور باقل عدد من المشاكل والهموم. فقد وصلت فصائله الى القسطنطينية فى ٩ (ابريل) ١٠٩٧ ، وبما انه «فهم وضعه»،كما تقول حنة كومنينة، فقد وافق بدون تردد ودون مماطلة على ان يصبح من اتباع الكسيوس الاول.

وبديهى ان الامبرطور اضطر كذلك الى التنازل عن شئ ما؛ فمع عدو غدار من طراز بوهيموند كان ينبغى التصرف باحتراس وبعد النظر. ان مدون الاخبار النورمانى الذى اطرى مآثر بوهيموند فى الحملة الصليبية، قد كتب فيما بعد ان بطله اخذ الصليب بدوافع الروح الدينية لاعتبار الحملة على الشرق «حربا مقدسة». اما الامبراطور الكسيوس كومنينوس ، وهو ابعد نظرا، فقد حكم على نوايا القائد النورمانى حكما اصح من حكم مداحية الغربيين؛ فاثناء المفاوضات بشأن يمين التبعية الاقطاعية، وعد، كما يعترف مدون الاخبار نفسه، بان يمنح

الرجلين بسيوفهما فجرحوه في عده مواضع في جسده، وكان قد اصبح متخوم فحمل الى داره قتيلا، ومات في النصف من الليل.

وجلس بعده ولده رزيك وانعتوه بالاجل مجد الاسلام. وكان الصالح قد ولى امير ينعت بالمكرم واسمه شاور ولاه مدينه قوص واعمالها. وكان [للصالح] ابن اخت اسمه حسام ونعته عز الدين. هذا كانت اراده الله ان تزول دولتهم على يديه

بوهيموند ارضا على مقربة من انطاكية «طولها ١٥ يوما مشيا وعرضها ٨ ايام». ان هذا الوعد قد طاب بقدر ما للقائد النورماني، الذى كان، كما يكتب ريمون دى اجيل، «يتحرق بدافع الغرور والطموح الى ان يصبح امير مدينة انطاكية»، رغم انه كان يطمع في اكثر من ذلك. وسعى بوهيموند الى نيل لقب «دومستيك الشرق الاعظم»اى لقب قائد جميع القوات المسلحة البيزنطية فى آسيا ولكن طلبه قوبل بالرفض.

ومهما يكن من امر، فقد عقدت الصفقة. ولكن الباحث النورماني عن الغنائم لم يعلق اية اهمية على يمينه، رغم انه اغدق بالتأكيدات الودية («جئت اليك كصديق لجلالتك»). الا ان الكسيوس الاول، مع اغداقه الوعود وانعامه على بوهيموند بالجواهر، احتفظ باليقظة والريبة حيال التابع الجديد،ولم يعتزم ـ كما بينت الاحداث اللاحقة ـ ان يأخذ على محمل الجد تعهدات القائد النورماني بوهيموند.

في اوخر ابريل انتقلت قوات امير تارنتو ايضا الى آسيا الصغرى.

في هذه الاثناء، ظهرت في جوار يدستو فصائل مهيبة بقيادة ريمون دى تولوز. كذلك اخذت تقترب من القسطنطينية فصائل اخرى من الفرسان. واحتشدت عند اسوار العاصمة قوات كبيرة جدا من الحجاج المسلحين. وعاشت المدينة اياما حافله بالقلق. إلا أن الكسيوس الاول لم يسمح لهم بدخول المدينة الا زمرا صغيرة. ولكن تدابير الاحتراز

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

فجعل فى قلبه بغضه شاور المكرم وعداوته، وكان خاله الصالح قد ولاه منيه بني خصيب فكان يمسك اصحاب شاور ورسله وغلمانه فى البر والبحر يضربهم ويهينهم ويعتقلهم ويجرى عليهم منه كل صعوبه والى امره مع شاور فى كل قبيح، فكتب شاور اليه دفوع كثيره يستعطفه ويطلب مسالمته ويقول له: انك مملوك دولة خاله وصنيعته. فجاوبه عن ذلك بان اخذ صندوق لطيف وعمل

هذه كانت قليلة الفعالية. فلم يكن من النادر ان تقع فى الشوارع مصادمات بين الروم والصليبيين. وقد بدا الفرسان النورمان للاريستقراطية البيزنطية متوحشين، وكأن القادمين حاولوا بسلوكهم ان يؤكدوا هذه السمعة؛ كانوا يتصرفون تصرفا فظا، متحديا، صلفا. فاثناء حفل استقبال فى القصر الامبراطورى، مثلا، جلس احد اصحاب الالقاب الجهلاء الغربيين على عرش الامبرطور . وكان الصليبيون ينهبون ضواحي القسطنطينية، وينتزعون من الروم المؤن . وما كانت تقدمه السلطات كان قليلا لسد نهم حشود الصليبيين الذين كانوا لايميلون إلى الانهماك فى الركوع والصلوات فى الكنائس وحسب، بل كانوا ايضا يتحرقون الى جميع ثروات المدينة العظيمة . لقد احدثت هذه المدينة فى نفوسهم انطباعا قويا؛ وليس من قبيل الصدفة ترك مدون الاخبار فولهير من شارتر الذى اشترك فى الحملة وزار القسطنطينية وصفا عنها حافلا بالتفاصيل الواقعية. وهذا الراعى التقى لايكل من الاعجاب من تعداد الهبات التى نالها الفرسان من الملك البيزنطى الذى اعطاهم «وفرة من كنوز ـ الالبسة الحريرية والخيول والنقود» .

كان الامبراطور، مع اخفائه مخاوفه بمهارة، يسير بثبات على خطة؛ فقد طلب من رؤسا الصليبيين ان يقسموا اليمين بان يعيدوا الى بيزنطية جميع المدن والاراضى التى يفلحون فى استراجاعها من السلجوقيين. وافق الكثيرون على الاستجابة لهذا الطلب. ورفض ريمون دى

فيه درتين جلود بقر مطبقه وانفدهم لشاور، فلما راهم قام وقعد وكان [كاد] يقتل نفسه. وكان شيخ داهيه خبير بالحروب والخداع والحيل والمكايد فشمر على ساق الاجتهاد ووطد نفسه على الحروب والجهاد وهيا العدد والاستعداد وانفق الاموال وحشد وجمع عسكرا يثق به، لان بنى رزيك كانو قد تملكو سنين كثير تقارب عشره، فكثرة اموالهم ورجالهم وقويت احوالهم. فلما علم

تولوز ان يحلف يمين التبعية الاقطاعية . معلنا انه اخذ الصليب لا لكى يصبح هو نفسه سيدا ولالكى يحارب من اجل احد غير الرب وحده؛ فمن اجل الرب، ترك اراضيه وثرواته. واضطر بوهيموند من تارنتو الى اقناع البروفنسى العاصى الذى لم يكن يتحلى بالمرونة النورمانية. ومع محاولة اقناع ريمون الرابع، ومع استشفافه فيه منافسا (ذلك ان كونت تولوز كان يجهد لكى يصبح القائد الاعلى لعموم القوات الصليبية)، كان بوهيموند نفسه يأمل فى كسب ثقة الامبراطور . ولكن محاولات الاقناع اخفقت.

واذ ذاك حاول الكسيوس الاول ان يلقن ريمون درسا بالقوة، باللجوء الى الاسلوب الذى عاد عليه بالثمار المنشودة اثناء المفاوضات مع غودفروا دى بويون. ولكن عبثا! فان كونت تولوز ـ كان، حسب تعبير احد المؤرخين ، تقيا ورعا مثل الراهب، وطماعا وبخيلا مثل النورماني، ـ يتخوف من ان يحرمه يمينه للامبراطور الاراضى التى كان الاستيلاء عليها هدفه الحميم.

وفى آخر الامر، وافق ريمون الرابع فى ٢٦ابريل ١٠٩٧ على تعهد مانع فقط، قوامه ان لايتسبب بضرر للامبراطور وحياته وشرفه. كان هذا اشبه بيمين التبعية الاقطاعية، لااكثر. ومع ذلك ارضت هذه اليمين المصطنعة الامبراطور الكسيوس الاول. وسرعان ما تقارب الامبراطور وكونت تولوز بوثوق؛ فان عدواتها المشتركة لبوهيموند من تارنتو كانت التربة لهذا التقارب.

انه لا يطيق قتالهم جمع اصحابه ومن كان معه من ثقات اهله واقاربه من اهل النصيحه والراى فشاورهم فى ان يندفع من قدام عسكرهم الى برية الواح ويجول فيها طولا وعرضاً بحيث لا يستقر به مكان، فاذا طال على من يطلبه عدم وجوده تفللت العساكر لفروغ الزاد ومشقه البلاد وحر الجبال ونكد الحال، ثم لا يقدر يتبعه الى برية الواح عسكر كبير لقلت الما وحر الهوى وقلت العشب

وفى آلاونة الاولى ابدى تنكريد، ابن اخى بوهيموند العناد والتشبث. ولكى يتجنب حلف يمين التبعية الاقطاعية، غير لباسه، وغادر القسطنطينية ليلا مع فريق من الفرسان وعجل فى عبور المضيق . ويقول راوول من كايان ان هذا الفارس المغامر تأسف اقصى الاسف لكون بوهيموند قد اقسم يمين التبعية والولاء للامبراطور البيزنطى ؛ لان الامير «مضى لكى يحكم فوجد نيران، راح لكى يرتفع ولكنه ساعد فى رفع غيره بينما انحط هو نفسه». وكان تنكريد يعتقد ان ممتلكات الروم السابقة فى الشرق، المتواجدة حاليا تحت حكم السلجوقيين، يجب ان تنتقل الى الصليبيين. وبما ان الروم فقدوا هذه الممتلكات بتسليمها للسلجوقبين، فلا داعى، بعد تثبيت الدين المسيحى هناك الى اعادة هذه الاراضى الى حماة بمثل هذا الضعف. ان اعادة المدن والقلاع الى الروم تعنى اعادتها الى الاتراك. تلك كانت وجهة نظر تنكريد.

وفى آخر المطاف كانت الغلبة لاحابيل البيزنطيين الديلوماسية على عناد القادة الصليبيين وجشعهم. فقد غدوا جميعهم تقريبا اتباعا للامبراطور الكسيوس الاول. وفى هذا المجال لعبت بالطبع دورها حيل الديلوماسى المحنك. فان ايتيان دى بلوا كتب باعجاب غير متصنع بسخائه ولباقته الى زوجته اديل عن اقامة الفرسان فى القسطنطينية: ان الامبراطور «يهدى امراءنا بفائق السخاء، ويخفف وضع الفرسان بالعطايا، يطعم الفقراء بالتوزيعات. ان ولدك ، ياحبيبتى

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

للدواب، ولكونها رمال وتلال لا شجره تظل ولا ثميره. فاشارو عليه بذالك فسار مع الحشود الى مغارة الواح فاقتصر من اصحابه على عشرين فارساً بخيلهم وجمالهم وزادهم وعدتهم، واخذ لنفسه جمال وخيل وبغال وزاد كثير وذهب ومال كثير لنفقته، وقماش يدفعه للعربان وسار. وكان الامر كما قال لما تبعته العساكر ثلثة شهور وهو يزوغ منها من مكان الى مكان لا يقع له على خبر

(غليوم الفاتح) قد وزع الكثير وعلى الكثيرين، ولكن من المشكوك فيه ان يكون وزع بالقدر ذاته» . ولكن امرا آخر كان يتسم باهمية كبيرة،، فقد اضطر الفرسان الى الاقدام على مساومة، لانه كان واضحا لابعد قادتهم نظرا ان نجاح الحرب ضد السلجوقيين يتوقف بقدر لايستهان به على العلاقات بين الصليبين وبين بيزنطة الباقية في مؤخرتهم. وغنى عن البيان ان اتباع الامبراطور الجدد كانوا يتذكرون الاوضاع السائدة في اوطانهم ، قد فهموا باغلبيتهم امرا آخر هو ان النسبة الفعلية بين القوى، وليس الشكليات الحقوقية، هي العامل الحاسم الذى يقرر مصير الفتوحات المقبلة.

معركة نيقية

في ابريل ومايو ١٠٩٧ ، نقلت فصائل الفرسان الى آسيا الصغرى.

دارت رحى المعركة الاولى ضد السلجوقين من اجل نيقية، عاصمة السلطان الرومي قلج ارسلان ابن سليمان. وكان الاستيلاء عليها شرطا ضروريا لتقدم الصليبين لاحقا بنجاح عبر منطقة الاناضول، التي كانت الطريق العسكرية اليها تمر بهذه المدينة. كذلك كان الاستيلاء على نيقية مهما بالنسبة لبيزنطة ايضا؛ فان الاسوار الجبارة في نيقية مع ابراجها ال ٣٠٠ كان عبارة عن استحكام قوى كان من الممكن ان يشكل، فيما اذا خسره السلجوقين، حماية مأمونة للقسطنطينية من اية اعتداءات من جانبهم.

تفللت العساكر ورجعت الى القاهره ولم تبلغ
مراد. وقالو عنه انه توجه الى الغرب عند امير
المومنين ملك الغرب [المغرب]، فلما غيب الظن
عنه مقدار شهرين اخرين هبط من برية الواح الى
بحيرة اسكندريه [مريوط] ومعه اصحابه، ومعهم
جمال عليها افراد خواص وعدى من محلة
عبدالرحمن الى الغربيه ونزل بظاهر بلقينه، وهي
قريه مجاوره للمحله مقدار ميل، في يوم الاحد

غادرت جحافل الفرسان بيليكان ونيقوميديا، واقتربت الواحد تلو الآخر فى ٦ مايو ١٠٩٧ من نيقية وشرعت تحاصرها. سدت فصائل جو دفروا دى بويون منافذ المدينة من الشمال، وسد نورمانيو تنكريد (وسرعان ما انضم اليه بوهيموند مسرعا من القسطنطينية)، منافذ المدينة من الشرق، وسد كونت تولوز الذى وصل فى ١٦ مايو مع رجاله من بروفانس منافذ المدينة من الجنوب. لم يكن تطويق المدينة كاملا؛ فقد بقى قسمها الجنوبى الغربى حرا؛ ومن هنا كانت تمتد بحيرة الى نيقية؛ وعلى الماء لم يكن ثمة شئ يقطع الطريق الى المدينة.

آنذاك، كما يروى المؤرخ الارمنى متى الرهاوى، كان السلطان قلج ارسلان ابن سليمان يحارب امير قبدوقية حسن دانشمند من اجل مدينة ملطية. وقد بوغت السلطان بنبأ محاصرة الصليبيين لمدينة نيقية؛ فى وقت قصير. ومع ذلك، وقع قلج ارسلان الصلح بسرعة مع حسن دانشمند واسرع الى الغرب.

فى ٢١ مايو وصل السلجوقيين الى مشارف المدينة من الجنوب؛ ودون ان يتوقفوا، انقضوا على مواقع البروفانسيين القتالية هناك. فهبت فصائل اللورين الى نجدة البروفانسيين. استمر القتال يوما بكامله. ولحقت خسائر كبيرة بالصليبيين (نحو ثلاثة آلاف رجل!) وخسائر اكبر بالسلجوقيين؛ وقد اضطر هؤلاء الى التراجع. وادرك قلج ارسلان انه لا جدوى من مواصلة

الشامن من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمايه هلاليه[٨٧٩ قبطية = ١١٦٢م]، واجتمع اليه اجناد الغربيه وعربها من بنى شيس. فلم يقيم ثلثة ايام حتى صار عنده عساكر واجناد وعربان يقارب عشرة الف فارس، فوقع [فأمر] للاجناد باقطاعات وامرا العربان ينهبو ما لبنى رزيك فى بلاد اقطاعهم من حواصل الغله والمعاصر والمواشى، وانعم على كل قوم بشى طيب قلوبهم. وسار حتى نزل على

بذل الجهود، فسحب قواته الى الجبال وترك المدينة للقدر. وابلغ حماة نيقية بان يتصرفوا مستقبلا كما يرون مناسبا.

هلل الصليبيون رغم ان اسوارا رهيبة كانت لاتزال تنتصب امامهم ورغم ان حامية نيقية كانت تصمد بصلابة. وقد تلقت الحامية مددا عبر البحيرة. ومع ذلك، كان النصر يبدو قريبا. وتروى حنة كومنينة ان السلت (هكذا تسمي اللاتين احيانا) ، «كانو ا يعودون (من ساحة الوغى) غارزين رؤوس الاعداء بالرماح وحاملينها مثل الرايات لكى يراها الاعداء من بعيد ويخافوا من هذه البداية ويقلعوا عن العناد فى القتال». ولكن هذه المظاهر المرعبة لم تسفر عن اية نتيجة. واذ ذاك حاول ريمون تولوز ان يحفر نفقا تحت احد الابراج بواسطة اساطين شؤون الحصار، محطمى الاسوارا وغيرهم ممن يستطيعون ان يصدعوا الابراج من اسسها بواسطة الادوات الحديدية. وهذه المحاولة ايضا لم تتكلل بالنجاح.

واخيرا فى ١٩ يونيو ١٠٩٧ ، شن الصليبيون هجمة مشتركة عامة. وكانت قد انضمت الى الفرسان قوات بيزنطية بقيادة الدوق مانوئيل فوتوميت؛ فقد ارسل الامبراطور الكسيوس الاول بضع سفن (نقلوها على العربات من نيقوميديا وانزلوها فى البحيرة) لاجل قطع حامية نيقية من الجنوب الغربي. كذلك ارسل قوات برية. وقد فعل الامبواطور ذلك بالحاح من الصليبيين انفسهم، وكذلك، على الاغلب، سعيا منه الى بلوغ اهدافه بالذات، مع تقديم المساعدة لهم.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

مسجد الخضر فعدى منه الى برا القاهره. فلما اتصل بمجد الاسلام ابن الصالح الوزير في ذلك الوقت خبر تعديته وانه قد قارب القاهره خرج هو وجماعه بني رزيك نصف الليل من القاهره هاربين، وذكر جماعه من اصحابهم انهم كانو يسمعو صوت جلبه وصياح خلفهم من كل جانب [يقول] «اخرجو اخرجو»، ثم يطلبو من يصيح فلا يجدو احد فعلمو انهم الملايكه بامر الله اخرجوهم.

انتهت المعركة بصورة لم يكن يتوقعها الصليبيون انفسهم. ففي اوج الهجوم، عندما اخذ الفرسان، كما تروى حنة كومنينة، يتسلقون الاسوار، سمح لوحدات الروم، بدخول المدينة؛ وفي الحال سدت الابواب امام الصليبيين. وعلى ابراج نيقية، خفقت الرايات البيزنطية. ولم يكن الصليبيون على علم باللعبة المزدوجة التي لعبها الامبرطور الكسيوس كومنينوس. فقد كان الامبراطور يدرك جيدا قيمة تعهدات زعمائهم التبعية، وكان يعتقد ان الصليبيين، ما ان يستولوا على المدينة، حتى يمتنعوا عن تنفيذ شروط المعاهدة مع بيزنطية، فاجرى مفاوضات من وراء ظهورهم مع قيادة الحامية السلجوقية. وقد وافق السلجوقيون على تسليم المدينة للبيزنطيين . ناهيك بانهم كانوا قدتلقوا تعليمات مناسبة من قلج ارسلان.

وهكذا استولى الروم ـ من وجهة نظر الفرسان ـ على نيقية بالغدر. وقد تبددت توقعات الصليبيين؛ فقد كانوا يأملون في غنيمة كبيرة وكذلك في فدية عن السلجوقيين المأسورين. وعوضا عن ذلك تفضل فوتوميت وسمح لهم بدخول المدينة (لكي يصلوا في الكنائس) جماعات كل جماعة من عشرة اشخاص. فقد كان، على حد قول حنة كومنينة، يعرف جيدا اخلاق السلت. وكانت قوات الروم تحمي المدينة. واشد ما اهان الصليبيين واغضبهم، ان عائلة قلج ارسلان والاعيان السلجوقيين سيقوا الى القسطنطينية، وانه سرعان ما اطلق سراحهم للالتحاق بالسلطان قلج ارسلان.

فخرجو من ابواب القاهره كل واحد منهم بنفسه فتركو اموالهم ومنازلهم وعيالهم فنهبوها السودان وذابو كالملح.

واما مجد الاسلام رزيك وزيرهم فانه اخذ خرج صغير عمل في ناحيه منه جواهر وياقوت وزمرد وشي كثير من هذه الاصناف وما يكون قيمته خراج ديار مصر سنه، وملا الناحيه الاخرى اكياس دنانير وجعله على حصان يسوى الف دينار من

وقد توقع الامبراطور الكسيوس كومنينوس استياء اتباعه الغربيين وتذمرهم، فاتخذ التدابير اللازمة لتهدئتهم؛ فتعويضا عن الخسائر التي لحقت بهم، اعطاهم الكمية الزهيدة من الفضة والذهب التي استولى عليها الروم في خزينة السلطان. ان الاستيلاء على نيقية كان يساوي تقاسم شئ ما مع البرابرة اللاتين. كتب كونت دى بلوا الى زوجته:«جميع الاشياء النفسة مثل الذهب والالماس والفضة والالبسة والخيول وما شابه كانت من نصيب الفرسان؛ اما المأكولات فمن نصيب المشاة. ان شهامة الكسيوس كومنينوس ازاء السلجوقين، وازدواجية ساسته قوضتا ثقة الصليبين في حليفهم. ومذ ذاك طفقوا يعتبرونه خائنا للقضية المسيحية.

ان معركة نيقية قد كانت في تاريخ الحرو ب الصليبية المعركة الوحيدة التي انتهت وفقا لخطط بيزنطية. واستغلالا للنصر في نيقية حاول الامبراطور الكسيوس الاول ان يعزز سلطته قبل كل شئ في الاراضي المجاورة للقسطنطينية. وبقدر ما كان الصليبيون يتوغلون في الشرق وبقدر ماكانت الاوساط الحاكمة في الامبراطورية تفكر اقل فأقل في تقديم العون للصليبين، بقدر ما كانت تتقلص امكانيات تحقيق خطط الامبراطور الواسعة المر تبطة بالحملة الصليبية. وبعد الاستيلاء على نيقية، سحب قسم كبير من قوات الروم المسلحة الى العاصمة؛ ووراء ستار الصليبين المندفعين الى الامام، شرع الكسيوس الاول يستعيد الاراضي البيزنطية على

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

خيله وركبه وخرج من القاهرة من باب زويله وحده ولم يصحبه احد، فلم يعرف اين يروح وسار متوجه الى قبلى مصر فوقع فى فريق عرب لرجل مقدم منهم يسمى يعقوب ابن البيض فاخذوه عبيده وعروه واخذو الحصان وكلما عليه ومضو عنه وتركوه، فبقى وحده فى البريه عريان حاير وكان شتى [شتاء] وبرد شديد فى شهر طوبه، فراى نار من بعيد فتبعها فلما قرب منها

الساحل الغربى والساحل الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ومن بينها فى المقام الاول مقاطعة امارة ازمير(سميرنا). ولم يبق من الصليبيين سوى فصيلة مسلحة صغيرة من الروم بقيادة البريميكير (لقب عسكرى بيزنطى) الاعظم تتيكيوس.

عبور آسيا الصغرى

فى ٢٦ يونيو ١٠٩٧، اتجه الصليبيون من نيقية فى جيشين (احدهما اثر الآخر على مسافة يوم واحد تقريبا من السير) نحو الجنوب الشرقى. وبدأ زحف بالمشقات والمصائب والحرمانات عبر المناطق الداخلية من آسيا الصغرى. ناهيك بان الخطر المشترك حمل قلج ارسلان على التصالح وحتى على الاتحاد مع الذين كانو ا اعداءه منذ وقت غير بعيد ـ امراء قبدوقية. وفى ٣٠ يونيو رابطت القوات السلجوقية فى وادى نهر غير بعيد عن ضورليوم (دوريله)، بانتظار العدو.

وفى اول يوليو اشتبكت قوات السلجوقيين المتحدة التى شغلت ليلا مواقع على التلال المجاورة للصليبيين. فقد هاجمت مخيمهم فى الصباح الباكر، منقضة على الوحدات الامامية التى يقودها بوهيموند دى تارنتو وروبرت السراويل القصيرة. وانهال السلجوقيون على الصليبيين بوابل من الاسهم من جميع الجوانب. صد بوهيموند الهجوم. واخذت المعركة

جرت عليه كلاب الفريق [القبيلة] فقعد على الارض وحبى على يديه ورجليه حتى دخل طرف الفريق، فوجد كلب راقد في الرماد فرقد بجنبه وضمه اليه حتى وجد سخونته، فسبحان الله مزيل النعم وعظيمة قدرته واعوذ به من سخطه، هذا رزيك كان اول الليل عزيز مصر وسلطانها جالس في مجلسه يامر وينهى الى العتمه، سلب من ملكه وبان من نعمته وخرج هاج على وجهه لقيه من

تكتسب طابعا اقسى فاقسى. ونحو منتصف النهار، وصلت طليعة القسم الثاني من جيش الفرسان، السائر في الاثر؛ وكان برئاسة ريمون دى تولوز، الذى ارسلوا اليه منذ الصباح رسولا ينبئه بالخطر والكونت هوج فرمندوا يأمران الطليعة التي اسرعت الى النجدة. وفي الحال،دخلت المعركة. وبعد فترة وجيزة وصلت بقية القوات؛ والى مقاتلي بوهيموند انضم البروفانسيون. وهكذا صار التفوق في العدد الى جانب الصليبيين. واستطاعوا ان يزحزوا العدو كثيرا. وتبين ان السلجوقيين الواثقين في الهجوم لم يكونوا مستعدين للدفاع.

وقد اثرت الاعمال التي قامت بمبادرة من اديمار دى بوى، نائب البابا، تأثيرا لايستهان به في مآل المعركة. فقد تسلح هذا الاسقف بدبوس وانقض بصورة مفاجئة على السلجوقيين من المؤخرة. واذا السلجوقيون، وقد اشتد عليهم الضغط من جانبين، يولون الادبار بخوف وذعر، بل انهم تركوا كل المعدات وحتى خيام السلطان والامراء مع الاشياء النفسية المتواجدة فيها. وفيما بعد كتب مؤلف «افعال الفرنجة» بشعور من الرضى والسرور:«واخذنا غنيمة كبيرة ـ الذهب والفضة والخيول والحمير والجمال والغنم والثيران واشياء كثيرة اخرى».

وهكذا مني السلجوقيون في جوار ضورليوم بهزيمة ماحقة، قررت من حيث جوهر الامر سير الحرب لاحقا في آسيا الصغرى. واما الصليبيين فقد انفتح الطريق الى سوريا

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

اهانه واخـذ مـاله، كل هذا الى نصف الليل صـار راقد مع كلب في رماد. سبحان الله يوتي الملك من يشا وينزع الملك ممن يشا ويعز من يشا ويذل من يشا بيـده الملك وهو على كل شـيـا قـدير. فلمـا اصبح الصبح وهو على تلك الحال ابصرته جاريه فانكرة [فانكرت] حاله وسالته: من انت؟ فقال لهـا: قـولي لمولاك يجي الى عندى فهـو يعـرفني. فمضيت ليعقوب واخبرته به فحضر اليه وعرفه

أمامهم. وللمـنـاسبة نقـول ان هـزيمة السـلجوقيين قد ضمنت سلامة بيزنطية وامنها لزمن طويل.

وبعد ان استراح الصليبيون يومين، انطلقوا في ٣يوليو، دون ان يعشروا قواتهم، الى نحو قونية ثم اتجهوا جنوبا نحو هرقلة. وبصعوبة كبرى، تم عبور الانحاء الجبلية، الصحراوية، الفارغة، غير الآهلة احيانا، في قيظ يوليو اللهاب. وقد اضنى القيظ الصليبيين. وكان السلجوقيون يعيقون بجميع الوسائل تقدمهم؛ كانوا يدمرون الجسور فوق الانهر ، ويجعلون الآبار غير صالحة، ويكتسحون الحقول، ويسوقون سكان المدن والقرى الواقعة في طريق الصليبين. ونقصت الفرسان والفقراء المرافقين لهم والمأكولات، وكان نقص الماء يعذبهم بنحو خاص. وبسبب نقص الماء كانت تهلك الخيول. واضطر بعض الفرسان الى الترجل رغم ثقل دروعهم وتجهيزاتهم، واضطر بعضهم الآخر الى ركوب الثيران، وشحن المعدات والذخائر على عربات قرنوا بها رؤوس الماعز والغنم وحتى الكلاب.

ووصفت العذابات القاسية التي كابدها الرجال والنساء بسبب العطش. «وفي وسط السهل، تراكم الرضع الموتى وشبه الاحياء... والرجال، الذين انهكهم العرق الغزير والقيظ الخارق، كانوا بالكد يمشون بافواه مفتوحة يتلقفون الهواء النقي للغاية، لكي يخففوا العطش». ومن العطش كان يموت الناس، كما كانت تموت «الصقور وسائر الطيور الكاسرة التي تشكل

وعانقه وبكا، ثم اخذه وخلا به واخلا له بيت شعر
واكساه، واقام عنده الى ان تمكن شاور فى مملكته
واخلع عليه خلع الوزاره وانعتوه بامير الجيوش،
وطلب مجد الاسلام فعرف مكانه واحضر يعقوب
ابن البيض وطلبه منه فاحضره له من فريقه النازل
شرقى اطفيح، فتلقاه امير الجيوش شاور باحسن
ملقا واكرمه وبجله واخلا له قاعه فى دار الوزاره
وجعله فيها، واحضر له سريته وولده واستاذ

سلوى الاعيان والنبلاء فى ايدى الذين يحملونها مباشرة؛ وحتى الكلاب المروضة لفن الصيد الرائع كانت تموت بالنحو نفسه بسبب العطش فى ايدى اصحابها».

وفى هذا الوضع لم يكن حال الادلة الروم سهلا؛ فقد اخذوا اكثر فاكثر يرتابون فى خيانتهم.

فى ١٥اغسطس ١٠٩٧ وصل الصليبيون الى قونية وهنا توقف الصليبيون لمدة اسبوع، اذ اخذت الامراض تحصدهم. ثم واصل الجيش سيره. وقرب هر قلة، انزل بوهيموند هزيمة اخرى بالامراء السلجوقين الذين كانت عساكرهم تنتظر الصليبين هنا من جديد، وذلك اغلب الظن، بأمل ان تفلح فى اجبارهم على العودة الى جبال طروس فتبقى ممتلكات السلجوقين انفسهم بعيدة عن مجال زحف الفرنجة. الا ان حملة بوهيموند الجريئة بددت هذه الامال. واضطر السلجوقيون مرة اخرى الى التراجع. وبعد احزار النصر فى جوار هرقلة، سمح القادة العسكريون لانفسهم بفترة استراحة قصيرة وقرروا الصيد.

فى سبتمبر اتجهت جحافل الصليبين الرئيسية من هرقلة نحو الشمال الشرقى من آسيا الصغرى، عبر قيصرية وكومانا، لكى تطل على مرعش، متجنبة سلسلة جبال طوروس. وهذا الطريق اوص به آمر الفصيلة البيزنطية تتيكيوس، وكان يتغى اهدافا تمليها مصالح الامبراطور

لخدمته. وكان يفتقده في كل وقت بنفسه ويسال
عنه ويحضر صحبته فاكهه وياكل معه حتى يطيب
قلبه، فنقل له عنه اخوه جلال الاسلام انه يريد
يهرب ويخرج يفسد الامرآ ويطلب الوزاره، فصعب
عليه ذالك وامر به ان يقيد بالحديد فقيدوه. ثم
صبر جلال الاسلام ايضا مده واشاع عنه ان عنده
مبرد وقد برد بعض القيد، فكشفو عن ذالك
فوجدوه صحيح، فسمع طى ابن شاور المنعوت

السياسية؛ وهي ان يحاول اعادة الامراء الارمن الى الخضوع لسلطته، لانهم كانوا اسميا فقط يعتبرون تابعين للقسطنطينية البعيدة عنهم. وعمل قادة الصليبيين بنصيحة تتيكوس لان الطريق التي دلهم عليها كانت مع ذلك اقل خطرا من طريق اخرى.

لم تطب نصيحة الآمر البيزنطي لبعض الصليبيين؛ فقد تذكروا غدر الامبراطور الكسيوس كومنينوس عند الاستيلاء على نيقية، وكانوا دائما يرتابون بالروم وبتدبيرهم لخيانات جديدة، فعمدوا الى التصرف كما يرتاون. ونحو العاشر من سبتمبر انفصل تنكريد مع مئة من الفرسان النورمانيين ومائتين من المشاة عن الجيش الرئيسي قرب هرقلة، وغادر معسكر الجيش، واستدار بحدة صوب الجنوب، صوب بوابات قيليقيا. وبعد بضعة ايام عمل على غراره بودوان دى بويون وغيرهما من فرسان اللورين، وزهاء ٥٠٠ فارس، كما انطلق معهم ايضا زهاء الفين من المشاة.

وفي قيليقيا الارمنية نشب خصام ضار بين تنكريد وبود وان دى بوين بسبب مدينة طرطوس. في البدء عرض الكونت بودوان بما يكفي من الوقاحة على تنكريد ان يهاجما معا هذه المدينة المسيحية، رغم وقوعها في حوزة السلجوقيين وتحت سيادتهم، وان ينهباها ويتقاسما الغنيمة ولكن هذه الاهداف لم تتحقق، فبعد ان فتح سكان المدينة المسيحيون البوابات امام تنكريد ورجاله النورمانيين، رأى بودوان على الابراج رايات خصمه، فطالب

بالعادل فيذالك الوقت بخبر مجد الاسلام رزيك وانه برد القيد فاخد سيفه ولم يشاور ابوه ولا علم به احد ودخل اليه وضرب رقبته وكان ذالك ليلة جمعه في العشر الاخير من شهر رمضان سنه ثمان وخمسين وخمس مايه. فلما بلغ امير الجيوش ابوه الخبر صعب عليه فلم يقدر يرد ما فات.

ولما كانت ليلت الجمعه القابله وصبيحتها التاسع والعشرين من شهر رمضان المذكور نافق

بتسليمه المدينة. واضطر المغامر النورماني، رغم حنقه وسخطه، الى التراجع، فان عدد فرسانه كان يقل كثير ا عن فصيلة في طرسوس؛ وبعد فترة وجيزة حظى بمساندة اسطول القرصان البحرى جينيمر دى بولون الذى وصل الى مر فأ لونجياد؛ فان طاقم السفن كان يتألف من دانماركيين وفلمنكيين وفريزيين. واقسم جينيمر يمنين التبعية الاقطاعية لبودوان، فعينه هذا حاكما على طرسوس. وصار اسطول القرصنة اول اسطول عند الصليبيين.

وفى هذه الاثناء اغار تنكريد على مدينتين اخريين فى قيليقيا هما ادنة ومميسترا. وتعين تسليم ادنة للفارس البورغونى فلف الذى احتل قلعة المدينة. وفى جوار مميسترا اشتبك تنكريد وبودوان على المكشوف . ولم يحالف التوفيق تنكريد فى المعركة. ففى سياق القتال سقط عن حصانه ووقع فى اسر ريشار دى ساليرنو.

وفى آخر المطاف سوى المتخاصمان خلافاتهما؛ فقد عقدا صلحا ابقى على وضع الامور على ما هى عليه. وبعد ذلك، استولى تنكريد، وهذه المرة بمساعدة جينيمر من بولون واسطوله على مرفأ الاسكندرونه ، وابقى فيه فصيلة من فرسانه. كان للاستيلاء على الاسكندرونة اهمية كبيرة بالنسبة لاعمال الصليبيين اللاحقة. واجمالا لم يبق اقتحام قيليقيا بدون عواقب على مصائر المشروع الصليبى. فان حاميات الافرنج المتروكة فى المدن الارمنية قد حالت لاحقا دون

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

على امير الجيوش شاور امير من الامرا اسمه ضرغام، ونعته سيف المجاهدين، وله اخوه احدهم يسمى ملهم والاخر نصر، وكان شاور قد احسن الى ضرغام وقربه وادناه وجعله صاحب بابه وحلف ضرغام لشاور اربعين يمين انه لا ينافق عليه، وكذب وخرج من عنده ليله الجمعه كما قلنا فنافق وحالف الامرا فى الليل وجيش [جمع] عسكر وفتح باب البرقيه(*) من ابواب القاهره

(*) عن باب البرقية والابواب التالية

- -

السلجوقيين ودون الاعتماد على هذه الاراضي بوصفها قاعدة للاحتفاظ بانطاكية. ومن جهة اخر ى، كان التنافس بين القائدين الصليبيين بمثابة درس مرئي محسوس للسكان المحليين، من مسيحيين ومسلمين، اذا ادركوا ان علاقات الفرنجة فيما بينهم أبعد من ان تكون على خير ما يرام، وان من الممكن عند الاقتصاد استغلال هذا الظروف.

لم يكن الخصام بين تنكريد وبودوان في قيليقيا غير نزا ع من اولى النزاعات بين الصليبيين.

وقد تفجرت النزاعات بملء قوتها فيما بعد، وهذه المرة فى صفوف جيش الصليبيين الرئيسي.

اجتاز الصليبيون قيصر ية التي اكتسحها السلجوقيون كليا، واستداروا نحو مدينة كومانا الارمنية. ومنها اندفعت فصائل بوهيموند تطارد بقايا جيش دانشمند المهزوم. وبعد ثلاثة ايام دخل الصليبيون كوكيسوس. وبما ان كونت دى تولوز سمع ان الاتراك السلاجقة غادروا انطاكية، فقد ارسل الى الامام على جناح السرعة فصيلة من ٥٠٠بروفانسي بقيادة بيار دى كاستيون لكي يسبق الآخرين ويستولى على المدينة طالما كان بوهيموند مشغولا بالعمليات الحربية في مكان آخر ما . الا ان الاخبار عن رحيل السلجوقيين عن انطاكية لم تثبت صحتها. من فصيلة ومع ذلك، استولت وحدة من فصيلة ريمون دى تولوز، برئاسة الفارس دى روى، على بضع قلاع فى طريقها. وعندما علم بوهيموند بغدر ريمون تولوز، لم يكن لغضبه

في هذا النص تذكر ما يلي نقلاً عن جومار احد علماء الحملة الفرنسية الذى وضع كتابه عن القاهرة ضمن كتاب وصف مصر وترجمه، أيمن فؤاد السيد: وعدد أبواب القاهرة واحد وسبعون باباً، بما فيها الأبواب التي تغير الفرض منها بتوسع المدينة، والتي اصبحت بالتالي في وسط المدينة. ومن الناحية المعمارية فإن أهم هذه الأبواب: باب النصر وباب الفتوح الموجودان في السور القديم الذى بناه الوزير بدر الجمالي واللذين يقعان اليوم داخل المدينة ويبدوان كما لو كان متصلين بجامع الحاكم

وخرج منه ثم فتحو له باب زويله دخل منه وصاح عسكره وقصدو دار الوزاره فخرج شاور وهو يتعمم ولم يمهلوه حتى يكمل عمامته بل اخذ باقيتها فى كمه وركب حصانه وتقلد بسيفه وجا الى باب الفتوح وجده مغلق والسودان محتفظين به فصاح: يا ريحان. فلبو نداه وفتحو له باب الفتوح فوقف فى وسطهم وشكرهم واثنا عليهم ووعدهم ان اعاده الله الى ملكه كافاهم باحسن مكافآه، ولما

حدود. وهذه الحادثة ارست بداية العداء السافر بين امير تارنتر والكونت ريمون دى سانجيل ـ أى بين اثنين من ابرز زعماء الصليبيين ـ وهذا العداء لم تهدأ ناره على امتداد الزحف اللاحق كله.

كذلك اندفع الفرسان من مرتبة ادنى فى السباق الى كسب الممتلكات من الاراضى. فان الفارس البروفانسي بيار دى اون تقدم من القادة، بعد خروج القوات المسلحة من قيصرية، بطلب منحه السلطة على كومانا (بلاستينيتسا)، «المدينة الجميلة والفائقة الغنى» التى تعهد بالدفاع عنها «خادم الرب والقبر المقدس بأمانة، وكذلك الاسياد والامبراطور». استجاب زعماء الصليبيين بطيبة خاطر لطلب الفارس؛ فقد تنازلوا له عن كومانا، رغم ان وعوده بالدفاع بامانة عن القبر المقدس لم تكن بالطبع سوى ستار لائق لادعاءات اغتصابية بحتة.

وتحركت قوات الصليبيين الرئيسية، متجنبة مدينة كوكيسوس، نحو مرعش، عبر جبال عالية وانهمرت الامطار؛ وجرفت المياه الدروب الجبلية الضيقة. وسار عليها الصيبيون، تارة صاعدين وطوار منزليقين على الجروف الساقطة.

واحيانا كان الناس والخيول على السواء يتدهورون ويسقطون فى المهاوى العميقة. والمصير ذاته كان من نصيب مواشي الجر. جربوا ربطها بعضها ببعض، ولكنها كانت بين الفينة تسقط فى المهاوى جارة بعضها بعضا.

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

عـاد وظفـر اوفـا بهم، ثـم خـرج من باب الفـتـوح وسار تحت ليله حتى وصل الى بيوت عشـيرته بنى سعد فنزل عندهم. وملك ضرغام واخوانه وظفرو بطى ابن شاور المنعوت بالعادل فقتلوه، وكان ذلك مكافاه من الله لكونه قتل مجد الاسلام رزيك وهو برى. واستمر ضرغام فى الوزاره تسعه شهور اولها شـوال سنه تمان وخـمـسين وخـمـسـمـايه واخـرها جمادى الاخر سنه تسعه وخمسين وخمس مايه

القـديم، أكبر وأقـدم جوامع القـاهرة بعد جامع ابن طولون. والباب الأول بناء ضـخـم حـسـن الطراز، وبرجـاه مـربعـا الشكل. ويرجع تاريخـه إلى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر بالله، أى إلى القرن الحادى عشر الميلادى. ومن الخطأ أن نقدم باب الفتوح على هذا البناء، فأبراج باب الفتوح دائرية (ليـسـت مـسـتـديرة ولكن بـيـضـاوية الشكل) ومفرطة البروز حتى بالنسبة لأغراض الدفاع، وهو فى مجموعة أكثر ضخامة، ومع ذلك فإن بناء هذا الباب، مثل بناء الباب الأول، يتميز كـثـيرا على المبـانى التى بنيت فى

إمارة الصليبيين الاولى

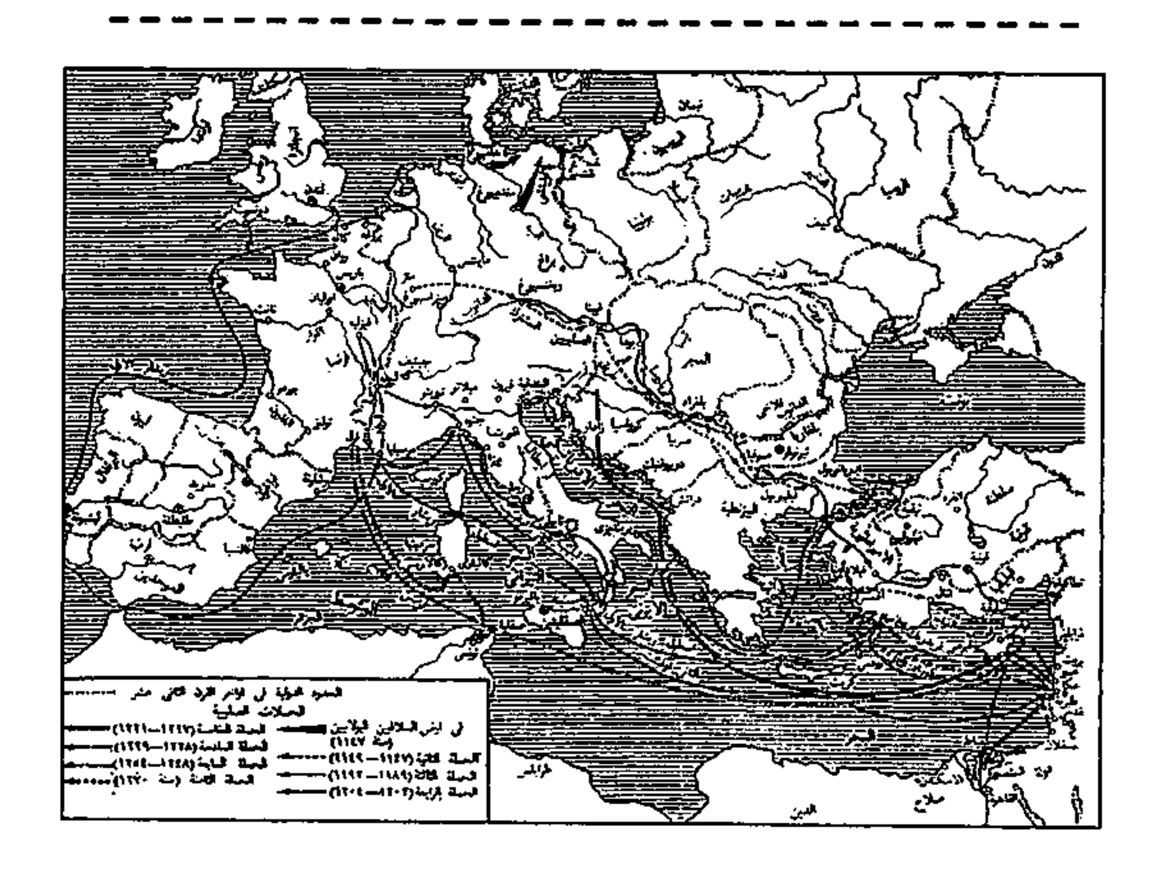
فى اكتوبر ١٠٩٧ وصلت جحافل الصليبين الى مرعش. واليها جاء ايضا بودوان دى بولون مع الفوارس المائة الباقين لدية. ان الخصام مع تنكر يد قد قوض سمعة الكونت بين الصليبين، ففضل مغادرة قيليقيا ليبحث عن السعادة فى مكان آخر. وبالفعل لم يقض الفاتح الذى لايكل فى مـرعش سـوى يومين؛ ثم اتجه، بناء على نصـيـحـة اخـيـه، دوق د بويون، باتجاه الجنوب الشرقى، نحو الفرات. ولم تفارقه فكرة تأسيس امارة خاصة به. ولا وفاة زوجته، ولااية اعتبارات اخرى استطاعت ان توقفه. وبالاعتـمـاد على دعم بعض الحكام الارمن، استولى كونت دى بولون، دون ان يلقى مقاومة الا من جانب بلدوخ، امير سميساط، ناهيك بانها مقاومة ضعيفة، على قلعتين مهمتين بين تاب والفرات ـ هما قلعتا رواندان وتل بشير (ومدونو الاخبار اللاتين يسـمونهـمـا على الطريقة الفرنسـية رافندل وتوربيسل)، وفى ٦ فبـراير من السنة التـاليـة، سنة ١٠٩٨ دخل مدينة الرها الارمنية الغنية التى احتلها السلجوقيون قبل ذلك باحدى عشرة سنة (سنة ١٠٨٧).

وهذا المركزالكبير وتجارة القوافل، الرها اورفا، الواقعة على طريق من بلاد ما بين النهر ين الى سـوريا، كان يحكمـه (فى البدء باسم حـاكم سوريا السـلجوقى تتش، ثم بـصـورة مـسـتـقلة) الامير الارمنى طوروس الذى سبق ان منحته بيزنطية اللقب الرفيع ـ «كوروبالات». وقد جاء

القاهرة في القرون التالية. وارتفاع كل من البابين يبلغ حوالى ٢٢ متراً. وقد بنى الباب الثاني كذلك أمير الجيوش بدر الجمالي في المحرم سنة ٤٨٠هـ = ١٠٨٧م.
ويشير المقريزي، الذي خصص ضمن وصفه للقاهرة في كتابه «الخطط» فصلاً لأبوب المدينة، إلى أن الأبواب الرئيسية كانت العشرة أبواب الاتية: فقد كان لها «من جهتها القبلية بابان متلاصقان يقال لهما بابا زويلة/ ومن جهتها البحرية بابان متباعدان أحدهما باب الفتوح والآخر باب النصر، ومن جهتها الشرقية ثلاثة

وانعتوه بالملك الافضل، واخوه ملهم بالعادل، واخوه نصر ناصر المسلمين.

فاما شاور فانه توجه الى دمشق واجتمع بنور الدين ابن قسم الدوله واسمه محمود ابن زنكي، واقام عنده مده فجهز معه عسكر مقدمه اسد الدين شريكوه ثم عاد الى ديار مصر ونزل ببلبيس، وخرج اليه ناصر المسلمين اخو ضرغام بعسكر كبير، فلما راى شيركوه ذالك خاف وقال لشاور



كيف فعلت هذا الفعل بنا وبنفسك انما جبتنا الى مصر لتهلكنا، لعل نكون نحنا واصحابك فى الفى فارس، فى هذا العسكر عشرين الف فارس مقاتله، ويتبعه مثلها خدام واصحاب. فقال له شاور: لا يهولك الامر فكلهم معى وما منهم احد يقاتلنى. وكان على ظاهر بلبيس كوم عظيم فقال شاور لشيركوه: اصعد بنا الى الكوم وطول روحك لا تقاتلهم حتى تحمى الشمس جيد. ولم يقول شاور

أبواب متفرقة أحداهما يعرف باب البرقية والآخر بالباب الجديد والثالث بالباب المحروق، ومن جهتها الغربية ثلاثة أبواب: باب القنطرة وباب الفرج وباب سعادة، وباب آخر يعرف باب الخوخة. ولم تكن هذه الأبواب فى زمن المقريزى فى المكان نفسه الذى بناها فيه جوهر. ثم بنى بدر الجمالى بابى النصر والفتوح على مبعدة من الأبواب القديمة. ولا ننسى هنا ذكر أن الباب الجديد بناه الحاكم بامر الله.

بودوان، مع ٨٠فارسا فقط، بوصفه محررا للارمن من سيطرة الكفار، فكسب بالدهاء والحيلة ثقة أمير طوروس، بل انه افلح فى حمل أمير طوروس وزوجته على تبنيه.

اصبح بودوان شريكا فى الحكم لامير طوروس، فثبت اقدامه فى الرها وطفق يتقرب من قسم الاعيان الارمن المعادى لامير طوروس، وبدأ يضطهد بجميع الوسائل سكان المدينة وزراع الضواحى، وبعد فترة وجيزة، حاكت جماعة من الاريستقراطية المحلية مؤامرة ضد أمير طوروس، واثارة ضده سكان المدينة. وقد اشترك ابن أمير بالتبنى وشريكه فى الحكم، بودان، فى المؤامرة سراً وبالنتيجة نكل المتآمرون المجرمون كما يسميهم مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى، بالامير. واذا الامير الذى «تحاشت الرها بفضل ذكائه وحكمته وشجاعته ودهائه وحذاقته وضع دافع الجزية والخادم» للسلجوقيين يسقط ضحية للمتآمرين. وحين حاول ان يهرب من القلعة، «ثقبت آلاف السهام جسده فى لحظة واحدة، فلقى مصرعه».

وجعل بودوان من نفسه حاكما وسيدا لمدينة الرها. واستجابة لدعوته جاء الى الرها بعض من الاسياد الافرنج الآخرين؛ فان الرها القريبة قد اغرتهم اكثر بكثير من القدس البعيدة آنذاك.

فى ديسمبر ١٠٩٨، تمرد الشعب البسيط الذى اضطهده واذله «المحررون» ـ الصليبيون. بل ان الارمن استغاثوا بالسلجوقيين. فأمر بودوان بأعتقال المبادرين الى التمرد واعدموهم،

هذا الا لعلمه ان الشمس اذا قويت تفللو يطلبو
الظل تحت الشجر والجدران، فلما حميت الشمس
وقت الظهر وهم قد تفللو وطلب كل واحد منهم
مكان يستظل فيه فنزل شاور وشيركوه من على
الكوم وحملو بعسكرهم عليهم فكسروهم
واسروهم وعروهم واخذو خيلهم واموالهم ولم
يقتلو منهم ولا واحد، وهرب بقيتهم الى القاهره،
فسار شاور وشيركوه خلفهم بالعسكر الى القاهره

واحالوا اموالهم الى الفرسان الافرنج. وزجوا في السجون بالكثيرين ممن اشتركوا في الفتنة. وافلح بعض من الموسرين في الافلات من السجن بدفع فدية تتراوح بين ٢٠ الف بيزانط و٦٠ الف بيزانط ومذ ذلك، لم تعد تستند سلطة بودوان في الرها الا على الارهاب ضد الارمن «المحررين» . وقد كتب متى الرهاوى عن ثبوت اقدام الافرنج في الرها:«وقد اقترفوا مثل هذه الأعمال التي لاعد لها ولاسابق لها لاجل نهب الكنوز، وانزلوا بالبلد الخراب الشامل، وبالناس العذابات القاسية، ولم يكونوا يفكرون الا بالشر، وكانوا يفضلون درب المآثم والموبقات».

وقد بذل بودوان جهده، بعد ان اصبح سيد المدينة، لكي يوسع قدر الامكان حدود ممتلكاته. ففي الجنوب الغربي احتل مدينة سروج وحولها الى حصن لممتلكاته الجديدة. ثم استولى الفرسان على مناطق تقع غربي وشرقي المجرى الاعلى لنهر الفرات.

وهكذا ارسيت بالقوة والعنف بداية اول إمارة للصليبيين في الشرق ،ـ كونتية الرها. وقد اصبحت هذه الكونتية مخفرا اماميا مهما للإمارات الصليبية الاخرى التي تشكلت فيما بعد.

احتلال انطاكية

في ٢١ اكتوبر ١٠٩٧ وصلت قوات الصليبيين الرئيسية الى مشارف انطاكية. كانت انطاكية الواقعة على بعد ١٢ ميلا عن البحر، على الضفة الشرقية من نهر العاصي، من اهم

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

ونزلو فى ارض الطباله واللوق ودير [داير: حول]
القاهره وحاصروها. ولم يزل القتال والحرب
مستمر وضرغام واخوته مباشرين الحرب متفرقين
على ابوابها الى ان كتب الامام العاضد الخليفه فى
ذالك الوقت رقعه لضرغام الوزير يقول له فيها:
بسم الله الرحمن الرحيم نحن نعرفك ايها الملك
انه لم يبق فى فيك ظل الا الى صلاة العصر، فانج
بنفسك ان قدرت والسلام. وكان ضرغام فى ذالك

مدن القسم الشرقى من البحر المتوسط(من الناحية الاقتصادية والعسكرية والسياسية). وكان تاريخ انطاكية يرقى الى زمن الامبراطورية الرومانية. ومنها انتقلت الى بيزنطة، ثم احتلها العرب فيما بعد. وفى الثلث الاخير من القرن العاشر ، احتلها البيزنطيون من جديد، ولكن لزمن قصير؛ ففى ١٠٨٤ـ١٠٨٥احتلها السلجوقيون. ومنذ سنة ١٠٨٧حكمها الامير ياغى سيان الذى استغل العداوة بين دقاق صاحب دمشق ورضوان بن تتش صاحب حلب، وتوصل فعلا الى الاستقلال السياسى.

كانت انطاكية عبارة عن قلعة من صنع الطبيعة، ففى الجنوب الغربى كانت تحميها الجبال، وفى الشمال الغربى كان يحميها النهر والمستنقعات، وفى الغرب كان يحميها البحر. وفى عهد االامبر اطور يوستينيان (القرن السادس) بنوا حول المدينة ـ فى الانحاء المستنقعية وفى السفوح الجبلية اسوار منيعة. وبعد استرجاع المدينة من العرب، عززوا الاسوار اكثر من ذى قبل، فقد بلغت من سمكها انه كان من الممكن، كما قال المعاصررون، ان يتسع اعلاها لاربعة احصنة وبنى فى الاسوار ٤٥٠برجا. وفى القسم الجنوبى الشرقى من المدينة، فى اعلى منطقة فيها، ـ على سفح جبل سيلبيوس، كانت تقع قلعة داخلية عززها السلجوقيون باتقان ومتانة.

كانت انطاكية الموصولة بالبحر، عبر خليج القديس سمعان، بمدن الساحل الاخرى،

اليوم قد جا الى القصر ووقف مقابل باب الذهب
في امر عرض له ياخذ راى الخليفه فيه فوجد
ابواب القصر مغلقه فرميت له هذه الرقعه، فلما
وقف عليها لم يرجع الى ورايه بل خرج من باب
زويله فادركته خيل الغز عند [قلعة] الكبش، تحت
جبل المقطم بين القاهره ومصر، فقتلوه ولم يعرفوه
انه ضرغام، فلما جابو راسه الخيم عرفه شاور
وركب للوقت وجا الى القاهره ففتحت له الابواب

تضطلع من قديم الزمان بدور كبير في تجارة المشرق. ولهذا كان الاستيلاء عليها بالنسبة للصليبيين امرا مغريا جدا. ولكن كان الدفاع عن المدينة ـ القلعة من الداخل اسهل من اخذها من الخارج؛ فان العوائق الطبيعية وكذلك الاسوار والابراج كانت تجعلها عسيرة المنال رغم ان حامية ياغي سيان لم تكن كبيرة.

ان النبأ القائل ان بودوان صار كونت الراها قد اجج شهوات الامراء الباقين، وفي المقام الاول بينهم بوهيموند دى تانتو وريمون دى تولوز. وقد اقترح هذا الاخير مهاجمة انطاكية في الحال. الا ان هذا الاقتراح المحفوف بالمخاطر لم يلق الدعم من جانب القادة الآخرين. فقد كانوا يخشون الخسائر في الارواح، وفضلوا انتظار المدد؛ اذ سرت شائعات عن قرب وصول تنكريد من الاسكندرونه، وفصائل جديدة من الصليبيين من الغرب.

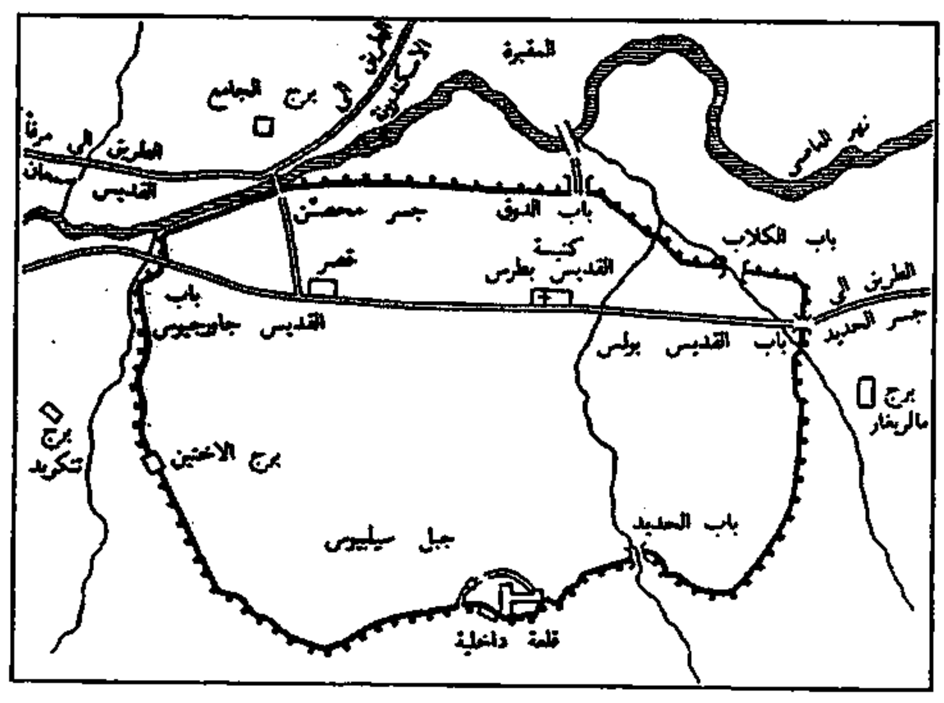
كان منظر اسوار المدينة وابراجها يخيف الصليبيين. وكان جليا للاغلبية انه لايمكن الاستيلاء على المدينة بدون تطويقها باكثف ما يمكن، وبدون ضرب حصار دائب.

ولكنهم تصرفوا بدون اية معرفة وحذاقة. وبما انهم كانوا يجهلون طرائق حرب الحصار، فقد اقترفوا الكثير من الهفوات والاخطاء. فمن الجنوب لم يسدوا البتة المدينة ومخارجها. وبالنتيجة كانوا يمنون بالاخفاق تلو الاخفاق. وكان بوسع المحاصرين ان يخرجوا من المدينة ويقلقوا المحاصرين ويثبطوا معنوياتهم بغاراتهم. ولكي يحمي الصليبيون انفسهم من هذه

ودخل، فلم يستقر به القرار حتى بلغه ان اسد الدين يريد يغدر به فاحترز واغلق ابواب القاهره فتقدم اليه وقاتله وحاصره، وامتدة ايدى الغز فى سكان مصر من النصارى [و] السودان والارمن والاتراك والمصريين، وكانوا يقتلو منهم ويبيعوهم، فان وجدو من يشترى منهم والا قتلو ذالك الشخص، ونهبو اموالهم واخذو نساهم، وكانو ينادو على النصراني من يشترى كافران، وعلى

الطلعات والغارات، بنوا على مقربة من باب الحديد برجا هو برج ما لريغار؛ وقد بنوه على سفح جبل سيلبيوس، غير بعيد عن سور القلعة. وفي الشهر الثالث من الحصار، حين اقترب الشتاء انهمرت الامطار الباردة اللامتناهية، وتبين ان المأكولات عند الصليبين توشك ان تنتهي؛ وحتى ذاك، كانوا يؤمنون لانفسهم الطعام ناهبين الضواحي الغنية لانطاكية ودون ان يحرموا انفسهم من اى شئ. وبدأ الجوع في المعسكر. ويستفاد من مدون للاخبار ان واحدا من كل سبعة من الصليبيين قد مات جوعا، ولم يستفد المقاتلون من اللحوم والفواكه والخمورالتي ارسلها لهم من قبرص، بناء على طلب من اديمار، نائب البابا، البطريرك سمعان، بطريرك الروم للقدس، الموجود آنذاك في قبرص. فان هدايا البطر يرك لم تكف الا لمدة قصيرة. اما سكان المناطق المجاورة، من ارمن ويونانيين وسوريين (وهؤلاء مسيحيون من شتى الطوائف والتيارات) فقد كانوا يبيعون المنتوجات الغذائية باسعار مفرطة الغلاء. ويورد فارس نورماني اشترك في حصار انطاكية قائمة كاملة باسعار الخبز والدجاج والبيض والجوز والخمور ولحوم الحمير، الخ.، ويعتبر هذه الاسعار غالية جدا. ويقول:«بل ان كثيرين منا ماتوا هناك لانه لم تكن معهم اموال يستطيعون بها ان يشتروا بمثل هذه الاسعار الغالية». ان اولئك الذين كانوا ينهبون ويخربون ضواحي انطاكية بوحشية وهمجية غير آبهين بالعواقب، شرعوا الآن يجنون ثمار لصوصياتهم.

التركى من يشترى تركى خليع بات فى الصقيع، وعلى الاسود من يشترى سويدان. وكانو يبيعوهم بثمن خسيس: بعشرين درهم النصرانى، وعشره دراهم التركى، وخمس دراهم الاسود. واستشهد على يدهم راهب اسميه شنوفه من دير ابو مقار مسكوه واعرضو عليه الاسلام فامتنع منه فقتلوه، ورامو ان يحرقو جسده فلم يحترق، فاخذوه النصاره ودفنوه فى كنيسه ابو سرجه بمصر فى



انطاكية (سنة ١٠٩٨)

اليوم الرابع والعشرين من بشنس. وهدمو كنايس كثير للشهدا فى ذالك الوقت فى ضواحى القاهره، وهدمو كنيسه الحمرا بحارة الروم البرانيه، وكنيسة الزهرى، ونهبو كل كنيسه هدموها.

وبعد ما ان اهتدت [هدأت] الامور اهتم الشيخ الاسعد صليب صاحب الديوان بعمارة كنيسة الحمرا والزهرى وما قدر عليه من الكنايس، وكان يتعاهدهم ويفتقدهم بالقداسات فيهم ويهتم

وهبطت معنويات الفرسان والفقراء بسرعة كبيرة. وطفق اصغرهم نفسا يفارقون العساكر. وفى صباح من شهر يناير ١٠٩٨ اختفى من المعكسر بطرس الناسك (وكان قد انضم الى الفرسان فى القسطنطينية) ومعه صديقه الحميم الفيكونت غليوم النجار وغيره. فجهز تنكريد فرقة لمطاردة الفارين، واعادتهم.

الا ان الامدادات بدأت تصل، والحق يقال، من الغرب. فمن سواحل الاطلسى والقسم الغربى من البحر المتوسط، اندفع التجار والقراصنة الى انطاكية على سفنهم كأنما احسوا بالنفع المقبل وفى نوفمبر ١٠٩٧ رمت ١٤ سفينة من جنوه مراسيها فى خليج القديس سمعان. وفى مارس١٠٩٨ ، ارسلت ٤ سفن انجليزية بقيادة ادجار ايتلينج. وقد عرجت هذه السفن فى طريقها على القسطنطينية وشحنت ادوات ومعدات للحصار ومواد لاجل تركيبها. وعلى متن هذه السفن وصلت كذلك فصيلة المقاتلين من ايطاليا. كذلك هرع جينيمر دى بولون (من الاسكندرونة) الى مساعدة الصليبيين واخذ الصليبيون انفسهم يطوقون انطاكية بابراج الحصار.

ولكن ياغى سيان استنجد بالحكام السلجوقيين الآخرين. وارسل على الاخص ابنه شمس الدين الى دقاق، صاحب دمشق، فارسل هذا الى انطاكية قوات كبيرة. وفى الاشتباك السافر

باقمنت [قمينة] الجير حتى كملت العماره. ولم يزل اسد الدين مقيم على القاهره يحاصر شاور الى ان انفد شاور للملك مرّى ملك الافرنج بمال عظيم حتى جا بعسكره(*)، فلم اخبر اسد الدين شيركوه العربان بقرب الافرنج من البلاد رحل بعسكره الى الصعيد، ولما وصل الملك مرّى بعسكره الى بلبيس حمل اليه من الخليفه والوزير من المال والهدايا شى كثير. واستراح على بلبيس

(*) شاور يستعين بالملك مرى ملك الفرنج لمحاربة ضرغام.

برهن الفرسان الصليبيون ذوو الاسلحة الثقيلة عن تفوقهم على العدو؛ ولم يستطع السلجوقيون تحريك الخيالة الخفيفة. وفي اواخر ديسمبر ١٠٩٧، منيت قوات دقاق في جوار البارة بهزيمة انزلتها بها فصيلة متحدة تضم عشرين الف عنصر من قوات بوهيموند دى تانتو وروبرت دى فلاندر. نهب الصليبيون قريتين وعادوا الى المعسكر في جوار انطاكية بدون نجاحات خاصة فيما يتعلق باحتياطات المؤن. وبعد فترة وجيزة، في فبراير ١٠٩٨، استطاع الصليبيون ان يصدوا قرب جسر الحديد ضغط القوات التى دفعها الامير رضوان صاحب حلب الذى وقع معه ياغي سيان الصلح بعد ان كان معادياً له قبل ذاك، واكره الصليبيون السلجوقيين على التراجع. وقد لعب بوهيموند الدور الرئيسى فى هذه الانتصارات الجزئية على السلجوقيين فقد ابدى كل همته وكفاءته كقائد عسكرى؛ ذلك ان امير تارنتو كان يأمل بكل رسوخ بان انطاكية ستكون له وحده دون غيره!

ومع ذلك، ضعفت بكل جلاء مواقع الصليبيين المتجمدين بردا. وكانت تنقصهم الاعلاف. ولم يبق فى المعسكر غير ٧٠٠حصان، بينما ماتت الاحصنة الاخرى.

حاول البارونات ان يستغلوا في مصلحة الحرب الصليبية التناقضات بين السلجوقيين والفاطميين في مصر.. ففى اوائل مارس ١٠٩٨ وصل من مصر الى جوار انطاكية رسل الوزير الافضل. ولكن الخليفة الفاطمى المصرى عرض على زعماء الصليبيين شروطا غير مقبولة ابدا

شهرا واحدا، ثم جا الى القاهره ونزل بعسكره حول القاهره، ثم سار عسكر الفرنج ومرّى ملكهم وعسكر المسلمين وشاور سلطانهم فى طلب اسد الدين شيركوه وعسكره. فلما تبعوه عدى الى البر الغربى وسار الى الصعيد الاعلا فادركوه على بقعه تسمى البابين [على بعد ١٠ أميال جنوب المنيا](*) والتقو معه فقتل من عسكره خلق كثير، وقتل ايضا من الفرنج والمصريين جماعه كبيره، واسر

(*) القوات الصليبية تحت قيادة مرى تصل إلى جنوب المنيا بصعيد مصر لمساندة شاور ضد شيركوه.

بنظرهم: تقاسم سوريا وفلسطين على ان تبقى القدس لمصر. رفض البارونات هذه العروض. ولكنهم قرروا ان يواصلوا المفاوضات مع المصريين فى القاهرة. والى القاهرة راح مع رسل الافضل مفوضو الصليبين. وكان قادة الصليبين يأملون فى عقد معاهدة تحالف مع مصر ضد السلجوقيين.

ويتبين من هذه الوقائع ان الاعتبارات الدينية لم تمنع الصليبيين من الدخول فى علاقات ديلوماسية من الجلى انها غير جائزة، على ما يبدو، بالنسبة لاخصام الاسلام عن اقتناع . ولكن... الايمان هو الايمان، والدين هو الدين، بينما المنافع السياسية الفعلية تعلو من ذلك على كل شئ! ومن الطريف ان ريمون من اجيل، الذى افاد عن هذه المفاوضات ، يزعم، رغبة منه فى تبريرها كيفما اتفق، ان السلطان المصرى اتخذ تدابير فى صالح المسيحيين وان رسله ابلغوا الصليبيين بذلك.

واستغل بوهيموند من تارنتو فى الحال مصاعب فصائل الفرسان، وكان من زمان يحلم فى تنصيب نفسه اميرا على انطاكية. فوجه جميع افكاره الى امتلاك هذه المدينة. قبل كل شئ حاول ان يتملص بالحيلة والدهاء من وصاية الامبراطور . كانت قوات الروم المسلحة بقيادة البريميركير الاعظم تتيكيوس المرابطة فى معسكر بجوار انطاكية اداة سياسة حيال الصليبيين. وكان بوسع تتيكيوس ان يحول دون تحقيق مشاريع الامير النورمانى؛ ذلك ان هدف اقامة الروم

كل منهم من الاخر اسارى. ثم عاد اسد الدين الى اسكندريه وتحصن فيها وتبعه الملك مرّى وعسكر الفرنج وعسكر المصريين ونزلو عليها وحاصروه(*)، فلما طال به الحصار خرج منها ليلا وعاد الى القاهره لياخذها، فلما علم به الملك مرّى وشاور تبعوه، وجرت خطوب كثيره تقرر اخرها ان قطعو له مال اخذه وعاد الى بلاده. واوفا شاور بما عاهد عليه الفرنج من سلامتهم لانه لو اراد ان يغدرهم

(*) القوات الصليبية بقيادة مرى تحاصر الاسكندرية دعمًا لشاور ضد شيركوه.

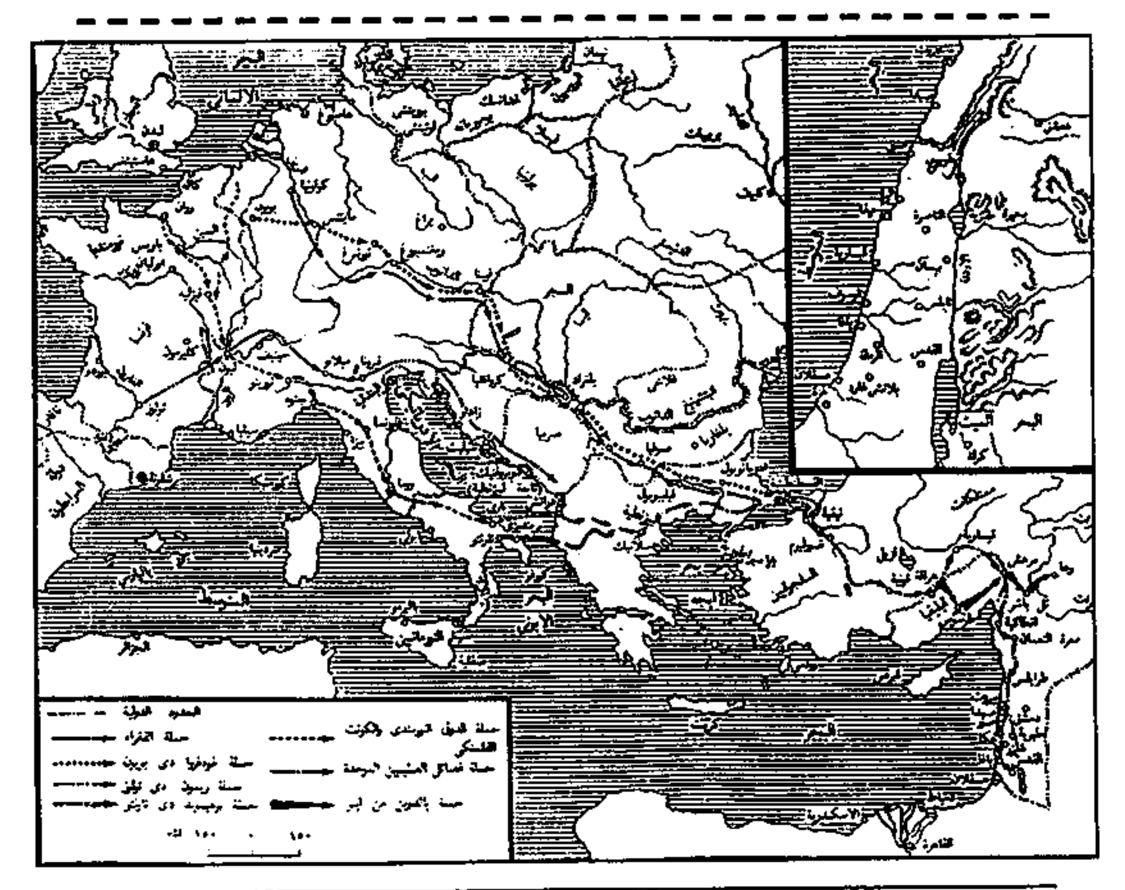
هناك مع الصليبيين لم يكن بالأساس مساعدتهم، كما كانت تفترض الاتفاقيات الرسمية. فان فصائل الروم المسلحة كانت مفرطة فى القلة لاجل تقديم مساندة جدية. وكانت مهمة تتيكيوس الرئيسية تتخلص فى صيانة مصالح الامبراطورية البيزنطية: ففى كل حالة بمفردها، لدى كل نجاح يحرزه الصليبيون، كان على تتيكيوس ان يطالب زعماء الصليبيين بان يعيدوا الى الامبراطور البيزنطى المدن التى «يعيدها الرب»، حسب تعبير حنة كومنينة.

على كل حال، غادر القائد العسكرى الرومي المعسكر وراح الى قبرص فى فبراير ١٠٩٨ منسقا موقفه بالتأكيد مع رغبة الامبراطور الكسيوس الاول، ووجدا حجة مناسبة: تجلب للفرسان مساعدة قوية.

وقبل السفر، انعم تتيكيوس، باسم الامبراطور، على بوهيموند بقيليقيا كلها تقريبا،مضيفاً بالتالى الصفة الشرعية على فتوحات تنكريد، وملمحا فى الوقت نفسه للنورمانيين ان العاهل البيزنطى هو الذى يتصرف بقيليقيا على كل حال.

وبعد ذلك، اجرى امير تارنتو الداهية مفاوضات سرية مع الآمر السلجوقى فيروز الذى كان مكلفا بحراسة ثلاثة ابراج فى الجانب الغربى من اسوار انطاكية، واستطاع ان يستميل فيروز إلى الخيانة: فلقاء رشوة معينة ولقاء الوعد بمكافأة وافق فيروز على السماح للفرسان الصليبيين بدخول الابراج التى يحرسها.

ويتفق مع عسكره الغربا عليهم ما رجع منهم مخبر. وقد كان الملك مرّى عرف انه اخطا لكونه حصل بعسكره في وسط بلاد الاسلام من حلق بحرين الشرقي والغربي وسلمه الله لعدله وحسن تدبيره. واستمر شاور في الوزاره الى اخر يوم السبت الثامن من ربيع الاول سنه اربع وستين وخمسمايه [٨٨٥ قبطية = ١١٦٩م]، وجرت له خطوب ياتي ذكرها فيما بعد.



وفى ايام هذا البطرك تنصر رجل من اليهود بمصر من كبار قومه خبيرا عالما من اعيان طايفته يسمي ابو الفخر ابن ازهر وقرى مذهب النصرانيه وتكلم باللغه القبطيه فى اسرع وقت، وكان يجادل اليهود باللغه العبرانيه ويفسر للنصاره باللغه القبطيه، وتمهر فى مذهب النصرانيه حتي صار اعلم من اهله ومات على دين النصرانيه مومن بالمسيح بعد ان قاسآ من المسلمين واليهود شدايد،

فى اواخر مايو ١٠٩٨ ، عندما يئس الصليبيون تماما وقد عذبتهم آلام الجوع وتملكهم الخوف من المستقبل، ابلغ بوهيموند فى مجلس القادة انه يعر ف وسيلة للاستيلاء بسرعة على انطاكية ولكنه اشترط وضع المدينة تحت سلطته بعد فتحها. فى البدء قابل زعماء الصليبيين بالرفض القاطع عرض بوهيموند وشرطه. وذلك ان بعضا منهم، مثل ريمون دى تولوز، كانوا يرغبون هم ايضا فى ان يصبحوا امراء انطاكية. فانهم ، كما يروى الفارس مدون الاخبار القريب من بوهيموند، «قد عارضوا قطعا وردوا هذه المقترحات واعلنوا :«هذه المدينة لن تكون من نصيب احد بمفرده، بل سنملكها جميعا بانصبة متساوية؛ وبما اننا بذلنا بالقدر نفسه فى هذه القضية جهودنا القتالية، فينبغي ان نحصل على تشر يفات واحدة». ولكن امير تارنتو لم يعتزم التراجع عن مساعية. وحين اصطدم بمعارضة قادة الصليبيين، تظاهر بانه يتخلى عن هذا المشروع، وحتى صرح علنا وجهارا انه ينوى العودة فى الحال الى الوطن، اذ ان الشؤون البيتية تتطلب، بزعمه، وجوده فى تارنتو. ويقينا ان ذلك كان مجرد مناورة وابتزاز. ولكن مفعولهما سريا لسبب بسيط، هو ان نبأ رهيبا اذهل آنذاك بالضبط الفرسان مثل البرق هو ان الاعداء سيلقون عونا من الشرق. وبالفعل، كان جيش اسلامي لجب يقترب من انطاكية بقيادة اتابك الموصل كربقا.

ذلك ان زحف الافرنج اقلق الاعيان السلجوقيين. فارسل كثيرون من حكام السلجوقيين

وكانو اليهود يبذلو للسلاطين المال على قتله فيخلصه المسيح منهم فلا يصلو لمضرته، واقام نصرانى يمشى فى بطون اليهود نحو من اربعين سنه بمصر.

وفى ايام هذا البطرك وصل كتاب من ملك الحبشه الى العادل ابن السلار يلتمس قسمت مطران، وكان عنده مطران يقال له انبا ميخاييل، وكان اسمه حبيب الاطفيحى، فلما كبر وشاخ

قواتهم الى كربقا، ومنهم امراء القسمين الاوسط والشمالى من بلاد ما بين النهرين، ودقاق صاحب دمشق، وامراء المقاطعات الفارسية. فى البدء تحرك هذا الجيش من آلاف المقاتلين نحو الرها، فقد اراد كربقا قبل كل شئ ان يقضى على المخفر الامامى للسيادة الفرنجية التى اخذت ترتسم بجلاء فى الشرق. وكان يتخوف من وجود كونتية الرها. فقد اراد كربقا قبل كل شئ ان يقضى على المخفر الامامى للسيادة الفرنجية التى كان بمقدورها ان تقطع مواصلات السلجوقيين. ولكن جيش اتابك الموصل لم يتوقف فى جوار الرها سوى ثلاثة اسابيع، واستدار فى اتجاه انطاكية دون ان يبلغ هدفه (فقد تبين ان اسوار المدينة منيعة لاتؤخذ).

ان الشائعة التى انتشرت بين الصليبيين عن هذه الاحداث قد بذرت الرعب فى صفوفهم. ويروى مدون الاخبار البروفانسى شاهد العيان ريمون دى اجيل منددا بصغار النفوس ان كثيرين من الجبناء شرعوا يهربون من جوار المدينة، وبينهم الكونت ايتيان دى بلوا، السيد الكبير الذى كانوا يقولون عنه فى فرنسا ان عنده من القصور بعدد ايام السنة. واثناء الحملة، اكثر من املاكه. وقد كتب ايتيان دى بلوا الى زوجته من جوار انطاكية: «صدقينى، ياعزيزتى، ان عندى الآن من الذهب والفضة ضعفى ما كان عندما فارقتك». ان هذا الصليبى الرفيع المقام الذى اغتنى لم يرغب فى ان يعرض للخطر الغنائم التى نهبها فى الشرق، من اجل قضية معلقة

انفذ الملك يطلب مطران غيره، وهذا حبيب كان
قسمه انبا مقاره البطرك، فلما جرى بينه وبين الملك
كلام تغير عليه وكتب يطلب غيره. وسبب ذلك
ان الملك كان تغلب على المملكه بغير حق فوبخه
المطران وانفد كتاب للسلطان، وكان في ذالك
الوقت العادل ابن السلار وزير، وكتاب ايضا
للبطرك يطلب مطران غيره وهو بالحياه لم يموت،
فامتنع ابونا البطرك من ذالك وقال للوزير العادل:

وموضع شك، قضية تحرير قبر السيد المسيح؛ فركب سفينة مع الفرسان الذين التحقوا به، وراح الى الاسكندرونه، ومنها عاد الى بيته عبر آسيا الصغرى.

اضطر زعماء الصليبيين، وقد اقلقهم اقتراب كربقا، الى التنازل لادعاءات بوهيموند الوقحة. فقد اتفقوا «بقلب مفتوح» ، اذا صدقنا مدون الاخبار، ولكن قسرا بالفعل ، على منحه المدينة، اذ كان يستطيع ان يستولى عليها وحده او بمساعدة احد ما في القريب العاجل الا انه تم الاتفاق ، والحق يقال، بصدد تحفظ مفاده أنه سيتعين لاحقا على كل حال، بموجب المعاهدة مع الامبراطور البيزنطي، احترام حقوقه في انطاكية، التي كانت فيما مضى تخص ملوك القسطنطينية. بيد ان التحفظ كان غامضا: «اذا وصل الامبرطوار الى نجدتنا في الوقت المناسب».

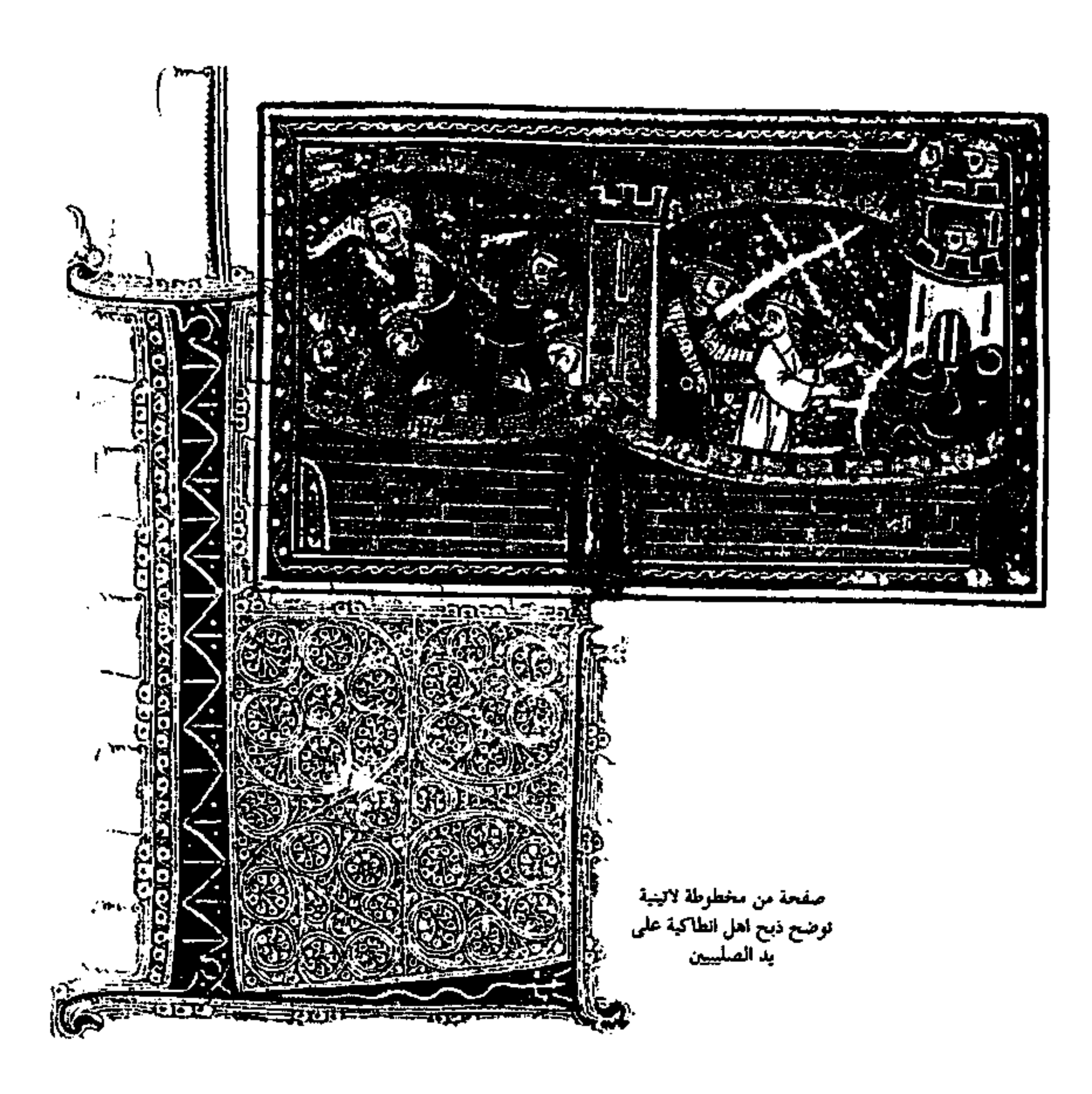
على كل حال شرع بوهيموند، وقد نال من القادة الموافقة المطلوبة على امارة انطاكية، ينفذ فورا ما فكر فيه. ففي ليلة الثاني إلى الثالث من يونيو ١٠٩٨ قادل فصيلته عبر الابراج التي فتحها له الآمر فيروز، واقترب الفرسان النورمانيون من السلم التي كان قد سبق نقلها وتثبيتها بكل رسوخ إلى سور المدينة وصعد ٦٠ منهم عليها وتوزعوا على الابراج التي يحرسها فيروز، وفي الوقت نفسه هاجم الصليبيون المدينة من أماكن أخرى.

ما فى شريعتنا ان نولى انسانين رتبة الكهنوت [ولا] نرجع نعزله منها حتى يموت فاذا مات ولينا غيره لان رتبة الكهنوت سمايه [سمائية] ما هى ارضيه. فضجر عليه العادل الوزير وامر باعتقاله فى سجن دار الوزاره، كان العادل يعتقل فيه من يسخط عليه من امرا دولته، فقاسا البطرك من ضيق هذا السجن ونتن رايحته شده عظيمه، واستمر اعتقاله فيه الى ان فرج الله عنه بقتل العادل.

أخذ السجلوقيون على حين غرة، وانتقلت المدينة النائمة إلى ايدى الصليبيين. وقد كتب المؤرخ العربى ابن القلانسى: لقد تحصنوا هناك «وسلِم مَنْ كَتَب الله سلامته». ويقول مؤرخ عربى آخر، هو ابن الأثير ان الأمير ياغى سيان قد لقى مصرعه اثناء الاستيلاء على انطاكية. وعن هذا تفيد المراجع اللاتينية أيضا. ولكن ظروف مصرعه توصف بصور مختلفة. وحسب جميع الدلائل، حاول أن يهرب، ولكن حراسه فارقوه وقتله السكان المحليون. وفى رسالة إلى البابا اوربان الثاني، مكتوبة بعد فترة من الزمن، تباهى قادة الصليبيين بانتصارهم ونسبوا مصرع الامير ياغى سيان إلى بسالتهم بالذات.

ومهما يكن من أمر، فقد استولى الصليبيون على مدينة انطاكية. ولم يضيع بوهيموند الوقت، كما يقول مدون الأخبار: فما كاد المحاصرون يقتحمون المدينة حتى «امر» الأمير النورمانى «الفرسان بنصب رايته على المرتفع ، المقابل مباشرة للقلعة»

واضعافا مضاعفة كافأ المنتصرون انفسهم على الحرمانات التى عانوها فى اشهر الحصار. فقد نهب الصليبيون المدينة كليا وتماما. ويوضح ريمون دى ساجيل خبره عن أعمال النهب التى قام بها الصليبيون بعد الاستيلاء على المدينة: «ليس بمقدورنا أن نقول كم من الغنائم أخذت اجمالا فى انطاكية؛ فإذا تصورتم باقصى ما يسمح خيالكم، فاحسبوا أكثر من ذلك». وأقام الصليبيون حفلات ومآدب تهتكية، واكلوا جميع الاحتياطيات التى كانت لا تزال فى



صفحة من مخطوطة لاتينية
توضح ذبح اهل انطاكية على
يد الصليبين

وكذالك جرت له قضيه اخره في ايام الصالح ابن رزيك الوزير في اخـر ايامـه، وذالك انه كـان بسـمنود قوم رهبان من قلاية بشبيش[مركز بيلا محافظة كفر الشيخ] من دير ابو مقار ابوهم يسمى سلمـون، وان هذا البطرك اقـسم على كـرسى سمنود اسقفا ذكروانه ابن اخته واسماه انبا مقاره وهو اخوه في الرهبنه ومعه في القلايه التي كان فيها، ولاجل منافسات الدنيا والمجد الفارغ يجد

انطاكية بعد حصار دام سبعة أشهر. وقتلوا المئات من سكان المدينة. وانتشوا بسيول الدماء التى سفكوها، لم يفرقوا بين مسيحى ومسلم. وأفاد ريمون دى ساجيلك «لم يأسروا أيا ممن التقوا بهم في الطريق». وقد امتلأت جميع الساحات، كما يشهد شاهد عيان آخر، بجثث القتلى، «بحيث أن احدا لم يكن بوسعه ان يتواجد هناك بسبب الرائحة الكريهة القوية؛ ولم يكن بوسع أحد أن يمر في الشوارع إلا (بالسير) على الجثث». وينعت مدون الاخبار الارمنى متى الرهاوى المذابح التى اقترفها الفرسان الصليبيون فى انطاكية بالمجزرة الرهيبة. ويقول ابن القلانسى ان عددا لا يحصى من سكان المدينة من رجال ونساء وأولاد قد قتلهم الصليبيون أو اعتقلوهم وساقوهم إلى الاسر.

* * *

معجزة الحربة المقدسة

فى ٥ أو ٦ يونيو ١٠٩٨، أى بعد مرور ٣ أو ٤ أيام على احتلال الصليبيين لمدينة انطاكية، اقترب من المدينة جيش كربقا الموصلي ـ كما يقول مدون للاخبار ـ «كثرة لا نهاية لها من الاتراك السلاجقة توزعت فى الحقول». طوق الاتراك المدينة من جميع الجوانب، وإذا الصليبيون الذين كانوا امس يحاصرونها يصبحون هم أنفسهم محاصرين. وفيما بعد ابلغ

الشيطان السبيل الى هلاك النفوس بضرباته لاجل التحاسد، وان قوما سو حسنو لهذا الاسقف ان كتب للبطرك يقول له عن انبا سلمون واخوته الرهبان اولاد بشبيش انهم اضافو فى الاعتراف عند كمال القداس لفظه مستجده ابتدعوها من نفوسهم لم تقولها الاوايل وهى بلفظة القبطى ⲚⲢⲈϤⲦⲀⲚϦⲞ الذى تفسيرها المحيى، وهى لفظه مستعمله فى مواضع كثيره من القداس وجا

- -

الصليبيون بابا روما ان السلجوقيين «طوقونا من كل مكان بدرجة من الاحكام بحيث ان احدا منا لم يكن بوسعه ان يخرج وان احدا لم يكن بوسعه ان يتسرب إلينا». وفى الحال شعر المحاصرون بمشقات الوضع. لم يكن ثمة مأكولات. كان الفرسان يموتون جوعا ويهلكون من شتى البلايا الأخرى. وكانوا يذبحون خيولهم وحميرهم الهزيلة وياكلون لحومها. هكذا ابلغ الصليبيون روما فيما بعد. وقد اجبر العوز الكثيرين على استهلاك العشب ولحاء الشجر والحبال وطقوم الخيل الجلدية، بعد غليها. بل انهم لم يأنفوا عن أكل الكلاب والقطط والفئران الميتة وشتى الجيف.

واستحوذ اليأس على المحاصرين. واخذ الفرسان البواسل يفرون من انطاكية بالعشران والمئات، أفرادا وجماعات. وعادة كان الفارون ينزلون ليلا على الحبال المتدلية من الأسوار ويحاولون تحت ستار الليل ان يصلوا إلى السفن الراسية قرب ارصفة خليج القديس سمعان؛ ولهذانعتوهم فى صفوف العساكر بالفارين الحبليين. وكان قريب بوهيموند، غليوم دى غرانمينيل، أول الفارين من انطاكية؛ وفيما بعد انضم إلى ايتيان دى بلوا. وسار على منواله بعض المقاتلين الاقطاعيين الآخرين الذين خافوا من احتمال الوقوع فى الاسر وفقدان ما نهبوه.

حين بلغ الصليبيون المحاصرون فى المدينة حد اليأس وطفقت هلوسات الجوع تعكر صفو



الحربة المقدسة تلهب حماس الجند

بها كلام الامانه اخر القداس على هذه القضيه، وهو قولهم: «او من واعترف الى النفس الاخير ان هذا الجسد المحيى الذى اخذه الابن الوحيد ربنا ومخلصنا يسوع المسيح من مريم العذرى وصار واحد مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا افتراق». فلما وقف البطرك على كتاب انبا مقاره اسقف سمنود تغير على انبا سلمون واخوته واستوحش منهم وكثر الحديث فى ذالك، فانفد

عقول الكثيرين منهم، اعتبر ريمون دى تولوز، المدعى بانطاكية، ان الفرصة قد سنحت لكى يرفع مكانته وسمعته بالذات فى عيون المقاتلين الصليبين ـ على حساب منافسه بوهيموند دى تارنتو. ولهذا الغرض قرر ان يستفيد من خدمات كابيللانه ، الرجل التقى الورع، الذى يعرف كيف يسهر على مصالح سيده. ان تأجج عواطف الصليبيين الدينية قد خلق وضعا ملائما جدا لأجل تنفيذ العملية الدينية السياسية المخططة فى محيط الكونت والهادفة إلى زيادة حظ ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، فى الصراع ضد بوهيموند من أجل امتلاك انطاكية. لقد هبطت معنويات الصليبيين، ولذا يجب القيام بامر خارق لكى ينتعشوا ويتشجعوا، علما بان مصدر الهامهم (الربانى الاصل بالطبع) يجب أن يكون على مقربة من الكونت ريمون دى سانجيل، والافضل ان يقودهم إلى هذا المصدر رجل صادق يعيش بخوف الله.

حاول كابيللانه الكونت ان ينفذ بكل مهارة وحذاقة نوايا سيده، التى كان يفهم جيدا مغزاها على ما يدو. فقد وجد فى صفوف الجحفل البروفانسية فقيرا اسمه بيار بارتيليمى (Barthélemy) وإذا بهذا الرجل يعلن ذات مرة لرفاقه فى السلاح انه رأى فى المنام ـ وليس مرة واحدة بل خمس مرات !ـ الرسول اندراوس وان الرسول اسر إليه بما يلى: فى كنيسة القديس بطرس بمدينة انطاكية توجد حربة مطمورة هى الحربة التى طعن بها، كما جاء فى

وجمع جماعه كثير من الاساقفه ونظرو فى ذالك
فوجدوه حق وليس فيه شيا يكره لانه الجسد المحيى
بالحقيقه ومودى من يومن به الى الحياه الدايمه،
فكتب البطرك بذالك الى ساير الاعمال، فقبلوه
اهل الوجه البحرى ومصر والاسكندريه وجميع
رهبان الديارات ما خلا القسآ باسكنا ابو مقار فانهم
امتنعو من اضافتها واعتذرو عن ذالك بانها مضافه
مستجده لم يجرى بها عادة من تقدمهم، وانها ما

الانجيل، المحارب الرومانى فخذ يسوع المسيح المصلوب على الصليب. فإذا وجد الصليبيون هذه الحربة المقدسة المغمسة بدم ابن الاله، فقد خلصوا!. تلك كانت الإرادة السماوية التى نقلها إلى بيار بارتيليمى، الرسول اندرواس فى حلم الليل.

وعلى الفور، حسبما روى ريمون دى اجيل، راح الرجل البروفانسى الذى استحق رسالة السماء يروى لريمون دى سانجيل، عن هذه الرسالة. وبالطبع استقبل الكونت استقبالا حارا النبأ المشجع الذى حمله له مواطنه صاحب الرؤيا والنبوءة. يقينا ان بيار بارتيليمى قروى بسيط والبسته ممزقة، ولكن هذا أفضل بكثير مما لو ظهر الرسول اندراوس للفارس. فان الصليبيين الذين يحلمون نهارا وليلا بالخلاص سيصدقون هذا الرجل البسيط بصورة اسرع!. عهد الكونت ببيار بارتيليمى إلى الكابيللان ريمون من اجيل، وامر فى الحال بالتنقيب فى الكنيسة.

ارسلوا إلى الكنيسة فصيلة من ١٢ رجلا، من فرسان وكهنة، فضلا عن بيار بارتيليمى نفسه، واخرجوا جميع الناس الآخرين من الكنيسة. رفعوا بلاطه وطفقوا يحفرون الأرض تحتها. حفروا زمنا طويلا جدا، يوما كاملا (١٤ يونيو ١٠٩٨) واخيرا ـ يا للعجيبة!ـ ظهرت فى الغسق، فى قاع الحفرة، قطعة من حديد صدىء. وكما كتب ريمون من اجيل، «تعطف الرب

اضـيـفت الا لمعنى اخـر منجلهم [من أجلهم]، فانتصب قوما منهم لمرافعت هذا الاب البطريرك والاساقفه وتحدثو فيهم باشياً كثير، واطمعو الصالح الوزير انهم يحصلو له منهم مال لعلمهم بظلمه ومحبته للمال، فانفذ احضر هذا الاب البطرك مع الرهبان الى بين يديه وعقد لهم مجلس قدامه وجرى الحديث في معنى عقيده النصارى ومقالتهم، وكان قصده ما يحصله منهم لا النظر

على شعبه التقي واظهر لنا الحربة. وانا الذى كتبت هذا قبلتها حين ظهر بالكاد طرف الحربة من الأرض».

وهكذا تحققت إشارة الرسول اندراوس «النبوية»، وعثر على الحربة المقدسة التى أخبر عنها فى الحلم بيار بارتيليمى، ومع هتافات التهليل، وبمصاحبة إنشاد النشيد الكاثوليكى «الحمد لك، يا الله»، وضعوا الذخيرة على مذبح كنيسة القديس بطرس. وسرعان ما انتشر نبأ اللقية فى معسكر الصليبيين. فارتفع فى الحال مزاج الصليبيين. كتب الفارس انسلم دى ريمونته إلى الاسقف منسّى فى ريمس (فرنسا): «ان لقية الحربة المقدسة قد انعشت قلوبنا من جديد». ويقول مدون اخبار فرنسي: «فرحت جميع العساكر واى فرح، وكان كل يستحث الآخر على الشجاعة، ولم يكن من الممكن ان يشبعوا من التحدث عن العون الربانى الذى جاءهم». ويردد مدون أخبار آخر: «الشعب كله، ما ان سمع بذلك، حتى حمد الرب».

ان الصليبيين الذين كانوا يتحرقون رغبة فى شق الحصار، والذين احسوا بنهوض العواطف الدينية ، قد امتلأوا بالحماسة القتالية. فمن المؤكد ان الحربة العجيبة ستنشلهم من المصيبة!

وبالفعل ، بعد اسبوعين ،ـ فى ٢٨ يونيو ١٠٩٨ ،ـ تحقق الفصل الثانى من المعجزة التى انبأ بها الرسول اندراس «بصورة نبوئية» فى الحلم. فان الصليبيين الواثقين بان الرمح المقدس

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

فى الديارات، لان النصرانيه حاله معروفه ليس هى دين جديد يحتاج الى البحث عنه واختباره، ولما جرت المخاطبه فى المجلس قال البطرك للصالح الوزير: موسى ايش هو عندك؟ قال: نبى. قال: فى المسيح ما هو عندكم؟ قال: روح الله وكلمته. قال: اتقدر ان تقول ان روح الله وكلمته نبى. قال: لا. قال البطرك: فروح الله وكلمته اعظم واشرف من الانبيا لانه خالق الخلايق كلها بكلمته الذى بها

سيؤمن لهم النصر على عدوهم كربقا، قد اندفعوا إلى القتال بالبلط والسيوف والرماح، مستعدين للاقدام على أية مجازفة وتهور لاجل قهر الوثنيين. قاتل الصليبيون بضراوة وعنف. كذلك اشترك الكابيللان ريمون دى سانجيل فى المعركة: فقد حمل فى يديه، ساندا اثناء سيره رداءه الكهنوتى، حربة السيد المسيح، فكان لابد لمنظره ان يبعث القوى فى المهاجمين. وفى ذلك اليوم، هزم الصليبيون، وقد شجعتهم لقية الذخيرة النفسية، جيش كربقا فى معركة فاصلة.. وقد فر جيش كربقا؛ ومذ ذاك انتقلت انطاكية نهائيا إلى ايدى الغزاة الغربيين.

إلا أن المقاصد السياسية التى رسمها ريمون دى سانجيل، كونت تولوز، والتى اخرجت من اجلها المسرحية الدينية قبل المعركة، لم يكتب لها النجاح. فان بوهيموند دى تارنتو، منافس ريمون دى سانجيل، هو الذى كان عمليا، هذه المرة أيضا، منظم النصر على كربقا، وعهد الأسياد إلى النورمانى، رغم عدم رغبتهم، بالقيادة العليا؛ وله بالذات كان الصليبيون مدينين من جديد بالنصر على السلجوقيين. وعجزت الحربة المقدسة عن توفير كسب سياسى للكونت ريمون.

أما الدور الرئيسى فى نجاحات الصليبيين، فلم تلعبه بسالتهم الحربية بقدر ما لعبته الخلافات

قال لكل الخلايق كوني فكانت كلمح البصر، فهي خالقة الخلايق والاشيآ كلها. فسكت الوزير وجرى بينه وبين الرهبان مرافعات كثير فزجرهم البطرك بالكلام واشار بعكازه الحديد الذى بيده ليضرب بعضهم فصرخو وشكو ذالك للوزير وقالو له: يحرق [يخوفنا] بنا قدامك في مجلسك فقال لهم: مدو ايضا انتم ايديكم اليه. فقالو: ما نقدر. فامر باخراج البطرك فخرج من قدامه وهو يدعى

التي نشبت بين الامراء السلجوقيين عشية المعركة. فقد تأزمت العلاقات بين كثيرين منهم وبين الموصل. وفارق دقاق، صاحب دمشق، كربقا، عندما ابلغوه ان الفاطميين يستعدون لمهاجمة فلسطين من الجنوب، كذلك فارقه بعض القادة العسكريين السلجوقيين الذين استاؤوا، كما يفيد المؤرخ العربى ابن الأثير، من غطرسة القائد العام الأعلى فى معاملتهم. وانخفض كثيرا عدد افراد قوات المسلمين. وللمناسبة نقول ان الصليبيين لم يعرفوا شيئا عن هذه الخلافات؛ ففى ٢٧ يونيو اجروا مع كربقا مفاوضات بشأن رفع الحصار عن انطاكية (وكان بطرس الناسك أحد المفوضين المرسلين إلى السلجوقيين لاجراء المفاوضات). اخفقت المفاوضات، وفى اليوم التالى قسم بوهيموند جيش الصليبيين إلى ست فصائل، وساق هذه الفصائل إلى الهجوم، وتكلل الهجوم بالنجاح فعند رؤية الصليبيين يخرجون صفوفا منتظمة من باب انطاكية، استحوذ الذعر على السلجوقيين الذين كانوا قد قل عددهم كثيرا. وسرعان ما ولوا الأدبار.

فيما بعد كتب الصليبيون إلى البابا: «ما أن أحرزنا النصر حتى طاردنا العدو طوال اليوم بكامله، وقتلنا كثيرين من مقاتلى العدو، ثم تحركنا إلى المدينة بفرح وابتهاج». وهذه المرة استولوا كذلك على قلعة المدينة، فقد حاصرتها فصيلة كونت تولوز، ولكن آمر القلعة احمد

٧٢: الاب يوحنا البطرك ١١٤٧/ ١١٦٦م

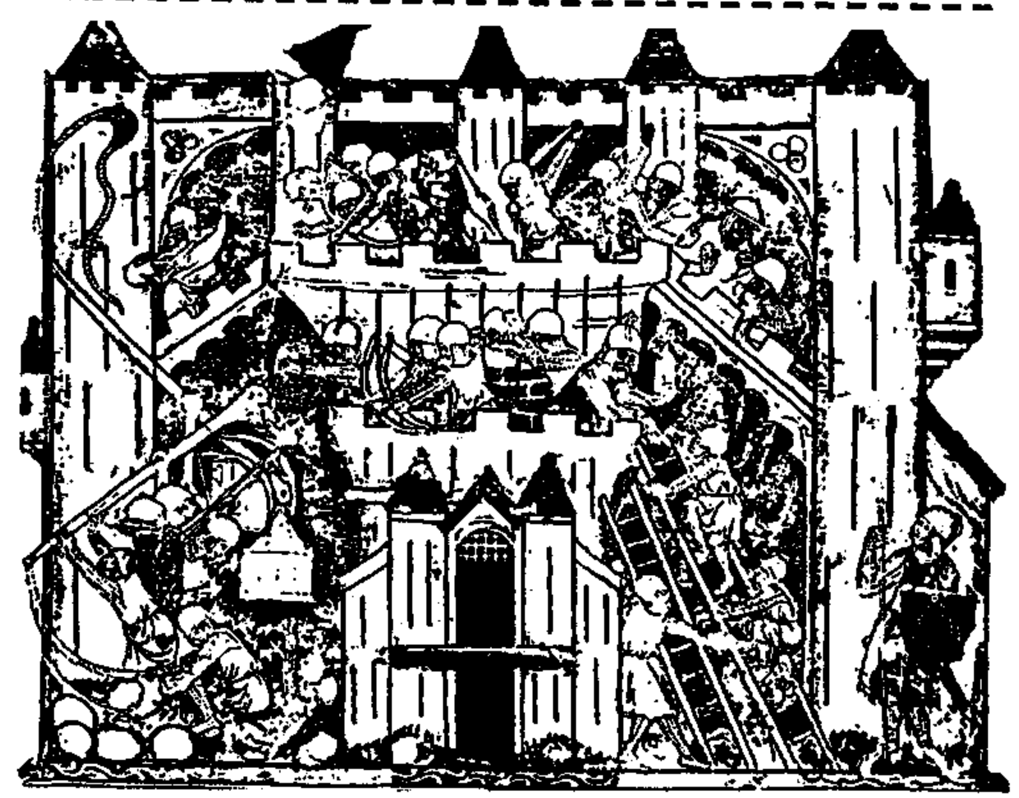
عليه ويقول: كما رفعت اصاغرنا علينا الرب يرفع اصاغر قومك عليك. فوكل به الصالح رجلين ثم امر باعتقاله، وكتب مناشير وسيره مع المترسمين بالاجعال الى كراسى الاساقفه بالوجه البحرى، ونالهم صعوبه عظيمه من المترسمين ومن ولاة الاعمال الى ان ظهر الله اعجوبه مشهوره تحدث بها المسلمين الذين كانو معه معتقلين اكثرى مما تحدث بها النصاره، وذالك انه كان ملازم الصوم

ابن مروان استسلم مع المحاربين الألف الموجودين في القلعة لبوهيموند عند وصوله إلى القلعة؛ أغلب الظن انه كان قد تم الاتفاق معه بشأن شروط الاستسلام.

ان واقعة العثور على الحرب المقدسة بفضل بيار بارتيليمي هى بنظر المؤرخ والفارس النورماني راوول دى كايّان مجرد خداع من اعداد ريمون دى تولوز ومقربيه. والفلاح بيار بارتيليمي الذى زعم أن الرسول اندراوس كشف له في رؤى عديدة مكان الذخيرة وتنبأ له بالنصر على الكفار في حال العثور على هذه الذخيرة المقدسة «بهذه العلامة تنتصر!» كان مجرد «مخترع داه للكذب». ولقية الحربة المقدسة في الكنيسة هى نفسها من صنع هذا الكذاب. وقد كتب راوول من كايان بسخرية عن البحث الذى استمر يوما كاملا عن الذخيرة تحت بلاط الكنيسة والذى لم يتكلل بالنجاح في الآونة الأولى. وغير ذلك لم يكن من الممكن توقعه، «لأن الأرض الرطبة لم يكن بوسعها أن تعيد ما لم يعهد إليها به يوما».

ويستطرد راوول دى كايّان: أما إذا كانوا قد عثروا في آخر المطاف على الحربة في كنيسة القديس بطرس، فليس ذلك إلا لأن بيار بارتيليمي قام واخفاها عنده، قصد استعماله للخداع. وكان هذا البروفانسي يحسب على الأخص استغلال قطعة الحديد هذه لأنها لم تكن تشبه من

والصلاة والطلبه الى الله كجرى عادته، وانه ليله من الليالى غفى ونام ثم قال لمن حوله من الناس: تقوو بالله وافرحو فانه بعد ايام يسيره يفرج الله عنى وعنكم. وكان لانه بعد اربعه عشر يوما من روياه وهو فى الاعتقال ركب الصالح من داره فى عزه وموكبه ومملكته الى القصر للسلام على جارى العاده، فلعبو عليه في دهليز العمود وهو خارج من عند الخليفه بيد رجل من اصاغر الناس يعرف بابن



القتال حول قلعة انطاكية.

الراعى، كما دعى عليه الاب البطريرك كذالك كان، وحمل الى داره مجروح، فمات وانفذ ابنه مجد الاسلام اطلق البطرك وكلمن معه فى السجن، وفرج الله عنهم بصلاته وقدسه، وكذالك الاساقفه فرج الله عنهم بعدما قاسو من الضر فى النكال وغرامه الاجعال ما اضر بهم. وصدق قول مخلصنا فى الانجيل: «انى معكم الى انقضا العالم». فله الشكر على ذلك.

حيث شكل الحربة وقياسها الحربة العادية. ثم يورد المؤرخ راوول من كايّان التفسير الذى شاع، أغلب الظن، فى أوساط المرتابين والذى كان، كما ينبغى الظن، غير بعيد عن الحقيقة. «كان (بيار بارتيليمى) مسلحا بمعول؛ وقد اختار اللحظة المناسبة لأجل خداعه، وقفز إلى الحفرة ((المحفورة تحت بلاطة فى الكنيسة) مع المعول واقترب من حافة (الهوة)، وقال «هنا يجب الحفر». وضرب بيار الأرض مرارا عديدة بالمعول وبلغ أخيرا الهدف المنشود: فإن الحربة التى دفنها بنفسه بالخداع قد ظهرت فى التربة». «العتمة تجمع الناس». بمثل هذه التعابير يكشف راوول من كايّان سر المعجزة، مجلببا بالخزى والعار بيار بارتيليمى وكذلك ـ وهذا مهم جدا ـ الذين كانوا يقفون وراءه».

وهناك واقع آخر واسع الدلالة. ان اللوحة التى رسمها الكاثوليكى راوول من كايّان تتطابق فى الرئيسى والجوهرى مع اللوحة التى رسمها المؤرخ العربى من القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر ابن الأثير، الرجل من عالم مغاير تماما، عالم الشرق وعالم الإسلام، ففى معرض الحديث فى مؤلفه «الكامل فى التاريخ» عن المصائب التى عاناها الفرنجة فى انطاكية التى احتلوها، كتب يقول: «وكان معهم راهب مطاع فيهم.. قال: ان المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان الذى بانطاكية... فان وجدتموها فإنكم تظفرون وان لم تجدوها فالهلاك متحقق وكان قد دفن قبل ذلك حربة فى مكان فيه وعفا أثرها وامرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم

وفى ايام شاور الوزير تنيح البطرك انبا يوانس فى اليوم الرابع من بشنس سنة ثلث وثمانين وثمان مايه للشهدا [١١٦٧م] فى كنيسة القديس ابو مرقوره وكان له مناحه عظيمه وليله حسنه بالصلوات والقراه، وفى صبيحة تلك الليلة دفنو جسده فى الكنيسه المذكوره مع جسد الاب انبا غبريال البطرك الذى كان قبله، وقيل عنه ان قوم تحدثو معه فى نقل جسد انبا غبريال البطرك الى

والصناع منهم وحفروا فى جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر فقال لهم ابشروا بالظفر». ثم يتحدث المؤلف عن هزيمة السلجوقيين فى جوار انطاكية ويفسرها بالخلافات بين الأمراء وكربقا.

أما أن قصة لقية الحربة المقدسة كانت حيلة بداية بنظر المؤرخ المسلم، والمشترك فى حروب السلطان المصرى صلاح الدين الأيوبى ضد مملكة القدس، فلا داعى إلى استغراب ذلك. ولكن من اين تنبع هذه النظرة السليمة الصائبة عند راوول دى كايّان، الرجل الذين يقف عموما فى تربة العقيدة المسيحية القائلة بالعناية الإلهية؟ ان موقفه العقلانى إلى هذا الحد من المعجزة ينبع بقدر كبير من عامل سياسى بحت. فان راوول دى كايّان قد أعرب قبل كل شيء وبصورة رئيسية عن نظرات القادة النورمانيين فى الحملة، بوهيموند دى تارنتو واتباعه وحلفائه. فان أمير الايطاليين ـ النورمانيين بوهيموند، الطامع بمدينة انطاكية، قد استقبل، طبعا، بعدم الثقة وحتى بالعداء قصة الوحى الربانى بلقية الحربة المقدسة، إذ أنها صدرت من بيئة الصليبيين البروفانسيين، من وسط أفراد قريبين من منافسه فى الإدعاءات بمدينة انطاكية ريمون دى سانجيل. وكان هذا كافيا لكى ينظر النورمانيون بحذر واحتراس إلى قصة الحربة المقدسة.

دير ابو مقار فقال لهم: سيجى من ينقل جسدى وجسده جميعا. فكان كما قال لانهما نقلا الى دير ابو مقار فى ايام الاب الجليل انبا مرقس ابن زرعه البطرك بعده فى الصوم المقدس سنة سته وثمانين وثمان مايه للشهدا [٨٨٦ ش = ١١٧٠م] الابرار، وكان لاخراجهما ليله مشهوره من كثرت الجمع والناس الحاضرين لذالك ومداومة القراه والصلوات من اول الليل الى اخره، وحملو

فى تلك الأزمنة التى نتحدث عنها، كان المبدآن العقلى والاسطورى يتعايشان فى إطار عقيدة دينية مشتركة تسود على العقل والمشاعر. ولكن لا المتعصبون الدينيون، ولا العقلانيون الذين حملوا إلى إيمانهم هذه القيود أو تلك، التى يمليها العقل، كانوا يملكون على الصعيد الاخلاقى والمعنوى أية من مزايا يتفوقون بها بعضهم على بعض؛ فان الناس الاتقياء بغيرة وحماسة من طراز ريمون دى سانجيل، والفرسان الميالين إلى القتال وذوى التفكير المعيشى الأرضى من طراز تنكريد، كانوا فى آخر التحليل يعتنقون ايمانا واحدا، ودينا واحدا، ونظرات واحدة وكانوا يتمسكون باخلاق واحدة، فى ذلك الزمن كان فجر العقل لا يزال فى مطلعه(*).

إمارة انطاكية. مواصلة الحملة

بقى الصليبيون فى منطقة انطاكية نصف سنة. وأسباب ذلك مختلفة: التعب العام، والرغبة فى تجنب قيظ الصيف المضنى الذى لا يطاق، ونقص المأكولات، والسعى إلى الخروج من المدينة، وان مؤقتا، نظرا للوباء الذى نشب هناك (أغلب الظن ، وباء التيفوس؛ وفى أول

(*) تجدر الاشارة الى ان الكردينال بروسبيرو لامبرتينى، الذى صار فيما بعد البابا بنديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠ ـ ١٧٥٨) قد انكر رسميا فى القرن الثامن عشر صحة قصة الحربة المقدسة الانطاكية.

اجـــسـادهم من طريق دير نهـيـا ودفنا فى تربة البطاركه مع ابايهما بسلام من الله نيح نفوسهم اجمعين، رزقنا الله بركة صلواتهم المقدسه امين.

اذكر يارب عبدك الحقير الذليل المسكين شنوده بالاسم قـمص(*) خادم دير القديس العظيم البار انبا بولا الكبير اول السواح الذى رم هذه السير يرجو بذالك العفو والمسامحه بغفران خطاياه بشفاعه من ذكر اسمايهم فيها، وكان ترميم ذالك

(*) اسم مُرمِّم هذه السيرة شنوده، وكان ذلك فى ايام البطرك ١٠٩ بطرس الـسـابع ١٨٠٩ / ١٨٥٢م، فى عهد محمد على باشا.

- -

اغسطس ، كما سبق ان قلنا، توفي الاسقف اديمار دى بوى. ولذا صارت الإقامة فى انطاكية محفوفة بالمخاطر. أما السبب الرئيسى، فقد تلخص فى تحرق الدوقات والفيكونتات إلى تثبيت الأراضى المجاورة للمدينة لأنفسهم. والى هذه الأراضى راحوا مع فرسانهم وحملة سلاحهم. اتجه بوهيموند إلى قيليقيا ـ لأجل تعزيز الحاميات المتروكة هناك ـ وغودفروا دى بويّون إلى تل بشر ورافندان، وروبرت النورمندى إلى اللاذقية، من حيث سرعان ما طرده السكان المحليون مفضلين على فرسان الدوق الحامية البيزنطية التى قدمت من قبرص.

ولم يرجع رؤساء المقاتلين الصليبيين مع فصائلهم إلى انطاكية إلا فى سبتمبر ، ولكن الوقفة فى الحملة استمرت بعد ذلك. وتورط الصليبيون هنا بضعة أشهر أخرى. وفى ١١ سبتمبر ١٠٩٨ وضع القادة، تبريرا لموقفهم، رسالة طويلة إلى البابا اوربان الثانى، فتحدثوا بالتفصيل عن حصار انطاكية وفتحها وعن قصة الحربة المقدسة وظروف هزيمة كربقا. وختاما ، خاطب «قديسو يسوع المسيح»، كما سمى أصحاب الرسالة أنفسهم، البابا داعينه إلى أن ينجز بشخصه بالذات المشروع الذى قاموا به استجابة لندائه «تعال إلينا، واقنع جميع من تستطيع اقناعهم بالمجيء معك». وآنذاك ، كما وعد الصليبيون البابا، «سيخضع العالم كله لك». وبانتظار الجواب، ولم يستعجل الأمراء التحرك من مكانهم. ولكن هذا أيضا لم يكن سوى ذريعة لأجل التأخر. من ذا الذى سيملك انطاكية؟ ذلك هو السؤال الذى واجه الزعماء على

يوميذ بالقلايه العامره بالمحروسه في ايام رياسة
السيد الاب الجليل المغبوط الطوباني ريس الرووسا
وسيد السادات الاب المكرم بكل نوع انبا بطرس
البطريرك التاسع والمايه من عدد الابا البطاركه،
ادام الله تعالى علينا رياسته سنينا عديده وازمنه
متصله سالمه هاديه مديده بالعمر الطويل والحياة
السعيدة امين.

المكشوف وأثار خلافات عميقة بينهم. وهذا بالذات هو ما حال دون الصليبيين ومواصلة الزحف.

كان بوهيموند دى تارنتو وريمون دى تولوز المدعيين الرئيسيين بانطاكية. وكان فرسان الأول يشغلون قلعة المدينة وقسما كبيرا من المدينة؛ وكان فرسان الثاني يشغلون قصر ياغي سيّان والبرج قرب الباب، وقرب جسر نهر العاصى. وفي كنيسة القديس بطرس بانطاكية كانت تجرى مداولات لا نهاية لها لرؤساء الصليبيين؛ كانوا يتناقشون حتى البحاح في الحل العادل لأهم قضية بالنسبة لهم في اللحظة المعنية، قضية تسليم السلطة في انطاكية. وكان كل من المتنافسين يحاول أن يثبت، والزبد على شفتيه ، مقدار أهمية القسط الذى اسهم به في فتح المدينة، وبالتالي حقوقه المفضلة بالذات في امتلاك المدينة. حظى بوهيموند بدعم الفرسان النورمانيين والفرسان الفرنسيين الشماليين، والكونت ريمون دى سانجيل بدعم الفرسان البروفانسيين. كتب راوول دى كايّان: «الناربونيون، والافرنيون والجاسكونيون ـ جميع هذه القبائل التحقت بالبروفانسيين؛ أما إلى الابوليين (اى النورمانيين)، فقد مالت كل بقية بلاد الغال في المؤامرات».

لم تكن أغلبية الاسياد ترغب في مشاطرة وجهة نظر ريمون دى تولوز، الذى كان يؤكد بعناد غير مفهوم انه يجب تسليم انطاكية ـ بموجب التزامات التبعية ـ الى الامبراطور

بسم الاب والابن والروح القدس اله واحد امين

أنبا مرقس ابن زرعه

وهو من العدد الثالث والسبعون

[١١٦٦ / ١١٨٩ م]

نبتدى بتاييد القدرة العالية بنسخ السيرة الاوله من سير الابا البطاركة الارتدكسيين من الدور التانى، وهى سيرة الاب الجليل الفايز بنعمة الروح

البيزنطى. ذلك انه هو بالذات، الكونت ريمون دى سانجيل، رفض قطعا منذ وقت قريب حلف يمين التبعية للامبراطور الكسيوس الأول! وها هو الآن يفضل بكل وضوح زعامة بيزنطية الاسمية على انتقال السلطة فعلا إلى بوهيموند من تارنتو.

ان موقف كونت تولوز بدا لجودفروا دى بويّون، وروبرت من الفلاندر، وروبرت من نورمنديا وغيرهم من الأسياد والاساقفة البارزين غير مقبول خصوصا وانه أصبح من الجلى فى ذلك الوقت انه لا يمكن توقع أية مساعدة فعالة نوعا ما من بيزنطة. وبالفعل، عندما ارسلوا هوغ فرمندوا (وكان يرغب فى العودة نهائيا إلى فرنسا) - إلى الامبراطور الكسيوس كومنينوس لاستيضاح نواياه (وكان ذلك فى يوليو ١٠٩٨) تبين ان الامبراطور لا يفكر البتة فى مساعدة الصليبيين. وبينما كان الصليبيون يقاتلون فى سوريا، استغل الامبراطور الداهية وضع السلجوقيين الصعب، وانتزع منهم ازمير وافسس وبعض المدن والمناطق الأخرى سواء فى الغرب أم فى المقاطعات الداخلية من آسيا الصغرى. واخذ يعتبر الآن انه لا أمل فى احتمالات نجاح الحملة الصليبية؛ فان الفارين الذين غادروا انطاكية أثناء حصارها من قبل كربغا وفى المقام الأول الكونت ايتيان دى بلوا، كانوا ينقلون الواحد تلو الآخر إلى الكسيوس الأول اخبارا سيئة عندما كان مع قواته فى اعماق آسيا الصغرى، قرب فيليوميل. لم يبق من الممكن انقاذ

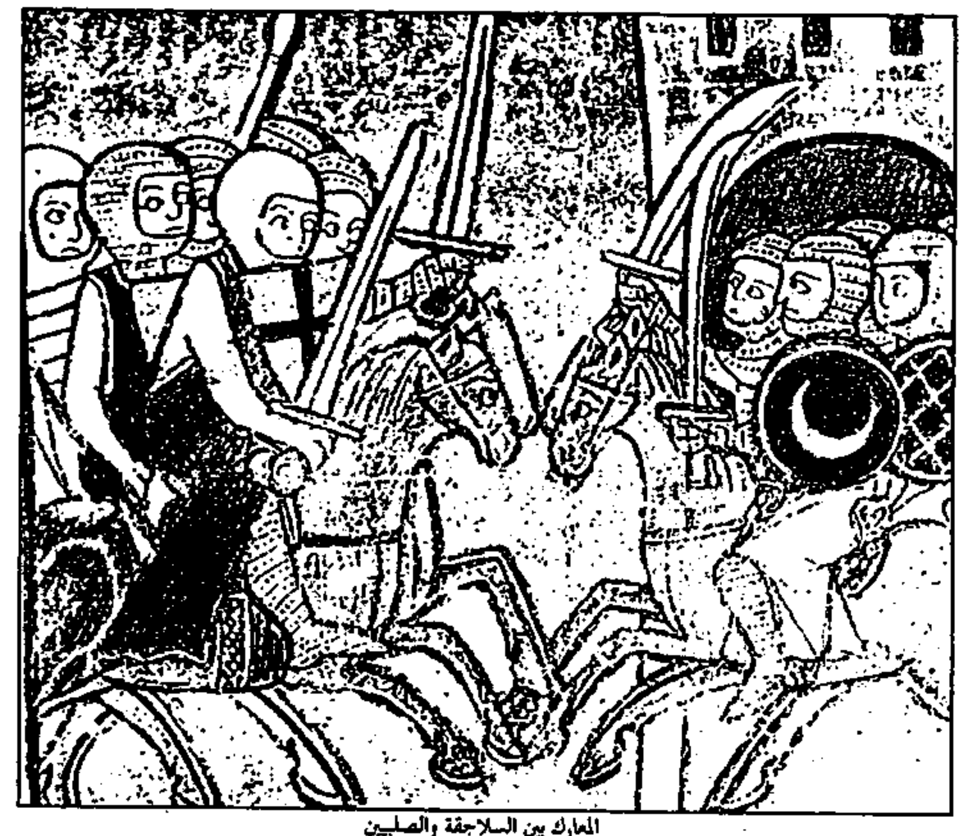
القدس انبا مرقس ابن زرعه، وهو من العدد الثالث والسبعون صلواته تحفظنا امين.

لما اكملنا بمعونة الله لنا ما نقلناه عن اسلافنا واباونا الاولون خلف بعد سلف من السادة الصالحين والاوليا المخلصين والصفوة المحقين كما قال في المزمور [٤٣] اللهم انا قد سمعنا باذاننا حين اباونا اخبرونا بالاعمال التى عملت في ايامهم الاولى. عدنا بالبحث عن سيرة النجبآ المختارين

الصليبيين! وان بيار من اولن ذلك الفارس الذى سعى إلى الحصول على كومانا ونالها قد ابلغ الامبراطور ان الروم، إذا ما مضوا إلى انطاكية، قد يتعرضون قبل الوصول إليها لهجوم جيش سلجوقى آخر يتجه إلى إبادة الصليبيين. كذلك اوصى مستشارو الامبراطور بالاجماع أن يتخلى عن الصليبيين.

في هذه الحالة اقترف الامبرطور البيزنطى خطأ سياسيا؛ فقد ترك الصليبيين وشأنهم، لحكم القدر، وبذلك قوض الثقة فيه، فوق ما هي من ضعف وتقلقل. ثم ان رفض الامبراطور مساعدة الصليبيين زاد من حظ بوهيموند في خلافه مع ريمون دى سانجيل؛ فان قادة الصليبيين وقفوا بمعظهم إلى جانب امير تارنتو. وبعد مهاترات طويلة في المجلس في ٥ نوفمبر ١٠٩٨ تقرر تسليم بوهيموند انطاكية. إلا أن ريمون دى سانجيل، ظل حتى رغم مرضه الشديد الوطأة، يحتفظ بعناد في المدينة بالمواقع التى يشغلها. وكان الجميع يكرهون الكونت ريمون دى سانجيل،بسبب جشعه الذى لا حد له! ومهما يكن من امر، كانت ثلاثة أرباع انطاكية تقع فعلا تحت رقابة الخصم النورمانى. صحيح ان بوهيموند اقسم اليمين أمام الملأ ـ كما طالب

للرياسة المسيحية والديانة الالهية والرعاية الفاضلة والامور الكاملة فابتدانا بما شاهدنا في عصرنا ورأينا في زماننا وهو ما نخبركم به في هذه السيرة، وما حدث في ايام هذا الاب الجليل من الامور الصعبة والشدايد المرهقة والدما المهرقة وزوال الدولة الاوله الثابت اصلنا بها، لكثير عساكرها واصحابها المعتصمة، بل المنيعة بكثرة اموالها واسبابها المحتجبة عن العيون في قصورها بكثرة



المعارك بين السلاجقة والصليبين

اجنادها وحجابها التى تنبا عليها دانيال السعيد وقال: يملك من بنى اسماعيل تسعة عشر ملكا على ارض مصر. ولما كمل من البيت العلوى الفاطمى اربعة عشر خليفة منهم ثلثة ملكوا بسجلماسه(*) والمهديه وافريقيه وغيرهم من بلاد الغرب [المغرب]، وهذا اسماوهم: المهدى، القايم، المنصور. وملك منهم على مصر الى اخر انقضا دولتهم، وملك دولة الفرس الذى هم الغز احدى

(*) سجلماسه تقع جنوب المغرب على طريق قوافل السودان الغربى. والمهدية على بعد ٢٢ كيلو متر جنوب شرق القيروان بتونس.

ريمون دى تولوز ـ بان يشترك فى الحملة حتى القدس بالذات، ولكن كان من الواضح للكثيرين انه قد بلغ هدفه فى سوريا.

وهكذا، فى أواخر سنة ١٠٩٨، تأسس كيان كبير ثان للصليبيين فى الشرق، عنينا به إمارة انطاكية.

إلا أن سائر زعماء الصليبيين لم يستعجلوا هم أيضا فى مواصلة الزحف؛ فقد انصرفوا كليا إلى عمليات الاغتصاب والنهب والسلب فى المناطق المجاورة لانطاكية، فان سلوك بودوان من الرها وبوهيموند من انطاكية كان معديا. وقد خيل ان الفرسان نسوا تمام الأرض المقدسة، وبقدر ما كان يمر الزمن، بقدر ما كان يتجلى طابع الحملة الصليبية العدوانى الاغتصابى. واكثر فاكثر كانت تنشب الخلافات والخصومات بين الغزاة. كتب أحد مدونى الأخبار: «كل مكان اعطانا ايه الرب كان يثير الجدال».

وقد شق نزاع حاد صفوف قوات الصليبيين فى قلعة معرة النعمان السورية (جنوب شرقى انطاكية) إلى حيث راحت فى أواخر نوفمبر فصائل البروفانسيين التابعة لكونت تولوز. فان بوهيموند لم يشأ أن يتنازل لخصمه عن هذه القلعة المهمة وأسرع فى اثره. استمر حصار القلعة اسبوعين. وتم فتح المدينة فى وقت واحد تقريبا ـ من جوانب مختلفة ـ من قبل

عشر خليفة وهم: المعز الذى بنا القاهرة، العزيز ولده، الحاكم ولد العزيز، الظاهر ولد الحاكم، المستنصر ولد الظاهر، المستعلى ولد المستنصر، الامر ولد المستعلى. ثم بعد ذالك من بنوا العم والقرابا: الحافظ، الظافر، ولده الفايز ولد الظافر، ثم قتل الظافر بيد نصر ابن عباس وقد قدمنا شرح قصته، ثم ملك بعده العاضد وهو اخر من ملك منهم. وكانة [كانت] مدة ملكهم بالغرب وبارض

النورمانيين والبروفانسيين (١١ ديسمبر ١٠٩٨) . نهبوا المدينة بلا رحمة وابادوا السكان بلا شفقة. قال فارس من حاشية بوهيموند: «كان الافرنج يقتلون كل مسلم، سواء كان رجلا أم امرأة، حيثما يجدونه». وقد تميز بوهيموند فى معرة النعمان ببالغ القساوة والجشع والغدر. فعند احتلال المدينة، امر بواسطة المترجمين بان «يجتمع» سكان المدينة «مع نسائهم وأولادهم وأموالهم في القصر القائم أعلى من البوابة واعدا شخصيا بانقاذهم من الموت». وعندما اجتمع السكان هناك، «قبض عليهم الأمير وانتزع منهم كل ما معهم أى الذهب والفضة ومختلف المجوهرات.. أمر بقتل بعضهم، وبسوق البعض الآخر إلى انطاكية لأجل البيع». كذلك برهن خصمه ريمون دى سانجيل عن القساوة ذاتها. بل أن البروفانسيين تفوقا على النورمانيين فى نهب المدينة؛ فقد قرروا اجبار السكان الذين اختبأوا فى الاقبية على الخروج منها بفعل النار والدخان. ويعرب مدون اخبار ريمون سانجيل عن الاسف لكونهم «وجدوا القليل من الغنائم» هناك.

بعد مرور فترة وجيزة على فتح معرة النعمان التى بقى فيها الغزاة اكثر من شهر، نشبت الخلافات من جديد بين النورمانيين وبين الفرسان من بروفانس. وقد بدأت هذه الخلافات، كما يروى مدون أخبار بروفانسى، لان فرسان بوهيموند استولوا على معظم الابراج والبيوت والاسرى مع انهم لم يقاتلوا بما يكفى من الضراوة فى المعركة.

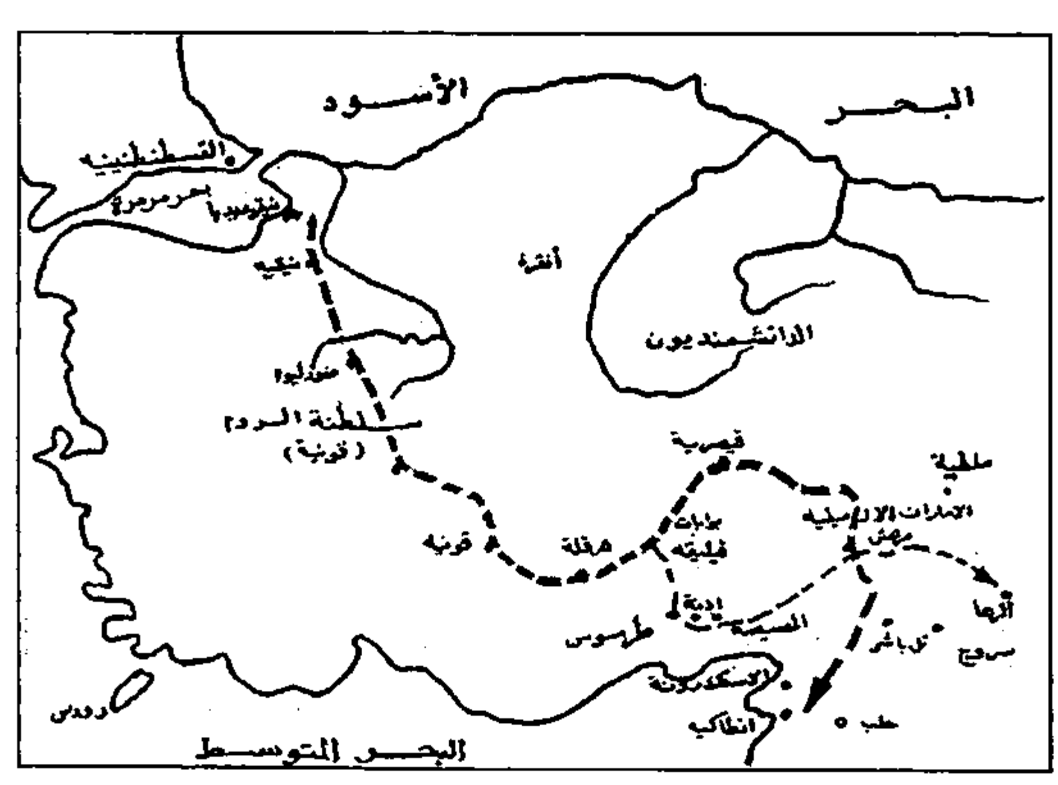
مصر الى يوم زوال الملك من يد العاضد فى اخر
المحرم سنة سبعة وستين وخمس ماية [آخر محرم
٥٦٧هـ ١١٧١م] [الهلالية]. وذالك ان المهدى
ابو محمد عبدالله ظهر بسلجانه [سجلماسه]
وملكها يوم الاحد السابع من ذى الحجة سنة
تسعين ومايتى للهجرة [٢٩٠هـ = ٢-٩/٩٠٣م]
والى حين انقضايها على ايام دولة العاضد ابو
محمد عبدالله وهو الرابع عشر منهم مايتى

احتلال القدس

اسرع الصليبيون جموعا الى الهدف محاولين ان يسبقوا بعضهم بعضا، وكانت الوحدة الداخلية مفقودة بين حكام سوريا وفلسطين السلجوقيين، كما كان من قبل، وكان الامراء السلجوقيون في خلافات دائمة . ثم ان هزيمة كربقا فى انطاكية قوضت تنظيم قوات السلجوقيين، ناهيك بان الحروب بين الاقطاعيين السلجوقيين لم تهدأ نيرانها امام العدو المهاجم من الشمال. وكان الخصام بالغ الحدة بين رضوان ابن تتش صاحب حلب ودقاق صاحب دمشق.

كان الامراء العرب في المدن الساحلية يتخوفون من السلجوقيين؛ وكانوا لا يرون فى الصليبيين اعداء بقدر ما كانوا يرون فيهم حلفاء في الصراع ضد الاعداء من ذوى الدين نفسه. ومع ان الفاطميين لم تكن تنوى البتة تسليم فلسطين للصليبيين، الا ان الفشل الذى منى به السلجوقيون فى انطاكية كان يناسبها تماما. واستغل الفاطميون هزيمة كربقا، فارسلوا قواتها الى فلسطين وسوريا؛ وفى ١٠٩٨ استولى الفاطميون على القدس، ووصلت قواتهم المسلحة الى بيروت. وادرك الوزير الافضل حتمية الصدام مع الصليبيين ولكنه بذل جهده لتجنبه؛ فاثناء المفاوضات مع زعمائهم حاول ان يعرض عليهم شرطا مناسبا تماما من وجهة نظره، وهو حرية الدخول الى القدس. ولكن هذا العرض قوبل بالرفض؛ اذ ان القادة الافرنج

وخمسة وسبعون سنة وشهر واحد وسبعة وعشرون يوما. من ذالك ملكو بالمغرب اربعة وسبعون سنة، وملكو بمصر مايتى سنة وسنة واحدة. فأما وزراهم فلم ندرك الا عصر بعضهم ولا ظفرنا لهم بسير ولا شي يدلنا على مــدت ولاية كل منهم الوزارة ولا كم عــدتهم، وانما اخبــرنا القــريب من اســلافنا باسمـاء بعضـهم ممن شاهدوه وينعتونهم على ما رتبـوه فيـمـا بينهم مما زعـمـو انه تفخيم لامرهم



تقدم الحملة الصليبية الاولى فى آسيا الصغرى

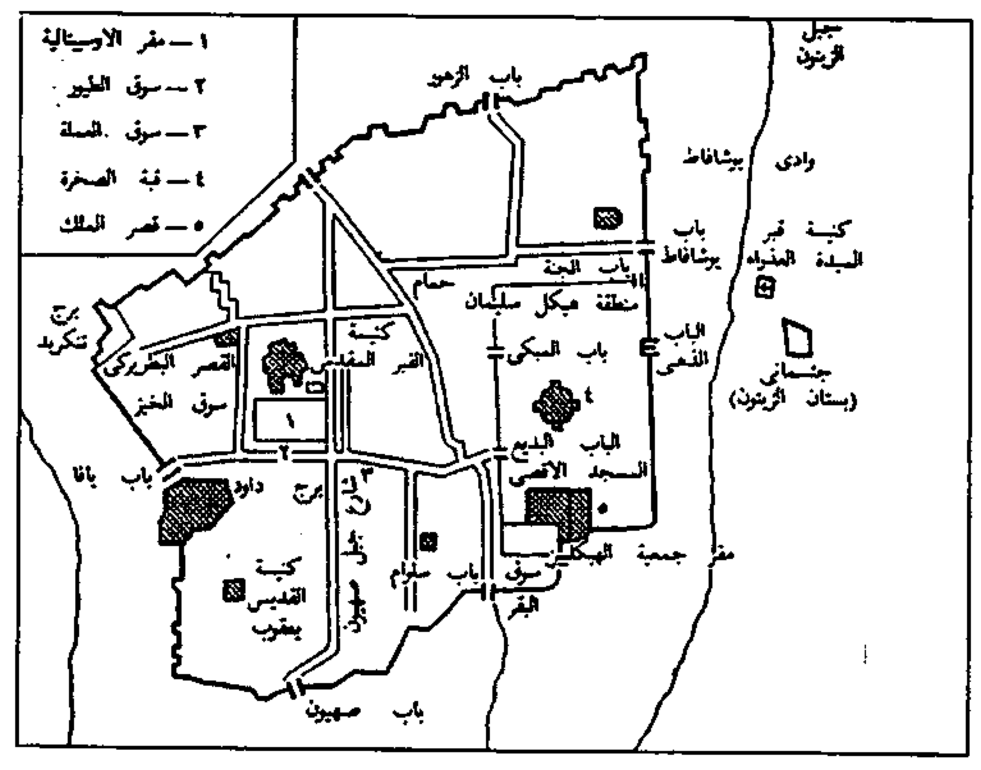
وتعظيم لقدرهم، فقالو انه وزر للمستنصر رجل
نعته امير الجيوش واسمه بدر الجمالي، للمستعلى
سيف الاسلام يانس، والامر والحافظ المامون ويانس
وتاج الدولة بهرام ورضوان ابن الوخشى، وللظافر
نجم الدين ابن مضال والعادل ابن السلار، والعباس
والفايز والعاضد والصالح طلايع ابن رزيك ومجد
الاسلام ولده، وامير الجيوش شاور السعدى،
والمنصور ضرغام. والملك الناصر صلاح الدين

كانوا لا يعتزمون البتة الاكتفاء بمدينة الرها ومدينة انطاكية ؛ اذ ان هدفهم كان امتلاك فلسطين ومنها القدس فى المقام الاول.

كان الصليبيون يتقدمون باتجاه الجنوب فى طابورين كبيرين. كانت الجموع السائرة بقيادة ريمون، كونت تولوز تسير شرقى جبال النصيرة، والجحافل السائرة بقيادة غودفروا دى بويون وروبر الفلمنكى بمحاذاة الساحل . ولصرف هذه الفصائل عن القيام بعمليات عدائية، ارسل حكام طرابلس وبيروت وصيدا وصور العرب اليها شتى الهدايا ـ النقود، والمنتوجات الغذائى، وبراميل ماء الشرب ـ وبعثوا الرسل؛ وعرض هؤلاء على الصليبيين حرية العبور بلا عائق فى ممتلكات امرائهم الراغبين فى وقاية مدنهم وضواحيها والكروم الغنية وبساتين الخضراوات والفواكه من ضراوة القطعان الافرنجية وجشعها. وهكذا لم يلق الصليبيون اية مقاومة تقريبا. ولم تحدث اشتباكات كبيرة مع السلجوقيين الا من اجل طرطوس وجبلة وعكا؛ وعبثا حاول كونت تولوز امتلاك هذه القلعة الاخيرة، الا ان الزعماء الآخرين لم يدعموا مقصده.

فى أواخر مايو، ١٠٩٩ ، دخلت جحافل الفرسان الارض اللبنانية ثم الارض الفلسطينية. من الجلى ان النجاحات اضاعت صواب بعض القادة؛ فبعد فتح الرملة التى صارت اسقفية، أخذت ترتفع بينهم اصوات تطالب بالتوجه الى مصر بابليون (القاهرة). «اذا تغلبنا برحمة الله على ملك مصر، فاننا لن نتمكن من فتح القدس وحسب، بل ايضا الاسكندرية وبابليون وكثير من الممالك».

يوسف ابن نجم الدين ايوب وهو ثانى ملوك الترك بارض مصر واخر وزرآ دولت المصريين، لان اسد الدين شيركوه كان قد وزر [ه] العاضد من قبله وملك ستين يوما معدودة لم تزيد ساعة ولا نقصت ساعة ومات، وملك هذا صلاح الدين بعد [بعده]، وسنذكر ونشرح اخبار المملكة [الأيوبية] وكيف كان زوال الدولة الاوله [الفاطمية]، وفتوح البيت المقدس ومدن الساحل، وما فعله الله له وما



القدس تحت حكم الصليبين

ملكه الله اياه. ونصف طيب ايام مملكته وعدله ورخص الاسعار بجميل نيته وعدله فى رعيته، وما سامح به من المكوس وازالة المظالم مبينا مشروحا انشا الله.

كان هذا البطرك الجليل الفاضل الطاهر النبيل من نسل شريف يسمى قبل بطركيته ابو الفرج ابن ابو اسعد يعرف بابن زرعه ينسب بهذا الاسم الى جده ابو ابو جده، وقد وجدنا فيما تقدم من الابا

تحاشي الصليبيون المدن الساحلية الكبيرة (طرابلس، بيروت، صيدا، صور، عكا، حيفا، قيسارية)، واتجهوا من ارسوف الى القدس. وفى الطريق استولت فصائل تنكريد وبودوان دى بورج على بلدة بيت لحم حيث ولد يسوع المسيح كما جاء فى الانجيل. وسرعان ما اعلن تنكريد ادعاءاته بالبلدة واثبت رايته على مسلة كنيسة أم الاله فى البلدة، ولكن نشب نزاع بينه وبين بودوان دى بورج فى الحال من جراء ذلك . الا ان الظروف لم تسمح للنزاع بالتفاقم، اذ كان ينبغي الاسراع الى ابعد.

فى فجر ٧ يونيو ١٠٩٩، اقترب الصليبيون من القدس. تكشف منظر المدينة المقدسة امامهم من الجبل العالى الذى سموه مذ ذاك مونجوا «جبل الفرح». حاصر الصليبيون المدينة التي كانت تعتبر مقدسة بنظر الشعوب التى تعتنق المسيحية والاسلام واليهودية. وقد جعل الموقع الجغرافى من القدس عسيرة المنال على العدو. كانت تقع على سهل مرتفع عال ولم تكن مفتوحة إلا من الجهة الشمالية، وكانت تحميها من الجهات الاخرى جبال ناهيك بان حاكم القدس الفاطمى افتخار الدولة كان قد اتخذ التدابير الضرورية لحماية المدينة بوثوق، نظرا لاقتراب الافرنج. فقد طرد من المدينة جميع السكان المسيحيين وسيج مزاغل الابراج بحزم من القطن والتبن، وملأ خزانات المدينة بكمية كافية من المياه، وامر، على العكس، بتخريب جميع الآبار حول المدينة. وسيقت قطعان المواشي بعيدا فى الجبال. بل ان افتخار

(*) هو الانبا أفرهام السرياني البطرك رقم ٦٢ وكان ساويرس ابن المقفع كاتبه.

البطاركة بطركا يسمى بابن زرعه(*)، وكان الاب ساويرس ابن المقفع اسقف الاشمونين كاتبه، فان يكون من نسله فالله اعلم. وقد كنت انا المسكين ناظم هذه السيرة تحدثت مع ابن عم هذا البطرك وقلت له: اين مرباكم واصولكم؟ فقال: من اهل الشام. فتحققت انه من نسل ذلك البطرك لانه كان سريانيا من اهل الشام. وانا المسكين ناظم هذه السيرة رايت هذا الاب قبل تقدمته، وكنت ساكنا

- -

الدولة رم الاستحكامات الدفاعية الرومانية القديمة. صحيح ان حامية القدس لم تكن كبيرة؛ فلم تكن تضم اكثر من الف مقاتل، ولكن جيشا كبيرا هب من مصر الى مساعدتهم بقيادة الوزير الافضل.

كان الصليبيون الذين تملكهم الانتعاش والالهام الدينى يأملون سرا فى ان تسقط استحكامات القدس من تلقاء نفسها ما ان يقتربوا منها. وبدءا من ١٢ يونيو حاول الفرسان مرارا ان يستولوا على المدينة انقضاضا، ولكن عبثا. فكان لابد من الشروع فى الحصار. وقد امتد الحصار خمسة اسابيع. ولم يكن الصليبيون يملكون ما يكفى من القوى لاجل الاستيلاء على القدس المحصنة عنوة؛ فلم يكن عندهم من الرجال الصالحين للقتال، كما حسبوا انفسهم، اكثر من ١٢ الفا، «وناهيك بانه كان عندنا ـ كما كتب ريمون سانجيل ـ جمهور ضخم من المقعدين والفقراء. اما الفرسان فى صفوف قواتنا، فكان عددهم ١٢٠٠ او ١٣٠٠، لا اكثر كما اعتقد». وفى الآونة الاولى تبدى كذلك بصورة ملحوظة النقص الى السلالم وسائر معدات الحصار، ولا سيما منها ادوات الرماية.

والى نجدة الفرسان جاء الجنويون والانجليز؛ فقد رست بضع سفن فى يافا، فغادرها المصريون على الفور تجنبا للقتال. وقد حمل التجار على السفن الى الصليبيين الحبوب والخمور وكذلك الحبال والمسامير والفؤوس وغير ذلك من الادوات ومن مواد البناء الضرورية لصنع

بجــواره بمدينة مـصــر، وكـان كـثيــر من الناس المسلمين والنصـاره بمصـر يشـهـدون له بالعـفـة والديانة والصوم والصلاة والصدقة وفعل الخير مع كل الناس، وانه بتولا لم يتزوج قط ولا شـهـد له صبوة ولا زلة. وكان عالما في دينه خبيرا بامـور الكهنوت عاني بنفسه من صباه. وقد كان بلغني ان ابونا الطاهر يوحنا البطرك من قــبله نيح الله نفسه اخبر عنه بالغيب انه البطرك بعده، وذالك ان

ابراج حـصـارية، وادوات لهدم الاسوار ـ اى الكبوش والسلالم ـ ولكن سـرعـان ما حـاصـر الاسطول الفاطمي ميناء يافا. وبما ان القوات البحرية المصرية كانت متفرقة بكل جلاء، فقد كان من الميؤوس فيه خوض القتال ضدها. وفك الصليبيون سفن جنوه والسفن الانجليزية واستعملوا اقسامها لاجل المنشآت الحصارية.

في ١٣ ـ ١٤ يوليو ، قامت القوات الصليبية بمحاولات جديدة للهجوم. دفعوا الى السور برجين حـصـاريين هائلين برئاسة جودفروا دى بويون وريمون دى سانجيل. وكانوا قد صنعوا البرجين من جذوع قصيرة وكسوها بالجلود الخام. ولكن عبثا ! فما كاد الصليبيون يبدأون دفع البرجين نحو الاسوار، حتى تطايرت من جميع الجوانب الاحجار المطلقة من ادوات الرماية، والسهام ا لتى لا عد لها كالبرد. دارت رحى المعركة دون اية علائم على النصر.

بلغ الانقضاض ذروة الضراوة في ١٥ يوليو. فنحو الظهر، اقتحم المهاجمون القدس وسرعان ما سقطت المدينة. تكبد الغزاة خسائر فادحة، اثناء الحصار وفي ايام الانقضاض بالذات، تحت وابل الحجارة والسهام والقذائف المحشوة بالمواد السريعة الالتهاب التي انهال بها المقاتلون المصريون على رؤوس الصليبيين المحاصرين.

وقد ابدى المصريون الذين كانوا يدافعون عن المسجد الاقصى او «هيكل سليمان» كما

ابونا يوحنا البطرك قبله مرض فزاره جماعة من اراخنة مصر وكبارها، وكان [ابن زرعه] قد حضر معهم فقال للبطريرك: يا ابونا لو استعملت من الدوا كذا وكذا لوجدت الصحة. فقال له البطرك يوحنا: وحق اسكيمك يا ابونا قد استعملت. فدهشو القوم الحاضرين ونظرو الى بعضهم بعض يزعمو ان فيهم احد فى حلقه اسكيم فلم يرو احد غيره فعلمو ان كلام البطريرك له واشارته عنه.

- -



١٥ يوليو ١٠٩٩ سقطت القدس بعد حصار طويل وتدفق الصليبيون على المدينة

فلما تنيح الاب يوحنا بعد سنين كثيرة ذكروا ما تنبا به عنه. وكانت النوبة للرهبان فاخذوه المصريين وقدموه فلم يختلف في امره مخالف. وكان تقدمته بطركا في سنة ثمانين وثمان ماية للشهدا الموافقة لسنة ستين وخمس ماية الهلاية [= ١١٦٤م]، واقام على الكرسى خمسة وعشرين سنة، وتنيح في السادس من طوبه سنة تسع ماية وخمسة للشهدا الموافقة لسنة خمس ماية وخمس وثمانين الهلاية [= ١١٨٩م].

يسميه مدونوا الاخبار اللاتين، الذين استحكموا في برج داود الواقع في القسم الغربي من المدينة، مقاومة بالغة الشجاعة والجرأة في وجه الغزاة. وفي آخر المطاف، سلم افتخار الدولة الصليبيين القلعة وفتح باب يافا بعد ان ضمن لنفسه الحق في مغادرة المدينة بحرية.

ان «مخلصي قبر السيد المسيح» الذين تملكهم التعصب الاعمى وتحرقوا الى الانتقام من الكفار الذين تسببوا لهم بمثل هذا القلق والاضطراب بصلابتهم وبسالتهم وكبدوهم مثل هذه الخسائر، قد انقضوا بقساوة وحشية وضراوة همجية على سكان المدينة المفتوحة وثرواتها. ان حمامات الدم وعمليات النهب الشاملة المقترفة في القدس قد حجبت المآثم والوحشيات المقترفة في انطاكية. يقول مدون اخبار ايطالي نورماني: «عندما دخل حجاجنا المدينة، سا قوا وقتلوا المسلمين حتى هيكل سليمان بالذات ؛ وقد تجمع المسلمون فيه وخاضوا ضدنا معركة في منتهى القساوة طوال اليوم كله، ولذا سال الدم في الهيكل كله. واخيرا، تغلب رجالنا على الوثنيين واعتقلوا عديدا من الرجال والنساء في الهيكل ، وقتلوا منهم قدر ما ارادوا، وابقوا منهم قيد الحياة قدر ما ارادوا». وفي المسجد الاقصى ذبح الصليبيون ما لا يقل عن ١٠ آلاف شخص؛ هذا العدد يذكره على كل حال شهود العيان اللاتين.

بعد المجزرة العظيمة، ـ كما يقول البروفانسي فولهير دى شارتر ـ تفرق الصليبيون على

(*) سيرة صلاح الدين الأيوبي.

بدو[بداية]سيرت صلاح الدين(*) بشـرح امـر الملك الناصر صلاح الدين في ملك مصر والخليفة يوميذ العاضد باق على ما هو عليه، والاجناد المصريين والسودان عبيد دولته مقرين على خدمته. فلما كان يوم الثلثا الثالث من صفر سنة اربع وستين وخمس مايه للهجرة [٨٨٥ قبطية = ١١٦٨م]، والخليفة يوميذ العاضد ابو محمد عبدالله وهو الرابع عشر من خلفا الدولة الفاطمية عليهم افضل

بيوت سكان المدينة ونهبوا كل ما وجدوه فيها. وفي هذه الحال قامت عادة مفادها ان كل من يكون اول الداخلين الى البيت، سواء كان غنيا ام فقيرا، يتلقى ويملك البيت او القصر وكل ما فيه، بوصفه مالكا.

وفضلا عن المسلمين، سقط يهود القدس ضحية لجنون الصليبيين وبربريتهم. فقد اجتمعوا في كنيس كبير، وفيه ابادهم الصليبيون عن بكرة ابيهم: فقد احرق الصليبيون مبنى الكنيس بمن بحث عن ملجا فيه.

ولقد اشير الى فتح المدينة المقدسة في ١٥ يوليو ١٠٩٩ في جميع المؤلفات التاريخية من اوائل القرن الثاني عشر بما في ذلك المؤلف الروسي «قصة السنوات المنصرمة». ان مدوني الاخبار ومؤرخي الاحداث سنة بعد سنة الغربيين يصفون هذا الحدث بقدر متفاوت من الاسهاب والتفصيل، ويتحدثون بتفاصيل طبيعية عن ا عمال «جنود الرب» التي تبدو لهم جديرة بالمديح والثناء. اما مدونو الاخبار والمؤرخون الشرقيون (ابن القلانسي، ابن الاثير، وغيرهما)، فانهم ينوهون بفتح القدس من قبل «اعداء الله» بايجاز، ولا يشيرون الا الى انفلات الغزاة وجنونهم ووحشياتهم الهمجية، والى انهم، كما يقول ابن القلانسي، قتلوا كثيرين من سكان القدس.

السلام، ووزيره يوميذ امير الجيوش شاور السعدى، نزل مرى ملك الافرنج(*) بجنوده على بلبيس ففتحها وقتل كلمن وجده فيها من الكيانية والاتراك والسودان ظاهرها، وقتل جماعة كبيرة من عوام الناس مسلمين ونصارى قتلهم داخلها واباح لعسكره القتل والسبى والنهب ثلثة ايام ليل ونهار اطلق لهم السيف فيها، واسر من بقي من اهلها وحملهم معه الى الشام ونهبها واحرقها ومضى

(*) حملة الملك مرى على مصر واحتلاله لبلبيس من مدن الشرقية ونهبها واسر وقتل سكانها.

لمن السيادة ؟ حملات المؤخرة

مع فتح القدس تحقق الهدف الرسمى من الحملة الصليبية. ولكن سرعان ما برزت المصالح الفعلية للمشتركين فيها؛ ونظرا لذلك نشبت احتكاكات خطيرة بين زعماء الصليبيين، وكذلك على الاخص بين قادتهم العسكريين ورعاتهم الدينيين.

لم يترك البابا اوربان الثانى (توفى فى ٢٩ يوليو ١٠٩٩ قبل ان يتلقى نبأ «تحرير» القدس) اية اوامر بصدد نظام الارضى المقدسة المقبل. ومع ذلك حاول رجال الدين أن يؤمنوا فى المقام الاول مصالحهم بالذات وان يشغلوا مكان الصدارة فى ممتلكات الغرب الجديدة. وقد الحت الاوساط العليا من رجال الدين على تحويل القدس الى دولة كنسية. ولهذا الغرض كان ينبغى فى المقام الاول، كما كانوا يعتقدون، انتخاب بطريرك جديد من اللاتين وتسليمه السلطة بكليتها. ولكن منذ وفاة اديمار دى بوى، لم يبق عند الصليبيين قائد كنسى يتمتع بما يكفى من النفوذ والمكانة، وبمقدوره ان يأخذ على عاتقه اداء مثل هذه الرسالة. وقد عينوا رئيس الاساقفة دايمبرت دى بيزا خلفا للاسقف اديمار فى وظيفة القاصد الرسولى (نائب البابا)، وقد وصل الى القدس بالاعتماد على مساندة اسطول بيزا، وبدأ يعمل بخارق الجهد لكى يصبح البطريرك على وجه الدقة، وليس اميرا دنيويا، صاحب السلطة فى القدس. ثم ان البابا الجديد، باسكال الثانى (١٠٩٩ ـ ١١١٨)، الح من جهته الى الاسياد الصليبيين بانه يجب مكافاة

بامـوالها واسـراها. اقتضى الحال ان الخليفة كتب كـتاب لنور الدين مـحـمـود ابن زنكى ملك الغـز بمدينة دمشق واقليمها، وكان ينعت بالملك العادل نور الدين ويعـرف بابن قـسيم الدولة، يعـرفـه فى كتابه ما جرى على المسلمين بديار مـصر ويطلب منه ان يعضـده بجيش يستدفع به الفرنج، فادركه بانفاذ اسد الدين شيركوه فوصل ومعه عسكر كثير من الغز الى البلاد، والملك مرى نازل بالفرنج على



بلبيس، ونضال مقدم مراكب الاسطول على بحر النيل قد وصل الى عطف منية الفيران قريب منية زفتي بعشرة شواني وعشرين حراقه [لدعم الملك مرى] فلما تواصلت اخبار وصول شيركوه الى قرب البلاد رحل الملك مرى من على بلبيس رجع الى بلاده وقوى المسلمين على نضال [مقدم مراكب الاسطول] فكسروه فرجع بالمراكب هارب. ونزل اسد الدين شيركوه بعساكره على

الكنيسة الكاثوليكية بصورة مناسبة لانها هي التي كانت صاحبة المبادرة الى الحملة الصليبية.

اما الامراء، فكانوا يعتقدون بالعكس انه يجب تسليم واحد منهم السلطة على القدس. من بالذات؟ التهبت المشاعر وبخاصة اثناء انعقاد مجلس أعلى للقادة الدنيويين والكنسيين، وذلك في ٢٢ يوليو ١٠٩٩ وقد بلغت الخلافات درجة من الحدة بحيث ان الصليبيين كادوا يصلون الى عتبة الحرب فيما بينهم. كان هناك، من حيث الجوهر، طامحان جديا اثنان الى منصب رئيس الدولة الجديدة هما ريمون دى تولوز، والدوق جودفروا دى بويون. وقد افلح زعماء الصليبيين في التوصل الى حل وسط للمسالة، خصوصا وان ريمون، كونت دى تولوز، الذى لم يكن يتمتع بعطف القادة الكبار، وحتى استثار شكوكهم بسبب عواطفه الموالية لبيزنطة، قد سحب بنفسه ترشيحه.

ان الحل الوسط الذى توصل اليه زعماء الصليبيين كان يتألف مما يلي: احيلت القدس شكلا ورسميا الى حكم البطريرك (وبعد فترة من الوقت صار دايمبرت دى بيزا بطريرك القدس)، ولكن انتخبوا من عداد الامراء الحاكم الفعلي للمدينة المقدسة، ـ جودفروا دى بويون ، ومنحوه لقب حامي قبر السيد المسيح. يبدو ان جودفروا دى بويون، رفض التاج الملكي بايعاز من ريمون دى تولوز. وقد رفض ان يرتدى تاجا من الذهب في المكان الذى ارتدى فيه المسيح تاجا من الشوك . وبدافع من روح التنازل والتساهل، وافق الدوق دى بويون

مدينة بلبيس ورحلو الفرنج وارتجعو من قدامه في البر والبحر، واستراح ايام يسيره ثم رحل عن بلبيس [إلى] نزل اللوق والمقسم وارض الطباله واحاط بالقاهرة مستديرا [من حولها]، وحمل اليه الخليفة ضيافة وخلع سيفه له ولمن وصل معه من الامرا المشهورين ولمقدمين العسكر، واموال كثير برسم النفقة، وخيم وعدد واشيا كثير لا يقدر على وصف فنونها واصنافها بعيونها. واقام في ضيافة

على اعطاء البطريرك دايمبرت ربع القدس ويافا وحتى على اعتبار نفسه تابعا للبطريرك. فهل كان يصح الخلاف مع الكنيسة بسبب هذه الشكليات ؟ فان تفوق القوى بقي على كل حال الى جانب الفرسان. ان ادعاءات الكرسى الرسولى بالسلطة الدنيوية على مدينة تبعد آلاف الاميال عن روما كانت تبدو في عيون الفرسان ورؤسائهم غير مقنعة. ناهيك بان جودفروا دى بويون، اذ اقدم على تنازلات فى صالح دايمبرت المحب للسلطة، كان يسعى فى الوقت نفسه (وليس عبثا) الى نيل الدعم العسكرى من جانب منافسة بيزا، ـ البندقية. فان اسطول البندقية الذى هزم في طريقه اسطول بيزا، كان قد وصل الى يافا. الا ان البندقيين، والحق يقال، طالبوا بدورهم جودفروا دى بويون، مقابل هذا الدعم، ببدل لا يستهان به هو منحهم فى كل مدينة ساحة سوقية ، والاعفاء من شتى الضرائب والمكوس، وثلث الغنيمة ، وما الى ذلك.

ولكن بينما كان الاسياد يحاكمون ويساومون، ويبنون الخطط ويحيكون المؤامرات، اضطر الصليبيون الى امتشاق السلاح من جديد. فمن الجنوب اقتربت العساكر المصرية ، بامرة الوزير الافضل. ورغم جميع الخلافات، اضطر الفرسان وقادتهم ـ للمرة الاخيرة ـ الى العمل معا من جديد؛ فضدهم كان يقف عدو بالغ الخطر. نشبت المعركة ضد المصريين فى صباح ١٢ في واد الى الشمال من مدينة عسقلان. احرز الصليبيون الغلبة فى القتال. ويروى ابن القلانسي : «وتمكنت سيوف الافرنج من المسلمين»... «وانهزم العسكر المصرى الى ناحية

الخليفة لم يدخل القاهرة الى [إلا] يوم الجمعة اول
يوم من شهر ربيع الاول سنة اربع وستين وخمس
ماية الهلالية، انفذ اليه الخليفة سيف الدم مع
موتمن الخلافة جوهر الاستاذ، وامره ان يضرب به
رقبة شاور وزيره فقتله ذبحا بسكين يوم السبت
الثاني من ربيع الاول من السنة المذكورة، واقام
بقية يومه ويوم الاحد نازل مكانه، وفي نهار يوم
الاثنين الرابع من ربيع الاول من السنة المذكورة

عسقلان ودخل الافضل اليها». وبعد ان نهب المنتصرون المعسكر المصرى ، عاد الوزير مع مقربيه الى مصر . ومذ ذاك توطد وضع الصليبيين في فلسطين نسبيا. لذا قلت دوافع الفرسان للسير في ركاب الساسة الكنسيين وتلبية ادعاءاتهم.

في ١٨ يوليو ١١٠٠ توفى جودفروا دى بويون. ولم يعتزم الفرسان من فرنسا الشمالية واللورين احناء الرأس امام ابناء بيزا وبطريركهم. فأبلغوا في الحال عما حدث بودوان، كونت الرها، (اخا جودفروا) ودعوه الى القدس. ومنيت بالاخفاق محاولات دايمبرت اخذ المبادرة بيده والحيلولة، بمساعدة بوهيموند، امير انطاكية، دون وصول بودوان الى القدس؛ فقد اوقفوا سفراء البطريرك في اللاذقية. ناهيك بان بوهيموند نفسه وقع آنذاك في أسر السلجوقيين. وهكذا ورث بودوان، امير الرها، عرش القدس. ولم يبق لدايمبرت الذى لم يلق اى سند من اى كان غير امر واحد هو وضع التاج على رأس بودوان، وهذا ما فعله في ديسمبر ١١٠٠ في كنيسة ميلاد المسيح في بيت لحم.

وبعد ان اصبح بودوان ملكا، رفض رفضا قاطعا ادعاءات رجال الدين السياسية. وقد لقب نفسه رسميا في وثائقه: «انا، بودوان، الذى نال مملكة القدس بمشيئة الله».

كانت هذه المملكة تشغل في البدء رقعة صغيرة من الارض ـ القدس وبيت لحم ومرفأ يافا مع دوائرها. وكانت القوات المسلحة لدى دولة الصليبيين الجديدة تافهة . فقد كان لدى

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

دخل القاهرة واخلع عليه الخليفة خلع الوزارة، وهي ثياب بيض مذهبة واسعة الاكمام ومنديل كبير مشدود مثال الدرقه مرخية العذبة الى كفل الفرس، وطوق ذهب فى عنقه مرصع بالجواهر ولالى يربط ويحل بشرابه حرير مظفورة بلولو حمصى كبار، فركب بخلف الخليفة من داخل قاعة الذهب بالقصر وخرج وجميع الاجناد والامرا يمشون في ركابه بالسيوف المجبودة [مشهرة]،

جودفروا دى بويون من العساكر نحو الفين من المشاة و٣٠٠ من الفرسان ـ من اولئك الذين أرادوا ان يستقروا جديا وزمنا طويلا فى الارض المقدسة . واعتبر كثيرون من كبار القواد ومنهم روبرت النورمندى، وروبرت الفلمنكى، وريمون دى تولوز، وبودوان دى بورغ، ان رسالتهم قد تحققت وانتهت. وعادوا مع اتباعهم الى الوطن؛ وغادر آخرون القدس وراحوا الى سوريا الشمالية حيث عكفوا على اغتصاب الاراضى. واحتاج بودوان الاول (١١٠٠ـ ١١٩٨) الى العساكر. فى البدء علق آماله على تدفق مجموعات جديدة من الصليبيين من الغرب.

ذلك ان موجة جديدة من الحركة الصليبية نهضت فى اوروبا في سنة ١١٠٠ واعتبرت صدى مباشرا ومواصلة لحملة القدس التى كانت قد انتهت للتو.

فقد احدث نبأ فتح المدينة المقدسة انطباعا قويا فى الغرب. وان اقاصيص العائدين من سوريا وفلسطين عن الغنائم الخارقة الغنى المحققة فى الشرق قد هيجت كثيرين ممن بقوا فى معزل عن الاحداث. وبامر من البابا باسكال الثانى، شن رجال الدين حملة نشيطة من المواعظ. وعقد ممثلو الكرسى الرسولى الذين وصلوا الى فرنسا مجمعا كنسيا فى فالنس اولا، ثم في بواتيه. وقد لعب هذا المجمع دورا كبيرا جدا فى ظهور وانتشار قوات الصليبيين الجديدة.

وكان له يوم مشهور لم يرى فى ايام الدنيا مثله ووزر وملك. ولما كمل له شهر فى الملك نادى بالقاهرة ان يرفعوا النصاره عذب عمايمهم ويشدوا زنانيرهم، واليهود خرقة صفرة فى عمايمهم. واقام فيها ستين يوما ومات فى اليوم الخامس من جمادى الاول من السنة المذكورة ووزر الخليفة بعده فى حياة الخليفة الملك الناصر صلاح الدين وانعت بالملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام



جنازة الملك بودوان الذى كان يعبر نفسه كما كتب فى وثائقه: «أنا بدوان، الذى نال مملكة القدس بمشيئة الله».

والمسلمين جامع الايمان قامع عبدة الصلبان محيي دولة امير المومنين. وكان صلاح الدين اسمه يوسف ابن نجم الدين ايوب اخو اسد الدين شيركوه فوقع يوم جلوسه بين يدى الخليفة توقيعاً بخط القاضى الفاضل ولفظه، وكان اسم القاضى الفاضل عبدالرحيم ابن على ويعرف بالبيسانى، كان ابوه قاضى بيسان وكان عالم فاضل يفعل الخير مع كل احد مشكور محبوب كل احد

افتتح المجمع فى ١٨ نوفمبر ١١٠٠، في يوم الذكرى السنوية الخامسة لمجمع كليرمون. وببلاغة اقنع مفوضو البابا الكاثوليك الغربيين «بتقديم العون للمؤمنين فى حرب الرب».

وبالنتيجة، تحركت باتجاه الشرق فى سنة ١١٠٠ جماهير جديدة، كبيرة جدا من الناس. وقد انطلقت بصورة رئيسية من المناطق التى كانت حتى ذاك قد تأثرت بصورة ضعيفة نسبيا بالنهضة الصليبية التى شملت اوروبا فى سنة ١٠٩٦.

اجتمع اكبر عدد من العساكر في لومبارديا، بامرة رئيس الاساقفة انسلم من ميلانو. وكانت العساكر تتألف اساسا من فقراء الارياف والمدن اشبه بجموع بطرس الناسك. وفي ربيع سنة ١١٠١، بلغ اللومبارديون القسطنطينية. ورغم فشل التجربة مع الحملة الصليبية الاولى، قرر الامبراطور الكسيوس الاول ان يجرب هذه المرة ايضا استغلال عساكر الغرب في مصلحة بيزنطة، ضد سلجوقيي آسيا الصغرى. بل انه حاول اقناع ريمون دى تولوز، الموجود آنذاك فى القسطنطينية، بترؤس العساكر اللومباردية. وامد الامبراطور اللومبارديين بفصيلة من الروم تضم ٥٠٠ فرد. وبعد فترة وجيزة انضمت الى الصليبيين الجدد جموع من بورجونيا وشامبانيا، بامرة ايتيان، كونت دى بلوا، الذى سبق له ان فر من جوار انطاكية. والآن انطلق من جديد في البحر لكى لا يسيئ الى سمعة عائلته ومكانتها. وفى القسطنطينية ظهر كذلك فرسان المان ونقلوهم الى آسيا الصغرى؛ وكانوا بامرة المدعو كونراد الذى كان فى خدمة الملك الالمانى هنريخ ا لرابع والذى كان يسمى فى المصادر والمراجع التاريخية بالكونيتابل.

يشكره ويدعوا له ويثنى عليه بل انه [لكنه] من طبع الادمى ان [لا] يكون كاملا لكون الكمال لله وحده لانه لم يوجد فيه قول يشوبه لقايل سوى انه اشار ان لا يستخدموا النصاره نظار على اموال الدولة ولا مشارفين فقبل قوله وعمل برايه ولم يرجع احد من النصاره يتسخدم فى نظر ولا مشارفة فى ايام دولة صلاح الدين ولا من ملك بعده من اولاده وذريته. فوقع ما مثاله، ومثال

ولكن الاحداث تطورت بنحو مغاير تماما لما حسب الامبراطور. فان اللومبارديين الذين كانوا يؤلفون السواد الاعظم من العساكر كانت تتملكهم فكرة تحرير مواطنهم فى المقام الاول ـ اى امير انطاكية الذى وقع فى صيف سنة ١١٠٠ فى اسر الامير السلجوقى غازى ابن دانيشمند السيواسى. وكان الاسير فى نيكسار غير بعيد عن ساحل البحر الاسود. واخفقت جميع جهود الامبراطور الكسيوس الاول وريمون دى تولوز، وايتيان دى بلوا فى صرف اللومبارديين عن هذه الفكرة السخيفة. وفى ٢٣. يونيو ١١٠١ فتح الصليبيون انقره وسلموها لبيزنطية، وفقا لقسم التبعية الذى سبق ان حلفه رؤساء جحفلهم للامبراطور.

فى ذلك الوقت، تشكل تحالف قوى من الحكام السلجوقيين لمواجهة زحف الافرنج الجديد؛ فضد الصليبيين هب سلطان قونية قلج ارسلان الاول والاميران غازى المالك السيواسى ورضوان صاحب حلب. وفى اواسط يوليو ١١٠١، منى الصليبيون بهزيمة ماحقة فى جوار مارسيوان (مرزفون)، على بعد نحو ٢٥٠ ميلا من نيكسار. كذلك لم تنفع هذه المرة الحربة المقدسة التى اخذها ريمون دى تولوز معه. ولم ينج من الموت سوى القادة الذين ولوا الادبار «فى الوقت المناسب» علما بان حامل الذخيرة النفيسة كان بالذات اول من فارق ساحة الوغى. وسقط عشرات الآلاف من اللومبارديين والفرنسيين والالمان تحت ضربات السيوف والرماح السلجوقية، واما وقعوا فى الاسر وبيعوا عبيدا.

العلامه: الحمد لله وبه توفيقى، خرج الامر العال
الناصرى زاد الله تعالى امضايه، بمسامحة الامرآ
والشادين والحماه والمتصرفين والعمال
والمستخدمين والضمنا والبادلين والمستوفيين
والموفيين وكافت الناس اجمعين، بالبقايا الداتره
والاخلاف المخرجة، والخطوط المخلدة والنفقات
المردوده، والحواصل المساقة بالقلم وليست

والمصير الفاجع ذاته كان من نصيب طابورين آخرين من المؤخر الصليبى انطلقا من فرنسا والمانيا. كان احد الطابورين بامرة فيكونت نيفر، غليوم الثانى والدوق اودو البورجوندى، الذى اشترك قبل ذاك بقليل فى الحرب ضد العرب فى اسبانيا، والذى حرمه البابا من الكنيسة لنهبه ضياع دير كلونى. وكان الطابور الثانى الذى انضم اليه الصليبيون من فرنسا الجنوبية والمانيان الجنوبية بامرة غليوم التاسع دوق اكيتين، الذى اشتهر كشاعر ومغن جوال، وفلف الرابع ، دوق بافاريا، الذى كان فى سنوات الصراع من اجل العرش خصما للملك الالمانى هنريخ الرابع. و بين هؤلاء الصليبيين، برز هوج فرمندوا الذى سبق ان عرفناه، والماركجرافينيا ايدا النمساوية، وتيمو، رئيس اساقفة سالزبورج.

سار الطابوران وتصرفا كلا منهما بمعزل عن الآخر . وبعد محاولة فاشلة باقتحام قونية فى ١١٠١ ، منى غليوم، فيكونت نيفر، بهزيمة ماحقة على يد السلجوقيين الى الشرق من قونية، قرب هرقلة ؛ الا أن بقايا قواته استطاعت ان تهرب، ووصلت فى آخر المطاف الى انطاكية. ثم ان صليبيى غليوم، دوق اكيتين، الذين قاموا بمسيرة عسيرة فى ربوع آسيا الصغرى، وانهكهم الجوع والعطش، وتكبدواخسائر كبيرة فى الارواح، لقوا المصير الفاجع نفسه بعد بضعة اسابيع: ففى جوار هرقلة، وقعوا فى كمين نصبه قلج ارسلان.

وهكذا اخفقت كليا الحملة الصليبية فى سنتى ١١٠٠ – ١١٠١ مما دفع بمدون الاخبار

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

بموجودة، والاوقات الحكميه وسفاتج(*) المراكب الديوانيه، وزايد المساحات، وفواصل الاقطاعات، وما تشهد به الدواوين من المعاملات على اختلاف اسبابها وتباين ابوابها واسبابها، وما يتبع ذالك من المواريث الحشرية والاوقاف الشرعية، وسفاتج المراكب المحمية. جميع ذالك الى اخر سنة ثلث وستين وخمس ماية [٨٨٤ قبطية = ١١٦٧م] مسامحة تشمل: الامير المامور والغيب والحضور

(*) سفاتج: مفردها سفتج وتعني دفع الأجر بالآجل. وهي كلمة فارسية دخلت في اللغة المصرية في العصور الوسطى.

فولهير من شارتر ان سمى هذه الحملة الصليبية بالحملة الثانية). وقد هلكت اغلبية عناصرها فى آسيا الصغرى، الا ان بضع مئات من الصليبيين استطاعت الوصول الى القدس.

نحو ذلك الزمن، كانت قوات الصليبيين الذين استولوا على القدس فى سنة ١٠٩٩ قد انخفضت بصورة ملحوظة؛ فان كثيرين منهم قد عادوا الى الوطن . ومع ذلك ، واصل الباقون شن الغارات الاغتصابية فى اراضى سوريا ولبنان وفلسطين. وقد استرعت المدن الساحلية الغنية التى كانت مركز تجارة المشرق انتباه الصليبيين. ولكن فتحها لم يكن سهلا؛ فقد لقيت المدن العون من مصر. ذلك ان حكام المدن المينائية كانوا يعرضون على زعماء الصليبيين فدية كان هؤلاء يقبلونها احيانا كثيرة. ومع ذلك، استطاع الصليبيون، بمساندة اسطول البندقية واسطول جنوه اللذين قطعا المواصلات بين موانئ القسم الشرقى من البحر المتوسط وبين السفن المصرية، ان يرسخوا اقدامهم، خلال السنوات التى اعقبت فتح القدس ، فى عموم ساحل سوريا ولبنان وفلسطين. وقد فتحوا المدن واحدة تلو اخرى: فى سنة ١١٠١ حيفا، ارسوف، قيسارية؛ فى سنة ١١٠٤ عكا؛ فى سنة ١١٠٩ طرابلس (بعد حصار دام زهاء سبع سنوات) ، صيدا، بيروت؛ وأخيرا فى سنة ١١٢٤ صور.

وعلاوة على الدول الثلاث التى انشئت من قبل ، تأسست فى الاراضى المفتوحة دولة

والاغنيا والفقرآ والاقويآ والضعفآ لا يستثنا فيها بالحواصل المشخصة، والذخاير المخصصة والنفقات التى هي من التبعات مخلصة، فانها عدة الجهاد وماوونة [مؤنه] الاسعاد، ابتغآ للثواب وطلباً للزلفى وحسن الما آب، فليكتب بذالك مساطير [منشورات] تقرى فى ساير اعمال الدولة بعد ثبوته بحيث يثبت مثله ان شا الله تعالى. واستقر الملك الناصر في الوزارة ونفذ قوله وفعله، وكان يعضده

اخرى، هى كونتية (او امارة كما تسمى فى بعض المراجع العربية) طرابلس (الى الشمال من مملكة القدس).

اخذت اراضى دولة الصليبيين تتسع تدريجيا؛ فقد اشتملت على مناطق فى المجرى الاعلى من نهر الفرات، ثم على رقعة ضيقة فى سوريا الغربية، ثم على عموم فلسطين وكذلك على قسم فيما وراء الاردن ومن شبه جزيرة سيناء. وجميع هذه الدول (اى مملكة القدس وكونتية الرها وكونتية طرابلس وامارة انطاكية) يجمعونها عادة فى الادب تحت اسم واحد ـ مملكة القدس اللاتينية. وفى هذه الإمارات، اصبح ابرز زعماء الصليبيين حكاما: فى الرها ـ بودوان ثم ورثته بعد ان صار ملك القدس؛ فى انطاكية ـ بوهيموند الذى حاول بجميع الوسائل فيما بعد ان يوسع مملكاته؛ فى طرابلس، ورثة منافسه ريمون دى تولوز (فان ريمون نفسه قد مات فى سنة ١١٠٥ اثناء حصار هذه المدينة)؛ وقد احتفظ بتاج ملوك القدس اخلاف جودفروا دى بويون، ملوك سلالة الاردن ـ انجو (ومرد الاسم المزدوج الى ان عرش القدس قد شغله فى سنة ١١٣١ صهر بودوان الثانى (١١١٨ ـ ١١٣١)، الفرنسى فولك دانجو (Foulgues)، الذى اخذ ورثته مذ ذاك يحكمون فى القدس).

ان الصليبيين الاوائل كانوا مدينين بانتصاراتهم الى تلاحمهم ووحدتهم اللتين يتحدث عنهما مدونون الاخبار اللاتين باسهاب اقل مما الى انقسامات العالم الاسلامى فى المقام الاول.

في ذالك الوقت اخـــوه العـــادل ابو بكر، وتاج الملوك، والاجل المعظم شمس الدولة. ومات شمس الدولة في ايام دولته في مدينة الاسكندرية بعد ان عمل مع المصريين من الخير ما يقصر اللسان عن وصـفـه رحـمـه الله ورضى عنه، ومـات تاج الملوك اخيـه على ظاهر مـدينة حلب عندمـا حـاصـرها صـلاح [الدين] بسـهم خـرج رمى بها من قلعتها فاصابه في ركبته فمات، وكان كريما لبيباً فاضلا

ففي الشرق لم يواجهوا كتلة متكاملة، واحد موحدة من الاعداء، بل واجهوا خليطا متنافرا و مبرقشا من كيانات السلجوقيين والمصريين، ومن امرائهم الكبار والصغار الذين لا لحمة بينهم. كان العالم الاسلامي منقسما على نفسه. وكان تمزقه السياسي يرافقه التبعثر الديني؛ فان السلجوقيين السنيين لم يجدوا لغة مشتركة مع الشيعيين المصريين، ناهيك بان الصراع كان محتدما بدوره في صفوف الشيعيين بين مختلف التيارات والملل. وبالنتيجة لم يلق الفاتحون الرد اللازم في الشرق، واستطاعوا، وان بثمن خسائر كبيرة، ان يوطدوا سيطرتهم لعشرات السنين في الاراضي الغنية في سوريا ولبنان وفلسطين.

لبى امتلاك القسم الشرقي من البحر المتوسط المطامع المغرضة لبضع مئات من الاقطاعيين المدنيين والكنسيين في اوروبا الغربية. وضحى بالجماهير الشعبية لاجل هذه المطامع؛ فان المشتركين في الحملة الصليبية الاولى ـ وكذلك في الحملات التالية التي منيت بالهزائم الماحقة ـ لم يكونوا بنصفهم او حتى باغلبيتهم من عداد الاقطاعيين، بل كانوا من الفقراء، وبصورة رئيسية من الفلاحين، ممن انطلقوا الى اقطار يجهلونها بحثا عن نصيب افضل، ولكنهم لم يجدوا هناك غير الموت. لقد كانت الحملة الصليبية الاولى مذبحة هائلة كانت شعوب الغرب ضحيتها، قدمتها ومثلت مسرحيتها البابوية والكنيسة الكاثوليكية والاوساط العليا من الطبقة الاقطاعية خدمة لاهدافها الاغتصابية المستورة بالرايات الدينية.

عـالما يقـول الشـعـر وله منه ديوان. وكـان مـقـدم
عـسكر الملك ومشـيره الاجل تقي الدين عـمـر ابن
شاهنشاه وكان ذوى راى صايب وتدبير جيد وكان
له على الاجناد هيـبـة ينصف المظلوم من الظالم
وكان اذا حكم بين اثنين يقعدهما بين يديه جلوس
مـعه ولا يحابي للغنى ولا يهـضم جانب الفـقـيـر
وياخـذ الحق من الظالم ولو كـان ولده. وبعـد مـا
جرى من فـتح السـاحل الذى نشـرحـه فـيـمـا بعد

الحروب الصليبية فى القرن الثانى عشر



انتقام السلجوقيين. موعظة برنار من كليرفو

بينما كان صليبيو الاجيال الاولى يستقرون فى ممتلكاتهم فيما وراء البحار ويجهدون لتوطيد سيادتهم، بدأت الامارات الاسلامية تتراص وتتلاحم تدريجيا . ففي الشرق، تأسست اتحادات للسلجوقيين متفاوتة الكبر. واخذ الدخلاء الغربيون يواجهون من جانبها ردا مشتدا اكثر فاكثر . وسنة بعد سنة، كانت تتفاقم العلاقات بين الصليبيين وبيزنطة. وفي بيزنطة كانوا يرمقون

مـضى الى اقليم اخـلاط من بلاد العـجم وكـانه [وكان] في يد نكتم [نكتمر] من ملوك العجم، فقاتله وكسره واخذ منه البلاد ومات هناك وما بعده [ومن بعده] ولده. ولما كان فى جمادى الاخر سنة خمس وستين وخمس مـاية ٨٨٦ قبطيـة= ١١٦٩/١١٧٠م] بلغ الملك الناصر صلاح الدين عن موتمن الخلافة جوهر استاذ العاضد انه خرج من القاهرة الى الحزانيه [شمال شبرا] وكانة

بعين الحذر مملكة القدس التى كانت اراضيها تخص الامبراطورية فيما مضى. وكانت الامارة النورمانية فى انطاكية تثير امتعاضا قويا جدا فى اوساطها الحاكمة. وكان اسطول الروم وقواتهم البرية تعتدى بين الفينة والفينة على حدود هذه الدولة التى اسسها بوهيموند اى امارة انطاكية. وقد توتر الوضع بالغ التوتر عندما استولى الامبراطور البيزنطى يوحنا الثانى كومنينوس (١١٨ ـ ١١٤٣) على قيليقيا الارمنية واقترب مع قواته من انطاكية فى ١١٣٧ واكره اميرها ريمون دى بواتيه على ان يصبح من اتباع القسطنطينية. صحيح ان يوحنا نفسه تعهد بان ينتزع لاجل انطاكية بضع مدن من السلجوقيين (حلب، شيزر، حماه، حمص)، ولكنه لم يف بوعده. وفى سبتمبر قام بمحاولة للاستيلاء على انطاكية، الا ان اقتراب الشتاء اجبره على التراجع. وفى سنة ١١٤٣، قتل سهم سام يوحنا الثانى اثناء الصيد. ولكن الخطر البيزنطى على القدس ظل مخيما.

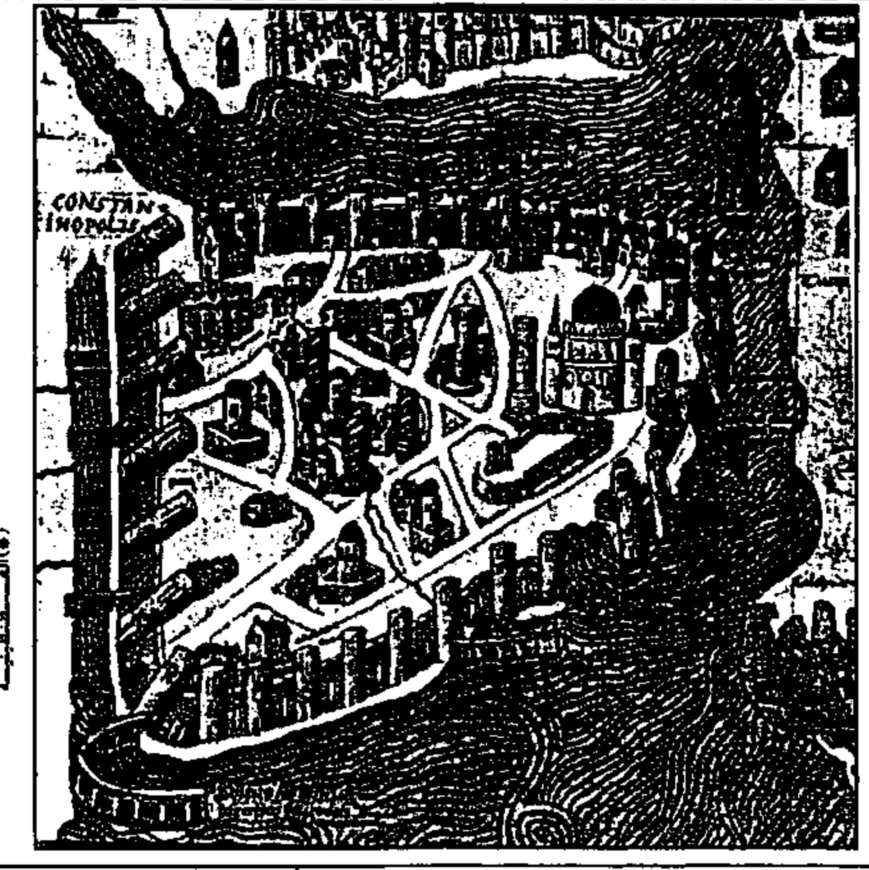
فى اغسطس و سبتمبر ١١٤٤ شن خلفاء يوحنا الثانى، الامبراطور ما نويل (عمانوئيل) كومنينوس (١١٤٣ ـ ١١٨٠) حملة على انطاكية على درجة من الشدة بحيث هزم الامير ريمون واجبره على المجئ الى القسطنطينية وتجديد يمين التبعية.

وفى هذه الاثناء، سدد السلجوقيون إلى الصليبيين اول ضربة جدية. وبداية انتقامهم سنة ١١٣٧، حين اقتحم قائد قوات دمشق كونتية طرابلس وسحق الفرسان هناك. ووقع بونتى

[وكانت] اقطاعه، ونزل في المنظرة التي لها المظلة على البستان، وقد عزم على انه يقيم فيها الى نصف الليل ويسرى مع العرب [ثم] يمضي الى الفرنج يستنجد بهم ويحضرهم الى القاهرة لمحاربة الملك الناصر واخراجه منها، لانه لما تمكن في المملكة خاف منه الخليفة والاستاذين فجهزو موتمن الخلافة للرواح [للذهاب] للافرنج يجيبهم لكونه من خواص الخليفة، وكان يقبل قوله ويعمل

كونت طرابلس اسيرا وقتل. وفي صيف ١١٣٧ دخلت قوات اتابك الموصل عماد الدين زنكي طرابلس. وهذه المرة اسر السلجوقيون الكونت ريمون الثاني مع عدد كبير من الفرسان. وفي السنوات التالية اخضع عماد الدين زنكي لسلطته عددا من الامارات السلجوقية في بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) وسوريا الشمالية. ومن الطريف ان مملكة القدس ساندت دمشق في سنة ١١٣٩ اثناء حروب عماد الدين زنكي ضد دمشق؛ وآنذاك كان الملك فولك هو الذى اجبر قوات الموصل على التراجع. ومع ذلك، احرز عماد الدين زنكي الهيمنة في سوريا فيما بعد، لا جئا حينا الى القوة المسلحة وحينا الى الديبلوماسية وعقود الزواج. وكل هذا اتاح له دفع قواته في اكتوبر ١١٤٤ الى اراضي كونتية الرها ومحاصرتها في ٢٨ نوفمبر. فهرعت الى نجدة المدينة فصائل الفرسان من مملكة القدس، وقد ارسلتها الوصية على العرش ميليساندا التي كانت تحكم اثناء حداثة بودوان الثالث، ولكن هذه الفصائل وصلت متأخرة جدا. ففي ٢٤ ديسمبر ١١٤٤ استولى عماد الدين زنكي على المدينة ودمر قسما كبيرا منها، ثم استولى على كثير من مناطق الكونتية. ان عملية طرد الافرنج من ممتلكاتهم، التي بدأها عماد الدين زنكي في كونتية الرها قد واصلها ابنه نور الدين محمود ابن زنكي [١١٤٦ – ١١٧٤] الذى وسع كثيرا أراضي السيادة الاسلامية. وحرر وادى الفرات من سيطرة الافرنج.

برايه لانه اكبر من فى قصره من الاستاذين، فندب السلطان الطواشى قراقوش وكان ايضا خصياً وكان به خصيصاً، وجرد معه ماية فارس فادرك موتمن الخلافة في المنظرة فاستدعاه ينزل له فلم يفعل بل اغلق باب المنظرة عليه وامر اصحابه ان يقاتلوه، فحاصره قراقوش وقاتله وقتله واخذ راسه بعد ان احرق المنظرة بالنار وعاد الى القاهرة. فاجتمعو السودان وزحفو لقتال السلطان داخل



(*)القسطنطينية

القاهرة لما سمعو بقتل موتمن الخلافة جوهر، فنصر الله السلطان عليهم وظفره بهم، فلم يقتل واحد منهم بل قال: لا لوم عليهم لانهم قاتلو عن سيدهم وخليفتهم، فابقى عليهم وتقدم لهم ان لا يقيمو معه فى القاهرة ويسكنو باى ما ارادو من الريف والصعيد وغير ذلك من البلاد، بل القاهرة لا يقيمو معه فيها فخرجو منها الى الارياف

- -

خلق سقوط الرها خطرا جديا على جميع دول الصليبيين الاخرى فى الشرق الادنى، وفى المقام الاول على انطاكية. وفى نوفمبر ١١٤٥ أرسلت رسل من القدس وانطاكية الى بابا روما اوجينوس الثالث. ووصل الى مدينة فيتربو (ايطاليا) اسقف جبلة بطلب اتخاذ التدابير لكى تحمى «بسالة الافرنج المظفرة»، ممتلكات الكونتات والفيكونتات الشرقية من الاعتداءات الجديدة.

في ذلك الوقت كان الوضع السياسى الداخلى فى اوروبا يتطور فى غير صالح البابوية؛ فمن جديد تأزم ما يسمى بالصراع من اجل تعيين الاساقفة Investiture وتعقدت العلاقات مع مملكة صقلية، وفى روما نفسها وقفت ضد البابا الفئات الدنيا من ذات المزاج الجمهورى من سكان المدينة (وهذه الحركة ترتبط باسم ارنولد دى بريشيا ـ Arnold de Brescia ـ الواسع الشهرة)؛ وكان يخيل ان البابا لا يمكن ان يفكر فى مغامرات جديدة فى الشرق. ومع ذلك، وقع فى اول ديسمبر ١١٤٥ بولا (مرسوما) يدعو الى الحرب الصليبية. وكان ذلك اول مرسوم صليبى فى التاريخ تتخذه البابوية. وقد وجه البابا اوجينوس الثالث هذا المرسوم الى فرنسا داعيا الملك لويس السابع الى النهوض للدفاع عن الدين والايمان. وطالبه البابا بتجهيز القوات لاجل الانتقام من المسلمين، ووعد المشتركين فى الحملة بحماية الكرسى الرسولى التامة، وغفران الخطايا، والاعفاء من الاتاوى. وللحصول على الاموال للاشتراك فى

والصعيد وتفرقو في جميع ديار مصر من برج دمياط الى برج اسوان.

وكان نازل في اعمال الغربية فرقان [قبائل] عرب كثير منهم قبيلة واحدة تسمى بنى شلش تزيد عن عشرة الف فارس نافقو واخافو السبيل، فخرج اليهم الاجل تقى الدين بعسكره فطحنهم وسباهم واخذ نساهم واولادهم واموالهم ومواشيهم ولم يبق منهم رجل في بيت شعر يوجد.

الحرب، سمح للفرسان برهن عقاراتهم وضياعهم. ومن جديد، كما منذ ٥٠ سنة، قامت في الغرب حملة واسعة في صالح الحملة الصليبية: قبر السيد المسيح في خطر!

كان برنار، رئيس جمعية الرهبان السيسترسين البورجوني الواسع النفوذ، رئيس دير كليرفو (١٠٩١ ـ ١١٥٣) من اكبر ملهمي الحملة الجديدة الى الشرق همة وعزيمة، ومنظمها المباشر. فإليه بالذات عهد اوجينوس الثالث بالدعوة الى الحرب المقدسة. اما البابا نفسه، المستغرق في شؤونه الايطالية والاوروبية العامة، فلم يكن بمقدوره ان يهتم مباشرة باعداد هذا المشروع. اما برنار، رئيس دير كليرفو، المتعصب تعصبا قتاليا اعمى، والذى لقبه معاصروه بالذات «غول زماننا»، والذى رفعته الكنيسة فيما بعد الى مصاف القديسين، فقد كان يبدى من زمان بعيد اهتماما كبيرا. بمصائر دول الصليبيين. وقد اسهم، في تأسيس جمعية الهيكليين. وقد دعاهم برنار الى ابادة المسلمين بلا شفقة ولا هوادة، والى الاستيلاء على اراضى «اعداء المسيح» لما فيه مجد الكنيسة، والى نشر سلطة الكرسى الرسولى هناك. وقد كتب برنار في مؤلفه «كلمة ثناء على قوات فرسان الهيكل الجديدة»: «قد لا يصح قتل الوثنيين لو كان من الممكن منعهم بوسيلة ما اخرى عن ضمر عداوة مفرطة للمؤمنين اوعن اضطهاد المؤمنين. اما الآن فمن الافضل ابادتهم». وكان ذلك احد البنود الاساسية في برنامج الكاثوليكية

ودانت له البلاد وكثر الامن والرخص فى ايام دولته، واظهر من العدل ما لم يسبقه احد اليه.

واخبر صفى الدوله استاذ الجهة الظافر به [أن] ابن شمس الدولة اخو صلاح الدين دخل الى القصر ليلا وطلب الخليفة، فلما اعلمو الخليفة بانه يطلبه مص الخاتم المسموم الذى يعملوه الملوك للموت عند الغلبة ليلا يقعو فى ايدى اعدايهم فيهينونهم ويعذبوهم فيرون الموت اخير لهم من

المقاتلة؛ وهذه البنود تقدم بها هذا الحبر الذى اخذ على عاتقه دور الواعظ الرئيسى بالحملة الصليبية الجديدة.

وفى القرن الثانى عشر، كما فى عشية الحملة الصليبية الاولى، تأجج جو الصراع الاجتماعى فى الغرب من جديد. فقد استاء الاقنان من الاتاوى التى لا تطاق ومن استبداد الاسياد. ونهض فى وجه الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين خصم جدى جديد هو المدن التى ابدت فى القرن الحادى عشر اولى علائم الحياة، وذلك فى ايطاليا الشمالية وفرنسا بصورة رئيسية. ونحو ذلك الزمن كانت قد نمت نموا عاصفا فى المانيا وانجلترا. وكان الفلاحون الاقنان الساعون الى نيل الحرية يهربون الى المدن للاحتماء داخل اسوارها. وكان ثمة مثل شعبى يقول: «هواء المدينة يجعل الناس احرارا». وهؤلاء الفلاحون الهاربون الذين اخذوا يمارسون الحرف هم الذين هبوا ضد نير الاسياد؛ واحيانا كانوا ينالون الاعتراف بحرياتهم فى غمرة الكفاح المسلح السافر ضد الكونتات والاساقفة.

كانت روح الفتنة والعصيان تنتشر بصورة اوسع فاوسع. كانت حركات الهراطقة التى تفصح عن احتجاج الفئات الدنيا من سكان الارياف والمدن على النظم والاوضاع الاقطاعية تنشب تارة هنا وطورا هناك. كان ذلك زمنا ولدت فيه «الف هرطقة» كما قال المفكر ابيلار (Abélard). وقد نشأت الهرطقات وتنامت فى فرنسا والفلاندر وانجلترا ومناطق المانيا على

الاهانة والعذاب، فلما مصه مات. وقال غير صفى
الدولة انه اخذ حيا وساله موضع كنوزه وامواله.
فلم يعرفه اياهم فاخذ عمامته من على راسه
وخنقه بها حتى مات. واخبر ايضا رجل من اهل
قصره انه كان قبل ان يقتلوه قد شرب الخمر مع
صلاح الدين وشمس الدولة وسمع الغنا
بحضرتهم عنده فى مجلسه فلما انقضى المجلس

ضفاف نهر الراين. وعكفت الكنيسة الكاثوليكية بكل حزم وعزم على استئصال الهرطقات؛ وكان برنار، رئيس دير كليرفو، على وجه التحديد، قد خلق لنفسه قبل الحملة الصليبية شهرة خانق شرير وحقود لحرية الفكر. فانقض بجميع العقوبات على ابيلار «الكافر» الذى تجاسر على تمجيد قوة العقل خلافا لمكانة العقائد الكنسية، وعلى اتباعه العديدين . وفى القرن الثانى عشر كانت تتأجج المواقد التى كانت الكنيسة تحرق فيها الهراطقة. ولكن روح التمرد والعصيان استعصت على النار.

وفى هذا الوضع، جاءت الهزيمة التى انزلها السلجوقيون باحدى الدول الصليبية فى الشرق مناسبة تماما للكنيسة، فقد قررت الاوساط العليا الكنسية ان تؤجج من جديد نيران التعصب الدينى القتالى، حاسبة ان تتمكن بواسطته من وضع حد لا مزجة التمرد والعصيان فى الغرب: فلتغرق موجة الحماسة الصليبية التى تثيرها الكنيسة حريق الاستياء الشعبى المتوهج.

وقد تم استغلال سقوط الرها لاجل اطلاق النداء من جديد الى حرب الخلاص ضد «الكفار». وكما فى اواخر القرن الحادى عشر، جعلت الاوساط العليا فى الكنيسة الكاثوليكية مهمتها الاساسية تأمين ازدهار وسيادة الطبقة الحاكمة فى الغرب؛ وكما فى ذلك الوقت،

وقـام من كـان عنده من اخـوة السلطان خلى
بسريته وطلبها على نفسها فاجابته الى ما طلب
وكـان في وسطه سـراويل ديبـقى ذهب مكلل
بجواهر من جانبيـه، ونكلتـه مكللة مثلة بجـواهر
يساوى جمال[جملة] مال استوهبته منه فوهبه
لها، فجابته لصلاح الدين يفتخر [تفتخر] به
عليه، فاخذه واحضر القاضي والشهود والفقها
ونظم بذالك مسطور وسيره الى العراق وبغداد

- -

حاولت في الوقت ذاته ان تلبى مصالح الاقطاعيين الدنيويين والكنسيين الانانية الجشعة وان تعزز مكانتها وسلطاتها.

في ٣١ مارس ١١٤٦وصل برنار من كليرفو الى مداولة لبارونات الفرنسيين وكبار رجال الكنيسة والفرسان الاعيان في فيزليه (بورجونيا). ومن على مرتفع اقيم في حقل مفتوح، تكلم امام جمع الناس، وتلا البول (المرسوم) الصليبي الذى اقره البابا، والقى خطابا ناريا بصدد ضرورة حرب مقدسة جديدة. كذلك اخذ برنار يوزع في الحال هناك شارات الصليب، المعدة سلفا. وحين لم تكف الشارات، مزق برنار لباسه الرهباني وصنعوا منه كذلك صلبانا.

استجاب كثيرون من الفقراء ولاسيما من تلك الانحاء التي اصابها القحط والجوع مؤخرا لدعوات برنار من كليرفو والوعاظ الكنسيين الذين وزعهم في جميع الاتجاهات. ومع ذلك، لم تلاحظ على العموم في امزجة الريف آنذاك تلك الحماسة الدينية التحررية العفوية والجماهيرية التي رافق نهوضها بداية احداث سنة ١٠٩٦. بل ان اخبار المعاصرين تعكس حتى اصداء الاستياء الشعبي الذى تبدى هنا وهناك لمناسبة تحضير الحملة الصليبية. وكان فرض اتاوة على جميع سكان المملكة الفرنسية لسد حاجات الحملة الصليبية سببا جوهريا من اسباب هذا الاستياء. وهكذا بدأت الحرب المقدسة، كما قال احد مدوني الاخبار، بخزى وعار، اى بنهب الفقراء.

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

وطلب الفتيا: هل يجوز للخليفة يشرب الخمر ويفسق . فافتوه الفقها انه اذا ثبت ذلك عليه يخلع من الخلافة. فلما وقف على الفتيا تقدم الى اخيه شمس الدولة بالركوب الى القصر ليلا والتلطف فى قتل الخليفة على ما قدمنا ذكره. وكان وفاة العاضد لدين الله وهو تمام اربعه عشر خليفة لبيت الفاطميين فى سنة سبع وستين وخمس مايه هلالية [٨٨٨ قبطية = ١١٧١/ ١١٧٢م] وتسلم الملك

وهذه المرة ايضا التحقت بالفرسان جموع من الفلاحين الاقنان. وعن دوافعهم كتب مدون الاخبار غرخو من رايخسبرج بصورة معبرة: «اما الفلاحون، والاقنان التابعون للسادة، فقد طرحوا جانبا محاريثهم وتناسوا الفرائض.. فقد قام سوادهم الاعظم بصورة غير معقولة بهذه الحملة البالغة المشقة، أملا فى ان يأكل فى هذا المشروع المقدس للغاية مأكلا مثل الذى نزل من السماء على شعب اسرائيل» (يقصد مدون الاخبار حكاية التوراة عن خروج اليهود من مصر؛ ففى الصحراء انعم الرب عليهم «بخبز من السماء» او «بالمن»). ولكن ، كما يستخلص مدون الاخبار بصورة قاطعة، «حصل تماما غير ما كانوا يأملون فيه».

فى هذا المقطع يتبدى بكل وضوح السبب الذى ظل يدفع الاقنان الى درب الرب، وهو السعى الى قطع علاقات التبعية حيال الاسياد، «تناسى» الفرائض.

فى الحملة الصليبية الثانية، اشترك الملوك للمرة الاولى: الملك الفرنسى الشاب لويس السابع الذى استجاب فى الحال لبول البابا اوجينوس الثالث، والملك الالمانى. كونراد الثالث هو هنشتاوفن الذى اقنعه بالاشتراك فى الحملة برنار من كليرفو الذى تجوب فى المانيا والقى هناك الكثير من الخطابات النارية حول اهمية الحملة الصليبية لاجل خير المسيحية، فأخذ الملك الالمانى الصليب رغم انه كان مشغولا بالحرب الداخلية ضد كتلة ال فلف الاقطاعية المعادية لآل هو هنشتاوفن. وقد حدث ذلك فى ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) ١١٤٦ فى ريخستاغ

الناصر القصر وما فيه واما التركة والاثاث فتقدم ان يحـمل منهـا الى داره مـا يصلح له ولنسـايه من الملابس والجـواهر والالى والمصـاغ من الذهب والفضة ونحو ذالك وان يباع مالا حاجة له به من الكتب والاوانى ونحـو ذالك واقـام امينا على بيع ذالك القـاضى الامير محـمد ابن محـمد ابن ذو الرياستين ابن بنان، فاما النفوس فانه جعل حظايا الخليـفة واولاده فى دار المظفر برجوان فى حـارة

شبيير حيث القى برنار خطابا صادقا مؤثرا. ونعت برنار، رئيس دير كليرفو، تجاحه «معجزة المعجزات».

وبدءا من اواسط القرن الثانى عشر، اخذت القوى المنظمة للدول الاقطاعية فى اوروبا الغربية تنضم تدريجيا، وان بصورة غير منتظمة، الى قوام المشتركين فى الحملات الصليبية؛ ومذ ذاك اخذت تتوطد السلطة الملكية في هذه الدول، وتنشب اشتباكات كبيرة بين هذه السلطة وبين كبار الاقطاعيين، ويتكون الجهاز الملكى للادارة والحكم ، وتتشكل القوات المسلحة الدائمة، النظامية. وعلى هذه القوات في المقام الاول يعتمد الملوك فى سعيهم الى قطع اجنحة الانفصالية الاقطاعية. هكذا كانت الحال فى مملكة الكابيتين (Capetiens) فى فرنسا وفى مملكة سلالة هوهنشتاوفن فى المانيا وفي المملكة النورمانية الصقلية، وفي انجلترا حيث كانت تحكم سلالة بلانتاجينه.

واخذت السلطة الملكية تحتاج اكثر فاكثر الى الوسائل المادية لاجل تطبيق سياستها المركزية بنجاح، الامر الذى كان يدفع الملوك الى سبيل الفتوحات. وغدا التوسع الاقليمى الواسع السمة المميزة لسياسة دول اوروبا الغربية. ومنذ اواسط القرن الثانى عشر صار البحر المتوسط اهم اتجاه في هذا التوسع. ونحو سواحل افريقيا الشمالية، ونحو بيزنطية ومتلكات الاقطاعيين الاوروبيين الغربيين فى سوريا ولبنان وفلسطين التى كان يتهددها خطر انتقام السلجوقيين،

جـوان [برجـوان] بالقـاهرة، واقـام عليـهم اجناد حـراس يحـرسـون ابوابها ليلا ونهار ولا يمكنو من يدخل اليـهم ولا يخــرج منهـم، واطلق لهم من القوت ما يكفيـهم برهة فلما صـارو اهل القـاهرة ومصر من شيعتهم يحملو اليهم شى من جراهم [مأكلهم] قطع ذالك عنهم. واما الاهل والاقارب وكلمن انتمى اليهم من الرجال فانه جمع منهم مايتى رجل واكثر وجعلهم فى مجلس المنافقين فى

صوب حكام اهم الملكيات الاوروبية انظارهم . وصار اخضاع هذه المناطق هدفا من الاهداف المركزية الملكية لسياستهم العدوانية.

ان اهتمام الملوك بقضية الحملات الصليبية انما مرده جزئيا، بالطبع، الى اعتبارات المكانة، ولكنه نبع بصورة رئيسية من بواعث عادية تماما ذات طابع اقتصادى.

فان البحر المتوسط غدا طريقا رئيسيا للتجارة المنتعشة. و كان السعى الى فرض الرقابة على المناطق التى تضطلع فيه بدور جوهرى الى هذا الحد او ذاك السبب الذى حمل ملكيات اوروبا الغربية الى صفوف المشتركين النشطاء فى الحملات الصليبية. وقد كان لكل من لويس السابع وكونراد الثالث مصلحة مباشرة فى صيانة سيادة مواطنيهم فى سوريا ولبنان وفلسطين وحتى فى توسيع حدودها. وبفضل زواج لويس السابع من ايليونور، وريثة دوقية اكيتين (Eleonera d'Aquitaine) ضمت الى التاج الفرنسى مقاطعة شاسعة فى جنوب فرنسا؛ وكانت مدن الكيتين تشترك بنشاط فى تجارة المشرق. وبهذه التجارة كانت ترتبط كذلك، بواسطة ايطاليا الشمالية، المدن الالمانية فى ممتلكات آل شتاوفن. وهكذا بدأت تجارة البحر المتوسط تعود بمنافع محسوسة على السلطة الملكية سواء فى فرنسا ام فى المانيا.

وكانت الاوساط العليا من الكنيسة الكاثوليكية تعتبر بدورها من الجوهرى تأمين اشتراك

الايوان بالقصر وجعل فى ارجلهم قيود حديد يمنعهم من التصرف، ووكل بهم من الرجال من يحفظهم واطلق لهم من القوت مايكفيهم فلما صارو القاهرين والمصريين يدخلون لهم بالصدقات قطع ذلك [ايضا] عنهم، فصارو يعيشو من الصدقات. فسبحان الله العظيم يعز من يشآ ويذل من يشا. ومات كثير منهم فى قيوده على ماهو عليه ودفنوه به فسبحان الحى الذى لا يموت يضع

هذين الملكين فى الحملة الصليبية. ان التنافس بينهما كان من شأنه، على الارجح، ان يقلل من حظ الحملة فى النجاح، ولكن كان من شأنه ان يزيد احتمالات رفع مكانة البابوية كقوة سياسية اوروبية.

الحملة الصليبية الثانية وتصادم مصالح الدول الاوروبية فى البحر المتوسط

القرار النهائى بصدد بداية الحملة وموعدها ـ ١٥ يونيو ١١٤٧، وكذلك القرار بخط سير الصليبيين، اتخذهما اجتماع الاعيان الفرنسيين الذى انعقد فى ١٦ فبراير ١١٤٧ فى مدينة ايتامب (فرنسا). وقد حضر رسل المانيا هذا الاجتماع. اشرف على الاجتماع برنار من كليرفو، وانبأ الحاضرين بنجاحات المواعظ الصليبية فى اسبانيا وايطاليا وانجلترا. وفى ١٥ مارس ١١٤٧ عقد الريخستاغ الالمانى جلسة فى فرانكفورت وقرر موعد السير بالحملة فى اواسط مايو ١١٤٧.

ونحو الصيف كان قد تشكل فى فرنسا والمانيا جحفلان كبيران من الصليبيين. وكان كل منهما يضم حوالى ٧٠ الف فارس، التحقت بهم جموع ضخمة من الفلاحين الفقراء، بمن فيهم النساء والشيوخ والاولاد.

من يشآ ويرفع من يشآ. واما جوار الخدمة وعبيد الخدمة فباعهم مع بقية التركة.

وهذه نسخة كتاب كتبه القاضى الفاضل ابن البيسانى واسمه عبد الرحيم ابن على الى امر دولة الغز فى ذلك الزمان بوفاة الامام العاضد(*) وهو اخر خلفا الدولة الفاطميين بديار مصر وهو تمام اربعة عشر خليفة وفى ايامه زال ملكهم وملك

(*) خطاب بوفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين.

انطلق الصليبيون الفرنسيون من مدينة متز، وعلى رأسهم الملك لويس السابع، وقد أرسل البابا إليه نائبا عنه الكاردينال الشماس جويد والفلورنسى. و مع الملك لويس السابع راحت الملكة ايليونور داكيتين. وعلى رأس الجحفل الالمانى الذى انطلق من نور نبرج وريغنسبورج، سار الملك كونراد الثالث؛ تحرك الالمان اولا، وبعد شهر سار الفرنسيون.

فى البدء اجتاز الفرسان الالمان المجر بعد ان اعطى الملك غيزا الثانى موافقته الرسمية على مرور الصليبيين فى بلده. ثم ساروا فى ممتلكات الروم علما بان الصليبيين الالمان نهبوا السكان بلا رحمة ولا هوادة، رغم علاقات التحالف بين الامبراطورية الالمانية وبيزنطة.

قام التحالف بين الامبراطوريتين ـ الالمانية والبيزنطية ـ على اساس وحدة مصالحهما السياسية، وبصورة رئيسية بسبب التناقضات مع مملكة روجه الثانى النورمانية الصقلية. فقد ضم هذا الملك صقلية الى ايطاليا الجنوبية وواصل انتهاج سياسة الاقطاعيين النورمانيين الايطاليين القديمة المعادية لبيزنطة. وفى الوقت نفسه اقام شتى العقبات فى وجه سلالة هوهنشتاوفن فى محاولاتها لتوطيد سيادتها فى ايطاليا. وان التناقضات مع مملكة صقلية فى مضمار التوسع فى البحر المتوسط هى التى ادت الى التقارب بين المانيا آل شتاوفن وبيزنطة. وفى سنة ١١٤٦، ترسخ التحالف بين الامبراطوريتين بزواج مانويل كومنينوس من سلفة (اخت زوجة) كونراد الثالث، الكونتيس برتازولسباخ.

صـلاح الدين يوسف ابن نجم الدين ايوب الثـانى
من ملوك دولة الاتراك:

كتـابنا هذا وارد عليك ايهـا الامـيـر الفـلانى،
عندما كان من نزول قضا الله السابق، وقدره الذى
انبا عنه الخبر الصادق، فيمن كان منتصباً بالقصر
وموسـوما بالامر، وذالك لمرض اقتـربت فـيـه ايامـه
واشـتـدت فـيـه الامـه الى ان انقـضـت مـعـه عـزاه
وانحلـت مـعـه قـواه واتاه من امـر الله مـا اتاه وتلك

ومع ذلك عـانت بيـزنطة مـن المزعـجـات من حليـفـتـهـا الالمانيـة. وقـد تضـررت تراقـيـا على الاخص من تهـور الفـرسـان الالمان، فـاضطر الامـبـراطـور مـانويل كـومنينوس حـتى الى تهـدئة الصليـبيين بالسـلاح. كذلك انتقـم السكان المحليون انفسـهم على طريقـتـهم من النهـابين؛ فلم يكن من النادر ان يقتل البلغار واليونانيون المقاتلين الالمان السكارى حتى الغيـبوبة والمتخلفين فى الطريق؛ ولذا حين و صل الفرسان الفرنسيون الى هناك،كما يشـهـد شاهد عيان ، «كان كل شئ مـسـمـما بنتانة جثثهم (اى جثث الالمان) غير المدفونة». وفى جوار فيليـبوبول، حدثت اشتبـاكات ضارية بين القوات الالمانيـة والقوات البيـزنطية. وعرض مانويل على كونراد الثالث توجيـه القـوات الصليـبيـة بمعـزل عن القـسطنطينيـة، عبـر هيليـسـبـونت (الدردنيل) لاجل تجنيب العاصـمـة مآثم الفرسان وموبقاتهم، ولكن الحليف رفض هذا الاقتراح. وساق قواته فى الطريق القديم الذى سبق ان سار عليه الصـليـبيون الاوائل.

احتـفل الفرسـان الالمان بوصـولهم الى القـسطنطينيـة (١٠ سـبتـمبـر ١١٤٧) باعـمـال النهب والسلب، واجتيـاح القـصر الامبراطورى الواقع غيـر بعيد عن العاصـمة، وولائم العربدة والسـكر. ويروى مدون الاخبـار الفرنسى اودو من ديل ، الذى اشترك فى حـملة لويس السـابع الصليـبيـة بوصـفـه كابيللانه، ان الالمان احرقوا بضعا من ضـواحى المدينة. ولكن مـانويل استطاع بالتملق والقوة ان يقنع حليفه الالمانى بعبور البوسفور الى السـاحل الآخر، الشرقى. ثم ان كونراد الثالث

سبيل عليها درج الاول والاخر وقضية استوى فيها
الضعيف والقادر، واوجبنا له من حفظ الذمام ورفع
المقام والوفا على اختلاف احكام الايام ان حضرنا
الى ابوابه ونقلنا انتقاله من اسرار الامر الى اعلانه
ليعلم ان الله قد استاثر بوفاته واثرنا بحسن العهد
بموافاته وبلغنا الغاية فى الاجمال فى امره والتوديع
له الى قبره، وطابت نفوس مخلفيه بقرارهم فى
قصره وانكفينا الى مستقرنا والدهما ساكنه والدنيا

لم يكن يتحرق كذلك، من جانبه، الى اللقاء مع الصليبيين الفرنسيين ؛ فقد كان يخشى الانسياق فى دوامة سياسة العداء للقسطنطينية.

وفى اواخر اكتوبر ١١٤٧، منى الصليبيون الالمان، غير المنضبطين وغير المنظمين، والذين لم يتحلوا لا بالاحتراس ولا ببعد النظر (فلم يأخذوا من احتياطى المأكولات الا لمدة ٨ ايام) بهزيمة نكراء فى القتال ضد فصائل الخيالة التابعة لسلطان قونية فى جوار ضورليوم. وجاءت المجاعة والامراض التى قضت على افراد الجموع المسلحة الالمانية تستكمل هزيمة الصليبيين. وقد اضطر كونراد الثالث الى ان يطلب بمذلة ومهانة من لويس السابع الذى تلاقى معه فى نيقية الاذن بضم هذه البقايا السالمة من جيشه الى الجموع المسلحة الفرنسية. ولم يقرر مواصلة الحملة الصليبية غير جماعة صغيرة من الصليبيين الالمان، بينهم كونراد الثالث وابن اخيه فريدريك، دوق شوابيا (فيما بعد، امبراطور المانيا فريدريك بربروسا). والباقون، ممن سلموا، عادوا الى الوطن بخزى وعار.

منذ بادئ بدء، تعقد الوضع الدولى الذى جرت فيه الحملة الصليبية الثانية. فقد انتهج روجه الثانى سياسة اغتصابية واسعة فى منطقة البحرالمتوسط. واستأنف الهجوم على بيزنطة، مجددا تقاليد روبر غيسكار وبوهيموند دى تارنتو. وعندما سار الاستعداد للحملة الصليبية على قدم وساق فى فرنسا، وصل رسل من صقلية الى بلاط لويس السابع؛ وقد حملوا معهم،

بنظرنا امنه وقلوب الاوليا موتلفة والنية عن العراه غير منحرفة ويجب على الامير ان يوعز الى الخاطب [الخطيب] في يوم الجمعة بالدعا لمن الكلمة في الاقطار له مسموعة(*) والافاق على خلافته مجموعة الامام ابو محمد بنور الله امير المومنين مصرحا باسمه ولقبه وثبتا بما اطبق عليه المسلمين من منصبه وتوالي ذالك في كل جمعة وجماعة، ومن تعرض بيده او لسانه في امر

(*) الدعاء للخليفة العباسي في مصر بعد انقطاع دام طوال حكم الخلافة الفاطمية.

مقترحات مغرية لاجل الصليبيين ـ فقد تعهد روجه الثاني بتأمين المأكولات ووسائط النقل لهم، ومن جهة اخرى، حاولوا اقناع لويس السابع بان يختار الطريق الى الشرق عبر ابوليا وصقلية. فان روجه الثاني، «حامي المسيحية»، كما لقب نفسه رسميا، كان يريد سرا ان يجتذب الى جانبه الاعيان الفرنسيين وعلى رأسهم الملك، لاجل فتح القسطنطينية. الا ان جهود رسل صقلية لم تتكلل بالنجاح . فان الملك الفرنسي وباروناته فضلوا الانطلاق على نفس الطريق الذى انطلقت عليه القوات الالمانية، اذ ان الطريق عبر ممتلكات الامبراطور البيزنطي، حليف كونراد الثالث، كان يبدو لهم اكثر أمانة. ناهيك بانه كان معلوما ان روجه الثاني يطمع بامارة انطاكية، في حين ان سيد هذه الامارة، ريمون دى بواتيه، كان عم الملكة ايليونور وكان من اتباع الامبراطور البيزنطي. ولذا كان من شأن التقارب مع روجه الثاني ان يعقد علاقات فرنسا سواء مع الامبراطورية البيزنطية والعائلة الملكية في صقلية. ولذا قوبلت مقترحات ملك صقلية بالرفض.

واذ ذاك عمد روجه الثاني الى العمل على عهدته ومسؤليته. فعندما كان الصليبيون الالمان يتقدمون في اراضي بيزنطيا، شن ضدها عمليات عدائية. وفي صيف ١١٤٧، استولى اسطول صقلية على جزيرتي كورفو وسيفالونيا، وهدم كورنتس وثيبة ولربما أثينا، واجتاح الجزر الايونية. وتحالف «حامي المسيحية» مع مصر لكي يضمن لنفسه مؤخرة مأمونة. وكان الحاصل ظاهرة

الذاهب امس او القايم اليوم بما يحيف به حلفا
وبما يصدر عن هوا يشبهه حقا فليامر الامير باذنه
وليدم اليه نوسه واولى ما الزم الناس العافية فانها
اسبغ عطا واسبل غطا وفى تقلب الاحوال عبرة
لمن كان له قلب يسمع وهو شهيد، فليعلم الامير
ذالك ويعمل به انشآ الله تعالى. كتب فى العشر
الاول من المحرم سنة سبع وستين وخمسماية
للهجره. [١١٧١م]. وهذه السنة نهاية دولتهم

طريفة جدا : راح الفرسان الغربيون يشنون حربا مقدسة ضد الاسلام، فى ذات الوقت الذى تتفق فيه دولة من الدول المسيحية الكبيرة مع سلطان مسلم، لكى تستغل بصورة غير مباشرة الحملة الصليبية فى مصلحتها اى ضد بيزنطيا المسيحية. وهكذا تجلت بالفعل ، فى بادئ بدء هذا المشروع، الوحدة الموهومة بين مصالح المسيحيين الغربيين.

ان افعال روجه الثانى قد وضعت الصليبيين الفرنسيين، المتجهين الى القسطنطينية، والقائمين باعمال السلب والنهب فى اليونان، فى وضع مبهم جدا حيال بيزنطة. وقد تفاقم الارتياب فى بيزنطيا بصدد نوايا الصليبيين الحقيقية. فمن كان يعرف على ما اتفق رسل روجه الثانى ولويس السابع؟. وفى القسطنطينية كانوا لا يزالون يتذكرون كيف حاول بوهيموند منذ ٤٠ سنة ان ينظم حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية. ولكن مانويل كومنينوس حاول ان يتظاهر بالرضى. وقد وعد رسله الذين مضوا الى لويس السابع بانه سيسمح للصليبيين بشراء احتياطيات المأكولات بحرية فى اراضى الامبراطورية. وكانت رسائله الى الملك الفرنسى مكتوبة بلهجة حسن النية وحتى بلهجة الصداقة. ولكن الحكومة البيزنطية اتخذت تدابيرها. ويروى اودو دى ديل ان الفرنسيين واجهوا المصاعب عند شراء المأكولات؛ فان اليونانيين «لم يسمحوا لهم بدخول مدنهم وبلداتهم، وما كانوا يبيعونه كانوا ينزلونه بالحبال على الاسوار». وقد مضى

وهى تمام مايتى سنه وسنه واحده، وملكلو قبل هذه السنة بالمغرب منهم ثلثة: المهدى ، والقايم، والمنصور اربعة وسبعين سنة. فجميع دولتهم لاربعة عشر خليفة مايتى وخمسة وسبعين سنة. وقد نقش المعز تاريخ اول ملكهم فى بلاطه وبناها فى قنطرة باب القنطرة اسفل فمن اراد قراتها فيقرا هناك والسلام.

الفرنسيون الى العاصمة البيزنطية كأنما فى الصحراء، «رغم انهم دخلوا ارضا غنية للغاية، مليئة بالوفرة تمتد حتى القسطنطينية بالذات».

ردا على هجوم رئيس القراصنة النورمانيين الصقليين روجه الثانى، حشدت بيزنطة قواتها. وفى الغرب تحالفت مع البندقية مانحة اياها امتيازات تجارية جديدة؛ فالى عداد المناطق التى كان لتجار البندقية الحق فى المتاجرة فيها بدون دفع رسوم جمركية، اضيفت كريت وقبرص. كذلك عمد الامبراطور مانويل كومنينوس، الحليف «الامين» للصليبيين بقدر ماهم حلفاء «امناء» للامبراطورية البيزنطية، سعيا منه لاطلاق يديه فى الشرق، الى عقد الصلح مع سلطنة قونية التى بدأت الفرسان الالمان النضال معها والتى كان عليها مستقبلا ان تقتل الصليبيين الفرنسيين.

وهكذا رأى الصليبيون انفسهم بين نارين. فمن جهة ، سدد اليهم ضربة فى الظهر ملك صقلية الذى يعتنق مثلهم الدين نفسه؛ فهو لم يوقع اتفاقية مع مصر وحسب، بل هاجم بيزنطية كذلك، الامر الذى كان أشد وقعا عليهم، اذ انه اثار فى بيرنطية عميق الحذر والريبة حيال الفرسان الصليبيين وقادتهم. بل أن روجه الثانى استطاع بمختلف الحيل الديبلوماسية ان يقنع الحكومة البيزنطية بان لويس السابع يتعاطف مع سياسته. ومن جهة اخرى، تعرضت

ولما كان في شهر ربيع الاخر سنة ثلاثة وسبعين وخمس ماية خرج امر الملك الناصر صلاح الدين بابطال جميع المكوس من الديار المصرية، صعيدها وبحريها شرقيها وغربيها وبرها وبحرها، عن كلمن فيها من المسلمين والنصارى والغني والفقير والقوى والضعيف والامير والمامور، وامر ان يستادى الزكاة على الوجه الشرعي المامور به من الله عز وجل، فصارو الاجناد المقطعين يقوو على سكان

- -

خطط الصليبيين للخطر لأن بيزنطيا نفسها عقدت الصلح مع السلجوقيين. وكان هذا يعنى ان «الحجاج» لن يتمكنوا من دعم بيزنطية في الحرب ضد سلطنة قونية.

في هذا الوضع، اخذت اهمية الدوافع الدينية عند الصليبيين تقل اكثر فاكثر بينما اخذت الاعتبارات السياسية تشغل المرتبة الاولى. وعندما اقتربت القوات الفرنسية في سبتمبر ١١٤٧ من القسطنطينية، اغلق الامبراطور امام الفرسان ابواب المدينة، «لأن الفرنسيين، ـ كما يعترف اودو دى ديل ـ احرقوا لهم (اى للروم) الكثير من البيوت ومزارع الزيتون. تعالت بين الصليبيين اصوات تدعو الى الاستيلاء على عاصمة امبراطورية الروم (اى بيزنطة) والى القضاء بالتالي على هذه العقبة في الطريق الى بلوغ الهدف من الحملة.

وفي محيط الملك لويس السابع، كما يفيد مدون الاخبار المذكور، اخذوا يعربون اكثر فاكثر عن الفكرة القائلة انه ينبغي الاتصال بروجه الثاني الذى يخوض الحرب ضد بيزنطية، وانتظار وصول اسطول صقلية، وفتح القسطنطينية مع النورمانيين. وهذا المشروع طرحه ودافع عنه بالحاح كبير الاسقف جودفروا دى لانجر. وقد لفت انتباه الفرسان الى ان تحصينات العاصمة البيزنطية متداعية، وان قوات الروم للدفاع عن المدينة قليلة؛ فاذا حاصر الصليبيون القسطنطينية، فانها سرعان ما تسقط في ايديهم. ان هذا الاسقف التقى الورع لم يأبه البتة لكون بيزنطيا دولة مسيحية. أن اسقف لانجر، رجل «الاخلاق المقدسة» و«البالغ الحكمة»،

بلادهم وياخذو منهم المكوس، فبلغ ذالك الملك الناصر صلاح الدين وهو بالشام فى الغزاه، وكان اخوه الملك العادل ابو بكر نايبا عنه، فكتب له كتابا بخطه هذه نسخته:

المجلس العالى الملكى العادلى اعز الله نصره. يعلم انه لم يقطع احد من المقطعين ناحية من النواحى انه يستادى فيها مكسا ولا يستبيح للرعية مالا ولا يضيق فيها على مستور مشاعا [معاشا]

كما يقول مدون الاخبار، قد تفنن الى اقصى حد فى اختلاق الادلة على ان فتح العاصمة البيزنطية لن يلحق اى ضرر بقضية الصليبيين وان فتح القسطنطينية ليس الا فى الظاهر عملا يناقض المسيحية ، ولكنه لا يناقضها البتة في الواقع: ذلك ان الامبراطور البيزنطى دعم المسلمين غير مرة وحارب الصليبيين المستقرين فى سوريا محاولا ان يحتل امارة انطاكية. وهاهو الآن قد تواطأ مع عدو الصليبيين ، سلطان قونية!

صحيح ان جودفروا دى لانجر وجد عددا لا يستهان به من الانصار، الا ان البارونات القادة الفرنسيين صدوا خطط الكتلة المعادية لبيزنطيا؛ فقد كانت مفرطة فى المجازفة...

اشاع الامبراطور مانويل كومنينوس ان الصليبيين الالمان احرزوا نصرا كبيرا فى آسيا الصغرى وحتى استولوا على عاصمة سلطنة قونية، وبذلك حمل الصليبيين الفرنسيين الذين اهاجهم الحسد على الاسراع فى عبور البوسفور مع ملكهم. وفى الحال طلب من رؤسائهم حلف يمين التبعية الاقطاعية والوعد بتسليم بيزنطة المناطق التى تخصها ما ان يستولى عليها الصليبيون. وهذا المطلب عزز، اكثر من ذى قبل، التوتر فى العلاقات بين بيزنطية والفرسان الفرنسيين. ثم ان الكونت روبر البرشى انفصل عن الباقين دون ان ينسق اعماله معهم واندفع نحو نيقوميديا فى الحال. ورغم ان البارونات اقسموا، باغلبيتهم، يمين التبعية للامبراطور

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

فليكشف جـميع بلاد المقطعين ويحظ [يحظر]
عنها جميع المظالم والمكوس فانها غير داخلة فى
اقطاع المقطعين ومن رضى باقطاعـه بعـد وضع
مكوسها والا فليرتجع عنه ان شاء الله تعالى.

وفى المحرم سنة ثمان وسبعين وخمسماية [٨٩٨
قبطيـة = ١١٨٢م] جمع صـلاح الدين العسكر
ومضى الى دمشق(*) بعد موت نور الدين محمد
ابن قسيم الدولة، ففتحها وتسلمها بالامان وملكها

(*) غـزوات صـلاح الدين فى بلاد الشام ضد الصليبين.

مانويل، الا انه لم يقدم لاحقا اية مساندة فعلية للصليبيين، بل حاول على العكس ان يعرقلهم، لان نجاحاتهم كانت تهدد بانتهاك السلام مع السلجوقيين.

فى اوائل نوفمبر ١١٤٧ التقى الصليبيون الفرنسيون فى نيقية ببقايا الجموع المسلحة الالمانية الحقيرة التى كانت برئاسة فريدريك دى شوابيا ثم مع الفصائل الباقية القليلة التابعة لكونراد الثالث (وقد جرح هو نفسه فى القتال ضد السلاجقة الاتراك). وسارت القوات الصليبية الالمانية والفرنسية الى الامام، ولكن لا نحو اعماق البلاد، بل بسبيل غير مباشر فى ا لمقاطات الغربية والجنوبية من آسيا الصغرى. ان الخوف هو الذى اجبر الصليبيين على اختيار هذا السبيل؛ فقد تخوفوا من التعرض للمصير الفاجع الذى حل بالقوات الالمانية التى هزمها السلجوقيون. صحيح ان الطريق كانت تمر فى المدن البيزنطية (ازمير، برغام، افسس) ولكن عبور الجبال العالية والسهول العاصفة رافقته خسائر كبيرة.

فشل المغامرة الصليبية

فى اوائل سنة ١١٤٨، تحركت الجموع الفرنسية التى انهكتها المسيرة من لاودقية (اللاذقية) على الدروب الصخرية الى ابعد باتجاه الجنوب. وكانت المسيرة صعبة. ويروى اودو دى ديل ان فصائل الفرسان السلجوقيين «كانت تتخفى بمهارة وخفة، مثيرة قلقنا». وكان الادلة الروم يدلون الصليبيين قصدا وعمدا الى دروب كان فيها خطر التعرض لهجوم

وجـمـيع قـراها واعـمـالهـا، وتوجـه الى حلب
حاصـرها فلم يقدر ياخذها فى تلك الايام، ففتح
حمص وبعلبك، ثم عدى نهر الفرات ففتح سنجار
ومنبيج وحران ونصيبين ومدن كـثير فى ارض
الموصل، ونزل على مدينة الموصل وحاصرها واقام
عليـها خمسة شهور، ثم تركهـا ومضى الى امد
وميافارقين وفتحها ودفعها لرسلان ابن قليج، وعاد
منهـا عدى الفراة [الفرات] رجع الى حلب فنزل

القواسين السلجوقيين على اشده. وفى يناير ١١٤٨ منيت القوات الفرنسية بهزيمة خطيرة بجوار خونة.

وانهك السلجوقيون بغاراتهم المتواصلة الصليبيين الذين خسروا عددا من الارواح وفقدوا احتياطيات المآكل والاعلاف، اذ انتزع العدو منهم العربات. واضطروا الى ترك مواشي الجر لأنه لم يكن لديهم ما يعلفونها به. وكابد الفلاحون الفقراء المرافقون للحملة وضعا فى منتهى المشقة واضطروا الى تحمل افدح البلايا اثناء هذه المسيرة.

فى ١٩ مارس ١١٤٨ ، وصلت قوات الصليبيين الفرنسيين الى انطاكية بعد ان نقصت الى النصف. وبعد فترة وجيزة، وصل بحرا من القسطنطينية الى عكا فصيل صغير من الاقطاعيين الالمان بقيادة كونراد الثالث؛ ومن عكا انطلق الصليبيون الى القدس. استثارت اعمال كونراد الثالث الحذر والارتياب فى نفس لويس السابع؛ ولهذا السبب بالذات لم يقم هذا الاخير باية محاولة، رغم وصول مدد في شخص الفرسان البروفانسيين برئاسة الكونت الفرنسي ـ جوردان، لكى يستعيد من السلجوقيين المناطق التى استولوا عليها بين انطاكية واعالى الفرات . مضى هو ايضا الى القدس بحجة الايفاء بالنذر الدينى الذى اعطاه.

فى ٢٤ يونيو ١١٤٧ ، تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث مع وصية العرش ميليساندا واعيان القدس. وعن هذا اللقاء تغيب ـ لاسباب مختلفة ـ كبار قيادات الصليبيين فى سوريا

عليها وحاصرها، فقتل عليها تاج الملوك اخوه، ووقع الصلح بينه وبين صاحب حلب، فدفع له المدن الذى يفتحها فى ارض الموصل وسنجار وحران ومنبيج ونصيبين واعمالهم كلها، وسلم حلب للسلطان، فتسلمها ولم يفرح بها منجل [من اجل] موت اخوه تاج الملوك عليها. ودخل قلعتها ليلا وملكها واعمالها وجميع قراها فى سنة تسع وسبعين وخمس ماية . ولما فتح حلب عاد

الشمالية ـ ريمون من انطاكية، ريمون من طرابلس، جوسلين من الرها. تناول البحث خططا مختلفة للعمليات الحربية. واخيرا تخلى قادة الصليبيين عن اقرب اهدافهم وهو استعادة الرها، ـ ونسوا الحرب ضد الموصل ومضوا، مع القوات التى تشكلت فى مملكة القدس، يحاصرون مدينة دمشق المحصنة تحصينا منيعا، لأن فتحها كان يبشر بغنيمة وافرة! دام الحصار خمسة ايام (٢٣ ـ ٢٧ يوليو) ولكن عبثا.

ويروى المؤرخان الشرقيان ابو الفرج الاصبهانى وميخايل السريانى أنه أرسلت من المدينة الى معسكر المحاصرين، الى ملك القدس بودوان الثالث، بعثة سرية. وكان مغزى نصائح المبعوثين يتلخص فيما يلى: على بودوان ان لا يأمل فى البقاء فى القدس اذا «ثبت كونراد العظيم (كونراد الثالث) قدميه فى دمشق». وعرض المبعوثون على الملك ٢٠٠ ألف دينار، وعلى بارون طبرية ١٠٠ الف دينار لكى يقنعا الملك الالمانى بالانسحاب. وفى اواخر يوليو ١١٤٨ تخلى فرسان الصليب عن مشروعهم ، دون ان يحصلوا على شئ، بناء على اصرار هؤلاء البارونات الذين رشاهم واشتراهم الوزير الدمشقى معين الدين بالذهب (الذى كان مزيفا، كما اتضح فيما بعد). وقد اضطروا الى ذلك، خصوصا وان معين الدين قد دعا ، من جهته، قوات الموصل الى نجدته. ومن الشمال اخذت تقترب من المدينة المحاصرة قوات سيف الدين الموصلى واخيه نور الدين من حلب. وبما ان الصليبيين كانوا قد خسروا عددا كبيرا من

الى دمشق فاستراح مدة يسيرة وخرج للغزاة
ونزل على [حصن] الكرك وحاصره مده فلم يقدر
عليه، فعاد الى دمشق واقام بها، ثم عاد الى الكرك
في سنة ثمانين وخمس ماية [٩٠٠ قبطية =
١١٨٤م] وحاصره مدة ايضا فلم يقدر عليه،
فرجع الى دمشق، وفي رجوعه [نزل] على نابلس
فهدمها واخذ منها مال وسبى، ثم عاد الى مصر
في احدى وثمانين وخمس ماية هلالية [١١٨٤م]

الناس، فقد تراجعوا الى حدود مملكة القدس . وبما ان كونراد الثالث قد اقتنع بان الوضع ميؤوس منه، فقد عاد الى المانيا مع اتباعه القلائل في ربيع ١١٤٩ عبر القسطنطينية وسلانيك . وبعد بضعة اشهر عاد لويس السابع الى بلاده.

لم تعط الحملة الصليبية الثانية اية نتائج عملية. فان هذه المغامرة التى كانت سيئة التظيم والتى جرت بصورة أسوأ لم تسفر الا عن ضحايا بشرية وخسائر مادية جديدة، اكبر من ذى قبل. والاموال الطائلة التى جمعت بالضغط الفائق القساوة على الجماهير الشعبية انفقت عبثا. كذلك تسببت الحملة بضرر سياسى مباشر للسلطة المركزية، سواء فى فرنسا ام فى المانيا. واجتاحت فرنسا موجة من الحروب الاهلية الاقطاعية، واستدان لويس السابع الاموال، ولاسيما من الهيكليين الذين اخذ منهم مبلغا كبيرا لتلبية الحملة، ولحق ضرر لا يستهان به بمواقع السلطاة الملكية فى المانيا، فوق ماهى عليه من تزعزع.

وقد قدمت الحملة الصليبية الثانية، مثلها مثل الاولى، البرهان الجلى على غياب الوحدة بين الغزاة الاقطاعيين الغربيين. واخذت الاعتبارات الدينية، كما بينت ذلك ببالغ الوضوح مشاريع احتلال القسطنطينية، تفقد اهميتها اكثر فاكثر. وقد تذمر مدونو الاخبار فى القرن

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

. وعـمل مع الرعـيـة بديار مـصـر الخـيـر مـا يعـجـز
الواصف عن وصفه، واعدل عليهم واحسن اليهم
وازال مظالـم كـثيـرة، وامـر بابطال ضـمـان الملاهى
فى جميع ديار مصر، وانكر كل منكر واقام الحدود
الشرعية. وكان يجلس للعدل يومين فى كل جمعة
وهمـا يوم الاثنين ويوم الخـمـيس وصـدور [صـدر]
الدين قـاضى القـضـاه جالس بين يديه، ويدخل الى
داره ويحـضـر بين يديه جـمـيع الناس فـينصف

الثانى عشر من ضعف الحماسة الدينية ابان الحملة الصليبية الثانية. ولم تحمل هذه الحملة اكاليل الغار الى الكنيسة الكاثوليكية. ثم ان التناقضات التى تفاقمت بين دول اوروبا الغربية بسبب التطلعات والمطامع التوسعية فى منطقة البحر المتوسط، اخذت تعارض هذه الدول بعضها ببعض. وفى الوقت نفسه اشتدت المصادمات مع بيزنطة. وابان الحملة الصليبية الثانية تحطمت المشاريع الكونية الكلية التى واصلت البابوية حبكها لاجل بسط سيطرتها على العالم كله، اذ اصطدمت بتعاظم ميول التفرقة والتقسيم والتفتيت. كذلك اسهم بقسط كبير فى فشل الحملة انعدام الوفاق والوئام بين زعماء الجموع الصليبية، وخلافاتهم مع بارونات سوريا وفلسطين.

وعندما قام برنار دى كليرفو فى سنة ١١٥٠ بمحاولة اخرى لتنظيم حملة صليبية، لم يلق التأييد حتى من البابا، رغم ان بعض البارونات الفرنسيين وبعض كبار رجال الكنيسة (ولاسيما بطرس المكرم ـ Pierre le Vénérable رئيس ومصلح دير كلونى) اقترحوا ان يترأس برنار نفسه الحرب المقدسة الجديدة. وبموجب مجمع شارتر مايو ١١٥٠)، صادق البابا اوجينيوس الثالث ببولا (مرسوم) بتاريخ ١٩ يونيو على تعيين برنار، رئيس ومصلح ديركليرفو، قائدا للصليبيين. ولكن لم يذهب الامر الى ابعد من الاحاديث.

المظلوم من الظالم. ويكون فى مجلسه جماعة من الفقها واكابر دولته للنظر فى الحكومات بين الناس والعمل بما توجبه احكام الشريعه الحق والعدل.

ولما اقام بمصر سنة كاملة عاد الى دمشق فى سنة اثنين وثمانين وخمس مائة واقام بها ايضا سنة كاملة، وجمع العسكر وخرج من دمشق فى سنة ثلاثة وثمانين وخمس مائة هلالية [٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] يريد الغزو والنزول على الكرك، وقد

اخفقت الحملة الصليبية على الشرق اخفاقا تاما؛ وبعد وفاة برنار، دفنت لزمن طويل شتى الخطط للقيام بمشاريع من هذا النوع.

كان النجاح فى الريكونكيستو فى شبه جزيرة ايبيرية النجاح الوحيد وغير المباشر الذى احرزه رجال حملة سنة ١١٤٧. فان قسما من الصليبين الذين ابحروا فى مايو ١١٤٧ على السفن من مرفأ دار تموث الانجليزى ـ وكانوا من الفلمنكين والفريسلانديين والانجليز والاسكتلنديين ـ قد استرجعوا لشبونة من العرب. وتوقف الصليبيون فى بورتو، واستجابوا لنداء اسقف بورتو بتقديم العون لملك البرتغال، الفونس، الذى كان يحاصر ليشبونة منذ ثلاثة اشهر. وبما ان الصليبين قد نالوا موافقته على نهب المدينة فى حال فتحها، فقد قرروا ان يتوقفوا برهة. وفى ٢٦ سبتمبر ١١٤٧ استولوا على لشبونة وغنموا فيها بالفعل غنيمة وفيرة. ومذ ذاك، صارت هذه المدينة التى ظلت اكثر من ٤٠٠ سنة تحت حكم العرب، جزءا من المملكة البرتغالية.

المرحلة الجديدة فى هجوم السلجوقيين المضاد.

صلاح الدين واستعادة المسلمين للقدس

اخفقت الحملة الصليبية ١١٤٧ ـ ١١٤٨. وفى غضون ذلك، كانت ميول التلاحم والتوطد تتعاظم وتشتد فى الشرق الاسلامى رغم التناقضات. وفى السبعينيات من القرن الثانى

كـانو الافـرنج فى تلك السنة ملكو عليـهـا رجل غريب جا [جاء] من خلف البحر وكان قد تزوج بالكندوسه [الكونتيسه] ابنة الملك مرى، فسلمت له الملك، لان الملك كـان لهـا بعد ابوها فـدفـعتـه لزوجها، فلم يوافق ذالك قومص طرابلس، وحمله الغـيض [الغـيظ] والشـيطان الى ان راسل صـلاح الدين وصادقه ووافقه على الفرنج، وحلف له انه لا يحـاربه ولا يضـرب فى وجـهـه بسـيف. وكـانة

عشر، تشكلت هناك دولة كبيرة جمعت قسما كبيرا من آسيا الغربية. وقد لعب دورا بارزا فى تأسيسها القائد العسكرى يوسف صلاح الدين (١١٣٨ ـ ١١٩٣). كان صلاح الدين كردى الاصل.وقد سبق له ان ترقى وبرز عندما كان والده ايوب وعمه اسد الدين شيركوه يشغلان مناصب رفيعة فى بلاط عماد الدين زنكى. كان ايوب فى البدء عامل بعلبك، ثم انتقل الى خدمة اتابك دمشق وساعد كثيرا شيركوه فى احتلال دمشق فى سنة ١١٥٤ بتكليف من نور الدين زنكى.

كان الشاب صلاح الدين من افراد حاشية شيركوه؛ وبعد فترة وجيزة اظهركفاءات عسكرية ممتازة. ففى اواخر الستينيات تميز صلاح الدين، كآمر عسكرى، فى حروب شيركوه ضد مصر الفاطميين وضد الافرنج الذين حاولوا فى عهد الملك آمورى الاول ان يستولوا على مصر. وفى سنة ١١٦٩ صار شيركوه وزيرا فى مصر، ولكنه توفى فى السنة ذاتها. وكان صلاح الدين ابن اخيه، قد صار بالفعل الشخصية الاولى فى بلاط الخليفة الضعيف العادل . وعندما توفى العادل فى سنة ١١٧١ ، استولى صلاح الدين على زمام السلطة العليا مباشرة. وقد قضى الوزير الجديد على انصار الخليفة الاخير، ونظم الشؤون المالية، واعاد تنظيم القوات المسلحة، ومذ ذاك صار المقاتلون من الاكراد والسلجوقيين (الذين حلوا محل السودانيين والبربر والارمن) عماده. وفى سنة ١١٧٥ منح خليفة بغداد صلاح الدين لقب السلطان.

[كانت] طبرية للقومص فارسل لصلاح الدين يقول له: انزل على طبريه هى لى وانا ادفعها لك تقوى بها وتضعف قلوب الافرنج. فجا السلطان ونزل قريب من طبرية فسلمها له القومص. فلما سمع ملك الافرنج الذى ملكوه بعد مرى، وكان اسمه الكند جفرى [الكونت جودفرى] حشد عوام البلاد مع عسكر الساحل وجا اليه فى عسكر كبير فسبقه صلاح الدين الى الما [الماء] ونزل

فى حقبة قصيرة، وحد صلاح الدين مصر وقسما كبيرا من سوريا وبلاد ما بين النهرين؛ ففى سنة ١١٧٤ استولى على دمشق وحماه وحمص وغيرها من المدن؛ وفى سنة ١١٨٢ فتح حلب، وفى سنة ١١٨٦، اعتبر حاكم الموصل زنكى الثانى نفسه تابعا للسلطان صلاح الدين الذى صار اقوى حاكم فى العالم الاسلامى. ومن حيث الجوهر، وقع الشرق الافرنجى فى طوق دولة صلاح الدين. وقد وجه صلاح الدين، الذى اسس سلالة الايوبيين، جميع موارد الدولة الى النضال ضد الافرنج، وبما انه استهدف فى المقام الاول القضاء على مملكة القدس، فقد تعهد بشن الجهاد على اعداء الاسلام.

فى البدء كانت رحى النضال ضدهم تحتدم حسب الصدف، بين الفينة والفينة. فعندما كان صلاح الدين وزيرا، شن فى ديسمبر ١١٧٠، غارة على غزة، الحصن الواقع على حدود مملكة القدس. وبعد ذاك، استولى المصريون على ايلة، المرفأ الواقع فى خليج العقبة على ساحل البحر الاحمر. وفى سنة ١١٧٩، انزل فاروق الشاه، القائد العسكرى العامل فى خدمة صلاح الدين، خسارة جسيمة بقوات ملك القدس بودوان الرابع فى معركة بلفور. وبلغت بعض فصائل المسلمين صيدا وبيروت. وفى سنة ١١٨٠ انتزع اسطول السلطان صلاح الدين الذى اقلع من الاسكندرية، جزيرة ارواد من الصليبيين.

واخذت الغيوم تتلبد اكثر فوق مملكة القدس. ودخل الانتقام الاسلامى المرحلة الحاسمة.

عليه، فساق سوق كثير يطلب بسبق صلاح الدين الى الما فوجده قد سبقه ونزل عليه، فطلع هو ومن معه من الفرسان الى كوم عالى هناك يسمى كوم حيطين [حطين] فنزلو عليه وهم قد هلكو من العطش حتى صارو يشربو الخمر عوضا من الما، والتقو مع السلطان وقتل بينهم خلق كثير واكسرو عسكر المسلمين اول النهار ثم قوى صلاح الدين اخر النهار. و اما قومص طرابلس،

ادرك البارونات الصليبيون ما يمكن ان تؤدى اليه حملة صلاح الدين لاحقا. ففى سنة ١١٨٣ قررت الكورية الملكية في القدس فرض ضريبة استثنائية عامة؛ وكان ينبغى انفاق الاموال المحصلة جميعها تقريبا على تعزيز الدفاع ضد «الكفار» الذين اشتد نشاطهم. كان مقدار الضريبة يتوقف على حجم الاموال، وكان الجميع ملزمين بدفعها بصرف النظر عن الجنس والانتماء الدينى والاثنى. وقد عهد الى الاسياد بتحصيل النقود من ا قنانهم. وفى ١١٨٤ ـ ١١٨٥ مضى بطريرك القدس والاستاذان الاكبران للجمعيتين العسكريتين الرهبانيتين الى اوروبا للقيام بجولة للدعاية والتجنيد؛ لقد سافروا لطلب المعونة ضد «الكفار».

بدأ ضغط المصريين المنتظم والدائب على ممتلكات الافرنج منذ النصف الثانى من الثمانينيات فى القرن الثانى عشر. ان غياب التلاحم بين الاقطاعيين الصليبيين المستغرقين كليا فى الهموم الدنيوية، وفى المخاصمات بسبب الاراضى والالقاب، وفى الحيل والمؤامرات الديبلوماسية، قد اتاح لصلاح الدين فى سنة ١١٨٧ ان يقتحم بقواته المقاطعات الداخلية من مملكة القدس.

كانت الغارة اللصوصية التى شنها احد بارونات الافرنج البارزين، رينو دى شاتيون (De Châtillon) الذريعة المباشرة لاجل هجوم صلاح الدين. فان رينو هذا كان مغامرا وقحا، كسب شهرة مخزية «بمآثره» اللصوصية. وقد سبق له ان اجتاح قبرص البيزنطية فى سنة

الردى المنافق الذى باع قومه كما باع يودسى ربه، فكان يتبعه اربع مايت [مائة] فارس، فحمل بها كانة يقاتل فاوسعو له المسلمين الطريق فجاز بهم فى وسط عسكر المسلمين، وتم على حاله لم يرجع يرد وجهه وسار على فوره منهزما الى صور فدخلها واستقر بها . فلما علمو الفرنج ذالك ظنو انه انكسر الى ان انكشف لهم خبثه وفساد نيته، فلم يزالو يقاتلو حتى نصر الله صلاح الدين عليهم

١١٥٥ واعمل فيها النهب والسلب. ثم تزوج هذا السيد زواج مصلحة من وريثة امارة انطاكية، واكتسب بهذه الطريقة بعضا من الممتلكات على نهر العاصى. واخيرا وقع ذات مرة فى اسر نور الدين وامضى فى الاسر ١٦ سنة . وبعد اخلاء سبيله، لم تخف البتة ميوله الى المغامرة، فاستقر فى حصن الكرك، شرقى البحر الميت، وعكف على نهب وسلب قوافل التجار المارة فى الجوار، لأن الحصن كان يقطع الطريق من سوريا الى مصر والى الحجاز. وفى اواخر سنة ١١٨٦ ولربما فى اوائل سنة ١١٨٧ ، شن رينو دى شاتيون، خلافا لشروط الهدنة السارية المفعول آنذاك بين مصر ومملكة القدس (وقد سبق ان عقدت الهدنة فى سنة ١١٨٠) غارة على قافلة متجهة من القاهرة الى دمشق بتجارة كبيرة. ونهب كليا القافلة التى كانت فيها اخت صلاح الدين. واذا السلطان صلاح الدين، الذى اصيب بنكبة مزدوجة، يطالب فى الحال ملك القدس آنذاك جى دى لوزينيان (١١٨٦ ـ ١١٩٠) بالتعويض عن الضرر والافراج عن الاسرى ومعاقبة الناهب. ولكن الملك لم يجازف بمس واذلال تابعه القوى. فاستغل صلاح الدين رفض مطالبه وشن عمليات جبهوية حاسمة ضد «اعداء الله». فى البدء اجتاحت قواته فى الربيع الباكر من سنة ١١٨٧ مناطق قلعتى الكرك وكراك دى مونريال؛ وبعد شهرين بدأ الجهاد ضد الافرنج. واحتشدت قوات المسلمين الموحدة ـ من دمشق وحلب والموصل ومقاطعات ما بين النهرين ـ فى رأس الماء وباشرت العمليات الحربية.

فكسـرهم واسـر من اسر وقتل من قتل، وقد تهلل اهل الخير لما يعلمه الله فى ذالك من صلاحهم، ولما ظفـر بهم صـلاح الدين وحل فى جـملتـهم الابرنس [البـرنس] ارناط [رينو دى شـاتيـون] صاحب الكرك فاحضره بين يديه وخاطبه بكلام غليظ، ومسكوه له الاعوان وقربوه منه فذبحه بيده وغسل يديه بدمه. ثم ظفـر بالكند جـفـرى [بالكونت جودفرى] ملك الافرنج بالشكل الذى قدمنا ذكره واحضروه بين يديه، وكان حاضر ذبح

- -

انقضت الضربات المؤلمة على مملكة القدس الواحدة تلو الاخرى. وفى مايو ١١٨٧ ابيدت الى الشمال الشرقى من الناصرة فصيلة كبيرة مؤلفة اساسا من الفرسان الرهبان؛ وقد لقى الاستاذ الاكبر لجمعيات الاوسبيتاليين روجه دى مولان مصرعه. وفى الثانى من يوليو استولى جيش صلاح الدين على طبرية ثم ضرب طوقا مكثفا حول قوات كبيرة من الصليبيين قرب قرية حطين، بين الناصرة وبحيرة طبرية.

فى القتال الدامى الذى دارت رحاه فى ٤ يوليو ١١٨٧ فى حطين، انتصر المسلمون. وقد جرت المعركة فى وضع غير ملائم للصليبين، فى قيظ رهيب. وكان ينقص ماء الشرب. وفى كل مكان احرق المسلمون الاعشاب والشجيرات، واذا الفرسان الصليبيون الذين انتظموا على المرتفع فى ثلاثة طوابير قتالية تلفهم سحب الدخان المتصاعد الى اعلى... دامت المعركة نحو ٧ ساعات على التوالى. وسقط مئات الفرسان وآلاف المقاتلين المشاة فى ساحة الوغى. ووقع فى اسر صلاح الدين الملك جى دى لوزينيان، والاستاذ الاكبر لجمعية الهيكليين جيرار دى ريدفور، وقائد الجيش الفرنسى امورى دى لوزينيان، وكثيرون من البارونات ـ غليوم دى مونفيرات، وغيره. ولم ينج سوى بضع مئات من الاشخاص فروا الى صور واحتموا وراء اسوارها.

الابرنس ارناط [صاحب] الكرك فلما راه متخبط
يخور في دمه خاف واصفر لونه، فقال له صلاح
الدين: لا تخاف ياملك فما تموت اليوم بل تحيا
ولو بقي لقومك بقية كنت املكك عليهم
واساعدك بمالي ورجالي طول ايام حياتك، وانا
احدثك حديث الابرنس [ارناط] وسبب ما فعلته
به، وذالك ان طريق التجار واكثر المسافرين على
الكرك فكان يمسك القوافل بظلم وعنف، وكان

حفظ السلطان صلاح الدين حياة اغلبية الاسرى بمن فيهم الملك والاستاذ الاكبر (بأمل فدية كبيرة)، ولكن زهاء ٢٠٠ من الفرسان الهيكليين والاوسبيتاليين اعدموا بامر منه. اما البارون المتغطرس رينو دى شاتيون، فقد قطع صلاح الدين بسيفه رأسه.

كان انتصار حطين مقدمة للنجاحات التى احرزها المسلمون فيما بعد. فسرعان ما احتل صلاح الدين المدن الساحلية كلها تقريبا جنوبى طرابلس: عكا، بيروت، صيد، يافا، قيسارية، عسقلان. وقطع اتصالات القدس مع اوروبا. كذلك استولى المسلمون على اهم قلاع الصليبيين جنوبى طبرية، ماعدا الكرك وكراك دى مونريال. وفى النصف الثانى من سبتمبر ١١٨٧ حاصرت قوات السلطان صلاح الدين القدس. ولم يكن بمقدور حاميتها الصغيرة ان تحميها من ضغط جيش مؤلف من ٦٠ آلف رجل. وحين رأى السكان عقم مواصلة المقاومة، قرروا بعد ستة ايام من النضال ان يستسلموا لرحمة الظافر. وفى الثانى من اكتوبر ١١٨٧ فتحت الابواب، واحتل المسلمون المدين. وفوقها اخذت تخفق راية السلطان الصفراء باعتزاز.

الحملة الصليبية الثالثة

ان نبأ سقوط مملكة القدس الذى وصل إلى اوروبا الغربية كان بمثابة صاعقة فى سماء

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١.١٦٦ / ١١٨٩م

نور الدين وغيره من ملوك المسلمين يرغبون في الصلح معه ليخفف ضرره عن المسلمين، فدفعة يفعل والف دفعة لا يفعل، فلما كان في ايامي ارسلت اليه وهاديته وحملت اليه مال ومتاع وخلع وحلف لرسولي انه لا ياذى احد من المسلمين ويحسن للتجار ويطيب لهم الطريق ولا يمكن احدا من اصحابه من مضرة مسلم ولا تاجر ولا عابر طريق وبعد ان حلف بثلث ايام عبرت قافلة

صافية. فان البابا اوربان الثامن، ما ان عرف بما حدث، حتى توفى من وقع الصدمة. ودعا خليفته، البابا غريغوريوس الثامن، بمنشور بابوى بتاريخ ٢٩ اكتوبر ١١٨٧ وزعه من فيرارا، الكاثوليك الى حملة صليبية جديدة، وا مرهم بالصيام كل اسبوع في يوم الجمعة على امتداد خمس سنوات كما امرهم بالامتناع كليا فى هذه الحقبة من الزمن عن اكل اللحم مرتين فى الاسبوع. والدعوة الى الحرب الصليبية ـ وقد قام بها ببالغ الهمة ا لكاردينال انريكو من البانو ـ تلقفها البابا التالى كليمنت الثالث، الذى حل بعد شهرين محل البابا جريجوريوس الثامن.

قامت الحملة الصليبية الثالثة من سنة ١١٨٩ الى سنة ١١٩٢. واشترك فيها بوجه الحصر تقريبا الاقطاعيون الكبار والفرسان من بلدان اوروبا الغربية. ونحو اواخر القرن الثانى عشر صار الفرسان القوة الجماهيرية الاساسية فى الحركة الصليبية. كذلك اضطلعت بدور فعال ونشيط فى الحملة الصليبية الثالثة الدول الاقطاعية التى كانت مصالحها التجارية في الشرق قد اكتسبت مكانا مهما فى سياستها.

اخذت الاهداف الدينية من الحملات الصليبية تتراجع اكثر فاكثر الى المؤخرة. وعلى العكس اخذت مطامع الفتح عند المشتركين فيها تبرز اكثر فاكثر من خلال الغلاف الصوفى الذى حاولت الكنيسة الكاثوليكية، من قبل، ان تموه به الحركة.

طالبة دمشق فساقها بجمالها ورجالها واموالها طالع بها الكرك فاسر رجالها واخذ اموالها، فبلغنى خبرها فعظم ذالك عندى وانذرت لله اننى متى ظفرة به فعلت به ما رايت فلا تلومنى يا ملك. ثم استدعا قدح شراب فجا به اليه الشربدار فاخذه من يده شرب منه وناوله للملك فشربه، واخلى له ولاصحابه نوبة خيم، ووكل به من الرجال من يحفظه. ولم يزل عنده حتى سلم له عسقلان،

ولكن اذا كانت دوافع الفرسان الدينية قد اخذت تتضاءل، فان سعى دول اوروبا الغربية الى السيادة فى منطقة البحر المتوسط اصبح من أهم الحوافز الداخلية الدائمة للحملات الصليبية منذ اواخر القرن الثانى عشر. وهذا السعى جمع فى الظاهر، وبقدر معين، صفوف فرسان الغرب، وعارض بلدان اوروبا بالشرق.

وكل هذا ظهر بوضوح فى زمن الحملة الصليبية الثالثة.

فقد استقبلت الجماهير الشعبية دعوات باباوات روما بقدر من التعاطف اقل بكثير من ذى قبل. وعندما فرضت فى اوائل سنة ١١٨٩ فى انجلترا ثم فى فرنسا اتاوة عامة قدرها عشر جميع المداخيل، لاجل تغطية حاجات الحملة استثار ذلك الاستياء والغضب بين سواد الناس. وطفق الناس يستقبلون الجباة بالحجارة، ولذا كان لا بد من الغائها كليا فى فرنسا. كذلك تفاقم التذمر من الضريبة بين رجال الدين اذ رأوا فى فرض مثل هذه الضريبة تطاولا على امتيازاتهم. وكان رجل الكنيسة والكاتب الفرنسى البارز بيار دى بلوا يعتبر : «اذا فرض الامراء بحجة حج جديد... دمغة العبودية على كنيسة المسيح، مطالبينها بالضريبة، فانه يجب على ابن الكنيسة البار ان يموت ولا يخضع». وهنا وهناك اثار جباية عشر المداخيل بعض الاستياء حتى فى اوساط الفرسان. وان الفارس والشاعر كونون دى بيتون الذى اشترك فيما بعد فى الحملة على الشرق، أتهم اصحاب الحول والطول فى هذا العالم اتهاما حادا بانهم «اخذوا

---

٧٣ : أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

لانها كانت له، وبعد ان تسلمها اخلع عليه واوهبه واطلقه فسار الى جزيرة قبرص فملكها ولم يزل فيها الى ان مات [سنة ١١٩٤م] ولما كسر السلطان عسكر الافرنج وابتدى فى فتح مدن الساحل كتب لولده الملك العزيز، الذى سلطنه على ديار مصر واقره فيها، كتابا يعرفه فيه قضية الحال وكيف كانة [كانت]، فكتب الملك العزيز الى ولات الحروب كتبا يعرفهم بذالك وهذه نسخة

الصليب لقاء نقود وانهم يفرضون العشر على رجال الدين وسكان المدن والاقنان. ان دافعهم ليس الايمان بل الطمع». اما دافع هذه الاقوال، فهو الموقف السلبى من مشروع الحملة الصليبية ذاته، وزوال الايمان السابق، العام كليا تقريبا، فى نزاهتها وقدرتها على الانقاذ.

لقى نداء روما الصليبى الدعم بصورة رئيسية فى الاوساط الاقطاعية، ـ جزئيا بين الفرسان الصغار والمتوسطين، وفى الاوساط الحاكمة فى الممالك الاقطاعية الغربية، وكذلك فى اوساط الاشراف فى مدن ايطاليا الشمالية. وفى سنة ١١٨٨ انطلق الى سوريا اسطول صقلية النورمانى التابع للاميرال القرصان مرجويتون، كما انطلقت بضع عشرات من السفن من بيزا وجنوه.

وفى انجلترا وفرنسا والمانيا، طفقوا يؤلفون قوات برية. وقرر ملوك هذه البلدان ـ هنرى الثانى بلانتاجينه وفيليب الثانى، الذى لقب فيما بعد اوغست، والامبراطور فريدريك الاول بربروسا اخذ الصليب. وكان لكل منهم اسبابه الخاصة للاشتراك فى الحملة.

سعى هنرى الثانى (١١٥٤ ـ ١١٨٩) على امتداد كل عهده الى كسب مواقع ثابتة فى منطقة البحر المتوسط لدولة انجو. وبعد الحملة الصليبية الثانية بوقت قصير، تزوج فى سنة ١١٥٢ من ايليونور داكيتين التى طلقت زوجها لويس السابع وضم على هذا النحو الى

كــتــاب منهم ورد على والى تنيس بفــتـح عكا وطبــرية(*) ويصف فيه هذه القضية وهذه نسخة الكتاب.

(*) خطاب صــلاح الدين الايوبى إلى ابنه الملك العزيز بمصر يعلنه بفتح عكا وطبرية.

بسم الله الرحــمن الرحــيم الحــمـد لله الذى اذهب عننا [عنا] الحزن ان ربنا لغفور شكور، كتابنا هذا وارد على الامير الاجل الاسفهسلار الاخص حــسـام الدين سـيف المجاهدين عـمـده الملوك والسـلاطين خاصـة امير المومنين ادام الله رفعته

ممتلكات سلالة بلانتاجينه في فرنسا ـ كونتية انجو وكونتية يين ـ دوقية اكيتين التى كانت مدينة مرسيليا ضمن حدودها. وهذه الدوقية كانت تضطلع بدور كبير فى التجارة مع المشرق، التى مارستها انجلترا ذاتها ايضا. وكانت السفن الانجليزية تبحر في المعتاد فى البحر المتوسط، اما بمحاذاة سواحل فرنسا واسبانيا، ـ نحو جبل طارق ، واما فى عرض البحر حتى بوردو؛ وهناك كانوا ينقلون مشحوناتها الى المراكب النهرية، المنطلقة على نهر جارون الى تولوز. وهنا كانوا يشحنون البضائع الانجليزية على مواشي الجر الى ناربون، حيث كانت تستقبلها السفن المتجهة الى الاسكندرونة والموانى السورية واللبنانية. وهذا الطريق هو الذى كان يمر عبر أراضى دوقية اكيتين.

فلا غرابة اذا كان هنرى الثاني قد حاول تأمين نفوذ انجلترا فى جميع البلدان الواقعة على البحر المتوسط. وكانت الزواجات السلالية وسيلة مهمة فى سياسته فى منطقة البحر المتوسط والى هذه «الديبلوماسية الزواجية» جر اولاده جميعهم تقريبا، فقد زوج احدى بناته ايليونرو، من ملك قشتاله، الفونسي الثامن وزوج بنتا اخرى، هى حنة، من ملك صقلية، غليوم الثانى (لم يسفر الزواج عن اولاد، ولذا لم يكن فى صقلية وريث انجليزى لعرشها)؛ وابنه البكر، ريشار، خطب له ابنة سانتشو السادس، ملك نافار، الاميرة بيرنجيز.

كذلك لم يكن هنرى الثانى يأنف من الأمل فى الاستيلاء على مملكة القدس. فاليها ايضا

وحرس بهجته وكتب حدثه، ناطقاً بما جا من نصر
الله العزيز وفتحه المبين، وما انتج من الظفر الذى
عفا اثار المشركين وشفا صدور المومنين، واستنطق
بشكر الله من سبح بحمد ربه واستغفره وعظمه
فذكره ووسع ذكر طوله ويسره، واوضح الى الله
عز وجل اطلع على النية السلطانية فى نصره دينه
فنصره، وعرف صدق عزمه فى قصد عدوه فاقدره
وعضده واظفره وايده بجنوده على من جحد

كانت تمتد خيوط قرابة بيت انجو من سلالة بلانتاجينه؛ ذلك ان ملك القدس فولك (١١٣١ ـ ١١٤٣) كان ايضا كونت دانجو، وكان ابنه جوفروا بلانتاجينه قد تزوج فى حينه من ماتيلدا ابنة ملك انجلترا هنرى الاول، فكان فولك بالتالى جد هنرى الثانى. وليس عبثا كان ملك انجلترا الذى فعل الكثير لتوطيد التمركز السياسى فى بلده، يهتم دائما بممتلكات اقاربه فيما وراء البحار. وغير مرة دفع مبالغ نقدية كبيرة لاجل حماية الارض المقدسة من «الكفار»، كما كان قد اتفق، قبل سقوط القدس، تارة مع لويس السابع، وطورا فيما بعد، مع صهره غليوم الثانى ملك صقلية، بشأن الحملة الصليبية.

ان هنرى الثانى، الذى كان يدغدغ من زمان بعيد فكرة بسط سيطرة دولة آل بلانتاجينه الانجليزية الفرنسية على العالم اجمع، قد وافق فى الحال على الاشتراك فى الحملة الصليبية التى اطلقت روما الدعوة اليها، لأن حربا ناجحة فى الشرق كانت تبشر بتوسيع منطقة نفوذ دولة انجو فى البحر المتوسط توسيعا كبيرا.

كذلك اثرت جهود البابوية فى ملك آخر فى ذلك الزمان كان يحبك خطط السيطرة العالمية هو الامبراطور الالمانى فريدريك الاول بربروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠)، ذلك الذى اشترك فى الحملة الصليبية الثانية، حين كان لا يزال دوق شوابيا. الا ان هذا الحاكم ذا المزاج العدوانى المتطرف والمحب للقتال لم يتعلم شيئا من التجربة المرة والمخزية.

٧٣: أبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

تفرده بالوحدانيه وكفره، وامات بسيفه سلطان
الشرك فاقبره. ومقرب عن ورود الكتاب السلطانى
فى يوم الاثنين الرابع من جمادى الاول مورخا بيوم
الجمعة متهله [مستهلة] مقصور على البشرى بما
فتح الله على يديه، وذكر النصرة الرادة لعدو الله
على عقبيه. وان من جملت ما انعم الله به فى يوم
الخميس الثالث والعشرون من ربيع الاخر الى يوم
الخميس سلخه [آخره] ما يوضح فى تاريخه يوم

وكان اشتراك فريدريك الاول فى الحملة الصليبية الثالثة ينبع بصورة منطقية من كل السياسة العدوانية الاغتصابية التى سلكها آل شتاوفن فى جنوب اوروبا. ولقد امضى فريدريك الاول بربروسا زهاء نصف زمن حكمه فى حروب من اجل بسط السيادة على مدن لومبارديا. وقد منى هناك بالهزيمة. وحين هزمه اتحاد المدن فى معركة لنيانو سنة ١١٧٦، اضطر الى الاستسلام فيما بعد امام الكرسى الرسولى ايضا ووقع فى سنة ١١٧٧ صلح البندقية المذل له. وحين ملك روعه بعد الهزيمة، وجه انظاره الى ايطاليا الجنوبية وصقلية. فقد كان يدرك بوضوح اهمية صقلية فى تجارة المشرق، وتلك المنافع التى يبشر بها امتلاك هذه الجزيرة. وعبرها كانت تمر اقصر طريق من اوروبا الى افريقيا الشمالية. وفى ثغور صقلية المناسبة ـ مسين، باليرمو، كاتانيا ـ كانت تتوقف جميع سفن البلدان الغربية، الى المشرق ذهابا وايابا. وكانت السيادة على صقلية تؤمن لحكامها مصادر ضخمة لواردات الخزينة؛ وكانت دول كثيرة معنية تقع فى تبعية حكام صقلية.

ولاجل امتلاك صقلية وايطاليا الجنوبية، لجأ فريدويك الاول، مثل هنرى الثانى، الى ديلوماسية الزواجات السلالية؛ ففى سنة ١١٨٦، اقيمت فى ميلان احتفالات زواج ابنه ووريثه، الامبراطور هنريخ السادس فيما بعد، من وريثة عرش صقلية، كونستانسيا. وبذلك ضمن فريدريك الاول بربروسا انتقال صقلية الى سلالة شتاوفن.

الخميس الاول فتحت طبرية، ويوم الجمعة والسبت
نوزلت جموع الافرنجية وكسرو الكسرة التى
تركت البلاد منهم على عروشها خاوية، والمعاقل
المنتزعة من ايديهم باعلا اعلام الاسلام عليها
حاله، وجمعت من طواغيت الكفر وبين امهم
الهاويه، واذاقتهم النار الحامية. وفى يوم الاحد
تسلمت طبرية وقتل الابرنس ارناط باليد العالية
السلطانية، وحصل الملك [جودفرى] اسير واخوه

- -

واخيرا كانت بيزنطة تشغل مكانا مهما فى مشاريع الامبراطور الالمانى المغامرة؛ وكان يسمى بقايا الامبراطورية الرومانية الشرقية باحتقار وازدراء «اليونان الصغيرة». ويذكر مؤرخه البلاطى الاسقف اوتون من فريز ينجن فى سيرة حياة فريدريك الاول الذى كان ابن اخيه، فيما يذكر، ان الامبراطور قد نعت نفسه غير مرة «سلطان العالم» واعلن على المكشوف عن عزمه الراسخ على توسيع حدود الامبراطورية الالمانية حتى حدود الامبراطورية الرومانية القديمة.

صحيح ان مبادرة الحملة الصليبية قد انطلقت من خصم سلالة شتاوفن السياسي فى الماضى غير البعيد، البابا، ولكن الحملة على الشرق كانت توفر ـ على الاقل كما كان من الممكن ان يبدو ـ فرصة مناسبة لاجل تحقيق مشاريع بربروسا الكلية الكونية. وقد نظر فريدريك الاول بربروسا الى المبادرة البابوية نظرة ايجابية؛ فان الاوساط الاقطاعية فى المانيا الجنوبية على الاغلب، التى كانت تطلعاتها تحدد سياسته فى كثير من النواحى، كانت لها مصلحة مباشرة فى الفتوحات فى الشرق. ولهذا السبب أخذ فريدريك الاول الصليب فى اواخر آذار (مارس) ١١٨٨ فى غوفتات ما ينتس، وذلك بصرف النظر عن عمره (كان يناهز الستين).

ومقدم الديويه [فرسان القديس يوحنا] والهنفرى
ابن الهنفرى صاحب الكرك، وصاحب عتيل
[عتاليت] وصاحب تل الصافية. وفي يوم الاثنين
قتل من فرسان الديويه والاستباريه على باب
السرادق السلطاني ما عديه [عدده] مايتا فارس.
وفي يوم الثلثا انتقل الركاب السلطانى الى مدينة
عكا لينازلها، وفي يوم الاربع وصلها وفيه جرد
العرم الذى حصلها [حاصرها] وفي يوم الخميس

وكان الملك الفرنسي فيليب الثاني (١١٨٠ ـ ١٢٢٣) الملك الثالث الذى اعرب عن رغبته في السفر الى ما وراء البحار.

الا ان هذا المشروع شغل فرنسا، بالطبع، اقل بكثير مما شغل انجلترا والمانيا. فان ملكية الكابيتين كان يعود لها في ذلك الزمان مكان متواضع جدا في لعبات الغرب السياسية. وفيليب الثاني الذى ورث العرش من لويس السابع لم يكن سوى سيد اسمي لتابعه الاقوى منه بكثير وعدوه اللدود هنرى الثاني بلانتاجينه.

كانت اراضي المملكة الفرنسية تقتصر فعلا على ممتلكات التاج، ولذا لم يكن فيليب الثاني في ذلك الوقت بعد، عمليا، ملكا حتى لنصف فرنسا. فان مقاطعاتها الغربية، المطلة على المحيط الاطلسى كان يملكها الملوك الانجليز؛ وعليهم كان تتوقف كذلك الاراضي الجنوبية من فرنسا (كونتية تولوز)؛ وكان قسم آخر من الاراضي الفرنسية ـ مملكة بورغونيا ـ خاضعا للامبراطورية الالمانية.

وكانت الواردات من ممتلكات التاج المفصولة عن البحر من جميع الجهات، زهيدة جدا، وهذا ما حمل فيليب الثاني على الاشتراك في الحملة الصليبية. وكان هذا الملك منذ شبابه سياسيا مراوغا وداهية وحاذقا، يعرف كيف يستغل الظروف. وكانت الحملة على الشرق تبدو له وسيلة مناسبة لاصلاح شؤون السلطة الملكية، اى رفع مكانتها وسمعتها في داخل البلد

فتحت صلحا ورفع العلم المنصور على قلعتها المحروسة صبحاً، واستقر الاسلام فيها بوطنه وعاد الى سكنه ورجع جوهره فيها الى معدنه. وفى يوم الجمعة مستهل جمادى الاول أقيمت خطبة الاسلام فى مسجدها بشعارة. وقام الموذن مكان النواقيس معلنا بكلمة التوحيد التى كان قايلها معقول اللسان. وفى تضاعف هذه المدة فتحت الناصره وصفوريا وحيفا والغولة [الخولة] ومعليا

وفى المسرح الدولى، وتكديس القوى والموارد الضرورية لاجل تسديد ضربة ماحقة الى العدو الرئيسى ـ سلالة بلا نتاجينه ـ والشروع فى حل المهمة الاساسية التى تواجه سلالة الكابيتيين ـ اى جمع الاراضى الفرنسية وتوحيدها.

كذلك مفاهيم الشرف الاقطاعى لم تسمح للملك فيليب الثانى بان يواجه مبادرة البابا بعدم الاكتراث، خصوصا وانه توضح فيها على الفور الدور البارز لتابع التاج الفرنسى هنرى الثانى. وهكذا استرشد الملك الفرنسى فى المقام الاول بدوافع المكانة والدوافع الكاثوليكية.

فى يناير ١١٨٩، تلاقى عدوا الامس القريب فى جوار جيزور وتبادلا قبلات السلام؛ فقد كان ينبغى تأمين الطمأنينة والهدوء فى دولتيهما اثناء الحملة. واتفق الملكان على السفر فى آن واحد ومعا. وبمثال الملكين اقتدى اتباعهما من على كلا جانبى المانش. واتخذ قرار بان يخيط الفرنسيون على اثوابهم صلبانا حمراء، والانجليز صلبانا بيضاء والفلمنيون صلبانا خضراء. وكانت قد بدأت التجمعات لاجل الحملة، واذا الحرب تنشب فجأة بين الملكين. اما الذريعة للحرب، فهى ان الابن البكر للملك هنرى الثانى، وريشار، كونت بواتو ودوق اكيتين، رفض ان يتزوج من اخت الملك فيليب، اليس، بحجة ان الملك الانجليزى قد اغراها. الا ان فيليب الثانى، الفنان فى المؤامرات السياسية، استطاع ان يستحث الابن على الاب، واذا كل من الجانبين يمتشق السيف، وتتوقف الحملة الصليبية. وفى ٦ يوليو ١١٨٩ توفى هنرى الثانى.

والطور، والتمست اسكندرية [اسكندرونه] ونابلس بالامان، وسنين خلت من حرب الشيطان. وتضمن الكتاب الكريم ان عدة القتلا استوعبت عدة من حضر المصاف من الفرنج، الا القومص فانه نجا نجات من جز الحبل عنقه فضغطه الرعب وخنقه ولجا الى صور فى عدد يسير واستقر بها استقرار الاسير. واشير فى الكتاب المذكور ان عدة من قتل واسر يزيد عن عشرين الفا ادمى، وهذه والله


صلاح الدين يفاوض الصليبين
فى تسليم عكا صلحا

وحل محله على العرش ريشار الذى لقب فيما بعد «قلب الاسد» وصار البطل الرئيسى فى الحملة الصليبية الثالثة.

وهكذا لم تكن تتسم الاعتبارات الدينية بالنسبة لزعماء هذا المشروع الرئيسيين الثلاثة جميعهم باهمية جوهرية نوعا ما. فقد كانت الحملة الصليبية ١١٨٩ ـ ١١٩٢ منذ بادئ بدء مجرد حملة فتوحات ، وكان الدور القيادى فيها يعود بمعظمه الى سلطة الدولة. وهناك سمة مميزة طريفة: ان فريدريك الاول قد امر بان يدفع كل من الفقراء الذين اعربوا عن الرغبة فى الاشتراك فى الحملة ٣ ماركات؛ اما الذين لم يكونوا يملكون هذا المبلغ، كما كتب مدون الاخبار، فقد «منعهم تحت طائلة الحرم من السفر، لعدم رغبته فى ان يشكل العامة التى قلما تصلح للحرب عبئا على العساكر».

الوضع فى البلقان والنزاع مع بيزنطية.

مصرع فريدريك بربروسا واخفاق الفرسان الالمان

لم يهتم زعماء الفرسان الصليبين برسم خطة مشتركة للحملة الحربية، وتصرفوا منذ البداية بصورة منفردة.

فى ١١ مايو ١١٨٩ تحركت القوات الالمانية برئاسة الامبراطور من ريغنسبورج قبل غيرها.

٧٣: أبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

المحمود نوبة [حادثة] ما يعرف عارف فى الاسلام مثلها، ولا يشهد تاريخ بما يشبه فعلها ولا يشبهها قبلها. ومن فضايل هذا الفتح وبشاير هذا المنح تيسره، ولم يعدم من المسلمين سوى نفر دون العشره، وجراح من جرح والله المشكور سليمه، والنعمة عظيمة، ووجوه ولاة الامر بما يسره الله لهم من النصرة اصبحت وهى كريمة، وقد استخرنا الله وصممنا عزمنا على المضى الى المخيم

وكانت تتألف من قرابة ٣٠ الفا من الفرسان والمشاة. وقبل بداية الحملة كان فريدريك الاول قد اجرى مفاوضات ديلوماسية مع المجر وبيزنطية؛ فقد اراد ان يضمن عبور قواته فى اراضيهما بأمان. وكانت نتائج المفاوضات، على ما بدا، مؤملة. فان الملك المجرى بيلا الثالث (١١٧٣ - ١١٩٦) قد وافق على مرور الصليبيين عبر بلاده وحتى سمح لهم بشراء المأكولات. وبالفعل عبر الالمان المجر بسلامة، دون تجاوزات كبيرة. كذلك امكن الاتفاق مع الرسل البيزنطيين الذين وصلوا الى ريخستاج نورمبرج فى ديسمبر ١١٨٨ (برئاسة موظف كبير هو اللوجوفت دروم يوحنا دوقاس)؛ فقد اكد الروم ان بوسع الجيش الالمانى ان يعبر الممتلكات البيزنطية بلا عائق، وان يتلقى المأكولات والاعلاف لقاء ثمن مناسب. كذلك فريدريك الاول اكد بدوره للسفراء بالقسم. انه ليس لبيزنطية ان تخشى شيئا من المقاتلين الالمان . ولكن رغم ان الاوساط الحاكمة فى امبراطورية القسطنطينية اقدمت على الاتفاق مع فريدريك الاول، الا ان الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس (١١٨٥ - ١١٩٥) سرعان ما شرع يقيم امام الصليبيين شتى الحوائل والعوائق. ففى القسطنطينية كانوا يعرفون عن نزعة بربروسا الى القتال ولم يكونوا يثقون كثيرا فى وعوده.

وكانت تتوفر لحكومة اسحق الثانى انجيلوس جميع المبررات والدوافع للقلق. فان علاقات فريدريك الاول الوثيقة مع عدو بيزنطية المباشر فى الشرق قلج ارسلان الثانى، سلطان قونية

[الخيم] المنصور السلطاني سلمه الله تعالى بعكا حرسها الله تعالى. اعلمنا الامير ذالك لياخذ حظه من هذه البشر ى التي عمت فضايلها الاسلام والنعمة التي شملت الخاص والعام ان شا الله تعالى. ولما كان بعد كسرة عسكر الافرنج وفتح البلاد المقدم ذكرها نزل الملك العادل (ابو بكر) على يافا وقاتل من فيها يومين وفي اليوم الثالث طلبو منه الامان فامنهم، ثم بعد ذالك قتل من ظفر

السلجوقي (١١٥٥ ـ ١١٩٢) قد اثارت الشبهات. فقد تبادل الامبراطور الالماني السفراء، وحتى اخذ منه وعودا تتيح الأمل في ان يتمكن الفرسان الالمان من عبور آسيا الصغرى بلاعائق: ذلك ان قلج ارسلان الثاني كان يعادى صلاح الدين الذى كان الصليبيون يعتزمون قهره.

وارتسمت اخطار جدية على بيزنطة من صوب الغرب ايضا، من اوروبا الجنوبية الشرقية. فقبل بداية الحملة الصليبية بزمن وجيز، في ١١٨٥ ـ ١١٨٧، ثار البلغار بنجاح، بقيادة البوليارين (النبيلين) آسن وبيوتر، على الاستبداد البيزنطي. والى الشمال من جبال البلقان، تشكلت دولة مستقلة، اسميت بالمملكة البلغارية الثانية. كذلك كانت صربيا تسير نحو بلوغ الاستقلال.

ان تقدم الفرسان الالمان في اراضي البلقان قد رافقته اعمال العنف والاجتياح والنهب من جانب الصليبيين، ولذا كانت الحملة بالنسبة للسكان المحليين بمثابة عدوان واقتحام معاد. والحال، بقي الفرسان في الارض البلغارية اكثر من ستة اشهر (من صيف ١١٨٩ الى الربيع الباكر من سنة ١١٩٠). وفيما بعد افاد الكاهن الالماني ابرهارد، المرسل الى المجر بمهمة ديلوماسية، في تقريره الى الامبراطور، انه رأى، اثناء مروره في بلغاريا، جميع قبور الصليبيين الذين ماتوا في الطريق، منبوشة؛ وكانت جثثهم مرمية من التوابيت ومبعثرة على الارض.

به منهم واسر من اراد، وكان فتحها يوم الثلثا الثالث من جمادى الاخر سنة ثلث وثمانين وخمسماية [١١٨٧م] الهلالية.

قصة بادويل الملك(*) [بلدوين الاول ١١٠ – ١١٨٦م] فاخبرنا من تقدم من السلف ان البيت المقدس كان في يد نفر من المسلمين يسمون الزدلفية من ملوك الترك، ثم ملك بعدهم قوم

(*)سيرة الملك بلدوين ملك القدس.

وبالطبع، كان تحقيق التحالف مع قائد الصليبيين الالمان فى هذه الظروف امرا عسيرا جدا على البوليارين البلغاريين، ولكنهما اتصلا غير مرة مع ذلك بالامبراطور فريدريك الاول؛ فقد كان بيوتر وآسن يحسبان ان بلغاريا ستتمكن، فى حال نشوب حرب بين الامبراطورية الالمانية والامبراطورية البيزنطية من توطيد استقلالها الذى نالته للتو.

ولكى نفهم كليا موقف بيزنطة من الصليبيين الالمان، يجب ان نأخذ كذلك بالحسبان ان الاوساط الحاكمة فى الامبراطورية المستضعفة لم تكن تعتزم، رغم وضع الامبراطورية الداخلى والخارجى الشاق جدا، ان تستبعد القسم الشرقى من البحر المتوسط من مجال بصرها. ورغم ان نفوذ بيزنطة فى هذه المنطقة قد تقوض كثيرا فى اواخر القرن الثانى عشر بفعل مدن ايطاليا الشمالية التى توغلت فى مرافئ سوريا ولبنان وفلسطين، وبفعل نورمانيى صقلية الذين تسربوا حتى الى اليونان وحتى استولوا فى سنة ١١٨٥ (لفترة من الوقت) على اكبر مدينة بيزنطية بعد القسطنطينية، هى مدينة سلانيك، بقيت القسطنطينية مع ذلك مركزا مهما لتجارة المشرق. ولم يكن بوسع بيزنطة ان تبقى عديمة الاكتراث بنضال الدول الغربية من اجل الهيمنة على البحر المتوسط. وكانوا فى القسطنطينية يعتبرون ان الصليبيين قد انتهكوا حقوق الامبراطورية البيزنطية فى منطقة سوريا ولبنان وفلسطين، هذه الحقوق التى كرسها واثبتها التاريخ نفسه.

منهم يسمون الباروقية، ومنهم ملكه بادويل ملك الفرنج، وسبب ذالك ان الله لما شا ان ينقله منهم الى غيرهم جعل فى قلوب ملوكهم ان رغبهم فيما يحصل لهم من مكس من يحج اليه من جميع الافرنج، فحج بادويل واخفا نفسه وغير زيه ولم يعلم به احد، ووصل الى يافا ستة بطس [مراكب] فى كل بطسة الف رجل وكانو البرطيقية [الباروقية] ياخذو المكس ممن يحج الى

وبجميع هذه الاسباب انتهجت الحكومة البيزنطية نهجا معاديا للصليبيين. فقد اقاموا فى وجههم شتى العوائق والموانع، ولم يقدموا لهم المؤن التى وعد بها اسحق الثانى انجيلوس. الطرق التى سار عليها الصليبيون كانت شبه مدمرة؛ فان خيول الفرسان المدرعين كانت تنزلق وتسقط ارضا، وتتكسر قوائمها. وكانت فصائل الروم المسلحة تغلق المعابر الجبلية. وكان الامبراطور يستبقى فى عاصمته افراد البعثات التى كان يرسلها فريدريك الاول اليها من الطريق. بل انه زج فى السجن بافراد البعثة الاولى. وكان مزاج العداء يتبدى فى لهجة رسل الامبراطور البيزنطى الى امبراطور «الرومانية المقدسة»؛ فقد كان يتجنب كليا تلقيبه «بالامبراطور» وكان يخاطبه بوصفه «ملك المانيا».

ثم ان الفرسان الالمان اثاروا بدورهم كره السكان المحليين بما اقترفوا من اعمال السرقة والنهب والعنف. ففى تراقيا احرق الصليبيون فى البدء ضواحى فيليبوبول (بلوفديف حاليا)، واحتلوا المدينة عمليا فى اواخر اغسطس ١١٨٩ وكانوا يهاجمون المدن والقرى البلغارية على المكشوف ويقتلون السكان، ويمحون المساكن من على وجه الارض، ويحرقون الكنائس. ويتباهى مدونو الاخبار الالمان بالغنائم الوفيرة التى نهبها الفرسان الالمان فى فيرويا (حاليا ستارا زاجورا)، وسكر ينسيون (اسينوفجراد) وبرميس (بيروشتيتسا).

وحين عاد رسل فريدريك الاول فى اواخر اكتوبر ١١٨٩ الى فيليبوبول، بلغوا عاهلهم ان

البيت المقدس من الفرنج وغيرهم، فكتب والي يافا الى صاحب البيت المقدس يعلمه ان قد وصل الى يافا ستة الف رجل يريدو الحج، فكتب اليه الجواب يقول له: اقسمهم نصفين سير منهم ثلاثة الف فاذا حجو وعادو اطلق النصف الثاني يحجو. ففعل والي يافا كما امره واقسمهم، وسار بادويل مع من سار الى القدس مخفيا، فدخل اليه وكشفه وطاف المدينه وكشف الصور واماكن القتال، وسير

بطريرك القسطنطينية نعت المقاتلين الالمان في مواعظه في الكنائس بكلاب المسيح، وانه كان يعد الروم بان المجرم، مهما كان معتقا في الاجرام، و حتى اذا كان قد اقترف عشرات من جرائم القتل، سينال الغفران من ذنوبه اذا قتل مائة من الصليبيين. وبدأ فريدويك الاول من جانبه يوجه التهديدات الى اسحق الثاني انجيلوس. وفضلا عن ذلك، وقع اسحق الثاني في صيف ١١٨٩، حين كان «جنود الرب» يعبرون المجر، اتفاقية تحالفه مع عدو الصليبيين الاكبر ـ صلاح الدين، ووعده بالدعم ضد قلج ارسلان الثاني. وهكذا كان كل من الامبراطورين المسيحيين ـ الالماني والبيزنطي ـ في سنة ١١٨٩ متحالفا مع قوى اسلامية.

في تراقيا، دارت رحى الحرب، من حيث جوهر الامر، بين الصليبيين الالمان وبيزنطية. ولقد كانت، والحق يقال، حربا غير معلنة، حربا بين حليفين. ولكن الاحداث تطورت بجلاء في اتجاه اضفاء الصفة الشرعية عليها وتحويلها الى نزاع مسلح سافر. وفي اواخر خريف ١١٨٩ ارسل فريدريك الاول إلى ابنه هنريخ (السادس) رسالة تتضمن ضربا من مشروع هجوم على بيزنطة. فقد طلب من هنريخ ان يجمع المقاتلين، ثم ان يتفق مع جنوه والبندقية وبيزا وانكون، وان يجهز هناك اسطولا لاجل الشروع في ربيع السنة القادمة بمحاصرة القسطنطينية سواء من البر ام من البحر.وفي الوقت ذاته كان على هنريخ ان يحمل البابا على تنظيم حملة صليبية ضد الروم الذين يعرقلون حرب الكاثوليك ضد «الكفار».

رسول ثانى يوم دخوله القدس الى من بقى فى يافا يقول لهم: ضعو السيف فى اهل يافا اذا عيدنا يوم الاحد فان صبحية يوم الاثنين اضع السيف فى بيت المقدس واقتل كلمن فيها من الاجناد وغيرهم من المسلمين، فاذا فعلتم ذالك تقوو باموال اهل يافا وخيلهم والحقونى وخلو فى المراكب من يحفظها فى كل مركب عشرين رجل: فلما فعلو

(*) حاصر الصليبيون بيت المقدس فى يوم الثلاثاء ٧ يونيو ١٠٩٩م

اقيمت خطط اخضاع بيزنطة لامبراطورية سلالة شتاوفن. ولكن بابا روما لم يشأ اقامة سيادة الكنيسة الكاثوليكية على الكنيسة الارثوذكسية بسلاح عدو الكورية البابوية فى الأمس القريب، فريدريك بربروسا. ففى روما لم يصدقوا فريدريك بربروسا. ولم تقم حملة صليبية ضد بيزنطة فى سنة ١١٨٩. وتجنبت امبراطورية القسطنطينية ضربات القوات الصليبية ، رغم ان البعثة التى وصلت الى جاليبولى من بيزا عرضت السفن على فريدريك الاول بصورة سافرة لاجل فتح العاصمة البيزنطية. الا ان التأجيل، كما سنرى، كان قصير الامد.

بعد ان نهبت الجموع الالمانية المقاطعات البلغارية من بيزنطة، انطلقت فى اواخر مارس ١١٩٠ من اندريانوبول وعبر الدردنيل الى آسيا الصغرى. لم يقدم الروم لا المأكولات ولا الاعلاف. وكانت فصائل الخيالة من السلجوقيين تشن يوميا الغارات على الفرسان الالمان. فان وريث قلج ارسلان الثانى الذى تنازل عن السلطة لم يكن يميل الى التحالف مع الصليبيون خوفاً من حرب مع صلاح الدين. وفضلاً عن ذلك كله، كابد الصليبيين عذابات القيظ العطش والجوع. واضطروا الى اكل لحوم خيولهم.

فى ١٨ مايو ١١٩٠، استولى الصليبيون على سلطنة قونية. ووقعت فى ايديهم غنيمة وفيرة. وفى ٢٣ مايو عقدوا هدنة مع السلطان. وغادر الصليبيون سلطنة قونية ونصبوا معسكرا وراء البساتين التى تحيط بها.

ذالك فتحو البيت المقدس(*) ويافا فى يوم واحد وهو يوم الثلثا، ثم فتحوها المسلمين منهم فى يوم الثلثا. كما عملو كذالك عمل بهم. فسبحان الله المكافى كل احد باعماله. ولما كان بعد فتح عكا بايام يسيرة خرج الملك الناصر منها يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الاخر [سنة ٥٨٣هـ= ٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] من السنة المذكورة نزل على عسقلان(*) يوم الاحد سادس عشرة بعد ان

= ٨١٥ قبطية وبعد حوالى ٣٨ يوما فى يوم الجمعة ١٥ يوليو ١٠٩٩م سقطت فى ايديهم، ونصبوا جودفرى ملكا عليها. وفى يوم الثلاثاء ٢٤ رجب ٥٨٣ = ١١٨٧م سقطت فى يد صلاح الدين واستلمها فى يوم الجمعة ٢٧ رجب = ٢ أكتوبر ١١٨٧م.

(*) سقطت عسقلان فى يد صلاح الدين قبل سقوط بيت المقدس. والمؤرخ هنا يسبق الحدث حيث=

ومن هنا نزلت القوات الالمانية على دروب وعرة فى جبال طوروس الى قيليقيا، حيث حدث امر غير متوقع. ففى ١٠ يونيو ١١٩٠، غرق فريدريك بربروسا اثناء عبور نهر اللامس الجبلى العاصف، غير بعيد عن سلوقية. بعد ذلك، عاد قسم من الفرسان بحرا من سلوقية وطرسوس الى الوطن؛ ومضى قسم آخر، عابرا المناطق الارمنية بالنهب والسلب، الى انطاكية؛ مات كثيرون بالطاعون فى صيف سنة ١١٩٠. واقترب الباقون فى الخريف من عكا التى سرعان ما حاصرتها قوات دول الصليبيين التى سلمت حتى ذاك وفصائل الفرسان التى قدمت الى هنا بصورة تلقائية بعد ان احتلها صلاح الدين. وبعد فترة من الوقت هرعت الى عكا فصيلة المانية اخرى، بقيادة الدوق ليوبولد النمساوى. واخذ الدوق فى يده زمام قيادة جميع الصليبيين الالمان حين مات فريدريك، دوق شوابيا، ابن فريدريك بربروسا (فى سنة ١١٩١).

التناقضات الانجلو / فرنسية والمخاصمات

فى مملكة القدس. فتح عكا. نتائج الحملة

فى ذلك الحين، كان الاعيان والفرسان فى انجلترا وفرنسا قد بدأوا يستعدون للحملة؛ فان الاستعداد لها لم ينته فى هذين البلدين الا نحو صيف ١١٩٠.

= انه سيذكر فيما يلى احداث سقوط عسقلان ثم احداث سقوط بيت المقدس.

صلى بالمسلمين يوم الجمعة فى يافا واحاط العسكر بمدينة عسقلان وكان الكند [الكونت] جعفرى [جودفرى] الملك اسير معه فاحضره وقال له تسلم لى عسقلان بلا قتال والا ستقتل على بابها وانا بعد شنقك اخذها بالسيف فخاف الملك من الموت.وكانة [كانت] عسقلان له واجناده فيها فلما طلبها السلطان منه وخاف على نفسه من الموت لم يكن [له] حيله الا تسليمها فانفد

وقد وجد الملك الانجليزى ريتشارد الاول الاموال لاجل الحرب المقدسة بسفالة نادرة ودون التورع عن اللجوء الى احقر الوسائل. ولم يكتف بابتزاز ضريبة «عشر صلاح الدين» من جميع من كان يتعين عليهم دفعها. فان هذا العاهل الذى تميز بجشع لاحد له، قد عمد الى بيع كل ما يمكن بيعه: الوظائف، بما فيها الوظائف الاسقفية، والحقوق، والقصور والقرى. وسمح البابا كليمنت الثالث للملك باعفاء الناس الضروريين لاجل الخدمة في انجلترا ذاتها من الاشتراك فى الحملة. وقد استغل ريتشارد هذا السماح كما يطيب له؛ فلم يكن يمنح الاعفاء الا لقاء مبلغ كبير. وقد استطاع الاثرياء ان يفتدوا انفسهم من الحملة. اما الفقراء الذين لم تترك ابتزازات جباة الملك لهم شيئا، فقد استخدمهم ريتشارد بالنقود. ان قائد الصليبيين هذا، الذى مدحه مدونو الاخبار والشعراء اللاتين. على نبله وشهامته وحكمته قد صرح ذات مرة انه يبيع لندن ذاتها اذا ما وجد شاريا مناسبا!

فى ٤ يوليو ١١٩٠ ، عبر ريتشارد الاول مع حاشيته ومعظم فرسانه مضيق المانش. واجتمعت الفصائل الانجليزية والفرنسية فى مدينة فيزليه البورجونية، ومنها انطلقت فى الحملة.وهكذا لم تبدأ حملة الانجليز والفرنسيين الصليبية الا بعد مرور سنتين ونصف السنة على سقوط القدس وبعد مرور سنة على تحرك فريدريك الاول. ومن الجلى ان الملكين الانجليزى والفرنسى لم يكونا يتسرعان.

لاصحابه وقال لهم لا تقاتلو وسلموها لهم بالامان فهو اصلح لكم، بعد ان قاتلو ثلاث ايام ولم يقدرو عليهم المسلمين، فسلموها اصحاب الملك بالامان يوم السبت التاسع والعشرون من جمادى الاخر من سنة تاريخه [٥٨٣هـ = ٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م]. وفى ذالك اليوم بعينه كسفت الشمس نصف النهار ولما فتحها السلطان كتب الكتب بذالك الى ولاة الاعمال المصرية، وهذه نسخة (*) نص كتاب صلاح الدين إلى

فى البدء سار الصليبيون معا، ولكن تأتى لهم فيما بعد ان ينقسموا؛ فقد تبين ان من الصعب اطعام مثل هذا العدد الضخم من المقاتلين. قاد فيليب الثانى فرسانه الى جنوه التى تعهدت بان تقدم لهم ثلاثة سفن لنقلهم الى الشام. وراح الانجليز الى مرسيليا. وهنا كان اسطول ريتشارد بانتظاره، اى اكثر من ٢٠ سفينة تسنى لها ان تدور حول اسبانيا وترسو فى سواحل فرنسا الجنوبية. وفى سبتمبر ١١٩٠ وصل الفيلقان الواحد تلو الآخر.، الى صقلية، وتوقفا غير بعيد من مسينا. وهنا تقرر قضاء الشتاء لاجتناب المخاطر التى يتعرض لها البحارة فى هذا الفصل من السنة.

مضى الفرنسيون بحرا الى صور. اما ريتشارد الذى اراد ان يعوض عن اخفاقه فى صقلية، فقد احتل فى طريقه الى الشرق جزيرة قبرص التى كانت من قبل خاضعة لسلطة بيزنطيا ثم انفصلت عنها، وغنم فى قبرص غنائم لا تحصى. كما تزوج هناك بيرنجير دى نافار.

وبالاستيلاء على قبرص، أمن ريشار قلب الاسد، دون ان يدرك ذلك بنفسه، اهم نجاح لعموم الحملة الصليبية. فان مملكة آل لوزيان التى نشأت بعد وقت قصير فى قبرص قد تحولت فيما بعد الى حصن بالغ الاهمية لممتلكات الصليبيين فى القسم الشرقى من البحر المتوسط التى لم تستطع الا بفضل الدعم العسكرى من قبرص ان تدوم فى الشرق زهاء مائة سنة اخرى.

الامير ناصر الدين خضر ابن بهرام بخصوص سقوط عسقلان.

الكتاب(*)الى الامير ناصر الدين [خضر] ابن بهرام والى الاعمال الغربية نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم ربى اودعنى ان اشكر نعمتك الذى انعمت به على وعلى والدى وان اعمل صالحا ترضاه، كتابنا هذا صادر الى الامير المفضل الامين نصر الدين وعمدة المجاهدين عز الخواص مملوك اميرالمومنين اطال الله بقاه، وقد من الله علينا وفتح على يدينا مدينة عسقلان التى هى

وقد تبدت «وحدة» الصليبيين الانجلو- فرنسيين بقوة جديدة عندما نزلوا فى لبنان وانضموا الى الفرسان الذين يحاصرون عكا. وبين هؤلاء، وقد استمر حصار هذه القلعة المنيعة اشهرا عديدة. واستعمل المحاصرون الاكباش، ومدافع اطلاق الحجارة، وابراج الحصار على العجلات.

ومن أهم اسباب استطالة الحصار نشوب الخلافات بين قادة العساكر التى طوقت المدينة، اى بين البارونات الصليبيين المحليين والاسياد القادمين من الغرب. ومرد الخلافات الى الادعاءات بعرش القدس (والاصح القول بلقب ملك القدس)، من جهة، من قبل جى دى لوزينيان الذى اخلى سبيله من اسر المسلمين، ومن جهة اخرى، من قبل المركيز كونراد مونفيرات. وهذا المركيز الذى كان قد اصبح آنذاك فعلا سيد صور، رفض ان يسمح لسيدها الاسمى جى دى لوزينيان بدخولها. ورغم ان الخلاف دار حول لقب فارغ هو ملك بيت المقدس (اذ ان مملكة القدس لم يكن له وجود بالفعل)، خاض قادة الصليبيين غمار هذا الجدال بكل حماسة الفرسان. وبالنتيجة، بدت قوات جنود المسيح دون أى عمليات من حيث الجوهر.

ثم أن الخلاف بين الطامعين بعرش القدس جاء يعمق العداوة بين الانجليز والفرنسيين فوق ماهى من عمق . فان ريتشارد قلب الاسد الذى لم يصل الى عكا الا فى ٧ يونيو ١١٩١ قد دعم ادعاءات قريبه جى دى لوزينيان، بينما دعم فيليب الثانى ادعاءات المركيز مونفيرات.

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٩٦ / ١١٨٩م

افضل عروستى [عروسة فى] الدنيا وانقذها من
يد الكفر، نرجو بمشية الله النور فى الدار الاخرى،
وقد نصبت اعلام المسلمين على ابراجها واسوارها
وعمر [عمرت] بموحديها، ونبت بمشركيها
وكفارها ، وكثر الموذنون فى اقطارها وارجايها،
وزالت سمت [سمة] الصلبان من جهاتها
وانحايها، واعلن الخطيب بلا اله الا الله على
منبرها. ومن قصص الفتح انها لما واجهتها جيوش

وعندما كان ملك يقترح فى المجلس الحربى اقتحام القلعة، كان الملك الآخر يعارض؛ فان النصر المحرز بمبادرة من ريتشارد الاول لم يكن يناسب فرنسا. والعكس بالعكس. ومع ذلك كانت الغلبة لرأى ريتشارد؛ ففى ١١ يوليو ١١٩١ ، بدأ هجوم عام؛ وفى اليوم التالى استسلمت المدينة التى انهكها الحصار المديد. ولانقاذ حامية المدينة، وافق صلاح الدين على دفع فدية كبيرة وعلى عدد من التنازلات الاخرى؛ فقد اطلق من الاسر الافرنج المأسورين سابقا واعاد الى الكاثوليك ذخيرة دينية يكرمونها هى ما يسمى يالصليب المقدس او الصليب المحيى (عود الصليب).

بعد مرور اقل من شهر على فتح عكا، اعلن فيليب الثانى انه مريض، فذهب الى صور ومنها سافر فى اوائل اغسطس ١١٩١ الى فرنسا عبر ايطاليا. وبينما كان الملك الانجليزى يقاتل «الكفار» فى الارض المقدسة، كان حليفه الفرنسى يسرع فى توطيد مواقع سلالة الكابيتيين فى بيته؛ فقد انقض فيليب الثانى على ممتلكات سلالة بلانتاجينه فى القارة. وسلفا عقد حلفا ضد ريتشارد مع اخيه الاصغر ، الكونت جان (فيما بعد الملك جان بلا ارض) الذى كان يحكم انجلترا فى غياب اخيه. وفضلا عن ذلك، تقابل فيليب الثانى فى ديسمبر ١١٩١ فى ميلانو مع الامبراطور هنريخ السادس واتفق معه بشأن الاعمال المشتركة ضد ريتشارد. ويقول مدون الاخبار الانجليزى رودجر أوف هوفدن ان الملك الفرنسى حصل من الامبراطور

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

الاسـلام الناصـرية وانصـار المومنين التـوحـيـد الصلاحية، واحاط بكفارها سخط الله وحقو ان ينجـز لهم وعـده وان يتـمكن منهم اوليـآ الله وجنده، لجـا المشـركين الى الفـرار واخـذو فى الانحـصار فى الجدار، فنصبنا عليهم الات القتال واذقناهـم من طعم الطعن شـديد الوبال واخـذنا بقوة فى باشورتها(*) الكبيرى [الكبرى] فهدمناها، ولما لحناها مع شـدة باسـها فـمـحـوناها، وصلت

(*) الباشورة: هى البرج فوق بوابة الحصن وأصلهـا فى اللغـات الاوربيـة Bastion، وهى مـن =

الروماني على وعد بان يأسر الملك الانجليزى اذا عاد من فلسطين عن طريق الاراضى الخاضعة للامبراطور.

وهكذا اذا كان قائدا الحملة الصليبية قد صفيا حسابات احدهما الآخر بضراوة، حارصا احدهما على مكانته وسمعته كفارس صليبى، والثانى على توسيع وتعزيز مملكته، فان كونراد مونفيرات كان مستعدا على العموم لخيانة الصليبيين، وللانتقال الى صف صلاح الدين والحصول منه على الحق فى حكم المدن الفلسطينية. بل ا ن كونراد كان يعتزم خوض النضال معه ضد حلفاء الامس اخوانه فى الدين. وكان ذلك، من وجهة نظر مصالحه السياسية على كل حال عمليا اكثر من انتظار نجاح جدى نوعا ما يحرزه الصليبيون الذين كان يقودهم قائد عسكرى غير موهوب مثل ريتشارد قلب الأسد. وقد لاحظ مدون الاخبار امبرواز بامتعاض فى قصيدته الاخبارية ان كونراد مونفيرات لم يساند القوات التى حاصرت عكا، فقد فضل ان يحفظ الاحتياطيات فى صور، ولم يكن يحرص الا على ابقاء المدينة فى قبضته. الا ان وفاة كونراد مونفيرات الذى قتله فى صور فى اواخر ابريل ١١٩٢ اثنان من المسلمين من شيعة الحشاشين (وهم فريق من الاسماعيليين) حالت دون تحقيق مقاصده السرية.

حاول ريتشارد الاول ثلاث مرات ان يقترب من القدس. وكان الصليبيون يركزون جل انتباههم على انتزاع المدن الساحلية من مصر. ولكن محاولات فتح يافا وعسقلان باءت

= الألفاظ التي دخلت اللغة المصرية في عهود الحروب الصليبية.

منجيقاتنا [مجانيقنا] في قبلة اسوارها فما زالت سهامها [اسماها = اعاليها] تركع وحجارتها تسجد ونجومها برجومها لشياطين الكفر تقذف وتطرد، حتى هدمنا باشورة صغرى تحت سورها ودمرناها، واخربنا ابراج السور وابدانه ودمرناها، واستبحنا المعقل وان كان منيعا حصنه رفيعا تله جديد حده، وطال ما اعجز الايام والانام فله.. فلما خشو باسنا جنحو للسلم فعملنا بظاهر الاية في

بالفشل ايضا. وعندما خيم الخطر على هاتين المدينتين، امر صلاح الدين بهدمهما كما كانت عادته في هذه الحرب غير مكترث بسكانها العزل، ولذا لم يبق للصليبيين منهما غير ركام من الانقاض وبقايا سكانها الفقراء الذين لم يستطيعوا الفرار.

وفي آخر المطاف، حين منيت قوات الصليبيين العسكرية بخسائر فادحة في الحروب ضد صلاح الدين، وحين بدأ ريتشارد الاول يقلق جديا على شؤونه في الوطن، دخل في مفاوضات مع عدوه وعقد معه الصلح في سبتمبر ١١٩٢. وبموجب شروط الصلح، احتفظ الاسياد الصليبيون بشريط ساحلي ضيق يمتد من صور الى يافا، وبقيت القدس خاضعة لمصر. ولم يوافق صلاح الدين الا على السماح للحجاج والتجار بزيارة القدس في غضون ثلاث سنوات. ويقينا ان الاراضي الساحلية بما فيها صور وصيدا وطرطوس وغيرها من الموانئ كانت بالنسبة للبلدان الغربية اهم بكثير من القدس او من الناصرة الواقعتين بعيدا عن الساحل. ان امتلاك الشريط الساحلي كان يخدم في المقام الاول صالح التجارة المشرقية. وبهذا المعنى احرز ريتشارد الاول حتى بعض النجاح. ولكن هذا النجاح الذى كان يطيب بقدر معين لتجار ايطاليا الشمالية لم يكن من الممكن اعتباره كافيا من وجهة نظر روما، إذ ان خسارة القدس كانت اخفاقا جديا الى حد انه كان يبدو للباباوية من المستحيل التسليم به.

في اكتوبر ١١٩٢ هرع ريتشارد قلب الاسد الى بلده بعد ان تلقى من اوروبا انباء غير

الجنوح لها وتطارحو مبالغين فى المسلم [المزلة] فى الامان فراينا تقبلها فامناهم ثقة انهم انما يسلمون من الحمام [إلى الحمام]، وانهم يستاصلون بشية الله بسيوف الاسلام، واشفاقاً من معرة الجيش على من فيها من كتايب المسلمين، وصيانة الذمة عن نهب تخريب الناهبين، وجملت الامر ان النزول عليها كان يوم الاحد سادس عشر جمادى الاخر [٢٣ أغسطس ١١٨٧م] [و] نصبت الالات يوم

مستطابة. ولكن لم يتسن له الوصول الى انجلترا فى وقت قصير. فقد اكتسب لنفسه عدوا، لا فى شخص فيليب الثاني وحسب، وبل ايضا فى شخص قائد الصليبيين الالمان عند اسوار عكا، الدوق ليوبولد النمساوى. فقد استعجل الدوق فى رفع العلم الالمانى فى المدينة بينما كان الصليبيون يحتلونها. فأمر ريتشارد بنزق وحمية بنزع العلم ورميه فى الوحل. لم ينس ليوبولد الاهانة. وفى جوار فيينا عرف ليوبولد أن الملك الانجليزى ريتشارد متسترا بلباس التجار، واسره؛ ثم سلم ليوبولد اسيره الى الامبراطور هنريخ السادس. وقد رأى هذ الحاكم البالغ من العمر ٢٥ سنة فى الفاتح الانجليزى عدوا له فى تطلعاته الى منطقة البحر المتوسط، فابقاه فى السجن سنتين.

وهكذا نرى ان الحملة الصليبية الثالثة قد اختلفت فى كثير من النواحي عن سابقتيها. فبين المشتركين كانت تغيب الحماسة الدينية السابقة، كما انها لم تكن تنطوى على اى من عناصر العفوية والجماهيرية. ولقد كانت حملة فتوحات قام بها فرسان وامراء ثلاث دول اقطاعية ونظمتها وحققتها السلطة الملكية ـ واثناء الحملة، تكشف بجلاء ووضوح سعى الملكيات الاقطاعية الغربية الى فتح مختلف مناطق البحر المتوسط. وفى هذه التربة نشبت مضاعفات وتعقيدات ونزاعات دولية بين الدول المسيحية (المانيا وبيزنطيا، انجلترا والمانيا ـ فى صقلية، فرنسا وانجلترا فى صقلية وفلسطين، انجلترا وبيزنطيا فى قبرص، والخ.)، وهى التى قررت المصير المخزى الذى آلت اليه الحملة بمجملها.

الثلثآ ثامن عشر ووقع نقوب الباشورة الكبرى يوم الاربع تاسع عشر، وتسلمت المدينة ونصبت اعلام الاسلام عليها يوم السبت التاسع والعشرين منه [٤ سبتمبر ١١٨٧م]. هذا من فضل ربى ليبلونى االشكر ام اكفر، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى لغنى كريم. اعلمنا الامير المفضل ناصر الدين ذالك لياخذ حظه من المسار [السرور] ويشارك من هو قبله من المسلمين بحسن المنار

ومذ ذاك، صارت حدود مملكة القدس اضيق من ذى قبل، كما نقلت عاصمتها ذاتها الى عكا. فكانت ما يسمى بمملكة القدس الثانية.

كانت حملة ١١٨٩ ـ ١١٩٢ نقطة انطلاق لاجل تفاقم التناقضات الناجمة بين الدول عن توسع الغرب فى منطقة البحر المتوسط. وقد حاول هنريخ السادس (١١٩٠ ـ ١١٩٧) تحقيق مشاريع فريدريك الاول بربروسا غير المحققة. ففى سنة ١١٩٤ استولى على صقلية ونكل بسكانها الذين ثاروا عليه. وضم تركة النورمانيين (صقلية) الى المانيا وبذلك تحقق هدف سلالة هو هنشتاوفن القديم.

ان هنريخ السادس الذى كان بمقدوره اقل من ابيه ان يوازن بين نواياه التوسعية والاغتصابية وبين الامكانيات السياسية الفعلية، بدأ يفكر جديا فى تأسيس ملكية عالمية بعد ان وطد قدميه في صقلية. فأطلق سراح ريتشارد قلب الاسد من الاسر بعد أن اخذ منه قسم التابعية وفدية ضخمة جدا. وبذلك اراد هنريخ السادس ان يضع حدا للادعاءات الانجليزية فى البحر المتوسط. ثم اعتزم ان يخضع فرنسا بمساعدة ريتشارد.

إلا ان الامبراطور الالمانى جعل من فتح بلدان الشرق الادنى، وفى المقام الاول بيزنطيا، مهمته الاساسية. وبجميع الوسائل استثار الحرب ضد بيزنطيا. فقد طلب من الامبراطور

والاســلام [والســلام]. واقــام السلطان نازل على عسقلان بعد فتحها حتى دبر حالها وسلمها لعلم الدين قــيــصــر من مماليكه الخـاص الكبـار ولاية واقطاع، ورحل منهــا وتوجــه منهــا إلى البــيـت المقـدس(*) في يوم الاربعا الحادى عشر من رجب من السنة المقدم ذكرها، ونزل على البيت المقدس يوم الخميس من ناحيت عين سلوان ليجد العسكر الماء قريبا منه، ورتب العسكر مستدير [محاصر]

(*) حصار وسقوط بيت المقدس في يد صلاح الدين.

البيـزنطى اسحق الثاني ان يتنازل لالمانيا عن نصف الاراضى البيـزنطيـة (اراضى البلقان) وان يعوض عن الضـرر الذى لحق بالصـليبيين الالمان التابعين لفريدريك الاول. وفيـما بعد، في سنة ١١٩٥، حين اطيح بالامبـراطور اسحق الثاني بنتيـجة انقـلاب في القصـر، وحل محله على العرش في القسطنطينية اخوه الكسيوس الثالث، شرع هنريخ السادس في تنظيم حملة صليبية جديدة كان من المرسوم ان تكون بيزنطيا ضحيتها الاولى. وللحصول على حجة رسمية لاجل الادعاء بالتاج البيزنطى، زوج هنريخ السادس في ٢٥ مايو ١١٩٧ اخاه فيليب، دوق شوابيا، من الاميرة اليونانية ايرينا التى وقعت في يده في باليرمو، ابنة اسحق الثانى انجيلوس وارملة روجيـة، العـاهل النورماني الاخير في مملكة صقلية (ابن تنكريد دى ليتشه). وهكذا تناول الكلام ضم بيزنطية مباشرة الى قوام «الامبراطورية الرومانية المقدسة».

واعدت المدن الايطالية السفن. وفي المانيا تشكلت جموع جديدة؛ وفي فورمس قبل هنريخ السادس في مارس ١١٩٦، مع القاصد الرسولى، خلال اربع ساعات، في الكاتدرائية، النذور الصليبية من الفرسان.

اثار خطر حملة صليبية جديدة الذعر في بيزنطيا. فوافق المغتصب الكسيوس الثالث على شراء السلام باى ثمن كان. كان مستعدا لدفع مبلغ هائل ذهبا لهنريخ السادس. ولتحصيل

على المدينة من جميع جهاتها، وصلى المسلمين على الجبل الذى حولها يوم الجمعة، وزحفو للقتال بعد الصلاة وكان باليان ابن بارزان فارس كبير محتشم من فرسان الافرنج يسكن فى مدينة بيت المقدس واقطاعه مدينة الرملة كان دخل مدينة القدس فى ذالك اليوم وهو الذى كان يدير الحرب ومسك القتال مع السلطان قتال جيد والسلطان يرسل اليه ان يسلم البلد بالامان فلم يفعل.

وجمع الاموال اللازمة فى البلد الفقير البائس. فرضت ضريبة استثنائية اسميت بالضريبة الالمانية (الامانيكون).

فى مارس ١١٩٧؛ تحركت نحو الشرق اولى الفصائل برئاسة رئيس اساقفة ما ينتش. كونراد فيتلسباخ، والمارشال هنريخ من كالدن، ومستشار الامبراطورية كونراد من كفيرفورت. ويقدر مدون الاخبار ارنولد من بولك عدد افرادها بـ ٦٠ الفا. وفى ٢٢ سبتمبر نقلهم الاسطول الى عكا. وتوقف قسم من الصليبيين فى قبرص. واعتبر ملك قبرص آمورى دى لوزينيان نفسه تابعا للامبراطور الالمانى وسرعان ما انتخب ملكا على القدس رسميا بضغط من القوات المسلحة الالمانية. ثم بدأ الصليبيون العمليات الحربية فى لبنان وسوريا، بل انهم استولوا على صيدا وبيروت.

الا ان كل هذا المشروع انهار فجأة بوفاة هنريخ السادس فى مسينا فى ٢٨ سبتمبر ١١٩٧ .فقدى فتكت بهذا الامبراطور نوبة دورية من الملاريا؛ واذا صليبيوه الذين بقوا فى لبنان وسوريا حتى صيف ١١٩٨ وعقدوا الصلح مع العادل (خليفة صلاح الدين)، يسرعون فى العودة الى المانيا لكى يؤمنوا مصالحهم فى الحرب الاقطاعية التى نشبت هناك.

وبعد حقبة قصيرة، تعالت فى الغرب من جديد صيحة باباوية: «الى الشرق!». فان نتائج الحملة الصليبية الثالثة لم تتجاوب مع ابسط توقعات الكرسى الرسولى.

وكان رجل نصراني من الملكية يسمى يوسف البطيط من اهل القدس كان وانتقل إلى دمشق وسكن فيها، وعرف صلاح الدين واخوته قبل ان يكون سلطان وقبل هذه الامور، وعرف ابوه وعمه اسد الدين شيركوه وهم بدمشق في خدمة نور الدين محمود ابن زنكى قبل ان يملكو مصر، فلما ملك السلطان ديار مصر جا اليهم يخفظوه [يراعوه]، فاخذه الملك العادل ابو ابكر اخو

الصليبيون فى القسطنطينية



تاريخ الحملة الصليبية الرابعة ومؤرخوها

تشغل الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٩ ـ ١٢٠٤) مكانا خاصاً فى تاريخ الحروب الشرقية التى شنها الفرسان الغربيون. فان بعض العلماء الغربيين يعتبرونها ضربا من صدفة تاريخية، ضربا من مفارقة تاريخية، ضربا من تناقض، ولهذا الاعتبار اسس شكلية معينة، ذلك ان هذه الحملة التى استهدفت تحرير «الاماكن المقدسة» من السيادة الاسلامية، قد انقلبت فى آخر المطاف الى هزيمة منيت بها بيزنطية والى تشكيل امبراطورية لاتينية مكانها هى دولة الصليبين، اى دولة اخرى فى عداد دول الصليبيين التى سبق ان تشكلت فى الشرق.

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

صلاح الدين الى عنده وانعم عليه واسكنه فى قصر الخليفة فى قاعت [قاعة] باب الذهب فى القصر الشرقى بالقاهرة. وكان صلاح الدين يترسل به الى ملوك الافرنج قبل هذه الامور فصار يدرى احوال بلادهم ويعرف كبار فرسانهم، فلما رأى السلطان الحرب شديد ولم يقدر على المدينة المقدسة احضر يوسف البطيط واتفق معه ان انفذ الى النصاره الملكية يوعدهم بكل خير ويفتدهم


الصليبيون يهاجمون القسطنطينية.

فكيف حدث ان مضى الاقطاعيون المسيحيون الذين تجمعوا من مختلف بلدان اوروبا (وبصورة رئيسية من فرنسا والمانيا وايطاليا)، «الى ما وراء البحر»، حسب تعبير مدونى الاخبار، بحجة انقاذ الايمان المسيحى من نجس ودنس «الكفار» ولكنهم فتحوا ونهبوا عاصمة بيزنطية، عاصمة دولة اخوانهم فى الدين المسيحين؟ وهل كان هذا الانعطاف نتيجة لتجمع من باب الصدفة، لتجمع غير متوقع لظروف مشؤومة، غير متوقفة على نوايا الصليبيين الاولية؟ او لربما تحولت الحملة الصليبية المعادية لمصر الى مشروع فتوحات ضد بيزنطية بفعل افعال متعمدة قام بها المشتركون فى هذه الحملة؟ واذا كانت هذه الفرضية صحيحة، فمن هم المسؤولون مباشرة عن «انحراف الصليبيين عن السبيل» أو لربما يقع الذنب الرئيسى عن «الانحراف عن السبيل» على قادة الحملة انفسهم، ومنهم، مثلا، الماركجراف الايطالى بونيفا سيوس دى مونفيرات؟

ان مسألة الاسباب التى اتخذت الحملة الصليبية الرابعة بفعلها اتجاها جديدا وانتهت كذلك نهاية مدهشة هى مسألة مشوشة جدا، وليس فقط من جراء تضارب اخبار المؤرخين. فان معاصرى استيلاء الصليبيين على القسطنطينية الذين وصفوا نهب العاصمة البيزنطية (واحدى المدونات اللاتينية تسمى بالضبط : «اجتياح القسطنطينية») وكذلك المؤرخين اللاحقين الذين حاولوا بعناد ومثابرة ان يحزروا لغز سنة ١٢٠٤، لم يكونوا براء من عدم التحيز. ان تأثير

عن مساعدة الافرنج فى القتال وان يسلمو المدينة لصلاح الدين من ناحيتهم وقرر عليهم [لهم] مال كثير. فلما اتصل الخبر بباليان ابن بارزان، وكانو الملكية فى المدينة اكثر من الفرنج خاف [أن] يسلموها [الملكية] فيهلكو الافرنج جميعهم بالسيف، اذعن [فاذعن بباليان] الى الصالح [الصلح] وقرر القطيعة [الفدية] على جميع من فى المدينة من الفرنج وغيرهم، وذالك غيظ على



• نقود صلاح الدين

نزعات العلماء الدينية الطائفية واتجاهاتهم السياسية قد انعكس كذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة فى نتائج دراساتهم فى القرنين التاسع عشر والعشرين لقضية الحملة الصليبية الرابعة الامر الذى صعب حل القضية حلا صحيحا، مناسبا، حسب مصطلحات الاختصاصيين.

هناك كثرة من الكتب والمقالات والمنشورات الوثائقية المشروحة بالتفصيل التى تتناول استيلاء الفرسان الصليبيين على بيزنطة. وهذه الاعمال تعرض شتى التفسيرات بصدد العوامل التى غيرت اتجاه الحملة الصليبية. وغير مرة كانت الحملة الصليبية فى اوائل القرن الثالث عشر ومختلف وقائعها، ولا تزال الى الآن، موضع مناظرات حارة ومغرضة بين المؤرخين. بل انه من الصعب ان نتصور مقدار الجهود التى بذلها الباحثون فى السنوات المائة ونيف الاخيرة (ان تاريخ الحملة الصليبية الرابعة قد اصبح موضع دراسة معمقة منذ الستينيات تقريبا من القرن الماضى) لتفسير وتوضيح ظروف تغير اتجاه الصليبيين، ومقدار الحبر الذى انفقوه، ومقدار العمل الدقيق الذى قاموا به لتفهم تطورات هذه الحملة.

لقد جمع العلماء وحللوا عددا ضخما جدا من المصادر باللغات اللاتينية، واليونانية، والفرنسية القديمة، الارمنية، والروسية، وغيرها من اللغات، ودققوا طائفة من التفاصيل المتعلقة باحداث ملموسة من الحملة الصليبية. وقد تسنى لهم سد الكثير من نقاط الفراغ والغموض

الملكية، لانه لولم يسبقهم ويقرر القطيعة كانو قد سلموها واهلكو الفرنج جميعهم الذين فيها. والقطيعة الذى قررها مع السلطان عشرة دنانير من كل رجل وخمسة دنانير من كل امرأآه ودينار واحد من كل صبى اوصبية لم يبلغ الحكم [الحلم]. ولما تسلمها السلطان كتب الى ولاة الديار المصرية يعرفهم بذالك، وكتب الى الامير نصر الدين خضر ابن بهرام والى الاعمال الغربية، وقد كان المذكور

نقود صلاح الدين ضربت
في دمشق سنة ٥٨٣.

فى تاريخ هذه الحملة. ومع ذلك، لم يتم بعد حتى الآن الاتفاق التام بشأن المسائل المختلف عليها، ولا تزال المناقشات قائمة.

ولكن رغم الغموض المتبقى بصدد بعض وقائع الحملة ورغم قابلية بعض المسائل للنقاش، بلغت معارفنا اليوم درجة من الدقة والصحة بحيث نستطيع كليا ان نعيد بناء كل تاريخ احداث سنوات ١١٩٩ ـ ١٢٠٤ بخطوطه الكبرى.

شمولية سياسة البابوية واعداد الحملة على الشرق

كان البابا اينوسنتيوس الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) المبادر الى الحملة الصليبية الرابعة وروحها، وفى عهده البابوى بلغت البابوية قدرا كبيرا من الجبروت. وفى ذلك اسهمت بقسط كبير شخصية البابا ذاته، الرجل ذو المواهب الممتازة والطاقة النادرة. تحدر اينوسنتيوس الثالث من العائلة الاقطاعية الكبيرة دى سينيى، وشغل الكرسى الرسولى فى السابعة والثلاثين من عمره. ولكن رغم انه كان الاصغر سنا فى هيئة الكاردينالات التى انتخبته، كان لاختياره من قبل الشيوخ الكاردينالات اسس جديدة. ولا ريب ان اينوسنتيوس الثالث كان سياسيا بارزا فى زمنه لما تميز به الارادة الراسخة، والمثابرة فى بلوغ الاهداف المنشودة، والقدرة على استغلال جوانب الضعف فى اخصامه بعد دراستها جيدا، واخضاع نواياهم لمقاصده، والتنبؤ

ولى هذه الاعمال فى شوال سنة احدى وثمانين وخمس ماية [٩٠١ قبطية = ١١٨٥م] وهو مستمر فيها الى يوم تسطير هذه السيرة فى شوال سنة ثلث وستماية الهلالية، ثلثة وعشرين سنة وهو مستمر، وكان رجلا جيد عادل [عادلاً] دين [ديناً] كثير الصدقات، مكفوف اليد عن اموال رعيته. وهذه نسخة كتاب السلطان اليه بفتوح البيت المقدس(*):

(*) نسخة كتاب صلاح الدين بسقوط بيت المقدس إلى الأمير نصر الدين خضر ابن بهرام والى الاعمال الغربية.

بالاحداث وتوجيهها ـ هذه المواهب وحدها كانت تكفى لاستمالة اصوات الكاردينالات الى جانبه.

كان الهدف الرئيسى الذى استهدفه اينوسنتيوس الثالث اقامة سياده (زعامة) الكنيسة الرومانية بصورة تامة على عموم العالم الاقطاعى فى الغرب والشرق. وهذا الهدف بالذات هو الذى حدد الجهود العملية التى بذلها الحبر الاعظم الرومانى الذى لا يعرف الكلل. وليس عبثا أن اتهم ولا يزال يتهم حتى انصار الكاثوليكية البابا اينوسنتيوس الثالث بانه اخضع الاعتبارات الدينية للمصالح السياسية، وخالف المبادئ التى نادى بها بذاته. اما المؤرخون الكاثوليك فى ايامنا، فانهم يبدون رأيهم فى هذا الصدد لاجئين الى صيغ اكثر مرونة؛ فان البابا، كما يزعمون، لم يكن دائما يسترشد بالدوافع الدينية، اذ انه لم يستطع ان يتغلب بنفسه على «التناقضات بين نائب المسيح ورجل الدولة». ولكن الواقع يبقى واقعا وهو ان البابا اينوسنتيوس الثالث كان قبل كل شئ رجل دولة وضع فى المقام الاول المصالح السياسية لروما البابوية.

كانت الحملة الصليبية منذ البداية جزءا مكونا فى غاية الاهمية من اجزاء البرنامج الشمولى للحبر الاعظم. وكانت الفكرة الاولى والاخيرة عند البابا اينوسنتيوس الثالث. وفى كل مدة حكمه البابوى بذل جهودا كبيرة لاجل بعث روح الحملات الصليبية القديمة. وما

بسم الله الرحمن الرحيم، كتابنا الى الامير الاجل الاسفهسلار الكبير نصير الدين فخر الاسلام عمدة المجاهدين خاصة امير المومنين، ادام نعمته واعلا رتبته واجزل من الخيرات موهبته وارهف عزمته، وقد طلعت على اسوار البيت المقدس (حرسه الله) اعلامنا، ونفذة [نفذت] فيه احكامنا، وذهب [ذهبت] ايام العدو الكافر واستقبلته ايامنا، وثبت بتاييد الله واقدامها اقدامنا.



الهجوم الصليبي على قلعة انطاكية

كاد الكاردينالات الذين تجمعوا في دير القديس اندراوس ينتخبونه للكرسى الرسولى حتى وجه الى الغرب نداء مدويا دعا فيه الى القيام بحرب مقدسة جديدة ضد المسلمين لاجل تحرير القدس.

وفي الحال اتخذت تدابير ملموسة دينية عملية، ومالية وديبلوماسية ـ لاجل اعداد الحملة الصليبية.

ولإعداد للحملة الصليبية، توجه البابا اينوسنتيوس الثالث الى الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث. فقد كان على القسطنطينية، برأى البابا، ان تحرك عساكرها لاجل تحرير القدس. هذا المطلب تلقاه الامبراطور البيزنطى في رسالة باباوية لام فيها اينوسنتيوس الثالث الامبراطور على انه من زمان لايساعد الارض المقدسة. هذه الملامات لم تكن سوى ورقة ديبلوماسية . فان اينوسنتيوس الثالث كان يحيك الخطط لسحب سيادة الكنيسة الرومانية على بيزنطة. وكان يهمه اشتراك بيزنطة فى الحملة الصليبية (مع ان البابا كان يريد بالتأكيد ان يستغل مواردها المادية والعسكرية لاجل فرض سيادة الكرسى الرسولى فى الشرق) اقل مما كان يهمه في المقام الاول امر آخر هو اخضاع الكنيسة ا لارثوذكسية الشرقية للكنيسة الرومانية الغربية (اللاتينية). وقد طرح البابا فى رسالته الى الامبراطور البيزنطى، اول ما طرح، مسألة اتحاد الكنيسة. وقد كان اتحاد الكنيستين صيغة قديمة لباباوات روما تتستر وراءها نوايا


الهجوم الصليبي على قلاع السلاجقة

وكان مدة المنازلة له ثلثة عشر يوما، وايام المقاتلة سبعة ايام جسوما رمي بالمناجيق حتى خربت الاسوار وحطمتها وحدرت الجدران وهدمتها، واقامت كلمة التوحيد وقومتها واظهرت شعاير الدين الحنيف وعظمتها، وكيف يقا يعوى [يقوى] الحجر الصغير على مصادمت الجبل الكبير، بل كيف يدوم مع الحق الضلالة ويقاتل بدوات الحجال [النساء البدويات ذات الحجال اى النساء

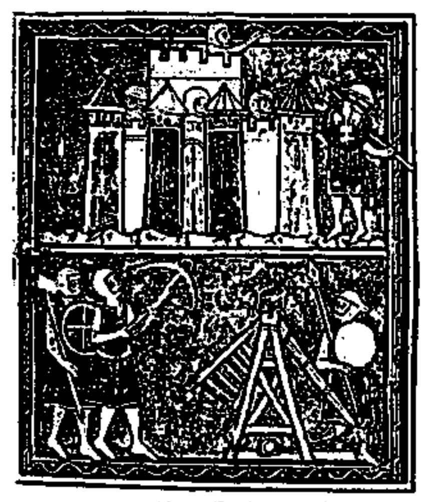
القضاء على استقلالية الكنيسة الارثوذكسية، واستملاك ثرواتها ومداخيلها، واخضاع بطريرك القسطنطينية، رئيس الكنيسة الارثوذكسية، ومن بعده الامبراطور نفسه.

وهكذا ظهر مشروع الحملة الصليبية واتحاد الكنيسة وثيقي الارتباط في سياسة البابا اينوسنتيوس الثالث. وقد حدث ذلك لان البابا رأى في الحملة الصليبية وسيلة مناسبة لاحراز نجاح مزدوج في آن واحد: جعل القدس والقسطنطينية معا تابعتين لروما. ومن المؤكد ان اينوسنتيوس الثالث لم يكن يرى آنذاك في الحملة الصليبية اكثر من وسيلة لتخويف الاوساط الحاكمة في الامبراطورية البيزنطية بمختلف المضاعفات والتعقيدات المحتمة بالنسبة لها بالارتباط مع مشروع الفرسان الصليبيين. وببساطة نقول ان البابا هول على الامبراطور البيزنطي لاجباره على اجراء تنازلات تتعلق بالوحدة الكنسية. اما في الواقع، فان البابا لم يقتصر في رسالته الى الكسيوس الثالث على النصائح «الابوية» وعلى الاستشهادات بالانجيل. بل المح بما يكفي من الوضوح الى ان بعض قوى اوربا ستعمل، اغلب الظن، ضد بيزنطة اذ رفضت القسطنطينية مطلب الكرسي الرسولي. وهذا التهديد الغامض كان مجلببا بجلباب ديلوماسي.

ولكن القسطنطينية رفضت قطعا مطامع البابا اينوسنتيوس الثالث، وفي فبراير ١١٩٩ وجه الكسيوس الثالث اتهامات مقابلة الى البابوية بسبب سياستها حيال بيزنطة. وكل هذا لم يفعل

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

الضعيفات] عزايم ابطال الرجال. وما زالت الكفار فى شقا وبلا وخذلان وعنا [عناء] منذ يوم المنازلة الى يوم التسليم، لا يخلو يوم من ا سارى وجرحاً بل قتلا وصرعا فنظرو، واذا حميت حماتهم قد خمدت، وعزايم كاتهم قد همدت، وطرف بلدهم قد فض، وجناح باشورتهم قد خض، وطور قلعتهم قد ذل، وثقل الابراج بكفات المناجنيق واصابع سهامها قد فل، وان لا مخلص لهم من براثين



الهجوم الصليبي على قلعة انطاكية

غير ان اثار غضب البابا. وبقدر ما كانت تتطور الاحداث، كان يحاول ان ينفذ تهديداته لبيزنطة: فى ١١٩٨ ـ ١١٩٩ كانت سبل تنفيذ هذه التهديدات لاتزال، الحق يقال، غير واضحة، ولكن البابا اعرب بكل وضوح عن جوهرها.

وهكذا بدأت تنعقد فى سنة ١١٩٨ تلك العقدة التى امتدت فى سنة ١٢٠٤ انشوطة مشدودة حول القسطنطينية.

ان تناحر البابوية وبيزنطة الذى كانت سياسة الباباوات الشمولية اساسه قد كان السبب الاول (من حيث زمن ظهوره)، وان لم يكن السبب الرئيسى، لتغير اتجاه الحملة الصليبية الرابعة. وسرعان ما انضمت اليه اسباب اخرى، اهم.

الاستعدادات للحملة. دوافع الفرسان

لقى نداء البابا صدى، ولكن ليس فى الحال، وبصورة محدودة جدا، وعلى الاغلب فى الوسط الاقطاعى، وقبل كل شئ فى فرنسا. ففى فرنسا استجاب لنداء البابا زهاء مائة من كبار الاقطاعيين ومعهم اتباعهم الفرسان. اما الملوك، فقد رفضوا هذه المرة الاستجابة لدعوة البابوية. ان ملك فرنسا فيليب الثانى اوجست، الذى مر منذ عشر سنوات بتجربة فاشلة كان يتمسك برأى مفاده ان الحياة البشرية تكفيها حملة صليبية واحدة. ولم يأبه فيليب الثانى اوجست لنداء القاصد الرسولى بيار من كابوا الذى وصل الى فرنسا، واستأنف الحرب، بعد

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

الاسد، وان الضلال قد اخفاه الحق ودفعه الرشد، وان مدة ولايتهم قد تصرمت، وجرت على مرادها الاقدار. وكان البلدان يدخل عليهم فيه من جميع الاقطار، وانهم اسارى فى قيدى الجوع والحصار، وتوهمو بل تيقنو ان البلد سيلقيهم الى اوليا الله فيمضو فيهم حكمى السيف والنار، وان المسجد الاقصى قد لبس حلتى الفرح والاستبشار، واخلع الذل والصغار. هذا وامداد الاسلام متوافيه، والعدد

مصرع ريتشارد قلب الاسد، ضد اعدائه، آل بلانتاجينه، اذ انقض على الممتلكات الفرنسية لخليفة ريتشارد، الملك الانجليزى الجديد جان بلا ارض (Jean sans Terre) (١١٩٩ ـ ١٢١٦). اما ريشار قلب الاسد ذو التأدب ـ وقد كان لايزال حيا عندما بدأ فولك دى نويى مواعظه ـ فقد سخر على المكشوف من خطابات هذا الكاهن النارية. ان بطل الحملة الصليبية الثالثة، كما كتب مدون الاخبار الانجليزى جيرالد من كمبريدج، قد قال لفولك، ردا على دعواته، ما يلى تقريبا: «انت تنصحنى بجحد ابنائى الثلاثة ـ التكبر والبخل والفجور. لا بأس. فانى اتنازل عنهم لمن هم اجدر منى، تكبرى للهيكليين، بخلى للسيسترسيين، فجورى للكهنة».

مر مارس ١١٩٩ ـ الموعد الذى عينه البابا اينوسنتيوس الثالث لانجاز الاستعدادات للحملة ـ ولكن لم تكن هناك القوات الصليبية.

لم تقم الاستعدادت المباشرة للحملة الا منذ اواخر سنة ١١٩٩. ففى نوفمبر اقيمت جولة بين الفرسان فى قصر اكرى بمقاطعة شامبانيا (على نهر الاين، منطقة الاردين). وهنا تعهد كثيرون من المشتركين والحاضرين بالاشتراك فى الحملة الصليبية. وقد انتشرت فى الادب اسطورة تزعم ان فولك دى نويى قد خطب فى الجولة، وسحر الفرسان باقواله. ولكن مصدرنا الرئيسى الذى يروى بالتفصيل مجرى الاحداث، وهو جوفروا فيللاردوان، لا يذكر شيئا عن

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

وافيه، ونعم الله على وجوه احوال المسلمين ظاهرة
غيرخافية، والخيرات بالعسكر المنصورة وافرة
كافية. ولما كان يوم الخميس سادس يوم المقاتلة،
وهو السادس والعشرين من شهر رجب، جا لهم
الموت من كل مكان، وادركهم الصغار والخذلان،
وزحف المومنون وتقدم الموحدون وتعلقو بشرافات
الاسوار وعليهم الزحف الموصون، وبايديهم كووس
الحتف والمنون، الا ان الجبال سايرة والبحار مايرة

موعظة فولك، ولو كان هذا الكاهن من نويى حضر الجولة فعلا، لما كان تردد جوفروا فيللاردوان عن الاشارة الى ذلك. على كل حال، استحوذت الحمى الصليبية على الفرسان والاسياد منذ جولة نوفمبر. وبين الذين اخذوا الصليب، كان طواغيت اقطاعيون بارزون، اغلبهم من الشبان (لم يكن احد منهم تقريبا يتجاوز الثلاثين من العمر).

المفاوضات فى البندقية. التجارة المشرقية وعلاقات جمهورية القديس مرقس مع بيزنطية

نحو صيف سنة ١٢٠٠ اجتمع في فرنسا عدد ضخم بقياس ذلك الزمن من العساكر المستعدة للسفر بحرا. وقد انقسم الصليبيون الى زهاء ١٥٠ فصيلة بارونية (ترد فى مدونات الاخبار والوثائق اسماء زهاء ١٥٠ بارونا قائدا)، تضم كل منها ٨٠ ـ ١٠٠ فارس. وعن اولى خطوات القادة العملية يحكي في يومياته بالتفصيل جوفروا فيللاردوان الذى يحاول قصارى جهده فى كل سرده ان يبيض صفحة المشتركين فى الحملة وقادتهم.

اجتمع كبار البارونات بادئ ذى بدء في سواسون ثم فى كومبيان (الى الشمال من باريس) ـ وقد حضر فيللاردوان بنفسه هذين الاجتماعين ـ وانتخبوا تيبو الثالث، كونت دى شامبانيا، البالغ من العمر ٢٢ سنة، قائدا عسكريا اعلى للجحافل الاقطاعية. ثم اختاروا فى كومبيان

ورحى الموت على نفـوسـهم دايرة، فـعندها لاذو
بالامـان وعـادو بالخـذلان وارسلو واردهم وبعـثـو
ورايدهم يسال فى تقرير القطيعة، ويقرع فى قبول
ما قبلته انفسهم الابية مذعنة مطيعة، وما سمحت
به من ذخاير كانة [كانت] على ايام ممتنعة منيعة.
واختارو حكم الميزان القايم سلاقهم [بتلافيهم]
السيف وعذابه فيهم، وتقررت امور قرت بها عينى
النبى صلوات الله عليه فى ضـريحـه، ونطق به

ستة فرسان من الاعيان وارسلوهم رسلا الى البندقية. وكان على هؤلاء ان تفقوا مع حكومة البندقية بشأن نقل القوات الصليبية بحرا. وفي عداد الرسل كان فيللاردوان نفسه، كما كان الفارس الشاعر الشهير ببلاغته وفصاحته كونون دى بيتون، الذى نظم قصيدتين عن الحملة الصليبية الثالثة. وصل الرسل الى البندقية في اوائل فبراير ١٢٠١. وليس من المعلوم بدقة طول الوقت الذى اجروا فيه المفاوضات هنا: لربما ثمانية ايام ولربما زهاء شهرين (تختلف معلومات مصادرنا). وعلى كل حال، تم التوقيع في اوائل ابريل ١٢٠١، بعد بضعة لقاءات مع دوق البندقية الطاعن في السن انريكو دندولو (١١٩٢ ـ ١٢٠٥)، على معاهدة وافقت بموجبها البندقية، بشروط معينة ، على تقديم السفن للصليبيين.

كان توقيع هذه المعاهدة واقعة هامة جدا فى تاريخ الحملة الصليبية. فآنذاك تم، فى البندقية، اعداد اكبر عوامل هذا المشروع، العامل الذى دفع الصليبيين فيما بعد ، حين ا ستقام واستطال، بعيدا عن تحرير الارض المقدسة. ولفهم دور «عروس الادرياتيك» (هكذا كانوا يسمون البندقية احيانا) فى الاحداث اللاحقة وانحراف الحملة عن الارض المقدسة، ينبغى ان نتصور مكانها فى علاقات الغرب التجارية مع الشرق، وعلى الاخص فى العلاقات بين البندقية وبيزنطية.

لسان الراى الصحيح مع صريحه، مستحقاً الخاشر [الخاسر] هذا وقربا لمربحه وهو : عشرة دنانير على الرجل، وخمسة على الامرآه، ودينار واحد على الصبى الذى لم يبلغ الحكم [الحلم] والصبية التى لم تبلغ. وعدة من فى البلد تقارب ماية الف او يزيدون. وقطعو ضعفا لا يقدرون على شى سبعت الف رجل ثلثين الف دينار يقدموها صدقة بين يدى كبارهم وجزية معجلة عن اجرة سكانهم. والحمد

معاهدة النقل. مقاصد البندقية

بموجب الاحداث اللاحقة، كانت خطة زعماء الصليبيين الاولية تتلخص فى دفع قوات الصليبيين الى مصر، وسحق قلعة العالم الاسلامى الرئيسية، ثم شن الحرب من هناك فى سبيل القدس. وعلى كل حال، حين تجمع الصليبيون فى البندقية بعد سنة، «اتفق» رؤساؤهم «بالاجماع على التحرك رأسا صوب الاسكندرية، ومحاصرتها، وقد عرفت هذه المقاصد من على لسان المشترك فى الحملة رئيس الدير المذكور، مارتين.

ولكن الحرب ضد مصر لم تكن تطيب البتة للبندقية. فقد كانت لها علاقات تجارية منظمة جيدة مع مصر. ان تجار البندقية محبى النقود، الذين كانوا يكسبون الارباح الطائلة من نقل الحجاج الى سوريا ولبنان وفلسطين ومن نقل الامدادات والحبوب من الغرب الى الافرنج فى الشرق، كانوا فى الوقت نفسه يبيعون الاسلحة من السلطان المصرى بكسب ونفع. وكانوا كل سنة يكسبون الملايين من التجارة مع مصر، عدا ذلك، الخشب والحديد، ومن شراء العبيد فى مصر. صحيح ان السلطان المصرى كان يجبى مختلف الرسوم والضرائب عن البضائع التى يستوردها ويصدرها البندقيون، ولكن التجار البندقيين كانوا بالمقابل يستطيعون ان يتاجروا فى عموم مصر وبدون اى قيد او عائق. ولكى تنمو التجارة وتتطور، تعهد السلطان ـ كما جاء فى صك امان منحه السلطان ـ بعدم اخذ اى شئ نافل منهم. وفى الاسكندرية والقاهرة كان

لله الذى اخفت دعوتهم واخفا دعواهم، واستاصل بالسيوف الناصرية غيهم ومن اغواهم. وشكر لله على استنقاذ المسجد الاقصى الذى اسرى اليه بعبده وانجاز ما سبق به صادق وعده. والامير ياخذ حظه من هذه البشرى بالمسرة التى غمرة [غمرت] القلوب وملأت الايدى والخزاين، وبشرت بفتح ماطلعت عليه الشمس من الامصار والمداين، وطرزت سيرة ايامنا بغرر الميامن والمحاسن. ويامر

للبندقيين حوش (خان) تجارى حيث كان بوسعهم ان يعيشوا، كما جاء فى صك الامان المذكور، بحرية وتقوى، وان يكونوا حتى بحماية جنودهم بالذات.

وهكذا لم يكن التجار من البندقية ضد ابتزاز ارباح كبيرة من المسيحين والمسلمين على السواء اذ كانوا يهتمون بالنقود فقط. اما من وجهة نظر البابوية ودول الصليبين، فان هذه كانت تجارة مع العدو. وفى الشرق الافرنجى كانوا يقولون ان الارباح التجارية بالنسبة للبندقية اهم بما لا قياس له من انتصار قضية الصليب (وليس من قبيل الصدفة أنه نشأ عند احد مدونى الاخبار هو أرنول، تفسير بصدد الحملة الصليبية انتشر فيما بعد واسع الانتشار، ومفاده ان انحراف الحملة عن هدفها الاولى حدث لان السلطان المصرى اشترى من البندقية واجب توجيه الصليبين فى اتجاه آخر !).

وقد اضطر البابا اينوسنتيوس الثالث الى التنديد بالبندقيين تنديدا حادا بسبب لامبدئيتهم، وقد سبق له ان منعهم فى سنة ١١٩٨ من بيع الاسلحة للمسلمين. وقد اعلن بشكل عام دون ان يسمى البندقية صراحة باسمها بل بالتلميح اليها بجلاء : «اننا نحرم من الكنيسة ونلعن اولئك المسيحين الدجالين وعديمى التقوى الذين يحملون الى المسلمين ضد المسيح نفسه وضد الشعب المسيحى السلاح والحديد وخشب السفن، وكذلك السفن، او يخدمون ربابنة على سفن المسلمين القرصانية، ويديرون آلاتهم الحربية، او يقدمون لهم نصيحة ما او

باشاعتها ويتقدم بطرب البشارة واذاعتها، وتزيين البلد وحضور [صلاة] جمعة هذه المسرة وجماعتها موفقا انشا الله:.

ولما تسلم الملك الناصر صلاح الدين البيت المقدس بالامان والقطيعة المقدم ذكرها فى شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمس ماية الهلالية [٩٠٣ قبطية = ١١٨٧م] اقام فيه الى ان صام شهر رمضان من السنة المذكورة وصلى فيه صلاة

مساعدة ما لما فيه ضرر الارض المقدسة» . وامر البابا اينوسنتيوس الثالث بان يذكر الكهنة بهذا الحرم فى جميع المدن الساحلية البحرية فى ايام الاحاد والاعياد وبان يضيفوا قائلين ان الكنيسة لن تفتح ذراعيها للمسيحيين عديمى التقوى «اذا لم يمتنعوا عن الطمع غير المشروع بالمال». ان البابا قد وجه هذه التهديدات، بالطبع، الى البندقية . ولكن البندقية تجاهلت موانع البابا كما تجاهلت قرارات المجامع الكنسية التى ابرق ووعد فيها الاساقفة ورؤساء الاديرة ضد اولئك الكاثوليكيين الذين لا يأنفون، فى سبيل الربح، من تقديم السلاح لاعداء الدين المسيحى.

وهكذا لم يكن ثمة بالنسبة للبندقية اى معنى من تقديم الدعم للصليبيين فى حربهم المفترضة العتيدة ضد مصر، فقد كان المسلمين شريكا تجاريا موثوقا، فى حين ان الاعتبارات الدينية كانت بخسة الثمن بنظر التجار واصحاب السفن من البندقية. ولهذا حرصت جمهورية القديس مرقس حين تعهدت بنقل الصليبين على ان تبقى لساستها حرية التصرف عند تحديد اتجاه الحملة.

بموجب المعاهدة، تعهدت البندقية بان تقدم السفن لنقل ٤،٥ الاف فارس و٤،٥ آلاف حصان، و٩ آلاف سلاحدار و٢٠ الفا من المشاة، وتؤمن لهم الغذاء طوال تسعة اشهر. وفضلا عن ذلك، تعهدت البندقية، «حبا بالله»، ان تجهز بنفسها (اى على حسابها) ٥٠ مركبا مسلحا آخر. اما الصليبيون، فقد تعهدوا، من جهتهم، ان يدفعوا لجمهورية القديس مرقس، عن

العيد بمن حضر معه من المسلمين، وخرج حاصر الكرك فاخذه، وقلعة كوكب فاخذها، وتوجه الى صيدا وبيروت وجبيله وعتيل وسار فى طول الساحل وعرضه والسهل والجبال ففتح مدن وقلاع وقرى هى الى يوم نظم هذه السيرة فى يد المسلمين، وفتح وملك بالامان اكثر مما فتح بالسيف واوفا بعهوده ولم ينكث بكلمه من قوله ولا غدر وكانو فرسان الفرنج وامراهم وكبارهم

خدماتها، ٨٥ الف مارك فضة («عن كل حصان اربعة ماركات، وعن كل انسان ماركين»). وكان ينبغى دفع المبلغ بالتقسيط، على اربعة اقساط على ان يدفع القسط الاخير فى موعد لايعدو ابريل ١٢٠٢. كذلك احتفظت البندقية لنفسها بنصف كل ما يستولى عليه الصليبيون بمساعدة اسطولها وقواتها المسلحة فى البر او فى البحر: «النصف نحصل عليه نحن والنصف الاخر انتم».

فهل يفي الصليبيون بتعهداتهم؟ من الممكن تماما ان يكون الدوج انريكو دندولو لم ينطلق الا من مقدار المبلغ الذى عينه، فأخذ سلفا بالحسبان ان الصليبيين لا يستطيعون ان يدفعوا المبلغ المطلوب، رغم انه من المشكوك فيه، من جهة اخرى، ان كان هذا المسن الذى كانت له خبرة جيدة فى العمليات التجارية الكبيرة النطاق، يميل الى بناء الاوهام الباطلة. فان حكمة رجل الدولة البارزة كانت تجتمع عنده بنحو رائع مع بعد نظر التاجر المحنك فى الاعمال. ان المصيدة التى نصبها للصليبيين حاكم البندقية «الحكيم والجيد جدا» كانت تتلخص قبل كل شئ فى امر آخر، ومعاهدة النقل لم تكن صفقة تجارية عادية، كما يظن بعض العلماء، بل كانت تنطوى على كل غدر الديبلوماسية البندقية التى تخدم نهج الجمهورية السياسى التوسعى فى البحر المتوسط.

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

يخرجو من حصونهم وقلاعهم باموالهم ومواشيهم ونسـاهـم واولادهم وجـمـيـع مـا يملكوه من المال والخيل والبغال والجمال والجوار والمماليك حتى الاسـارى من المسلمين(*) ومن رضى يبيعه اسير منهم دفع له فيه قيمته وزايد ومن لا يرضى قال له خذ اسيرك ولكن افعل معه الخير كما فعلت معك وكان كثير من الفرسان يدفعو له اساراهم ويحلفو ما ياخذو ثمن فيحسن اليهم وينعم عليهم باكثر

*) كـان الفـرسـان الصليبـيـون يخـرجـون من قـلاعـهم بعـد سقوطها في يد صلاح الدين بما ملكوه من أموال ومواشي ومن اسـروهم من المسلمين دون أى اعتراض من المسلمين أو صلاح الدين، بل وفى حراسة جنود من المسلمين.

فلا النقود بحد ذاتها، ولا نصف الغنيمة المقبلة، كانت العنصر الاساسي، الاول، في مقاصد دندولو. فبموجب المعاهدة، كان على الصليبيين ان يدفعوا مبلغ ٨٥ الف مارك، وفي هذا المجال يبدو كأن كل شئ واضح ولكن نص المعاهدة لم يكن ينبس ببنت شفة لا بصدد هدف الحملة الصليبية المباشر، ولا ـ وهذا هو الاهم ـ بصدد كيفية العمل والتصرف فيما اذا لم يصل الى البندقية في الموعد المعين ـ نحو ابريل ١٢٠٢ ـ عدد من الجنود يتطابق مع العدد المعين. فهل تتعدل التزامات الصليبيين اذا وصل اقل من ٤٥٠٠ فارس، واقل من ٩٠٠٠ من السلاحدار واقل من ٢٠ الفا من المقاتلين المشاة؟ لم ترد ا ية كلمة عن هذا في المعاهدة. وفيها كان يغيب، قصدا وعمدا، الشرط الذى من شأنه ان يضبط بنحو ما مقدار المدفوعات عن النقل تبعا لعدد الصليبيين الفعلي. ومن هنا كان يتحتم عليهم، مهما بلغ عدد الواصلين منهم الى البندقية في الموعد المعين، أن يدفعوا ٨٥ الف مارك عدا وتماما. وهنا بالذات كان يكمن المقلب، وفى هذا البند بالذات خدع الدوق الرسل الفرنسيين، الذين وقعوا المعاهدة، ونصب الشباك لاصطياد جنود المسيح.

ان الديبلوماسي والتاجر البندقي قد حزر مالم يمعن فيه الفكر، والحق يقال، فيللاردوان ورفاقه، فان الدوق قد اخذ بالحسبان انه من المشكوك فيه ان يجتمع في البندقية جميع الصليبيين اذ ان الحماسة الدينية السابقة قد خفت نارها كثيرا، وانه كان من الصعب جمع

مما تركوه وكانو يخرجون من حصونهم لباس الزرد والدروع والخوذ كما كانو يخرجو للحرب فاذا رآهم تبسم ثم تدمع عينيه ولم يعترض لاحد منهم شي قيمته حبه بل يسير معهم الاجناد يحفظوهم ويخفروهم حتي يدخلو بمن اراد صور اليها، ومن اراد انطاكيه اليها. وهذه نسخة الخطبة التي خطب بها الخطيب في البيت المقدس يوم صلاة عيد شهر رمضان بحضرة الملك الناصر صلاح الدين ومن

زهاء ٣٥ الف رجل تحت راية المسيح. ولكن اذا لم يجتمع ٣٥ الف رجل، بل اجتمع عدد اقل، فان الحاضرين سيواجهون حتما مصاعب نقدية جدية في حال تصفية الحسابات مع البندقية. واذ ذاك، سيتوقف مصير الصليبين اللاحق على حكومة البندقية، عليه، هو الدوق دندولو، اذ سيكون بمقدوره ان يملي ارادة البندقية، واذ أن الصليبيين سيجدون انفسهم كليا، بوصفهم مديونين عاجزين، غير مقتدرين، في ايدى البندقيين، وسيضطرون بالتالي الى فعل ما يطلبه منهم الدوق. وعلى الدوق سيتوقف الاتجاه الذى ستتحول نحوه قوات الفرسان بحيث يعود ذلك باقصى النفع على البندقية.

من المشكوك فيه ان يكون الرسل الفرنسيون قد خاطرهم الشك في هذه المقاصد الماكرة والغدارة التي حاكها الشيخ المسن الشايب والاجعد الوجه الذى تعاملوا معه والذى اقسم اليمين، واضعا يده على الانجيل، انه سيتقيد بالمعاهدة حرفا وروحا دون اى انحراف. ان الرسل لم يأخذوا بالحسبان تلك الملابسات والمضاعفات التي سيصطدم الصليبيون بها فيما بعد، ولم يأخذوا بعين الاعتبار ان حماسة مواطنيهم وحميتهم قد تبردان. بل بالعكس. فان الرسل قد فرحوا، عند توقيع المعاهدة، لكونهم ادوا بمثل هذا النجاح المهمة التي عهد بها اليهم.

البابا اينوسنتيوس الثالث وحده استشف نوايا البندقيين الخفية، ومع ذلك، صادق البابا فى ٨ مايو ١٢٠١ على معاهدة الصليبيين مع البندقية. «قد فعل ذلك بكل طيبة خاطره» كما

كان معه من المسلمين وهى اول خطبة خطبـو بها بعد فتح المدينة واخذها من يد الافرنج(*).

الحمـد لله، الله اكبـر على [مـا] سهل ويسر، وفتح ونصر، وخذل الاعدا وقهر، ومن[منّ] علينا بالمسـجـد الاقـصى المطهـر، و اخـرج منه الكفـر والاعلاج بنو الاصفر، وشتتهم وبددهم ودمر [هم] ورد الى الملة الاسلامية الارض المقدسة ارض المحشر والمنشر الذى بارك فيها وحولها واكثر، ان فى ذالك

(*) نص أول خطبة فى بيت المقدس للمسـلمين امـام الملك صـلاح الدين بعد الاستيلاء عليها من الصليبين.

كتب فيللاردوان. هنا يخطئ هذا المؤرخ الفرنسى بعض الشئ، او لربما يصور قصدا وعمدا موقف رئيس الكنيسـة الكاثوليكيـة بهـذه الصـورة. يقينا انه لم يكن بوسع البـابا ان يرفض المعاهدة، اذ انه بدون اسطول البندقية كان يستحيل على الصليبيين ان يمضـوا فيـما وراء البحر، وفضلا عن ذلك، ارسل البابا اينوسنتيوس الثالث، اثر المصادقة على المعاهدة رسالة الى رجال الدين فى البندقية اعرب فيها عن ارتياحه لكون «اولاده المحبوبين، الدوق انريكو وشعب البنـدقيـة قرروا ان يقدموا للارض المقدسـة مثل هذه المسـاعـدة الجبـارة». بل ان البـابا المنافق والمرائى مضى الى حد التظاهر بان كل شئ يسيرحسب نواياه، وبان كل شئ يتحقق تنفيذا لارادته، فقد خاطب، مثلا، رجال الكنيسـة فى انجلترا وفرنسا طالبا منهم ان يراقبوا بدقة وعناية امر ارسـال الفرسـان فى الحملة فى الوقت المناسب، لاجل التقيـد بالموعـد «الذى عينه ابناؤنا المحبوبون كونتات الفلاندر وشامبانيا وبلواه».

ومهما يكن من امر، فان ربيع سنة ١٢٠١ قد اعد التربة لاجل تحويل الحملة الصليبية ضد مصر الى حملة لصوصية ضد بيزنطية.

الامبرطورية الالمانية وفرنسا ضد بيزنطة

فى الوقت ذاته تقريبا ، فعلت فعلها فئة اخرى من الاسباب التى حرفت الصليبيين فيـمـا بعد عن الهـدف الاولى وغيـرت اتجاه الحـملة الجـديد، تلك هى التناقـضـات السـيـاسـيـة بين

عبره لمن تذكر، وحسره في قلب من ألحد وتجبر. احمده على تغيير البيع والصوامع بالمساجد والجوامع، وتبديل النواقيس بالتاذين والتقديس، وتحويل تعظيم صليب المصلوب بتمجيد الحى الذى لا يموت. لم تزل عوايده جميلة، وعطاياه للمومنين جزيلة والسلام.

اعلمنا من يقف على هذه السيرة بصفة هذه الخطبة لان هذا موضع ذكرها ليلا [لئلا] يمتد بنا

الامبراطوريتين الالمانية والبيزنطية. اما اساس هذه التناقضات التى تطورت فى القرن الثانى عشر فهو بصورة رئيسية تطلعات الاغتصاب والفتح الى البحر المتوسط من جانب تلك العناصر الاقطاعية فى المانيا (وعلى الاغلب فى اراضيها الجنوبية) التى تلاحمت حول سلالة هوهشتاوفن.

فان سياسة هنريخ السادس المعادية لبيزنطة قد واصلها اخوه الاصغر وخلفه فيليب دى شوابيا (١١٩٨ ـ ١٢٠٨). وتطبيق هذه السياسة كان يلائمه تقلقل الحياة السياسية فى بيزنطة، الذى كان يعكس ضعفها الداخلى فى عهد ينتهى فيه فى الامبراطورية نشوء الاوضاع الاقطاعية. ففى سنة ١١٩٥، حدث انقلاب قصرى جديد فى القسطنطينية وبنتيجته حرم الامبراطور اسحق الثانى انجيلوس من السلطة واعتلى اخوه الكسيوس الثالث العرش (١١٩٥ ـ ١٢٠٣).

الحملات إلى مصر والسياسة الدولية

ان النشاط الشديد الذى بذله الحبر الاعظم لأجل دعم روح الحملات الصليبية ونشره عمقا وسعة، وارساء اساس متين لتنظيم الحروب المقدسة، وتأمين الدور القيادى فيها للباباوية، لم يسفر عن النتائج التى كان يأمل فيها البابا اينوسنتيوس الثالث.

الكلام فنوردها في غير موضعها او نتركها ومرادنا بذالك ان تقفو على صورة الحال وتفهمو من اين دخل على دولة الافرنج الاختلال ليعتبر بذالك اولو الالباب ويتذاكرو على ممر الدهور والاحقاب.

ثم نعود الى شرح ما كنا فيه مما ايد الله به صلاح الدين، وما مكنه له من النصر والظفر والتمكين، وما صنع مع اعدا دينه ودولته، كقول التوراه: اذا عبر عليك حمار عدوك وانت جالس

في معرض اتخاذ الخطوات الأولى لتنظيم حملة صليبية جديدة، اصدر اينوسنتيوس الثالث بولاً (مرسوما) خاصا، اعاد فيه الى الاذهان ما يعانيه آلاف المسيحيين في سجون المسلمين. وفي هذه الوثيقة تحدث البابا عن القلعة الإسلامية الرهيبة التي بناها المسلمون قصدا وعمدا على جبل طابور بفلسطين، في المكان الذى حدث فيه (كما جاء في الانجيل) ما يسمى بقيامة يسوع المسيح. هذه القلعة تهيمن على عكا وتتيح للمسلمين الظن انهم من هنا «سيتمكنون من ان يقتحموا بلا عائق الأرض المتبقية عن مملكة القدس». كذلك كان يتضح من الرسالة التي دعا فيها البابا الى الحملة الصليبية انه لم يكن يعتزم الاكتفاء بالأعمال الدعائية المحضة، بل كان ينوى كذلك ان يحضر بشخصه عملية صعود الصليبيين إلى السفن. وكان من المرتأى تكليف نائب البابا (القاصد الرسولي) بالاشراف على عملية انشاء القوات البرية وارسالها. وقد ضحى البابا اينوسنتيوس الثالث على حاجات الحملة بـ ٣٠ ألف مارك؛ وبعد فترة من الوقت اعتمد ايضا ٣ آلاف مارك. وتعينت سنة ١٢١٧ موعد بداية الحملة.

لم يشر المرسوم البابارى باية كلمة الى من يوصى به البابا او يقترحه لمنصب قائد القوات الصليبية. اغلب الظن ان انسب مرشح لهذا المنصب المسؤول كان الملك الالماني الشاب

ووسقه مايل فقم اليه واعدل وسقه عليه. وقول الانجيل يوكد بما هو اعظم من هذا مما قد علمتم من قوله: حبو اعداكم وباركو لاعنيكم وصلو على من يشتمكم واحسنو الى من اساء اليكم. مع بقية الوصايا ليلا [لئلا] يطول الكلام، فعمل صلاح الدين بامر هذين الشريعتين من غير معرفة ولا قراه بل الهام من الله، ولاجل ذالك مات على فراشه وكانة [كانت] عاقبته حميدة فى نفسه وذريته.

والهمام، وملك صقلية فى آن واحد، فريدريك الثانى هوهنشتاوفن. وفى ١٥ يوليو ١٢١٥، اعلن فريدريك الثانى، حين كان فى آخن حيث جرت حفلة تتويجه «ملكا رومانيا» انه يأخذ الصليب. ولكن هذا الاعلان كان من جهته اجراء ديلوماسيا صرفا. فقد كان براء تماما من التعصب الاعمى الصليبى؛ وما هو أهم بكثير، هو ان الملك الالمانى، المستغرق فى الهموم السياسية الداخلية فى ممتلكاته الاوروبية الجديدة، قد شغل، من حيث الجوهر، منذ بادىء بدء، موقف الانتظار والتربص حيال الحملة الصليبية التى نادى بها البابا. ومع ان فريدريك الثانى كان خاضعا لوصاية البابا اينوسنتيوس الثالث الذى وافق على الاعتراف به ملكا المانيا مقابل تنازلات سياسية معينة للكرسى الرسولى، الا انه لم يكن بوسع البابا، بالطبع، ان يرشح هذا الملك لقيادة المشروع الذى حاكته روما.

وفى عداد الملوك، اخذ النذر الصليبى، عدا فريدريك الثانى، ملكان آخران هما اندراش (اندره) الثانى (المجر) ويوحنا بلا ارض (انجلترا)، تابع البابا اينوسنتيوس الثالث. وهذان الاخيران، ماتا أحدهما تلو الآخر، الاول فى ١٦ يوليو والثانى فى ١٦ اكتوبر عام ١٢١٦.

انتقلت قيادة تنظيم الحملة الصليبية الى خلف اينوسنتيوس الثالث، البابا اونوريوس الثالث (Honorius) (١٢١٦ ـ ١٢٢٧). وقد واصل اونوريوس الثالث سياسة سلفه وسعى الى تحقيق نواياه، متمسكا ببرنامج المجمع اللاتراني الرابع. واول خطوة اتخذها البابا الجديد كانت

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

وقد كنا ذكرنا ان صور وانطاكية كانا قد بقيا في يد الافرنج لما اراد الله من اسراره الخفية، فاما صور فان الله ساق اليها ملك من ملوك الافرنج من خلف البحر من ناحية الغرب يسمى مركيس(*)، وقال قوم انه رومى ابن اخت ملك القسطنطينية، لانه لم يكن بقي في الساحل مكان لم يفتحه صلاح الدين سو [سوى] صور وقلعة صفد، فاما صفد فانه نزل عليها وحاصرها سبعة شهور

(*) هو ماركيز كونارد دى مونتفرا. وكان أمضى بعض الوقت فى قسطنطينية ووصل إلى إلى قرب عكا سنة ١١٨٧م.

تعيين القاصد الرسولى فى قوات الصليبيين التى كانت تستعد للسفر بحرا. وهذا المنصب شغله الكردينال بيلاجيوس من البانو، الاسبانى الاصل.

أخّر موت اينوسنتيوس الثالث الحملة الصليبية بعض الشيء. وفى سنة ١٢١٧ لم ينطلق الى الشرق غير اندراش المجرى، والاسياد الذين التحقوا به واغلبهم من اراضى المانيا الجنوبية، والدوق ليو بولد النمساوى. وبواسطة رئيس الاوسبيتالين المجريين، تسنى الاتفاق مع البندقية على تقديم عشر سفن كبيرة بسعر مقبول - ٥٥٠ ماركا فضيا لكل سفينة - وقد تعين دفعه على ثلاثة اقساط - لجأ الملك المجرى الى الطرائق التى ألفها قادة الصليبيين وهى - تزييف العملة، بيع بعض الضياع الملكية، نهب الكنائس والاديرة. ويستفاد من معطيات مدونى الاخبار، المبالغ فيها على ما يبدو، ان نحو ١٠ آلاف فارس خيال وكثيرين من المقاتلين المشاة قد انضموا تحت لوائه. على كل حال، لم تكف السفن التى وصلت فى ٢٥ يوليو ١٢١٧ إلى سبليت، ولذا عاد قسم من الصليبيين إلى بيوتهم وقد وطدوا العزم على السفر فى ربيع السنة القادمة. ووصل الملك اندراش الثانى نفسه الى سبليت فى ٢٣ اغسطس، ولكنه اضطر الى الانتظار بعض الوقت هناك حتى يبحر الصليبيون اخيرا الى عكا.

بدأت الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١). ففى سبتمبر ١٢١٧ اجتمعت فى

واخذها لما جاعو الذين فيها سلموها له لانهم لم يكونو اعدو شيأ للحصار. ولما سلموها له وراحو الى صور، وصار كلمن سلم قلعة او حصن او مدينة بالامان يمضو الى صور او الى انطاكيه. وفعل مع الافرنج لما قدر عليهم كل معروف.

فاما صور فانه نزل عليها ثلاثة دفوع وحاصرها وضيق عليها واقام عليها الى ان ضجر مقدار سنة يتردد اليها معسكر في البر ومراكب الاسطول في

عكا فصائل اندراش الثاني المجرى، وليو بولد النمساوى، والدوق اوتو من ميرانو، كما وصلت الى عكا فصائل ملك قبرص، جي دى لوزينيان، وفصائل الفرسان التابعة للاسياد اللاتين في سوريا ولبنان وفلسطين ـ ملك القدس يوحنا دى بريان، وامير انطاكية بوهيموند الرابع، والاوسبيتاليين بامرة الاستاذ الأكبر جارن دى مونتيجيو، والهيكليين بامرة الاستاذ الاكبر غيوم من شارتر، والفرسان التوتونيين بامرة جرمن فون زالتس. وكان المعاصرون يعتبرون ان عدد المشتركين في الحملة الصليبية الخامسة الذين توزعوا ورابطوا في جوار عكا وفي المدينة، بلغ ٢٠ الف فارس و٢٠٠ الف من المشاة، وهذا ايضا من باب المبالغة الشديدة.

استقبل الاسياد اللاتين المحليون الصليبيين القادمين من الغرب الى عكا بدرجة كبيرة من البرودة، ان لم يكن بعداوة سافرة. فقد كانت البلاد الخاضعة لهم تعاني المجاعة؛ ففي السنة السابقة ساد الجفاف. بل ان كثيرين من الصليبين ماتوا جوعا،ـ وحسب معطيات لمدوني الاخبار مبالغ فيها جدا، مات نحو ١٠٠ ألف. أما الاهم، فهو ان الافرنج في سوريا ولبنان وفلسطين لم يكونوا البتة بحاجة الى حملة صليبية. فقد كانوا منذ زهاء ٢٠ سنة يعيشون بسلام مع مصر، ويتاجرون معها، بينما الحرب لم يكن بوسعها غير ان تخل بالوضع القائم وتضر بمصالح الطرفين الاقتصادية.

البحر فلا يقدر منها على شي، ولم يزل مركيس
فيها يحفظها ويدبرها بمشية الله تعالى لسلامتها
حتى وصلو اليها الملوك ونزلو على عكا ظاهر البلد
على تل المشنقة. ولما كان في محرم سنة اربع
وثمانين وخمس مايه [١١٨٨م] توجه الملك الناصر
صلاح الدين الى دمشق بعد ان اقام مجاهد مرابط
في ساحل الافرنج سنة اثنين وثمانين وخمس مايه
وسنة ثلاثة [١١٨٦م] وثمانين وخمس مايه

امضى الصليبيون المجريون والالمان سنة بكاملها في عكا بلا جدوى. وقد حاولوا ان يشنوا غارات على دمشق ونابلس وبيسان؛ وكان الافرنج، كما يقول المؤرخ العربي ابن الاثير، يعرفون ان عساكر السلطان العادل كانت آنذاك موزعة في مختلف انحاء دولته المترامية الاطراف. كذلك حاول الصليبيون الاستيلاء على قلعة طابور مع ابراجها الـ ٧٧ وقهر حاميتها المؤلفة من الفي رجل. ولكن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل من جراء الخلافات بين الزعماء العسكريين للصليبيين. فان بوهيموند الرابع، امير انطاكية، مثلا، كان يعارض قطعا اقتحام قلعة جبل طابور بينما كان يوحنا دي بريان يصر من جهته على ذلك.

حاول الصليبيون ثلاث مرات اقتحام القلعة، ولكنهم ردوا على اعقابهم في كل مرة. وفي آخر المطاف تراجعوا وعادوا الى عكا. وكان الملك المجري اندراش الثاني يفضل التخفي والاحتماء في المدينة، وطفق في اواخر سنة ١٢١٧ يستعد للعودة الى اوروبا؛ فقد اقتنع بعقم المشروع كله ناهيك بانه مرض. وفي يناير ١٢١٨، ابحر اندراش الثاني مع فصيلته الى الوطن رغم تهديدات بطريرك القدس باصدار حرم بحقه. واضطر الباقون الى ارجاء العمليات الحربية ضد المسلمين والى انتظار وصول فصائل جديدة من الصليبيين من اوروبا، والانصراف حتى ذاك الى تحصين القلاع الباقية للبارونات والفرسان الافرنج. وكان قسم من جنود الرب - الفرسان من فريزيا (هولندا) برئاسة الكونت غليوم، والفرسان الالمان - قد تأخر في الطريق؛

هلالية، الى ان فتح الساحل جميعه وهدت اموره ووهب [اعطى الهبات] اجناده واصحابه ومن عاونوه من ملوك المسلمين وساعده من امراهم من الاموال والمواشى والاسارى والخلع مالا يحصى عدده، ولقد بلغنى عن غلام من غلمان الاجناد انه اسر رجل من الافرنج فاباعه لفقاعى(*) بكوز فقاع فظهربعد ذالك انه فارس كبير، فاعوذ بالله من زوال النعم وحلول النقم . ثم ان السلطان اقطع

(*) الفقاع: شراب يتخذ من الشعير يخمر حتى تعلوه فقاعاته.

فان هؤلاء الصليبيين قد توقفوا في ليشبونة واشتبكوا فى حرب ضد المسلمين. ولم يصلوا الى عكا الا فى ٢٦ ابريل ١٢١٨.

لم يكن لصليبى الحملة الخامسة قائد عسكرى يتمتع باية مكانة ومعترف به عموما. فان ملك القدس يوحنا دى بريان لم يكن يتميز لا بالمواهب العسكرية ولا بالمواهب السياسية، ولم يكن يملك سلطة فعلية على سائر البارونات البارزين ناهيك بان معارضة قوية كانت قائمة ضده. وبعد مهاترات طويلة قرر قادة فصائل الفرسان ارسال العساكر الى مصر، قلعة العالم الاسلامى الرئيسية التى كان من المزمع الاستيلاء عليها اثناء الحملة الصليبية الرابعة. اختار الصليبيون المدينة ـ القلعة الكبيرة، ومنافسة الاسكندرية فى التجارة، دمياط، الواقعة على احد فرعى دلتا النيل هدفا مباشرا لاجل الهجوم. وكانت دمياط بمثابة مفتاح مصر. وكانت تطوقها ثلاثة احزمة من الاسوار، وكان يحميها برج جبار قائم فى جزيرة صغيرة وسط نهر النيل. ومن هذا البرج الموصول بجسر بالمدينة كانت تمتد عبر النهر سلاسل حديدية تسد الطريق الى المدينة من جهة النهر.

استمر حصار دمياط التى وصلت اليها اولى فصائل الصليبيين فى ٢٧ مايو ١٢١٨ زهاء سنة ونصف سنة. فى البدء استطاع الفرسان، بتحويل سفنهم الى ضرب من آليات حصارية عائمة وباستعمال السلالم الاقتحامية الطويلة، ان يستولوا على برج القلعة، ولكن القوات

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

مـدن السـاحل والقـرى والقلع [القـلاع] للاجناد، واقـام بدمـشق مـدة يـسيرة حتى اسـتراح العـسكر، وخرج نزل على حصن الاكراد واقام يحاصره نحو شـهرين فلم يقـدر عليـه، وتوجـه منه الى اعـمـال انطاكيه ففتح اللاذقيه وبغراس وقرى وقلع [قلاع] وابراج. وجا [جاء] الى حصن برزيه(*) ونزل عليه وحاصره واقام عليه مده يسيره فيسر الله له فتحه فـفـتـحـه وملكه، وكـتـب الكتب بذالك الى ولاة

(*) برزيه: من حـصـون السـاحل الشـامي في شـمال سوريا وقـرب حمص.

المصرية في دمياط التي انضم اليها ضغط عناصر الطبيعة ـ فيضـان النيل ـ وكـذلك الوباء الذى انتشر بين الصليبيين المحاصرين، ـ اوقفت نجاحهم وتقدمهم. وخلال بضعة اشهر لم يحرز لا هذا الجانب ولا ذاك قصب التفوق. وقد يئس كثيرون من الفرسان من النصر، فتركوا العسـاكر في ربيع وصيف ١٢١٩ وعادوا الى اوروبا. ولكن الآخرين ظلوا يحاصرون دمياط بعناد.

عـانت المدينة المقطوعـة الاوصال من جـمـيع الجـوانب الجـوع، بل ان الجـوع هدد بهـلاك الحامية بالذات. وآنذاك كان السلطان العادل فى دمشق؛ وحين تلقى نبأ استيلاء الصليبيين على برج دمياط، مات. واخذ ابنه الاكبر الكامل زمام الحكم. ولانقاذ دمياط، اقترح السلطان الجديد على الصليبيين ـ وكانت تهدده فضلا عن ذلك مؤامرة رجال البلاط،ـ رفع الحصار عن دمـيـاط على ان يسلمهم بالمقـابل مملكة القـدس فى حـدود سنة ١١٨٧ (بدون الكرك وكراك دى مونريال) ويعقد الصلح معهم لمدة ٣٠ سنة.

كان يوحنا دى بريان واغلبية البارونات الافرنج يميلون الى قبول هذه الشروط المفيدة جدا ولكن نائب البابا بيلاجيوس الذى كان قد وصل الى دمياط فى ١٢١٨ تدخل في الاحداث. وقد تسنى له ان يحمل الى حد ما على الوفاق كتل زعماء الصليبيين المتعادية حتى ذاك، وآنذاك اضطلع بدور لا يناسب البتـة رجل الدين، هو دور القـائد الاعلى للقـوات المسلحـة.

الديار المصرية كل منهم باسمه، وهذه نسخة كتابه الى الامير نصر الدين خضر ابن بهرام والى الاعمال الغربية(*): بسم الله الرحمن الرحيم، صدرة [صدرت] هذه البشرى الى الامير الاجل الاسفهسلار الاخص نصير الدين عز الاسلام ادام الله عزه، مما جدده الله من الفتح العظيم والنصر الكريم والعز المقيم، وهو فتح حصن برزية الذى ابتهجت به الالسنة ولهجت بشكر الله به السنه،

(*) كتاب صلاح الدين بفتح عدد من مدن وقرى الشام.

وكانت «استراتيجيته» تنحصر فيما يلى لا صلح مع «الكفار». وقد حظى نائب البابا بمساندة الاساتذة الكبار الثلاثة لجمعيات رهبان الفرسان وبعض القادة الآخرين. فقد بدا لهم التنازل عن القدس غير كاف. وكان بيلاجيوس يعتقد انه ينبغى فتح دمياط باى ثمن كان ثم فتح سائر مصر. وقوبلت مقتريحات السلطان السلمية بالرفض. وحتى الاقتراح بايجاد واعادة قطع «الصليب المقدس» الذى استولى عليه صلاح الدين اعتبره القائد الاعلى غير مقبول.

فى ليلة الرابع الى الخامس من شهر نوفمبر ١٢١٩ احتل الصليبيون دمياط بانقضاض خاطف ونهبوها وغنموا غنائم بلغت، بتقدير جاك دى فيترى، ٤٠٠ الف بيزانط. واثناء الحصار انقرض سكان المدينة عمليا؛ فمن اصل ٨٠ ألف نسمة لم يسلم، كما حسب اوليفر السكولاستى، سوى ٣ آلاف. وفى ٢٤ فبراير هنأ البابا اونوريوس الثالث الصليبيين بالنصر، ولكن الفرح، كما تبين بعد فترة وجيزة، كان قصير الامد.

فبين المنتصرين نشبت الخلافات والمخاصمات. فان يوحنا دى بريان، ملك القدس الرسمى، طالب بضم دمياط الى ممتلكاته. الا ان الكردينال بيلاجيوس، المتغطرس والطموح عارض هذا المطلب. فقد كان يرى انه يجب ان يبقى المكتسب للكورية الرومانية. كذلك لم يكن ثمة اجماع بصدد خطط خوض الحرب لاحقا. فان نائب البابا قد اصر بعناد على نقل العمليات الحربية فى الحال الى اعماق وادى النيل. الا ان هذا الاقتراح الباطل بكل جلاء لم يلق

وسمحت به مع ظن الايام والدهر الاقدار المحسنة، وتنبهت عيون الانام لانارته وزالت السنه، ومكنت من تحصيل المتعذر منه فرصته الممكنة، وهذا هو الحصن الذى اتخذه الدهر له معتصما واليسر الواقع له محتما فلم تثبت دعوة خاطب ولم ينفذ ناره لحاطب، فلما حالوناه [حاولناه] وجدناه لا تعمل فيه الحيل ولا يدور حوله الامل لكن فتحه الله من حيث نحتسب وجعله كسبا لسيوفنا

التعاطف من جانب السواد الاعظم من الفرسان. وقد ادرك اكثر القادة العسكريين رشدا وتبصرا ان القوى لا تكفى الصليبين لاجل هذا المشروع.

شرع بيلاجيوس يفتش بتسرع عن الحلفاء لاجل فتح مصر. بل انه بدأ مفاوضات... مع جنكيز خان التى كانت جحافله قد اقتحمت آنذاك بلاد فارس، مهددة العالم الإسلامى كله، كما كتب ابن الاثير. الا ان الخطر الناجم عن الصليبيين بدا الآن للمصريين اشد بكثير من الخطر الناجم عن الجحافل المغولية الزاحفة. وعندما تلقى الاشرف، حاكم ارمينيا العظمى، فى آن واحد، طلبا بالعون من الخليفة الناصر، ضد المغول، ومن اخيه، سلطان مصر، الكامل، ضد الصليبين، قرر الاشرف انه يجب ان يرسل جيشه ضد الصليبين بالذات.

فى ربيع سنة ١٢٢١، اخذت تصل الى مصر فصائل الحجاج الصليبيين الجديدة، وعلى الاغلب من المانيا الجنوبية ـ لويس، دوق بافاريا، وغيره من الامراء مع فرسانهم. وفى هذه الاثناء استطاع الكامل ان يبنى مواقع محصنة تحصينا منيعا جنوبى دمياط بعض الشىء، قرب مدينة المنصورة. ومع ذلك كرر مقترحاته السابقة للصليبيين بصدد الصلح. فارتفعت بين صفوف العساكر اصوات تشير على القادة بقبول هذه الشروط ولكن نائب البابا ابدى ايضا هذه المرة التشدد. وتلقى السلطان جوابا سلبيا. وعندما عرف الملك الفرنسى فيليب الثانى اوغست الذى كان يتميز عادة بسلامة الفكر فى تقدير هذا الوضع السياسى او ذاك، انه

وفتحناه بالسيف عنوة وذالك يوم الثلثا السابع
والعشرين من جمادى الاخر سنة اربع وثمانين
وخمس ماية ضحوة [١١٨٨م] فيالها من ضحوة
اظلمت على العدو افاقها وانكشف بليل العجاج
اشراقها، فيالها من ضحوة انالت حظوة وجليت
بالحب والحيا للاسلام حبوه ولا شك انه عرف ما
سبقه من الفتوحات وتقدمه والخيرات، وقد بقيت
انطاكيه مقصوصة الجناح ملقاة السلاح ونحن

سنحت الفرصة للصليبيين لكى ينالوا «مملكة مقابل مدينة» وانهم حرموا انفسهم هذه الفرصة، فلم يستطيع تمالكا عن نعتهم «بالاغبياء والسذج».

فى اواسط يوليو ١٢٢١، هاجم الصليبيون المنصورة. وقد حاول الملك يوحنا دى بريان ان يقنع بيلاجيوس مرة اخرى بان تصرفه مجازفة وبانه يجب اعادة النظر فى القرار المتخذ بالهجوم. ولكن كان قد فات الاوان. فان سواد الفرسان المتعطشين الى الغنائم اندفعت الى الامام. وامام انظارهم كانت تتراءى «بابليون» اى القاهرة. ويلاحظ مؤرخ مصرى من ذلك الزمن كتب «تاريخ بطاركة الاسكندرية» هو مؤرخنا ساويرس: «لو ان الملك يوحنا لم يوافق على مواصلة الهجوم، لكان الافرنج قتلوه». ويرى مدون الاخبار الكاثوليكى اوليفر السكولاستى بدوره ان «نصائح الفكر السليم غريبة عن قوادنا».

استمر الهجوم. وفى ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل فيضانا عاصفا، واغرق معسكر الصليبيين. وكان المصريون قد استعدوا لمقابلة الفيضان، فقطعوا طريق التراجع على الصليبيين. وسرعان ما هبطت معنويات عساكر نائب البابا، فولت الادبار بلا انتظام، ولكن القوات المصرية حاصرت العدو من جميع الجهات وامطرته وابلا من السهام نهارا وليلا. وقد اتحدت ضد الصليبيين فى منطقة المنصورة قوات السلطان الكامل وقوات اخويه اللذين قدما

نرجو من الله تيسير فتحها والله تعالى يسعد الامال بنجحها فليعلم هذ البشرى ويشكر على هذه النعمة ان شآ الله.

وهذا الحصن كان كمال فتوح صلاح الدين وبعده لم يفتح شيا اخر من بلاد الافرنج فى ذالك الوقت الذى فتح فيه مدن الساحل، وكان السلطان قد اخذ بيت جبرايل بالامان وكان فيه صاحبه رجلا جليل القدر فى قومه كثير المال واسع

من سوريا، ـ الاشرف، حاكم ارمينيا العظمى، والمعظم، حاكم دمشق. فمن الخيالة مثلا، كان لدى المسلمين ٤٠ الفا.

طلب الصليبيون الصلح. وقد وافق الكامل بكل طيبة خاطر على مقترحات الصلح المعروضة عليه، خلافا لمقاومة اخويه اللذين كانا لا يريدان قبول الصلح قبل انزال الهزيمة التامة بالعدو، وادراكا منه ان خطرا جديا جديدا يخيم ويقترب هو الزحف المغولى. وفى ٣٠ اغسطس ١٢٢١ تم التوقيع على الصلح لمدة ثمانى سنوات. وكان على الغزاة ان يغادروا دمياط. وبسرور نفذ الصليبيون هذا المطلب فى أوائل سبتمبر ١٢٢١ متنهدين الصعداء.

ضاعت دمياط على الصليبيين. وفارق الصليبيون مصر. ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل التام، ومعه تبددت جميع الآمال فى استعادة الأرض المقدسة. ان الرب، كما كتب المؤرخ العربى ابن الاثير، لم يحفظ دمياط للمسلمين وحسب، بل ابقى فى حوزتهم ايضا المدن السورية والفلسطينية واللبنانية. وقد كلفت الحملة الغرب غاليا، وانزل اخفاق هذا المشروع ضربة جديدة بمكانة البابوية.

بعد مرور أقل من عشر سنوات على هذا، بدأت الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ ـ ١٢٢٩). وقد ترأسها الامبراطور فريدريك الثانى هوهنشتاوفن الذى تزوج فى صيف ١٢٢٥ من ابنة ملك القدس يوحنا دى بريان واخذ يطالب بعرش مملكة زالت من الوجود من زمان فى

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

الحال وكان يسما القسطلان واظن ان تفسير هذه الكلمة الوالى وكان له فى بيت جبريل نعم عظيمة واموال كثيرة وجباب كبيرة مملوه زيت طيب وخمر، فلما طلب الامان قطع السلطان عليه قطيعة مال كثير فقومهم على السلطان بمال كثير ودفعهم له فوفا به السلطان منه الجباب الزيت والمال فى بقية القطيعة، وخرج بعد ذالك من البلد بمال كثير ونعم ومواشى ونفوس مماليك وجوار

فلسطين. وقد اراد فريدريك الثانى ان يحقق مقاصده دون ان يسحب السيف من جرابه. فاستغل الحرب بين مصر ودمشق ودخل فى مفاوضات مع السلطان الكامل (١٢١٨ ـ ١٢٣٨)، الامر الذى اثار غضب روما؛ فآنذاك بالضبط، فى اواسط العشرينيات من القرن الثالث عشر، احتدم الصراع بين البابوية والامبراطورية الالمانية بقوة جديدة حول الزعامة فى العالم الاقطاعى. واذا البابا اونوريوس الثالث الذى كان حتى ذاك ينظر بعدم الرضى، ولكن بتساهل مع ذلك، الى التأجيلات العديدة، المتكررة سنة بعد سنة تقريبا، لايفاء فريدريك الثانى بالنذر الصليبى، قد قيّم هذه المرة مسلك هذا الامبراطور بكل قساوة. وفى سياق مواصلة المفاوضات مع فريدريك الثانى بصدد الحملة الصليبية (جرت المفاوضات فى سان دجرمانو بواسطة الكردينال جوجولينو من اوستى الذى صار فيما بعد البابا جريجوريوس التاسع) اتهم البابا المسنّ الامبراطور باهمال «قضية الرب». بل ان اونوريوس الثالث هدد الامبراطور بالحرم وبفرض غرامة قدرها ١٠٠ ألف اوقية من الذهب اذا لم تقم الحملة الصليبية فى آخر المطاف؛ وقد ارجىء البدء بها الى اغسطس ١٢٢٧.

بامر من فريدريك الثانى شرعوا فى ثغور صقلية وايطاليا ببناء السفن. واستأنفت روما الدعوة الى الحرب المقدسة، ولكن دعوتها قوبلت فى كل مكان بما يكفى من اللامبالاة. ولو شاء فريدريك الثانى لما كان استطاع ان يجمع فى الوقت المعين ما يكفى من الناس لاجل

ونساء وحشم فسيره السلطان الى ديار مصر الى
مدينة اسكندرية وكتب الى واليها ياوصية عليه
وحفظه وضيافته مدة مقامه بالبلد وان ينفق عليه
من مال الديوان ويستاجر له المراكب ويزوده هو
ومن معه من مال السلطان الى ان يسير شاكر.
ففعل الوالى والمستخدمين معه كلما امرو به وسار
الى حيث اراد من بلاد الروم. وكان فخر الدين
قراجآ والى اسكندرية يركب اليه كل يوم ويقضى

«البعثة فيما وراء البحار». وفي هذه الاثناء توفي اونوريوس الثالث قبل الموعد المعين بخمسة اشهر.

نحو صيف ١٢٢٧، تجمع بضع عشرات الآلاف من الناس، المجندين بصورة رئيسية في المانيا، وجزئيا في فرنسا وانجلترا وايطاليا، في معسكر بجوار برينديزى، وابحر بعضهم الى صقلية. ولكن الامراض بدأت بالجملة في صفوف العساكر الصليبية التي كانت تعاني من قلة المؤن ومن الحرارة الشديدة. ومرض فريدريك الثاني ايضا. وارجئت الحملة من جديد.

الا ان البابا الجديد، جريجوريوس التاسع، البالغ من العمر ٨٠ سنة (١٢٢٧ ـ ١٢٤١)، وابن عم البابا اينوسنتيوس الثالث، والمتمسك عن قناعة بمثل التيوقراطية البابوية، حرم فريدريك الثاني من الكنيسة بوصفه عدوا غادرا للايمان المسيحي. وتشفيا من البابا، ابحر الامبراطور المحروم في صيف ١٢٢٨ مع فصيلة كبيرة من برينديزى الى سوريا. وآنذاك منع جريجوريوس التاسع الحملة الصليبية كليا. واعلن ان فريدريك الثاني ليس صليبيا بل قرصان، «خادم محمد»، وانه راح الى الشرق، لا لاجل الحرب ضد الاسلام بل لاجل «سرقة المملكة في الارض المقدسة». وكان ذلك، اذا تكلمنا بلطف، موقفا لايدل على الذكاء، اذ انه لم يفعل غير ان قلل من حظ البعثة الصليبية في النجاح واساء الى فكرة الحملة الصليبية، هذه الفكرة التي كانت قد فقدت في الغرب جاذبيتها السابقة. ولم تصبح الحملة الصليبية في يد البابوية

حـوايجه وكـان مع القـسطلان نحـو خـمس مـاية
نفس كـان الوالى يقـوم بهم وينفق عليـهم من مـال
السلطان مـدة مقامهم فى البلد الى ان اسـتاجر له
المراكـب وسيـرهم. فلم يقـعـد هذا القـسطـلان فى
بلاده سـوى سـتـة شـهـور ومـضى الى البـنادقـة
والجنويين والبـيـسـانيين واعـمر مـاية شينى من مـاله
وانفق فى رجالها واخذها وجآ الى صور اجتمع هو
ومـركـيس وباليـان ابن بارزان وابن الابرنس ارناط

سوى ورقة فى لعبتها السياسية ـ اى فى النضال ضد الامبراطورية الالمانية. اما فريدريك الثانى الذى كان يبتغى على العموم اهدافا سياسية محضة، فانه لم يكن يرى من جهته فى الحملة الصليبية سوى وسيلة لبناء دولة آل شتاوفن «العالمية» (ولذا كان يتطلع الى ملوك القدس). وكان الامبراطور يبدى على الدوام اللامبالاة بالمسائل الدينية.

وحين وصل فـريدريك الثـانى الى عكا (وفى الطريق اسـتولى على جـزيرة قبـرص)، بدأ المفاوضات من جديد مع السلطان. وآنذاك كان السلطان فى وضع صعب، لأنه كان يحارب ضد اميرى دمشق (اولا ضد اخيه، ثم ضد ابن اخيه). وعمليا لم يقم الصليبيون اثناء وجودهم فى فلسطين باية عمليات حربية تقريبا، واكتفوا ببعض الغارات. وانتقل مركز الثقل فى النضال ضد «الكفار» الى ميدان الديلوماسية. وفى فبراير ١٢٢٩ تسنى لفريدريك الثانى بعد مناقشات طويلة ان يعقد فى يافا صلحا مع السلطان الكامل لمدة ١٠ سنوات. بموجب معاهدة الصلح، تنازل السلطان عن القدس (باستثناء الحى الذى كان فيه الجامعان الرئيسيان) وبيت لحم والناصرة وجميع القرى الواقعة على الطرق المؤدية الى القدس، وقسم من دائرة صيدا، وطورون (تبنين حاليا) للامبراطور الذى كان من حقه كذلك، حسب اقواله (وهى معروفة من رسائله الى الملك الانجليزى) ان يعزز بعض الحصون والقلاع ويعيد تنظيمها. كذلك تم التوقيع مع مصر على اتفاقيات تجارية مفيدة. وتعهد فريدريك الثانى بدوره بمساعدة

صاحب الكرك ومن حضر من فرسان الساحل وخرجو بالخيل فى البر والمراكب فى البحر وسارو حتى نزلو على تل المشنقة قبالة عكا فى الليل وما اصبح الصبح حتى حفرو عليها ثلثة خنادق واطلقو فيها الماء من النهر الذى هناك فصار ماها يخرج الى البحر المالح وحاطو [أحاطو] بعكا فى رجب سنة خمس وثمانون وخمس ماية[١١٨٩م] وكان والى عكا خادم من استاذين السلطان يسمى

الكامل ضد اعدائه، ايا كانوا، سواء من المسلمين ام من المسيحيين، وضمن للسلطان بان القلاع السورية الباقية فى ايدى الصليبيين ـ كراك دى شيفاليه (قلعة الاوسبيتاليين)، وشاتل بلان، وقلعة طرطوس (وكانت فى ايدى الهيكليين) لن تتلقى اية مساعدة من اى مكان.

بعد شهر، فى ١٨ مارس ١٢٢٩، دخل فريدريك الثانى القدس، ووضع بنفسه على رأسه التاج الملكى فى كنيسة قبر السيد (فقد رفض رجال الدين تتويج الملك المحروم من الكنيسة).

اغتاظ البابا من سياسة خصمه فى الشرق شديد الغيظ (وما فائدة الكنيسة الرومانية من انتزاع قبر السيد من ايدى «الكفار»؟)، فاتهم فريدريك الثانى بخيانة المسيحية. وباشارة من بطريريك القدس، فرض على المدينة المنع (Interdit ـ قرار يمنع ممارسة الطقوس فى مكان معين). ففى جميع الكنائس منعوا ممارسة الشعائر الدينية، ذلك ان امبراطور محروما يقيم فى المدينة المقدسة!

وفى الوقت نفسه، دفع البابا جريجوريوس التاسع فصائله من الفرسان نحو ممتلكات فريدريك الثانى فى ايطاليا الجنوبية. فاسرع هذا فى مغادرة سواحل فلسطين واندفع الى ايطاليا حيث نشب صراع مسلح ضد الحبر الاعظم. منيت قوات البابا جريجوريوس التاسع بالهزيمة؛ وفى سنة ١٢٣٠، الغى البابا، بموجب شروط صلح سان دجرمانو الحرم عن فريدريك الثانى،

جـرديك فلـم يطيق ان يدفـعـهم عنهـا فكتب الى السلطان الى دمـشق يعلمـه بذالك فـجـا السلطان وتواصلت العساكر فنزلو الافرنج وتواصلو من كل مكان كانو فيه واجتمعو جميعهم وصارو عسكر عظيم ولما وصل السلطان الى عكا ومـعـه الملك المظفـر تقى الدين نزل على صـفـوريه وبعـد ايام يسيره وصل مظفر الدين ابن زين الدين صاحب سنجـار الى السلطان وكـان السلطان كل يوم

«خادم محمد» منذ زمن قريب، وصادق فى السنة التالية على معاهداته مع المسلمين، وامر جميع الاحبار وبخاصة الهيكليين والاوسبيتاليين بمراعاة الصلح مع السلطان الكامل.

ولكن النتيجة العملية من الحملة الصليبية السادسة ـ استعادة القدس سلميا ـ لم تدم طويلا. فبعد رحل فريدريك الثانى الى اوروبا، نشبت المخاصمات بين الاسياد فى ممتلكاته الجديدة، الشرقية. وكثيرون منهم استاؤوا من زعامة الامبراطور فريدريك الثانى هوهنشتاوفن، وكانوا لا يريدون الانصياع للسلطات التى اقامها. وبعد فترة وجيزة، دخل الامبراطور من جديد فى نزاع مستطيل مع الكورية الرومانية؛ وصدر حرم باباوى آخر. واستأنف جريجوريوس التاسع الدعوة الى الحرب المقدسة. وهذه المرة كان القصد من الحملة الصليبية ان تكون اداة لنضال الباباوية ضد فريدريك الثانى، وكذلك وسيلة لاملاء الخزينة الباباوية. فقد طالب البابا الكاثوليك بتبرعات نقدية كبيرة. ثم ان الوعاظ الباباويين الذين كان يهمهم، اكثر ما يهمهم، الجانب المالى من رسالتهم، كانوا يغفرون خطايا المتبرعين بالذهب والفضة، الذين كانوا يفدون انفسهم بهذا السبيل من الاشتراك الشخصى فى المشروع الصليبى الجديد.

عارض فريدريك الثانى البابا فى تنظيم الحملة الصليبية. وعندما تجمعت مع ذلك، عند انقضاء صلح السنوات العشر مع مصر، فصائل قليلة من الصليبيين فى ليون بقيادة الملك تيبو دى نافار والدوق هوغ الرابع البورغونى وغيرهما من الاسياد، اعلن البابا جريجوريوس التاسع

يركب يجي الخندق في عسكر كبير يقاتل الافرنج
ثم يعود الى الخيم الى صفوريه بعد ان جعل على
الفرنج ستت الف فارس لا ينزلو عن ظهور خيلهم
لا ليل ولا نهار منهم ثلاثة الف النهار جميعه ترمى
عليهم النشاب وثلاثت الف الليل جميعه ترمى
عليهم النشاب ولم يمر عليهم شهر من الزمان
حتى عملو على حافة الخندق من ناحيت عسكر
السلطان صور طوب لبن ورتبو الرماه تقعد من

ان القدس لم تبق هدف الحملة، وان على الصليبيين ان يساعدوا الامبراطورية اللاتينية. وهكذا زحزحت الاعتبارات السياسية، من حيث الجوهر، الاعتبارات الدينية زحزحة كلية فى اعمال الكورية الرومانية المتعلقة بشن الحملات الصليبية.

وخلافا لنوايا البابا، ابحر القسم الاكبر من الصليبيين فى خريف ١٢٣٩ الى سوريا بدون حماسة كبيرة. ان هذه الحملة الصليبية - وفى عداد قادتها كان كذلك الايرل (لقب انجليزى ادنى من مركيز وارفع من فيكونت) الانجليزى ريشار بلانتاجينيه من كورنويل - لا يدرجها المؤرخون عادة فى سلسلة المشاريع الصليبية الرئيسية (مثلا، «تاريخ الحملات الصليبية» من عدة مجلدات، الصادر فى الولايات المتحدة الاميركية، اولاها اكثر من ٢٠ صفحة بقليل فقط)، لأنها لم تسفر فعلا عن اية عواقب. فان قادة الصليبيين الذين كان يحدوهم التعطش الى الغنائم فقط والذين منوا بعدد من الاخفاقات، قد دخلوا، باصرار من الفرسان الهيكليين، فى حلف مع دمشق ضد مصر، ولكن المصريين هزموهم فى جوار عسقلان (نوفمبر ١٢٣٩) مع قوات حليفهم الذى وعدهم بجملة من التنازلات الاقليمية فى فلسطين. وبعد ذلك احتدمت المخاصمات بين الصليبيين، وبخاصة بين الاوسبيتاليين والهيكليين، بضراوة مزدوجة. فقد عاد ملك نافار وغيره من قادة الحملة الى ديارهم بخفى حنين. وقد استغلت حكومة مصر جميع هذه الظروف بافضل نحو. ففى سبتمبر ١٢٤٤ اشرف الملك الصالح نجم الدين ايوب

خلفه بقسي الزنبورك يرمو بسهم غلظ ابهام رجل
الانسان طوله ذراع وزن نصله خمسون درهما
مضروب مكبب له اربعة اركان مهما وقع فيه
اخرقه وربما نفذ من الشخص الى الذى وراه
فقتلهما جميعاً ونفذ من طواريهما ودرعوهما
وزردهما او غيره وغاص في الارض، ولقد اخبر
عنه من رآه انه نفذ في حجر من حجارة السور الى
رشيته فلما علمو ذالك ما بقى احد من عسكر

(١٢٤٠ ـ ١٢٤٩) مع ١٠ آلاف من الفرسان الخوارزميين على القدس واحتلها، وذبح السكان المسيحيين عن بكرية ابيهم. وهذه المرة انتقلت المدينة برسوخ الى المسلمين.

ومن جديد قلقت البابوية وارتعبت. وبناء على اقتراح من اينوسنتيوس الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤) اصدر مجمع ليون في سنة ١٢٤٥ قرارا بحملة صليبية جديدة. ولكن البابا، مثل اقرب سابقيه، كانت تشغله، اكثر ما يشغله، شؤون الكورية الزمنية اى الحرص على نشر وتوسيع ممتلكات الكرسي الرسولي. وواصل البابا اينوسنتيوس الرابع الصراع ضد فريدريك الثاني. وفي مجمع ليون لعن البابا وحرم من الكنيسة الامبراطور، ونادى بحملة صليبية ضده وضد كل آل هوهنشتاوفن. واستبدل مفوضو البابا المطلقو الصلاحية واجب شن حملة على الامبراطور العديم التقوى بنذر القتال من اجل قبر السيد المسيح. ان الاستغلال السافر لشعار الحملة الصليبية لاجل تحقيق هدف البابوية المباشر لفرض الزعامة والهيمنة في اوروبا، قد رافقه، كما من قبل، ابتزاز الاموال الى ما لا نهاية، علما بان قسما كبيرا من المبالغ المجموعة كان ينصب مباشرة في جيوب الوعاظ انفسهم. كذلك استعمل البابا اينوسنتيوس الرابع التبرعات لاجل تنشيط النضال ضد فريدريك الثاني. واذا اخذنا بالحسبان ان الحركة الصليبية كانت بسبيل الانحسار بصرف النظر عن كل ذلك، اتضح لنا لماذا لم تحرز الدعوة الى الحملة الصليبية نجاحا كبيرا.

٧٣: أبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

السلطان يدنو من الخندق وقسوى امـــرهم، وبنو كنيسة لصلواتهم ومواضع اصطبلات لخيلهم. ولما رتبو اشغالهم اجتمعو ليلة من الليالى واتفقو الصبح يسفروهم قد كبسو عسكر السلطان فقتلو جماعة وقتل منهم جماعة. وهذه نسخة كتاب السلطان لاخيه الملك العادل(*) وهو نازل على حماه بعسكره يعرفه قضية ما جرى بينه وبينهم وكتبه بيده: بسم الله الرحمن الرحيم ان تنصرو

(*) نسخة كتاب السلطان صلاح الدين الى اخيه الملك العادل يعلمه بحصار عكا.

ومن زمان كان الفلاحون قد انصرفوا عن الحركة الصليبية. فان الحوافز السابقة للفرار الى البلدان البعيدة زالت عند الاقنان. الا ان النير الاقطاعى، والحق يقال، لم يصبح أخف. ولكن تأثير الكوارث الطبيعية الفتاك خف مع ذلك نظرا لتحسين المعدات الزراعية، ونشر الدورة الزراعية الثلاثية، واستعمال الاسمدة على نطاق اوسع. وفى اوروبا نشأت المدن وكبرت، وعند الاقتضاء، كان يمكن الاحتماء وراء اسوارها. واستطاعت السلطة الملكية المتوطدة ان تكبح الى هذا الحد أو ذاك جماح تصرفات الاقطاعيين الاعتباطية التى كان سكان الريف يعانون منها فيما مضى. ولم يعد يرى الاقنان اية ضرورة ملحة للبحث عن الخلاص «فيما وراء البحر». واكثر فاكثر اخذ الفلاحون ينخرطون فى طريق آخر هو طريق النضال من اجل الحرية والارض فى ديارهم بالذات.

كذلك لم يعد الفرسان، من جهتهم، يرون اى مغزى فى الحملات المضنية الى الشرق. ومع توطد السلطة الملكية، تواجدت فى بلاطات الملوك اتجاهات ضد سفك الدم فى مشاريع محفوفة بالمخاطر فيما وراء البحار، خصوصا وانها فى خدمة البابوية واهدافها السياسية؟

ان البارونات الانجليز الذين حضروا مجمع ليون رفضوا قطعا الموافقة على الاشتراك فى الحملة الجديدة؛ فان الكورية الرومانية تتلقى من انجلترا قدرا مفرطا من الاموال بصورة «المال

الله ينصـركم ويثبت اقـدامكم والذين كـفـرو
فيشغالهم وابطل اعمالهم، الذى اعرف به المجلس
العـالى الملكى العادلى ادام الله دولتـه انه لما كـان
بكرة يوم الاربعآ الحادى والعشرين من شعبان سنة
خـمس وثمـانون وخـمس مـاية خـرجت جـمـيع
الفرنجيه رجالهم وفرسانهم وساقو من قريب البحر
الى القـضـيب والنهـر وكـان جـمـيع سيـوفـهم الى
صـوب الولد تقى الدين، والميـمنه اخـذت اربعـة

- -

الصليبى» ـ كل سنة كانت الخزينة البابابوية تجبى ٦٠ الف مارك اى اكثر من كل دخل التاج الانجليزى. ومن حيث الجوهر احتج البارونات الانجليز مباشرة على الحملات الصليبية الجديدة التى تنظمها البابابوية. واجاب الملك الانجليزى هنرى الثالث مبعوثى البابا بكل صراحة ان وعاظ الحملات الصليبية كانوا فى احيان كثيرة اكثر من اللزوم يخدعون رعايا التاج الانجليزى وان هؤلاء الرعايا لن يسمحوا بعد الآن بخداعهم!

وحتى بين رجال الكنيسـة الانجليز، ارتفعت اصوات الشك فى صواب الحروب الجديدة فى الشرق. فان اللاهوتى رادولف نيجر قد اعتبر من باب الجنون التدخل فى الشؤون الفلسطينية حين تتعرض المسيـحية فى الغرب بالذات للخطر من جراء انتشار الهـرطقة. اليكم اين كان يكمن بنظره الخطر الرئيسى، وهو خطر افدح بكثيـر بالمقارنة مع ما يجرى فى الشـرق. «فى الوقت الذى يداس فيه الايمان هنا، فى الغرب وضاعت اورشليم السماوية، وتعشش الهرطقة فى كل مقاطعة تقريبـا علنا او سـرا، لأى سـبب يجب على الغرب المنشق ان يساعد الشـرق (المسيحى)؟». ويستطرد اللاهوتى الانجليزى قائلا: اى ثمار من شأن الجهود الرامية الى بعث اورشليم الارضيـة ان تعود بها ما دامت امنا ـ صهيون قد هلكت (ومن جديد يستعمل المؤلف صورة من التوراة للاشارة الى الايمان المسيحى)؟ وكتب رادولف نيجر ايضا: «اى معنى لتحرير

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

اطلاب الفقيه بطلب ومحمد ابن الامير حسين
بطلب والمماليك بطلب وشقة لحقتهم ولزت
[هجمت] الشالاشات والعسكرين، فلما لزيناهم
رجعت جميع الافرنجيه علينا الفارس والراجل
وحملو علينا والتقو اصحابنا الفرنج ردوهم وحمل
الراجل جميعه دفعنا وما برحنا نرد الخيل الى
الراجل والراجل يدفعنا حتى بعدت الخيل عن
الراجل دخل قيمان والحشام ما قصر اكسرو لراجل

فلسطين من المسلمين حين يتجذر الكفر في الوطن؟ لنفترض حتى ان الكفار سيُقهَرون (من جانبنا)، ولكن الإيمان الحقيقي في ديارنا بالذات يتعرض للاهانات!».

ان الحملة الصليبية تبدو حتى في عيني اللاهوتي خراقة تامة.

وهذا الموقف من الشعارات الصليبية التي كانت تنادي بها البابارية لم يظهر في انجلترا وحدها. فان تجنيد الصليبيين، وبخاصة ابتزاز الاموال بلا نهاية لاجل حاجات الحملة الصليبية كما كان يزعم، قد استثار التذمر والاستياء. فيما مضى، في الازمنة الغابرة، كان الشعراء المغنون الجوالون ينشدون الحروب المقدسة، وفيما مضى، كانوا يذمّون اولئك الذين يتذبذبون (أيمضون الى القدس ام يبقون في ديارهم؟).

وقد أثر تأثيرا قويا جدا من مزاج الفرسان وحالتهم الفكرية والنفسية واقع ان الحملات الصليبية قد فقدت بكل جلاء مضمونها السابق، «المثالي»، الذي كان كثيرون لا يزالون يؤمنون بحكم التقاليد في وجوده، علما بان هذا الواقع اخذ يتضح اكثر فاكثر. فان هذه المشاريع قد انحطت امام الابصار، اذ ان البابارية كانت تستغلها بمثابة سلاح سياسي في يدها، لاهدافها السياسية، لاجل اقامة وتوطيد سيادة الكرسي الرسولي، ـ واحيانا في النضال ضد الاعداء الشخصيين، الامر الذي كان يثير الاستياء والغضب واللوم في اوساط الفرسان.

وكذالك الراجل قتل اكثره وعاد الملك المظفر وكسرهم كسرة جيدة، وكذالك ياركوج وكمشيا ورسلان نوعا وابار البرلو والاسديه والشهابيه(*) كانو فى فرد طلب ما قصرو قتلو من الفرنج مقتلة عظيمة وصارة الفرنج ترجع من خلفنا يتلقوهم يقتلوهم ما انفلت منهم احد ولله المنة والحمد فما كان يوم قليل. وما اعرف احد فقد الامجلى رحمه الله استشهد الى رحمة الله وحسين الكردى رايته

(*) الأسدية هم جند اسد الدين شيركوه، والشهابية هم جند صلاح الدين.

واحيانا كانوا ينادون من اجل الصليبيين بمواضيع لا تمت باى صلة الى اهداف الحركة المباشرة، مثلا، صقلية التى حاول البابا كليمنت الرابع انتزاعها من آل هوهنشتاوفن. وكان هذا البابا يعتبر الحرب ضد اخلاف فريدريك الثانى موازية او يكاد للحملة الصليبية لاستعادة القدس. وفى الثمانينيات من القرن الثالث عشر، اعلن الباب مارتين الرابع حملة صليبية ضد الملك بدرو الثالث من اراغون؛ وبعد فترة من الوقت، اعلن البابا بونيفاسيوس الثامن حملة صليبية ضد عائلة كولونا الاريستقراطية الرومانية محولا نزاعا داخليا عاديا الى حملة صليبية.

وبالنتيجة نشأ وتعمق ضرب من تنافر، او توتر، حسب تعبير برسل، بين التصورات المنشورة فى اوساط الفرسان عن الحملة الصليبية بوصفها حربا مقدسة لانقاذ الرب وانقاذ النفس، من جهة وبين تحقيق هذه الفكرة عمليا من جهة اخرى.. ففى الازمنة السابقة كان مفهوم وواقع الحملات الصليبية يتواجدان، على الاقل شكليا، فى تناسق بينهما؛ اما فى القرن الثالث عشر، فقد زال هذا التناسق. فان البابوية، كما كتب برسل، اساءت الى الفكرة التى سبق لها ان تقدمت بها فيما مضى.

انتشرت الشكوك فى شرعية الحملات الصليبية انتشارا واسعا جدا فى اوساط الفرسان. فان الافكار التى بنت البابوية على الوعظ بها فى غضون اكثر من مائة سنة دعواتها الصليبية وقامت بافعالها الصليبية، قد تعرضت مذ ذاك لنقد ماحق، بل ان بعض الفرسان ذهب الى

مجرح مثخن واسماعيل المكلبس مجروح وسلار
ابن حسك هولاء جميع من عرفت ولعل عشرين
غلاما، ولكن قماش الناس نهبه بعضهم بعض وما
قصر اسد الدين اخو عز الدين والمشكور الحسام
وقيماز من الميمنه ومظفر الدين وياركوج والحمله
ما كانة [كانت] الا على وحدى والله اعلم
والسلام. ولما كبسو الفرنج عسكر السلطان على
صفوريه وجرت هذه الامور التى تقدم ذكرها رحل

حد الاعراب عن فكرة مفادها انه من المشكوك فيه على العموم ان يكون من العدل قتل ذوى الاديان الاخرى لمجرد انهم وثنيون؛ وهذا الضرب من الشكوك اعرب عنه صراحة الشاعر المغنى الجوال الالمانى فولفرام فون ايشينباخ فى احدى قصائده.

ونظرا لتدفق «موجة النقد» اضطرت البابوية الى اخذ جانب الدفاع عن المقدمات اللاهوتية لممارستها الصليبية؛ ففى اواسط القرن الثالث عشر كتب الكاردينال اومبرتو دى رومانو، بتكليف من الكرسى الرسولى، مؤلفا ضخما بثلاثة اجزاء خصيصا لاجل دحض جميع الحجج الموجهة ضد فكرة الحملات الصليبية. ولكن اومبرتو دى رومانو وغيره من اصوب اللاهوتيين فى القرن الثالث عشر من طراز غليوم الطرابلسى، كانوا يعتبرون ان الحركة الصليبية فقدت كمالها الداخلى، ولذا رأوا من الضرورى واقترحوا اصلاح قضية تنظيم الحملات الصليبية بحيث لا تستغل شعاراتها فى اهداف «غريبة».

وفى هذه الاحوال، امسى اصعب فأصعب على روما ان تنظم حملات صليبية جديدة. فعندما بلغ البابا اينوسنتيوس الرابع هدفه فى سنة ١٢٤٨ واستطاع ان يستنهض الفرسان للحرب المقدسة، وينظم الحملة الصليبية السابعة، اشترك عدد قليل نسبيا من الاسياد واتباعهم، وكانوا اساسا من فرنسا وجزئيا من انجلترا. ناهيك بان الفرنسيين انخرطوا فى الحملة، بمقدار كبير، تحت ضغط ملكهم لويس التاسع (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠)، الذى سار على رأس الصليبيين.

السلطان من صفوريه نزل وادى الخروبه وكان البرك [الترك] يتردد اليهم نهار وليلا ستة الف فارس يرمى فيهم النشاب ولم يكونو يالو بهم. ولم يزل الحرب قايم بينهم الى ان حشد ملك الالمان(*) ستة ماية الف رمح وجا الى الدروندان وهى الدروب التى يدخل منها الى قونيه وغيرها بلاد الملك مسعود من ملوك الترك واكثر بلاده ورعيته روم رغبو فى سكناهم عنده لعدله وحسن

(*)ملك الالمان هو فردريك برباروسا. يقود الحملة الصليبية الثالثة الألمانيه ضد صلاح الدين بالرغم من العلاقات الطيبة التى كانت بينهما من قبل. وعن هذه الحملة وسيرها من اوروبا إلى الاناضول و الشام فيذكر بعض المعاصرين اللاتين أن العداء بين الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية

بعد مرور ٥٠ سنة، ادرجت الكنيسة الكاثوليكية لويس التاسع فى قائمة القديسين. وبلقب القديس دخل لويس التاسع التاريخ؛ والى الآن لا تزال عبادة لويس التاسع مرعية الاجراء فى الاوساط الاكليريكية فى الغرب. والى الآن لا يزالون ينسبون اليه تقوى خاصة والتعلق بالافكار الدينية الخالصة، ولا يزالون يكرمونه ويبجلونه كملك واصل التقاليد الحقيقية للحملات الصليبية فى مظهرها الاولىّ. وفى سنة ١٩٧٠، احتفلوا فى باريس وروما (فى آن واحد) على نطاق واسع بذكرى مرور ٧٠٠ سنة على وفاة الملك الصليبى الفاجعة (فقد لقى مصرعه أثناء الحملة الصليبية الثامنة، التى سنتحدث عنها ادناه)؛ فقد جرت مؤتمرات علمية، واقيمت حفلات موسيقية تذكارية؛ ومعارض للذخائر التاريخية وعقد المعهد الفرنسى الكاثوليكى فى روايامون مداولة لمناسبة اليوبيل.

فى ٤ يونيو١٩٧٠، عقدت جمعية العلماء التى تهتم بقضايا تاريخ آسيا، جلسة احتفالية فى كوليج دى فرانس لمناسبة اليوبيل؛ وكان موضوع الجلسة «القديس لويس والشرق». وقد اعلنت الوزارة الفرنسية لشؤون الثقافة سنة ١٩٧٠ «سنة القديس لويس» ودعمت كليا مبادرة الجمعية الآسيوية. خلاصة القول انه بذلت جهود متنوعة لاجل تذكير الفرنسيين من الاجيال الحالية بصورة الملك المثالى «النقى»، «التقى»، «الصادق» الجدير باحترام اخلافه، مثال الصليبى من الطراز الباكر، الاولى، الذى لا يسترشد، الا بالدوافع الدينية ـ بافكار تحرير القدس وحمل

سيرته معهم فشق بلاد الملك مسعود وبلاد ابن لاون ملك الار من وعبر على ملوك كثير بالسيف وكثرت الرجال والاموال، وكان يحمل ثقله وزاد العسكر على العجل تجرها الخيل والبغال والبقر وغير ذالك واقام فى بلاده الى ان وصل الى انطاكيه يمشى سنة كاملة. واخبرنا بعض من حضر عسكره انه لما اراد ان يعدى البحر الى قسطنطينيه حشد ملك الروم ومنعه يعدى وانه

الرومانية المقدسة التى كان يتزعمها فردريك. قد زاد العداء بينهما عندما أتفق مع السلطان قلج ارسلان فى «قونية» على مساندته عسكرياً فى حملته على الشام حيث قيل انه أمد فردريك بألف جندى و مائة فارس. ولا شك أن ذلك احنق الامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى انجيلوس (١١٨٥ - ١١٩٥م) بأعتبار أن السلطان قلج ارسلان من أعداء الامبراطورية البيزنطية. ولذلك أرسل الامبراطور البيزنطى فى ٢٥ اغسطس ١١٨٩م رسالة إلى فردريك يرفض عبور قواته الدردنيل حتى يرسل له

«الكفار» على اعتناق المسيحية. وقد كتب البروفسور ستراير من جامعة برينستون: «كان الغرور والسعى وراء النفع غريبين بالقدر نفسه عن طبيعته». ولكن هل يتطابق هذا التصوير مع الواقع التاريخى؟

ان الحملة الصليبية السابعة قد سارت فى اتجاه الحملة الخامسة؛ فقد كانت مصر هدفها المباشر. ففى الغرب ادركوا منذ زمن نجاحات صلاح الدين ان مفتاح القدس موجود فى مصر على وجه الدقة. والملك لويس التاسع لم يكن البتة حالما يسبح بالفكر فى عالم الاوهام. وحملته الصليبية، كما يجمع الباحثون على القول، كانت منظمة افضل من الحملات السابقة. ففى الوقت المناسب، عنى الملك بالاسطول (فقد استأجر ٦٠ سفينة فى جنوه و٢٠ سفينة فى مرسيليا). واستطاع ان يجد ما يكفى من النقود. فبموجب قرار من مجمع ليون، دفع رجال الدين الفرنسيون مبالغ ضخمة ـ على امتداد بضع سنوات (وقد اضطروا الى دفع زهاء مليون ليرة). وفى سياق الحديث عن الحملة الصليبية السابعة، اعرب المؤلفون المسلمون عن الدهشة من ضخامة كمية النقود الذهبية التى جلبها «الفرنسيس» (اى «ملك الافرنج») معه فى الحملة. كذلك فكر لويس التاسع فى ضمان المؤن للصليبيين؛ فقد جمعت فى قبرص احتياطيات من الحبوب والخمور وغير ذلك من المؤن. وبلغ عدد الصليبيين الاجمالى زهاء ١٥ـ٢٥ الفا، وبينهم زهاء ٣ آلاف فارس.

وجد فى البر الذى هو عليه مدينة خراب ذكرو انها كانة [كانت] فى اول الدهر تسمى قسطنطينيه وان هذه الجديدة لما عمرت خربت تلك فنزل عليها واعمرها واقام فيها سنة كاملة يقاتل ملك الروم [اسحاق الثانى انجيلوس] حتى قهره وعدى اليه وحاصره فى مدينة قسطنطينيه وجبى خراجها وخراج جميع مدنها وقراها، واخذ مستغلها فى تلك السنة وتقوى به و سار يطلب الجهاد على

رهائن من قواده وأن يتعهد باعطاء بيزنطة نصف ما يفتحه فى بلاد الشام. ولكن الامبراطور فردريك رفض ذلك واحتل مدينة فيليبولس ومدينة ادريانوبولس، وهنا اسرع السلطان قلج ارسلان وارسل رسالة للامبراطور فردريك يعلنه بانه سيساعده ضد الأعداء وبامداده بالمؤن الوافرة مما اثلج صدر الامبراطور فردريك وشد من عزمه، فاندفع يستولى على العديد من المدن البيزنطية حتى صار قرب أسوار مدينة بيزنطة. وهنا توطدت الصداقة بين صلاح الدين والامبراطور البيزنطى اسحاق الثانى الذى ارسل إليه يشجعه

لقد حدد لويس التاسع ومحيطه اتجاه الحملة اثناء الاقامة المديدة فى قبرص الى حيث اوصلت سفن جنوه ومرسيليا رجال الحملة الصليبية (فقد نزلوا هناك فى ١٧ ايلول - سبتمبر ١٢٤٨ وبقوا حتى ٣٠ مايو ١٢٤٩).

كان لويس التاسع يرفع الصلوات الى الرب العلى بكل حمية واجتهاد وكان يعمد الى جلد نفسه بنفسه من باب التوبة والندم (ولهذا الغرض كان للملك سوط خاص!)، ولكن الاهتمامات الزمنية لم تكن تغيب البتة عن باله. فقد كان سياسيا واقعيا جدا، اعاد تنظيم الادارة بحذق ومهارة فى المملكة الفرنسية بسبيل النمو والرسوخ، ورجلا لا يعرف الكلل، وحافلا بالهمة. وقد حمل البارونات والفرسان على ارتداء البسة الحجاج، وترأس شخصيا الصليبيين لكى يؤمن لفرنسا، عن طريق الفتوحات الجديدة فى الشرق، مواقع اصلب واثبت فى منطقة البحر المتوسط، التى كانت ترتبط بها مدن مقاطعة لانغيدوك التى انضمت مؤخرا، فى سنة ١٢٢٩، الى املاك الملك. ولكن حسابات لويس التاسع ظهرت فى هذه الحالة خاطئة، اذ ان الوضع فى الغرب فى اواسط القرن الثالث عشر لم يكن ملائما للحملات الصليبية الجديدة. وكان الخصام بين الامبراطورية والباباوية يمزق ايطاليا والمانيا، ولذا لم يكن البابا اينوسنتيوس الرابع، ولا فريدريك الثانى، يفكران فى اى دعم جدى لحملة صليبية الى الشرق.

البيت المقدس وجاز على جميع بلدان ملوك الروم والارمن والمسلمين والفرنج بالسيف ولم يقف احد قدامه مع جميع ملوك الدنيا فلما قرب من انطاكيه سار الملك المظفر تقى الدين ومظفر الدين ابن زين الدين سارو من مخيم السلطان الى حلب لكشف اخبار ملك الامان [الالمان] فلما صح عندهم انه نزل على انطاكيه قطعو نهر ما[ء] الطريق الذى يريد يسلكها الى حلب ودمشق وغيرها، يسمى نهر الكلب فغرق جميع الطريق

على احتلال بقية المدن الصليبية بالشام ويخبره بأحوال الحملة الالمانية بقيادة فردريك. ولكن فردريك مارس ضغوطاً عسكرية على الامبراطور البيزنطى وهدده بأحتلال القسطنطينية مما اجبره على عقد اتفاق مهين يعتبر انتصاراً لفردريك وتمكن من عبور الدردينل بجيوشه فى يوم الأحد الخامس والعشرين من مارس ١١٩٠م. ومنذ نزل أراضى الاناضول ناوشته صعوبات كثيرة وتعرض جيشة للبرد والجوع فماتت منه اعداد كبيرة من الجنود وبالرغم من ذلك تمكن من الاستيلاء على مدينة قونية فى

زد على ذلك، كما افاد مؤلف مسلم، ان الامبراطور فريدريك الثانى الذى علم بنوايا القديس لويس وحتى تعاطف معه، حذر الملك الصالح نجم الدين ايوب بالحملة الجارى اعدادها ضد مصر. وبديهى ان الكنيسة الكاثوليكية اتهمت الامبراطور بخيانة القضية المسيحية. ولكن هذه الاتهامات لم تكن ترتكز على اى اساس؛ ذلك انه لم يكن ثمة ما يحمل فريدريك الثانى على فتح عيون المصريين ليروا «سر» اعداد الحملة الصليبية، اذ ان مئات التجار والبحارة من الاسكندرية ممن كانوا يمضون سنويا الى جنوه قد رأوا بام عيونهم ان الاستعدادات تجرى هناك على قدم وساق.

ان الخبر الذى ارسله الامبراطور الى الملك المصرى (اذا كانت معطيات المؤرخ فى هذا الصدد ثابتة) كان بمثابة خطوة ديبلوماسية. كتب فريدريك الثانى الى الملك الصالح: «احترس! اعلم ان الفرنسيين ـ وعددهم ٦٠ الفاـ ينوون ان يفتحوا القدس، وان يستولوا اولا على مصره. وبابلاغ هذا، كان الامبراطور يقصد (على كل حال)، اغلب الظن، ضمان حقوقه فى الشرق، فسعى الى وقاية نفسه من اية تطاولات قد تحدث من جراء الحملة الصليبية. والاكثر احتمالا كذلك، ان فريدريك الثانى اراد ان يحمل لويس التاسع، بصورة غير مباشرة، على الاحتراس: ينبغى عدم الاقتحام والتهور، وعدم اللجوء الى القوة الفظة، بل يجب الاستفادة بدقة من الظروف لاجل التوصل بالوسائل الديبلوماسية الى الاهداف المنشودة. وهذا

فلما وصل اليه الخبر بذالك ركب في المراكب من انطاكيه ومضى فى البحر الى عكا ونزل عند عسكر الفرنج فى تل المشنقة فلما سمع صلاح الدين انه جا فى المراكب هان قدره عنده وطمع فيه وزحف الى الخنادق وقاتل الفرنج وبعد زمان يسير مات ملك الامان [الالمان] ومات ولده [فردريك سوابى] بعده ومات اكثر اصحابه من تغيير الماء والهوى وبقى من اصحابه بعضهم

مايو ١١٩٠ ثم عبر جبال طوروس ووصل إلى نهر سالف فنزل فيه للاستحمام فاصابته رعشة مات بعدها بعدة أيام، فتولى ابنه فردريك السوابى قيادة من بقي من جنود الحملة وهم حوالى خمسة آلاف جندى هم من بقى من الجيش الألمانى والمتحالفين معه والذى كان يبلغ حوالى مائتى الف جندى، حتى وصل إلى انطاكية حيث استقبله اميرها بوهيمند الثالث (١١٦٣ - ١٢٠١م) بالترحاب واعلن ولائه له. وقد اقنع كنراد مونتفران فردريك السوابى بالهجوم على عكا بقواته الباقية ففعل ذلك

يعنى ان الامبراطور حاول ان يدفع الملك الفرنسى على السير فى الدرب الذى سبق ان بنى عليه فريدريك الثانى نفسه علاقاته مع الكامل والد الملك الصالح، وبلغ عليه الكثير. ومهما يكن من امر، يعكس هذا الواقع بنحو معبّر الوضع الدولى فى الغرب عشية الحملة الصليبية.

كذلك لم يلاحظ ميل خاص، شديد، في البلدان الاخرى الى الاشتراك فى هذه الحملة. وقد سبق ان اشرنا الى الموقف السلبى الذى وقفه الملك الانجليزى هنرى الثالث. ثم ان العداوة بين البارونات والملك حالت بدورها دون تضافر الجهود فى انجلترا الاقطاعية. وبقيت اسبانيا فى معزل عن الشؤون الشرقية، اذ كانت، كما من قبل، تواجه مشاكلها الخاصة. واكتفى ملك النروج هوكن الخامس بالوعود الفارغة.

وهكذا لم يكن لويس التاسع مع حملته الصليبية بالفعل سوى اداة فى يد الكرسى الرسولى الذى كان لا يزال يحوك مشاريعه التيوقراطية الكلية ويجددها ويحاول تحقيقها. وان العالم الفرنسى المعروف فى الشوون البيزنطية ليمرل الذى قدر على العموم نشاط لويس التاسع كرئيس دولة رفيع التقدير، قد كتب فى تقييم سياسته الشرقية: «انا لست واثقا من ان لويس التاسع ابدى فى هذا الصعيد ايضا صفات ابرز ملك فى الغرب الاقطاعى».

ولهذه الشكوك تتوفر بالفعل مبررات جدية. فان الحساسية الواقعية قد غابت عن لويس التاسع فى مشاريعه الصليبية. فان الملك ومستشاريه كانوا يجهلون ما يجرى فى الشرق، بل

اختلطو بعسكر الفرنج وخمد ذكره وبطل امره وكاانه لم يكن فسبحان الله الدايم الحياه بعدان كانو ملوك الدنيا قد لاذو من خوفهم منه، امنو وفرحو بوفاته، وكان وصوله الى تل عكا في شهر رمضان سنة ست وخمسين وخمس ماية وكانو الافرنج في تلك السنة قد عملو ثلثة ابراج خشب وزحفوها للقتال وكملوها بجميع ما يعمل فيها وقدموها حتى الصقوها بصور عكا وكان صلاح

بعد أن انضم إلى قوات صليبية أخرى ولكنه توفي في ٢٠ يناير ١١٩١م = ٢٢ ذى الحجة هـ وتفرقت البقية الباقية من الجنود وكان هذا نهاية للحملة الألمانية على الشام.

انهم كانوا لا يعرفون البتة اى شيء عنه. فان اسم «بيزنطية» لم يرد ولو مرة في سيرة حياة لويس التاسع التي وضعها فيما بعد جان دى جوانفيل، الذى كان قريبا منه!

اما فيما يخص المغول الذين كانوا في ذلك الزمن بالضبط يوسعون فتوحاتهم في آسيا، فان معلومات طفيفة جدا كانت تصل عنهم سواء الى باريس ام الى عموم اوروبا الغربية. وكانت آسيا تتراءى للاوروبيين الغربيين بصورة مائعة، وكانت تصوراتهم عنها شبه خيالية. وحتى الراهب الرحالة الفرنسيسكاني جوفاني دل بلانو كاربيني الذى توغل في اعماق آسيا بتكليف من البابا اينوسنتيوس الرابع (فقد مضى الى هناك قبل مجمع ليون بزمن قليل وعاد الى ليون في نوفمبر ١٢٤٧)، قد اسهب في الحديث في يوميات سفره عن مملكة اناس ذوى رؤوس كرؤوس الكلاب، خلاصة القول انه ملأ اوصافه باختلافات باطلة. ومن الممكن ان يكون لويس التاسع ايضا قد اطلع على حكايات دل بلانو كاربيني.

ومهما يكن من امر، لم يحاول الملك الفرنسي، هذا الصليبي «النقى» «التقى»، ان يحمل المسلمين على مقاتلة المسلمين (المماليك في مصر على مقاتلة الايوبيين في سوريا) وحسب، بل حاول ايضا ان يعقد ضدهم احلافا... مع المغول. فقد كان يأمل، على الارجح، في توطيد اركان الممتلكات الصليبية بهذا السبيل.

الدين قد اخرج جرديك الاستاذ من عكا وسلمها لخادم اخر يسمى قراقوش(*) ونعته بها [ء] الدين وكان خبير فى عمارة الاسوار وهو الذى اعمر سور القاهره واداره عليها ومده الى المقسم [المقس] الى ان جعل بحر النيل من داخل السور ثم مده الى الجبل المقطم طالع الى مصر الى ان جازها داخل السور وبنا قلعه على القاهره فوق راس الجبل خارج المدينه من قبليها ونقر فيها جب للما بالازميل

(*) قراقوش: الخصى التركى نشأ فى خدمة صلاح الدين الأيوبى. ينسب إليه مسؤلية متابعة بناء سور القاهرة الإيوبى وقلعة الجبل (قلعة صلاح الدين). ولاه صلاح الدين على عكا عندما اخذها من الفرنج، ثم لما عادوا و احتلوها اسروه فافتكه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار. تنسب إليه أحكام غريبه نظم بعضها أبن مماتى (الكاتب المصرى مسؤل ديوان الجيش والمال فى عهد صلاح = = الدين) فى كتابه المشهور

فى اواسط القرن الثالث عشر، عندما تقرر مصير الشرق فى سياق الفتوحات المغولية، عوّل حكام عدد من الدول المسيحية فى القسم الشرقى من البحر المتوسط، بما فيها دول الصليبيين المتبقية، على المغول بالفعل؛ فقد عقدت كل من مملكة ارمينيا الصغرى (قيليقيا) وامارة انطاكية اتفاقية مع المغول. وقرر لويس التاسع ايضا ان يسير على منوالهما. وعملا بنصيحة ملك قبرص هنرى دى لوزينيان (١٢١٨ ـ ١٢٥٣) الذى عرف بهاتين الاتفاقيتين، قرر لويس التاسع هو ايضا الاتصال مع الغزاة المغول. الا انه سار فى طريق مطروق؛ واول من سار فى هذا الطريق من الغرب لم يكن غير البابا اينوسنتيوس الرابع الذى سبق له ان سعى وراء التحالف مع المغول. ولهذا الغرض أرسل الى الخان الاعظم للقبيلة الذهبية (مملكة اسسها المغول. وكانت تشمل سيبيريا الجنوبية وجنوب روسيا. زالت فى القرن الخامس عشر) جوفانى دلا بلانو كاربينى. وفى سنة ١٢٤٧ ارسل البابا الى آسيا، لاجل عقد حلف مع المغول، بعثة اخرى برئاسة الراهب الدومينيكانى انسلم اسيلين، ـ وهذه المرة الى القائد العسكرى المغولى بيدو. وكانت الذريعة الرسمية لارسال هاتين البعثتين «اطلاع الوثنيين على الدين المسيحى». اما من حيث الجوهر، فقد كان المقصود التقارب مع الحكام المغول لاجل انقاذ بقايا السيادة الافرنجية فى الشرق ـ اى الامبراطورية اللاتينية التى كان يهددها اليونانيون والاتراك. كذلك كان البابا يعلق الآمال على ان يكتسب فى شخص «الانجاس» حليفا ضد الامبراطور الالمانى

«الفاشوش فى حكم قراقوش». و يقول ابن مماتى فى سبب تأليفه لهذا الكتاب انه قصد به السلطان صلاح الدين، عسى أن يريح منه (أى قراقوش) المسلمين.

الحديد من فوق الجبل الى اسفله حتى وصل الى الما تقدير مايتى ذراع وعمل فيها صهريج يملاه من مصانع [سواقى]عملها خارج من القلعه وفى مده يسيره ادار على القلعة سور وابراج واعمال يفنى الزمان ولا يكاد ان يفنا، ولاجل خبرت صلاح الدين به سلم له عكا وكان مديرها قبالة الفرنج، فلما وصلو الابراج قريبا من السور وطلعو الفرسان عليها وشدو الحروب عليها وكشفوها

فريدريك الثانى، وان يتمكن ايضا من اقامة وتوطيد سيادة الكورية الرومانية فى الاراضى الروسية التى وقعت مؤخرا تحت النير المغولى.

ان لويس التاسع الذى انطلق فى حملة صليبية واقام اتصالات مع المغول قد تصرف، اغلب الظن، بالاتفاق مع البابا. ففى ٢٠ ديسمبر ١٢٤٨، استقبل فى قبرص الرسل المغول. وقد طرح الملك، بحضور اعضاء مجلسه، الكثير من الاسئلة على القادمين المجهولين، دون ان يخطر فى باله، اغلب الظن، ان بعثتهم كانت تتسم بطابع استكشافى صرف، رغم انهم انحنوا حتى الارض امام ملك فرنسا. ان واحدا من اقرب كبار رجال الكنيسة الى الملك ـ هو اودو دى شاتورو ـ قد نصح الملك، بدوره، بالجواب عن رسالة الخان الديغاى. وقبل الملك النصيحة؛ ففى اواخر يناير ١٢٤٩، راحت بعثة فرنسية مؤلفة من ثلاثة رهبان دومينيكيين (برئاسة اندرى لونجومو)، واكليريكيين وفارسين الى مقر قيادة الخان الاعظم. وفضلا عن رسالة الملك المتضمنة اقتراحا باعتناق الدين المسيحى، حمل الرسل الفرنسيون الى المغول الهدايا، ومن بينها «كنيسة صغيرة» ـ اى خيمة كبيرة طرزوا عليها بحذاقة وتفنن مشاهد من حياة يسوع المسيح.

ومع اجراء المفاوضات بصدد اعتناق المغول للدين المسيحى، حاول لويس التاسع، مثل البابا، ان يوجه قوى المغول ضد المسلمين وضد امبراطورية نيقية.

بالنشاب وكاد المسلمين ان يسلمو لهم عكا حضر
رجل يعرف بابن النحاس من اهل بغداد الى عند
بها [ء] الدين قراقوش وقال له انا بسعادة المولى
صلاح الدين احرق هذه الابراج فقال له بها الدين
ايش تعمل قال اصنع نفط كما اعرف واضرب به
الابراج احرقها ولو ضربت به جبل حديد احرقته
فقال له اعمل ما تريد ثم دفع له مايتى دينار
فمضى وعمل ثلثة قدور نفط وضرب بها الثلثة

وغنى عن البيان ان آمال لويس التاسع انقلبت الى وهم باطل تماما. فعندما وصل لونجومو ورفاقه الى المكان المقصود خلال سنة أو يكاد، بعد ان عبروا كل آسيا الوسطى (هكذا يروى جان دى جوانفيل عن ذلك)، اتضح ان ديبلوماسية ملكهم الحكيم مبنية على الرمال؛ فان المغول لم يكونوا يعتزمون اعتناق الدين المسيحى، وليس هذا وحسب، بل طالبوا كذلك من جهتهم لويس التاسع... بالخضوع. ولكن الملك لم يعرف بهذا المطلب الا بعد مرور وقت طويل، اذ انه لم يتقابل مع اندرى لونجومو الا فى سنة ١٢٥١. ونحو ذلك الزمن، كانت الحملة الصليبية قد جرت وانتهت بالفشل التام.

وقد تطورت الاحداث كما يلى.

فى اوائل يونيو ١٢٤٩ نزل الصليبيون فى مصب نهر النيل، واشاعوا الذعر بين سكان دمياط واحتلوا المدينة عنوة وعمليا بدون اى قتال جدى، وغنموا غنائم وفيرة. ولكن الغزاة لم يستغلوا الوضع الملائم، وتوقفوا خمسة اشهر ونصف شهر فى دمياط. وكان حكام مصر يعتقدون انه سيتأتى للصليبيين ان يحاصروا المدينة زمنا طويلا، ولذا قوى سقوطها السريع حالة الذعر فى بلاط الملك المحتضر الصالح. وبعد مناقشات مديدة ناجمة عن كون قسم من القادة العسكريين الصليبيين قد اقترح الزحف على الاسكندرية، حاصر الفرسان قلعة المنصورة،

ابراج فاحرقها واحرق فيها ما تقديره ست ماية لابس [جندى] كانو فوقها من كبار ابطال الفرنج وكان يوم صعب على عسكر الفرنج وفرح وسرور عند ملة المسلمين الحاضر منهم والغايب والقريب والبعيد لان الفرنج قد اشرفو على اخذ البلاد. ثم بعد حرق الابراج عملو الافرنج منجنيق على بسطة كبيرة جدا وطلع فيها رجال كثير مقاتله وسارو بها حتى الصقوها الى سور عكا من ناحيت البحر

واستولوا عليها فى اوائل فبراير ١٢٥٠. وساعدتهم الخيانة. واستشهد الآمر المصرى فخر الدين.

ولكن سرعان ما افلح المسلمون فى حصر الغزاة فى المدينة؛ فقد رأى الغزاة امامهم جيشا لجبا على رأسه الملك المعظم طوران ـ شاه (١٢٤٩ ـ ١٢٥٠) الملك الاخير من سلالة الايوبيين. وقد لقى كثيرون من الفرسان الصليبيين ممن لم يتسنّ لهم اللجوء الى القلعة مصرعهم. وسقط بضع مئات من المقاتلين الصليبيين اثناء القتال، وبينهم اخو الملك، الكونت روبردارتوا.

ان الصليبيين، كما اتضح الآن، قد احرزوا نصرا على طريقة بيروس (اى نصرا كلّف غاليا جدا)، باحتلالهم المنصورة. فان هذا النصر قد اضعفهم غاية الضعف. وبعد فترة من الوقت اغرق المصريون الاسطول الصليبى الذى كان يرسو قرب المنصورة، وقطعوا طريق الفرسان مع دمياط التى كانت قاعدة لتموينهم. وتحت طائلة الموت جوعا اسرع الصليبيون فى الجلاء عن المنصورة؛ فقد فروا منها برا وبحرا ونهرا وكان العدو يطاردهم ويفتك بهم. وقد زال جيشهم من الوجود كقوة مقاتلة. ووقع فى الاسر آلاف الفرسان وحملة سلاحهم. وفى عداد الاسرى كان لويس التاسع ذاته مع اخويه. وسرعان ما صار المقاتلون الصليبيون الاسرى ضحية الامراض ـ الملاريا والزحار (الدوسنطاريا) والاسقربوط (الحفر). وقد ضعف الملك، كما تشهد

وكشفو الرماه من فوق السور بالنشاب منها وصار المنجنيق الذى فيها يضرب فى البلد فخرج ايضا ذالك النفطى ابن النحاس واحرق البسطة فاحترق كثير ممن كان فيها من مقاتلة الفرنج. ثم عملو الفرنج بعد حرق البسطة كبش حديد مركب على خشب عظيم جدا وصفحوه والبسوه حديد وعملو له راس لدكس [لدك] السور تقدير عشرين قنطار من حديد(*) ودكسو به السور فرمو منه بدن كبير

(*) القنطار = ٤٤,٩٢٨ كيلو جرام اى حوالى ٤٥ كيلو × ٢٠ = ٩٠٠ك. جرام.

المصادر، الى حد ان اسنانه اخذت تسقط، بل انه تعين حمل الملك على حمالة، كما يفيد مدون سيرة حياته غليوم دى ناجى، لاجل قضاء حاجته. وفى مايو ١٢٥٠، اخلى سبيل لويس التاسع لقاء فدية ضخمة (٨٠٠ الف بيزنط او ٢٠٠ الف ليرة) وشرط ان يغادر الصليبيون دمياط. ووصلت بقايا العساكر الصليبية الى عكا كيفما اتفق.

خلافا لرأى البارونات الذين نصحوا بالعودة الى الوطن (وهكذا فعلوا باغلبيتهم)، قرر لويس التاسع ان يواصل الحملة الصليبية، وبقى فى فلسطين اربع سنوات. وارسل الى فرنسا رسائل تحمل دعوات الى التحرك فى ربيع ١٢٥١ من اجل مساعدة الملك ضد «الكفار». ولكن الكونتات والدوقات والبارونات والفرسان تجاهلوا هذه الدعوات. فقد كفاهم الدرس الذى تلقوه فى مصر.

ترددت دعوة الملك فى صفوف الشعب الفرنسى، ولكن هذا الصدى لم يكن ذاك الذى كان يأمل فيه لويس التاسع. فان الوعظ بالحملة الصليبية اعطى ذريعة لانتفاضة قوية ضد الاقطاعية قام بها الفلاحون وعامّة المدن. وقد كان للخطابات التعصبية التى القاها واعظ مسنّ سمّاه مدونو الاخبار «المعلم من المجر» تأثير كبير جدا فى بسطاء الناس. ومع الدعوة الى الحرب ضد «الكفار»، طور الفكرة القائلة ان الرب امر بعدم الشفقة على الفرسان المغرورين،

فخرجو اليهم المسلمين من عكآ قاتلوهم فاشتد الحرب بينهم وقتل من الفريقين جماعة كبيرة فخرج ايضا ذالك النفطى واحرق الكبش الحديد. ولواخذت ان اشرح ماجرى بين المسلمين وبين الفرنج على عكا وغيرها فى كل يوم وكل ساعة وكل شهر وكل سنة فى ذالك الوقت الذى فتح فيه صلاح الدين البيت المقدس وما هلك عليه من الامم وتفانى عليه من الخلايق وافنى عليه من

اى ان انقاذ القدس هو شأن الفقراء. ونحن نعرف ان شعارات مماثلة قد انتشرت ذات مرة بين فقراء الريف؛ وكان ذلك فى سنة ١٢١٢.

تقبل الجمهور على طريقته مواعظ «المعلم من المجر» وغيره من الوعاظ الشعبيين. ذلك انهم كانوا يؤكدون على ان الرب العلى لا يميل الى الاعيان ولا يحسن اليهم، ويشهّرون ببخل رجال الكنيسة وجشعهم. ولهذا اتجه غضب الفلاحين وفقراء المدن، لا ضد «اعداء الايمان المسيحى» البعيدين، بل ضد اسيادهم وحماتهم من رجال الدين. ومن مقاطعات فرنسا الشمالية حيث وعظ فيما مضى بطرس من مدينة ايمان، تحرك نحو باريس ومنها الى اورليان عشرات الآلاف من الصليبين الفقراء. لم يتحركوا لانقاذ قبر السيد المسيح، بل انتقلوا الى الجنوب جموعا كبيرة، فاتكين فى الطريق بالناس الميسورين، والكهنة والرهبان. وقد اشترك فى الانتفاضة الفلاحين (الجاكرى) فى مقاطعة ايل دى فرانس عام ١٣٥٨. وقد بينت هذه الانتفاضة ان الدعاية للحملات الصليبية لم تصبح عقيمة بالنسبة للاقطاعين وحسب، بل امست كذلك خطرة اجتماعيا لأنها تستتبع امكانية نشوب تمردات «الرعاع».

عبثا انتظر لويس التاسع فى فلسطين الامدادات، فغادر عكا فى ابريل ١٢٥٤ وعاد الى فرنسا.

منذ الخمسينيات من القرن الثالث عشرى، اخذت مستعمرات الصليبين فى سوريا ولبنان

الاموال وذهب بسببه من النفوس لطال الشرح وعظم الوصف والانتظار واقع لما يتجدد بسببه في كل زمان. وقد تقدم في السير الاولين فيه ماهو اعظم من هذه السيرة وتفانت [قتل] عليه من الامم ما هو اكثر من هذه الرقم، ولم تزال هذه صفته ما دامت ايام الدنيا، كل امه ترتكب فيه الفساد وتعمل بضد شروطه يرسل الله عليها امة غليظه لا ترحم ولا تشفق تخرجها منه بالسيف والسبى

وفلسطين، التى كان يمزقها الصراع الاجتماعى والسياسى الداخلى المتوتر، تبدى المزيد والمزيد من العجز امام اعدائها فى الشرق ـ السلجوقيين والعرب والمغول. وفى اواخر الخمسينات انزل المغول هزيمة شنعاء بالخليفة البغدادى، وامتلكوا ـ لزمن غير طويل، المقاطعات الداخلية من سوريا. اما الخطر الرئيسى على الصليبيين، فقد كانت ترتسم معالمه من جهة مصر، حيث وصلت الى الحكم فى سنة ١٢٥٠، بعد اغتيال المعظم طوران ـ شاه، سلالة جديدة هى سلالة المماليك. وكانوا يسمون بالمماليك المقاتلين الذين كان يتألف منهم منذ زمن الملك الصالح نجم الدين ايوب (١٢٠٧ ـ١٢٤٩) معظم الجيش المصرى. وكانوا من حيث انتماؤهم الاثنى من البولوف. وكانوا يترحلون فى السهوب المشرفة على البحر الاسود؛ وقد وقع عدد كبير منهم فى اسر المغول، فباعهم هؤلاء عبيدا من التجار الايطاليين، ثم باعهم هؤلاء من جديد فى مصر. وتدريجيا ارتفع الآمرون المماليك الى وضع الشريحة السائدة فى صفوف الاريستقراطية الاقطاعية. وممثلوها هم الذين قاموا فى سنة ١٢٥٠ بانقلاب فى البلاط، حملوا به الى الحكم ملكهم المعزّ ايبك (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧) الذى بدأ منه بالفعل حكم سلالة المماليك.

استطاع المماليك ان يستبعدوا الخطر المغولى عن البلاد. فقد اوقفوا طليعة الجحافل المغولية فى سبتمبر ١٢٦٠ فى معركة عين جالوت. وكان بطل المعركة رئيس الحرس الملكى الذى

والجوع والحصار ونهب الاموال وبيع الاولاد والحريم لان الله قال عنه في التوراه: اني اخترت هذا البيت ليذكر فيه اسمي من جميع الدنيا واخترت داوود ملكا من جميع ملوك الارض. وعلى هذا الحكم يريد الملك الذى يكون البيت تحت سلطانه ان يكون فيه من الطهاره والعدل وصلاح السريره وملازمة الصلوات والصدقات مثلما كان في داوود ولاجل ذالك اقام ملكا عليه وساكنا فيه اربعون

ترقى في البلاط، العبد السابق، الظاهر ركن الدين بيبرس بندقدارى. وفى سنة ١٢٦٠ صار ملكا. وفي عهده قويت مصر كثيرا. وكان بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) يعتبر نفسه باعتزاز صلاح الدين الثاني. وقد وحد الملك الجبار، الذى سار على خطوات سلفه الشهير، مصر وسوريا. واعاد بناء الحصون، وملأ مستودعات الاسلحة، وبنى اسطولا كبيرا، وضبط المواصلات البريدية المنتظمة. وبعد ذاك، وجه بيبرس همته ضد الافرنج. وكان قد تقرر وضع حد لبقايا ممتلكاتهم في سوريا ولبنان وفلسطين. وفى سنة ١٢٦٥ استولى على قيسارية وارسوف، وفي سنة ١٢٦٨ على يافا، وبعد شهرين ـ في مايو على انطاكية، اغنى مدن الصليبيين. كانت سيادة الافرنج في القسم الشرقى من البحر المتوسط تقترب بكل جلاء من نهايتها.

«انتزاع تونس من المسلمين»

في صيف ١٢٧٠ قامت حملة صليبية اخرى، كانت الحملة الاخيرة. وقد قام بها البارونات والفرسان الفرنسيون. وكان عددهم قليلا جدا؛ اذ قل من كانوا يفكرون آنذاك في استئناف الحروب في الشرق التى منيت بالفشل بكل جلاء والتى انحطت سمعتها كليا.

وهذه المرة ايضا كان الملك الفرنسي لويس التاسع، او القديس لويس، حليف البابوية القديم، والذى سبق له ان احرق اصابعه مرة في مغامرة صليبية، صاحب المبادرة الى الحرب

سنة ولم يكن فى هذه المدة غلا ولا حرب ولا وبآ
الا من قضيت امراه [قضية أمرأة] اوريآ يوم واحد
ثم تاب داوود فقبله الله ورفع الموت عن الامه
وعاش داوود بقية عمره مرتعش اليدين لما راى
ملاك الله وبيده السيف وهو يقتل. وهذه القضية
مشروحة في كتاب اسفار الملوك، ونحن لما نقصده
من الاختصار ونذكر ما تيسر ونترك ما سواه وقد
يكون غيرنا اهتم بذالك وعلم من الاخبار وشاهد

المقدسة وقائد هذه الحرب. كان هذا الملك عنيدا ومثابرا فى بلوغ اهدافه السياسية، تقيا بنحو تعصبى اعمى، وكان يحيط نفسه بمستشارين من الرهبان الدومينيكان؛ وقد اعلن للبارونات عن عزمه، الذى كان يضمره من زمان، فى ٢٥ مارس ١٢٦٧، فى كنيسة سان شابيل فى باريس. وقد رأى الاسياد فى الكنيسة ذخائر من «الآلام الربانية» وسمعوا من فم الملك بالذات انه سيأخذ الصليب. وان جان دى جوانفيل، مؤرخ سيرة حياة لويس التاسع، الذى كان من رجال البلاط، والذى عاش مع الملك جميع تطورات حملته المصرية، يروى ان نبأ الحملة الصليبية الجديدة كان مفاجئا للغاية بالنسبة له شخصيا وبالنسبة للاشخاص الآخرين المقربين من الملك، وانه اذهل البارونات.

لماذا اختاروا تونس بالذات هدفا؟ عن هذا يفيد بالتفصيل شخص اشترك فى الاحداث هو معرّف الملك، الدومينيكانى جوفروا دى بوليه، الذى رافق الملك فى الحملة. فهو يورد اساسا دوافع دينية محضة ألهمت، على حد زعمه، الملك الفرنسى. فقبل بداية الحملة الصليبية، تبادل لويس التاسع، حسب رواية دى بوليه، الرسل مع «ملك تونس» المستنصر، الذى كان على استعداد، كما اوحى الرهبان الدومينيكان، «الجديرين بالثقة»، للويس التاسع، لاعتناق الدين المسيحى بكل طيبة خاطر اذا كان فى وسعه ان يفعل ذلك دون ان يتعرض لنقمة مواطنيه المسلمين. وحسب رواية جوفروا دى بوليه كان لويس التاسع يفترض هو ايضا ان

من الامور مالم نشاهده ولا علمنا وانما اعلمنا اخوتنا بما وصل الينا علمه على قدر ما يسره الله لنا ومنّ به علينا. ولم يزل الحرب بين الفرنج والمسلمين الذى فى عكا متصل الليل والنهار وكل منهم لاياخذه عن الحرب قرار منذ نزولهم عليها فى شهر رجب سنة خمس وثمانون وخمسماية الى جمادى الاخر سنة سبع وثمانون وخمسماية[١١٨٩ إلى ١١٩١م٩٠٦ إلى ٩٠٧

يجمد قوات المسلمين بهجومه المفاجىء على تونس، ويؤمن لامير تونس ومقربيه امكانية اعتناق الدين المسيحى بلا عائق، وبدون التعرض لاى خطر.

بعد مرور مئات السنين تلقف بعض الباحثين الفرنسيين من ذوى الميول المحافظة رواية جوفروا دى بوليه الذى اكد بكل الوسائل على الاعتبارات الدينية التى قامت، حسب زعمه، فى اساس الاختيار الستراتيجى. وبعض منهم لا يزالون يدافعون الى اليوم عن هذه الرواية، مفتشين عن الجديد تلو الجديد من الذرائع فى صالحها. فان المؤرخ الفرنسى المعاصر لونيون، مثلا، الذى يتبنى رواية جوفروا دى بوليه بكل حماسة، يصور لويس التاسع بصورة ملك ـ مرسل، يتحرق، اكثر ما يتحرق، الى استمالة المستنصر الى الدين المسيحى، والى تأمين انبعاث الدين المسيحى وانتصاره فى بلد عاش فيه ووعظ فيما مضى احد آباء الكنيسة، القديس اوغسطينوس (٣٥٤ ـ ٤٣٠).

اما فى الواقع، فان مدونات جوفروا دى بوليه تتضمن اوصافا اكثر واقعية بكثير لتلك الدوافع التى دفعت الملك لويس التاسع او القديس لويس الى تحريك اسطوله نحو تونس؛ فان الرهبان الدومينيكان الذين كانت لهم ارسالياتهم هناك قد اقنعوا الملك بانه من السهل الاستيلاء على تونس، وابلغوا لويس التاسع كذلك عن الثروات الطائلة فى مدينة تونس، وقالوا له انه يمكن استعمالها لاجل استعادة الارض المقدسة، وان ملك مصر ذاته يغرف من تونس مقادير كبيرة من الاموال؛ فمنها يرسلون الى القاهرة الخيالة والاسلحة.

قبطية] وصل ملك فرنتسيس [فرنسا](*) بجنوده في تقدير ماية بطسة وشيني(*) الى عكا ونزل مع عسكر الافرنج واتفق معهم وتجدد القتال عليها وكان صلاح الدين قد اخرج العسكر القديم منها ودخل لها بعسكر جديد فيه جماعة من الامرآ الكبار المعروفين منهم سيف الدين على ابن احمد مقدم الاكراد، وعلم الدين ارسل، مقدم المماليك الصلاحية والاسدية، وابن سيف الدين الجاولى

(*) ملك فرنسا في هذا الوقت هو فيليب.

(*) بطسة وشيني: نوعين من السفن التجارية تستخدم وقت الحرب في نقل الجنود والتموين والدواب. والبطسة كانت معروفه للصليبين و المسلمين، وكانت تستخدم كذلك في شحن آلات الحرب، وتحمل حوالى ثلثمائة مقاتل.

- -

اغلب الظن ان هذه الذرائع بالذات هي التى كانت في المقام الاول السبب الذى حمل الملك على توجيه السفن من كالابرى الى سواحل تونس. ويجب الظن ان زعماء الحملة استخلصوا الدروس من اخفاقات الصليبيين السابقة؛ فان الهجوم المباشر على مصر مشروع لا امل في نجاحه، فلم لا يحاولون العمل بطريق غير مباشر، ببدء النضال في سبيل القدس من اخضاع تونس حيث سيكون من الممكن انشاء رأس جسر لاجل بلوغ الهدف الرئيسي؟

يتبين من الوثائق المحفوظة ان لويس التاسع اعلم شارل الاول بمقصده. وقد فعل ذلك قبل المجلس في كالابرى؛ وفي ١٣ يوليو، امر شارل الاول، اثناء وجوده في باليرمو، بشراء الفي قالب من الجبنة في ابولى ونقلها الى مرفأ ترابانى في صقلية «لاجل سفرنا البحرى الموفق من صقلية الى تونس». وفي اوامر اقدم عهدا مؤرخة في مايو ـ يونيو ١٢٧٠، ومرسلة الى نابولى، طالب شارل الاول بشراء الفي رأس من الخنازير و٦٠٠ بقرة وخروف في كالابرى وشراء الخبز في ابولى لاجل تأمين كل هذا بوفرة للملك لويس التاسع. الا ان تونس لم ترد في هذه الوثائق بوصفها هدف الحملة: فقد تناول فيها الكلام ببساطة عن بعثة «فيما وراء البحر». وفي ٢١ يوليو، منح شارل الاول تجار مملكته الحق في تصدير احتياطيات المآكل بدون رسوم الى «ملك فرنسا الذى سيمضى بحرا الى تونس لعزمه على انتزاع هذه الارض من المسلمين».

ولكن ملك نابولى نفسه لم يتسرع الى الانضمام الى قوات اخيه. فقد كان شارل الاول

وعـز الدين يعـقـوب الامـرى مـقـدم الـتـرجـمـان [التـركـمـان] ولما شـدد عليـهم افـرنيـسس [ملك فرنسا] القتال شهر جمادى الاخر ورجب واحاط بالمدينة جميعها وما صار احد يقدر يدخل لها بميره و لا نجده فتحها الظهر يوم الجمعة النصف من شعبان سنة تسع وثمانين وخمس ماية الهلالية [١١٩٣م= ٩٠٥ قبطية] فجميع ما اقام الحرب على عكا سنتين وشهر واحد وخمسة عشر يوم.

يفكر قبل كل شيء في مشاريع يونانية لم تسفر عن اية نتيجة. فان نحو عشرين سفينة ـ لم يفلح في جمع اكثر منها ـ لم تكن كافية لاجل الحرب ضد «المنشقين»؛ ورفض دوق البندقية لورنسو تيوبولو التحالف مع المغامر من انجو ضد الامبراطور البيزنطى ميخايل باليولوج. واستطاعت البندقية، حتى بدون حرب، ان تستعيد امتيازاتها السابقة في امبراطورية الروم. ولم تكن عند شارل الاول اية نقود ـ فان حياته الزواجية كانت تتطلب نفقات كبيرة ـ فغرق ملك نابولى في الديون.

وحتى عندما انطلق اسطول لويس التاسع فى ١٥ يوليو ١٢٧٠ باتجاه تونس، وعندما نزل الصليبيون هناك في ١٨ يوليو دون ان يلقوا مصاعب جدية نوعا ما ودون ان يتكبدوا اية خسارة تقريبا، لم يتسرع شارل الاول فى الالتحاق بهم. ولم يبحر الى تونس مع فصيلته الا فى ٢٤ يوليو، ولكن افكاره ظلت مشغولة حتى في ذلك الوقت ايضا بالقسطنطينية واليونان. ولم يكن شارل الاول يرغب في حرب ضد تونس، وقد ارجأ الى الحد الاقصى اشتراكه في الحملة، رغم ان لويس التاسع كان ينتظر منه العون بفارغ الصبر. وفضلا عن ذلك، يتبين من رسالة لكابيللان لويس التاسع، بيار دى كونده، مؤرخة فى تاريخ لاحق، ان «ملك صقلية طالب باروناتنا في بداية الحرب بعدم التفكير في الاشتباك في حرب ضد ملك تونس». لماذا؟

كان شارل الاول يفضل على العموم ان يقيم علاقات حسن الجوار مع البلدان الاسلامية

واخبرني رجل كان حاضر في عكا لما فتحوها
المسلمين انهم وجدو جامعها قد جعلوه الفرنج
كنيسة لما اخذوها من المسلمين اول دفعة وصورو
فيه صور فلما فتحها صلاح الدين من الفرنج
جمعو المسلمين الاسارى الذى عندهم من الفرنج
وجاآو بهم الى الجامع ملو الما وغسلو حيطانه
وابوابه وكشطو منه الصور وجابو الجير بيضوه حتى
ما بقي للصور اثر ولا خبر وصلو فيه بقية الجمعة

في افريقيا الشمالية. وكانت التجارة مع المشرق تعود على خزينته بارباح لا يستهان بها. كان دوق بروفانس صاحب السيادة على مدن ايطاليا الجنوبية ومدن صقلية. له تجارة قوية مع تونس فهي تستورد الحبوب من صقلية بانتظام. وكانت الحرب تهدد بالاخلال بهذه العلاقات التجارية القائمة من زمان بعيد.

وعدا ذلك، كانت للملك شارل الاول نظرات خاصة تماما الى تونس؛ فقد سبق له ان اجرى خلال زمن طويل مفاوضات مفعمة بروح الصبر مع المستنصر لكي يدفع له المستنصر جزية كانت تونس تدفعها فيما مضى للامبراطور فريدريك الثاني. وكان الطرفان يتبادلان الرسل بين الفينة والفينة. وشيئا فشيئا سارت المفاوضات اشواطا الى الامام. الامر الذى حمل ملك نابولي الى المماطلة في الجواب عن عروض لويس التاسع للاشتراك في الحملة الصليبية.

ولكن سرعان ما تعقدت العلاقات بين شارل الاول وامير تونس. فان ملك الصقليتين، المستغرق في الديون، قد طلب من امير تونس، علاوة على الجزية العادية، دفع متأخرات عنها متراكمة منذ اواسط القرن الثالث عشر. وحين نزل صليبيو لويس التاسع في تونس، دخلت المفاوضات مع المستنصر طريقا مسدودا. وآنذاك فقط التحق شارل الاول بالصليبيين لفهمه انه ليس له ما يخسره.

بعد ان نزل الصليبيون الفرنسيون في تونس، استولوا على قلعة قرطاجا القديمة. وهب

٧٣: أنبا مرقس ابن زرعه ١١٦٦ / ١١٨٩م

التي فتحو عكا فيها. ولم يزل ذالك الرجل في عكا مقيم الى ان فتحها ملك افرنس فاخذو الافرنج اسارى المسلمين جاآو بهم الى الجامع ملو الماء غسلوه وجددو بياضه وصوره كما كان. فسبحان الله الذى بيده ملكوت كل شي يعز من يشا ويذل من يشا ويجازى كل احد باعماله. ولما فتح الافرنس عكا اسر كلمن كان فيها من العسكر واهل البلد، وانفذ صلاح الدين يقرر معه

(*) القوات الصليبية تأسر بعض الأمراء الكبار في عكا بعد سقوطها في ايديهم ومنهم سيف الدين علي ابن احمد مقدم القوات الكردية وبهاء الدين

بيبرس، ملك مصر، الى مساعدة المستنصر. وكانت الشمس الافريقية اللاهبة تضني الفرسان. وفي اواخر يوليو، دب في صفوف قواتهم وباء ـ إمّا وباء الطاعون، واما وباء الكوليرا. وفي ٣ اغسطس، لزم لويس التاسع الفراش. وفي الوقت نفسه تقريبا شملت العدوى ابنيه اللذين كانا معه (فيليب الذى خلفه فيما بعد ولقب بالجرىء، وجان دى نيفر) وابنته ايزابيل وزوجها، ملك نافار، واخا هذا الاخير، والفونس دى بواتيه وزوجته جانّ، ـ خلاصة القول ـ كل العائلة الملكية. ولم يعودوا الى فرنسا، باستثناء ابن الملك البكر فيليب، الذى شفي.

في ٢٥ اغسطس ١٩٧٠، توفي لويس التاسع؛ فان جسمه الذى اضعفته الامراض السابقة، لم يصمد للمحنة الجديدة. وفي اليوم ذاته، وصل اسطول شارل الاول الى سواحل تونس. فوجد ملك نابولي جثمان اخيه البارد. وقد فسدت معنويات العساكر كليا بسبب وفاة قائدهم المفاجئة. وكادت الحملة الصليبية تنهار وتفشل.

بعد وصول فصيلة شارل الاول الى تونس، خاضت مع الصليبيين الذين ترأسهم خليفة لويس التاسع، ابنه فيليب، بضع معارك ناجحة ضد قوات امير تونس؛ وانتهى الامر. فقد اعتبر شارل الاول من غير المعقول مواصلة الحرب في تونس. وفي اول نوفمبر ١٢٧٠، تم التوقيع على معاهدة صلح مع المستنصر، الزمته باستئناف دفع الجزية لملك الصقليين، ودفعها بمقدار الضعفين، وبالتعويض على الملكين المسيحيين عن النفقات الحربية، علما بان ثلث المبلغ

قراقوش وعز الدين يعقوب الامرى مقدم القوات التركمانية، وهروب علم الدين ارسل قائد القوات الصالحية و الاسدية، و ابن سيف الدين الجاولى.

قطيعة فيهم فلم يتفق بينهم فيهم شى فاخذو الامر الكبار(*) مثل احمد وبهاء الدين قراقوش ويعقوب الامرى وغيرهم من الكبار افردهم وقيدهم، واما علم الدين ارسل [و] ابن سيف الدين الجاولى فهربو عندما فتحت عكا وخرجو بنفوسهم لا غير الى عسكر المسلمين وتركو اموالهم وما كان معهم من مماليكهم واجنادهم. واما باقى الناس فان افرنس [ملك افرنس] اعزل الكتانية وحدهم

الاجمالي ـ ٧٠ الف اوقية من الذهب ـ يعود الى شارل الاول. اما اهم شرط تضمنته المعاهدة، فهو انها أمنت الحصانة فى تونس للتجار من رعايا مملكة صقلية؛ فانهم «سيكونون بحماية السيد اى هم بالذات واموالهم، سواء عند دخولهم البلد ام فى زمن تصريف امورهم». واخذ الطرف الثانى ايضا على عاتقه التزامات مماثلة. وهكذا انشأت هذه المعاهدة ضمانات حقوقية معينة لاجل تطور التجارة بين تونس وصقلية تطورا طبيعيا، عاديا. وبعد ١٧ يوما على توقيع المعاهدة، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس.

الا ان باباوات روما واصلوا دعوة الغرب الى تحرير القدس حتى بعد اخفاق حملة سنة ١٢٧٠ . وفى سنة ١٢٧٤ طالب البابا جريجوريوس العاشر فى مجمع ليون (فرنسا) بتنظيم حملة صليبية جديدة. ولكن نداءاته ظلت معلقة فى الهواء: فلم يتواجد راغبون فى القتال من اجل قبر السيد المسيح. ان الموقف السلبى من الحملات الصليبية قد تجذر وترسخ الى حد ان مدون الاخبار الايطالى التقى ساليمبينه فسر وفاة البابا بأن الرب لم تطيب له سياسة البابا فعجل بوفاته: «ان الرب لم يشأ استعادة القبر المقدس من جديد، ولذا دعا البابا اليه».

واستمرت زمر الفرسان غير المنظمة تشن حملات منفردة حتى اواخر القرن الثالث عشر، ولكن هذه الحملات لم تسفر عن اية نتائج جدية نوعا ما. وتوقفت الحركة الصليبية. وقد سحق مماليك مصر وابادوا آخر ممتلكات الافرنج فى الشرق الواحدة تلو الاخرى. وفى ٢٦

والسودان وحدهم والاكراد وحدهم والغز وحدهم ولم يخلط جنس مع غيره وقتلهم، والعسكر مع صلاح الدين ينظروهم واخذ ملك افرنس من وقع في نصيبه من الاسارى معه وعاد في البحر الى بلاده وكان في الايام التى فتحة فيها عكا وصل اليها ملك الانكتار [الانجليز](*) سمر نميد [ريتشارد الاول] وكان بطل شجاع لا يخاف، خبير عارفا بالحروب لا يخاف الموت ولا يهاب كثرت العساكر حتى انه

(*) ريتشارد الاول: سمر نميد، وصل بجنوده في اعقاب الحملة الصليبية الثالثة إلى عكا وحاول مع بقية الجيوش الصليبية استرداد بيت المقدس من يد صلاح الدين=

ابريل ١٢٨٩ استولت قوات الملك الاشرف خليل ابن قلاوون على طرابلس. وفى ١٨ مايو ١٢٩١، اى فى ١٦ جمادى الثانى ٦٩٠ هجرية سقطت عكا، وحولها فيما بعد الى انقاض. وزالت مملكة القدس الثانية من الوجود.

ان مؤلف «البكاء على سقوط عكا»، الراهب الدومينيكانى ريكولدو دى مونتى كروتشه، قد فسّر فى اواخر القرن الثالث عشر فشل الحملات الصليبية بكون الغرب رفض ان يقدم للارض المقدسة دعما فعالا، لأن فكرة الاستشهاد من اجل القدس لم تعد، برأى هذا الراهب، تحمل الارتياح المعنوى. اما فى الواقع، فان الحروب الصليبية قد توقفت لأنها قدمت البرهان الجلى الساطع على عقمها، كما ان الحوافز الاجتماعية التى استثارتها فيما مضى، فى القرن الحادى عشر، قد فقدت قوتها فى غضون ٢٠٠ سنة.

وغير مرة، قامت، في القرون التالية، محاولات مصطنعة لاستئناف الحروب من اجل الارض المقدسة، مثال ذلك ولكنها اخفقت جميعها؛ فان عهد الحملات الصليبية قد انتهى وإن كان ذلك لم يمنع حملة غزو الاسكندرية فى (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) فى عهد السلطان الطفل الاشرف شعبان الذى لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وكان وصياً عليه الأمير يلبغا العمرى الخاصكى. وكان والى اسكندرية فى هذا الوقت الامير صلاح الدين خليل ابن عرام والذى كان متغيباً بالحجاز.

لو كان قدامه الوف وهو وحده حمل فيهم، ولم يكن في من وصل ملوك الافرنج مثله وكان اذا حمل لا يقف احد قدامه فسلم له ملك افرنس خمس ماية فارس من عسكره خلاها عنده وجعله مقدم العسكر مكانه وسلم له العساكر واوصاه وسار. وبعد أيام يسيرة من مسيره دبر ملك الانكتار رجال عكا ورتب فيها من يحفظها وخرج منها نزل حيفا وقام من حيفا نزل ارسوف وكان صلاح

= ولكنه فشل في ذلك وانتهى الامر بعقد اتفاقية بينه وبين صلاح الدين سنة ١١٩٢م = ٥٨٨هـ وبمقتضاها صارت للصليبيين في فلسطين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها من مدن مثل عكا.

جاء هذا الغزو من ملك قبرص (بطرس الاول) في اكتوبر ١٣٦٥م: وهو الذى وضع خطة الغزو التي بدأت بنزول جنوده في اسكندرية يوم الثلاثاء الموافق ٩ أكتوبر.

العلاقات المصرية الحبشية فى ظل حكم المماليك

يبدو لنا من الوثائق المعاصرة أن ركناً أساسياً من الاتصالات التى كانت تدور بين بطارقة مصر من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى ـ طوال العصور الوسطى ـ دارت حول موضوع رئيسي واحد هو ترميم مطران جديد للحبشة عندما يخلو الكرسى الأسقفي فيها. والواقع إن الحبشة بعد انتشار المسيحية فيها صارت لا تستغنى أبداً عن وجود مطران فيها، لا من أجل النهوض بالشعائر الدينية والإشراف على كنيستها فحسب؛ بل بعد أن صارت للمطران المصرى في الحبشة مهام أساسية، اجتماعية وسياسية. فمطران الحبشة هو الذى يقوم بتتويج كل ملك جديد، ويرأس الحفل الكبير الذى يقام في تلك المناسبة، ويمسح بيده على رأس الملك الجديد ليباركه[1]. ومطران الحبشة هو الذى يصحب ملكها في حروبه وغزواته ليبارك تحركاته ويضمن له النصر، بالضبط مثلما كان يفعل سلاطين المماليك في مصر من اصطحاب الخليفة العباسي معهم في حروبهم الكبرى، طلباً للبركة وأملاً في النصر. ومطران الحبشة هو الذى يضفي على القوانين الملكية صبغتها القانونية، وعن طريقه كان يصدر قرار

(١) أبو صالح الأرمني: كنائس وأديرة مصر، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

الدين نازل على برج الديويه ويسمى سفر عام، فسار لحقه وكان من تدبير ملك الانكتار انه رتب الرماة بالزنبورك على العجل وعمل عليهم ساير وكانه العجل سايرة بالرماة من جانبي العسكر ميمنة ومسيرة والعسكر في القلب ولم يكن يقدر يدنو من العجل الا ويهلك، فلما لحقه صلاح الدين [في] ارسوف قاتله فلم يبلغ منه مراد [و] خاف ان يتم الى عسقلان فيملكها فسبقه صلاح



عربة صليبية مدرعة عليها جنود بالزنبرك ومحصنة عند عجلاتها بالنصال حتى لا يقترب منها فارس أو جندي من المشاة.

الحرمان ضد أى فرد يغضب عليه ملك الحبشة، فيصير ذلك الفرد محروماً من الكنيسة مطروداً من رحمتها. والى المطارنة المصريين فى بلاد الحبشة يرجع الفضل فى إصلاح كثير من الأوضاع والعادات الذميمة التى سادت المجتمع الحبشى، مثل عادة تعدد الزوجات دون حساب، وهى العادة التى حاربها فى غير هوادة المطران ساويرس تنفيذاً لتعليمات البطريرك كيرلس فى القرن الثالث عشر. هذا كله بالإضافة إلى أثر المطارنة المصريين ـ لافى رسوم الكنيسة الحبشية وطقوسها فحسب ـ بل أيضاً فى بعض المظاهر المتعلقة باستخدام الأجراس وتعليق بيض النعام فى الكنائس الحبشية، على نحو ما عرف فى الكنائس المصرية. ويؤكد بعض الباحثين أن كثيراً من الكنائس التى شيدت بالحبشة فى العصور الوسطى، إنما تشبه فى تصميمها وطرازها وهندستها وزخارفها وأسلوب بنائها الكنائس المصرية المعاصرة لها مما يشير إلى قيام مهندسين وعمال مصريين بإنشائها.

وبناء على هذا الدور الكبير الذى نهض به المطارنة المصريون فى بلاد الحبشة فى العصور الوسطى، ازداد حرص ملوك الحبشة فى تلك العصور على استحضار مطران جديد من مصر كلما تعرض منصب المطرانية فى بلادهم للشغور، لأنه كان فى حقيقة الأمر ضرورة عاجلة لسد فراغ دينى وسياسى واجتماعى فى البلاد. وهنا نشير إلى أن الأحباش فى تلك العصور ألفوا المطارنة المصريين واعتادوا أساليبهم وارتاحوا إلى سلوكهم ومنهجهم، فلم يرضوا عنهم

الدين اليها فاخربها واحرقها ولم يبقا فيها جدار
قايم ثم توجه صلاح الدين نزل الرملة فلما بلغ
ملك الانكتار انه اخرب عسقلان واحرقها بالنار
صعب عليه واقام على ارصوف اياما يسيرة ودبر
تدبير اخر يريد يكبس عسكر السلطان صلاح
الدين فمضى الجاسوس اعلم صلاح ادين بذالك
فرحل صلاح الدين من الرملة طلع الجبل ونزل
على النطرون وهو جبل شامخ عال لا يمكنه

بديلاً. حقيقة إنه حدث فى بعض الفترات، عندما تعذر عليهم جلب مطارنة من مصر لظروف معينة، أن استحضر الأحباش مطارنة سوريين أو كاثوليك غربيين؛ ولكن هذا كان يحدث لفترة محدودة جداً لا يلبث الأحباش بعدها أن يظهروا نفورهم من أولئك المطارنة غير المصريين ويكررون محاولاتهم لاستحضار مطارنة من مصر. ولا يخفى علينا أن وحدة الكنيسة بين مصر والحبشة جاءت مصحوبة بوحدة المذهب اليعقوبى فى البلدين. ويؤكد هذه المعانى ما يرويه المقريزى من أن بعض الكاثوليك الذين كانوا يريدون دخول الحبشة حرصوا على إخفاء حقيقة مذهبهم، والتظاهر بأنهم يعاقبة حتى لا يتعرضون للأذى أو القتل.

ويفهم من المصادر المعاصرة أن السلطان الظاهر بيبرس أرسل سفارة إلى الحبشة، وأن هذه السفارة تأخرت فى العودة إلى مصر، مما جعل الظاهر بيبرس يغضب على ملك الحبشة.

ومهما يكن من أمر، فإن بيبرس غضب لتعويق سفارته، وربما لعدم تمكينها من مقابلة «الحطى»، وهو ملك الحبشة المسيحى. وأحس ملك الحبشة بغضب السلطان بيبرس عليه، فلم يجرؤ على الاتصال به مباشرة عندما احتاج إلى مطران جديد لبلاده، فأرسل كتابه إلى مصر عن طريق صاحب اليمنى، وكان ذلك سنة ١٢٧٣ (٦٧٢هـ)، راجياً من السلطان أن يطلب من بطريرك الاسكندرية ـ غبريال الثالث ـ أن يبعث إلى الحبشة «مطراناً رجلاً جيداً عالماً لا يحب ذهباً ولا فضة»؛ ويدعو للسلطان بيبرس، فيقول «وهذه الخلق كلهم يقولون آمين بطول

الطلوع اليـه الا صـعـوبة ولا يكون فـيـه مـوضع
للحـمـلات فـرحل ملك الانكتـار نزل الرملة فلمـا
نزل الرمله رحل السلطان من النطرون طلب مدينة
القـدس فـرحل ملك الانكتـار نزل النطرون وتم
السلطان على حـاله دخل مـدينة القـدس واهتم
بحفر الخنادق وعـمارة الابراج واقام ملك الانكتار
على النطرون مدة ثم عاد الى عسقلان نزل عليها
واعـمرها وحـصنها وانتقل منها الى غزه اعـمرها

بقاء عمر سلطاننا مالك مصر، ويهلك عدوه..» ثم إن ملك الحبشة يحرص في رسالته على أن يوضح للسلطان الظاهر بيبرس أنه يحسن معاملة المسلمين في بلاده، وأن منهم في جيشه مائة ألف فارس مسلم، «وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفرهم كما يحبون».

ولكن السلطان بيبرس امتنع عن تلبية رغبة ملك الحبشة في إرسال مطران إليه، ورد على رسالة الحطى الطويلة، برسالة قصيرة مقتضبة، يفهم منها استياء السلطان بيبرس لأن ملك الحبشة تغاضى عن قواعد البروتوكول، ولم يتصل بسلطان مصر مباشرة، وانما أرسل رسوله إلى صاحب اليمن حيث أقام الرسول حتى يأتي الرد من مصر. ويضيف جاستون فييت أنه لا يستبعد أن يكون سبب استياء بيبرس هو أن ملك الحبشة لم يشفع طلبه الخاص بالمطران بالهدايا الثمينة من الذهب والرقيق، وهي الهدايا التي جرى العرف على إرسالها عند طلب مطران جديد للحبشة.

وهنا نجد أنفسنا على خلاف في الرأى مع المقريزى الذى يقرر أن الحطى متملك الحبشة طلب من السلطان بيبرس «أن يجهز له مطران من عند البطريك، فأجيب» ذلك أن تطور الأحداث التاريخية فيما بعد يتعارض مع رواية المقريزى، لأن ملك الحبشة لم يلبث أن كرر طلبه في عهد السلطان منصور قلاون، واعتذر عما حدث من والده، وأشار إلى أن الأحباش لم يرتاحوا إلى المطران السرياني الذى جلبوه من سوريا. ومعنى هذا كله واضح، وهو أن الظاهر

وحصنها وانتقل من غزه [إلى] ديررناس وهى قلعة
الدراون وكانة [كانت] باقية في يد المسلمين الى
اخر جمادى الاول سنة ثمان وثمانين وخمس ماية
[١١٩٢م] ففتحها واخذها وقتل واسر كلمن
وجده فيها ثم مضى الى بيروت يقاتلها فخرج اليه
صلاح الدين من القدس ونزل بالعسكر على يافاً
وقاتلها يومين ففتحها وقتل كلمن وجده فيها فى
الريض فاما الفرسان والمقاتلة من الفرنج فانهم

يبرس لم يجب ملك الحبشة إلى طلبه، الأمر الذى اضطر الملك إلى جلب مطران من السريان. ويضيف بعض الباحثين إلى ذلك أن ملك الحبشة ـ يكونو أملاك ـ عندما يئس من رد بيبرس اتجه إلى سوريا، فاستحضر منها مطراناً سريانياً اسمه يوب Youb ؛ كما نزح إلى الحبشة في ذلك الدور جماعة من الرهبان الدومينكان.

وقد ذكر محيى الدين بن عبدالظاهر نص الرسالتين اللتين أرسلهما الملك يجبأ صيون (صهيون) ملك الحبشة إلى السلطان المنصور قلاون. من ناحية وإلى يؤانس السابع بطريرك الأقباط في مصر (١٢٧١ ـ ١٢٩٣) من ناحية أخرى. ففي الرسالة الأولى يذكر ملك الحبشة لسلطان مصر: أنه يحفظ المسلمين في مملكته، وأن المطران السيريانى الذى اضطروا إلى استحضاره «أتلف البلاد فى زمان والدى». ثم يختتم ملك الحبشة رسالته بالإلحاح فى إرسال مطران من مصر؛ ويتعهد بإرسال العوائد ـ من هدايا وأحوال ـ «التى جرت العادة بها عند طلب المطران». وثمة عبارة لطيفة جاءت فى رسالة ملك الحبشة إلى السلطان قلاون هى «السلام يا منصور. اسمع يا سلطان مصر ـ نصرك الله ـ اعطى البطرك الدستيور يبعث لى أسقفاً؛ فنحن وهم أمتنا واحدة من زمن مرقص وإلى اليوم. والرسم الذى لك والتقدمة أنا أعطيك إن سيرت لى أسقفاً. وإذا سيرته أنا أتقصى منه عن رسمك، ومهما قلت فعلته...».

أما رسالة ملك الحبشة إلى بطريرك الأقباط في مصر، فهى تكشف لنا الكثير عن العلاقة

دخلو القلعة وتحصنو فيها الى ان ادركهم ملك
الانكتار فرحل صلاح الدين عنها وعاد نزل
النطرون وذالك في شهر رجب سنة ثمان وثمانون
وخمسماية ولما عاد ملك الانكتار من بيروت الى
يافا وخلص البلد ورحل صلاح الدين عنها نزل
على يافا وكان الملك العادل ابو بكر قد سار الى
بلاد العجم وديار بكر وغيرهم فجمع عساكر
وكان الملك المظفر تقى الدين قد فتح مدينة

بين الكنيسة الحبشية والكنيسة القبطية، وعن نظرة الأحباش إلى كنيسة مارمرقس وحرصهم على دوام الارتباط بها وإلحاحهم في التبعية لها، ورفضهم مطراناً من غير المصريين. ونص هذه الرسالة الخطيرة ـ كما أوردها ابن الظاهر ـ هي: ـ

«أتوسل للبطرك ـ البطرك ٧٨ ـ أبو يحنس (يؤانس السابع) ونسلم عليه بالسلام الذى سلم به على مرقص، وأنذر يانون يكون عليك: اسمع كلامى، واقض حاجتى، وابعث لى مطراناً جيد صالح، يعلمنى كل شى جيد، ويكون ما ضرب داود عليه السلام المثل في الزبور من شأننا. وقال خلوا رجلا جياداً من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلمونكم العبادة والزهد. وقال في وصيته: لا تخلي يا بني خروفك يأكله الذئب. وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم. ولأجل محبتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندنا أساقفة وطردناهم. وما كانوا قعدوا عندنا إلا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك. والساعة لا تخرب مدينتك، وتسير إلينا مطراناً حتى يشكرك الرب المسيح. واذكر مرقص لاتخلينا بخطيتنا. إن كنت وحدك تقدر تسير إلينا مطراناً فسيره، وإن كنت ما تقدر فبمرسوم مولانا السلطان. وبعد هذا مهما اشتهيت نسيره إليك. ونخلي هؤلاء السريان في بلادنا، ونخرجهم إذا قلت: اطردوهم. وإن قلت: خليهم، خليناهم. وأنت أنكرت علينا بسببهم، فاغفر

(*) خلاط: شمال غرب بحيرة فان، فأما بكتم فهو سيف الدين بكتمر ملك أرمينيا في ذلك الوقت.

خلاط(*) واخذها من بكتم ومات واخذها ولده بعده نصير الدين وبقى فيها بعسكر ابوه فلما مضى الملك العادل يجمع عساكر الشرق مضى اليه فاخذ عسكر ابوه وجامع[جمع] الملك العادل هو ومظفر الدين صاحب اربيل ومدينة الموصل وغيرهم من عساكر الشرق خلق كثير لا يحصى عدده. ولم تجى الفرنج فى تلك السنة نجدة ولا رجل واحد وكانو العساكر يريدو المصاف وصلاح

لنا هذا الذنب، حتى لاتبقى علينا خطية. واغفر لكل من عندنا وتكون بركتك علينا فى الحياة والموت...».

وكان أن أرسل السلطان منصور قلاون مطران إليه، وعندئذ طردت الحبشة المطران السريانى ومن معه من الرهبان الدومينكان، وتمت مصادرة جميع ممتلكاتهم. وقد أدى ذلك إلى تحسن العلاقات بين مصر والحبشة، فيذكر أبو المحاسن أن ملك الحبشة أرسل هداياه إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ١٣١٠م (٧١٠هـ) ويؤكد هذه الحقيقة المقريزى فى ترجمته للسلطان الناصر محمد بن قلاون. أما ابن إياس فيذكر أن الهدية التى أرسلها ملك الحبشة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون سنة ٧١٢هـ (١٣١٢م) بلغت قيمتها مائة ألف دينار أو أكثر، «حتى عدت من النوادر» ولا شك فى أن هذه الإشارات فى مختلف المراجع المعاصرة تدل على حسن العلاقة بين مصر والحبشة طوال عصر الناصر محمد بن قلاون، الذى حكم أكثر من اثنتين وثلاثين سنة. ثم إن هذه العلاقات الطيبة بين الطرفين استمرت حتى قيام سلطنة المماليك البرجية، فقدمت رسل ملك الحبشة إلى مصر فى عهد السلطان الظاهر برقوق سنة ١٣٨٢م (٧٨٤هـ) «ومعهم هدية على أحد وعشرون جملاً، فيها من طرائف بلادهم من جملتها قدور ملئت حمصاً صنع من ذهب، إذا رآه الشخص يظنه حمصاً؛ وغير ذلك». كما ذكر ابن تغرى بردى فى نجومه الزاهرة والمقريزى فى خططه.

الدين يروض الحال معهم ومع الفرنج ولم يزل
يدبر والله يعضده بالتوفيق الى ان تصوب رايه فى
الهدنة والصلح وحقن الدما وصيانة الاموال
والنفوس من التلف للفريقين المسلمين والافرنج
فمال الى الصلح وتقررت الهدنة مع الفرنج اربعون
شهر اولها شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسماية مع
ملك الانكتار وعسكر الساحل، على انه اى من
وصل من ملوك الافرنج من خلف البحر وكان فى

وهكذا استمر رسل الحبشة يفدون على القاهرة، وخاصة عندما كان يخلو منصب المطرانية بالحبشة. وهناك إشارات فى المراجع المعاصرة إلى أن رسل ملوك الحبشة وفدوا على مصر فى سلطنة كل من برسباى وجقمق وقايتباى، وكانوا يحضرون معهم هدايا ضخمة للسلاطين. وفى الوقت نفسه كان سلاطين المماليك يكرمون رسل الحبشة طالما أنه لا يوجد ما يعكر صفو العلاقات الطيبة بين البلدين. وفى الوقت نفسه حرص سلاطين المماليك على أن لا يسمحوا لأولئك الرسل بتجاوز قدرهم فى حضرة السلاطين. من ذلك ما يرويه ابن إياس من وصول قاصد ملك الحبشة إلى السلطان الأشرف قايتباى سنة ١٤٨١م (٨٨٦هـ) «فأوكب له السلطان بالحوش موكباً حافلاً، من غير شاش ولا قماش. فجلس السلطان على الدكة وحوله الأمراء. فلما دخل قاصد ملك الحبشة على السلطان كان بصحبته جماعة من الحبشة ومعهم كراسي يجلسون عليها بحضرة السلطان، فمنعوهم الرءوس النوبة من ذلك. ثم إن السلطان أكرم القاصد وأخلع عليه، وأنزله فى مكان عُد له، ورتب له ما يكفيه فى كل يوم إلى أن عاد إلى بلاده. وحضر صحبته تقدمه (هدية) حافلة للسلطان، فأكرم ذلك القاصد جداً. وسبب حضوره أنه جاء يسأل البطرك بأن يولى شخصاً يكون نائباً عنه ببلادهم».

على أنه ثمة سبب آخر أوجب تردد الأحباش على مصر فى العصور الوسطى، هو اتجاههم لزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين والقيام بالحج وكانوا فى طريقهم من بلادهم إلى القدس

قوة يقدر على فسخ الهدنة كانو عسكر الحال ابريا
من العهود والايمان، وعلى ان الذى فتحوه
المسلمين بسيوفهم من المدن والقرى والقلاع
والحصون يكون لهم والذى هو باق بيد الفرنج لم
يفتحوه المسلمين هو باق للافرنج. وذكر من حضر
عقد الهدنة ان بيروت وصيد وجباله وجبيل وبلاد
وقلاع لم اعرف اسماها فاذكرها يكون بينهم
مناصفة فاما البيت المقدس فانه كان بيد المسلمين

يفضلون اجتياز الطريق البرى عبر مصر بحذاء ساحل البحر الاحمر، وذلك خوفاً عن البحر وغائلته. وقد ذكر بعض الكتاب فى أوائل القرن السادس عشر أنه شاهد بنفسه قافلة كبيرة من الحجاج الأحباش تتألف من نحو ثلثمائة حبشى يخترقون الطريق البرى السابق الذكر فى طريقهم الى القدس. وكان المفروض أن يدفع هؤلاء الحجاج ضريبة الخفر، وهى الضريبة التى يدفعها الحجاج المسيحيون أثناء مرورهم في البلاد الإسلامية، مقابل حراسة أرواحهم وأموالهم. وهناك نص على جانب خطير من الأهمية، اكتشف مكتوباً على باب من أبواب كنيسة القيامة في بيت المقدس، ويرجع إلى سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م)؛ وهو عبارة عن مرسوم أصدره السلطان الأشرف الغورى بإعفاء الرهبان والراهبات من أى رسم يدفعونه مقابل السماح لهم بزيارة الأماكن المقدسة في القدس. وقد ورد في هذا المرسوم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطاني، الملكى، الأشرفى، السيفى... أن لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات، والملكانيين واليعاقبة، بموجب ولا بخفر ولا بظلم، عند دخولهم قمامة القدس الشريف [كنيسة القيامة]، أسوة برهبان الكرج والحبوش... الوارد من الرهبان والرهبانيات المذكورين فى البر والبحر وكل ناحية لزيارة بيت المقدس؛ مستمر حكم ذلك من تقادم السنين، من غير إحداث حادث ولا تجديد مظلمة، ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك.».

والواقع إن أعداد الحجاج الأحباش الذين دأبوا على المرور بمصر فى طريقهم إلى الأراضى

فى ذالك الوقت فبقى لهم على حاله وقرر صلاح
الدين ان يحجو اليه بحيث لا يدخلو معهم سيف
ولا شيا من السلاح وشرط لهم امان لا يوخذ
منهم مسكن. وجعل صلاح الدين سيف الدين
يازكوج والى البيت المقدس وذكر [وضع] معه فيه
ثلاثة الف فارس ممن [من] المماليك الاسديه وصام
صلاح الدين هو والقاضى الفاضل عبد الرحيم ابن
على البينانى شهر رمضان فى البيت المقدس وانفذ

المقدسة كانت كبيرة. وهؤلاء كان يحرص السلاطين دائماً على حمايتهم من أذى العامة وتعرضهم لهم؛ وبخاصة فى عصور اشتهرت بالحروب الصليبية وطفحت بروح العداء الدينى. ونستطيع أن نخرج بصورة واضحة عن أعداد الحجاج الأحباش من ناحية ، وما كانوا يصادفونه فى طريقهم عبر مصر من ناحية ثانية، ثم حرص الحكام على حمايتهم من العامة من ناحية ثالثة... من الوصف الذى أورده المؤرخ إياس فى حوادث سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م) ـ أى زمن السلطان الغورى ـ قال ابن إياس ما نصه:

«وفى يوم الخميس خامس عشرينه، حضر قاصد من عند ملك الحبشة... فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكباً بالحوش من غير شاش ولاقماش ـ كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة الى أنشأها بالحوش، ونصب على رأسه السحابة الزركش، واصطفت الأمراء عن يمينه وعن شماله وكل واحد منهم فى منزلته. ثم طلع القاصد من الصلية، وصحبته الأمير أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب والمماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار والبقية لبط [من العامة] وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة بشعر، ومنهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب. وأما القاصد الكبير... فكان على رأس خوذه مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب ومنهم بعض فصوص، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة، وعليه

الرجـال والاجناد وهدم صـور عـسـقـلان مسـتـدير وتركها قرية بغير سور وكان الاتفاق على هدمها في عـقـد الهـدنة. وكـانو الفـرنج والمسلمين بعـد الصلح حتى صارو مثل الاخوة وكذالك الملوك مع صلاح الدين وحمل اليهم اموال وهدايا وحملو له هدايا وخيل وطوارق [دروع] وسيوف المانية مدارة في علب خـشب وقنطاريات [رمـاح] مـدهونة. فسبحان الله المولف بين القلوب المتباعدة والطباع

شاياه حرير ملون ، وعلى بقيـة أعيان آمراء الحبشة شايات حرير ملون، وعلى رءوسهم شدود حرير... فكان مجموع ذلك الحبشة الذين حضروا إلى مصر نحو ستمائة إنسان، وأوساطهم مشدودة بحوايص كهيئة الزنانير. وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلين على جمل يضربون عليها. وكان صحبتهم البترك الكبير، وعليه برنس حرير أزرق وخلفه طراز ذهب . واصطفت جميع النصارى الذين في مصر للفرجة عليهم، وكان أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة. فطلعوا إلى القلعة من سلم المدرج ، والبترك ماش قدامهم.. فلما وصل هذا القاصد إلى باب الحوش قبل الأرض، فلما وصل إلى أوائل البساط قبل الأرض ومن معه من أعيان الحبشة. ولم يدخل قدام السلطان غير سبعة أنفس، والبقية لم يدخلوا. فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة. ثم قدموا كتاب ملك الحبشة، قيل إنه في ضمن غلاف من الفضة، وقيل من الذهب. فلما قرئ على السلطان وجد فيـه ألفاظاً حسنة ونعتاً عظيماً للسلطان، وأن قصادنا أتوا إلى مصر ليزوروا (كنيسة) القيامة التي بالقدس، فلا تمنعوهم من ذلك فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم، ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة. فرسم لهم السلطان بأن يقيموا في ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع إلى أن يسافروا. وأرسل لهم خياماً ضربت لهم من داخل الميدان. ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل إليهم من العوام. فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالي والمهمندار وجماعة

المتضادة فهو سبحانه خالق الخلايق ومدبرها وباريها ومصورها لا اله الا هو ولا معبود سواه، فاما اسارى المسلمين الذى مع الفرنج واسارى الفرنج الذى مع المسلمين فلم يتقرر فى امرهم شيا(*) بل بقى كل منهم مع صاحبه على حاله يقوم بقطيعة ويتخلص. وبعد الصلح بايام يسيرة ركب ملك الانكتار المراكب فى البحر وعاد الى بلاده بماكسبه وغنمه ومعه جماعة واصحابه واجناده وتوجه

(*) بالرغم من الود والأخوة التى ظهرت بين صلاح الدين وقواد الحملة الصليبية إلا أنه لم يفكر أى منهما فى اطلاق أسراه من الفقراء والمدنيين، ولا وضع شروط لذلك فى معاهدات الود والصداقة التى كانت بينهما.

من الرءوس والنواب، فوصلوهم إلى الميدان خوفاً عليهم من العوام أن يرجموهم ، فكان لهم يوم مشهود...».

وإذا كان جموع الأحباش القاصدة للحج وزيارة الأماكن المقدسة على هذه الدرجة من الكثرة ووفرة العدد؛ فإنه كان لابد للأحباش من مقر فى بيت المقدس يكون بمثابة مركز لهم، ونقطة تجمع يلتفون حولها فى تلك البلاد البعيدة عن أرضهم . وكان ذلك المقر للحجاج الأحباش هو دير فى بيت المقدس نسب إليهم، وله مقدم يعينه ملك الحبشة. وقد دأب ملوك الحبشة على إرسال الأموال والهدايا إلى ذلك الدير، طالبين من رهبانه الدعاء لهم. من ذلك الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة يجباصيون (صهيون) على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى رهبان دير الأحباش فى القدس الشريف، ونصها: «السلام عليكم يارهبان الحبوش، الذين صبروا على العبادة والزهد الى هذه الأيام، وصبرتم على الحر والبرد. وقد سيرت لكم ثوب أحمر ديباج ومائة شمعة؛ وثيابى وهو زنارى الذى تلبسه السلاطين حتى تلبسونه وقت القربان: ماهو كل يوم ، إلا من يوم العيد إلى يوم العيد ولا يلبسه إلا القسيس الذى يعمل القربان. فعرفونى بوصول هذا، واكتبوا أسماءهم، واذكرونى فى صلواتكم ، واقبلوا ما سيرته فهو فى سرير سلطانى وزنارى. ولا تنسونى كل يوم..» وعلى الرغم من أن مقدم دير الأحباش

صـلاح الدين من البيت المقدس الى دمشق فى
شوال سنة ثمان وثمانين وخمسماية بعد ان صام
فيه هو وجميع من معه من المسلمين شهر رمضان،
ومضى الى دمشق طاهر[ختن] اولاده وكان له
يوميذ اولاد كثير ذكور يركبون الخيل خلفة عددهم
خمسة عشر ولد وهذه اسمايهم ونعتوهم(*) الملك
العزيز عثمان سلطنه على مملكة ديار مصر والبيت
المقدس واعمالها واقام ملكا عليها بعد ابوه صلاح

(*) اسماء ونعوت اولاد صلاح الدين الذكور الذين كانوا معه في دمشق.

بالقدس لم تربطة رابطة التبعية، بسلاطين مصر، إلا أنه لابد ـ فى نظرنا ـ وأن هذا الدير كان محوراً لاتصالات ودية بين ملوك الحبشة وحكام مصر فى العصور الوسطى، بحكم سيطرة هؤلاء الحكام السياسية على بيت المقدس طوال شطر كبير من تلك العصور، وخاصة فى عصر سلاطين المماليك

على أنه لا ينبغي بأى حال أن نعتقد في استمرار العلاقات الطيبة بين سلاطين مصر وملوك الحبشة، وخاصة في عصر الحروب الصليبية عندما تحكم العداء بين المسلمين والمسيحيين، وهو العداء الذى كثيراً ما انعكست صورته واضحة فى العلاقات بين سلطنة المماليك في مصر بوصفها أكبر قوة إسلامية في الشرق الأوسط حتى أواخر القرن الخامس عشر، وبين غيرها من الدولة المسيحية، المجاورة وغير المجاورة. وثمة حقيقة لا نستطيع أن ننكرها، هي أن المسيحيين في مصر تعرضوا في العصور الوسطى لشئ من الإضطهاد، وخاصة في عصر الحروب الصليبية. وكان سبب هذان الإضطهاد رغبة حكام مصر ـ وبصفة خاصة الفاطمين وسلاطين المماليك ـ فى الظهور بمظهر حماة الدين لتدعيم مركزهم فى نظر المسلمين. وهنا نجد ملوك الحبشة يفتحون أبواب بلادهم للأقباط النازحين من مصر فراراً من الإضطهاد. وقد حدث أن هاجر كثير من القبط من مصر إلى الحبشة فى عصر الخليفة الحاكم

الدين خمسة سنين ونصف، الملك الاعز يعقوب، الملك المويد مسعود، الملك فتح الدين اسحق، الملك الجواد ايوب، الملك الظاهر غازى وسلطنه على حلب واعمالها، الملك الافضل على وسلطنه على دمشق واعمالها، الملك المستمر خضر، الملك الزاهر داوود. وبقية الصغار نورشاه، شاهنشاه، ملك شاه احمد ابو ابكر. وهذه العده ليس من امرآه. واحدة بل عدة نسا. وكان فى يد صلاح الدين من

بأمر الله، ثم في عهد السلطان الكامل الأيوبى عندما حاصر الصليبيون دمياط سنة ١٢١٩ وكذلك سنة ١٢٢٧ عندما أمر الملك الكامل بتدمير مدينة تنيس واغراقها. فرحب بأهلها الفارين ملوك الحبشة وأكرموهم.

على أنه كان من العسير على ملوك الدول المسيحية أن يسكتوا عن ذلك الوضع، فنسمع عن ملوك الحبشة أنهم تدخلوا أكثرمن مرة عند سلاطين مصر وحكامها لتخفيف حدة المتاعب التى كان يعانيها الأقباط بين فينة وأخرى. ولم يحجم ملوك الحبشة عن تهديد سلاطين المماليك بالإنتقام من المسلمين فى بلادهم إذا استمرت الأمور على أوضاعها. من ذلك ما يرويه النويرى فى حوادث سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) من أن ملك الحبشة أرسل رسلا إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون يطلب منه «إعادة ما خرب من كنائس النصارى، ومعاملتهم بالإكرام والإحترام ، ويهدد بأنه يخرب ما عنده من مساجد المسلمين، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر. فسخر السلطان منه ورد رسله!» ويكرر المقريزى خبر وصول رسول ملك الحبشة بعد ذلك سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٦م) لنفس السبب السابق.

ويبدو أن عدم استجابة سلاطين مصر لرجاء ملوك الحبشة وسخريتهم منهم ـ كما أشار المقريزى فى النص السابق ـ جعل ملوك الحبشة ينفذون تهديداتهم على نطاق واسع. من ذلك

مملكات الدنيا في حال حيايه[حياته] يوميذ اقليم
ديار مصر وجميع اعمالها واليمن الى هنعا
[صنعاء] وعدن وزبيد فتحه بيد سيف الاسلام
اخوه وفي مدينة النوبة الى مدينة ابريم وبلاد
صاحب الجبل، والبيت المقدس والساحل وجميع
ما قدمنا ذكره من مدنه وقراه وحصون وقلعة.
ومافتحه في بلاد انطاكيه حصن برزيه واللاذقيه
وبغراس وغيرهم مما لم نعلم اسمه فنذكره

أن ملك الحبشة جبرة مصقل ـ واسمه الأصلى عمدة صيون (صهيون) ـ الذى امتد حكمه من سنة ١٣١٢ حتى سنة ١٣٤٢م (٧١٢ ـ ٧٤٣هـ) تطرف فى اضطهاد المسلمين الذين حاولون الاستقرار في بلاده.، وشن ضدهم حروباً كثيرة. على أن المسلمين فى الحبشة خاضوا حرباً بأسم الدين ضد ملوك الحبشة. ومن ذلك ما يرويه المقريزى من أنه حدث سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩) أن قام رجل بالحبشة يدعى أبو عبد الله محمد يدعو إلى الاسلام «فاجتمع عليه نحو المائتى ألف رجل وحارب الأمحرى (ملك الحبشة) فى هذه السنة حروباً كثيرة».

وعندما اشتدت وطأة المعارك بين ملك الحبشة والعرب الغزاة لبلاده سعي الفقيه عبد الله الزيلعي رئيس وفد أوفات لدى السلطان الناصر محمد بن قلاون ليتدخل لمساعدة العرب فى الحبشة، فوسط السلطان بطريرك الأرثوذكس بالأسكندرية في ذلك الأمر. ويقال إن بطريرك الإسكندرية أرسل رسالة إلى ملك الحبشة يطلب منه ترك محاربة العرب في بلاده، ولكن تلك الجهود لم تثمر، فاستمرت الحروب طويلاً بين العرب فى الحبشة وملكها عمد صيون . وقد فسر القلقشندى هذه الوساطة فى ضوء الرغبة فى التخفيف عن عرب الحبشة، فقال إن الفقيه عبد الله الزيلعى انتهز فرصة وصول رسول ملك الحبشة إلى مصر ليسعى لدى السلطان أن يطلب من البطريرك الكتابة إلى ملك الحبشة «بكف أذيته عمن فى بلاده من المسلمين وعن

ومدينة دمشق التى هى شهوة ملك الدنيا المشبهة بالفردوس فى انهارها الحلوة الطيبة واشجارها واثمارها وطيب هواها، ومدينة حلب وقلعتها دار ابراهيم الخليل عليه السلام، جسرة ملوك العرب والعجم واعمالها ورستاقها، ومن خلف نهر الفرات حران ونصيبين وسنجار ومنبج والرها وامد وميافارقين وغيرهم من قراهم ورستاقهم مما لم نعلمه فنسميه. وكان امره ينفذ فى جميع ممالك

أخذ حريمهم. وبرزت المراسيم السلطانية للبطريرك بكتابة ذلك، فكتب إليه عن نفسه كتاباً بليغاً شافياً، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال، وأنه حرم هذا على من يفعله».

أما سلطنة المماليك فى مصر، فقد قامت باضطهاد المسيحين فى مصر ، وفصل من كان يعمل منهم فى الديوان السلطانى أو يشغل وظيفة رسمية فى الدولة؛ ففر بعضهم إلى بلاد الحبشة، وعلى رأسهم فخر الدولة الكاتب ـ وهو كاتب قبطى ـ فرحب به اسحق ملك الحبشة وأدخله فى خدمته . ولم يلبث فخر الدولة أن قام بتنظيم ديوان لملك الحبشة على نمط الديوان السلطانى بالقاهرة، ووضع قواعد جديدة لجباية الأموال والضرائب. وبفضل هذه النظم التى انتقلت من مصر، صار ملك الحبشة ـ على حد قول المقريزى ـ «ملكاً له سلطان وديوان».

وجدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر فى ذلك الدور على فرار بعض الأقباط من مصر إلى الحبشة، بل لجأ بعض أمراء الممالك المسلمين أيضا إلى بلاد الحبشة، ربما لخلافات داخلية بينهم وبين السلطان، وخوفهم على أنفسهم من غائلته. وعلى رأس هؤلاء تذكر المراجع الأمير ألطنبغا حاكم قوص فى عهد السلطان المؤيد شيخ (١٤١٢ ـ ١٤٢١). وقد قام هذا الأمير بتدريب الأحباش على استخدام النار الإغريقية والرمى بالنشاب واللعب بالرمح والضرب بالسيف، بعد أن كان الأحباش لا يعرفون غير استخدام الحراب. كذلك يشير المقريزى إلى أحد

العرب والعجم والروم ولم يملك احد ممن عاصرناه ورايناه مثله. وطاعته امم وملوك، وكان امره ينفذ في بلاد الحبشه والنوبه والبجاه واليمن والحجاز وجميع اعمال القبلة [الجنوب]. وفي الشرق بيت المقدس والساحل ومدنه وقراه ودمشق واعمالها وحلب واعملها ومن خلف نهر الفراة [الفرات] مدن كبار وقراها وقد قدمنا ذكرها. وقد كان تردد الي مدينة الموصل وقاتلها وحاصرها زمان فلم

المماليك الزردكاشية ـ ولم يذكر اسمه ـ فر من مصر في ذلك الدور، فعهد إليه اسحق ملك الحبشة بعمل «زردخانات (خزائن للسلاح) عظيمة، وكانوا من قديم إنما سلاحهم الحراب يرمون بها.. ويوضح هروب المسلمين إلى الحبشة أن الصراع مع الحبشة كان بين ملوكها وغزاتها من العرب وليس حرباً بين مسلمين واقباط.

وهكذا استفادت الحبشة في الربع الأول من القرن الخامس عشر من خبرة المصريين وتقدمهم الحضارى ـ وخاصة في النواحي الحربية والإدارية ـ مما ساعد مملكة الحبشة على التطور والتقدم. ويتردد في المراجع ـ في ذلك الدور ـ اسم تاجر مسلم، هو نور الدين علي بن محمد بن يوسف التبريزى ـ نزح إلى بلاد الحبشة ، واستقر فيها حيث ازدهرت تجارته وصار موضع ثقة اسحق ملك الحبشة. ويقول أبو المحاسن أن علي التبريزى قام بشراء كل ما احتاج إلى بلاط ملك الحبشة من نفائس مصر، فضلاً عن أنه اشترى لملك الحبشة ما يحتاج إلى جيشه من أسلحة وخيول وفي احدى رحلاته التجاريه عاد التبريزى إلى الحبشة عن طريق مصر، فوشي به أحد رفاقه فقبض عليه ، ولم يقبل منه مال مقابل إطلاق سراحه، وبادر السلطان بتشهيره ثم تسميره.

وهكذا دخلت العلاقات بين مصر والحبشة في القرن الخامس عشر دوراً عنيفاً، يتصف

يدفعها الله له ولا ظفره بها .كان ديار مصر في جميع ايام دولته من اولها الى اخرها راخية الاسعار كثيرة الخيرات القمح الطيب عشرة ارادب بدينار والشعير عشرين اردب بدينار والفول مثله والعدس والجلبان والبرسيم والترمس جميع ذالك سعر واحد عشرين اردب بدينار واما العسل الدفن المتبن الطيب بدينار القنطار بالمحلي، والقطاره بدينار وقيراطين [و] القنطار بالمحلي والعسل النحل بدينار

بالتحدى والإستشارة من كلان الجانبين ، فأبطل اسحق بن داود ملك الحبشة إرسال الأموال والهدايا المعتادة إلى بطريرك الإسكندرية وسلطان مصر جميعاً. على أن سلاطين المماليك فى مصر عملوا بغباء شديد على قطع الصلة بين الكنيستين المصرية والحبشية، الأمر الذى جعل ملك الحبشة يولي وجهه شطر روما. وقد أدركت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية أنه خير للكنيسة الحبشية أن ترتبط بكنيسة روما من أن تضيع وتبقى وحيدة معلقة دون كنيسة أم تشرف عليها وتوجهها مما يعرض مصير العقيدة المسيحية نفسها فى الحبشة للضياع.وهكذا أقر بطريرك الإسكندرية مشروع ربط الكنيسة الحبشية بكنيسة القديس بطرس فى روما، وخرجت من مصر إلى روماسفارتان سنة ١٤٤٠ ، إحداهما برآسة الراهب أندراوس الأنطوانى والأخرى برئاس بطرس الشماس. وفى نفس الوقت حرص زرء يعقوب ملك الحبشة (١٤٣٤ ـ ١٤٦٨) على تكليف مقدم دير الأحباش بالقدس إرسال بعثة من الرهبان الأحباش للإشتراك فى مجمع فلورنسا الدينى (١٤٣٨ ـ ١٤٣٩). وليس أدل على التقارب بين ملك الحبشة والبابوية فى ذلك الدور من سماح البابا إيو جنيوس الرابع للأحباش بإقامة دير لهم فى روما.

ونستطيع أن نستكشف الكثير عن طبيعة العلاقات بين مصر والحبشة أواسط القرن الخامس عشر من الرسالة التى أرسلها ملك الحبشة زرء يعقوب إلى السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ ـ

واحد ونصف وربع القنطار بالمصرى. والكشاطه بنصف دينار القنطار بالمصرى. والقند الاحمر [عسل القصب المجمد] كانت اسعاره مختلفة على حسب تربه بلد خلاف بلد والنقى من الوسخ فوقت يباع الطيب بدينار القنطار بالمصرى واذا قل ابتاع بدينار وربع والبياض الذى مثل السكر بدينار ونصف القنطار بالمصرى، والقطر بعشرة الدراهم القنطار بالمصرى المحبوب، الكتان بخمسين درهم

١٤٥٣)، وقد وصلت هذه الرسالة مصر سنة ١٤٤٣م (٨٤٧هـ)، وذكر السخاوى نصها بالكامل، وفيما يلى بعض فقرات منها:

«المحب الصادق زرء يعقوب المكنى قسطنطين، من نسل أرعد، من بنى سليمان بن داود عليه السلام. ملك سلاطين الحبشة، وصاحب النواب بالمملكة النجاشية، إلى الإمام الشريف العالى الأوحدى السلطان الملكى الظاهر جقمق، سلطان المسلمين والإسلام بمصر والشام، سيد الأنام... قصدنا تجديد ما سبق من العهود من الملوك المتقدمين من بلادنا وبلادكم... ليكون ذلك العهد مستمراً بلا انحراف، والإتفاق بيننا وبينكم بلا خلاف... وأنتم حفظكم الله عارفون ما يلزم الراعى من النظر فى حال رعيته،وأن الله يطالبه بذلك. وأبرنا البطريرك وإخوتنا النصارى الذين هم تحت عز سلطانكم ومملكتكم الشريفة نفر قليل جداً، ضعفاء الحال مساكين فى كل الجهات، ولا يمكن أن يكونوا قدر قيراط من المسلمين القاطنين بإقليم واحد من بلادنا. وأنتم حفظكم الله ليس يخفى عليكم ما فى بلادنا الواسعة من المسلمين تحت حكمنا، ونحن لهم ولملوكهم مالكون، ولم نزل نحسن إليهم فى كل وقت وحين... وملوكهم عندنا بالتيجان الذهب راكبون الخيل المسومة.. وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا، ولنا الإستطاعة على أن نمنع للزيادة التى تروى بلادكم... ولا يمنعنا من ذلك إلا تقوى الله والمشقة على عباد الله. وقد عرضنا على مسامعكم ما ينبغى

القنطار بالليتى الطيب ودونه بتلتين درهم الشمع الكافورى بتلت دراهم الرطل بالمصرى والمشاع الشرب كثير، والقماش والصوف والادم كثير جد والتجار يبيعون ويشترون ويربحون والبركة حالة فى كل شى. وكانة ايام دولته كلها حسنة طيبة واحوال الرعية مستقيمة ولم يصادر احد من رعيته ولا ظلم احد كعادة من تقدمه والطرق امنه والامور صالحة. ومات(*) فى مدينة دمشق يوم الاربعا

(*) وفاة صلاح الدين فى دمشق.

- -

إعلامه، فاعلموا أنتم يلزمكم، وبما يلقى الله فى قلوبكم،ولم يبق لكم عذر تبدونه...[1]».

هذه هى رسالة ملك الحبشة إلى السلطان جقمق سنة ١٤٤٣، ومنها نستطيع أن نخرج بالمعانى الآتية: أولاً حرص ملوك الحبشة على عدم قطع علاقاتهم مع مصر قطعاً تاماً. ثانياً تعمد ملك الحبشة إظهار قوته وقدرته على إلحاق الأذى بالمسلمين فى بلادهم، وأنه إذا كان ممتنعاً عن ذلك، فليس خوفاً من سلطان مصر، وانما رغبة فى الاحتفاظ بحسن العلاقات معه . ثالثاً جمع ملك الحبشة فى ر سالته بين أسلوب التهديد وأسلوب الترغيب، فلوح بقدرته على تحويل جرى نهر النيل، وذكر أن السلطان لم يبق له عذر بعد ذلك، فإذا لم يحسن معاملة المسيحيين فى بلاده فعليه أن يتحمل النتائج... وفى الوقت نفسه أرفق ملك الحبشة برسالته السابقة هدية للسلطان جقمق عبارة عن سبعين جارية وطشت وابريق من ذهب وسيف مسقط من ذهب وحياصه وبناد ومهماز، وربما كانت هذه الهدية فى حد ذاتها عاملاً مخففاً من عنف بعض عبارات الرسالة، فاكتفى السلطان جقمق برفض طلبات ملك الحبشة، وإن كان قد رد على هديته بهدية طيبة، فيها سرجان من ذهب وشقق مذهبة، وطائر مجوف مصنوع من

(١) السخاوى: التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٦٧ ــ ٧١.

السادس والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمس ماية للهجرة [١١٩٣م] في قلعة دمشق ودفن في المدرسة التي بناها فيها وكان عدد عسكره يوم وفاته عشرة الف فارس، منه طواشه اربعة الف، ومنه قرا غلاميه ستة الف، وكان قد كمل له من العمر سبعون سنه وملك مصر وعزها مما قدمنا ذكره اربعه وعشرين سنه وتسعة اشهر ونصف لانه ملك بعد وفات اسد الدين شيركوه

البللور، وقطع من الجوخ والصوف الملون، وكمية من الزيت الطيب... وحمل رسالة جقمق وهديته مبعوث خاص إلى ملك الحبشة هو يحى بن أحمد[1].

ويبدو أن ملك الحبشة استاء من رد جقمق، فحجز رسوله عنده، وأمر بقتل سلطان عدل الإسلامية ـ وهو شهاب الدين أحمدفي حضرة رسول السلطان، ولما بلغ السلطان جقمق ذلك، استحضر بطريرك الأقباط فضربه وهدده بالقتل، فأسرع البطريرك إلى كتابة رسالة إلى ملك الحبشة يحكي ما حل به من هوان، ويطلب منه الإفراج فوراً عن رسول السلطان. فاستجاب ملك الحبشة أخيراً لذلك .

ومن الواضح أن دولة المماليك كانت في ذلك الوقت ـ قرب منتصف القرن الخامس عشر للميلاد ـ تعاني كثيراً من المتاعب التى تعانيها كل دولة فى خريف عمرها؛ فانتاب الخلل جهاز الحكم، وكثرت ثورات المماليك الجلبان، واضطربت أطراف الدولة بالحركات الانفصالية، وازداد خطر الإمارات التركمانية على حدودها الشمالية... كل ذلك في الوقت الذى ما فتئت القوى الأوربية المسيحية تفكر فى الثأر لنفسها. لذلك وقف السلطان جقمق موقفاً سلبياً من ملك الحبشة، وخاصة لأن موقع الحبشة الجغرافى كان يجعل الحطى بعيداً عن متناول يد السلطان. وإذا كان المسلمون بالحبشة لم يكفوا عن طلب النجدة من سلطان المماليك فى

(١) المرجع السابق، ص ٧١.

في جمادى الاول سنة اربع وستين وخمسماية هلالية وخراجية [١١٦٨ / ١١٦٩م] ومات بدمشق في التاريخ المذكور وذكر بعض اهل العلم انه ملك ديار مصر يوم الاربعآ ومات بدمشق يوم الاربع ومن حسن سيرته وفضل دولته ان بعد موته لم تركض فرس لا بالشام ولا بمصر ولا [......] ولم تختلف اولاده ولا ذريته ولا طلب منهم احد الملك لنفسه ولا خالف اولاده أحد من اصحابه بل

مصر، فإن الظاهر جقمق اكتفى بأن أرسل رسولاً ـ هو مثقال الحبشي ـ إلى سلطان عدل ينصحه بمصانعة ملك الحبشة والبعد عن التطرف في سياسته معه، حرصاً على سلامة مملكته.

وهكذا دأب سلاطين المماليك في مصر في أواخر أيام دولتهم على غض النظر عما كان يأتيه ملوك الحبشة من أعمال استفزازية. من ذلك أنه حدث سنة ١٤٤٩م (٨٥٣هـ) أن حضر إلى مصر قاضي سواكن وأخبر السلطان جقمق أن زرء بن يعقوب أعد أسطولاً ضخماً من مائتي سفينة لغزو الحرمين والسيطرة على شواطئ الحجاز، فضلاً عن تصميم ذلك الملك على قطع ماء النيل عن مصر. ومع ذلك استمر سلاطين المماليك في ذلك الدور يحسنون استقبال سفراء ملوك الحبشة وحجاجهم،وهي السفارات التي تكرر وصولها، و التي أشرنا إلى بعضها في عهد السلطان الأشرف قايتباى والسلطان قانصوه الغوري.

على أن الفتح العثماني لمصر، وسقوط دولة البرين والبحرين ـ وهي دولة المماليك التي ملكت بر مصر وبر الشام وأطلت على البحرين المتوسط والأحمر ـ في قبضة السلطان سليم العثماني سنة ١٥١٧؛ جاء إيذاناً بمرحلة جديدة في التاريخ. ولعدة قرون تالية، لم تعد لمصر سياسة خارجية مستقلة، تتصرف بوحيها تجاه الحبشة أو غير الحبشة من القوى الخارجية، وانما كان عليها أن تسير في فلك السياسة العامة للدولة العثمانية.

اتفقوا جميعهم على الذى ملكوه من اولاده: الملك العزيز مصر والبيت المقدس، والملك الظاهر حلب، والملك الافضل دمشق الى [أن] دبر اخوه الملك العادل ابو بكر ما دبر اخذ الملك بمصر ودمشق منهم وسنشرحه فيما بعد وهذا ما انتها الينا علمه والسلام.



نقود الملك العادل

وبعد تقدم ما شرحناه من ايام بطركية هذا الاب السعيد القديس الطاهر انبا مرقس وما قاساه من

الأمير برقوق اليلبغاوى
ونهاية دولة المماليك الأولى

جلب برقوق الى القاهرة سنة ١٣٦٣م ـ دخول برقوق فرقة اليلبغاوية ـ اشتراك برقوق. فى ثورة اليلبغاوية على السلطان شعبان ونفيه الى الكرك سنة ١٣٦٨م ـ عودته الى العمل بالقاهرة سنة ١٣٧٣م فى خدمة أمير على وأمير حاجى ابنى السلطان شعبان ـ قتل السلطان شعبان سنة ١٣٧٦م وتولية ابنه أميراً على السلطنة ـ الصراع بين اليلبغاوية على الوظائف الهامة ـ تعيين برقوق فى منصب الامرة المملوكية فى خدمة الأمير اينبك البدرى اليلبغاوى ـ استغلال برقوق للشحناء بين زعماء اليلبغاويه ـ تولية البدرى الاتابكية سنة ١٣٧٧م ـ ترقية برقوق الى أمير طبلخاناة ـ طمع اينبك فى السلطنة سنة ١٣٧٧م وفشله ازاء معارضة الخليفة ـ تحريض برقوق المماليك الترك على اينبك البدرى ـ المنافسة الخافية بين برقوق واينبك البدرى والتخلص منه ـ الاتفاق بين اليلبغاوية بزعامة برقوق على الانفراد بشئون الدولة ـ تعيين برقوق فى منصب أمير سلاح ـ استبداد برقوق وبركة بالأمور دون يلبغا الناصرى ـ وصول برقوق الى منصب الاتابكية سنة ١٣٧٧م ـ سعيه الى تعيين أقاربه فى وظائف الدولة ـ التنافس بين برقوق وبركة واشتداد النزاع بين الترك والجركس ـ مؤامرة فى صفوف الجراكسة سنة ١٣٧٩م لهدم نفوذ الجراكسة ـ اثارة برقوق للعامة على بركة ـ انتصار الجراكسة بزعامة برقوق وسجن بركة

المصاعب وشاهده من الشدايد في بداية مملكة
صلاح الدين من خروج امره بان تنزع الصلبان
الخشب الذى كانو على كل قبه عالية فى كل
كنيسة من جميع الكنايس التى بارض بديار مصر
[وكل من] راى كنيسة كان ظاهرها مبيض تليس
بالطين الاسود من فوق البياض، وان لا يدق
ناقوس في جميع ديار مصر ولا يدور النصارى
بالزيتونة في مدينة ولا قرية كالعادة الاولى وان

ـ ثورة العرب ضد الجراكسة ـ اقتناء برقوق لأعداد جديدة من الجراكسة ـ وفاة السلطان على بن شعبان أواخر سنة ١٣٨١م ـ تولية حاجى بن شعبان بموافقة برقوق سنة ١٣٨١م ـ اتجاه برقوق نحو العامة ـ تولية برقوق السلطنة سنة ١٣٨٢م.

* * *

ظلت فكرة القضاء على بيت قلاون واغتصاب السلطنة عالقة بأذهان اليلبغاوية الذين عادوا إلى القاهرة، غير أن الذى يثير الدهشة حقا أن يفكر فى هذا الأمر مملوك من أجناد اليلبغاوية العائدين من الكرك وهو برقوق بن أنس الجركسي.

وأصل هذ المملوك من قبيلة «كسا» الجركسية [١]، ولد حوالى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) [٢] وحين بلغ العشرين من عمره بيع فى أحد أسواق الرقيق ببلاد القرم إلى عثمان مسافر أحد مشاهير تجار الرقيق الخوارزمية [٣]، ومن هناك جلبه إلى القاهرة سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٣م)[٣] وباعه إلى الأمير الكبير يلبغا العمرى الناصرى الخاصكى وهو وقتذاك أتابك

(١) أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٨٢، ٢٢٣.
(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٦.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥٦ ب.

(3) Huart : Hist. Des Arabes T11p. 59.

يغيرو النصاره زيهم ليعرفو من المسلمين بان يشدو زنانيرهم في اوساطهم ولا يتردون [يسيروا] بعرضي ولا طيلسان ويرفعون عدب عمايمهم ولا يركبون الخيل ولا البغال بل يركبون الحمير ولا يتظاهرون بشرب الخمر وان يخفضو اصواتهم في صلواتهم. وطمع او باش المسلمين فيهم في ذالك الوقت واهانوهم ورتبو علي بعض الكنايس في المدن والقرى فهدموها ونال القوم من ذالك مشقة

السلطان محمد بن حاجي. ومر برقوق فيما مر به غيره من مماليك يلبغا الأجلاب من خطوات الإعداد في مناظر الكبش، التي جعلها يلبغا العمرى تنافس قلعة الجبل في مظاهر القوة والسيادة، وعمل بها على إضعاف المركز السياسي لأسرة قلاون تمهيداً لتحويل العرش عنه[1].

ونظراً لما لمسه الأمير يلبغا العمر الخاصكي في مملوكه برقوق من الذكاء الخارق لم تزد المدة السابقة على عتقه على أربع سنوات، وأصبح برقوق من جملة مماليكه الكتابية المقربين إليه [2] واقترن اسم برقوق بالعثماني نسبة إلى التاجر الذى جلبه؛ ومع هذا دأب يلبغا على تلقيبه بالشيخ لما أظهره من السبق في ميدان الفقة وسائر العلوم الدينية. وسرعان ما جعل له مكانة مرموقة لما امتاز به من جمال الخلقة [3] والتفوق في فنون الحرب والفروسية [4].

(١) راجع ابن الطولوني: النزهة السنية ص ٢٢١.
(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٤٧٥.

Iorga : Notes & Extraits T11p. 532.

(٣) الإسحاق: لطايف أخبار الدول ص ١٤٠. ينفي ابن تغرى بردى ماذكرته بعض المراجع أن اسم برقوق كان الطنبغا وأن يلبغا العمرى سماه برقوقا لنتوء في عينيه ويؤيد رأيه بأن أقاربه واخوته حين حضروا نادوه «برقوق» راجع النجوم جـ١١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥، المنهل جـ١ ورقة ٣١٦ أ، ب، انظر السيوطي كتاب تاريخ الخلفاء ثم ملوك مصر إلى الأشرف قايتباى ص ٩.
(٤) العيني: السيف المهند ص ٣٩.

عظيمة حتى خرج جماعة من كتاب المصريين
والقاهريين من اديانهم وجحدو مسيحهم. ولم تزل
الامور تتوطا بصلات هذا القديس مرقس البطرك
وهو يجاهد على شعبه ورعيته الى ان اصلح الله
لهم قلب سلطانهم ببركة صلواته فقربهم وادناهم
واستخدمهم في ديوانه في اموال دولته وانعم
عليهم فعادو الى ارفع مما كانو عليه وركبو الخيل
والبغال ولبسو الخفاف والثياب المفرحة وسارو معه

وأخلص برقوق لسيده أشد الإخلاص حتى ثار معه على السلطان شعبان بن حسن سنة ٧٦٨هـ - سنة ١٣٦٦م [١]. ورغم فشل ثورة يلبغا العمرى وقتله فإن ثورات اليلبغاوية تكررت بعده واشترك برقوق مع الفريق الثائر من اليلبغاوية. وحين ازداد خطر هؤلاء الثوار من اليلبغاوية أشار المماليك الترك السلطانية على السلطان شعبان «بحسم دائهم» ونفى العناصر الثورية منهم، فنفى السلطان شعبان برقوقاً مع عدد منهم إلى الكرك [٢] سنة ٧٦٩هـ - ١٣٦٨م، غير أن اليلبغاوية الذين انضموا إلى السلطان وبقوا بالقاهرة أمثال الأمير منكلي بغا، والأمير طشتمر الدوادار ما زالوا يسعون لدى السلطان للإفراج عن زملائهم حتى كللت مساعيهم بالنجاح، فأفرج السلطان شعبان عنهم في سنة ٧٧٣هـ - سنة ١٣٧١م ولكنه لم يسمح لهم بالعودة للقاهرة فخرج برقوق مع مملوك تركي من اليلبغاوية هو بركة الجوباني ليعملا في خدمة الأمير منجك اليوسفي نائب دمشق [٣]. بيد أن إقامة برقوق عند منجك اليوسفي لم تشبع طموحه إلى السلطنة بعد أن أصبحت ميداناً لتنافس الأمراء. وبدأ برقوق يتلمس الأحوال التي تمهد لعودته إلى القاهرة ولاسيما بعد أن تقابل مع أحد الرهبان السوريان

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٣.
(٢) ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦١ - ٤٦٢، راجع بداية حياة برقوق في العسقلاني: تاريخ المائة التاسعة ورقة ٣.
(٣) المقريزى: المقفى الكبير جـ١ ورقة ١٨.

في الغزوات كتاب ديوانه وكتاب اهله واقاربه وكتاب اجناده وتعلق كل نصراني بكتاب امير من امرآ دولته ومن اهله واقاربه وحفظ كل منهم حرمة كاتبه فصار لكلمتهم جمال ومال وجاه ونفاذ كلمة وعز، ونقل الله بصبرهم وصلوات بطركهم ورجوعهم الى الله وطاعتهم لريسهم ذلهم الى عز واهانتهم الى كرامة وبغضهم الى محبة وضعفهم الى قوه واكثرو من الصدقات ولازمو الصلوات

وتنبأ له بأن خيرات كثيرة تنتظر الجراكسة [1]، وأنهم سيحكمون سورية. وتذكر الوثائق أن هذه الكلمات أثرت تأثيراً بالغاً في نفس برقوق، مما يبين أن طمع برقوق في عرش مصر بدأ منذ أن كان مملوكاً عادياً. والخلاصة أنه ما كاد اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة يظهرون للسلطان شعبان خطورة اعتماده على مماليكه دون وجود منافس لهم حتى استدعى اليلبغاوية من سورية، فعاد برقوق وزميله بركة في سنة ٧٧٥هـ (سنة ١٣٧٣م) مع عدد كبير من اليلبغاوية الجراكسة والترك إلى القاهرة [2]، وقاد الحظ الأمير برقوق وزميله إلى العمل في القصر السلطاني في خدمة ولدى السلطان أمير على وأمير حاجى وشغل كل منهما منصب أمير عشرة [3].

على أن الأمير برقوق لم يكن مملوكاً عادياً ولكنه امتاز حقاً عن أمراء المماليك بذكاء فائق ودهاء خارق، وعندئذ بدأ برقوق يستخدم ذكاءه ودهاءه في التدبير على السلطنة المملوكية الأولى، ورسم خطة محكمة لهذا الأمر [4]. ولم لا؟ فالسلاطين يقضون أوقاتهم في اللهو والصيد وينصرفون عن شئون الحكم إلى ملذاتهم وأهوائهم.

(1) Iorga : op cit, p. 532.

(٢) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلة ٣ ورقة ١٤٦.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٢٤١.
(٤) الجبرتي: عجايب الآثار في التراجم والأخبار جـ١ ص ١١٣ وما بعدها.

وتشبهو ببعضهم بعض فى المسارعه الى فعل
الخيرات فنمت ارزاقهم وصحت اجسامهم وكثرة
بنوهم وبناتهم وخزاينهم من خيراتهم وصلحت
امورهم وطابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وعلت
كلمتهم عند سلطانهم فتنجزو التواقيع منه
والكتب عنه الى ولات الاعمال بمرمة بيعهم وما
تشعث من كنايسهم وفتحها لاقامت صلواتهم
والدعا لله بسلامة سلطانهم فرمو ما كان وهى

واشتملت خطة برقوق على ناحيتين هامتين: أولاهما، أن يعمل - وهو أمير عشرة - من وراء ستار على القضاء على كبار الأمراء حتى تتاح له الفرصة للترقى واحتلال منصب يمكنه من الهيمنة على الجيش، فإذا نجح استطاع أن يزيد أعداد الجراكسة فى الدوائر المملوكية، وثانيهما أنه رغم ما عرف عن الجراكسة من تعصبهم لعنصرهم فإنه أصبح من ألزم الأمور أن يخفى الأمير برقوق اتجاهه العنصرى وقتذاك، وأن يوطد عزمه على الاستفادة من النعرة الحزبية فى إثارة المماليك اليلبغاوية جميعها بما فيهم من ترك وجركس على المماليك السلطانية أنصار بيت قلاون، حتى إذا نجح فى إضعاف شأن المماليك السلطانية استعان بالمماليك الجراكسة فى داخل فرقة اليلبغاوية وخارجها للقضاء على المماليك الترك فى فرقة اليلبغاوية نفسها.

بدأ برقوق عمله بمراقبة مؤامرات كبار الأمراء اليلبغاوية ضد السلطان شعبان. وتذكر المصادر المعاصرة أنه رغم ضآلة وظيفة برقوق فإنه شجع هذه المؤامرات بل أخذ ينسج خيوطها حتى إذا ما قارب موسم الحج سنة ٧٧٨هـ (١٣٧٦م) دفع برقوق صهره الأمير طشتمر العلائى الدوادار - وهو أكبرالأمراء اليلبغاوية آنئذ - دفعة إلى أن يأتمر بالسلطان شعبان لتكون له السلطنة، رتب برقوق لصهره الخطة وخلاصتها أن يخرج طشتمر للحج شكراً لله الذى

[ضعف ووهن] وبنو ما كان هدم ورمو ما كان تشعت وعادت الامور الى اوفا ما كانة من السلامة ورخص الاسعار وطيب الثمار وجرى النيل ونزول الامطار. وتنيح هذا القديس انبا مرقس وقد رضى الله عن شعبه بصلواته وهم محفوظين ولم يهلك منهم الا ابن الهلاك، لا زلنا يا اخوة نحن واياكم بصلواته محفوظين وبعين السلامه والكفاية من الله ملحوظين بصلوات القديس امين.

شفاه من الطاعون [1] وبعيداً عن القاهرة يمكنه أن ينفذ خطته. ثم تعدلت الخطة فجأة حين قرر السلطان شعبان أن يحج مع الأمير طشتمر الدوادار، وذلك بسبب اعتماد السلطان شعبان اعتماداً كبيراً على إخلاص طشتمر، وخشيته أن ينتهز اليلبغاوية الموجودون بالقاهرة فرصة غياب كبيرهم فيثورون عليه، ومن ثم كان قرار السلطان شعبان بالخروج للحج مع الأمير طشتمر الدوادار والخليفة المتوكل. وصحب السلطان معه عدداً كبيراً من أمرائه ومماليكه الأشرفية وبعض كبار الأمراء اليلبغاوية الذين اعتقد في إخلاصهم له، ومنهم الأمير يلبغا الناصري الصغير. [2]

وحسب السلطان أن وجود هؤلاء اليلبغاوية معه سيدرأ عنه شر المؤامرات بيد أن هؤلاء اليلبغاوية الذين سافروا مع السلطان تواعدوا على إثارة الفتنة ضد السلطان شعبان في العقبة في الوقت الذى يثور فيه أصحابهم من اليلبغاوية الذى بقوا بالقاهرة ويعلنون موت السلطان شعبان وسلطنة ابنه الطفل. وصارت مهمة الأمير طشتمر الدوادار إشعال نار الثورة بالعقبة

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٣، انظر كذلك.
Muir: the Mamluk Dynasty p. p. 101 ` 201.

(٢) أصله من مماليك الأمير يلبغا العمرى الناصرى الكبير فنسب إليه وقد أصبح مقدما في دولة الصالح حاجي ـ راجع العسقلاني الدرر الكامنة جـ٤ ص ٤٤٠.

الاب القديس انبا يوانس [يوحنا] البطرك الثانى
من الدور الثانى من عدد الاباّ
البطاركه الرابع والسبعون
[١١٨٩ / ١٢١٦م]

ولما تنيح الاب انبا مرقس ابن زرعه البطريرك رزقنا الله بركة صلواته فى اليوم السادس من طوبه سنة تسع ماية وخمسة للشهدا الموافقة لسنة خمس وثمانين وخمسماية للهجرة اتفق الشعب

بتحريض المماليك السلطانية على مطالبة سلطانهم بمستحقاتهم فى وقت لم يكن يملك فى يده شيئا [١]. ونجحت الخطة حين ضيق المماليك الأشرفية على سلطانهم الخناق وحاولوا قتله، حتى إنه لم يجد من يستنجد به سوى طشتمر ليحاول إقناعهم بالعدول عن الثورة. ولكن طشتمر تخلى عن السلطان شعبان [٢] الذى أسرع وهرب تحت جنح الظلام إلى القاهرة.ومن العجيب أن المماليك الأشرفية لم يفطنوا إلى أهداف مدبرى هذه المؤامرة. وحين وجدوا أنفسهم بدون سلطان حاولوا علاج الموقف بسلطنة الخليفة المتوكل، ولكن الخليفة رفض موافقتهم [٣]؛ فأسقط فى أيديهم وقرروا العودة إلى القاهرة.

وعلى حين جرت الحوادث على هذا النحو فى العقبة نفذ باقى اليلبغاوية فى القاهرة ما تواعدوا عليه مع إخوانهم فثاروا بزعامة بعض أمرائهم الترك وهم طشتمر اللفاف وقرطاى الطازى واينبك البدرى وقطلقتمر العلانى. وادعوا أن السلطان شعبان مات وأنهم يريدون سلطنة أبنه. ولعب برقوق دورا هاماً فى ترتيب ثورة القاهرة [٤] التى تمكن فيها الثوار من كسر

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان: ورقة ١ب.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٠.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٧٩.
(٤) راجع ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٦.

الارتدكسى المسيحى والشيوخ الاراخنة بمدينة مصر والقاهرة ومن حضر من الابا الاساقفة على قسمة الاب العالم البتول الفاضل الطاهر القديس الدين المسيحى انبا يوحنا [يوانس] وكان اسمه قبل تقدمته ابو المجد ابن ابو غالب ابن سورس فاخذوه قهر فى يوم الاحد الحادى عشر من امشير سنة تسع مائة وخمسة للشهد وهى الموافقة لسنة خمس وثمانين وخمس مائة للهجرة وهى السنة

شباك الزمام المطل على باب الساعات بالقلعة ونهبوا بيته وأنزلوا أمير على الذى لم يجاوز الثامنة من عمره إلى الاصطبل السلطانى وسلطنوه ولقبوه المنصور وذلك فى ٨ من ذى القعدة سنة ٧٧٨هـ سنة ١٣٧٦ [١].

وسمع ثوار القاهرة بنجاح ثورة العقبة، ولكنهم فوجئوا بفرار السلطان شعبان إلى القاهرة ووجدوا أنفسهم أمام مشكلتين : أولهما مواجهة المماليك السلطانية العائدين من العقبة ليكشفوا حقيقة المؤامرة فى الوقت الذى يبقى فيه سلطانهم مختفياً بالقاهرة ، وثانيهما أن عودة طشتمر الدوادار وغيره من اليلبغارية قد يحدث انقساماً فى صفوف ثوار القاهرة بسبب الاختلاف على من سيكون بيده الحل والعقد.

أما مشكلة المماليك السلطانية فإنها انتهت حين كشفت امرأة عن مكان السلطان شعبان وقبض عليه وهو لابس زى النساء، ثم أحضر إلى القلعة بعد أن ألبس عدة الحرب وعذب ليظهر أمواله ثم خنق [٢]، وقضى اليلبغاوية بذلك على آمال مماليكه الأشرفية العائدين من العقبة. وسرعان ما سلموا بما جرى من التغيرات بعد أول هزيمة لهم أمام اليلبغاوية فى ذى

(١) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٨٩.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ـ راجع كذلك السيوطى تاريخ الأشراف قايتباى ورقة ٢٥ب.

التى تنيح فيها انبا مرقس البطرك بعد نياحته بشهر
واحد وخمسة ايام وقسموه بطركا وكان المساعد
لهم فى تقدمته عند السلطان القاضيان المرضى
والرضى اخاه ابنا الجباب [الجابى] وكان هذا الاب
كما قلنا بتولا عالما لما قد قرى من [الكتب]
العتيقة والحديثة، كاملا فى جسده وقامته، باشوش
الوجه حسن الخلق لين الكلام طيب المحاضرة ملازم
اوقات الصلوات كثير الصدقات ذو مال وايسار

الحجة سنة ٧٧٨هـ (سنة ١٣٧٦م) . وتبع هذا حرمان بعضهم من إقطاعاتهم التى انتقلت إلى اليلبغاوية. وما لبث أن تدعم مركز اليلبغاوية حين حضر الخليفة والقضاة من العقبة وأقروا شرعية إجرائهم وجددوا البيعة للسلطان على.

ويمكن القول إن الأمير برقوق نجح فى تهيئة الفرصة لليلبغاوية للسيطرة على أمور الدولة منذ نهاية هذا العام حتى أصبح اليلبغاوية سادة الجيشي المملوكى [1]. ثم إن هذه الحادثة مكنتهم من السيطرة على الوظائف الكبيرة في الدولة فصار طشتمر اللفاف قائد ثورة القاهرة أتابك العساكر بمصر وتولى اينبك البدرى أمير آخور كبير وقرطاى الطازى رأس نوبة.

وأما طشتمر الدوادار الذى حرض على ثورة العقبة فإن كبار الأمراء اليلبغاوية اتفقوا على إبعاده خشية تجدد إثارته للمماليك الأشرفية، فعينوه بنيابة دمشق وأمروه بالسفر فوراً إلى مقر نيابته [2]، وانتقل برقوق بعد هذه الحركة مع جماعة من الجراكسة إلى العمل فى خدمة اينبك البدرى [3].

(١) أنظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٢.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٨٠.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

من صباه صار ذالك اليه من ابوه واجداده وكان له دار وكالة بمدينة مصر يتجر فيها ويبيع ويشترى اصناف البضايع وله سكرية لعمل السكر وطواحين واملاك وكان كاملا فى دينه ودنياه وغير محتاج الى شى من امور الدنيا يصدق صدقات كثير، ومع اشتغاله بامور الدنيا ما كان يغفل عن صلوات السواعي الليلية والنهارية محبا ومجتهد فى ضيافة الغربا وافتقاد المرضى والمحبوسين ويدفع

والنتيجة الطبيعية لسيادة فرقة اليلبغاوية على المماليك السلطانية (الأشرفية) هي بداية التطاحن بين الأمراء اليلبغاوية الترك فيها على الزعامة. أما برقوق فإنه استغل الشحناء بينهم ورسم لهؤلاء الزعماء الخطة ليباغت الواحد منهم الآخر. وتفصيل هذا أنه ما إن تولى قرطاى الطازى منصب الأتابكية خلفاً لطشتمر اللفاف الذى مات سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) حتى صاهر الأمير أينبك البدرى أمير آخور الأتابك قرطاى الطازى ولكن هذه المصاهرة اتخذها أينبك البدرى وسيلة للغدر بصهره وقتله وتولى وظيفته [١]. وبدأ الأمير أينبك البدرى مؤامرته بالقبض على عدد كبير من أتباع صهره وسجنهم بالإسكندرية فى المحرم سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) [٢]. ثم أنزل السلطان إلى الاصطبل، وأعد الأمراء والمماليك لقتال قرطاى وأتباعه. غير أن قرطاى سرعان ما اكتشف الأمر وهرب إلى سرياقوس، ومن هناك أرسل يطلب نيابة حلب فأجيب إلى طلبه، حتى إذا اطمأن إلى أينبك وحضر إليه قبض عليه أينبك ونفاه مع عدد من أتباعه إلى غزة [٣].

وتشير المصادر المعاصرة إلى أن برقوقا دبر هذه المؤامرة كذلك ومكن أينبك من الوصول إلى الأتابكية [٤]، فانتقل أينبك بمماليكه إلى مدرسة السلطان حسن والسلطان شعبان، ثم

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٢.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٠٧.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٣.
(٤) راجع ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٦.

الجوالى عن الفقر من اهله والمحتاجين من قومه وكان كثير المودة لكل احد ويفعل الخير مع كل احد حتى ظهر امره واشتهر ذكره، فلما تنيح انبا مرقس ابن زرعه البطرك الذى كان قبله لم يحتاجو الاراخنة ان يطلعو دير ابو مقار ولا غيره من الديارات كما جرت العادة يطلبو ويحثو عنمن يصلح لهذه الرياسة المسيحية والمملكة العلوية والخدمة الروحانية والدرجة الفاضلة السليحية لما

أخذ الأمير أينبك يعد العدة للقضاء على سلطنة بيت قلاون وإعلان نفسه سلطاناً، فأخذ يرقى أبناءه ومماليكه [١]. وحظى برقوق بالترقى من إمرة عشرة إلى إمرة طبلخاناه دفعة واحدة [٢]. ومع هذا بدت خطوة إعلان أينبك سلطاناً ظاهرة خطيرة لدرجة أنه لم يجسر على القيام بها دفعة واحدة بل اتخذ جسراً يعبر به إلى هذا المنصب الجديد، فأعلن رغبته فى سلطنة ابن زوجته الأمير أحمد بن يلبغا العمرى الكبير، إذ فضلاً عن أنه ابن أستاذه ويرضى عنه سائر اليلبغاوية فإنه يسهل عليه خلعه متى أراد لضعف شخصيته. غير أن الخليفة المتوكل على الله رفض موافقته على هذه الخطوة الجريئة لأن أحمد بن يلبغا العمرى «ليس من بيت السلطان»[٣]، فلم يسع أينبك سوى عزل الخليفة المتوكل ونفيه إلى قوص وتقرير زكريا بن الواثق فى الخلافة مكانه [٤] فى ٤ من ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ.

وحسب الأمير أينبك البدرى أنه يمكن إعلان نفسه سلطاناً بالاستعانة بالخليفة الجديد

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ١ ورقة ١٧٣أ.
(٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٣١٦ ب : يلاحظ أن الترقى إلى أعلى المناصب دون النظر إلى الاعتبارات المملوكية المعروفة فى التراتب الوظيفى المملوكى أصبح بيد كبار الأمراء إرضاء لأتباعهم من أهل الثقة ليكونوا عوناً لهم على تحقيق مآربهم.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٠٩.
(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٢٤٥ (مصورة).

صح عندهم وعلموه وتحققوه مما قدمنا ذكره من
صفاته لم يحتاجو الى شهادة ولا التمسو على ما
وصفناه زيادة فقدموه بتشديد الله لهم والهام روح
القدس الذى اختاره ورضيه لرعاية قطيعه كما قال
الرب لبطرس ان كنت تحبنى فارع خرافى،
وكذلك لما علم السيد المسيح ان هذا الاب يحبه
سلم له خرافه ليرعاهم كما قال فى المزمور [٧٩]
فرعاهم بطهارة قلبه وبرفق يديه ساسهم واهداهم

وبتأييد عدد كبير من خشداشينه بعد ترقيتهم السريعة. ولكن الخطوة الجريئة التى أقدم عليها حين عزل الخليفة المتوكل سرعان ما ظهر صداها لدى كبار الأمراء اليلبغاوية فى سورية، إذ خشى هؤلاء الأمراء على مراكزهم من أن يحتلها أتباع اينبك البدرى. فثاروا فى ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) على أينبك بزعامة الأمير طشتمر الدوادار نائب دمشق الذى سبق لليلبغاوية إبعاده إليها. وحين أحس الأمير أينبك بالثورة استشار برقوقاً فى أمرها، فأشار عليه بأن يجهز حملة للتوجه سريعاً إلى سورية لإقماع الثائرين.

وقبل أن تغادر الحملة القلعة عمل أينبك على استجلاب رضا الشعب، فأعاد الخليفة المتوكل وقرر أن يستصحبه إلى سورية، كما صحب الحملة السلطان على، ومن الأمراء اليلبغاوية الترك اختار أينبك يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى ضمن الأمراء المتوجهين مع الحملة[١]. ووجد الأمير برقوق فى هذه الحملة فرصة ذهبية للتخلص من أينبك، فوضع خطة لقتل أينبك أوعزله، عهد بتنفيذها إلى يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى . وهنا يوضح المقريزى بدقة سياسة الأمير برقوق نحو الترك ومدى إخفائه لاتجاهه وأطماعه فى السلطنة فى قوله «غير أنه لدهائه لم يظهر ذلك لأصحابه حتى يخلو له الجو تماما» [٢].

(١) المرجع السابق والجزء ص ٣١٠.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص٣١٢.

واهتـدت البـيعـة فى ايامـه وصلح حـال الشـعب ودامت السـلامة. وقـد كـان اتصـال الكلام وشـرح مـا جـرى فى ايام دولة صـلاح الدين قـادتنـا فـيـه الضرورة الى كمال سيرته في ايام بطركية القديس الطاهر انبـا مرقس وقـد كـان هذا الاب تنيح قـبل وفـات صـلاح الدين باربع سنين لانه توفا فى سنة خمس وثمانين وخمس مايه وصلاح الدين توفا فى سنة تـسع وثمـانين و خـمس مـايه، وكـان ينبـغي ان

والخلاصة هي أن يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى قادا الثورة على أينبك بتحريضهما العسكر المتوجه إلى سورية فى ٢٩ من ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ سنة ١٣٧٧م واضطر أينبك إلى الفرار ونجـحت خطة الأمـيـر برقـوق[(١)]، وهدأت الأحوال مؤقـتـاً فى سـورية وعـاد الأمـراء الثـلاثة بالعسكر والسلطان إلى القلعة فى ٣ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩ هـ [(٢)].

وأصبح واضحاً أن الأمر كله صار وقتذاك بيد هؤلاء الأمراء اليلبغاوية الثلاثة وهم يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى وبرقوق العثمانى. على أن الأمير برقوق احتال على بركة حتى وافقه على اختيار الأمير يلبغا الناصرى أتابكاً ومقدماً لليلبغاوية، لا احتراماً لأقدميته فى الإمارة ولكن رغبة فى التخلص منه هو الآخر. ومع أن الأمير برقوق ارتقى بعد هذه الحركة إلى وظيفة أمير اخور، وصار بركة أمير مجلس غير أنهما كانا أبرز شخصية من يلبغا الناصرى لأنهما أصبحا على قول ابن خلدون «أبصر القوم بالسياسة وطرق التدبير» [(٣)] ثم إن يلبغا الناصرى لم يكن يوماً مع الفريق الثائر على سلطنة بيت قلاوون ولهذا لم تكن أوامره محل طاعة اليلبغـاوية.

---

(١) مع أن يلبغا الناصرى اشترك فى الثورة على أينبك إلا أنه كان من أنصار بيت قلاوون بدليل أنه صحب السلطان شعبان حين فر من العقبة إلى القاهرة . راجع ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٠.

(٢) العينى عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٧.

يكون مـا جـرى في هذه الاربع سنين الزايدة في
هذه السـيـرة وانما قـادة الضـرورة لا يرادها هناك
لاجل فتوحه واموره وحروبه كانت متصله ببعضها
بعض الى ان انفصلت بالهدنة والصلح لان بعدها
توجـه الى دمـشق من مـصـر بعـد ترتيب الأمـور
وتهـديتـهـا واحكامـهـا فـمات في دمـشق على مـا
وصفنا من السلامة له ولرعايته ودفن في المدرسة
التي بناها بدمشق الملك العزيز، وتوفا كما تقدم

واضطر الناصرى إلى التسليم لبرقوق وبركة في كثير من الأمور حتى أقنعاه آخر الأمر بالقضاء على بعض الأمراء اليلبغاوية الذين نافسوهم بزعامة الأميرين دمرداش وتمر باى الحسنى، وأتبع برقوق وبركة هذا العمل بتعيين أتباعهما في الوظائف التي خلت [١].

ثم بدت أمام برقوق ناحية في غاية الأهمية وهي أنه وجد أن الأتابك أصبح يسكن الاصطبل بعد هدم مناظر الكبش، وأن الأتابك نتيجة لهذا يسيطر على الخيل والسلاح، فما زال حتى أقنع الامير يلبغا الناصرى بترك الاصطبل والخروج من القلعة ليسكن في بيت شيخون وانتقل برقوق مكانه وسكن بالاصطبل.

بيد أن استئثار هؤلاء الأمراء اليلبغاوية بالنفوذ تبعه اضطراب الأحوال الداخلية في البلاد وظهور عدة محاولات من جانب بعض الأمراء الترك لإنقاذ سلطنة بيت قلاوون وذلك بمناداتهم بضرورة تولية سلطان كبير من هذه الأسرة [٢]. وأدرك برقوق خطورة هذه المحاولات واجتهد أن يصيد عصفورين بحجر واحد، فاتفق مع يلبغا الناصرى وبركة الجوبانى على دعوة طشتمر الدوادار لتولى الأتابكية في مصر [٣]. وأراد بهذا أن يتخلص من طشتمر الدوادار

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٤.
(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٤.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

شرحه، وملك بعده ولده الملك العزيز عثمان ديار مصر واعمالها والبيت المقدس واعماله فى شهر ربيع الاول سنة تسع وثمانون وخمسماية الهلالية [١١٩٣م] وقد كان صلاح الدين هادن الفرنج قبل وفاته فلم يغدرو به بعد موته ولا فسخو الهدنة ولا تحرك منهم احد من مكانه ولما عادو ملوك الفرنج الانكتار والامان [الألمان] والافرنس وغيرهم الى بلادهم ملكو الكندهر [الكونت هنرى دى

نائب دمشق وهو أكبر أمير يلبغاوى وقتذاك، كما أن فى هذا التعيين ما يرضى الترك ويؤجل مسألة تولية سلطان كبير من أسرة قلاوون. ومهما يكن من أمر فإن طشتمر الدوادار رحب بهذا التعيين، وحين وصل القاهرة فى ٢٩ من ربيع الآخر سنة ٧٧٩هـ ١٣٧٧م استقبله برقوق وبركة أحسن استقبال كما أشركا السلطان فى استقباله [١]، ثم وزعت الوظائف فتقرر أن يترك الأمير يلبغا الناصرى لطشتمر الأتابكية، وأن يعمل بدلاً منها فى إمرة السلاح.

وبدا لطشتمر الدوادار كأنما صار له الحل والعقد فى الدولة، ولكن الحقيقة أن الاجتماعات بين برقوق وبركة توالت بالاصطبل للتدبير عليه، وخاصة بعد أن أبعدا يلبغا الناصرى إلى نيابة طرابلس [٢]. غير أن هذه الاجتماعات لم تمنع وجود المنافسة الخافية بين هذين الأميرين. واتخذت هذه المنافسة صورة عنصرية، إذ تسابق الأميران فى شراء المماليك من جنسيهما «استغلاظاً لشوكتهما واكتنافاً لعصبيتهما أن يمتد الأمر إلى مراتبهما».. كما أخذا «يبذلان الجاه لتابعيهما ويوفران الإقطاع لمن يستخدم لهما، ويخصان بالإمرة من يجنح من أهل الدولة لهما، وإلى أبوابهما حتى انصرفت الوجوه عن سواهما» [٣]، وخطا برقوق خطوات

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٤أ (نسخة خطية)
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨.
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٤٦٧.

كامبنى؛ على الساحل وكان رجل بطل شجاع قد
جا من جملت المجاهدين لله من المغرب من خلف
البحر ولاجل ذلك كانة [كانت] هدنة صلاح
الدين معه ومع فرسان الساحل. ولما ملك الملك
العزيز وكانة الهدنة بين المسلمين والفرنج ولم يكن
الاجناد مكار ولا سفر مدة سنين الهدنة مسكو
ايديهم عن بيع الغلة فبلغ القمح ماية وسبعون
دينار الماية اردب وكان السعر لا يثبت على حال

واسعة فى هذا الشأن حين أفرج عن عدد من الجراكسة الذين سجنهم من قبل نواب السلطنة الترك، وجعل بعض هؤلاء نوابا فى البلاد [1].

ونتيجة لهذه السياسة بدأت الشكوك تساور الأمير طشتمر، غير أنه لم يتحرك لإنقاذ موقفه بسبب صلة الرحم بينه وبين برقوق [2]. ولكن حقيقة موقف الأميرين سرعان ماظهرت واضحة فى غرة ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) إذ دب الخلاف بين الأميرين وبين طشتمر بسبب عودة برقوق وبركة إلى العمل على إضعاف شأن طشتمر بمطالبهما المتكرره فى نقل أنصار طشتمر إلى وظائف النيابة فى سورية، أومطالبته بعزلهم وتولية أصحابهما مكانهم، ثم طالباه آخر الأمر بنفى الأمير كتبغا رأس نوبته أو تسليمه لهما، مما أدى إلى ثورة مماليك طشتمر الدوادار الذين اجتمعوا به فى ٩ من ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) وهددوه بالقتل إن لم يخرج معهم لقتال برقوق وبركة [3]. ولكن طشتمر جبن حين أغلق بابه وترك مماليكه يقاتلون الأميرين بزعامة تقطاى طواشية. ولم تجد شجاعة تقطاى حين قاتل بمائتين من العساكر فريقاً كبيرا من أتباع الأميرين [4]. وانتهى الصراع بين الفريقين بمقتل كمشبغا

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢٠ ورقة ٢٢٨ ـ ٢٢٩.
(٣) المقريزى : السلوك جـ٢ ص ٣٢٣.
(٤) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٩٢.

واحد بل يزيد عن هذه الجملة مدة اسبوع ثم رجع ينقص وكذلك ساير الحبوب اردب بدينار ودونه وجميع القطاني(*) يتضاعف اثمانها واقامو الناس بديار مصر مكابدين الضر ثلث سنين. ثم ان الملك العزيز جمع العسكر وسار من مصر الى دمشق فى الدفعة الاولة فى الخامس والعشرون من جمادى الاول سنة تسعين وخمس ماية الهلالية [١١٩٣/١١٩٤م] يريد ياخذها [من اخيه

(*) القطاني: هى الحبوب التى تطبخ كالعدس والفول. سميت بذلك لأنها تُدخر حيث يقطن الانسان اى فى منزله لمدد طويله بسبب قابليتها للتخزين.

- -

وتسليم الأمير طشتمر نفسه إلى الأمير برقوق الذى قبض عليه وعلى جماعة كبيرة من أتباعة وحبسهم بالإسكندرية ثم نفى باقى اليلبغاوية من أنصار طشتمر إلى قوص فى ١٣ من ذى الحجة سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) (١).

وعلى أثر نجاح هذه الثورة تولى برقوق منصب الأتابكية (٢)، كما عين أحد أقربائه من الجراكسة وهو الأمير أيتمش البجاسى أمير أخور (٣). وحرص برقوق على استمرار سكنه بالاصطبل بل عين أخاه قرادمرداش أمير أخور، وأسكنه معه فى جانب الاصطبل. وبدا كأنما الحظ يساعد الأتابك الجديد إذ ازداد الرخاء فى هذه السنة بمصر واستبشر الناس بعهد أتابكية برقوق حتى قال ابن الصاحب يمدح الأتابك برقوق:

إن برقوق الغصن كعـ ... به فى الناس أخضر (٤).

ومن الواضح أن الأمور أخذت تتطور فى سرعة عجيبة فى وقت لم يعد للسلطان على أحد أى نفوذ. وبدا كأنما الدولة المملوكية الأولى توشك على السقوط، إذ زالت هيبتها من نفوس

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ٤ب (مخطوط).
(3) Sauvaget: Noms Et Surnoms Des Mam, pp. 39-40.
(٤) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ص ٩٤.

الأفضل] فلم يقدر عليها فعاد الى القاهرة فتبعه الملك العادل فاغلق الملك العزيز ابواب القاهرة في وجهه فحاصره الملك العادل فيها شهور ثم مشي القاضى الفاضل بينهما فاصطلحا ودخل الملك العادل الى القاهره واقام فيها اربعة اشهر ثم عاد الى دمشق ومعه الملك العزيز فحاصروها واخذوها من الملك الافضل على فتسلمها الملك العزيز. ولما كان في محرم سنة اربع وتسعين وخمس ماية

الناس، وانصرف الناس عن السلطان، وأخذوا يقصدون أبواب الأمير ابن برقوق وبركة اللذين أصبحا أصحاب الحل والعقد في الدولة . وعبر الناس عن هذا الموقف الغريب بقولهم: «برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة» (١).

ومع أن الخطوة التالية تركزت في ضرورة تخلص الأمير برقوق من زميله ابن بركة، إلا أنه وجد أن الوقت غير مناسب، وأصبح لزاماً عليه أن يبذل أقصى جهده لجمع شمل المماليك الجراكسة وتوحيد جهودهم. بيد أنه على حين أخذ يعد عدته لهذا الأمر إذ به يفاجأ بثورة أحد أقربائه، وهو الأمير إينال اليوسفي الجركسي.و كادت هذه الثورة تصيب صفوف الجراكسة بالانقسام . وخلاصتها أن الأمير إينال اليوسفي كان شديد الكراهية لبركة، وطالما حرض الأمير برقوق للثورة عليه وقتله، ولكن برقوقا لم يجبه إلى رغبته ولهذا يبدو أن طول أناة برقوق لم تعجب إينال، فانتهز فرصة سفر بركة إلى إقطاعه بالبحيرة في شعبان سنة ٧٨١هـ (سنة ١٣٧٩م) (٢)، وخروج بركة في نفس الوقت للصيد خارج القاهرة، وهاجم إينال الاصطبل بمعاونة عدد كبير من المماليك السلطانية. وبعد أن استولى إينال على الاصطبل أخذ في نهب

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٣ .

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨ .

[١١٩٨/١١٩٧] تواصلت مـراكب الفـرنج الى عكا وفسخو الهدنة فبادر اليهم الملك [العادل] في اول امرهم قبل ان يكثرو ويدخلو الحصون فنزل على يافا وقاتلها ثلثة ايام ففتحها وقتل فيها خلق كثير وسبى اكثر مما قتل، ثم تواصلت مراكب الفرنج وطلع منهم الى الساحل خلق كثير فمضى منهم عسكر كثير[إلى مصر و] نزلوا على حصن المسلمين يسمى تبنين فكتب الملك العادل كتاب

بيت برقوق وما في خزائنه [١]، ثم خدع صغار مماليك برقوق وألبسهم آلات الحرب ووعدهم بالمال والإقطاعات إن هم عاونوه في خطته [٢]، وتمكن الأمير إينال من القبض على الأمير جركس الخليلي، أكثر الأمراء إخلاصاً لبرقوق ، وحاول أن يضم السلطان عليا إلى جانبه، ليحصل على تأييد العامة ولكن الزمام رفض إجابة طلبه [٣].

وكادت هذه الثورة تفسد على برقوق خطته لولا أن عاد برقوق مسرعاً إلى القاهرة، ونهض لإنقاذه قريبه ايتمش البجاسي أمير أخور، فأنزله أيتمش في اصطبله وجعل مماليكه في خدمته. وقصد برقوق القلعة بمماليك ايتمش، وفاجأ أصحاب إينال الذين شغلوا بنهب بيت برقوق. وبعد أن أحرق برقوق باب السر ـ أحد أبواب القلعة ـ استطاع دخول القلعة ومعه عدد كبير من العامة الذين ساعدوه بضرب أتباع إينال بالعصى، والحجارة [٤]. ورغم ما أظهره إينال من رباطة الجأش فإن مماليك برقوق حين رأوا أستاذهم انقلبوا على إينال ورموه بالسهام واضطروه إلى الفرار وفي جسمه نشابة [٥]. ولكن برقوقاً تمكن من القبض عليه وحاول أن

---

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ٨١ب.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ٠ شمسية) ورقة ١٧٦.
(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٨.

للملك العزيز يعرفه بذالك ويطلب منه ان يسير اليه [يرسل إليه] عسكر مصر فسار الملك العزيز الى الشام بالعسكر في شهر ربيع الاول سنة اربع وتسعين وخمسماية [٩١٤ قبطية = ١١٩٧م] نازل الافرنج وضيق عليهم وجا عليهم مطر وسيل كثير من الجبل وحجاره برد فرحلو من تبنين بعد ان هلك منهم ومن دوابهم وقماشهم شي كثير جره السيل في الماء فرحلو ونزلو حوالى مدينة صور

يستدل منه على شركائه في المؤامرة دون جدوى، إذ حلف له إينال أنه أراد بثورته هذه القضاء على بركة فاكتفى برقوق بسجنه ريثما ترتب أموره [١].

ويبدو أن قيام أحد الجراكسة فى هذه المرة بالثورة على برقوق دفعة إلى الشك فى مدى إخلاص عنصره له مما جعله ينقلب على الجراكسة، وقبض علي من اشتركوا مع إينال فى الفتنة، ثم استدعى يلبغا الناصرى الذى أبعده من وقت قريب إلى نيابة طرابلس، ليتولى إمرة السلاح بدلاً من إينال [٢] وحين حضر بركة اجتمع ببرقوق وبحث الاثنان الموقف واتفقا على التعاون فى توزيع الوظائف التي خلت وشغلها بالمقربين من أتباعهما.

ويدلنا سلوك برقوق نحو بركة فى هذه الظروف على أن برقوقاً لم يكن مستعداً لمواجهة بركة، بل لعله وجد أن إخفاء اتجاهه العنصرى فى هذه الظروف ذو قيمة كبيرة فى كسب الجولة المقبلة. ولذا بدأ برقوق يعد عدته لهذه الجولة بالاستفادة مما جد من عوامل.

وأول هذه العوامل ما ظهرمن كراهية الناس لبركة بسبب قسوته، حتى إن العلماء تذمروا

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٣ ـ ٢٤٥ ـ مما قاله ابن العطار الشاعر فى هذه الحادثة :

قد ألبس الله برقوقاً مهابته ... نهار الاثنين فى عز وتمكين
وراح إينال مع سودون وانكسرا ... وكان يوماً عسيراً يوم الاثنين

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٤٦٨.

وعكا وغيرها من مدن الفرنج وبقى الملك العادل
والملك العزيز [في] منازلهم بالعسكر فلما كان فى
العشرة الاخيرة من جمادى الاخر سنة اربعة
وتسعين وخمسماية عاد الملك العزيز ومعه بعض
العسكر الى مصر وبقى الملك العادل منازلهم
[منازلتهم] واقام يقاتلهم شهرين ثم هادنهم على
البر دون البحر مدة ستة سنين. ثم تركهم وتوجه
الى دمشق لان الملك العزيز اوهبها له فدخلها

حين انتزع منهم جميع الأوقاف الشافعية وأوقاف جامع ابن طولون بعد أن استقر ناظر الأوقاف الحكومية والأهلية جميعها سنة ٧٨٠هـ [١]، ورغم معارضة شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى فإن بركة انتزع هذه الأوقاف ووزعها إقطاعات على أتباعه الذين زاد عددهم [٢]. واستغل برقوق سيرة بركة السيئة، وكراهية العلماء له وشهر به، كما ملأ الأسماع عن قبول بركة الرشوة من الراغبين فى الوصول إلى مناصب القضاء [٣]، وتقرب إلى العامة حين أفرج عن عدد منهم سبق أن حبسهم بركة [٤].

ثم رأى برقوق أن يعدل عن سياسته الأخيرة نحو الجراكسة وحاول الاستفادة منهم، وذلك بعد أن ظهرت مؤامرات لقتل برقوق، دبرها المماليك السلطانية الترك، بعد أن أثاروا الدعايات السيئة ضده [٥]. ولا شك أن الدعاية أصبحت ذات أثر فعال فى المحيط السياسى بعد أن تلاشت شخصيات السلاطين من هذا المحيط وبدأت شخصيات الأمراء تحتل من أهتمام الناس الجانب الأكبر.

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢٣٦.

(2) Ziadeh. N: Urban life In Syria: p. 42.

(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام قسم ١ ورقة ٢٥٢.

(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ١٠٩، ص ١٢٦.

(٥) ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٦٦.

وملكهـا واقـام فـيـهـا بقـيـة سنة اربع وتسـعين وخـمـسـماية [١١٩٧م] ولما عاد الملك العزيز الى مصر اعدل على الرعية بديار مصر واحسن اليهم واستقام امره وانحلت الاسعار وابيع القمح الطيب اربعة ارادب بدينار والشعير والفول وساير الحبوب عشـرة ارادب بدينار. ولما كـان المحـرم سنة خـمس وتسعين وخمسماية [١١٩٨م] خرج الملك العزيز إلى برية الفيوم يتصيد فوجد غزالة فتبعها وكان

على أنه لم يكن هناك بد من وقوع صراع شديد بين الأميرين؛ إذ على حين سعى أصحاب بركة من الترك للاستبداد بأموال الدولة امتاز برقوق بالتثبت في الأمور وميله إلى تغليب المصلحة العامة على مصلحته الخاصة . وكثيرا ما عارض برقوق أصحاب بركة في استبدادهم بالأموال وضرب على أيدى الكثيرين منهم، فلا عجب أن عمل مماليك بركة على التخلص من الأمير برقوق بتحريضهم الأمير بركة على الاستقلال بأمور الدولة دونه والغدر به[١].

وثمة ناحية توجب الالتفات في هذا الصراع الوشيك الوقوع بين الجراكسة والترك وتبين جانباً هاماً من سياسة برقوق، وهي أن برقوق وجد نفسه يواجه بمن معه من الجراكسة ـ وهم قلة ـ فرقتين من الترك، أولاهما فرقة الأشرفية مماليك السلطان الأشرف شعبان الذين أرادوا إرجاع مجدهم السابق، وثانيهما فرقة مماليك بركة، وهم الذين عملوا على إزالة شخصية برقوق ليتسى لهم تحقيق مآربهم. ولم يشأ برقوق أن يحارب في ميدانين بل أخذ يتودد إلى الأشرفية ويقابلهم في طباقهم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع [٢]؛ على حين أخذ يضايق الترك من أتباع بركة بما أحدثه من تغيير في الوظائف لتأييد مركزه. وأهم هذه التغيرات إبعاده بعض المماليك الترك إلى نيابات الشام [٣]، غير أن هذا الإجراء أغضب بركة،

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٩.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢٤٢.
(٣) راجع العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ١٠٧.

معه كلب من كلاب الصيد فلحق الحصان الذى
تحته كلب الصيد وقد اكسر الغزالة فوطى الحصان
بيده على ذنب الكلب فدار الكلب من تحت بطن
الحصان وعض خصاه فنفر منه ورماه بنفسه الى
الارض فوقع الملك العزيز من فوقه صار تحته وجا
الحصان فوقه وانقلب عليه بالسرج فدخل
القربوس فى صدره مع فواده فعاد الى القاهرة
محمول وكان الاطبآ يداووه فلم ينفع فيه دوا

كما أدى إلى وضوح الاتجاه العنصرى. وبدأ كل من برقوق وبركة يعارض فى تعيين مماليك منافسه ويحل فى الوظائف الرئيسية المماليك من بنى جنسه. واستغل أعداء الأميرين الخلاف العنصرى بينهما فى إشعال نار الثورة بين الفريقين حتى أضمر بركة الغدر ببرقوق، ثم تأزم الموقف بينهما حين طالب الأمير بركة الأمير برقوق بتسليم الأمير ايتمش البجاسى، أمير أخوره واحد الأمراء الجراكسة المقربين إليه، ورفض برقوق بطبيعة الحال، ولكنه أظهر نفسه أمام الشعب أنه ينشد السلام وأعلن أنه يرغب فى التنحى عن وظيفته بشرط ترشيد السلطان، وفى نفس الوقت أوحى إلى القضاة لإصلاح ذات البين بينه وبين بركة. وبذل القضاة الأربعة وشيخ الإسلام البلقينى جهوداً كبيرة فى الضغط على الأمير بركة لقبول الصلح حتى أذعن ووعد ألا يتحدث فى أمر من أمور الدولة. وسر برقوق لهذه النتيجة، وخلع على من سعى فى الصلح وجمع الأمراء للعب فى الميدان ابتهاجاً بعودة الوئام [1].

والواقع أن هذا الصلح لم يكن سوى صلح مؤقت لجأ إليه برقوق وقتذاك حيث إنه لم يكن مستعداً للدخول فى معركة فاصلة بينه وبين الأمير بركة، وأراد أن يكسب الوقت ريثما تتم استعداداته؛ حتى إذا تمت هذه الاستعدادات فى أول ربيع الأول سنة ٧٨٢هـ(سنة ١٣٨٠م) بدأ برقوق مناوشاته لإثارة بركة فأقام وليمة بمناسبة ختان ابنه محمد وقبض فيها

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

ومات ليلة الاحد ثانى وعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمس مابة [١١٩٨م] وقد كمل له في ملكه خمسة سنين وعشرة شهور وعشرين يوما فسبحان الله الذى لافنا لملكه ولا راد لحكمه وبه المستعان.

(*) سيرة الملك الناصر يوسف: وهو الملك الأيوبى الثالث.

الملك الناصر يوسف(*). وملك بعده ولده يوسف وانعتوه نعت جده الملك الناصر وهو الملك الثالث من ذرية صلاح الدين وهو يوسف ابن عثمان ابن

على أميرين من أتباع بركة [١]. وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى هذا الصراع الذى عزم فيه برقوق على أن يكسر شوكة العنصر التركى بالقاهرة [٢]. وأوضح المقريزى صورة هذا الصراع العنصرى السافر فى قوله. «وصار العسكر فرقتين فرقة جراكسة وهم أصحاب الأمير الكبير برقوق، وفرقة ترك وهم أصحاب الأمير بركة، فلما أصبح نهار الأربعاء تاسعة أنزل الأمير برقوق السلطان إلى عنده بالحراقة من الاصطبل، ودقت الكوسات جميعا بالطبلخاناه من القلعة [٣]».

ورغم أن عدد الترك جاوز عدد الجراكسة وقتذاك إلا أن إقامة الأمير برقوق بالاصطبل مكنته من السيطرة على السلاح، كما زاد من قوته انضمام الأجناد البطالة وأجناد الحلقة إليه، وخاصة بعد أن ظهر الأمير برقوق أمامهم بمظهر المدافع عن السلطان على ضد طغيان الأمير بركة.

وبدأ برقوق تحصين القلعة فأمر بباب القلعة من جهة القرافة فسد بالحجارة ثم قسم أجناد الحلق والأجناد البطالة طوائف، وركز كل طائفة منهم على تربة من الترب فيما بين القلعة وقبة

(١) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١، السيوطى: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٦ ب.
(٢) راجع العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٥.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٠ ـ ٦١١.

يوسف ابن ايوب ملك ديار مصر والساحل والبيت
المقدس وما كان بيد اخوه غير ما كان بيد الافرنج
من عكا وصور وغيرهما وكان جلوسه في الملك
يوم الاحد الثاني والعشرون من المحرم سنة خمس
وتسعين وخمس ماية وكانة بين الفرنج والمسلمين
باقية فلم يتحرك احد منهم من مكانه ولا تحرك
احد ايضا من ديار مصر ولا ضاع لاحد في القاهرة
ومصر شيأ قيمته حبه وكان يوسف ابن الملك

النصر [١]، وعزل برقوق والى القاهرة الموالى لبركة وأعاد حسين ابن الكورانى المعروف بشدته وصرامته التى سرعان ما ظهر أثرها حين أمر بفتح حوانيت أصحاب السلاح وأخذ ما فيها، وأمد بهذه الأسلحة أتباع برقوق، كما أمر أعوانه بمنع من يخرج لمعاونة بركة وأصحابه بالسلاح أو الطعام أو الشراب. وعلى حين جعل برقوق مركز قيادته عند باب القلعة من ناحية الاصطبل، ملأ كذلك مدرسة السلطان حسن المواجهة للقلعة ودار الضيافة وصهريج منجك بالفرسان والرماة وجعل القيادة فى هذه المنطقة للأمير بزلار العمرى [٢].

وأعطى برقوق إشارة البدء بقتال بركة للأمير ايتمش البجاسى الذى نادى فى العامة بأن «من قبض مملوكاً من مماليك بركة فلة بركة ولنا الرمح» [٣]. كما حرض ايتمش على نهب بيت بركة. ووجد العامة والزعر فى هذا كله فرصة طيبة للحصول على غنائم فى وقت ساءت فيه الحالة الاقتصادية فضلاً عن تخلصهم من ظلم بركة وطغيانه. وتوجه العامة إلى باب بيت بركة وبعد أن نهبوه سرقوا رخامه وشبابيكه، ثم أشعلوا فيه النيران. وهرب بركة من باب آخر من جهة الشارع المؤدى إلى باب الفتوح وتوجه إلى باب النصر حيث انتظره أتباعه. وعلى

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام، المجلد الأول ورقة ٢٦١.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤١.
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ، المجلد الأول ورقة ٢٦١.

العزيز صغيرا لا يكمل لتدبير المملكة فجعلو الملك المستمر حضر وانعتوه بالملك الظاهر نايبا عنه فى السلطنة فلم يكمل له شهرا واحدا فيها حتى وصل الملك الافضل نور الدين على عمه من قلعة سلخد الى القاهرة ودخل لها يوم الخميس السابع من ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمسماية.

(*) سيرة الملك الأفضل على.

الملك الافضل على(*)؛ فملك وامر ونهى ورفع وتصرف واقام الى سلخ رجب من السنة المذكورة

الرغم من أن برقوقا استدعى يلبغا الناصرى ليتولى إمرة السلاح بعد ثورة إينال فإنه حين أصبح العداء سافراً بين العنصرين التركى والجركسى أسرع يلبغا الناصرى وانضم بمماليكه إلى جانب مماليك بركة الترك [١]، ولهذا رجحت كفة بركة فى المناوشات الأولى التى اشتبك فيها عسكره مع عسكر آيتمش [٢].

واذ وجد بركة نفسه مضطراً للقتال فى أكثر من ميدان قسم عسكره ثلاث فرق؛ سارت الأولى إلى ناحية الجبل الأحمر، والثانية إلى ناحية دار الضيافة، والثالثة إلى بين العروستين[٣]؛ وأظهر الترك من الشجاعة والجرأة ما جعلهم يتغلبون على الجراكسة أكثر من عشرين مرة كانت آخرها عند العروستين، حتى إن الأمير برقوق حين أحس بحرج موقفه أرسل إلى بركة الأمير سودون الشيخونى بخلعة بنيابة الشام، غير أن بركة الذى أحرز كل تلك الانتصارات على الجراكسة استشاط غضباً على رسول برقوق رفض قبول عرضه.

وبعد أن فشلت جهود الأمير برقوق فى هزيمة بركة أو إبعاده لم يجد بداً من الاستماتة فى

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٦٩.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.
(٣) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ١٨٢أ.

ثم جمع العسكر وسار الى دمشق يطلب ياخذها
من عمه فى مستهل شعبان من السنة المذكورة
فوجد عمه الملك العادل قد سبقه ودخل اليها قبل
وصوله بيومين وقد حصنها بالرجال والعدد فلم
يقدر يدخلها فانفذ الى اخوه الملك الظاهر صاحب
حلب وابن تقى الدين ومظفر الدين ابن زين الدين
وجمع عساكر الشام وعسكر مصر واقام محاصر
عمه الملك العادل فى دمشق من مستهل شعبان

القتال رغم الخسارة التى لحقته [١]. والواقع أن وجود السلطان المنصور على مع فريق برقوق زاد من تحمس العامة لمعاونة هذا الفريق، إذ لولا انضمام العامة إلى برقوق ورميهم أصحاب بركة بالحجارة والنشاب لسقطت القلعة فى أيدى أصحاب بركة [٢].

والخلاصة أن الأمير برقوق حمل حملة قوية على بركة حتى هزمه فى ١٠ من ربيع الأول سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م). وتفرقت عساكر بركة فى هذا اليوم الذى قيل إنه إشتدت فيه الحرارة. وهرب بركة إلى جامع المقس وظل مختفياً هناك حتى قبض عليه برقوق وحبسه بالإسكندرية مع عدد من مماليكه [٣]. واستحوذ برقوق على ذخائر بركة التى قيل إن من بينها سبعين قنطار ذهب جمعها فى أثناء توليه وظيفته الأخيرة. وأثرت هذه الفتنة فى أحوال القاهرة إذ ظلت أبوابها مقفلة وأسواقها معطلة مدة ثلاثة أيام حتى تمكن الأمير برقوق من القبض على عدد كبير من الترك وملأ بهم سجون الإسكندرية ودمياط وقوص [٤]، وأحل برقوق محل هؤلاء عدداً من الأمراء الجراكسة الموالين له، وعزل يلبغا الناصرى وسجنه وقبض على مماليكه

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٣.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام، المجلد الأول ورقة ٢٦١.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٣.
(٤) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٧٨.

سنة خمس وتسعين وخمسماية الى سلخ صفر سنة ست وتسعين وخمسماية [١١٩٩م] الى سلخ صفر سنة ستة وتسعين وخمسماية اختفا الملك العادل في دمشق مدة خمس عشر يوما لم يبصره احداً من الناس وشاع الخبر عنه بانه خرج يدبر ديار مصر فاجتمع الملك الافضل نور الدين على واخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب وتقى الدين ومظفر الدين ابن زين الدين وتشاورو فيما

ووزع إقطاعاتهم واقطاع بركة على المماليك الجراكسة [١]. ولم يكتف الأمير برقوق بإقرار الأحوال في مصر، بل أجرى حركة تطهير في الوظائف السورية من أتباع بركة وملأها بأتباعه[٢].

والواقع أن انتصار برقوق على بركة بهذه الصورة أدى إلى ارتفاع شأن الجراكسة في هذه السنة[٣]، كما وجه جميع الأنظار إلى الأتابك برقوق، وبدأ الشعراء يمدحونه ويقدمون اسمه على اسم السلطان[٤]، كما شجع هذا الانتصار الأمير برقوق كذلك على التخلص من الأمير بركة ليضعف الروح المعنوية للعنصر التركي وليقضى على ما لديهم من آمال لاستعادة نفوذهم، ولكن الأمير برقوق تفادى أن يعلن نهاية بركة على يديه إذ ما زال أتباعه من الترك

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقة ٨٢ أ، ابن إياس بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٨.
(٢) ابن أياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٨ في ذلك يقول ابن حبيب الحلبي:

ياويحها من حالة	وشؤمها من حركة
وقبحها من فتنة	فيها أزالت بركة

(٣) ابن قاضى شهبة: الذيل على تاريخ الإسلام ، المجلد ٣ ورقة ١٤٦.
(٤) من هؤلاء الشعراء القيم خلف الغبارى ومن قوله:

مصر صارت بعد انقباض في انشراح	وقلعها مزخرف والقصور
يا إلهى احفظ لنا برقوق	واحرس الجند وانصر المنصور

ابن إياس جـ١ ص ٢٤٨.

يعملوه فتقرر الراى منهم ان يعود الملك الافضل نور الدين الى ديار مصر يحفظها وان حضر العادل اليه لحقوه بقيتهم بالعساكر من خلفه ويكون هو بالعسكر من قدامه فيحصل فى الوسط، فعاد الملك الافضل الى ديار مصر ودخل مدينة بلبيس فى اليوم العشرين من ربيع الاول سنة ستة وتسعين وخمس ماية واخلاها من النساء والقوام ولم يبقا فيها سوى الباعة والتجار وخرج اليه سيف الدين

متفرقين وربما أدى قتله إلى تجمعهم وثورتهم للانتقام منه. وفضلاً عن هذا يبدو أن الأمير برقوق أراد أن يظهر بسياسته على عكس سياسة الأتابكة السابقين؛ تلك السياسة التى قامت على سفك الدماء والقسوة الظاهرة. ولهذا أمر برقوق صلاح بن عرام نائب الاسكندرية سرا بقتل بركة فى السجن [1]، وبعد أن تم له ما أراد أظهر غضبه على ابن عرام، واتهمه بقتل بركة دون إذن منه. وأمر به فأحضر مقيداً من الإسكندرية وسلمه إلى مماليك بركة الذين بعد أن شهروه على جمل قطعوا جسمه أجزاء متناثرة [2].

ويعلق المقريزى على النتائج التى ترتبت على مقتل بركة ويشير إلى طمع الجراكسة فى السلطة فى قوله «فانقرضت دولة الأتراك بأسرها وتتبعوا بالأخذ فقتلوا ونفوا وسجنوا . ولقد كانت الجراكسة قبل ذلك تتحدث فيما بينها بأن تكون فتنه كبيرة ثم تخمد ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك فينتصرون فيها على الأتراك.. فلما كانت حركة إينال جهروا بذلك وقالوا من غيراحتشام وأذاعوه حتى تحدث كبيرهم وصغيرهم» [3].

غير أن هذه المدة التى تعرضت فيها البلاد للثورات الداخلية وما تبع هذا من فوضى

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٥.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٣.

ازكج النايب عنه كان بمصر ومعه جماعة من الاجناد وبعد ايام يسيرة تواصلت الاخبار بان الملك العادل قد وصل الى قطيه فاتفق رايه وراى سيف الدين ازكج على قتاله ومحاربته ورد جميع الثقل الى القاهرة وتوجه اليه بعسكر وخيل مجردة بغير ثقل وتحاربوا فى موضع يسمى الشامخ والعرابى وهما منزلان بظاهر بلبيس من منازل العرب فى يوم الثلثا الظهر الثامن من ربيع الاخر سنة ستة

واضطراب الأحوال الداخلية والاقتصادية مكن لقبائل العرب فى مصر من الثورة رغبة فى إعادة الحكم إليها. وكانت هذه فرصة مواتيه لقبائل العرب فى مصر إذ طالما نادت طوال السلطنة المملوكية الأولى بأنها أحق بالملك من المماليك [١]، وأتبعوا هذا بالامتناع عن دفع الضرائب وقطع الطرق براً وبحراً وتعطيل التجارة والسفر [٢]. و لعل أهم هذه التمردات التى أقلقت بال الأمير برقوق منذ أن تولى الأتابكية فى سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) هى تمرد بدر بن سلام كبير عربان الهوارة فى غرب الدلتا. وامتنع بدر بن سلام عن التزاماته وأهمها جباية الخراج، ووجد بدر بن سلام الفرصة مواتية لإعادة النفوذ العربى إلى مصر، وهاجم دمنهور فى خمسة آلاف رجل نهبوا أسواقها وبيوتها وخربوا ما صادفوه من قرى وضياع. وظل برقوق عاجزاً عن قمع بدر بن سلام لانشغاله فى مقاومة المماليك الترك [٣]، ولهذا ما إن انتهى من القضاء على ثورة بركة حتى عين فى ربيع الآخر سنة ٧٨٢ هـ ثمانية أمراء مقدمين على رأس تجريده ضخمة من الأمراء والمماليك، وتوجه العسكر من الجيزة إلى ضواحى البحيرة حيث ضربوا خيامهم. وخدم الحظ الأمير برقوق فى هذه المرة، إذ استطاع الأمراء أن يحصلوا من

(١) راجع عن هذه الثورات المقريزى: السلوك جـ١ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر رقم ٥ ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

وتسعين وخمسماية فاكسر عسكر الملك العادل
عسكر الملك الافضل واعطاه الله النصر في ذلك
اليوم فغنم اموالهم وامسك عن قتلهم ونجا الملك
الافضل بنفسه ودخل الى القاهرة ولحقه من
اصحابه من كان فرسه سابق فلما دخل الى
القاهرة حصنها بالرجال والعدد فتبعه الملك العادل
ونزل بعسكره على المطرية وارسل خيله الى معادى
البحر [النيل] ضبطوها حتى لا يعدى احد الاجناد

أحد كبار العرب على خطتهم فى هجوم معسكر المماليك وهم فى خيامهم فى أثناء الليل، فأخذوا حذرهم وخرجوا من الخيام وكمنوا بالقرب منها. فلما انتصف الليل هجم العرب على الخيام فوجدوها خالية؛ وهنا فاجأهم العسكر وأحاطوا بهم وأعملوا فيهم السيف فقتلوا منهم نحو ألف عربى وأسروا منهم أكثر من ذلك. وكان هذا الصراع بين الجراكسة والعرب حاسماً، إذ فضلاً عن أن الجراكسة غنموا من العرب جمالهم وأغنامهم وخيولهم وعادوا بها إلى مصر [١] ، فإن عرب البحيرة خسروا زعامتهم حين هرب بدر بن سلام إلى برقة [٢]، وكما نفى برقوق باقي عرب هوارة إلى الصعيد ليأمن شرهم [٣].

وعلى حين عمل الأمير برقوق على التغلب على الصعوبات التى واجهته فإنه اهتم بزيادة عدد الجراكسة ليمكنه الإقدام على هذه الخطوة الجريئة التى اعتزم القيام بها وهى نقل السلطنة من الأتراك الى الجراكسة، فبذل لتجار الرقيق أموالاً كثيرة لإحضار والده وأقاربه وأولادهم من بلاد الجراكسة إلى مصر [٤]، وجعل عثمان بن مسافر تاجره الخاص وخصه بالكثير من

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٨.
(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٣) المقريزى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٦٠.
(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الأول ورقة ٢٦٤.

اليه ينجده او يدخل القاهرة ثم احاط الملك العادل القاهرة بالعسكر فى نصف ربيع الاخر سنة تاريخه وارسل الى كبار الامرآ الذى دخل القاهرة من الاسدية والصلاحية ومن جملتهم ما عرفناه فاسميناه وكثير منهم لم نعرفه والمشهور منهم سيف الدين ازكج وعلم الدين كرجى وغرس الدين يمن وسيف الدين سنقر الدوادار وناصر الدين خضر ابن بهرام وبقية العسكر الذى داخل

العطايا، حتى بذل جهوداً كبيرة في جمعهم واحضارهم لمصر [1]. ولما حضر أنس والد الأمير برقوق في ذى الحجة سنة ٧٨٢هـ (سنة ١٣٧٩م) في عدد كبير من أقاربه وأولادهم صحبتهم إلى مصر بعثة من قضاة حلب ودمشق [2].واحتفل بهم برقوق احتفالاً رائعا، فأركب العساكر وسائر الناس «على طبقاتهم» لا ستقبالهم وأقيمت لهم الخيام ومدت الأسمطة بسرياقوس . ودخل «الخواجه» عثمان وعليه خلعه بطرز زركش، وركب عن يمينه نائب دمشق، وركب أنس عن يساره. وحين التقى برقوق بوالده مد له والده يده فأخذها برقوق وقبلها ووضعها على رأسه إجلالاً له أمام الناس ثم أخذ في تقديم كبار أمراء مصر إليه [3]، وبعد أن خلع على أنس بإمارة الف [4] أجلسه في صدر المجلس وجلس بجواره القضاة والأمراء. وما أن انتهت مراسيم الاحتفال حتى ركب الجميع إلى القاهرة التي زينت شوارعها وأسواقها وأوقدت بها الشموع وماجت طرقاتها بالنظارة [5]. وبعد أن وصل الركب إلى القلعة أنزل برقوق والده

(١) نفس المرجع والجزء ورقة ٢٦٤، و رقة ٢٧٣.
(٢) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ١٨٣.
(٤) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ١٤٨.
(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٤.

القاهرة مع الملك الافضل فاصلح قلوبهم فمالو اليه ومسكو نفوسهم عن قتاله وتركو الملك الافضل وحده فى القاهرة فى نفر يسير من اصحابه وخرجو جميعهم للملك العادل واصطلحو معه وفتحو له ابواب القاهرة فدخل اليها يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الاخر سنة ست وتسعين وخمسماية وحضر فيها صلاة الجمعة بجامعها. فلما صح عند الملك الافضل صدر

بالاصطبل كما أنزل أقاربه وبنى عمومته بالقلعة وفرض لهم الأرزاق وعينهم فى وظائف مختلفة [١].

ووضح من هذا كله أن الأمير برقوق خطا خطوة أخرى أخذ فيها يعد الأذهان لاستقبال عصر جديد هو عصر الولاء للأمراء الجركس، حتى إذا آمن الناس بهم ونسوا سلاطينهم أمكنه أن ينقل السلطنة إليه «دون أن ينتطح فى هذا عنزان» على قول العسقلانى [٢].

وفى يوم الأحد ٢٣ من صفر سنة ٧٨٣هـ (سنة ١٣٨١م) توفى السلطان على بن شعبان بعد أن حكم خمس سنوات وثلاثة أشهر ونصف شهر، ولم تكن له فى هذه المدة من السلطنة إلا اسمها [٣]. ورغم أن الأمير برقوق بلغ من القوة والعظمة ما جعل الناس يتحدثون بسلطنته عقب وفاة السلطان على، فإنه لم يجرؤ أن يتسلطن، إذ أنه فضلاً عن أن فترة التمهيد لإعلان السلطنة لم تكن كافية، فإن كبار الأمراء أظهروا امتعاضهم من سلطنة «مملوك يلبغا» [٤] حين ردد الناس هذا الخبر. ولهذا وجد برقوق أن الحكمة تقتضى التريث فى الأمر، وأن هذه الحركة

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٣.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٨٤.
(٣) الطيب: قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر جـ٣ ورقة ١٠٩٦.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٠٧.

عسكره وامرآ دولته خرج من القاهرة باكر يوم السبت السابع عشر من ربيع الاخر سنة تاريخه ومعه ثمانين جمل اموال واثاث. وذكر من شهد خروجه انه لم يصحبه من عسكره واصحابه وامرآ دولته سوى ضيا الدين اخو الفقيه عيسى ومماليكه نحو خمسة عشر فارساً، ومع الافضل من مماليكه نحو من خمسة عشر فارساً يكون الجميع ثلاثين فارساً وتوجه الى قلعة سلخد وهو مقيم بها الى

لم يحن أوانها. ثم جمع برقوق كبار الأمراء والخليفة والقضاة بباب السر بقلعة الجبل، وتحدث بنفسه معهم في سلطنة واحد من أبناء السلطان شعبان، وفي هذا الاجتماع انكشفت أمام برقوق اتجاهات الأمراء نحوه، إذ أعلن الجميع أن مصلحة البلاد تقضي بالاحتفاظ بالعرش لبيت قلاوون [١] وإذ لم يكن هناك بين أبناء السلطان شعبان من هو أكبر من أمير حاجي الذي لم يجاوز التاسعة من عمره أحضروه وسلطنوه في ٢٤ من صفر سنة ٧٨٣هـ (١٣٨١م) وبايعه الخليفة ملقباً إياه بالملك الصالح، وأكد الخليفة في تقليده للأمير حاجي بالسلطنة أن يشترك معه في تدبير أمور الدولة الأمير برقوق «لتشد الناس إلى عقدة محكمة»[٢]. وبعد أن حلف له الأمراء وقبلوا الأرض بين يديه خلع على رجال الدولة على العادة.

ومن الطبيعي أن تولية أمير حاجي السلطنة على هذا النحو المشروط بإشراك الأمير برقوق تبين مدى ما وصل إليه برقوق من نفوذ [٣] أوضحه ابن تغرى بردى في قوله «بعد أن انفض الموكب أخذ برقوق في التكلم في الدولة على عادته من غير معاند وفي خدمته بقية الأمراء،

(١) المقريزي: السلوك جـ٣ ص ٣٧٥.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤.
(٣) راجع Ency of Islam Art. Barkuk.

يوم نظم هذه السـيـرة فى سنة ثلث وستمـاية
الهلالية ومضى وقد انتزع منه الملك بديار مصـر
والبيت المقدس والساحل وغيرهم فيما بين الظهر
والعصر يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الاخر
سنة ستة وتسعين وخمسـماية وهذا اليـوم بعينه
يكون اخر ايام ملك الملك الافضل واول يوم من
ملك الملك العادل ديار مصـر من السنة المذكورة.
فسبحان الله الدايم الملك دايم البقا يزيل ملوكا

يركبون في خدمته وينزلون عنده ويأكلون السماط» [1]. وبهذا النفوذ تمكن برقوق من أن يخطو خطوة جديدة حين عين عدداً كبيراً من اليلبغاوية فى الوظائف الرئيسية [2]. كما اهتم بترتيب الأمور فى الداخل حين اعتمد على تأييد العامة ليستفيد من كثرتهم العددية، واتبع سياسة شعبية أساسها العمل من أجل مصلحة الشعب، ومن ذلك ما قام به حين أخرج الأمير جركس الخليلى فلوساً جديدة بدلاً من الفلوس القديمة رغبة فى الشراء عن هذا الطريق السهل. ومن هذه الفلوس التى أخرجها الأمير جركس فلس زنته أوقية بربع درهم، وفلس زنته نصف أوقية وفلس بفلسين. وحين فعل هذا ساءت الأحوال الاقتصادية وغلت أسعار الحاجات وتأثرت التجارة الخارجية واستاء الناس لهذا الإجراء أشد الاستياء. فأمر برقوق فوراً بإبطال التعامل بهذه الفلوس، وكان لهذا أكبر الأثر فى إنعاش الحالة الاقتصادية [3]. ومن مظاهر هذه السياسة الشعبية ما أقدم عليه برقوق من إبطال ضمان المغانى [4] بحماة والكرك والشوبك

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٠٨.
(٢) أوضح ابن تغرى بردى أن طريقة الوصول إلى الوظائف فى وقت سيطرة الأمراء هى «الوثوب وإقامة الفتنة» راجع ابن تغرى بردى: النجوم ـ جـ١١ ص ٢١٤.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٦٨.
(٤) قال المقريزى عن ضمان المغانى (الغوانى) أنه كان بلاء عظيما وهو عبارة من أخذ مال من النساء البغايا، فلو خرجت أجل امرأة فى مصر تريد البغاء حتى نزل اسمها عند الضامنة وقامت بما يلزمها، لما قدر أكبر أهل مصر على منعها من عمل الفاحشة وكان على النساء إذا تنفسن أو عرسن امرأة أو =

ويقيم ملوكا ويهب الحكمة للطفل الصغير، الذى ليس لملكه فنآ ولا لقدرته انتها جلا وعلا سبحانه تعالى.

(*) سيرة الملك العادل ابو بكر.

الملك العادل ابو بكر(*)؛ وكان دخوله القاهرة كما قلنا يوم الجمعة سادس عشر ربيع الاخر سنة ستة وتسعين وخمس ماية [١٢٠٠م] وزعم قوم انه لم يدخل الى يوم الاثنين التاسع عشر منه ونزل فى الدار الوزارة واهتدى الحرب واطمانة الرعية وامنت

والمنيا، وضمان الملح بعينتاب وضمان الدقيق بالبيرة وضمان القمح [١] بدمياط وفارسكور وإبطال المقرر على أهل البرلس ونستوارة وشورى وبلطيم [٢]، كما أبطل مكوسا أخرى على غرارها، وقابل الشعب هذا الإجراء بالتأييد الكامل للأمير برقوق [٣].

أما فى الخارج فإن الأمير برقوق انتهز الفرصة لإظهار قوته، وجاء هجوم التركمان سنة ٧٨٣هـ على حلب مواتيا إذ استطاع برقوق هزيمتهم وردهم على أعقابهم [٤].

ومن الواضح بعد هذا أن شخصية الأمير برقوق أصبحت قوية ومخيفة، حتى إن أعداءه خشوا على أنفسهم منه فدبروا مؤامرة لقتله. غير أن برقوقاً نصب لنفسه عيوناً تنبه بما يدور من وراء الستار وكشف خبر هذه المؤامرة، فجمع أتباعه واستشارهم فيما يفعله. واتفق فى هذا الاجتماع على القبض على متزعمى هذه الحركة ونفيهم أو سجنهم فى سجون القلعة [٥].

= خضبت امرأة يدها بحناء أو أراد أحد أن يعمل فرحا لابد من مال بتقرير تأخذه الضامنة ومن فعل فرحا بأغان أو نفس امرأة من غير إذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف» المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٠٦.

(١) ضمان القمح كان عبارة عن مكس يؤخذ من الفقراء ممن يبتاع من أردبين فما دونهما. راجع المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ١٠٦.

(٢) كان مقرراً على أهل هذه البلاد ستين ألف درهم سنويا (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة).

(٣) العينى: عقد الجمان جـ١٤ قسم ٢ ورقة ٢٦١.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٤.

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٥٧.

الطرق وخرج الملك المستمر خضر مع اخوه الملك
على واقطع الملك العادل الملك المستمر خضر بلاد
السواد من اعمال دمشق واستقر الملك العادل فى
الملك بعد ان تقرر بينه وبين الاسدية والصلاحية
وجميع العسكر ان يكون ولد الملك العزيز سلطان
مصر وغيرها من ملك ابوه وجده، ويكون الملك
العادل مدبر الدولة حتى يبلغ اشده لان الملك
العزيز استحلف الامرآ والاجناد قبل وفاته ان ولده

وكانت هذه المؤامرة آخر حلقة فى سلسلة المؤامرات التى دبرت للوقوف أمام العنصر الجركسى وتعطيله عن الوصول إلى السلطنة . فلما نفى برقوق إيتمش الخاصكى وبطا الأشرفى متزعمى هذه المؤامرة التركية وقبض على أتباعهما خلا له الجو « فلم يبق له معاند، وصار له من المماليك الجراكسة عدد كثير جلبوا إليه من البلاد فرقاهم إلى مالم يخطر لهم ببال» [1].

ومع كل هذا ظل الأمير برقوق حريصاً على إخفاء اتجاهه، بل إنه حين شعر بأن الرعية «أنست بحسن سياسته وجميل سيرته»[2] تظاهر برقوق بحرصه على حياة السلطان حاجى فقبض على بعض الأمراء وادعى عليهم بأنهم دبروا مؤامرة لقتل السلطان. وكان لكشف هذه المؤامرة صدى فى موقف الأمراء المناصرين لبرقوق، إذ بدءوا يشفقون على أنفسهم من تدبير أعدائهم عليهم، واجتمعوا للتفاوض فى إسقاط «سلطنة الصغار» واقامة برقوق سلطاناً على البلاد [3] وتوالت الاجتماعات التى أظهر فيها أتباع برقوق خطورة موقف البلاد فى وقت تولى أمرها سلطان صغير. كما أوضحوا للناس أن إهمال تولية سلطان كبير سيؤدى إلى طمع

(١) المرجع السابق والجزء ص ٤٠٥ .
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٤ .
(٣) ابن خلدون: نفس المرجع والجزء والصفحة.

يكون سلطان على مصر من بعده وكان اسمه يوسف وانعتوه بالملك الناصر فابقاه الملك العادل على هذه الحالة شهر رجب من السنة المذكورة ثم سير عسكر الى دمشق مقدمه عز الدين اسامة. واسد الدين سنقر ومعهما جماعة كبيرة من الاجناد واحضرو ولده الكامل منها الى ديار مصر فسلطنه عليها وحمل الفاشية [الغاشية](*) قدامه وهذه هي سنة الملوك الفرس القديمة من ايام

(*) الغاشية: السيف أو الصولجان أو فروة الاسد توضع فوق حصان يقوده أحد جنود الملك.

الأعداء في البلاد [1]. ثم عرض الأمراء الجراكسة: إيتمش البجاسي وجركس الخليلي وقردم الحسنى على برقوق أن يتسلطن ويحتجب عن الناس حتى يريح أعداءه وأصدقاءه [2]، ولكن برقوقا أبدى رغبته في أن تأتي هذه الخطوة من جانب جميع كبار الأمراء في مصر وسورية، ولهذا ركب الأمير سودون الفخرى حاجب الحجاب ومر على الأمراء بمصر سراً حتى استر ضاهم ومازال بهم حتى حدثوا الأمير برقوق في أمر سلطنته «وهونوا عليه الأمر» وضمنوا له أصحابهم من أعيان النواب والأمراء في سورية. وإذ زالت كل العقبات التي اعترضت الأمير برقوق، وآخرها موت اثنين من كبار الأمراء اليلبغاوية أقدم من برقوق هجرة وإمارة، وهما: الأميرأقطمر عبد الغني والأمير ايدمر الشمسي، قبل برقوق ما عرضه عليه كبار الأمراء في أمر سلطنته [3].

وبدأت مراسم إعلان السلطنة الجديدة بأن طلب برقوق الخليفة المتوكل على الله في ١٩ من رمضان سنة ٧٨٤ (٢٦ من نوفمبر سنة ١٣٨٢)، إلى الاجتماع به مع القضاة الأربعة وسائر الأمراء في باب السلسة. وقام القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر في وسط

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢١٤.
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

كسرى وسابور واردشير الملوك الاكاسرة. وضرب اسمه على سكة الذهب والفضة المتعامل بها فى ديار مصر وامر الخطبا بالديار المصرية ان لا يرجع احد منها يذكر صلاح الدين ولا احد من اولاده على منبر بل يذكرو الخليفه اول [أولاً] والملك العادل ثاني وولده ولى عهده الملك الكامل ثالث(*). ولا يذكر بعد ذالك سوى تمام الخطبة والدعا ثم الصلاة ووهب لخطباء الثغور [الاقاليم]

(*) الملك العادل يتسلطن علي مصر ويعين ابنه الملك الكامل وليا لعهده.

المجلس وقال: «يا أمير المؤمنين، ويا سادات القضاة إن أحوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان فى البلاد، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة والأحوال غير مستقيمة ، وإن الوقت قد ضاق ومحتاجون إلى إقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب» (١). وأيد الخليفة قول كاتب السر حين أعلن فى المجلس «أن الأمور مضطربة، وأن الوقت محتاج إلى سلطان كبير يفهم الخطاب ويرد الجواب ويكون صاحب لسان وحسام وفهم وافهام» (٢) ولم يكن هناك بطبيعة الحال من يجرؤ على التقدم لمنافسة برقوق فى السلطنة، ولهذا اتفق الجميع على خلع السلطان الصالح حاجى بعد أن حكم سنة وستة أشهر ونصف وأعلنوا سلطنة الأتابك برقوق (٣)، لما علموا فيه من «حسن سيرته واحكام سيرته واحكام سريرته، وكمال شجاعته ووفور عقله ومروءته، وحسن تدبيره فى سياسته ، وانقياده سنن النبى عليه السلام وشريعته ، ولما فيه من المصلحة التامة للخاصة والعامة» (٤). وبعد أن بايعه الجميع توجه أميران إلى السلطان أمير حاجى وأخذاه من قلعة الدهيشة وأدخلاه

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٠٥.
(٢) ا بن أبى السرور: الروضة الزهية ورقة ٤٠.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩.
(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٧٩.

والغربية والشرقية وقوص والمدن الكبار لكل خطيب خمسين دينار ثمن خلعه. واستوزر رجلا من اهل دميرة القبليه(*) يسمى عبدالله ابن على قاضياً عدلا من صباه حسن الوجه تام القامة فقيها عالم بحفظ القران ذو معرفة بصناعة الكتابة وجمع الاموال من وجوهها والحديث على الحسبانات [الحسابات] والنظر فى ترجيه الارتفاعات [اصحاب الرتب العالية] فانعته

(*) دميره القبليه: مركز طلخا. على الضفة الغربية المقابلة لمدينة المنصورة.

إلى أهله بالدور السلطانية، ثم أخذا منه النمجاه (١) وأحضراها إلى السلطان برقوق، ثم خطب الخليفة المتوكل خطبته التى دعا فيها السلطان إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أوصاه «بالعدل فى الرعية والنظر فى أحوالهم والإحسان إليهم ودفع الضرر عنهم والقيام بحفظهم وحفظ ما تحت ولايته شرقاً وغرباً، براً وبحراً (٢)».

جلس برقوق على تخت السلطنة في وقت الظهر يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٧٨٤هـ وأفيضت عليه خلعة السلطنة وهى خلعة سوداء، وأشار شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني أن يلقب «بالملك الظاهر» فإنه تسلطن وقت «الظهيرة ومن الظهور لأن هذا الأمر ظهر بعد أن كان خافيا» (٣).

وهكذا أصبح مملوك الأمس سلطاناً بفضل دهائه وسياسته وإحكام تنفيذ خطته التى رسمها لهذا الغرض. واعترف به فى الحال سلطاناً أمراء مصر ونواب سورية مع أن أكثرهم كان ذا رتبة عالية ونفوذ عظيم فى الوقت الذى كان فيه برقوق مملوكاً عادياً فى صفوف الجيش (٤).

(١) النمجاه هى شارة السلطنة، وهى كلمة فارسية معربة ومعناه السيف الصغير أو السكين المنحنية. انظر ابن تغرى بردى النجوم جـ١٠ حاشيه ٢ ص ٢٣١.
(٢) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ١ب.
(٣) نفس المرجع والجزء والصفة.
(4) Muir: The Mamluk Dynasty p. 106.

بالقاضي صفي الدين واسماه الصاحب وسلم له الدولتين المصرية والشامية فنهض فيهما واستقل بهما حتى صار يستخدم ويصرف ويامر وينهى ولا ينعمل شياً في صغيرة ولا كبيرة الا بعلمه وبثبوت خطه حتى صار الملك العادل لا ينفرد عنه بشي ولا يطلق ولا يمنع ولا يوقع في شي الا برايه وقلمه وبلغ منه ما لم يبلغه الصاحب ابن عباد وزير الخليفة ببغداد الذى سمي هذا باسمه. وكان من قوم يعرفو ببني شكر وله اثار واخبار قد تداولتها

ثم أكمل برقوق مراسم السلطنة، فركب فرس النوبة من الاصطبل السلطاني، والقبة والطير على رأسه، وطلع من باب السر، وعند ركوبه «بأبهه السلطنة» أمطرت السماء فتفاءل الناس بيمن السلطنة الجديدة. ومشى الأمراء والأعيان بين يديه إلى أن نزل بالقصر الأبلق. وعند ركوبه دقت البشائر بقلعة الجبل، كما زينت القاهرة وأنحاء البلاد سبعة أيام، ونودى بالقاهرة بالدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق (١) وأقبل الشعراء على مدحه والإشادة بفضله (٢). وأقام السلطان برقوق بالقصر الأبلق بالقلعة ثلاثة أيام، وصارت هذه سنة جديدة سار عليها من تسلطن بعده (٣).

والواقع أن نجاح السلطان برقوق في الترقي من صفوف الجندية إلى السلطنة مرجعه

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١ب.

(٢) مما قاله فيه الشيخ شهاب الدين أحمد بن العطار:

ظهور يوم الأربعاء ابتدأ ... بالقاهرة المعتز بالقاهر
والبشر قد تم وكل امرئ ... منشرح الباطن بالظاهر

و مما قاله الشيخ شهاب الدين الأعوج السعدى:

تولى الملك برقوق المفدى ... بسعد الجد والأقدار حتم
نهار الأربعاء بعد الظهر ... وللتربيع في الأفلاك حكم

راجع ابن تغرى بردى النجوم جـ١١ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) نفس المرجع ولاجزء ص ٢٢٦.

الالسن وشاهدتها الاعين ولو تكلفنا شرحها حتى
ندرك بعض ما كان منها بالديار الشاميه لفرغت
الصحف ولم تفرغ وكلت الالسن والايدى ولم
تغني ـ واقر بها واعجبها ما جرى بديار مصر فى
سنة سبع وتسعين وخمس ماية
[١٢٠٠/١٢٠١م]، للهجرة فانه فيما كان خلفا
الدولة المصرية وملوكها قد اطلقوه ووقعو به من
الصدقات لاهل الفاقات والرواتب للاقارب

حكمته ودهاؤه، واحكام خطته التى رسمها وقصد بها سيطرة فرقة اليلبغاوية أولاً على شئون الحكم، حتى إذا تم له هذا الأمر مكنته شخصيته من الفوز على غيره من الأمراء اليلبغاوية واعتلاء السلطنة. ورغم أن السلطان برقوق اعتلى السلطنة بفضل تأييد الجراكسة إلا أنه لم يفاجئ الترك بتعصبه العنصرى ما دام أكثر اليلبغاوية من الترك، ولذا حرص فى بداية سلطنته على إرضاء الأمراء اليلبغاوية من الترك والجركس على السواء، بدليل أنه جعل الأمير جركس الخليلي الجركسى مشيراً للدولة، وفى الوقت نفسه، جعل الأمير سودون الفخرى التركى نائب السلطنة بمصر ثم عفا عن يلبغا الناصرى وأقره فى نيابة حلب بعد أن حضر يلبغا وقبل الأرض بين يديه [١]. على أنه مما يثير الالتفات أن السلطان برقوق ركز كل السلطات فى يده حين جعل مرجع هؤلاء جميعا إليه ، كما أنه قيد سلطة الوزير ورسم له ألا يتكلم فى شئ إلا بعد مراجعته.

وهكذا أيضا أنهى برقوق سلطنة الترك فى مصر بعد حكم دام نحو مائة وثلاثين سنة وقضى على سلطنة بيت قلاوون، بعد أن حكمت هذه الأسرة من هذه الفترة نحو مائة سنة. وأقام برقوق دولة جديدة هى الدولة المملوكية الثانية التى أطلق عليها المؤرخون المعاصرون

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٣١.

والاجانب مما تساوى فيه فى ايام دولتهم الفقرا
والاقويا والاغنيا والضعفا لان معروفهم وخيرهم
كان واصل الى كافة الناس اعداهم واولياهم،
فاشار هذا الوزير بقطع ذالك جميعه فقطع فمنع
الله النيل فى تلك السنة ان يصعد على ارض مصر
فشرقت جميعها من برج اسوان الى برج دمياط
وكان مبلغ ما حصل منه فى المقايس فى تلك
السنة ثلثة عشر ذراعا وثمانية اصابع فشرقت البلاد

«دولة الجراكسة»[1]، وذلك لأن الجراكسة أصبحوا عماد السلطنة المملوكية الثانية بفضل دأب برقوق على جلبهم وتشجيع التجار على الإكثار منهم، وحرص برقوق على ملء الوظائف بالجراكسة بعد إقصاء عناصر الترك بصفة مستمرة عن هذه الوظائف. وعبر المؤرخون المعاصرون عن هذا الانتقال بعبارات الرضا عن الأحوال الجديدة للبلاد وانتقال الحكم إلى سلطان كبير أمسك بزمام الأمور، وأخذ يوجه سياسة الدولة فى الداخل والخارج، وقبض على نفوذ أكثر الأمراء الترك، ذلك النفوذ الذى أضعف السلطنة المملوكية الأولى، ومن هذه العبارات ما قاله ابن خلدون: «وانتظمت الدولة أحسن انتظام وسر الناس بدخولهم فى إيالة سلطان يقدر للأمور قدرها ويحكم أواخيها» [2].

حكم السلطان برقوق

مشاكل سلطنة برقوق ـ ثورة الطنبغا السلطانى التركى نائب الابلستين ١٣٨٢م ـ طمع الخليفة المتوكل سنة ١٣٨٣م فى السلطنة وسجن المتوكل ـ كشف مؤامرة أحمد بن البرهان سنة ١٣٨٦م ـ ثورة المماليك الترك بزعامة منطاش نائب ملطية سنة ١٣٨٨م ـ اعلان

(١) راجع المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٢٤١.
أبن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ١١ ، جـ١٢.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٤.

وخربت وهلكت الرعية وتفرقت وتشتت الخلايق وتمزقت ومضى خلق كثير من ديار مصر الى الشام باموالهم واولادهم فهلكو واخذوهم العربان فى الطريق وماتو بالبرد والجوع والقتل من العربان واخذ النفوس والاموال حتى كان الرجل منهم يموت ولده او اخوه او اعز الناس عنده فيتركه مطروحاً ويروح ولا يقدر يقف حتى يدفنه فى الرمل بل ينجا بنفسه مع الناس ولا يلتفت الى وراه

السلطان برقوق عداءه للترك ومحاولته قتل يلبغا الناصرى ـ توحيد صفوف الترك لمقاومة الجركس ـ اعلان الصراع بين الترك والجراكسة ـ معركة دمشق أو معركة الخمسمائة بين جيش برقوق والمماليك الترك سنة ١٣٨٩م ـ عودة جيش برقوق منهزما الى القاهرة ـ استيلاء المماليك الترك على القاهرة سنة ١٣٨٩م خلع برقوق واعادة السلطان حاجى الى الحكم ـ عوامل انقسام الترك على أنفسهم ـ النزاع بين منطاش ويلبغا الناصرى ـ خروج السلطان برقوق من الكرك الى دمشق فى أواخر سنة ١٣٨٩م انتصار السلطان برقوق على منطاش بدمشق ـ عودة السلطان برقوق الى القاهرة وخلع السلطان حاجى.

* * *

وصل الأمير برقوق إلى السلطنة بفضل خطة أحسن تدبيرها وتنفيذها، غير أن الطريق أمامه لم يكن مفروشاً بالورود، بل اتصف حكمه بالكفاح المستمر لإحباط المؤامرات التى دبرها المماليك الترك ضد سلطنته. ذلك أن السلطان برقوق حين أخذ فى إرساء قواعد دولته وجد نفسه يواجه فرقتين من المماليك الترك، فرقة اليلبغاوية الترك وفرقة الأشرفية مماليك السلطان شعبان. ولما كان لليلبغاوية الترك فضل الموافقة على سلطنته فإنه بدأ حكمه بإشراك أمرائهم فى الحكم إشراكاً شكلياً، حتى يمكنه أن ينصرف إلى التخلص أولاً من المماليك الأشرفية الترك. وتحقيقاً لهذه السياسة حرم أكثر الأشرفية من إقطاعاتهم وتركهم بطالين وبرر السلطان

ولا ينقطع من رفيقه فيهلك. واخبرنى من شاهد الخلق موتا رمم من باب بلبيس الى باب غزه هم ودوابهم ومواشيهم الواحد الى جانب الاخر وكانة [كانت] ثلثة ضربات ضرب الله بها المصريين الغلا والجلا والوبا (*) وذالك بنية سلطانهم ووزيره [حتى] بلغ القمح بدينار الويبة مغربلة، والخبز بنصف وربع درهم الرطل المصرى وبدرهمين وربع ورقا [فضة] الرطل بالحلى والشعير بخمسة

(*) اجتماع الغلاء والجلاء والوباء على أهل مصر حتى اكل الناس اولادهم.

برقوق إجراءه هذا بقوله : «إن هؤلاء. خانوا أستاذهم بعد أن عاشوا فى نعمته مدة طويلة، وانه لهذا «لم يعد يأمن لهم» [1]. وأتبع السلطان هذا العمل بإحلال مماليكه الجراكسة تدريجياً مكان هؤلاء المماليك الأشرفية الترك. ولذا أدت هذه السياسة إلى الكثير من المؤامرات والفتن التى أثارها الأمراء الترك الذين أدركوا خطورة سياسة السلطان برقوق فى جركسة الدولة كلها وما تبع هذا من اضطهاد مستمر للعناصر المملوكية التركية.

وأولى هذه الثورات التركية ثورة الطنبغا السلطانى الأشرفى نائب أبلستين [2]. ذلك أن هذا الأمير هاجم فى ذى القعدة سنة ٧٨٤هـ (سنة ١٣٨٢م) قلعة دارنده [3] المضافة إلى نيابته وقبض على بعض أمرائها من الجراكسة الذين عينهم برقوق أخيراً. غير أن مماليك هؤلاء الأمراء تمكنوا من القبض على مماليك الطنبغا السلطانى وضيقوا عليه الحصار حتى طلب الأمان؛ بيد أنهم بعد أن أمنوه تمكن من الفرار من القلعة إلى مقر نيابته. ومما هو ملحوظ أن هذه الثورة لم تكن مؤيدة من الترك اليلبغاوية فى سورية بدليل أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب لم ينضم

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥أ.

(٢) أبلستين مدينة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسس وكانت ضمن بلاد السلطنة المملوكية الثانية ــ راجع ياقوت: معجم البلدان جـ١ ص ٨٦.

(٣) قلعة دارندة كانت من بلاد الثغور والعواصم الخارجية عن حدود البلاد الشامية ولها نائب أمير عشرة وربما طبلخانه ــ انظر القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٢٨.

وعشرين درهم الويبة والفول بعشرين درهم الويبة
واما الحمص والعدس والجلبان فكانو قليل والذى
يجد منهم شيأ يشتريه بدرهمين وربع القدح،
وكان الترمس والبرسيم بدينارين الاردب ثم بلغ
الترمس درهم القدح مبلول. فباعو الناس من
الاثاث والقنايا والدور والجوار والعبيد مما قيمته دينار
بدرهم وناس كثير باعو بنيهم وبناتهم كالمماليك
للخدمة واحتجو بقولهم نبيعهم لمن يطعمهم الخبز

إلى الطنبغا السلطانى فى حركته هذه، بل على العكس كتب إلى الطنبغا يهدده بالزحف على نيابته وعزله إن لم يرجع عن عصيانه.

والواقع أن هذه الثورة إن دلت على ما كان فى نفوس الأشرفية الترك من الحقد ورغبتهم فى الثورة على حكم الجراكسة، فإنها تدل على مدى تفكك المماليك الترك آنئذ، حتى إن الطنبغا السلطانى حين شعر بضعف مركزه لعدم مؤازرة نواب سوريا من اليلبغاوية الترك فر هارباً إلى بلاد التتار بعد أن أعلن رأيه صراحة فى قوله. «لا أكون فى دولة حاكمها جركسى»[1].

على أن الأشرفية جربوا حظهم مرة أخرى فى أول رجب سنة ٧٨٥هـ (سنة ١٣٨٣م)؛ وكانت هذه المرة بالاتفاق مع الخليفة المتوكل على الله، وخلاصة الاتفاق أن يقوم قرط ابن عمر الكاشف وإبراهيم قطلقتمر العلائى أمير جندار ومعهما نحو ثمانمائة فارس من الترك [2] باغتيال السلطان برقوق إذا نزل للعب الكرة بالميدان، واعلان الخليفة المتوكل سلطاناً على البلاد [3]. وحين كشفت هذه المؤامرة وجئ بالمتآمرين إلى حضرة السلطان برقوق هددهم

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٢٩.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٢٨.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

فيعيشو به اصلح من ان يموتو بالجوع وكان الولد يخطف الخبز وغيره من يد ابوه ليحيى به نفسه والاب يخطف من ولده حتى يحيى نفسه واكلو لحوم الميتة من الحمير والبغال والخيل والكلاب والقطط وجميع الهوام والوحوش والطير الحى والميت. وكانو نساء مرضعات يعجزو من الجوع عن الرضاعه فيرمو اولادهم فى جامع المحلة وغيرها من المدن فى جميع ديار مصر فيرمو الاطفال اولاد

بالويل والثبور،حتى اعترفوا بأن الخليفة استدعاهم وقال لهم «هؤلاء ظلمة وقد استولوا على هذا الأمر كرهاً منى فى الباطن، ولم أقلد برقوقاً إلا غصباً» [1]. وظهر من اعترافاتهم أن الخليفة كتب إلى عرب البحيرة وطلب معاونتهم [2]. وعندئذ غضب السلطان برقوق وهجم على الخليفة يريد قتله بسيفه ولكنه تراجع ثم حكم عليه بالموت، ووافقه البعض على هذا الحكم، على حين اختلف القضاة فيما بينهم فى أمر هذا الحكم لأن للخليفة حق تعيين وخلع السلاطين؛ وهذا تخلص عجيب فى بابه من ورطة هذا اليوم [3]. وازاء هذا قنع برقوق بخلعه وسجنه بالقلعة وتعيين عمر بن إبراهيم خليفة وتلقيبه بـ « الواثق بالله» وبالحكم على قرط بن عمر بالموت[4].

على أن هذه المؤامرة التى وضح فيها استعانة الخليفة بالترك والعربان لقلب نظام الحكم الجديد جعلت السلطان برقوق يبدأ حكم الإرهاب ضد مثيرى الفتن من الترك الأشرفية وعزل عدداً كبيراً منهم عن وظائفهم، كما نفى عدداً آخر إلى سورية بطالين.

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٧أ.
(٢) المرجع نفسه والجزء والصفحة.
(٣) السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص ٦٠.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب جـ٦ ص ٢٨٦.

شـهـر وشـهـرين وثلثـة وفـوق ذالك فى الجـوامع والمساجد والطرقات والاسواق بالليل فياتو نسا اخر ورجال فـياخذوهم فى اقمطتـهم انهم يربوهم لله فياكلوهم وقوم يربوهم وكان كل يوم يصبح فى جامع المحلة منهم جماعة كبيرة فلا يجى المسا حتى ياخذوهم وكان الشرط [الشرطة] يمسكو نسا كثير ومعهم قدور يجدو فيها لحوم الناس صغار وكبار مطبوخين ومسلوقين ومشويين فيودوهم

غير أن هؤلاء المنفيين صاروا عاملاً من عوامل إثارة حكام سورية الذين توجسوا خيفة من أن يتهموا أو يعزلوا وأحس السلطان برقوق بهذه المخاوف حتى بدأت الشكوك تساوره من ناحية اليلبغاوية كذلك، ومما خلق عنده هذه الشكوك أن الأمير يلبغا الناصرى نائب حلب سلك مسلكاً شائناً فى سنة ٧٨٧هـ (سنة ١٣٨٥م) من سولى بن دلغادر التركمانى عدو السلطنة المملوكية الثانية، ذلك أن سولى بن دلغادر حضر إلى حلب طائعاً، فأنزله يلبغا الناصرى عنده، وكاتب السلطان برقوق فى أمره، فأرسل برقوق إلى يلبغا بالقبض عليه وإرساله إلى القاهرة مقيداً. غير أن يلبغا الناصرى وجد فى القضاء على سولى بن دلغادر هدوءاً لأحوال سورية وبالتالى توطيداً لنفوذ السلطان برقوق مما يعين السلطان على تحقيق سياسته الخطيرة نحو الترك ـ فتظاهر يلبغا بطاعة السلطان وقيد سولى وحبسه بالقلعة ولكنه عاد فأطلقه بعد أن زيف مكاتبة من السلطان بإطلاقه. وحين كشف زيفه حاول أن يدلل على براءته بخروجه بالعسكر فى طلب سولى، ولكنه سار يوماً فى غير الطريق الذى سار فيه سولى بن دلغادر، وعاد معلناً عدم إمكانه العثور عليه [٢]. وغضب السلطان برقوق من تصرف يلبغا، وخشى تكرار مؤامرته بعد أن ظهرت نياته واضحة، فأرسل بعزله عن نيابة حلب، وعين مكانه الأمير سودون المظفرى

(١) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٩.
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

للولاة فيضربوهم وبعضهم يجدوه قد ذبح او قتل
فيقتلوه، وكانو جماعة من الناس صبيان شباب
يقفو في الاسواق الليل والنهار ويخطفو ما يشتروه
الناس. وجملة الامر انهم اكلو بعضهم بعض وكان
القوى يقوى على الضعيف فياكله ولم يبق احد
يوارى احد التراب وهان الموت حتى صارو
مطروحين في الشوارع والازقة والطرقات والكيمان
ولا احد يبكى على احد ولا امراه تندب ولا تنوح

صاحب حلب الذى طالما دس على يلبغا الناصرى عند السلطان. وحين جاء يلبغا الناصرى إلى القاهرة فى رجب سنة ٧٨٧هـ عنف وقيد ثم أرسل إلى سجن الإسكندرية [١].

وما كاد السلطان برقوق يأمن شر يلبغا الناصرى وينصرف إلى أحواله الداخلية حتى واجهته فى السنة التالية مؤامرة جديدة اشترك فيها مع الترك أربعة من الفقهاء فى دمشق. وفى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٧٨٨هـ (سنة ١٣٨٦م) أحضر هؤلاء الفقهاء الأربعة من دمشق مقيدين ليقفوا بين يدى السلطان برقوق. وحين واجههم السلطان بتهمة «السعى فى نقض المملكة والدعاء لإمام قرشى» [٢] تقدم كبيرهم أحمد بن البرهان فى جرأة عجيبة وأنكر على السلطان برقوق قيامه بحكم البلاد وأظهر له أنه «غير أهل للقيام بأمر المسلمين إلا إمام قرشى» [٣]. وكانت هذه الحركة غريبة فى بابها وقتذاك، ولذا اعتقد السلطان برقوق أن للترك ضلع فى هذه المؤامرة وأمر أصحابه أن يعاقبوهم حتى يعترفوا على من اشترك معهم من الترك؛ غير أن هؤلاء لم يعترفوا برغم عقابهم فسجنهم بخزانة شمايل [٤]. واضطر برقوق بعد هذا إلى انتهاج سياسة الإرهاب للقضاء على الترك سواء أكانوا من فريق الأشرفية أو اليلبغاوية،

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥، ص ٤٧٦.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٧٠.
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٤) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ١٦.

وانقلعت الحنه [الحنيّة من] قلوب الناس وانقطع
من الحياة الرجا وحصل الاياس وهلكت الناس
وخربت المدن وخلت القرى لان اهل القرى انضوو
الى المدن لطلب المعاش لانه لم يبق احد يعمل
صنعة ولا يعمر عمارة، وضعفت قوة الخلق من
الجوع والموت وما بقى احد اذا طلب يقول لله
كسره ولا لقمة بل يقول لله لبابه هذا كان قول من
يطلب. وكانو كبار الناس بمصر والقاهرة من

فتتبعهم بالقتل والنفى كما ترك عدداً كبيراً منهم بطالين. وزيادة فى الحيطة أمر بوقوق ألا يدخل عليه أحد من الأمراءالقصر إلا بمملوك واحد ويترك بقية الأتباع خارج القصر فامتثل الأمراء لهذا الأمر [١].

وحين ازداد اضطهاد السلطان برقوق للترك الأشرفية عز الأمر على تمربغا الأفضلى الأشرفى المعروف بمنطاش نائب ملطية. [٢] وأخذ فى جمع الترك الذين تفاهم السلطان برقوق استعداداً لمقاومة السلطان وإعلان العصيان. وعلى حين أخذ منطاش يعد العدة لهذه الثورة منتظراً انتهاء فصل الشتاء ليصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً ، أرسل استاداره إلى برقوق يخبره ببقائه على طاعته. ولكن السلطان برقوق كان أكثر دهاء، وأرسل دواداره ملكتمر بعشرة آلاف دينار لينفقها فى أمراء حلب مقابل قيامهم بمراقبة حركات منطاش [٣]. وأثبتت المعلومات التى جمعها ملكتمر سوء نية منطاش وعجز الأمير سودون المظفرى نائب حلب عن

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٣.
(٢) أصله من مماليك السلطان الأشراف شعبان الترك ابقى عليه الظاهر برقوق وعينه فى نيابة ملطية بشفاعة قجماس ابن عم السلطان برقوق لأنه حين مر عليه وهو مع التاجر الذى جلبه بالغ فى الإحسان إليه - راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٨٣ ، الدرر الكامنة جـ٤ ص ٢٦٤.
(٣) ابن الفرات : تايخ الدولة والملوك جـ٩ ص ٢٣.

الاجناد والكتـــاب واهل الخـيـــر من المسلمين
والنصارى يصدقو على الفقر ويعمل كل احد على
قدر طاقته. ولم تزل هذه الامور مستمرة سنة سبع
وسنة ثمان ولما كان فى شهر ربيع الاول سنة تسع
وتسعين وخمس ماية [١٢٠٢م] نظر الله جلت
قدرته تلاف الخلق ورحمهم وانجلت الاسعار وابيع
الخبز ثلثة ارطال بدرهم بالمصرى وبرطل المحله رطل
بدرهم وفى ربيع الاخر ابيع برطل المصرى ستة

محاربته[١]. وحين وصلت هذه المعلومات الخطيرة إلى السلطان برقوق لم يكن فى وسعه إطلاق سراح يلبغا الناصرى واعادته إلى نيابة حلب بدلاً من سودون المظفرى[٢] وذلك فى ربيع الأول سنة ٧٩٠هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٨م) ظناً منه أن يحصل بهذا على تأييد اليلبغاوية ويثيرهم على الأشرفية وبذا يستفيد من الانقسام فى صفوف الترك.

بيد أن الحوادث أثبتت عكس ما توقعه برقوق إذ أنه ما كادت تمضى ثلاثة أيام على مغادرة الأمير يلبغا الناصرى للقاهرة حتى وصل إلى علم السلطان برقوق نبأ إعلان منطاش عصيانه فى ٣ من ديسمبر سنة ١٣٨٨م بعد أن اجتمع لديه عدد كبير من الأشرفية الترك[٣]. وهنا أحس برقوق بخطأ كبير لإطلاقه سراح يلبغا الناصرى وتوقع أن ينضم يلبغا إلى بنى جنسه كما فعل من قبل حين انضم إلى الأمير بركة.

على أن يلبغا الناصرى لم يجرؤ على الانضمام علناً لمنطاش، مع أن جانب منطاش كان قوياً بعد أن أنضم إليه برهان الدين أحمد صاحب سيواس، وفرار محمد التركمانى، ونائب البيرة. أما يلبغا الناصرى، فإنه نفذ أمر السلطان برقوق وتقدم لإخضاع أعدائه. ولكنه بدلاً من

---

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٥.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٨٠.
(٣) راجع العسقلانى: الدرر الكامنة جـ٤ ص ٣٦٤.

بدرهم وبرطل المحلة رطلين بدرهم فتراجعت الناس
قليلا قليل وبدو يعمرو، والقزازين والحيكه وارباب
الصنايع بدو يعملو وفى سنة تسع ابيع الخبز
بالمصرى احد عشر رطل بدرهم وبالمحلى اربعة
ارطال بدرهم وتراخت الاسعار وامنت الطرقات
وسافرو الناس فى البر والبحر بعد ان كانت
الطرقات انقطعت وما كان احد يقدر يسافر وحده
الا ياكلوه الغيلان الذى تغولو من بنى ادم فاعوذ

أن يتجه إلى منطاش في ملطية اتجه أولاً إلى مدينة سيواس وأحكم الحصار حولها [١]. ويبدو أن صاحب سيواس خشي أن يقع بين هجومين: أحدهما هجوم تيمور لنك الذى أخذ يزحف غرباً، والثانى هجوم جيوش السلطان، فبادر إلى إعلان الطاعة [٢] واكتفى يلبغا الناصرى بقبول طاعة برهان الدين مع أنه كان فى وسعه الاستيلاء على سيواس وطرد صاحبها [٣]. والواقع أن هذا الموقف المائع الذى وقفه يلبغا الناصرى سبب للسلطان برقوق متاعب كثيرة، إذ أنه لم يشتبك بمنطاش وأتاح له الفرصة لتجتمع حوله المماليك الترك ليتمكن من الثورة مرة أخرى على السلطنة المملوكية الثانية بعد أن يوحد صفوف المماليك الترك.

وفى ربيع الآخر سنة ٧٩٠هـ (سنة ١٣٨٨م) عاد السلطان برقوق إلى الوقوع فى خطأ جديد، وذلك حين قبض على الأمير الطنبغا الجوبانى نائب دمشق وأكثر الأمراء الترك إخلاصاً له لمجرد انتشار الأخبار عن إكثار الأمير الطنبغا الجوبانى من شراء المماليك[٤]. وفسر الترك مسلك برقوق من الجوبانى بأنه حمل كل معانى الغدر. ذلك أنه حين حضر الطنبغا الجوبانى

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٣.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٢٨.
(٤) أصل الطنبغا الجوبانى من اليلبغاوية ـ وثق به برقوق وجعله أمير مجلس ومعناه صاحب الشورى فى الدولة ـ راجع ابن خلدون جـ٥ ص ٤٧٧.

بالله من سخط الله. وهذا ما انتهى الينا علمه
وسطرنا هذه السيرة والاب البطرك رزقنا الله بركة
صلاته حى فى شوال سنة ثلاثة وستماية الهلالية
الموافقة للنصف من بشنس سنة ثلث وعشرين
وتسعماية للشهدا الابرار [١٢٠٦م] صلواتهم
تحفظنا واياكم. وكتب معاى [معى] ابن ابو المكارم
ابن بركات ابن ابو العلا بخطه لنفسه فمن ادرك
نياحت الاب يوحنا [يوانس] وعرف شى تجدد فى

إلى مصر ليدلل على براءته قبض عليه السلطان برقوق وسجنه بالإسكندرية وأقر منافسه طرنطاى فى نيابة دمشق[١].

ثم عادت مخاوف برقوق من الترك تدفعه إلى القبض على الكثيرين منهم، وخاصة مثيرى الفتن من المماليك البطالين. وأدى هذا إلى فقدان أمرائه ونوابه الترك ثقتهم فيه [٢]. وتكتل نواب سورية الترك ممن ينتمون إلى الرقتين وقبضوا على عدد كبير من الجراكسة [٣]، أما يلبغا الناصرى فإنه لم ينضم إلى هذا التكتل وآثر الحياد واحتجب فى بيته خشية اصطدامه باينال اليوسفي الجركسي. غير أنه فى الوقت نفسه اتصل بمنطاش سراً وشجعه على الاحتماء بحماه، حيث وجد فى أهلها من يناصره من أعداء السلطنة المملوكية الثانية [٤].

أثارت هذه الأخبار السلطان برقوق، ولكنه كظم غيظه ريثما تتم استعداداته للانتقام من يلبغا الناصرى، حيث إنه لم يكن يستهان بقوة يلبغا الناصرى بعد أن ازداد نفوذه فى حلب بسبب تمكنه من أسر حوالى ألف من التتار واستيلائه على عشرة آلاف فرس منهم [٥].

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٤.
(٢) راجع ابن دقماق: الجوهر الثمين مجلد ٢ ورقة ١٨٣ (النسخة المصورة).
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٠.

ايامه فليذكره ويتم به سيرته والمجد للاب والابن والروح القدس الاله الواحد.

وفى ايام هذا الاب انتهى اليه ان قسيس من اهل البشمور سكن مدينة الاسكندرية وكانو كهنتها يحلفو عليه يقدس فى كنايسها واقام على ذالك حيناً وزماناً فحضر رجل يعرفه من اهل بلده الى الاب البطرك انبا يوحنا [يوانس] واعلمه ان القسيس المذكور توفت زوجته وتزوج ثانية وانه

وحتى تتم استعدادات السلطان برقوق عمد إلى علاج الموقف بالحيلة والدهاء، ذلك أنه حين بدا الموقف خطيراً بسبب قلة أعداد الجراكسة بالنسبة للترك فى سورية أخذ يتودد إلى يلبغا الناصرى وبعث إلى بهدية من جملتها «خيول عربية وكنابيش وأطرزة زركش»، وبعث مع الهدية كتاباً استدعاه فيه للحضور إلى مصر للتشاور فى أمر منطاش [١]. غير أن يلبغا حين وصله رسول السلطان أبلغه شكره على هديته، ولكنه خشية أن يفعل به ما فعله بالأمراء الترك من قبل، كتب إلى السلطان يعتذر عن الحضور بحجة انشغاله فى مقاومة حركتى التركمانى ومنطاش، وخوفه على حلب منهما [٢]، وبعث يلبغا الناصرى برده على يد رسول من عنده، ولكن رغبته فى الانتقام من السلطان برقوق دفعته إلى الكتابة سراً إلى أمراء مصر يحضهم على الثورة على السلطان برقوق، كما طلب من رسوله أن يكشف له فى أثناء وجوده بالقاهرة عما دبره ا لسلطان له ولإخوانه الترك من المكائد [٣].

وبرغم أن السلطان برقوق اظهر قبولاً لكتاب يلبغا الناصرى إلا أن خوفه من مكائد يلبغا الناصرى وتوقع انضمامه إلى منطاش دفعاه إلى التدبير عليه مع خاصكيته، الذين كسب ودهم

(١) راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٥٠.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٤.
(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٢.

تعدى قانون الكهنوت فصعب ذالك عليه جدا
ومنع القس المذكور واغلق الكنايس بالاسكندرية
وكتب الى الكهنة كتابا صعب، وطلعو له الى
مصر فاغلظ عليهم وعظم ذالك عندهم جدا
فسالوه وثقلواعليه باراخنة مصر حتى صفح عنهم
وتقدم لهم ان لا يرجع غريب يتصرف عندهم
واخذ خطوطهم بذالك واستمر ذالك في جميع
ايامه. ولما فسح الله جلت قدرته وعظمته لاخوكم

بشربه القمز بالميدان معهم يومى الأحد والإربعاء من كل أسبوع [١]؛ حتى اقتضى رأى الجميع إرسال الأمير ملكتمر الدوادار مرة أخرى إلى حلب بحيلة دبروها؛ ظاهرها مطالبة يلبغا الناصرى بصلح سودون المظفرى بحضور ملكتمر والأمرا والقضاة والأعيان وأن يلبسا خلعتى السلطان بعد الصلح . ولكن وراء هذا الصلح كانت خيوط المؤامرة التى دبرها السلطان مع خاصكيته، وذلك أن السلطان أدرك صعوبة الصلح بين يلبغا الناصرى وبين سودون المظفرى، لما بينهما من عداء مستحكم. فكتب السلطان إلى سودون المظفرى وبعض أمراء حلب بالقبض على الناصرى وقتله فى أثناء اجتماع الصلح[٢] وتعمد السلطان أن يؤخر رسول الناصرى عنده حتى يسبقه دوداره ملكتمر إلى حلب، بيد أن يقظة رسول الناصرى مكنته من أن يلم بتفاصيل مؤامرة السلطان. وحين أزمع رسول يلبغا السفر جد فى السير إلى حلب حتى سبق ملكتمر وأطلع أستاذه على تفاصيل المؤامرة، فاحتاط الناصرى للأمر [٣].

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٩٩.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٣٤ ـ روى ابن الفرات أنه رأى بخط بعض المؤرخين أن الأمير ملكتمر الدوادار كانت بينه وبين الشيخ حسن رأس نوبة الأمير يلبغا الناصرى مصاهرة، فلما بعثه السلطان برقوق بالكتب أخبر الشيخ حسن بما أبطنه. راجع ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٢.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

المهتم بهذه السيرة المقدسة الذى اجهد نفسه فى طلبها من كل مكان وجمعها وكتبها بخطه لنفسه فى الحياة ادرك فى ايام هذا الاب الجليل قضية جرت فى ايامه وقد ذكر بعض ابهاتنا من الشيوخ انه كان جرى مثلها فى ايام من تقدمه من البطاركة رزقنا الله واياكم صلواتهم المقبولة مصطفيين من الله مويدين بروح القدس الساكن فى قلوبهم.كان رسل ملك الحبشة والنوبة قد وردو

وحين وصل مندوب السلطان إلى حلب أول صفر سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م خرج الأمير يلبغا الناصرى واستقبله مظهراً الطاعة للسلطان، وبعد أن أخذ منه هدايا السلطان عاد به إلى دار السعادة بحلب [١]، حيث اجتمع الأمراء والفقهاء وغيرهم من أمراء حلب لسماع كتاب السلطان. وبعد أن قرئ الكتاب أرسل الناصرى إلى سودون المظفرى يطلب منه الحضور للصلح ، ولكن سودون تلكأ بسبب قلة مماليكه عن أتباع الناصرى. وإزاء إلحاح الناصرى عليه بالحضور ، حضر سودون لابساً عدة الحرب تحت ملابسه خشية غدر الناصرى، ثم دخل سودون إلى دهليز دار السعادة حيث وقف قازان البرقشى أمير آخور الناصرى، وتقدم قازان ولمس كتف سودون، فوجد السلاح تحت ملابسه، وعندئذ انبرى قازان يؤنب سودون بقوله: «يا أميرا الذى يجئ للصلح يدخل دار السعادة وعليه السلاح وآلة الحرب؟» [٢] فسبه سودون حتى سل قازان سيفه وضربه. ثم أخذت سودون المظفرى السيوف من كل جانب من مماليك الناصرى الذين رتبهم لهذا الأمر. وتبع هذا معركة بين مماليك سودون ومماليك الناصرى انتهت بهزيمة مماليك سودون[٣].

(١) دار السعادة هى دار الحكومة التى يقيم فيها الوالى والحاكم ومنها يدير شئون الحكم.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٠١.

عليه بكتاب الملك يلتمسو منه ان يقسم لهم
مطران لكون المطران الذى كان عندهم قد تنيح
ومن عادة الملك انه اذا ارسل رسل الى البطرك
يسير معهم هدية جليلة لسلطان مصر وكتاب اليه
بان يتقدم للبطرك بقسمة المطران فلما وردت
الرسل الى البطرك اقامو عنده نحو من ثلثة اشهر
وهو يرسل تلاميذه الى الديارات بوادى هبيب
وغيره ويتامل هل عنده بمصر والقاهرة من يصلح

وهكذا كشف يلبغا الناصرى عن موقف السلطان برقوق ونواياه إزاءه وإزاء المماليك الترك. وبدأ يلبغا الناصرى منذئذ يواجه السلطان علناً، فاجتمع بالأمراء الترك وقرروا خلع السلطان برقوق [1]. كما قبض يلبغا على عدد كبير من الأمراء الجراكسة، ثم تمكن من الاستيلاء على قلعة حلب بعد صراع طويل مع نائبها[2]. ودخل فى طاعته أهل حلب وأمراؤها وعسكره وبعض التركمان والعرب [3]، ثم عمل يلبغا على توحيد جبهة الترك، فكتب إلى منطاش يدعوه إلى محالفته، وصادفت هذه الدعوى هوى فى نفس منطاش فقدم عليه بعد أيام قليلة ودخل فى طاعته [4] وهكذا أدت الحادثة إلى اتحاد المماليك الترك فى فرقة الأشرفية مع المماليك الترك اليلبغاوية وأنذرت بالتالى بسوء مصير سلطنة برقوق.

ولم يكن فى وسع السلطان برقوق حين وصلته هذه الأخبار السيئة سوى الاعتماد على الجراكسة وجمع شملهم لمواجهة الترك، كما كتب إلى الأمير اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق تقليداً بنيابة حلب، وأمره بالقبض على الناصرى [5]. غير أن اينال تغلبت عليه الأثرة، فتذكر موقف برقوق منه حين اعتقله من قبل ولم يسارع إلى تنفيذ أوامره.

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٥.
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٥٣.
(٣) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٤) العسقلاني : الدرر الكامنة جـ٤ ص ٤٤١.
(٥) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٦.

للمطرنة فلم يجد احد وضجرو الرسل من طول مقامهم عنده وعزمو على ان يعرفو السطان قصة حالهم وكان ملك ديار مصر لملوك الغز والملك فى ذالك الوقت العادل ابو بكر ابن ايوب(*) وكان فى ذالك الزمان قد احتوى على ملك مصر والبيت المقدس وجميع الساحل ما خلا عكا وصور وبعض القلاع والقوى التى كانة باقية للفرنج وكان فى ملكه ايضا دمشق واعمالها ومن خلف نهر الفرات

(*) هو العادل سيف الدين ابوبكر أخو صلاح الدين (١٢٠٠/ ١٢١٨م = ٥٩٦ / ٦١٥هـ).

وفى التاسع من صفر سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٩م) تحرج موقف برقوق، فاستدعى قضاة القضاة وأعيان الدولة وأمراءها وشاورهم فى أمر عصيان الناصرى، وعرض عليهم أن يخرج لقتاله، ولكنهم أجمعوا على أن يجهز السلطان العسكر ويرسل لقتال الناصرى من يقوم على رأسه مقامه من الأمراء الذين يثق بهم [١]. وتردد السلطان كثيراً فى قبول ما أشار به الأمراء.ويبدو أن هذه النصيحة لم تكن خالصة كما أن السلطان لم يرغب فى أن يرسل غالبية العسكر إلى سورية ويبقى فى القاهرة بعدد قليل، ولهذا تودد إلى الأمراء كثيراً، واجتمع بهم عدة مرات بالقصر الأبلق وحلفهم على طاعته [٢].

وظل الموقف مائعاً حتى بدا السلطان برقوق فى مركز لايحسد عليه حين جاءت الأخبار من دمشق بأن الأمير قرابغا فرج الله، والأمير نزلار العمرى الناصرى، والأمير دمرداش اليوسفى، والأمير كتبغا الخاصكى الأشرفى اجتمعوا بعدد كبير من المماليك الأشرفية الترك فى سورية [٣] وهاجموا طرابلس، وبعد أن قتلوا نائبها الأمير استدمر المحمدى، دخلوا المدينة وقبضوا على عدد كبير من أمرائها الموالين للسلطان برقوق[٤]. وفضلاً عن هذا أعلن يلبغا الناصرى فى حلب نبأ

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١٩أ.
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٠.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٥٩.

وحران ومنبج ونصيبين والرها وعدة اماكن وقرى لم تعرف اسمايا وكان ملكا عادلا حريزاً قوياً كثير الغزاة فى الفرنجة والمسلمين وفتح مدناً وقرى وكان له نحو من خمسة عشر ولد ويكون عدة عسكره عشرة الف طواشي وقرا غلام ومماليك نزل اشتراهم بماله [العادل ابو بكر بن ايوب]، فلما ورد اليه الكتاب من ملك الحبشة كما قلنا بدياً بان يتقدم للبطرك بقسمة مطران ويسيره مع رسل الملك تقدم مراده فاتفق رايه مع من بحضرته من

خلع السلطان برقوق وسلطنة الخليفة المتوكل على الله، وبعث يلبغا الناصرى بهذا الإعلان إلى نواب القلاع الشمالية الذين أسرعوا بإعلان تأيدهم له [(١)].

وأصبح لهذه الخطوة أسوأ الأثر على السلطان برقوق إذ جعلته يتخبط فى سياسته، فلم تكد تمضى عدة أيام على صلحه مع الخليفة المتوكل وإعادته إلى الخلافة فى ٥ من ربيع الأول سنة ٧٩١هـ [(٢)] حتى عاد فسجنه بالبرج بالقلعة وضيق عليه ومنع غلمانه وأصحابه من الدخول إليه. ودفع برقوق إلى هذا الإجراء الخاطئ أنه خشى أن يرسل الناصرى إلى الخليفة من يستميله ويسير به إليه فترجح كفته [(٣)]. ويبدو أن السلطان برقوق عاد فاقتنع برأى بعض خلصائه فى خطورة هذا الإجراء وخاصة بعد أن انتهز الناصرى فرصة حبس الخليفة واتخذ ذلك وسيلة يثير بها خواطر الناس على السلطان [(٤)]، فاضطر برقوق إلى إطلاق سراح الخليفة المتوكل مرة أخرى. ومع أن السلطان برقوق استرضاه بعشرة آلاف درهم ومنحه أكياساً مملوءة بقماش من الصوف [(٥)]، إلا أنه حدد إقامته بالقلعة وراقب حركاته وسكناته[(٦)].

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٣٣٦.
(٢) الهيثمى: إتحاف إخوان الصفا ورقة ١٣١ب.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩أ.
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦.
(٥) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٩ب.
(٦) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٢١٠ ـ ٢١١.

الاصحاب والاراخنة والكهنة على رجل يسمى
كسيل ابن الملبس من اهل طوخ موثرا[غنى] من
اعمال الغربية كان قد اقسمه اسقفاً على مدينة
فوه وكان بتولا عالماً [بالكتب] العتيقة والحديثة
بشوش الوجه طويل القامة اكحل العينين اسمر
اللون بحمرة حسن المنظر جدا، في فاه لدغه،
كاملا فى اعضايه وعلمه فاخذه وقسمه مطرانا
وسيره مع رسل الملك، واخبر من كان سار معه

وفي العاشر من ربيع الأول سنة ٧٩١هـ يونيو سنة ١٣٨٩م تواترت الأنباء بدخول سائر المدن السورية ـ فيما عدا قلعة دمشق وبعلبك والكرك ـ في طاعة يلبغا الناصرى. وزاد الطين بلة أن انضم إلى الترك سولى بن دلغادر التركمانى ونعير بن حيار أمير عرب آل فضل وشاركا يلبغا الناصرى ومنطاش فى الدعوة إلى نصر الخليفة (١)، ولم يجد السلطان برقوق بدأ من تجريد عدد من أمرائه، سا روا فى خمسمائة من مماليكه لقتال الناصرى (٢). غير أن هذا العدد لم يكن كافياً لقتال أعداء السلطان في سورية، ولكن حرص السلطان برقوق على ضبط الأمور في العاصمة جعله يحتفظ بأكبر عدد من الجراكسة بالقاهرة. وفى ١٤ من ربيع الأول سنة ٧٩١ (٣) رسم بخروج التجريدة بقيادة ايتمش البجاسي، وأغدق السلطان برقوق عليهم الكثير من النفقات. وبرغم أن العساكر خرجت فى تجمل زائد واحتفال عظيم فإن القاهرة المضطربة وقتذاك لم تتأثر لذهابهم كما كانت العادة عند خروج العساكر للقتال مما دفع السلطان برقوق إلى استجلاب خواطر الناس فأبطل الرمايات والسلف على البرسيم والشعير كما أبطل مكوس البصل والقلقاس.

(١) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٦ ـ آل فضل قبيلة عربية على مقربة من دمشق.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧١.

وعاد ان الملك لقيه من سيرة [مسيرة] ثلثة ايام من المدينة بالخلع والكرامات ومعه كهنة واساقفة وعسكر عظيم وخلق كثير، ولما وصل الى مدينة الملك خرج كلمن فيها تلقوه وعملو على راسه مظلة منسوجة بالذهب مكللة بالجواهر واحرقو عود وعنبر في مجمرة الكنيسة كثيرا جدا وانزلوه فى دار المطرنة واقامو له عشرت قسوس لخدمته وحفظ ما يكون من جراية المطرنة من الذهب

وحين وصل عسكر السلطان برقوق إلى غزة قبض الأمير جركس الخليلي أمير آخور السلطان على نائبها الأمير ابغا الصفوى التركى وسجنه بالكرك، وأقر في نيابة غزة الأمير حسام الدين بن باكيش [١]. ثم تشجع جركس وتقدم شمالاً، وهناك أعلن قرا محمد التركماني رغبته في الانضمام إلى جانب السلطان كما أرسل مجد الدين عيسى صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يستأذنه في محاربة الناصرى. وحين وصلت هذه الأنباء إلى السلطان برقوق لم يرغب في تدخل التركمان أو صاحب ماردين في هذا الأمر خشية أن يزداد نفوذهم في سورية، ولهذا اكتفى بإجابتهم بالشكر والثناء، وأنه «ادخرهم لما هو أهم من ذلك»[٢]. ثم دخلت عساكر السلطان دمشق فتلقاهم نائبها حسام الدين طرنطاى، غير أنهم بدلاً من أن يستعدوا لمواجهة العدو حسبوا أنهم في نزهة عسكرية فاقبلوا على الفساد بدمشق وشغلوا باللهو والمجون فيها حتى «سئمهم الناس، وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيهم وفي مرسلهم» [٣].

وانتهز يلبغا الناصرى ومنطاش فرصة انشغال عساكر السلطان بمجونهم في دمشق وتقدما

(١) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.

(٢) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثاني ورقة ٣٧.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧١.

والفضة والثياب وكتب الكنيسة وخزاين اخر ومخازن يكون فيهم حاجات المطبخ للطعام والقمح والحبوب وحمل اليه الملك والامرا معه خيل كثير وبغال لركوبه وخدمته عبيد وجوار وكانت البلاد قد انقطع عنها المطر فازداد به فرحهم وخافو منه ووقروه وصار الملك يركب في كل وقت الى داره وعظم قدره عندهم واقام عندهم على هذه القضية اربع سنين ولما كان في

بالمماليك الترك في ٢١ من ربيع الآخر سنة ٧٩١ يوليو سنة ١٣٨٩م لحصار دمشق. فخرج عسكر السلطان من دمشق إلى برزة [١]، وحين التقى عسكر برقوق بالترك عند خان لاجين نشب قتال شديد ثبت فيه كل من الفريقين مكانه. ثم حمل عسكر السلطان مرة أخرى على الترك واضطروهم للتراجع، واعتقد الجراكسة أنهم هزموا الترك، بيد أن يلبغا الناصرى عاد فجأة وانقض على الجراكسة وتمكن أحد مماليكه وهو يلبغا الزينى الأعور من قتل الأمير جركس الخليلى أهم قائد في جيش السلطان برقوق [٢].

ولا شك أن هزيمة جيش برقوق تعزى إلى قلة عدده إذ أنه على حين بلغ عدد أفراده نحو الخمسمائة، كان الترك يعدون بالألاف فضلاً عمن انضم إليهم من التركمان والعرب [٣]. واستطاع يلبغا الناصرى بمعاونتهم تمزيق جيش الجراكسة حتى تفرق قواده وتمكن يلبغا الناصرى من دخول دمشق والاستيلاء على قلعتها والقبض على الأمير ايتمش البجاسى وسجنه مع عدد كبير من الأمراء الجراكسة في قلعة دمشق [٤].

(١) برزة: قرية من غوطة دمشق. انظر ياقوت، معجم البلدان جـ٢ ص ١٢٤.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام جـ٢ ورقة ٣٧.
(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٥.
(٤) السيوطى: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ١٢٧أ.

السنة الخامسة تواصل خبره الى الاب البطرك انبا يوانس انه فارق مدينة الملك وخرج منها متوجه الى مصر الى القلاية البطركية فصعب ذالك على الاب البطرك ولم يزل منقسم الفكر مشغول القلب بسببه الى ان وصل الى مصر وحضربين يديه فساله عن السبب الموجب لعودته فذكر ان للملكة زوجة الملك اخ اسمه خيرون وانها لم تزل تلح عليه وتثقل عليه وتتشفع عنده بالملك الى ان

ولواقعة دمشق هذه نتيجتان سيئتان بالنسبة لبلاد السلطنة المملوكية الثانية، أولاهما أنها تركت الفرصة أمام التركمان والعرب لنهب دمشق، وثانيتهما اضطراب الأحوال الداخلية فى مصر حين وصل خبر هزيمة العسكر السلطانى على هذا نحو، إذ طغى أهل الفساد وأغلقت الأسواق فى وقت انتشر فيه الطاعون [١] وساء مركز السلطان برقوق فأسرع وجمع الأمراء لمناقشة أسباب الهزيمة وعزا الأمراء أسبابها إلى قلة عدد العساكر فى التجريدة السابقة عن عساكر منطاش والناصرى، واتفقوا على ضرورة خروج تجريدة أخرى لا تقل عن ألف وأربعمائة مملوك [٢].

وعلى حين أخذ السلطان برقوق يعد لهذه التجريدة الجديدة وصله نبأ يفيد أن الناصرى قبض على اينال اليوسفى الجركسى أتابك دمشق، وأن اينال اليوسفى اضطر لينجو بحياته إلى العمل مع جيش الناصرى. وتقدم الترك ومعهم اينال والناصرى للاستيلاء على مدينتى غزة والرملة [٣]. ولم تكن لدى السلطان فى هذه الظروف السيئة من حيلة إلا أن يجتمع مرة أخرى بالخليفة والقضاة والأمراء والأعيان ويحلفهم على الموالاة واسداء النصح، كما أظهر

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٠أ.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦٦.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٠أ.

اقسمه اسقف على مدينة الملك فلما اقسمه صار
يركب بالمظلة مثل المطران ولايسلمو عليه
ولايطيعوه في شي. وكان الملك قد خرج من
مدينته بعسكره لمحاربة اعداه فعمل خيرون في
الحيلة على قتل المطران وتعب عليه قوم من عنده
تسلقو إلى دار المطران بالليل ليقتلوه فهرب منهم
فتبعه نحو من خمس ماية نفس اصحاب المطران
وعبيد كان اشتراهم ووكلا وغيرهم لبلاد قلاية

احترامه الزائد للخليفة، واسترضاه بما خلعه عليه وما أعاد له من إقطاعاته ورواتبه التى قطعت من قبل[1].

وبرغم هذا كله فإن خسارة السلطان فى معركة دمشق ـ التى عرفت بمعركة الخمسمائة ـ[2] كانت فادحة إذ فقد شخصيتين من أخلص الشخصيات الجركسية هما جركس الخليلى، ويونس الدوادار [3]؛ وتحرج مركزه وخشى انتقام العامة؛ ولهذا أمر بإبطال سائر المكوس من ديار مصر وأعمالها، كما طلب من الخليفة المتوكل أن يركب فى شوارع القاهرة ومعه الأمير سودون الشيخونى النائب والقضاة وشيخ الإسلام وأن ينادى فى الناس «أن السلطان قد أزال المكوس والمظالم وهو يأمر الناس بتقوى الله وطاعته وانا قد سألنا العدوالباغى فى الصلح فأبى وقد قوى أمره، فأغلقوا دوركم، وأقيموا الدروب على الحارات، وقاتلوا عن أنفسكم وحريمكم [4]». غير أنه لم يكن لهذا النداء أية قيمة فى اجتذاب العامة إلى جانب السلطان برقوق، لأن السلطان عاد فعدل عن قراره وألزم مباشرى جهات المكس

(١) نفس المرجع ورقة ٢٠ب، المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٠٤.
(٢) عرفت بمعركة الخمسمائة لأن السلطان قاتل فيها بخمسمائة من العساكر ـ راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٦٩.
(٣) انظر السيوطي: تاريخ الأشرف قايتباى ورقة ٢٧أ.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

المطران وعدتها على ماذكر اربعين قرية فلما خرج
من مدينة الملك وسار عنها راجعاً الى مصر مدة
ثلثة ايام امر الكهنة والقوم الذين ودعو بالرجوع
فرجعو وصحبه جماعة منهم نحو ماية رجل فهلكو
فى الطريق بالجوع والعطش لانهم لما خرجو من
بلاد الملك وقعو فى بلاد غيره من الملوك الكفار
فقاسو منهم شدة عظيمة وكانو يمنعوهم العبور
على بلادهم الى ان ياخذو منهم الذهب وغيره

بمطالبة الباعة بمكس مابيع [1]، مما أضعف ثقة الناس بسلطانهم وما يصدر عنه من قرارات[2]. والظاهر أن السلطان برقوق عدل عن قراره هذا بسبب حاجته الشديدة إلى المال، فوقع هذا العبء على الناس وقعاً سيئاً حتى أخذوا فى الهروب من القاهرة والانضمام لجيش الناصرى والعمل على التخلص من حكم برقوق. أما من بقى من الناس بالقاهرة فلم تكن لديهم من حيلة آنئذ سوى «عمل الدروب وجمع الأقوات والاستعداد للقتال والحصار [3]» فى وقت تجمع فيه الزعر ينتظرون قيام الفتنة لنهب الناس الذين يئسوا من قدرة عساكر السلطان على حمايتهم.

وإزاء هذا الشعور الذى لمسه السلطان برقوق من العامة رأى أن يستعين فى كفاحه مع الترك بعرب هوارة وعرب الوجه البحرى [4]، واعتمد على مماليكه فى حفر خندق حول القلعة، وتوعير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة وباب الحرس وباب الدرفيل، كما نقل إلى القلعة الكثير من الأقوات والمجانيق والمكاحل وغيرها من عدد الحرب وآلات الحصار، ثم

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥١٢.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٠.
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٧٧.

فلم يصل المطران الى مصر الافقيرا وقد هلك ماكان معه من مال ونفوس ووصل معه من الجميع عبدين وجارية وقط زبدة(*) وهلك الباقى فلما اخبر البطرك بما قدمنا ذكره ان يقيم ببعض كنايس القاهره حتى يكتب للملك كتابا يستفهم صحة ما ذكره المطران فمضى المطران الى القاهرة واقام فى كنيسة حارة زويلة عند قوم من الاراخنة يقال لهم اولاد جمال الكفاه وكتب الاب البطرك

(*) قط زبدة: هو نوع من السنانير يسمى سنور الزباد.

أمر سكان القاهرة بأن يدخروا قوتهم لشهرين استعداداً للحصار. وبعد أن تمت استعدادته أمر بالعمل على سد أبواب القاهرة [1].

على أن سوء الحظ لازم السلطان برقوق فى هذه الآونة إذ تبع هذه الاستعدادات سوء الحالة الاقتصادية فارتفعت الأثمان، لحاجة السلطان المستمرة إلى أدوات الحرب حتى إنه أمر فنودى «بأن من له فرس من أجناد الحلقة يركب للحرب ويخرج مع العسكر [2]». أما باقى آلات الحرب من الخوذ والقراقلات والسيوف فطلبها بثمن مرتفع جداً [3]. وبرغم ما أنفقه السلطان برقوق على مماليكه من المال والخيول الكثيرة واضطراره إلى توزيع خيله الخاص على الأمراء والأجناد فإن اليأس أحاط به، حتى أخذ يحرض مماليكه على القتال معه تارة بالمال وتارة بالبكاء، ثم استعان بالخليفة والقضاة للدعاية له بالنصر بمسجد أثر النبى، كما أعطى الأمير اقبغا الماردينى حاجب الحجاب مبلغاً كبيراً من المال ليوزعه على الزعر الذين عظم أمرهم حتى صارت الشوارع على قول ابن تغرى بردى: «مشحونة بالخيول والفرسان شاهرين آلات الحرب، ثم بطل الحكم فى القاهرة وانعدمت سلطة الدولة وصار الأمر فيها لمن غلب وتعطلت الأسواق

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٣٩.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٣.
(٣) نفس المرجع والجزء والصفحة.

الى الملك كتابا وسيره على يد القس موسى ومعه تلميذ من تلاميذه فغاب عنه رواح ومجى [اى اخذ فى ذهابه وإيابه] مدة سنه ثم عاد الجواب من الملك وهو يقول عن المطران انه قتل قسيس كبير فى طقسه مقدم العشرة قسا الذى برسم حفظ خزانة المطرنة وسبب ذلك انه اتهمه انه قد اخذ قضيب ذهب من خزانة المطرنة فبطحه وامر عبيده بضربه فضربوه قدامه بغير رحمة وهو يامرهم

وارتفعت الأسعار وأكثر الناس من شراء البقسماط والدقيق والدهن ونحو ذلك خشية الحصار»(١)، والخلاصة أن الأحوال ساءت فى داخل القاهرة ولم ينقذ برقوق من ثورة العامة عليه سوى آنتشار الطاعون حتى قيل إن الناس لم يستطيعوا دفن موتاهم(٢).

أما يلبغا الناصرى فإنه سار من غزة إلى قطية(٣) فى ٢٨ من جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ (أغسطس سنة ١٣٨٩م) وانضم إلى جيشه جماعة كبيرة من المماليك الجراكسة الذين هددهم الناصرى بسحب إقطاعاتهم وقتلهم إن تأخروا عن الانضمام إليه(٤). وفى قطية وجد الناصرى بعض جواسيس برقوق فعاقبهم(٥)، ثم ما كاد خبر وصول الناصرى إلى قطية يصل إلى القاهرة حتى فر من أمراء مصر جماعة كبيرة لتنضم إليه، وتدلنا هذه الأحداث على ما وصل إليه بعض الأمراء الجراكسة آنئذ من الجبن وعدم الإخلاص حتى إن هؤلاء الأمراء أطلعوا يلبغا الناصرى على موقف السلطان برقوق السئ مما شجع الناصرى ودفعه إلى التقدم بسرعة

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢١أ.
(٣) قطية قرية فى الطريق بين مصر والشام قرب الفرما وكان بها مكان أخذ المكس من الوافدين على مصر. راجع رمزى: القاموس الجغرافى ص ٤٢.
(٤) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢١أ.
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٣.

بضربه حتى اسلم روحه وسالوه جماعة من الكهنة فيه فلم يقبل فيه سوال وان اهل القسيس الذى قتله هم الذين كانو يتسلقون عليه ليقتلوه عوض قتله صاحبهم، واما خيرون الذى اقسمه المطران اسقفا ذكرو الرسل انه مات بعد خروج المطران من البلاد بشهرين ولم يمطر مطراً فى تلك السنة فى بلادهم ولذالك انفذو الرسل بطلب مطران غيره وانه بنا فى المدينة التى للملك دار وغرس

نحو القاهرة. وحين وصل يلبغا الصالحية، قدم له محمد بن عيسى أمير عرب العايد كل معونة سواء من المال أو الرجال، وسار يلبغا الناصرى بمن اجتمع لديه قاصداً القاهرة (١).

أما السلطان برقوق، فإنه بعد أن نصب السناجق السلطانية على أبراج القلعة، أمر فدقت الكوسات الحربية، ثم ركب مع الخليفة في مقدمة العساكر، واجتمع حول السلطان عدد كبير من العامة استطاع السلطان برقوق اجتذابهم إليه ببكائه حتى إنهم بكوا إشفاقاً لحاله (٢).

وعندما أشرف الناصرى على المرج أسرع برقوق وأغلق أبواب القاهرة كلها ماعدا باب زويلة، غير أنه لم يستطع السيطرة على الأمن داخل المدينة؛ بسبب فرار واليها حسام الدين بن الكورانى واختفائه خوفاً من انتقام الزعر، الذين انتشروا ينهبون فى أنحاء المدينة.

والواقع، أن تردد السلطان برقوق وانتظاره مجئ عدوه ووقوفه موقفاً دفاعياً فقط أضاع عليه الفرصة، حتى إن من بقى معه من مماليكه بدءوا يتسللون للانضمام إلى يلبغا الناصرى برغم ما أنفقه السلطان عليهم (٣). ويبدو أن تسللهم عن طريق باب زويلة هو الذى دفع السلطان إلى إغلاقه، وبذا أصبح محصوراً فى داخل القاهرة. وزاد فى ضعف مركز السلطان

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٧٧.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥١٣.
(٣) الخطيب: نزهة النفوسى والأبدان(مخطوطة) ورقة ١٢١أ.

فيها اشجار واجرى فيها مياه تتخرق فى مجالها
وانفق فيها مال كثير وبيضها وعمل لها دهاليز
طوال يتعب الذى يدخلها قبل ان يصل الى قاعها
وعلاها، وحصنها وسماها القصر وكان يحتجب
فيها عن الناس لا يخرج الا من يوم الاحد الى يوم
الاحد يركب الى الكنيسة بغلة عالية والمظلة على
راسه وحوله وخلفه فرسان ورجاله نحو خمسماية
رجل غير الكهنة والشعب الذى يتبعوه الى الكنيسة

برقوق أن أعداء دولته من المماليك الترك المسجونين بخزانة شمائل وحبس الديلم والرحبة قطعوا قيودهم، وكسروا أبواب الحبس، وخرجوا ليعيثوا فى القاهرة فساداً. ولم تفلح جهود المماليك الجراكسة الذين بقوا على إخلاصهم لبرقوق فى منع العامة من التوجه إلى الناصرى بل إن العامة رجموهم بالحجارة، واضطر الجراكسة إلى الدفاع عن أنفسهم برمى العامة بالنشاب حتى اضطربت القاهرة بصراع داخلى مرير [1].

وفى يوم السبت ٣ من جمادى الآخرة سنة ٧٠٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م أقبلت طليعة الناصرى «كأنها الموت الأحمر» [2] مع عدة من أعيان الأمراء ومن أصحابه، فبرز إليهم الأمير قجماس ابن عم السلطان فى جماعة كبيرة، وأخذ فى قتالهم وعاونه المماليك الذين فى القلعة بالهجوم على الترك بالمدافع والحجارة والمكاحل والسهام والنفط والمقاليع وهم يكرون ويفرون. والواقع أن باقى الجراكسة ثبتوا ثباتاً راسخاً، غير أنهم حين أدركوا قوة الناصرى وخطورة موقفهم بدءوا فى التسلل للانضمام إليه [3]، حتى إن السلطان برقوق يئس وعرض على من بقى معه من الأمراء أن يسلم نفسه [4]، ولكنهم أعلنوا أنهم لا يسلمون أرواحهم

(١) نفس المرجع ورقة ٢١ب، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢١٣
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١١ب.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١.
(٤) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٨٤ب.

ويـدل اذا طلع الهيكل ثياب منسوجة بالذهب
مكللة تساوى مال كثير وذكر عنه كلام كثير لم
اقف عليـه، هذا بعض مـا سـمعتـه من جـملت
الكتاب الواصل الى البطرك ووصل صحبة القس
مـوسى رسل الملك وصـحبتـهم هدية جليلة وتاج
ذهب للبطرك وهدية جليلة للسلطان ومن جملتها
وحوش وهم فيل وسبع وزراف وحمار وحش وكان
يوم وصولهم فرح عظيم عند البطرك وكان الملك

ولايموتون إلا على ظهور خيولهم [١]، غير أنه لما لم تفلح جهود الأمير بطا الظاهرى أحد كبار الأمراء الجراكسة المتحمسين، وأيقن السلطان برقوق قرب نهايته، أرسل النمجاه إلى الناصرى وعرض عليه الصلح مع تنازله عن السلطنة بشرط الإبقاء على حياته،فكتب له الناصرى أماناً.

والظاهر أن الناصرى حرص على احترام هذا الأمان والإبقاء على السلطان برقوق لعاملين، أولهما أن السلطان نفسه لم يحاول قتل يلبغا الناصرى من قبل مع كثرة أخطائه، وثانيهما أنه لم يكن من السهل القضاء على السلطان برقوق دون أن يتعرض الناصرى لانتقام الجراكسة . ولهذا أوصى يلبغا الناصرى حاملى الأمان أن يستتر السلطان مدة أسبوع حتى تخمد الفتنة ويدبر له أمرا [٢].

وهكذا اختفى السلطان برقوق، ودخل الناصرى وصحبه منطاش القاهرة فاستقبلهما الخليفة المتوكل على الله فى قبة النصر [٣]، وأخذوا فى الاتفاق على تدبير أمور الدولة فيما بينهم. وعلى أن هذه الفتنة جعلت القاهرة تعانى أشد أنواع الاضطراب؛ إذ عاد الزعر إلى النهب واشترك معهم التركمان من أصحاب يلبغا الناصرى فى الهجوم عى بيوت الأمراء

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٣.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٣.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٨٦.

العادل سلطان ديار مصر فى تلك السنة وهى سنة ست وستماية الهلالية الموافقة لسنة ست وعشرون وتسعماية للشهدا الابرار غايباً فى الغزاة على مدينة سنجار ومحاصرها بجنوده وولده الملك الكامل(*) نايبه في ديار مصر فاخذ البطرك الرسل والهدايا الواصلة معهم له وللسلطان حمل الجميع له فاستحسن التاج وقال ما كنت اظن ان عندهم من يعمل هذا فقال له الرسول يا مولاى الملك

(*) الكامل ابن العادل صار ملكاً على مصر فى الفترة ١٢١٨ / ١٢٣٨م = ٦١٥ / ٦٣٥ هـ.

وحواصلهم ونهبها وتخريبها. ولم تسلم منازل الناس خارج القاهرة ـ مع ما بذلوه فى المقاومة والدفاع ـ من النهب والسلب. ونهب الترك والتركمان الاصطبل السلطاني؛ فأخذوا ما فيه من الخيول والشعير حتى قيل: إنهم نهبوا ألفين ومائتى إردب شعيرا، ونهبوا من الدراهم مائتى ألف درهم(١)، ونهبوا من الميدان ألف رأس غنم. وظلت أحوال القاهرة مضطربة مع أن الناصرى عين الأمير محمد بن الحسام استادار أرغون والى البهنسا واليا على القاهرة (٢)، فركب ابن الحسام فرسه من باب الفتوح، ودخل جامع الحاكم، واجتمع بعدد كبير من عسكر الناصرى، وطلب مهم أن يمتنعوا عن النهب، غير أن نداءه لم يكن مجديا إذ استمر الترك فى النهب وقتال العامة حتى اضطر الناصرى إلى الاستعانة باثنين من رجاله هما سيد بن أبى بكر أمير حاجب، وتنكزبغا رأس نوبه لحفظ الأمن بالقاهرة ومصر، فأمر فنودى بالأمان والاطمئنان وأن «من نهب شيئا فلا يلومن إلا نفسه، حتى كف أذى المفسدين وسكن الحال»(٣).

والواقع أن هذه الحركة تمثل رد الفعل الذى حدث نتيجة اعتلاء واحد من الجراكسة عرش السلطنة واتجاهه إلى جركسة الدولة فى وقت لم يكن تجمع لديه عدد كبير من الجراكسة

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢أ.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ب.

نعرف اتضاع البطرك وانه ما يلبسه ولو علم انه يلبسه ويجلس به كان يكلله بجواهر يكون قيمتها خراج ديار مصر جميعها، فتعجب الملك الكامل من كلامه وساله عن الملك وعسكره وحروبه فاخرج اليه الرسول كتابا من الملك للسلطان وقال له اذا قرات كتابه عرفت كيف هو وكيف عسكره فلما قرى كتاب الملك وجد من جملته يقول للسلطان تتقدم الى الاب البطرك الكبير العظيم

يمكنه بواسطتهم مواجهة الترك بإعدادهم الكثيرة. ولهذا فلا عجب أن اتجه يلبغا الناصرى ومنطاش الأشرفى إلى إعادة السلطنة إلى بيت قلاوون والعمل على إعادة الترك إلى مراكزهم التى أقصاهم عنها برقوق، فاجتمع الناصرى بأمرائه والأعيان والخليفة والقضاة، ونصب للخليفة خيمة عظيمة، وللقضاة أخرى، وأخذ رأى كل منهم على حدة فيمن ينصب سلطانا بعد الظاهر برقوق. ورغم أنهم أجمعوا على سلطنة الناصرى باعتباره صاحب أكبر نفوذ آنذاك، فإن الناصرى امتنع عن ذلك أشد الامتناع، ذلك أنه أدرك أن سلطنته ستواجه حملات المماليك الأشرفية الترك فضلاً عن معارضة المماليك الجراكسة. ولهذا استقر الرأى على إعادة الملك الصالح أمير حاجى ابن الأشرف شعبان إلى السلطنة. فاستدعوه وأركبوه بشعار السلطنة إلى الإيوان وأجلسوه على تخت الملك [1] فى يوم ١٠ من جمادى الآخر سنة ٧٩١هـ.

وهكذا خلع السلطان الظاهر برقوق الذى استطاع أن يرتقى من صفوف الجند إلى وظيفة أمير آخور دفعة واحدة، وأخذ يتطلع إلى الأتابكية حتى نالها، وظل يشغلها حوالى خمس سنوات رسم خلالها خطة القضاء على سلطنة بيت قلاوون وأكثر من شراء المماليك من

(١) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٩٦.

الجليل ويقــول للسلطان ومملكتك ايهــا الملك
محفوظين بصلواته فاحفظه واكرمه وتقدم له بان
يقسم لنا مطران غير المطران الذى كان عندنا ولا
يعيده لنا البتـة. فلمـا وقف الملك الكامل على
كتاب الملك تقدم للبطرك بان يقسم لهم مطران
غيـره سـرعـة ولا يعـوقـهم عنده ثم التـفت الى
الرسول وقال له قد قرات كتاب ملكك وهو رجلا
عاقل هات عرفنى قولك لى اذا قرات كتابه عرفت

العنصر الجركسى حتى بلغ ما اشتراه فى هذه الفترة منهم نحو ألفى مملوك [1]، قدمهم على الترك والروم [2]، مما أدى إلى ثورة الترك عليه وإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون.

وامتاز برقوق فى سلطنته الأولى التى استمرت ست سنوات وثمانية أشهر بالحزم والهيبة وحبه لأهل الخير والعلم، حتى قيل إنه إذا أتاه واحد من العلماء قام اليه، على حين لم يعرف أحد قبله من سلاطين الدولة الأولى يقوم لفقيه، وقلما كان يمكن أحداً منهم من تقبيل يده، كما يذكر له بالفضل اتجاهه نحو نشر العلم وبنائه المدرسة الظاهرية [3] بين القصرين. غير أنه يؤخذ على سياسته فى هذه الفترة انصرافه إلى جمع المال دون اهتمامه بأحوال الرعية فى وقت انتشرت فيه الرشوة دون أن يتمكن من مقاومتها، حتى أصبح لايصل الواحد إلى وظيفة أو عمل إلا بمال يبذله مما أفسد الأحوال. ورغم دهائه الخارق فإنه يؤخذ عليه اعتماده على «أسافل الناس وحط ذوى البيوتات» [4] مما عجل بنهاية حكمه.

دعى أمير حاجى فى سلطنته الثانية بالسلطان المنصور وتقدم الأمراء على عادتهم وقبلوا

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٢٣.
(٢) ابن تغرى بردى: مورد اللطافة ص ٩٨.
(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٦.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٩١.

من هو قال له الرسول لو اخذة [لو أخذت] اصف لك فضايله وعساكره وحروبه وتاييد الله له ونصره اياه على اعداه لطال الوصف ولكن اختصر لك على اليسير لتعلم منه الكثير انى قبل صفرى [سفرى] بيوم واحد اعرض الملك عسكر امير واحد من الامرآ وانا واقف فى ركابه فكانة عدته ستين الف فارس غير من يتبعهم من غلمانهم وحواشيهم. فتبسم الملك الكامل من قوله وامر

الأرض بين يديه، ودقت الكوسات وهو فى طريقة إلى القصر وسائر أعيان الدولة بين يديه [1]. ومن الطبيعى ألا تكون له من السلطنة سوى اسمها بعد أن عاد عصر الأمراء وتولى الناصرى منصب الأتابكية، وسكن الاصطبل السلطانى، وشغل منطاش وظيفة أمير مجلس.

وبدأ الأمير يلبغا الناصرى فى تنظيم الأمور الداخلية، فأمر بمنع التركمان وغيرهم من الدخول إلى السلطان. وعين من يطمئن إليه من الأمراء فى خدمته [2]، وكتب مرسوما على لسان السلطان والخليفة بالإفراج عن الأمراء الترك المسجونين بها، وعلى رأسهم الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس، ثم عين الناصرى من الترك نوابا فى الشام، وأمرهم بالتوجه فوراً إلى نياباتهم [3]. غير أن الأمير يلبغا الناصرى لم يعد يأمن على نفسه من المماليك الجراكسة، فأخذ فى تتبعهم وأمر بأن ينادى فى القاهرة بأن «من ظهر من المماليك الظاهرية فهو باق على إقطاعه ومن اختفى منهم بعد النداء حل ماله ودمه للسلطان» [4] ولم يكن هذا النداء سوى وسيلة للقبض على عدد كبير من الأمراء الجراكسة ونفيهم، أو سجنهم، أو توزيعهم على أمراء سوريا [5].

---

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٣أ.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٥.

(٣) نفس المرجع والجزء والصحفة.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٢٠.

(٥) راجع العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٤٨.

بتسليم الهدية، وقال للبطرك: خذ هديتك كيف
يكون الملك يخصك بشي تحمله الينا فحلف ما
ياخذها واقسم عليه بحياة والده الملك العادل ان
يقبلها فقبلها وامر بنجا [بعودة] رجال الرسل وان
يقسم لهم مطران ولا يعوقهم فخرج من حضرة
الملك الكامل وعاد الى مصر واحضر كهنة مصر
والقاهرة واراخنتها وجمع مجمع عظيم وتسامعو
المسلمين بالقاهرة ما جرى للبطرك مع الملك

غير أن الأيام القليلة التى حكمها الناصرى أثبتت سوء سياسته وفساد تدبيره، وحملت سياسة الناصرى فى ثناياها العوامل التى عجلت بحكم الترك، وأول هذه العوامل أن الناصرى أبقى على عدد من الجراكسة الذين اطمأن إليهم، مما خلف له عنصراً ثورياً يظهر نشاطه عندما تسنح الفرص، وثانيها أن عدم استقرار الأمراء الترك على سياسة واضحة أدى إلى ارتباك أمورهم، ذلك أن الأشرفية اختلفوا مع اليلبغاوية وقامت بينهم الشحناء بسبب النزاع على توزيع الإقطاعات التى انتقلت إليهم نتيجة نفى عدد كبير من الجراكسة أو وفاتهم[1]، ثم إن حالة العنف والتهديد التى دأب عليها الناصرى مع العامة وعجزه عن مقاومة أصحابه من التركمان الذين أخذوا النساء من الحمامات والطرقات دون أن يجرؤ أحد على منعهم، أدى هذا كله إلى كراهية العامة لحكم الناصرى، فإذا أضفنا إلى هذا أنه أعاد المكوس التى أبطلها الظاهر برقوق، أدركنا سبب ترديد العامة لهذا القول «راح برقوق وغزلانه وجاء الناصرى وتيرانه» [2].

وثمة مظهر آخر لسوء سياسة الناصرى أنه عاد يخشى أن يؤدى اختفاء السلطان برقوق إلى ثورة داخلية، ولهذا أمر بأن ينادى بالقاهرة بالبحث عنه، وخصص مكافأة لمن يعثر عليه، وهدد

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٣٢٦.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣٢٣.

الكامل وانه طلع الى مصر يقسم مطران، فاستاجرو كل دابة من باب زويلة وغيره من الابواب وطلعو الى مصر وبلغ اجرة الحمار من القاهرة الى مصر [مصر عتيقه] ثلثة دراهم حتى طلعو يتفرجو فلما امتلت كنيسة المعلقة من الخلق نصارى ومسلمين وقفها [المتفرجين] واخلا الناس من الفريقين احضر البطرك كيل ابن الملبس المطران القديم وخلعه من المطرنة وضجر عليه

- -

من يخفيه بالقتل حتى أبلغت زوجة مملوك ـ كان والى القاهرة السابق قد عاقبها ـ أنه فى بيت رجل خياط يدعى أبا يزيد الخازن، فأرسل إليه الطنبغا الجوبانى لاعتقاله. والواقع أن شخصية برقوق كانت جديرة باحترام أعدائه حتى فى هذه الظروف بدليل أن السلطان برقوق حين رأى الطنبغا الجوبانى أراد تقبيل يده فاستنكر الطنبغا الجوبانى هذا العمل ومنعه [١]، بل إنه ألبس السلطان برقوق ملابسه وعمم رأسه وطيلس وجهه وأركبه فرسا شق الصليبية فى وسط النهار، والواقع أيضا أن سياسة الناصرى غيرت شعور الناس سريعاً نحو السلطان برقوق فانقلبوا على الناصرى، ومالوا إلى برقوق، وبدا ندمهم على زوال حكمه واضحا، فأخذوا يبكون ويدعون له بالنصر على طول الطريق، حتى صعد السلطان إلى الناصرى فى الاصطبل، فأمر الناصرى باعتقاله فى قاعة الفضة بالقلعة، وهناك صفد بقيد ثقيل وأجريت عليه كفايته من الطعام والشراب[٢].

ثم عقد الناصرى فى ١٦ من جمادى الأخرى سنة ٧٩١هـ (سبتمبر سنة ١٣٨٩م) جلسة لمشاورة فى شأن السلطان المعزول فانقسم الأمراء حياله فريقين، نادى الفريق الأول بقتله، وتزعم هذا الفريق الأمير منطاش [٣]، على حين نادى الفريق الثانى بحبسه، وصاحب هذه

(١) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٧٧.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٤أ.
(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ٣ ص ١١.

وابعـده وكـان لما وصل رسـول الملك قـد حـصل
اخوين رهبان من دير انبا اندونه وسلمهما للتلاميذ
وكانا على غاية من الصـلاح والنسك والزهد فى
الدنيـا والوحـدة والانفـراد عن الرهبـان فى ديرهم
ومـلازمـة الصـلاة الليل والنهـار والاتضـاع وخـدمـة
اخوتهم بلا ضجر ولا ملل احدهما اعلم من الاخر
يشهد بصلاحهما جميع من يعرفهما وأسماهما

الفكرة هو الناصرى الذى أخذ بها فيما يبدو لعاملين؛ أولهما خوفه من ثورة مماليك برقوق الذين أبقى عليهم وضمهم إليه، وثانيهما أن بقاء برقوق فى الحبس يجعله شجا فى حلق منطاش إذا فكر منطاش فى الثورة على يلبغا [1]. ولهذا أرسله الناصرى إلى الكرك فى ١٩ من جمادى الآخر سنة ٧٩١هـ - سنة ١٣٨٩م [2] بعد أن عين الأمير حسن الكجكنى نائبا للكرك وأوصاه يلبغا الناصرى بالعناية بالسلطان برقوق والمحافظة عليه، واتفق معه كذلك على أنه إذا ثار منطاش على يلبغا يفرج عن السلطان برقوق [3].

وسافر مع السلطان برقوق إلى الكرك الأمير الطنبغا الجوبانى وثلاثة من صغار مماليكه. وأنزل حسن الكجكنى السلطان برقوق بقاعة النحاس فى قلعة الكرك، وجعل فى خدمته ابنة أستاذه يلبغا العمرى الكبير، وهى زوجة مأمور القلمطاوى المعزول عن نيابة الكرك «فصارت تخدمه وتطبخ له الأطعمة الملونة» [4].

وبلغ من سوء تدبير الناصرى أنه اعتقد أن حبس السلطان برقوق يمكن أن يضعف شأن

(1) Muir: the Mamluk Dynasty p 107.

(٢) العسقلانى: الدرر الكامنه جـ٤ ص ٤٤١.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٣٧.
(٤) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ١٨٥أ.

(*) البشطمير: هي من ضمن النواحي التي تشكلت منها مدينة المنصورة.

اسحق ويوسف من اهل البشطمير(*) فقسم اسحق وهو الصغير مطرانا وقسم يوسف وهو الكبير قسا وسيره معه وذالك في يوم الاحد الثاني من الصوم الكبير المقدس حادى عشر من برمهات سنة ستة وعشرين وتسعماية للشهدا الابرار الموافق للتاسع من شهر رمضان المبارك سنة ستة وستماية الهلالية [١٢١١م] فاما كييل ابن الملبس المطران المقطوع فانه نزل من كنيسة المعلقة بخجل عظيم

الجراكسة، وبالتالي يمكنه من إعادة نفوذ الترك. فأقدم على خطوة خبيثه إذ أمر الجراكسة الذين أبقاهم معه بالقاهرة بالتوجه فوراً إلى سوريا للخدمة عند نوابها وهدد من بقي منهم بمصر بسفك دمه [١].وأدت هذه الحركة إلى الحط من شأن عدد كبير من الجراكسة الذين شغلوا مناصب الإمارة وقتذاك ولاسيما أن يلبغا الناصرى طرد معظم المماليك الجراكسة الذين عملوا في خدمة السلطان حاجى، ولم يبق للسلطان منهم سوى مائة[٢]

على أن سوء تدبير الناصرى لم يكن في مظهر هذه الخطوة ولكن فيما نتج عنها من آثار إذ أن تشتيت الجراكسة في سورية مع حرمانهم مما كانوا فيه من رغد العيش، خدم السلطان برقوق الذى بدأ يتطلع من منفاه إلى مماليكه في سوريا لمعاونته على إعادة سلطنته. وفضلاً عن هذا فإن الناصرى فقد عدداً كبيراً من أنصاره التركمان الذين طردهم ليخلص مصر من مساوئهم وعبثهم [٣].

وثمة عامل هام ـ يتعلق بسياسة الناصرى ـ أدت إلى انقسام صفوف الترك وقيام النزاع الحزبى بينهم وهو أن الناصرى بحكم إقامته في القلعة استأثر بكافة النفوذ دون منطاش الذى

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٣٨.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٥أ، ب.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٢٩.

وهو يصرخ ويحتو [يحثوا] التراب على راسه
ومضى الى حال سبيله وقد عدم المطرنة والاسقفية
بسو تدبيره واما المطران الجديد واخوه القس
فاخذوهم رسل الملك وتوجهو بهم بكرامة وسلام
الى مدينة عرفه مدينة الملك الذى اقسم المطران
عليها وعلى جميع الحبشة ويوسف اخو المطران
قسيسا، وكان اسم الملك في ذالك الزمان لا لبله
ابن شنوده وتفسيره الاسد واسم امراته مسقل

أقام في جامع السلطان حسن [١]، كما رفع يلبغا الناصرى شأن أمرائه دون غيرهم حين وزع المثالات [٢] عليهم وجعل وظائف مقدمى الألوف الأربعة وعشرين مقصورة عليهم، وسعى لتحويل أنظار الشعب إليه حين جلس للنظر فى المظالم وأمر بأن ينادى بالقاهرة: بأن من ظلم من مدة عشرين سنة فعليه بباب الأمير الكبير يلبغا الناصرى ليأخذ حقه [٣]. وانعكس أثر هذه السياسة في نفس منطاش وفى نفوس أتباعه الذى بدءوا يحسون بأن الأمر كله أصبح بيد الناصرى وأمرائه، كما شعر منطاش كذلك بتطفله على الجوبانى وحضوره مائدته بعد أن أفرج الناصرى عن الجوبانى وأصبح أمير مجلس[٤]. ولذا عزم منطاش على الانتقام من يلبغا فقرر يلبغا التخلص منه.

وبدأت بوادر النزاع بين يلبغا الناصرى وبين منطاش فى ١٦ من شعبان سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٩م) حين انقطع منطاش عن الخدمة وتمارض. وفطن الناصرى إلى مكيدة منطاش

....

(1) Ency. OF Islam, Art Barkuk.

(٢) المثالات جمع مثال وهو عبارة عن ورقة أو وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندى أو مملوك مبين فيها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التى يستغلها وحدودها واسم الإقليم والقرية والقبالة أى الحوض الكائنة فيه الأرض التى خصصت له. راجع المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص ٨٧.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٠.

(٤) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٧.

كبرى(*) الذى تفسيره عظيم هو الصليب وجنس الملك قبيلة يقال لها النكبة وسكنه مدينة عرفة وله ولدين اسم الكبير يارك والصغير ابا(*).

(*) ربما يكون اسمها مقل كبدى حيث معناه بالأمهرى «صليب عظيم».

(*) ابا ومعناها بالأمهرى زهرة وهو اسم علم لكثيرين.

ولما كان نهار يوم الاثنين الرابع عشر من بشنس سنة سبع وعشرين وتسع ماية للشهدآ الاطهار الموافق للرابع والعشرون من ذو القعدة سنة سبع وست ماية وصل الى دمياط(*) ثمانية عشر مركبا من الافرنج حربية فنزلو على دير ارميآ الذى

(*) حملة جوتير دى مونتبلان الصليبية سنة ١٢١٠م على دمياط.

فلم يتوجه لعيادته، بل بعث إليه بالأمير الطنبغا الجوبانى. ولكن منطاش بدا غبيا حين أسرع بالقبض على الأمير الطنبغا الجوبانى وعشرين من مماليكه حين هموا بالانصراف.

وهكذا بدأ كأنما الأحوال تخدم السلطان برقوق وتمهد لعودته لعرشه نتيجة هذا الانقسام بين الترك، إذ ركب منطاش فى أصحابه ومن انضم إليه من مماليك برقوق الجراكسة الذين نقموا على الناصرى، لأنه لم يف بوعده لهم بل إنه شرد إخوانهم (١).

واتجه منطاش فى ٢٢ من شعبان سنة ٧٩١هـ أكتوبر سنة ١٣٨٩م إلى باب السلسلة بعد أن نهب مافى الأصطبل من الخيول. غير أنه تعذر عليه اقتحام الباب ومباغتة الناصرى بسبب إغلاق مماليك الناصرى الأبواب ورميهم الأشرفية من أعلى السور بالنشاب والحجارة، فعاد منطاش ومعه الخيول إلى مركز قيادته فى مدرسة السلطان حسن (٢). وبدأ يهاجم القلعة بالنشاب والحجارة من أعلى المئذنتين ومن حول القبة. والواقع أن فريق منطاش كان أقوى من فريق الناصرى بسبب انضمام العامة إليه، لما أغدقه عليهم منطاش من الذهب ولما شعروا به من وطأة حكم الناصرى وأصحابه عليهم (٣).

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين (النسخة الخطية) جـ٢ ورقة ١٣أ.
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٢.
(٣) السلامى : مختصر التواريخ ورقة ١٨٥أ.

للملكيين قريب من دمياط مقدار فرسخ من ناحيت الشط الغربي شط بورة(*) والحيرة [بوره والجيزه](*) وكان من جملة المراكب بسطة كبيرة عمارتها الف رجل بحرية ،ومقاتلة وطريدتين لحمل الخيل في كل طريدة خمسون فارساً، وسبع شواني وثمان حراقات عمرو من عكا وخرجو منها نزلو على الدير المذكور وكان مقدمهم ومدبرهم رجل

(*) بورة: اشتهرت بوره بصناعة المنسوجات الراقية. وهي تقع بين دمياط وفارسكور.
(*) الجيزة قبلي دمياط وتسمى احياناً جيزة دمياط. دمرت في فترة الحروب الصليبية.

ولم تجد جهود حسام الدين بن الكوراني الذى أعيد والياً على القاهرة فى القضاء على أتباع منطاش من الترك الأشرفية. وبرغم ندائه فى الناس بنهب مماليك منطاش والقبض عليهم وبرغم إغلاقه أبواب القاهرة لحصدهم، فإنه اضطر إلى الاختفاء حين شعر بضعف جانب الناصرى. وفشلت كذلك محاولة أخرى للناصرى فى نقب بيت منطاش لمهاجمته من الخلف، إذ أرسل منطاش جماع قاتلوا من حضر لهذا العمل [1].وعاون منطاش فى السيطرة على القاهرة ناصر الدين نائب حسين بن الكورانى الذى عينه منطاش والياً على القاهرة وألزمه بجمع النشاب، فحمل إليه منه شيئاً كثيراً، ثم نادى في القاهرة بالأمان والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر، كما نادى بأن الأمير منطاش أبطل المكوس[2].

وعندما رأى الناصرى ضعف مركزه بعث الخليفة المتوكل على الله إلى منطاش يساله فى الصلح حتى تخمد الفتنة [3]. غير أن منطاش أظهر احترامه للخليفة، كما أكد طاعته للسلطان حاجى، ولكنه أعلن للخليفة تصميمه على مقاومة الناصرى.وأظهر منطاش ما بينه وبين الناصرى من الخلافات الشخصية بسبب التنازع على النفوذ، ثم ذكر أن الناصرى حلف

(1) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٦أ.
(2) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٤.
(3) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٣٥.

يقال له الكندافلنك(*) وطلع من المراكب المائة فارس والف رجل اقتسمو نصفين خمسون فارسا وخمس مائة رجل مضو الى الجيزة قتلو واسرو من اهلها الرجال والنساء ونهبوها واحرقوها بالنار، وخمسون فارسا وخمس مائة مضو الى بورة قتلو واسرو منها الرجال والنساء ونهبو منها متاع كثير [فيه] شرب(*) قطع مثمنة من جملتها للسلطان بخمسة الف دينار ولرجل قاضي يقال له على

(*) الكونت افلنك: تعرف الحملة المذكورة هنا بانها كانت تحت قيادة جوتير مونتبلان Gautier de Montbé Liandوهى ليست حملة جان دى برين الذى هاجم دمياط فى ٢٩ مايو ١٢١٨م. وحتى هذا التاريخ لم تكن دمياط قد سقطت فى يد الصليبين.

(*) شرب: قماش مطرز غالى الثمن كان يصنع فى دمياط وتنيس وشطا ودبيق للقصور السلطانية ودار الخلافة.

له بسيواس وحلب ودمشق على أن يكونا معا فى كل أمر، ولكنه نقض عهده فاستبد بالأمر دونه، وقرب خشداشيته اليلبغاوية وأبعده وخشدا شيته الأشرفية، وتمادى فى إهماله لشأنه والحط من شخصيته حين بعثه لقتال عرب الشرقية واستولى هو على الأموال وقتر على منطاش وأصحابه [1]، بدليل أنه لم يعطه أكثر من مائة ألف درهم، على حين أخذ هو ما لا يحصى من الأموال، وأعطى الناصرى لنفسه ولأصحابه أحسن الإقطاعات، ولمنطاش أصغرها وأضعفها. ثم جعل منطاش ذلك كله فى عنق السلطان الصغير [2].

ولم تجد محاولات الخليفة فى إقناع منطاش بالعدول عن محاربة الناصرى والرضوخ للصلح، كأن مصالح البلاد لم تكن مهمة بالنسبة لهؤلاء المتنازعين. وعاد الفريقان إلى الاشتباك تجاه باب السلسلة. ولعبت الخيانة دورها بين الترك اليلبغاوية، إذ خرج على الناصرى عدد كبير من مماليكه كما خرج عليه عدد كبير من المماليك الجراكسة الذين خدعهم، وانضموا إلى منطاش مما أنذر بهزيمة الناصرى. وفضلاً عن هذا ظهر تأييد العامة الكامل لمنطاش، وزاد حماسهم فى الدفاع عنه حين دأب منطاش على الترفق بهم والتقرب إليهم بقوله: «أنا واحد منكم»[3]، ولهذا أخذ العامة يتسابقون فى جمع النشاب والحجارة من على

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٤٨.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان جـ ورقة ١٢٦أ.
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٤٠.

ذكرو انه له سنتين مقيم فيها يستعمل ويشد شدات
قالو بعشرة الف دينار وقالو اكثر منها. واما اهل
البلد فما عرف مقدار ماخدوه لهم من شدات
متاع واكياس مملوه دنانير على اوساط نساهم ومن
جملتهم زوجت القاضى على قاضى بورة كان
على وسطها كيس الف دينار ولما نهبو البلد وقتلو
واسرو من قدرو عليه. احرقو بعضها بالنار. كل
ذالك يوم الاثنين، واخرجو من المراكب خيام

الأرض وحملها إلى منطاش. وأرسل منطاش من أحضر إليه ناصر الدين محمد بن الطرابلسى أستاذ الرماية بمدافع النفط وأمر بتوسيطه لتأخره عن الحضور لمعاونته، فاعتذر ابن الطرابلسى له حتى عفاعنه، وبادر ومعه طائفة من الفرسان فأحضر الات النفط والمدافع وصعد على المدرسة الظاهريه وصار يرمى على حيث جلس الناصرى، حتى أحرق جانباً كبيراً من الخيمة، ففر السلطان حاجي من الخيمة إلى مكان آخر، وظلت الحرب مستمرة حتى انضم أكثر أمراء الناصرى إلى منطاش [١].

وهكذا فشل الناصرى فى سياسته، وفشلت معها خطة إعادة السلطنة إلى الترك، حيث ظهر الانقسام بين صفوف الترك واضحاً نتيجة للمطامع الشخصية، وبدا جانب الناصرى ضعيفاً بعد أن استولى منطاش على الاصطبل السلطاني، واقتحم القلعة ونهب بيوت الناصرى وخزائنه [٢] ثم توجه منطاش إلى السلطان حاجي وأعلمه أنه فى طاعته وأنه أحق بخدمته لكونه من مماليك أبيه الأشرف شعبان. وخدع السلطان بهذا القول وأعلن ابتهاجه لهذه النتيجة، خاصة بسبب تضييق أتباع يلبغا عليه [٣]، ثم أقر السلطان حاجي الأمير منطاش أتابكا للعساكر فى رمضان سنة ٧٩١هـ سنة ١٣٨٩م.

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٦أ
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٠.

ضربوها قدام مراكبهم على البر منهم خيمة حمرة
للملك الذى معهم واقامو ينهبو ويقتلو وياسرو
كلمن وجدوه يوم الاثنين ويوم الثلثا والاربعا وفى
هذه المدة لم يخرج اليهم عسكر ولا قاتلهم أحد
لأن عسكر مصر كان بالشام مع الملك العادل ولم
يجسر جلدك والى دمياط يعدى اليهم يقاتلهم لقلة
اجناده بل اغلق ابواب دمياط وعمر السور باهل
البلد واجناده، وكان على دمياط ثمنية شوانى

وتتبع منطاش يلبغا الناصرى حتى تمكن من القبض عليه بسر ياقوس ثم أمر به فقيد وحبس بالإسكندرية مع عدد من أصحابه.

ولعل من أهم أسباب هزيمة يلبغا الناصرى أمام منطاش أنه لم يتمكن من إطلاق السلطان برقوق فى الوقت المناسب، وبهذا أصبح يواجه عدوين فى وقت واحد، هما المماليك الأشرفية الترك والمماليك الظاهرية الجراكسة.

على أنه يبدو أنه لم يكن ينتظر لمنطاش أن يكون أسعد حظا من يلبغا الناصرى؛ ذلك أنه انفق جهده فى تتبع أصحاب الناصرى والقبض عليهم، وتحريض أتباعه على الانتقام منهم ثم إنه لم يجده أن تزوج من أخت السلطان المنصور حاجى [1] رغبة فى تأييد مركزه، إذ سرعان ما شعر بحرج موقفه أمام الجراكسة الذين حنث بعهده معهم فى إطلاق سراح أستاذهم إن هو انتصر على الناصرى، وحين وزع الإقطاعات على مماليكه وأخذ يقرب خشد اشيته ومماليكه وأولاد الناس، لم ينعم على واحد من الجراكسة الذين اتفق معهم ـ بإمرة أو إقطاع، مما أوغر صدورهم عليه [2]. وإذ أراد منطاش أن ينقذ نفسه مما عساه أن يحدث دبر للجراكسة مكيدة

(١) ذكرت المراجع المعاصرة أنها جهزت جهازا لا مثيل له لعظم مافيه من الجواهر والفصوص والذهب والقماش المختلفة الألوان، وحمل جهازها على خمسمائة جمل ـ راجع إنباء الغمر جـ١ ص ٢٨٨.
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٨٠.

اصطول [اسطول] مع الريس منصور فلم يخرج اليهم ولاقاتلهم. ولما لم يرو احد يقاتلهم طمعو وعلمو ان ما في البلد من يمنعهم عدو بعضهم في الحراقات الى بر دمياط فقاتلوها فلم يقدرو منها على شي فعادو الى مراكبهم وطاب لهم الريح فعادو الى بلادهم بكسبهم. وقد كان العدو ايضا طرق ديار مصر في ايام هذا الاب دفعة اخرى من ناحيت فم رشيد وفعل فيها وفي فوه في الجيزة

فطلبهم إلى القلعة لينفق عليهم ويترضاهم، ثم أغلق عليهم الباب وقبض على نحو المائتين منهم، [1] وبعد أن أخذ خيولهم قيدهم وسجنهم بأحد أبراج قلعة الجبل [2].

وجاءت هذه الحادثة ضغثاً على إبالة بالنسبة للسلطنة التركية؛ إذ بدأ الجراكسة يتكتلون لحماية أنفسهم من منطاش الذى نادى في الناس بالقبض عليهم وقطع أيديهم وتشهيرهم.

ثم شغل منطاش في تتبع الجراكسة ولهذا لم يوفق في إعادة الأمن إلى نصابه داخل القاهرة برغم أنه أعاد حسين بن الكوراني والياً على القاهرة إجابة لرغبات الشعب الذين خشوا من الزعر [3].

أمام هذا التكتل الجركسي أرسل منطاش يستدعى المماليك الأشرفية من سوريا وأنعم على من وصل منهم بالإقطاعات[4] غير أن هذا لم يؤد إلى توطيد نفوذه أو هدوء الأحوال في القاهرة وبرغم وجود الخفر في شوارعها للقبض على الزعر فإن الحال زاد سوءاً. بل إن حوادث أخرى أنذرت بقرب عودة السلطان الظاهر برقوق إلى عرشه، وأهم هذه الحوادث اضطراب

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٥٠ ـ ٥٥١.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٧أ.
(٣) نفس المرجع ورقة ٢٧ ، ٢٨ب.
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٣.

وبورة هذه دفعتين ينجح العدو فيها ويكسب من
اطراف البلاد ويعود سالما والامر لله سبحانه ما شا
فعل. وبعد هذه الامور عاد السلطان الى ديار مصر
في سنة ثمان وستماية واقام بها ولما كان في شهر
رجب سنة تسع وستماية خرج يتصيد في الجيزه
ومعه ولده الملك الكامل وسار في الحاجر الى
الاسكندرية ودخل اليها وكشف اسوارها وقلاعها
وابراجها واخلع على البنايين والمهندسين. ومضى

أحوال سورية بسبب اتفاق أمير العرب نعير ابن مهنا مع سولي بن الغادر الأمير التركماني ونهبهما حلب، كما ثار على منطاش الأمير نزار العمرى الناصرى نائب دمشق، وحرض نواب سورية على مؤازرته في ثورته غضباً لما فعله منطاش بيلبغا الناصرى [١].

وحين أحس منطاش بالثورة تندلع ضده من الجراكسة والترك في سورية دبر مقتل السلطان برقوق سرا ، فأرسل على يد شخص من أهل الكرك يدعى الشهاب البريدى إلى حسن الكجكنى نائب الكرك، يأمره مشافهة بقتل السلطان الظاهر برقوق، ولكن حسن الكجكنى لم يسارع بتنفيذ كتاب منطاش، وكاتبه يعتذر عن قتل السلطان برقوق دون أذن كتابي من السلطان والخليفة. وبرغم أن منطاش استكتب السلطان والخليفة إذناً بقتل برقوق فإن حسن الكجكنى ماطل الشهاب البريدى وأنزله في قاعة أخرى بالقلعة على حين أعلم برقوق بحضور رسول منطاش حاملاً أمر قتله، وحلف حسن الكجكنى لبرقوق بالأيمان المغلظة ألا يفعل به شيئاً [٢]. وحين أيقن الشهاب البريدى بأن الكجكنى يماطل في قتل برقوق، عزم على العودة، ولكنه كان سيئ الطالع بسبب كراهية أهل الكرك له منذ طلاقه لابنة قاضى الكرك الجميلة[٣]، فضلاً عن حب أهل الكرك للسلطان برقوق. ولهذا فإنهم حين عرفوا بمهمة

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٨٨.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٢٧ب.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

الى اشمـون نزل عليـها فـجا اليـه ولده المعظم واعلمه انه طلب ياخذ قلعة كوكب [بالشام] من عز الدين اسامة(*) لانه اشتراها من المملوك الذى فيها لاسامة بعشرة الف دينار وتقرر ان يسلمها له فطلع [فأطلع] مملوك اسامة الذى فى القلعة زوجته على القضية وقال لها ناخذ هذا المال الكثير نعيش فـيه ونشـترى به ضيـاع وامـلاك وقـد حلف لى المعظم انه مـا يخـرجنى منهـا وان يكون حكمى

(*) عـز الدين اسـامـه: هو والى بيروت الذى أمد القوات المسلمة المحاصرة فى عكا بالاغذية والعتاد بواسطة سفينة دخلت سراً إلى ميناء عكا.

الشهاب، فاجئوه بالقلعة وقتلوه أشنع قتلة وجروه إلى باب السلطان الظاهر برقوق، ثم حملوا السلطان إلى الباب وهم يدعون له بالنصر هاتفين: «دس برجلك على عدوك»[1].

ويروى بعض المؤرخين المعاصرين أن حسن الكجكنى عزم على إطلاق سراح السلطان برقوق حسب اتفاقه مع الناصرى، ولكنه ظل ينتظر وصول كتاب الناصرى ولما لم يكن متحققاً من سير الأمور بالقاهرة فإنه ماطل فى تنفيذ كتاب الناصرى وكتاب منطاش حتى لا يتكرر معه ما حدث لابن عرام حين قتل بركة[2].

ومهما يكن فقد تطورت الأمور بسرعة، إذ أن أهل الكرك بايعوا السلطان برقوق فى ٩ من رمضان سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م وبدأ السلطان برقوق حكمه بتحصين الكرك[3]، وسمع الجراكسة بحكم سلطانهم فى الكرك فأسرعوا إليه حتى اجتمع له نحو ألف فارس منهم من سوريا ومصر، وأقاموا خارج الكرك، كما أيده فى حركته عرب بنى عقبة القاطنون حول الكرك وعلى رأسهم أمير آل فضل الذى قدم له الخيل والمال. هكذا أصبح لبرقوق جيش فى فترة وجيزة، فعزم على الخروج من الكرك والتوجه إلى دمشق. ويبدو أن بعض

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٨أ.

(٢) راجع ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقه ٤١، الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٨أ.

(٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين جـ٢ ورقه ١٨٨.

عليها وعلى غيرها من قلاعه ويدفع لى بوق وعلم واكون عنده مثل استاذى. فقالت له زوجته جيد افعل ما تريد. وكانة [كانت] تعرف تكتب فقامت من ساعتها وكتبت لابن اسامة وكان مقيم في قلعة صفد تعرفه القضية وتقول له اسرع واسبق الى القلعة والا المعظم يسبقك اليها. فقام عند وقوفه على كتابها وسبق طلع الى القلعة واخذ المملوك قيده ورماه فى الجب الذى فيها، وفى

أعيان الكرك خشوا انتقام منطاش فاجتمعوا عند العماد أحمد بن عيسى المقيرى قاضى الكرك، واتفقوا على القبض على السلطان برقوق وإبلاغ القاهرة أنه لم يخرج إلا بإجماع السفهاء، وبعثوا ناصر الدين أحمد أخا القاضي فأغلق باب المدينة [1]. ولكن السلطان الظاهر برقوق تمكن بمساعدة علاء الدين، أحد إخوة القاضى المخلصين له من الخروج والاتصال بمماليكه والعرب الذين حضرورا لنصرته خارج الكرك [2]. وهناك أقام يوماً زحف بعده على دمشق . وفى شقحب إحدى قرى دمشق ـ تمكن الظاهر برقوق من هزيمة جنتمر أخى طاز نائب دمشق كما هزم معاونه ابن باكيش نائب غزة واستولى على ما معهما من الخيل والسلاح والقماش. وبرغم أن ما أستولى عليه برقوق شئ كثير فإنه شعر بعدم قدرته على حصار دمشق لقلة من معه من الرجال، ولذا تذرع بالصبر حتى وصل إليه من صفد الأمير إينال اليوسفى الجركسى والأمير قجماس ابن عمه ومعهما نحو مائتى مملوك [3] من الجراكسة مستعدين بالسلاح، كما وصل إليه مملوكه كمشبغا الحموى بجنده من حلب ، وقدم له خيلا وإبلا وكثيراً من آلات الحصار، وهكذا أعانه كل هؤلاء فى التقدم لحصار دمشق [4].

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ١٨٤ ـ رفع الإصر عن قضاة مصر: ص ٩٢.
(٢) ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة: جـ١١ ص ٣٥٢.
(٣) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩١.
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ص ٢٨١، صالح بنى يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٤٧.

صبيحة اليوم الثانى جاء المعظم اليها فسلم عليه
ابن اسامة من فوقها وقال له ارى مولانا شرفنا
بعبوره فى ارضنا فقال له المعظم اريد الصيد قال له
ابن سامة قد فاتك فضحك منه ثلثة وتم على فوره
إلى مصر حتى اجتمع بابوه واعلمه القضية، ولما
بلغ عز الدين اسامه ماجرا من المعظم اخذ
عسكره، وذكروا العوام انه سار معه امرا اخر و انه
سار فى نحو الفى فارس الى الشام، وقال قوم انه

وعمد الظاهر برقوق إلى الاستفادة من الحيل الحربية والزمن للاستعداد لقتال منطاش، فأرسل إلى منطاش على لسان أحد البدو أن برقوقاً حين خرج هارباً من الكرك وقع فى قبضة العرب [١]. فسر منطاش وأمر بإبطال سفر تجريدة أعدها من أربعة الأف فارس لقتال برقوق ونجحت الحيلة إذ أخذ منطاش فى إنفاق جهده فى الانتقام من الجراكسة بالقاهرة وقبض على عدد كبير منهم ونفاهم إلى قوص، غير أن هؤلاء قاموا بالثورة هناك وقبضوا على والى قوص وحبسوه واستولوا على المدينة. وازداد موقف منطاش حرجاً حين انضم إلى هذه الثورة الجركسية فى قوص الأمير مبارك شاه، نائب الوجه القبلى، الذى استطاع أن يستميل إليه جماعة كبيرة من عرب الوجه القبلى عاونوه فى تشتيت التجريدة التى أرسلها منطاش لمحاربة الجراكسة الفارين.. وهكذا لعب الزمن أيضاً دوره فى شغل منطاش بإخماد الثورات الداخلية التى اندلعت فى الصعيد كله، على حين ازداد عدد المماليك الجراكسة الفارين لسورية للانضمام إلى برقوق [٢].

وإذ تواترت الأنباء الحقيقية عن موقف برقوق ووجوده خارج دمشق، وجد منطاش نفسه فى موقف لا يحسد عليه ، فعزم على الزحف إلى سورية مع السلطان حاجى. غير أن المال شكل

(١) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقه ٣٦٤.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٢٩أ.

يمضى الى قلاعه وقال قوم انه يمضى الى حلب
للملك الظاهر وذالك في شهر شعبان سنة تسع
وستماية وذكرو ان الملك الكامل سار في تبعه
بعسكر ومنجنيقات لمحاسرته في قلاعه ولما تحقق
الملك العادل سفره سار من اشموم ونزل العباسية
ونادى على الاجناد ان يجهزو بركهم [معسكرهم
وقواتهم] لسفر الشام وسار اسامه مع العرب فغدور
به وسلموه للملك المعظم فسلمه لابوه الملك

عقبة جديدة أمامه إذ كانت الخزائن خاوية لانه كان على قول العسقلانى «نهابا وهابا»(١).
ولم تكن أمامه وسيلة لتدبير المال سوى الاستيلاء على الأموال الموقوفة على الأيتام ، ثم استطاع الحصول على مبلغ كبير من المال من رئيس اليهود بعد أن قبض عليه وعذبه. وطلب البابا متاوس الأول سنة ١٣٧٨ ـ ١٤٠٨م البطريرك السابع والثمانين فى عداد بطاركة الإسكندرية ليأخذ منه أموالاً قيل له إن برقوقاً أودعها عنده قبل خروجه وبعد أن عذبه أفرج عنه إذ لم يجد مصداقاً لهذا القول (٢). ودفع سوء الأحوال المالية منطاش إلى جمع الخيل والمال بشتى الطرق، فقرر على المماليك البحرية المقيمين بالقاهرة وعلى موقعى الإنشاء عدة خيول «بحسب مقامهم» مما أدى إلى ثورتهم عليه (٣). وبلغت به الضائقة المالية أن منع الكتاب والفقهاء من ركوب الخيل للانتفاع بها فى الحرب وأمرهم أن يركبوا البغال بدلاً منها ورسم كذلك بأخذ خيول الطواحين لاستخدامها (٤).

وبهذه السياسة الخرقاء فقد منطاش عطف طبقات الشعب جميعاً إذ فضلاً عما فرضه على الكتاب والفقهاء وموقعى الإنشاء والمماليك البحرية، فإنه عاد وجلب على نفسه نقمة أعيان

(١) العسقلانى : الدرر الكامنه جـ٤ ص ٣٦٦.
(٢) يوساب : كتاب تاريخ البطاركة ورقة ١٧٣أ.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٠ب.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٥٧٣.

العادل وقد كان الملك العادل فى طلبه كما تقدم
قولنا فلما اظفره الله به مضى الى قلعة كوكب
ونزل عليها وحاصرها فسلمها مملوك اسامة الذى
فيها فتسلمها وحمل جميع ما فيها من المال
والغلال والسلاح الى غير ها وهدمها وحمل
حجارتها الى غيرها وهى قلعة جبل اسامة وتسلم
بقية قلاعه وهم قلعة صفد وقلعة عجلون وغيرها
مما لانعرفه وقد اختلف القول فى امر اسامة فقوم

البلد حين قبض على عدد كبير منهم وألزمهم بدفع أموال كثيرة ليمكنه سد نفقات الحرب[1]. والخلاصة أن البلاد تعرضت لحال سيئة من التوتر بسبب هذه الأمور ولتوارد الأخبار المختلفة من انتصار الظاهر برقوق أو انهزامه.

وقبل أن يغادر منطاش القاهرة استدعى الخليفة المتوكل على الله والقضاة وأعيان الفقهاء حيث أعدوا صورة فتيا فى أمر السلطان الظاهر برقوق خلاصتها أن الظاهر برقوق خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفاً من أهل بيت رسول الله فى الشهر الحرام، واستباح أموال المساكين وقتل النفوس التى حرم الله قتلها، ولذا وجب قتاله [2].

وعبأ منطاش كل جهوده لحرب السلطان الظاهر برقوق، ثم قسم قواته، وجعل قوة لحراسة لقلعة، وقوة لحراسة القاهرة، وجماعة أخرى لحراسة مصر (مصر القديمة) هذه إلى جانب التجريدة الضخمة المتجهة إلى سورية. ولكن منطاش وقع فى خطأ جسيم حين قبض على عدد كبير من مماليك يلبغا وسجنهم. كما أنه وزع جهوده توزيعاً أضعف من قوته. وفى ٢٢ من ذى الحجة سنة ٧٩١هـ (ديسمبر سنة ١٣٨٩م) سار منطاش بالجيش وأخذ معه السلطان

(١) الخطيب نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٣٠أ.
(٢) نفس المرجع ورقه ٢٩ أ. ب.

يقولون قتله وقوم يقولو اعتقله في الكرك. وبعد هذه الخطوب اسلم راهب من دير ابو مقار من قلاية البتريرخس اسمه يوحنا على يد الملك الكامل فدفع له حسبة منية غمر واقام فيها ثلثة سنين محتسب ويصلي مع المسلمين في الجامع بها والمساجد وبعد ذلك ذكر دينه ورهبانيته فندم فاشترى شقة خام(*) ومنديل واخذهم ومضى ووقف للملك الكامل وقال له هؤلاء كفني اما

(*) شقة خام: هو ما يستخدم في تكفين الموتى، وهو هنا غالباً مقطع قماش من الكتان.

والخليفة والقضاة وترك الأميرتكا الأشرفي نائباً للغيبة بالقاهرة في أسوأ الظروف، بعد أن أمره بتتبع الجراكسة في كل مكان،حتى في المدارس والمساجد [1].

وعلى حين علم السلطان الظاهر برقوق بسرعة زحف منطاش خشي أنه يهاجمه من الخلف . وإذ اطمأن من ناحية الشمال بسبب انضمام كمشبغا الحموي نائب حلب له [2]، فإنه ترك حصار دمشق وأقبل بعساكره ومن انضم إليه من التركمان لملاقاة منطاش في شقحب ورسم السلطان برقوق خطة محكمة لمواجهة جيش منطاش البالغ عدده ثلاثين ألفا بأربعة آلاف فارس فقط [3]. واعتمدت هذه الخطة على عاملين، أولهما: تنسيق العمل بين قواد جيشه من الجراكسة، وثانيهما : العمل على الاستحواذ على السلطان حاجي ليظهر كمدافع عنه من بطش منطاش، وبذا يمكنه جذب أكبر عدد من الترك الأشرفية، وفي الوقت نفسه أراد أن يضم الخليفة إلى جانبه لأن بيده إعلان شرعية السلطنة [4]. ولتنفيذ هذه الخطة قسم الظاهر برقوق عساكره إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناحين، وتولى هو قيادة الميمنة. وحين التقى الفريقان في

(١) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ٣١ب.
(٢) العيني: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣٧٠.
(3) Iorga : Notes & Extraits T11. p. 534.
(4) Iorga. Op. Cit. T11 p. 534.

تقتلني او ترد لي ديني فوقع له توقيع حسن الى كافة الولاة بان يرد له دينه ولبس ثياب الر هبنة وتظاهر بدين النصرانية واقام على ذالك زمانا الى ان اتفق ان رجلا نصراني اسلم من اهل الصعيد ثم ذكر دينه فندم فاخذ كفنه ووقف للملك العادل قبل سفره الى دمشق وقال له ترد على ديني كما رد ابنك الملك الكامل على الراهب دينه ووقع له ان يعرضه احد، فلما سمع الملك العادل فجدد اسلامه على يده واعاده الى حسبة منية غمر

---

١٤ من المحرم سنة ٧٩٢هـ ـ سنة ١٣٩٠م هزمت ميسرة الظاهر، وانسحب كمشبغا الحموى نائب حلب عائداً إلى بلاده، وعاد حسن الكجكني إلى الكرك. غير أن السلطان برقوق ثبت ثباتاً عجيباً بمن أخلص له من حاشيته ومماليكه الجراكسة [١] حتى تمكن من اعتقال السلطان حاجي والخليفة المتوكل والقضاة، واستحوذ على ما معهم من الخزائن والذخيرة التى وصفتها المراجع المعاصرة بأنها كانت شيئاً يخرج عن الحد فى الكثرة [٢]. وعمد الظاهر برقوق إلى دهائه المعروف ليجذب إلى جانبه أكبر عدد من عساكر منطاش، إذ تلطف بالسلطان حاجي والخليفة والقضاة وأوقفهم إلى جواره. وحين رأى عسكر منطاش انضمام السلطان والخليفة والقضاة إلى برقوق بدءوا يتركون منطاش وينضمون إلى السلطان برقوق، حتى أصبح جيش برقوق نحو سبعة آلاف مملوك.

وبهذا العدد الضخم تقدم برقوق فى اليوم التالى نحو دمشق التى فتحت أبوابها لمنطاش الذى تقهقر إليها ليحتمى بها. واقتتل الفريقان بظاهر دمشق من شروق الشمس إلى غروبها قتالاً مستمراً أظهر فيه برقوق ومماليكه رباطة جأش وصلابة عود حتى تابعوا القتال طيلة الليل،

(١) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد ٢ ورقة ٥٠.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦١٣، ابن تغرى بردى النجوم جـ١١ ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨.

واقام فيها بعد سفرة السلطان زمانا ثم حضر الى
الملك الكامل وقال ان الرهبان حفرو بير في ديرا
بومقار فوجدو فيها مطلب واواني ومصاغ كثير
وكانو الرهبان جابو بنآ مسلم بنا لهم البير وهو
الذى حفره وكان قصد الراهب يوحنا ان ياخذ
الملك الكامل جميع اوانى الديارات اذا تم اخذ
اواني دير ابو مقار فاظهر السيد المسيح فضايل
القديس ابو مقار ودر[ء] هذا الفاجر عن محبيه

ثم تغير الموقف فجأة وهبت رياح عاصفة مصحوبة بكتل من الثلج على معسكر منطاش حتى اضطر إلى إغلاق دمشق والتحصن بها (١).

وكاد برقوق يدخل دمشق بعد أن عاد لمعاونته كمشبغا الحموى نائب حلب، وبعد أن استولى إينال اليوسفى على قلعة صفد، غير أن أهل دمشق اضطروا عساكره الذين تمكنوا من التسلل إلى داخل المدينة إلى الهرب خارجها بعد أن اكتشفوهم وهم ينهبون البضائع من بعض السوقة (٢)، فإذا أضفنا إلى هذا أنه لم يكن لدى الظاهر برقوق من المعدات ما يكفى لحصار دمشق فإنه تقهقر إلى شقحب منتظراً جلاء الموقف.

وبعد أن أقام الظاهر برقوق سبعة أيام فى شقحب اجتمع بأمرائه والخليفة والقضاه وعرض كتاباً من السلطان حاجى ذكر فيه رغبته فى التخلى عن السلطنة لعجزه عنها (٣). وشهد الخليفة على السلطان المنصور حاجى بخلع نفسه من السلطنة، وحكم بذلك القضاة ثم نهض الخليفة وبايع السلطان الظاهر برقوق بالسلطنة (٤). وبعد هذه البيعة التى

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقه ٨٥ب.
(٢) كرد علي : خطط الشام جـ٢ ص ١٦٦.
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣.
(٤) ابن أبي السرور: النزهة الزهية ورقه ١٦أ.

وقديسيه حقيرا مهانا لم يظفر بمقصوده وذالك انه
قال للملك الكامل انه مطلب من عهد الروم
وكان قوله ذالك تدبير من الله لتكذيبه وسبب
السلامة فندب الملك الكامل معه ثلثة من المماليك
ومعهم شهود وسارو الى الدير فى جماعة كبيرة
ولم يكن الفاجر يعرف موضع الاوانى لانها مخفية
تحت الارض لايعرف موضعها الامقدم الدير او
رجل اخر من ثقات الشيوخ فمسك يوحنا جماعة

عرفت ببيعة شقحب[1]. خلع السلطان برقوق على الخليفة والقضاة، ونودى بذلك فى العسكر.

ورغم مرور هذه الأيام السبعة فإن الموقف لم ينجل، ولهذا رأى السلطان برقوق أنه من الحكمة أن يترك حصار دمشق التى أحكم منطاش إغلاقها ويعود إلى القاهرة وذلك لعدة عوامل: أولها: أن منطاش تأيد مركزه بانضمام عدد كبير من العرب إليه بعد أن تزوج ابنة أمير العرب نعير [2]، وثانيهما أن الأحوال الاقتصادية فى سوريا ساءت حتى عدمت الأقوات وغلا ثمنها حتى بيعت البقسماطة بخمسة دراهم، وعلى العكس رخصت الأمتعة من كثرة مناهب[3] وثمة عامل هام عجل بزحف برقوق على القاهرة، وهو أن الطريق إليها أصبح مفتوحاً بعد أن ثار مماليك الظاهر برقوق الجراكسة الموجودون بالقاهرة بزعامة مملوكة الأمير بطا الظاهرى وعددهم نحن ألف وخمسمائة من الجراكسة وانضم إليهم مماليك يلبغا الناصرى رغبة فى الأنتقام لأستاذهم. واتجه الثوار إلى سجون القاهرة التى أودع فيها منطاش عدداً كبيراً

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٣٦٩.

(2) Iorga: Op. Cit. T11, p. 535.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٩.
العينى: عقد الجمان : جـ٢٤ قسم ٢ ورقه ٣٨٥.

من الرهبان كان فى قلبه منهم حسد فعاقبهم فلما
علم مقدم الدير ان توانا [توانى] فى اظهار الاوانى
تسلط على الرهبان بالعقوبة واخرجهم من اديانهم
بادر وحضر بين يدى الشهود قال لهم وللاجناد
الذى معهم ان هذا الرجل نقل للسلطان الكذب
وغير الحق ظنا منه ان يوافقه على ظلمه وليس
عندنا من الاوانى الا كاس فضة و صنية فضة وستر
حرير نكسى به الهيكل وقت القربان وجميعهم

- -

من الجراكسة فأخرجوا من فيها، ثم سار الثوار إلى بيوت الأمراء المنطاشية ونهبوها [١]. وتأيد مركز الثوار حين استولوا على الاصطبل السلطانى، وعلى بيت منطاش بمدرسة السلطان حسن بمساعدة العامة الذين انقلبوا على منطاش بسبب سوء تدبيره وقسوته [٢].

وبعد أن أرسل السلطان برقوق إلى نائب قطيه أن يحفظ الطرقات، تقدم بمن معه من المماليك والسلطان المعزول والخليفة والقضاة إلى القاهرة التى فشلت فيها الدعايات السيئة التى بثها ضده ابن الكورانى والى القاهرة، إذ نشر أخباراً تفيد هزيمة السلطان برقوق، ودق البشائر لهذه المناسبة عدة أيام، ومع هذا فإن الناس لم يصدقوا بل اشتركوا مع الثوار الجراكسة فى مقاومة أنصار منطاش ووالى القاهرة حتى اضطروه إلى الاختفاء [٣]. ويعجب ابن تغرى بردى من أنه مع قيام هذه الثورة ظلت القاهرة فى أمن من الزعر وفسادهم [٤]. ويفسر الخطيب سبب هذا الأمن بأن الأمير بطا الظاهرى بعد أن قبض على ابن الكورانى، وصفده بقيد من حديد، ورسم بنهب داره أمر بتولية محمد بن العادلى والياً على القاهرة. وأسرع

(١) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقه ٥٢.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠١.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٢ب.
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم جـ١١ ص ٣٧٥.

برسم القربان اهتمو بهم النصارى وانقذوهم وكل
واحد منهم اسمه مكتوب على ما عمله. فقالو له
الشهود اذا صح ما قتله فان الملك الكامل عادل
خلد الله ملكه ومن عدله ان لاياخذ منها شيا
فطيب قلبك وقلوب اصحابك واحضرها حتى
نرها ونعرف ان خصمك كذب فيما حكاه عنكم
اذا قرى ما عليها من المكتوب. وكان هذا بتدبير
الله جرى فقام مقدم الدير بين يدى الشهود وفتح

الوالي الجديد إلى الطواف بشوارع القاهرة منادياً بالأمان والدعاء للظاهر برقوق [1]. وأدى هذا دون شك إلى سهولة مهمة السلطان برقوق، إذ فضلاً عن سرور الناس واطمئنانهم لانتصار السلطان برقوق وتمنى عودته، فإن بطا قضى على ما بقى من مقاومة الترك الأشرفية، ثم قبض على زعمائهم بالقاهرة، وسقطت القلعة فى يده فتمكن بطا من إعادة مقررات المماليك الجراكسة من الحكم وغيره مما كان مقرراً للمماليك الترك [2]. وبدأ بطا فى إقامة الكثير من الاستحكامات حتى بلغ من قوتها أن ظن البعض أن بطا أراد فى نفسه بهذه الاستحكامات الكثيرة أن يمنع الظاهر برقوق من دخول القاهرة [3].

وكيفما كان الأمر انتشرت الأخبار برحيل الظاهر برقوق من غزة إلى مصر فى العاشر من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير سنة ١٣٩٠م فأمر بطا الظاهرى بدق البشائر وأرسل إلى السلطان برقوق ينبئه بأنه استولى على القاهرة وأقام الخطبة فيها باسمه [4]. فرد عليه السلطان برقوق يشكره ويأمره بتجهيز الإقامات له ولمن معه [5].

(١) المرجع السابق ورقه ١٣٣أ، ب.
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقه ٥٢.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٣١.
(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩٤.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١١ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

الموضع واخرج الاوانى فاثبتوها الشهود جميعا فى الاوراق وحملوها الى القاهرة واحضروها بين يدى الملك الكامل فقراها جميعها وكان جملتها ساقية لطيفة بلور صنعة عجيبة وشبكة لولو فاحضر الملك عرفا الصاغة والبرازين وقومو المصاغ والستور الحرير وجميع الانية فذكر من حضرانها قومت بثلثة الف دينار على حكم الاختصار وربما تميز بازيد من ذالك فاحضر الملك الكامل البطرك انبا

- -

وما كاد ركب السلطان برقوق يصل إلى الصالحية حتى نودى بزينة القاهرة وبلغ سرور الناس أشدة حتى تنافسوا فى إقامة الزينات، ثم خرجوا من القاهرة أفواجاً للقائه فرحين «مقدرين فيه عقله وتثبته» [1]. وليس من شك فى أن الشعب قارن بين سياسة كل من برقوق ويلبغا الناصرى ومنطاش. وظهر واضحاً انهم قاسوا الكثير من سوء تدبير الآخيرين، على حين فضلوا حكم السلطان برقوق نظراً لسياسته الشعبية.

ويصور لنا المقريزى استقبال القاهرة للسلطان الظاهر برقوق وشعور الناس تصويراً حياً وذلك حين دخلها ومعه السلطان المنصور فيقول: «فى ٢٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير سنة ١٣٩٠م خرج الأشراف وطوائف الفقراء بصناجقها، والعساكر بلبوسها الحربية، واليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، ومعهم شموع كثيرة مشعلة [2]، وخرج من عامة الناس رجالهم ونساؤهم مالا يحصيهم إلا الله وعندهم من الفرح والسرور شئ زائد وهم يصيحون بالدعاء للسلطان حتى لقوه وأحاطوا به. وقد فرشت الشقق بالحرير من الترب إلى باب السلسلة، فلما وصل إليها تنحى بفرسه عنها، ومشى بجانبه فصار كأن الموكب للمنصور، فوقع هذا من الناس موقعاً عظيماً، ورفعوا أصواتهم بالدعاء والابتهال لتواضعه مع المنصور فى حالة غلبته

---

(١) العسقلانى: الدرر الكامنه جـ٤ ص ٣٦٥.
(٢) راجع كذلك يوساب : تاريخ البطاركة ورقة ٣٩.

يوانس [يوحنا] فسلم له جميع الاوانى بعد ان قال: ابصرو رجلا نصرانى واسلم واخذ دين الاسلام بقبول وهو مشهور فيه بثقة وديانة وامانة يقرا لنا ما هو مكتوب على هذه الاوانى. فاحضرو رجلا من اهل الاسكندرية اسمه بطرس ابن يوحنا كان شماسا ببيعة السيدة بها واسلم فقرى للملك الكامل القبطى الذى على الكاسات والصوانى والصلبان والملاعق اسم كل من عمل شيأ عليه

وقهره له، وأنه معه أسير، وعد هذا من فضائله. وصارت القبة والطير أيضاً على رأس المنصور والخليفة راكب بين أيديهما، وقضاة القضاة بين يدى الخليفة، فإذا تقدم الفرس من شقة إلى أخرى تناهبها العامة من غير أن يمنعهم أحد، وكانت العادة أن الشقق لجمدارية السلطان، ولكنه قصد بذلك التحبب للعامة، فإنه صاحب كيد ودهاء، وكذلك لما نثر عليه الذهب والفضة تناهبه العامة، وعندما وصل إلى باب القلعة نزل عن فرسه ومشى راجلاً تجاه فرس السلطان المنصور، وهو راكب ، حتى نزل فأخذ بعضده وأنزله. فحسن هذا منه إلى الغاية. وأخذ في المبالغة فى تعظيمه ومعاملته بما يعامل به الأمراء سلطانهم، إلى أن أدخله إلى داره بالقلعة ثم تفرغ لشأنه [1]».

ومما ذكره المقريزى يمكننا أن ندرك مدى ثبات السلطان برقوق على سياسته ودهائه، إذ فضلاً عن إظهار حبه للشعب وعدم ترفعه عن الناس ، فإنه عمد إلى المبالغة فى إكرام السلطان حاجى ليتظاهر بمدى زهده فى السلطنة، ولتنكشف أمامه اتجاهات الناس نحو سلطنته، حتى إذ تأكد من ميل الناس جميعاً له استدعى الخليفة وشيخ الإسلام وقضاة القضاة وأهل الدولة واجتمع بهم فى الاصطبل حيث جددوا له البيعة بالسلطنة.

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٣٨ ـ ٦٣٥.

فعجب الملك الكامل من ذالك وامر ان يستحلف بثلثة شيوخ من الرهبان ان هذه الانية لم توجد فى بير فحملو واحضرو البنآ الذى حفر لهم البير وبناها وكان رجلا مسلم فشهد بين يدى السلطان انه الذى حفر البير وبناها ولم يكن فيها شيا. فصدقة السلطان، فعند ذالك قال الحكيم ابو شاكر للملك الكامل يامولانا قد كان رفع للملك الناصر صلاح الدين رحمه الله فى هذه الانية

وهكذا فشلت محاولة الترك لإعادة السلطنة إلى بيت قلاوون وبدأ الناس يؤمنون بالسلطنة الجديدة ـ ومع هذا ظل السلطان برقوق يأخذ حذره من الترك، فأسكن السلطان حاجى بالحوش السلطانى، ووكل بالباب حفظة من الخاصكية الأبطال [١]. ثم أخذ السلطان برقوق فى تدبير أمور دولته والعمل على إعادة الجراكسة إلى الوظائف الرئيسية فى الدولة وبدأ بتعيين مملوكه الأمير بطا الظاهرى دويدار كبيراً وإينال اليوسفى أتابكا للعساكر [٢].

استقرار دولة المماليك الثانية

سياسة برقوق نحو الترك ـ الصلح بين برقوق ويلبغا الناصرى ـ بقاء قوة الترك فى دمشق واستعانتهم بالعربان ـ قضاء يلبغا على معظم المماليك الترك. عودة الخصام بين يلبغا الناصرى وبرقوق ـ محاولة يلبغا الناصرى انقاذ منطاش ـ ذهاب السلطان برقوق الى دمشق سنة ١٣٩١م ـ القبض على يلبغا الناصرى وقتله ـ فرار منطاش ـ عودة برقوق الى القاهرة ـ تطهير القاهرة من الترك ـ القبض على منطاش وقتله ـ مطالبة العربان بالحكم دون الجراكسة ـ محاولة العربان اقامة الشريف العنابى سلطانا سنة ١٣٩٤م ـ موقف السلطان برقوق من

(١) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقه ٣٣ب.
(٢) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٣.

واحضرها وعلم كذب الرافع واعادها الى ديرها. فعند ذالك اعادها الملك الكامل وامر بتسليمها للبطرك فاخذها وجعلها فى اطباق على رووس الحمالين واشترى شمع كثير ودار بها جميع شوارع القاهرة واسواقها والنصارى تصرخ بالدعا للسلطان وكان يوم مشهور عظيم جداً وصعب على الشامتين بمصر دوران الصلبان فى اسواقها وشوارعها ولكن لم يجسر احد يتكلم ولايمد يده

باقى التمردات العربية ـ فشل مبدأ وراثة العرش فى دولة المماليك الثانية ـ الصبغة الجديدة ـ التغيرات فى نظم الحكم والادارة.

لم تغير المؤامرات المستمرة من سياسة السلطان برقوق بعد أن عاد إلى عرشه فى ١٤ من صفر سنة ٧٩٢هـ ـ يناير ١٣٩٠م، وبدا على عادته سياسياً عاقلاً، متوخيا الحرص والتأنى فى كثير من أموره السياسية ولاسيما فى علاقاته مع أعدائه، فهو أراد بناء دولة جديدة معتمداً على العصبية الجركسية. ولم يكن هذا الأساس سهلاً لأن العصبية التركية التى حكمت البلاد نحو مائة وثلاثين عاماً مازالت تناصبه العداء، كما أن العصبية العربية التى انتشرت فى طول البلاد وعرضها ممثلة فى عدد كبير من القبائل العربية التى اشتغلت بالزراعة والتجارة طالما ثارت على السلطان، واعتبرت العناصر المملوكية مغتصبة للحكم. وتحمست هذه القبائل أكثر حين انتقل الحكم إلى الجراكسة، ولذا عمل السلطان برقوق منذ عودته إلى السلطنة على تصفية حسابه مع هاتين العصبيتين، وذلك حتى يضمن الاستقرار لدولته.

ولتحقيق ذلك بدأ السلطان برقوق سلطنته الثانية بإعادة الهدوء إلى القلعة ومحاربة الإشاعات المسببة للفرقة والانقسام فى صفوف مماليكه، فلم يتورع أن يسمر أحد مماليكه لأنه أشاع كذبا أن الأمير بطا الدوادار عزم على الثورة على السلطان [١]، على حين أمر بالعفو عن

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٦.

من هيبة الملك الكامل خلد الله ايامه. وبعد ذالك جا راهب آخرمن دير ابو مقار من قلاية سقيط وقف للملك الكامل وكان اسمه عبد المسيح المصور كتب له رقعة فى حق البطرك يقول فيها ان البطرك فى كل سنه يحمل اليه مال كثير من الاساقفة وقد كانو البطاركة الذى قبله جرت عادتهم ان ينفقو فى مراكب الاصطول من اموالهم فاخذ القاضى الاعز صاحب الديوان الرقعة منه

الأمراء اليلبغاوية الذين سجنهم منطاش، مع تحديد أماكن إقامتهم [1]. ولم يكن يدفع السلطان برقوق إلى هذه السياسة العطف أو الشفقة، بل إن الأحوال الداخلية اضطرته إليها، إذ بدت أحوال سورية غير مطمئنة منذ ٢٠ من صفر سنة ٧٩٢هـ يناير سنة ١٣٩٠م ـ وذلك بسبب بقاء منطاش مستقلاً بدمشق، وتحريضه لقطلوبغا الصفوى نائب صفد على الانضمام إليه ـ ولذا استدعى السلطان برقوق الأمير يلبغا الناصرى وصالحه، ثم عينه أمير سلاح والطنبغا الجوباني اليلبغاوى وعينه رأس نوبة الأمراء [2]. وجعل السلطان برقوق تعيين هؤلاء اليلبغاوية في مناصبهم كسباً لودهم، حتى إذا انتظمت أموره فى العاصمة استغل عداءهم لمنطاش فى القضاء عليه وعلى أتباعه من المماليك الأشرفية الترك.

وبدأ السلطان برقوق الاستعدادات السريعة فى القلعة لإعداد التجريدة المتجهة لحرب منطاش ولكنه قرر أن يحتفظ لديه بالقاهرة بأكبر عدد من الجراكسة، على حين جهز أغلب التجريدة من الترك اليلبغاوية، حتى يضمن التخلص من عدد كبير منهم في القتال فى سورية مع أعدائهم من المماليك الأشرفية. ولذا خلع على عدد من الأمراء اليلبغاوية بإقطاعات فى

(١) السلامي: مختصر التواريخ ورقه ٨٥ب.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٦.

اعرضها على الملك الكامل فقال للقاضى الاعز ياقاضى اذا كان غيرنا ظالما ما نكون نحن مثله دع هذا الراهب يمضى الى ديره حتى نطلبه فخرج اليه القاضى الاعز وقال له ما قاله الملك الكامل فمضى بوجه مخزى وحرس الله الاب البطرك من كيده. وجرى فى ايام حياة هذا الاب من الامور الصعبة الحروب والغلا والجلا ما قدمنا ذكره ولو ذكرنا ما جرى فى ايام رياسته بجميع الديارات

سورية [(1)]، ثم جعل الطنبغا الجوبانى نائباً لدمشق، والأمير قرادمرداش الأحمدى اليلبغاوى نائبا لطرابلس [(2)]، وبعثهما على رأس التجريدة، على حين عين الأمير يلبغا الناصرى مقدماً للعسكر جميعاً، وجعل مرجع الأمور كلها إليه، وحثه على أخذ ثأره من منطاش بقوله «هوغريمك، اعرف كيف تقاتله» [(3)].

وقبل أن يتحرك العسكر إلى سورية فى ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٩٢هـ ـ أبريل سنة ١٣٩٠م ـ بدأ الحظ فى جانب السلطان برقوق؛ إذ خرج على منطاش حليفه قطلوبغا الصفوى، وحضر إلى مصر طائعاً، وجعل هذا العمل منطاش يشك فى نيات أتباعه، فقبض على عدد منهم وسجنهم، مما دفع بعض المماليك الأشرفية إلى تركه والهروب إلى مصر للانضمام إلى جانب السلطان [(4)]. وبدا جانب منطاش ضعيفاً حتى إنه لم يبق معه أكثر من ستمائة فارس، فاضطر أن يخرج بهم من دمشق ومعه كل ما أمكنه جمعه من الأموال التى قومت بنحو سبعين حملاً من الذهب والفضة والقماش [(5)]، وتوجه إلى بلدة النبك ـ بين

(١) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٤ب.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين، المجلد الثانى ورقه ١٥أ.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٩.
(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٠٦.
(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٥٥.

المصرية لم نبلغ ذالك ولاوصلنا اليه وانما ضمنا
هذه السيرة ما نقلناه ممن تقدمنا من ا سلافنا وما
وصل الى علمنا بسماع الاخبار من ثقات شيوخنا
الى مدينة المحلة بحكم سكننا فيها ومقامنا بها وقد
نشر غيرنا من اخوتنا المومنين المقيمين بالقاهرة
ومصر مما شاهده حقا وعلموه يقينا. ثم تنيح الاب
المغبوط انبا يوانس المذكور يوم الجمعة السادس
عشر من شهر رمضان سنة اثنى عشر وستماية

دمشق وحمص [1] ـ فتمكن الأمير إيتمش البجاسي من الخروج من سجنه بقلعة دمشق وأخرج المحبوسين بها من الجراكسة. ثم استطاع إيتمش السيطرة على المدينة، وسهل هذا مهمة النواب المتجهين لحرب منطاش، إذ دخلوا دمشق دون قتال فى آخر جمادى الآخرة سنة ٧٩٢هـ ـ أبريل سنة ١٣٩٠.

وأحدث إعلان هذا الخبر المفاجى صدى كبيراً فى القاهرة حيث أمر السلطان بدق البشائر، وأنفق أموالاً كثيرة فى الناس، الذين شغلوا بالتسابق فى إقامة الزينات [2].

ثم نجحت عساكر السلطان برقوق فى كسب جولة أخرى فى سورية وذلك حين انتصر الأمير كمشبغا الحموى اليلبغاوى نائب حلب على الأمير تمان تمر الأشرفى الذى استعان بأهل بانقوسا [3]، وحاصر كمشبغا فى قلعة حلب فأسرع كمشبغا ونقب القلعة وقاتل الأشرفية بالمكاحل من الثقب حتى ضعف أمرهم، وقبض كمشبغا على ثمانمائة من الترك ومن أهل بانقوسا، وانتقم منهم بتخريب بلدهم حتى صار دكا [4].

(١) راجع : معجم البلدان جـ٨ ص ٢٤٧.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٤٤.
(٣) كرد علي: خطط الشام جـ٢ ص ١٦٧.
(٤) العيني: عقد الجمان جـ٢٤ ص ٣٩٨.

الموافق للتاني عشر من طوبة سنة اتنين وتلتين وتسع مايـة للشهداء الاطهار صلواته تحفظنا امين. وكان هذا الاب البطرك قد سمع وهو حى ان انبا زخارياس البطرك لما تنيح أمر أن يدفن جسده المقدس فى الحبس تحت قبر زخارياس البطرك [البطرك ٦٤] فدفن فى مقبرة الحبس بمصر وهما فيها الى يوم تسطير هذه السيرة والسلام والمجد لله دايما ابديا سرمديا امين.

***

أما منطاش فإنه عاد ليتفق مع الأمير العربى نعير بن حيار أميرا آل فضل، واتجه الاثنان نحو دمشق لقتال يلبغا الناصرى. فخرج يلبغا الناصرى والطنبغا الجوبانى من دمشق إلى سلمية، وترك بدمشق الأمير إيتمش البجاسى مع الحامية الجركسية وعدد من المماليك الترك اليلبغاوية. غير أن المماليك الترك اليلبغاوية الذين بقوا بدمشق انتهزوا فرصة قلة عدد أفراد الحامية الجركسية وثاروا على إيتمش بالاتفاق مع العامة، وحاولوا الاستيلاء على الحكم بدمشق. ولما كان يلبغا الناصرى حريصا على إظهار إخلاصه للسلطان برقوق خشية انتقامه، فإنه ما كاد يتلقى نبأ هذه الثورة حتى أسرع فى طائفة من عسكره إلى دمشق ومعه الأمير الابغا العثمانى، حاجب حجاب دمشق، وقاتل الثائرين قتالاً شديداً وأفنى عدداً كبيراً من الترك والعامة المعادين للسلطان برقوق [١].

وبعد أن أعاد الأمير يلبغا الناصرى الأمن إلى نصابه فى دمشق عاد إلى سلمية [٢]. فى رجب سنة ٧٩٢هـ ـ مايو سنة ١٣٩٠م ـ، واجتمع بباقى النواب لرسم خطة قتال منطاش وحليفه نعير. واتفق فى هذا الاجتماع على تقسيم العسكر ثلاث فرق يتولى يلبغا الناصرى

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقه ٣٥ب.

(٢) سلمية بليدة من أعمال حماه. راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ حاشية ١ ص ١٥.

نبتدى بمعونته وحسن تاييده بشرح ما جرى على اقليم مصر(*) وما اصاب الشعوب المومنين بالمسيح المقيمين فيه من برج دمياط الى برج اسوان بعد وفات الاب المغبوط البكر الطاهر انبا يوانس البطرك نيح الله نفسه مع الابرار

انا اذكر ما وصل الى علمى فى المواضع الذى انتهى اليها فى هذه السير ة ومدة مقام الكرسى بغير بطرك كما تنبا بذالك يوانس. ولما طال الزمن خفت ان اموت ولم اشرح ذالك وقد امهلنى الله

(*) الاحداث التاريخية فى الفترة من عام ١٢١٦م، وهى سنة وفاة البطرك ٧٤ يوانس (يوحنا)، وفترة من حكم الملك الكامل الأيوبى ومن أتى بعده، حتى عام ١٢٣٥م وهى السنة التى تولى فيها البطرك ٧٥ كيرلس (ابن لقلق) وهى حوالى ١٩ سنة ونصف، تمثل نهاية الحكم الأيوبى بمصر.

قيادة الفرقة الأولى المتجهة لقتال نعير بن حيار، وأن يقوم الأميران قرادمرداش الأحمدى نائب طرابلس ، والطنبغا الجوبانى نائب دمشق، بقيادة الفرقتين الثانية والثالثة المخصصتين لقتال منطاش.

وحين بدأ القتال فى شعبان سنة ٧٩٢هـ ـ يونيه سنة ١٣٩٠م ـ استطاع يلبغا الناصرى أن يقتل عدداً من عرب آل فضل وأن يلحق الهزيمة بنعيربن حيار، أما قرادمرداش فإنه اشتبك مع منطاش دون أن يتمكن منه، على حين نشبت معركة حامية خارج دمشق بين مماليك منطاش وبين الفرقة التى قادها الجوبانى. ورغم انتصار الجوبانى فى بادى الأمر، فإن المعركة أسفرت عن قتل عدد كبير من الفريقين وقتل الجوبانى نفسه. وتأثر جيش السلطان برقوق بنهب العرب والتركمان حتى اضطر الناصرى إلى التقهقر بجيش السلطان إلى دمشق ليصلح أمره [1].

وبقدر ما تظاهر السلطان برقوق بأسفه الشديد لفقد عدد كبير من اليلبغاوية بقدر ما تحمس فى نفسه لنجاح فكرته، وتمنى المزيد من الصراع ليتخلص من عدد آخر من الأجناد الترك. فاستدعى عدداً كبيراً من الأجناد الترك البطالين للخدمة وأرسلهم إلى يلبغا الناصرى. واستطاع

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٤٩.

حتى سمعته وعلمت وابصرة فاكون كانى قد
منعت [منحت] نفسى تذكار رحمة الله وبخلت
على غيرى بها فقدمت خيرة الله وسالته المعونة لى
على ذالك متكل على عفوه واثق بلطفه انه على
كل شى قادر. وقد كنت ذكرة [ذكرت] فى اخر
سيرة انبا يوانس [يوحنا] البطرك [رقم ٧٤] انه
تنيح يوم الجمعة الثانى عشر من طوبه سنة تسع
ماية اثنين وثلثين للشهدا الاطهار الموافق للسادس

يلبغا أن يخرج بهم من دمشق فى نهاية شعبان سنة ٧٩٢هـ ـ يونيه سنة ١٣٩٠م ـ وأن يهاجم عرب آل على ـ على مقربة من دمشق ـ وقتل نحو مائتين منهم، ونهب بيوتهم وجمالهم، ثم عاد سريعا إلى دمشق لانتظار ماعسى أن يقوم به منطاش (١).

وأدى هذا الانتصار مع توالي الإمدادات من القاهرة إلى إعلان نعير طاعته للسلطان وبعث للسلطان يسأله الصفح والأمان، ولم يتأخر السلطان برقوق فى إجابته إلى ما طلب، وأرسل إليه تقليداً جديداً بإمرة آل فضل على عادته (٢).

ولا شك أن منطاش فقد بخروج نعير جانباً كبيراً طالما اعتمد عليه، إذ أصبح لا يخشى عساكر السلطان وحسب بل وعرب آل فضل كذلك، ولذا اضطر منطاش إلى الارتماء فى أحضان سولى بن دلغادر التركمانى وطلب معاونته (٣).

رفى ١٦ من المحرم سنة ٧٩٣هـ ـ يناير سنة ١٣٩١م ـ لجأ يلبغا الناصرى إلى حيلة للقبض على عدد كبير من المماليك الترك الأشرفية. إذ لبس عدة الحرب وتظاهر بعدائه للأمير

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٠.
(٢) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقه ١٢٦أ.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ و رقه ٤٠٦.

عــشــر من رمــضــان سنة اثنى عــشــر وستمـاية[١٢١٥م] وابتديت انا فى كتابة هذه السيرة يوم الاثنين السابع عشر من برموده سنة سبع وثلثين وتسع ماية الموافق للثامن عشر من صفر سنة ثمان عشر وستماية [١٢٢١م] يكون مقام الكرسى خال بغير بطرك الى هذا التاريخ خمس سنين وثلثة اشهر وما زاد على ذالك يضاف اليه عند قسمة البطرك. كان والدى بلغنى ممن كان

- -

إيتمش البجاسي وللحامية الجركسية، ونادى بدمشق «من كان من جهة منطاش فليحضر» وجازت الحيلة على أتباع منطاش من الأشرفية والتركمان، فانضم إليه نحو ألف ومائتى فارس منهم، فقبض عليهم يلبغا وسجنهم (١)، ثم خلع عدة الحرب وكتب بذلك إلى السلطان الذى أجابه بالشكر والثناء (٢).

على أن منطاش لم ييئس لخروج هذا العدد الكبير من أتباعه، بل استعان بعدد كبير من عامة دمشق فى مناوءة يلبغا الناصرى، ولكنه اضطر إلى التقهقر سريعا إلى عينتاب. ولما لم يستطع دخولها بسبب ملاحقة عساكر يلبغا اضطر إلى الفرار إلى مرعش (٣). ونتج عن هذه الهزائم المتلاحقة خروج جماعة أخرى من أتباع منطاش وحضورهم إلى مصر طائعين (٤). وسلك السلطان برقوق على عادته سبيل العفو عن هؤلاء، بل إنه خلع على استدمر رأس نوبة منطاش الذى حضر إليه مع هؤلاء المماليك الأشرفية (٥).

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٤٦.
(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٩٧.
(٣) مرعش مدينة كبيرة على ست مراحل من حلب فيها أسواق:
راجع المقريزى: جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار ورقة ٤٤ب.
(٤) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٤٧.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥٤.

حاضر عند انبا يوانس يوم نياحه من شيوخ مصر قبل موته بيوم واحد انه غشي عليه نحو ثلثة ساعات ثم فتح عيناه وتحدث مع الحاضرين عنده وسالهم عن منصور تلميذه وكان مر يضا فقالو له مات فقال: كفنوه وادفنوه فانا اغدا اكون عنده. ثم غشي عليه دفعة ثانية ثم فتح عينيه وقال للحاضرين عنده: يكون بينكم بعدى خلاف عظيم فيمن تقيموه ويكون الكرسي بلا بطرك زمانا

ويمكن القول إن السلطان برقوق نجح حتى هذا الوقت فى القضاء على أكثر المماليك الترك الأشرفية بواسطة المماليك الترك اليلبغاوية، كما أن اليلبغاوية مات عدد كبير منهم فى هذه المعارك المتصلة، ومع أنه كان من الممكن أن ينتظر السلطان برقوق حتى يقبض يلبغا على منطاش وينتهى أمر الأشرفية، ثم يتخلص من باقى اليلبغاوية، إلا أنه انقلب فجأة على المماليك الترك جميعاً إذ قبض على المماليك الأشرفية الذين التجئوا إليه، وعفا عنهم من وقت قصير، فى الوقت نفسه الذى قبض فيه على مماليك الطنبغا الجوبانى الذين عادوا إليه بعد قتل أستاذهم فى المعركة التى دارت خارج دمشق فى شعبان سنة ٧٩٢هـ [١] وجعل هذا الانقلاب المفاجي الأمير يلبغا الناصرى يفهم نيات السلطان، إذ كيف يقبض السلطان على أعدائه وأتباعه على السواء !!؟ وأدرك يلبغا أن السلطان برقوق لم يغير من سياسته العدائية للعنصر التركي وأنه لاشك عازم على التخلص من باقى اليلبغاوية بعد قضائه على الأشرفية. ولذا انقلب يلبغا الناصرى بدوره مرة أخرى على السلطان برقوق، ولكنه لم يجرؤ على إعلان ثورته على السلطان برقوق بسبب قلة عدد اليلبغاوية فى سورية، ولذا بدأ يتقرب من منطاش بأن تعمد عدم مقابلته فى معركة حاسمة، وإذا سار منطاش لقتاله من طريق سار يلبغا من طريق آخر [٢].

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٦ ـ ٣١٧.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٣١٧ ـ ١٨.

طويلا حـتى يقـيم لكم المسـيح رجل ياتى به من
حـيـث لاتعـرفـون وتكون ايامـه هادية ورروح الله
تكون فـيــه. ثم تنيح ثانى يوم ودفن فى الحـبس
بمصـر الى جـانب قـبـر زخـارياس البطرك. وبقى
الكرسى خال بغير بطرك من يوم نياحتـه الى يوم
تسطير هذه السيرة كـما تقدم القول وكـان ذالك
بامر الله كـمـا تنبا به عليه الاب انبا يوانس بروح
القـدس المتكلم من فـاه الطاهر. ونشـرح ها هنا

ثم أثبتت الحوادث أن يلبغا الناصرى اتفق فعلاً مع منطاش، وأنه كاتب منطاش أن يتقدم إلى دمشق، وأنه لن يقف فى طريقه على أن يظل هذا الأمر سراً بينهما؛ فعاد منطاش من مرعش فى أول رجب سنة ٧٩٣هـ ـ يوليو سنة ١٣٩١م ـ وهاجم حماة واضطر نائبها إلى الفرار إلى طرابلس(١). ثم تقدم منطاش إلى حمص وبعلبك واستولى عليهما، وفر نائب بعلبك إلى دمشق حيث أخبر الناصرى بزحف منطاش على دمشق (٢). وبدلاً من أن يخرج يلبغا الناصرى للقاء منطاش من الطريق الذى سلكه منطاش خرج يلبغا من طريق الزبدانى(٣). وبذا ترك دمشق لقمة سائغة لمنطاش الذى تقدم إليها بمعاونة بعض من عامة دمشق الذين فتحوا له باباً من وراء الجبل، ومكنوا أتباعه من المماليك الأشرفية والتركمان من دخول اصطبلات أمراء دمشق، وأخذ نحو ثمانمائة فرس منها (٤). ثم تمكن منطاش فى النهاية من احتلال القصر الأبلق بدمشق، ونزل أمراؤه فى البيوت المجاورة للقصر الأبلق،واحتل باقى أتباعه جوامع المدينة.

وهكذا مكن يلبغا الناصرى منطاش من الاستيلاء على دمشق كلها ونهبها حتى يمكنه

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٥٥.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ٦٦.
(٣) الزبدانى قرية بين دمشق وبعلبك راجع ياقوت: معجم البلدان جـ٤ ص ٣٧٤.
(٤) كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ١٦٨.

ماجرى من الخلف بين المصريين فى من يقيموه بطركا ممن يصلح كامل الاوصاف والشروط الذى يشهد عليه بها قانون البطركيه اولها أن يكون بتولا لايعرف له صبوة ولا يشهد عليه بخلطة، مشهودا له بالعفة والديانة وكثرة الامانة والعلم والاتضاع، قد قرى [الكتب] العتيقة والحديثة. وكانو مجتهدين في طلب من هذه صفته وكانة ديار مصر فى مملكة الغز والملك عليها الملك العادل ابو

الصمود طويلاً أمام السلطان برقوق. ولكى يدارى يلبغا الناصرى موقفه أسرع بالعودة إلى دمشق. ورغم أنه حاصر القصر الأباق وأحرق عدة أماكن بالمدينة فإنه مكن منطاش من الفرار[١]، وأكثر من هذا فإنه رغم أن بعض الفلاحين اعتقلوا منطاش وأرسلوا للناصرى للحضور واستلامه، ورغم أن القاهرة سمعت بهذا النبأ، وزينت له فإن يلبغا الناصرى لم يبادر باعتقاله بل سهل أمر فراره، وسرعان ما كذب هذه الأنباء وأعلن أن منطاش هرب ولم يتمكن واحد من القبض عليه [٢].

وحين أخذت إشاعات الجراكسة حول موقف يلبغا الناصرى الأخير تملأ القلعة كاتب يلبغا الناصرى السلطان برقوق يستحثه للحضور إلى دمشق، ليدرك عن كثب مدى ما يبذله من جهود فى حرب منطاش، وليشترك بنفسه فى الصراع الدائر [٣].

وهكذا قرر السلطان برقوق أن يخرج بنفسه على رأس تجريدة جديدة، بعد أن أطمأنت نفسه لتطهير القاهرة فى هذه الفترة من عدد كبير من المماليك الترك. ويبدو أن الحروب والفتن المستمرة جعلت هناك أزمة فى الخيل، حتى أمر السلطان برقوق أن «ينادى فى القاهرة ومصر

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٦٦ ـ ٦٦٧.
(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٨.

بكر ابن ايوب وكان فى ملكه ديار مصر واعمالها والبيت المقدس واعماله ومن خلف نهر الفراة [الفرات] حران والرها ونصيبين ومنبج وآمد وميا فارقين وكل اعمالهم، وكان اولاده كثير، فدفع ملك ارض مصر لولده الكامل واسمه محمد، ودفع دمشق والبيت المقدس لولده المعظم واسمه عيسى الكريدى، ودفع خلاط لولده الاشرف موسى، وفرق المدن التى تضاف اليهم على بقية

ألا يركب أحد من المتعممين فرساً سوى الوزير وكاتب السر وناظر الخاص فقط، ومن عداهم يركب البغال، وأن طحانا لا يترك عنده فرساً صحيحاً ومن وجد عنده فرس أخذت منه [1].

وإذ انكشفت أوراق يلبغا الناصرى، ووضح أمام السلطان برقوق خطر بقاء بعض اليلبغاوية ممن اعتمد عليهم فى وظائفهم فى مصر أثناء غيابه عن القاهرة عزل أكثرهم عن هذه الوظائف فى ١٢ من شعبان سنة ٧٩٣ هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩١م ، وولى بدلاً منهم من مقدمى الحلقة الجراكسة [2]. ثم عاد وقبض على عدد آخر من المماليك الترك البطالين بالقاهرة، وأمر بضرب أعناقهم بالصحراء [3] وفى ٢٦ من شعبان سنة ٧٩٣هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩١م ـ أعلن السلطان برقوق أنه خارج لمعاونة الناصرى على منطاش [4]. وعهد السلطان إلى الأمير كمشبغا الحموى بنيابة الغيبة لما عرفه فيه من دقة وبعد نظر . وما كاد السلطان برقوق يرحل على القاهرة حتى سادتها أحكام قاسية [5]، وشدة متناهية قصد بها

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٥٨.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٦ ـ ٢٧.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٥.
(٥) من هذه الأحكام القاسية أن كمشبغا أمر فى ٢١ من رمضان سنة ٧٩٣هـ بمنع النساء فى يوم العيد من الذهاب إلى المقابر، وأن من خرجت وسطت هى والمكارى، كما أمر ألا يركب أحد فى موكب، =

اولاده. وقيل عنه ان له عشرين ولد. ودفع اليمن لاقسيس ولد ولده الملك الكامل ثم مات بعد ان رتب الامور وسنذكر ذالك فى موضعه ان بلغنا الانتها[ء] اليه. وكان الملك الكامل ملك مصر قد خرج من القاهرة يريد الفرجة والصيد فعدى الى الغربية وسار فيها يريد الاسكندرية فعدى بحر ابيار فراى صومعة الحبيس الذى هناك فوقف تحتها وصاح له فكلمه من فوقها ودعا له، فشكا له وجع

إنزال الرعب فى نفوس العناصر الناقمة على الحكم حتى لا تحدث نفسها بالثورة. وبلغت شدة الأمير كمشبغا درجة لم يجسر معها أحد فى مدة حكمه أن يحمل سلاحاً.

أما السلطان برقوق فإنه وصل دمشق فى ٢٢ من رمضان سنة ٧٩٣هـ سبتمبر سنة ١٣٩١م ورغم أنه حضر ليتحقق بنفسه من سوء نية يلبغا الناصرى فإنه أخفى مافى نفسه على من معه، بل إنه أعلن فى دمشق العفو عن كل الناس مهما كانت ذنوبهم، وصار لهذا العفو أكبر الأثر فى كسب عدد كبير من عامة دمشق [١].

وفى الثانى من شوال من السنة نفسها توجه السلطان برقوق إلى مدينة حلب بعد أن أقام بحمص وحماه أياماً كثيرة دون أن يتمكن من العثور على منطاش [٢]، الذى فر إلى سالم الدوكارى التركمانى. ولاشك أن وجود السلطان برقوق فى حلب كان له أكبر الأثر فى إضعاف شأن منطاش إذ أرسل صاحب ماردين إلى السلطان برقوق يخبره أنه قبض على

= والا تلبس امرأة قميصاً واسع الأكمام، ولا يزيد قماش القميص على أكثر من أربعة عشر ذراعاً بسبب مبالغة النساء فى سعة القمصان حتى عملن القميص من ٧٢ ذراعاً. ولم يجسر أحد على مخالفة كمشبغا. راجع العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٢٣.

(١) المقريزى : السلوك جـ٣ ص ٦٧٢.

(2) Ioga: Notes & Extraits T 11 p. 535.

في فواده فصلى له على زيت طيب ودفعه له وقال له اذا دهنت موضع الوجع والله الشافي. فدهن به الوجع فبرى لوقته فوهبه شي من يده وصار له في قلبه مودة. ثم عاد إلى القاهرة فوجد رجل من اولاد القبط اسمه ابو الفتوح ونعته نشو الخلافة يعرف بابن المقياظ قداستخدمه الملك العادل في ديوان الجيوش فقربه منه وكان يصدق بكلما يملكه ولايدخر شيا ويعمل خيرا مع كلمن يقصده

جماعة من المماليك الترك الأشرفية، فبعث إليه السلطان من تسلمهم وشكره على معاونته(١). كما أرسل إليه سالم الدوكارى بخبره أن الأمير منطاش فى قبضته وأنه ينتظر من يسلمه. واعتقد السلطان برقوق أن سالمًا مخلص فى قوله، فأرسل إليه الأمير قرادمرداش مع عدد من العسكر لإحضار منطاش. غير أن سالمًا الدوكارى عاد واتفق مع يلبغا الناصرى على الإبقاء على منطاش فماطل قرادمرداش عدة أيام (٢)، حتى أن قرادمرداش حين تحقق أن سالما الدوكارى لن يسلم له منطاش هاجم بيوته ونهبها وقتل عدداً من أتباعه، واضطر سالم إلى الفرار بمنطاش إلى سنجار (٣). وإذ عرف السلطان برقوق بمماطلة سالم الدوكارى، أرسل إلى يلبغا الناصرى يطلب حضوره ليكشف بذلك عن اتجاهات يلبغا المعادية له. ثم إن بعض الأخبار التى نقلت إلى السلطان برقوق أفادت أن يلبغا حين وصل عند سالم وعرف ما فعله قرادمرداش بسالم الدوكارى سل سيفه وأراد قتل قرادمرداش لولا تدخل الأمراء (٤).

ودفعت هذه الأخبار السلطان برقوق إلى أن يتحقق مما أشيع عن اتفاق الناصرى مع

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٩.

(٢) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ١٨٦أ.

(٣) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٧٠ ـ سنجار مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة الفراتية بينها وبين الموصل ثلاثة أيام ـ راجع ياقوت: معجم البلدان ص ١٤٤.

(٤) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣١٩.

من النصاره والمسلمين وجميع الناس ولم يكن متزوج قط وهو كامل بكل عمل حسن فأوى اليه رجل قس اسمه داوود ويعرف بابن لقلق(*) من اهل الفيوم وهو خيرا عالما قد قرى [الكتب] العتيقة والحديث وجادل مخالفى دينه وظهر عليهم فصار لنشو الخلافة ابو الفتوح كالمعلم. وكان يقول بالاعتراف فمال ابو الفتوح اليه فاتصل خبره بالاب انبا يوانس فى حياته وكان يكره القس داوود

(*) ابن لقلق: اصبح فيما بعد البطرك رقم ٧٥ للكنيسة القبطية سنة ٩٥١ للشهداء = ١٢٣٥م. واقام بطركا مدة سبع سنوات وتسعة شهور. وتوفى يوم الثلاثاء ١٤ برمهات ٩٥٩ للشهدا ١٢٤٣م.

منطاش، وغلب على ظنه صحة ما نقل عن يلبغا الناصرى من أن قصده مطاولة الأمر بين السلطان برقوق وبين منطاش، كما تحقق السلطان مما نقل إليه عن أن منطاش لم يحضر إلى دمشق إلا بمكاتبة يلبغا، وأن يلبغا تخاذل فى القبض عليه حين احتل منطاش القصر الأبلق بدمشق [1]. كما عرف السلطان برقوق أنهما اجتمعا فى هذه الفترة ثلاث مرات بدمشق لتدبير الخطط [2]. وأن رسل الناصرى كانت ترد على منطاش فى كل ليلة بما يأمر به، وأن سالماً الدوكارى لم يهرب بمنطاش إلى سنجار إلا بمكاتبة يلبغا الناصرى [3]. وأكثر من هذا فإن قرادمرداش عثر عند سالم الدوكارى على خطاب من يلبغا الناصرى جاء فيه «خذ منطاش واهرب إلى بلاد الروم فإن منطاش مادام موجوداً فنحن موجودين» [4] وتحركت عند السلطان برقوق الكمائن القديمة من خروج يلبغا عليه وخلعه من السلطنة وحبسه بالكرك ، وما تسبب فيه من الفتن. ولم يجد السلطان برقوق مجالا للشك فى نيات يلبغا حتى سأل إيتمش الذى أرسله لتتبع الأشرفية عن سبب عودته فجأة، فأبلغه أن يلبغا الناصرى هو الذى أرسل إليه كتاباً

---

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣.
(٢) ا بن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٧١.
(٣) الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ٣٩أ.
(٤) ابن اياس: بدائع الزهور جـ١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

وكره ابو الفتوح من اجل انه مقيم عنده ومات
وهو غير راضى عليهما وكان لما مات مطران
الحبشة فى حياة انبا يو انس وجا رسولهم يطلب
قسمة مطران فسمع القس داوود بذلك فحمل
للملك العادل مايتى دينار على انه يأمر البطرك ان
يقسمه مطران للحبشة فسير السلطان رسول
للبطرك يامره ان يقسمه للحبشة فقال البطرك
لرسول السلطان قول لمولانا السلطان ان هذا ما

ليعود سريعاً إلى دمشق [١]. ولهذا انتظر السلطان برقوق فى حلب حتى عاد إليه يلبغا الناصرى يعلن فشله فى مهمته فقبض عليه وعلى أمير أخورة ورأس نوبته، كما قبض على نائب حماه وسجن الجميع بقلعة حلب ثم أمر بهم فقتلوا فى ذى القعدة سنة ٧٩٣ (نوفمبر سنة ١٣٩١م) [٢].

والواقع أن قضاء السلطان برقوق على يلبغا الناصرى يمثل خطوة كبيرة نحو تأمين السلطنة الجديدة من العناصر المناوئة، ولو لم يكن أكثر اليلبغاوية قتلوا فى هذه المعارك، لما أقدم السلطان برقوق على هذا العمل وقتذاك، والحقيقة أن السلطان برقوق صبر كثيراً على يلبغا الناصرى مع أنه تسبب فى كثير من الفتن منذ أن وصل إلى منصب الإمارة [٣] ثم أنه لما لم يعد لمنطاش أو للبقية الباقية من الترك الأشرفية قيمة تذكر بعد أن قتل أكثرهم فى هذه الحروب، قرر السلطان برقوق العودة إلى القاهرة ريثما تتاح له الظروف للقبض على منطاش.

وفى ١٧ من المحرم سنة ٧٩٤هـ ـ يناير سنة ١٣٩٢م وصل السلطان برقوق إلى القاهرة التى استقبلته استقبالا رائعاً إذ «تلقاه المسلمون بالختمات الشريفة واليهود بالتوراة والنصارى

(١) ابن دقماق : الجوهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١٦ب.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ ورقة ٤٣٦.

يصلح لان امانته بالله فاسدة لانه يقول فى الله ما تقوله الروم فان مضى الى بلاد الحبشة افسدهم جعلهم روم ويخرجو عن طاعتى وطاعة السلطان وربما حملهم على محاربة المسلمين الذين هم مجاوريهم(*) فى البلاد ويسفك بينهم دما كثير ويكون ذالك فى ذمة السلطان وانا وشعبى براآمنه. فعاد الرسول الى السلطان واعلمه بما قاله البطرك فلم يكلفه ولاجبره على قسمته. وابطل الله امره

(*) هذا سبب من اسباب تمسك الحكام المسلمين فى مصر بالكنيسة المصرية، باعتبارها أحد مصادر قوتهم فى الحكم. ولعل تبعية الكنيسة الحبشية للكنيسة المصرية كان من أهم اسباب استقرار احوال مصر الجنوبية. ولقد سعت بيزنطه وروما والبرتغال وانجلترا للوقيعة بين الكنيسة المصرية واقباط الحبشة حتى يمكنهم الإنفراد بنفوذ خاص لدى ملوك الحبشة. وهذا

بالأناجيل والشموع الموقدة. وفرش له الطريق بشقق الحرير الأطلس [1] واصطف الناس لرؤيته إلى أن طلع القلعة فى موكب جليل إلى الغاية [2]».

واعتقد السلطان برقوق أن أول واجباته بعد التخلص من الناصرى هو تطهير البلاد من بقايا المماليك الترك أو ممن يميلون إليهم، فخلع الأمير استدمر الأشرفى من ولايته فى نقابة الجيش لأنه تزوج من بنت السلطان حسن بن الناصر محمد وولى مكانه واحداً من مماليكه[3]. ثم قام بموجة من الإرهاب قبض فيها على عدد آخر من الترك وقتلهم، وشغل مناصبهم بمماليكه من الجراكسة [4]، وخصهم بالإقطاعات الكثيرة. ومن هؤلاء الذين ارتقوا فى هذه الحركة ايتمش البجاسى الذى أصبح رأس نوبة الأمراء. ثم إن السلطان برقوق لم يطمئن على أحوال سورية حتى عين مملوكة الأمير تنبك الحسنى الظاهرى المعروف بتنم نائباً لدمشق، بعد أن توالى عليها نواب من الترك اليلبغاوية [5]

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٢٩٥.
(٢) ا بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٥.
(٣) المرجع السابق والجزء ص ٣٠٩.
(٤) المرجع السابق والجزء ص ٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣٨.

ما جعل الحكام المسلمين فى مصر يخطبون ودّ الاقباط المصريين فى بعض الاحيان.

وشاع عليه ما حمله. وقالو قوم ان السلطان رده عليه بسوال نشو الخلافة ومساعدة فخر الدين عثمان، وللوقت اقسم البطرك مطران غيره للحبشة وسيره مع رسول الملك اليهم فلما تنيح الاب البطرك انبا يوانس اراد نشو الخلافة ابو الفتوح ابن ميقاظ ان يساعد القس داوود عند السلطان والشعب وان يقسمه بطركا وشرع فى ذالك واجتمع بجماعة من الكتاب المصريين

غير أن الأحوال فى سورية عادت إلى الاضطراب فى شعبان سنة ٧٩٤هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩٢م ـ بسبب عودة منطاش إلى مزاولة نشاطه المعادى للسلطنة المملوكية الثانية وتمثل نشاطه ـ بعد أن اتفق مع نعير بن حيار الذى حنث بعهده الأخير مع السلطان، مع ابن بزدغان التركمانى وهاجم الجميع سلمية. غير أن الأمير العربى محمد بن قاراً ـ الذى عين أميراً على آل فضل بدلا من نعير ـ استطاع بمعاونة التركمان الموالين للسلطنة المملوكية الثانية رد منطاش والحاق الأذى به، كما قتل ابن بزدغان واستحق ابن قارا خلعة السلطان وشكره وثناءه على جهوده فى خدمة السلطنة المملوكية الثانية [١]. وكما فشل هجوم منطاش على سلمية فى شعبان سنة ٧٩٤هـ ـ أغسطس سنة ١٣٩٢م، فشل هجومه بالاشتراك مع نعير على حماة فى الشهر التالى بسبب مقاومة نائبها الأمير اقبغا الصغير. وحين تحول منطاش لمهاجمة حلب لقنه أهلها درساً قاسياً، فاضطر إلى الفرار إلى العراق [٢].

على أن خاتمة هذا الصراع جاءت فى ٣ من رمضان سنة ٧٩٥هـ ـ سبتمبر سنة ١٣٩٣م على يد الأمير جليان الكمشبغاوى الجركسى نائب حلب [٣] الذى استطاع الاتفاق

(١) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٣٣٢.

(٢) الخطيب : نزهه النفوس والأبدان ورقة ٤٠ب.

(3) Sauvaget, J: Noms et Surnoms Des Mamlouks, J. R. A. S. p. 47. Pais 1950.

وغيرهم فى ان يقيمو القس داوود عليهم بطركا فوافقه منهم اليسير وخالفه الكثير ولم يقدر ان يجمعهم الكل على الرضا به ولاعلى راى واحد فيه، فانفذ رسله الى كراسى الابا الاساقفة بالوجه البحرى والى اسقف طمبدى [مركز مغاغه] بالوجه القبلى وكان خيرا عالما فاجتمع منهم سبعة اساقفة فاضافهم واكرمهم واوهبهم وطلب منهم ان يكتبو خطوطهم فى مسطور عمله له بانه يصلح بطركا وكان فيهم اسقفين احدهم اسمه

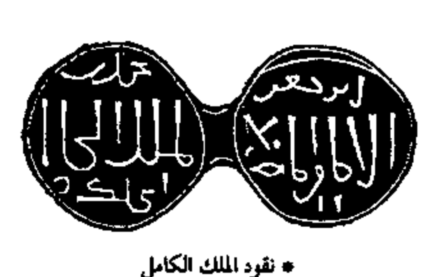
مع نعير بن حيار على أن يسلم له منطاش الذى عاد من العراق واحتمى بنعير، وذلك مقابل إعادة اعتراف السلطان بإمرته على آل فضل. وأرسل الأمير جلبان شاد شربخانه فى خمسة عشر مملوكاً، وندب نعير أحد عبيده إلى منطاش الذى ركب فرسه وحاول الهرب غير أن العبد قبض على عنان فرسه وأنزله بمعاونة عبد آخر وحاول منطاش الانتحار بسكين كانت معه لولا أن منعه العبد، وأودع منطاش سجن حلب انتظاراً لأمر السلطان [١].

وحين بلغ السلطان النبأ سر له سروراً عظيماً، وأنعم على جلبان بخمسة آلاف درهم وخلع عليه «فوقانيا بطرز ذهب مزركش» ورسم السلطان إلى سائر الأمراء أن يوافوا الأمير جلبان بالخلع، ودقت البشائر لهذا الخبر بمصر وزينت القاهرة فى اليوم التالى زينة عظيمة، ثم أرسل السلطان إلى حلب لإحضار منطاش ، وأوصى رسوله أن يعذبه حتى يحضر أمواله، غير أن منطاش لم يعترف بشئ، فذبحه الرسول وحمل رأسه على رمح وطاف به مدينة حلب، ثم أخذه وعاد به إلى القاهر، وبعد أن طاف به شوارعها علق الرأس على باب القلعة، ثم نقل ليعلق أياما أخرى على باب زويلة [٢].

وهكذا استطاع السلطان برقوق بفضل حرب الإبادة التى أثارها على الترك إزالة أهم عقبة

(١) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام ورقة ٩١.
(٢) ابن دقماق: الجوهر الثمين المجلد الثانى ورقة ١١٨أ.

هديه اسقف دميره والبرمون والآخر اسمه اصطفن اسقف البنوان (مركز ميت غمر). دفع القس داوود له شى فكانا يقفا للسلطان اذا ركب يطلبوا منه ان يقسم لهم داوود بطرك، ويقولوا للسلطان قدكتبو له الاساقفة خطوطهم وجماعة الشعب انه يصلح بطركا وكان من سابق تدبير الله ما قدمت ذكره من امر حبيس ابيار مع الملك الكامل فلما سمعهم الملك الكامل يطلبو لهم بطركا قال لهم



* نقود الملك الكامل

اعترضته في سبيل توطيد دعائم دولته حتى إنه لم يعد يسمع بعد هذا عن محاولات الترك إثارة الفتن ضد السلطنة المملوكية الثانية [١].

غير أنه ينبغى أن يكون مفهوماً أن كل هذه الفتن لم تكن موجهة ضد شخص السلطان برقوق فحسب، بل ضد الجراكسة كذلك، بدليل أنه حين وقع مملوك جركسى من جيش برقوق فى أيدى الترك فإنهم جردوه من ملابسه، ألقوه فى السجن، والعكس حين وقع فى أيديهم مملوك تركى من جيش برقوق فإنهم اكتفوا بأخذ مامعه وأطلقوا سراحه [٢].

ومن المشكلات الداخلية التى واجهها السلطان برقوق ما هو معروف باسم ثورات العربان[٣]، فمع أن البدو اشتغلوا بأعمال شبه زراعية وشابهوا الفلاحين إلى حد ما فإن مركزهم الاجتماعى كان أعلى مستوى من مركز الفلاحين، نظراً لأنهم كانوا يشتركون فى الجيش المملوكى بكتائب احتياطية، كما كان أمراؤهم مسئولين عن حفظ النظام والأمن فى البلاد والقرى مقابل حصولهم على إقطاعات وإعفاءات معينة [٤]. وكانت العادة المملوكية

(١) راجع ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام المجلد الثانى ورقة ١٠٤ وما بعدها.

(٢) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٦٤.

(3) Piloti : I' Egypte An Commencement Du XV siecle, pp. 18 ` 19.

(4) Poliak : Les Revoltes Populaires PP. 256 ` 257.

انا آمر ان يكون حبيس ابيار بطرككم وانا ارضاه
لكم وكتب للوقت كتاب الى شمس الدين.....
ولوالى الغربية بان يمضى الى ابيار وينزل بالحبيس
من صومعته ويسيره الى القاهرة فانزله من
صومعته وسيره الى القاهرة فلما سمع نشو الخلافة
ابو الفتوح ذالك اتفق مع الامير فخر الدين عثمان
وزير الملك الكامل ان يقولو عنه للسلطان انه يسال
مولانا السلطان ان لايزعجوه ولاينزلوه من صو

- -

القديمة أن يعين السلطان على كل قبيلة من قبائل العربان أميراً منهم ويكتب له تقليداً سلطانيا بذلك ، ويلبس الأمير المعين «تشريفا أطلس» أسوة بأقرانه فى الترتيب الإقطاعى [١].

وفى سلطنة برقوق الثانية اتخذت تمردات العربان فى مصر صورة عصيان وامتناع عن الإسهام فى جباية الخراج . أما عربان الشام فإنهم شاركوا أعداء السلطان فى صراعهم ضده. ورغم أن السلطان برقوق قام منذ أوائل سلطنته بنقل عرب هوارة من البحيرة إلى بعض بلاد الصعيد [٢]، فإنهم لم يكفوا عن العصيان، بل انتشروا فى أرجاء الوجه القبلى وامتد عصيانهم حتى نواحى أسوان وأذعنت لهم سائر العربان وصاروا طوع قيادهم [٣]، وأدى ذلك بالسلطان برقوق إلى تعيين نائب قوى للوجه القبلى لمراقبة حركاتهم وقمعها وهو الأمير قطلوبغا الطشتمرى.

على أن أهم تمردات العربان التى هددت دولة المماليك الثانية هى تمرد الشريف جمال الدين محمود العنابى [٤] سنة ٧٩٦هـ ـ ١٣٩٤م ـ أى فى السنة الثانية عشرة لحكم

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٢٠٥.
(٢) المقريزى: البيان والإعراب ص ٦٠.
(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٦٩.
(٤) حضر الشريف جمال الدين محمود العنابى مع السلطان برقوق من الشام بعد فراره من سجنه=

معته فانفذو رسل ردوه بعد ان وصل الى قليوب
ففرحو اهل ابيار برجوعه لهم وطلعو به الى
صومعته فسمع بخبره رجل نصراني يعقوبي من
اهل القاهرة يعرف بالاسعد ابن صدقة ضامن دار
التفاح فغار لله كما غار فنحاس واخذ معه جماعة
من الناس ووقف للسلطان وعاند نشو الخلافة ابو
الفتوح في قسمة داوود وجعل عمدته [وجهته]
الملك الكامل وقال له عن داوود انه يصانع بالمال

السلطان برقوق بالاشتراك مع موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد الضاربين حول الكرك بجنوب فلسطين [(١)].

وسبب هذا التمرد أن الشريف جمال الدين محمود العنابى أرسل كتاباً إلى موسى ابن محمد المشار إليه يطلب منه أن يسمح لعربانه بالنزول قريباً من القاهرة، ليتمكن بوساطتهم من الاستيلاء على عرش الدولة المملوكية الثانية بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لحرب تيمورلنك، وجاء فى الكتاب أن الشريف العنابى اتفق من أجل ذلك مع عربان البحيرة والصعيد على الثورة ضد نواب السلطان برقوق وكشافه فى أنحاء البلاد المصرية وقتلهم ونهب البلاد، فإذا نجحت الخطة تولى الشريف العنابى الخلافة على أن يعهد بالسلطنة بعد نجاح هذه المؤامرة إلى شخصية يجمع عليها المشتركون فى الخطة.

غير أن كتاب الشريف جمال الدين محمود العنابى وقع فى يد على بن الطبلاوى والى

=بالكرك، وأفضى هذا الشريف إلى السلطان بأسرار صحت عنده فيما بعد حتى قدمه على كثير من رجال دولته، ورتب له فى كل شهر ألف درهم.
راجع ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ٩ ص ٣٧٦.

(١) كان الأمير موسى بن محمد بن عيسى شيخ عرب العايد مسجوناً قبل ذلك بخزانة شمايل بالقاهرة هو وأقاربه واخوته لأمور نقمها عليه السلطان برقوق ثم أفرج عنه.
راجع نفس المصدر والجزء والصفحة.

حـتى يتـقـدم علينا ومـا نرضـاه وقـد دفع للملك العـادل مـالا كـثيـر حـتى يامـر البطرك ان يجـعله مطران[و] مــا صـلح يحل الله لك تجـعله علينا بطرك يفسـد ديانتنا ويجـعل قبط ديار مـصـركلهم روم ويخـرجـهـا من ايدى المسلمين. فـانفـذ الملك الكامل الى والى مصر يقول له ان انت مكنت ابو الفـتـوح واصـحـابه يقيـمو لهم بطرك بغيـر امرى شنقـتك. وبعـد ايام قليل خـرج الملك العـادل الى

القاهرة وقتذاك، فأبلغ المؤامرة إلى السلطان برقوق [١] وأسرع برقوق بالقبض على الشريف جمال الدين العنابى وشريكه وعذبهما ليقرا على من اشترك معهما في المؤامرة، فلم يعترفا بشئ سوى أنهما استعانا بطائفة من مماليك بركة الترك.

والخلاصة أن السلطان برقوق تخلص من هذه المؤامرة بأن ترك الشريف جمال الدين محمود العنابى وشريكه يقضيان نحبهما فى العذاب الأليم [٢].

غير أن السلطان برقوق لم يطمئن على أحواله الداخلية فقبض على خمسمائة من العربان بنواحى ببا، واستولى على نحو خمسين من جيادهم، كما قبل فى نفس الوقت عقد الصلح مع نعير بن حيار أمير آل فضل بالشام بعد أن جاء نعير إلى القاهرة سنة ٧٩٧هـ ودخل عند السلطان وفى رقبته منديل، فخلع عليه السلطان برقوق وأبقاه فى إمرته [٣].

ثم عاد عرب هواره يهددون السلطان برقوق فى ربيع الآخر سنة ٧٨٩هـ ـ مارس سنة ١٣٩٦م ـ حين أرسل إليه على بن غريب أمير عرب هواره بمنع القود السنوى من العربان والخيل، وأرسل إليه السلطان برقوق الأمير نوروز الحافظى رأس نوبة، فقبض نوروز على على

(١) العسقلانى : إنباء الغمر جـ١ ص ٣٦٦.
(٢) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام جـ٢ ورقة ١٠٠.
(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٨٤.

اسكندرية فاستاذنه ابو الفتوح فى قسمة داوود
فقال له اجعله بطرك والحقنى الى الاسكندرية
ولاتبطى فلما سمع القس داوود بذالك عمل
عكازين احدهما عليه صليب وموشى بذهب
والاخر موشا بخيوط فضة، وفصل ثياب وغفافير
حرير وهيآ ما يحتاجه لقسمته واخذه ابو الفتوح
مع الاساقفة وطلع الى مصر الى [كنيسة] المعلقة
يقسمه بطركا فاتصل خبره بوالى مصر فركب

بن غريب وأولاده وإخوته وأقاربه ونحو أربعة وثلاثين من أكابر عربانه، فأمر السلطان بسجنهم [1]. بيد أن عرب هواره حين سمعوا بهذا ثاروا وقتلوا الأمير قطلوبغا الطشتمرى نائب الوجه القبلى ، ثم اتجهوا إلى أسوان واضطروا واليها إلى الفرار إلى بلاد النوبة بعد أن نهبوا بيته والمدينة، وإزاء هذا ولى السلطان برقوق عمر بن إلياس النيابة بالوجه القبلى بالإضافة إلى وظيفته في ولاية منفلوط، وأمره بالتوجه إلى أسوان، ولكن عمر لم يتمكن من القبض على الشوار [2].وظل العربان يناصبون السلطان برقوق العداء حتى استطاع إقماعهم سنة ٨٠١هـ ـ سنة ١٣٩٩م بعد أن جرد لهم تجريدة بقيادة ستة مقدمين [3].

ويبدو أن خوف السلطان برقوق من قيام سلطان عربى دفعه إلى استخدام العرب بالجيش[4]. ودليل هذا ماذكر عن استعانة برقوق بعرب هواره سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م[5]، وما قدمه العرب من معونة للسلطنة المملوكية الثانية في صد غارات تيمورلنك،

---

(١) ابن دقماق: الجوهر الثمين ، المجلد الثاني ورقه ١٢٣أ.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤٩ب.
(٣) المقريزى : السلوك جـ٣ (النسخة المصورة بالجامعة العربية) راجع حوادث سنة ٨٠١هـ.
(4)Paliak ; op . cit. p. 260.
(٥) راجع ماسبق بالفصل الثالث ص ٩٢ ـ ٩٣.

ومعه جماعة من اجناده واعوانه وجا الى كنيسة المعلقة ونزل بهم انجس نزول واخرق بهم و هرب داوود وخرجو الاساقفة من الكنيسة هاجين على رووسهم من مصر الى كراسيهم وبطل امر داوود الي يوم تسطيرة هذه السيرة على ما تقدم من التاريخ وكهنة كل مكان يدبروه ولم يرجع نشو الخلافة يتحدث في امر داوود ولاغيره. ونعود الى تمام سيرة الملك العادل ابو بكر ابن ايوب ملك

حيث أسهم عرب البحيرة بستة آلاف فارس، وعرب الشرقية بألفين وخمسمائة، وأسهمت باقى القبائل بنحو ألف وخمسمائة فارس [١].

وليس من شك فى أن قوة السلطان برقوق وتتبعه لكل حركة من حركات العربان وضع حدا لهذه الثورات حتى تكاد تخلو السنوات الأخيرة من حكمه من الثورة أو العصيان.

ويمكن القول إن السلطان برقوق تمكن من تثبيت دعائم دولة المماليك الثانية بعد أن قضى على العصبية التركية، وحد من نفوذ العرب وواجه كل هذه الحروب والفتن فى شجاعة وقوة.

على أن هذه الحروب والفتن لم تشغل السلطان برقوق من القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية التى صار لها أكبر الأثر فى تدعيم كيان دولته، ومن هذه الإصلاحات إبطال الكثير من المكوس التى كانت عبئاً كبيراً على الناس [٢]. ثم إنه أقام جسراً على النيل بين جزيرة أروى (الزمالك) وجزيرة الروضة من طرفها البحرى، هذا الجسر الذى عجز عن إقامته كثير من السلاطين السابقين. وسبب إقامة هذا الجسر أن ماء النيل ابتعد عن الضفة الشرقية من تجاه القاهرة نتيجة الجسور الضعيفة التى أقامها السلاطين السابقون على الضفة الشرقية، وحتى

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ١٢ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.
(٢) راجع ما سبق بالفصل الثانى ص ٥٦.

ديار مصر وما معها، ولما كان يو م الاثنين النصف من جمادى الاخر سنة اربع عشر وستماية تواصلت له االاخبار ان ملك من ملوك الفرنج يقال له الهنكر (*) من جزيرت برشيلية وصل الى عكا فى ماية وستين بطسةو طريدة وانه نزل في مرج عكا واعرض عسكره وكان عدته اربعة الف فارس وتسعين الف راجل فجمع الملك العادل عساكره وسار في مصر ونزل على نابلس ونزل قريب من

(*) الهنكر: لعله الملك اندرو الثانى ملك المجر الذى وصل عكا فى سبتمبر ١٢١٧م.

تقترب مياه النيل من هذه الضفة بدلا من ابتعادها ناحية الضفة الغربية، أى ناحية الجيزة ، مما سبب متاعب كثيرة للناس فى حصولهم على الماء أو ركوبهم المراكب. وعهد السلطان برقوق بإقامة هذا الجسر إلى الأمير جهاركس (جركس) الخليلى، أحد قواده المخلصين [(١)]. وأنشأ السلطان برقوق جسراً على ضفة نهر الأردن بالغور طوله مائة وعشرون ذراعاً فى عرض عشرين، وأصلح خزائن السلاح بثغر الاسكندرية، وسور مدينة دمنهور ليقيها من هجمات البدو. وعمر الجبال الشرقية بالفيوم بالناس ليقيها من هجمات البدو، كما عمر زاوية البرزخ بدمياط [(٢)]، وقناة العروب بالقدس، وبنى بركة بطريق الحجاز إلى الحج. وجدد السلطان برقوق القناة التى تحمل ماء النيل إلى قلعة الجبل، وأصلح الميدان تحت القلعة، وزرع به بعض النباتات، وبنى صهريجاً للماء، ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفاً، كما أقام طاحونة بالقلعة وسبيلا تجاه باب بيت الضيافة وأمام القلعة [(٣)]، ثم إنه اهتم بإصلاح قلاع سورية وخاصة قلعة دمشق التى أهملها السلاطين طوال القرن الثامن الهجرى، وصار لهذا الإصلاح أكبر الأثر فى مقاومة هجمات الأعداء من التتار فيما

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار ص ٢٦٩ جـ٢ ـ المقصود بالجسور هنا الطرق المرتفعة على جانبى النهر وفروعه لحفظ البلاد من أخطار الفيضان ـ راجع كذلك ابن مماتى: قوانين الدواوين ص ١٦ ـ ١٧.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١١٣ ـ ١١٤.
(٣) نفس المصدر والجزء ص ١١٥.

الافرنج، واقام ايام فى نابلس حتى كمل عسكره
وســار الى عكا ونزل على الطور [طابور] فى
مستهل رجب سنة تاريخة ثم وصلت الى عكا
بطس وطرايد اخر من ملوك اخر حتى امتلأ مرج
عكا ونزلو فيه بالخيم حتى ضاق بهم المرج وسمع
الملك العادل انهم يريدو يكبسوه فى الليل فرحل
من الطور ونزل على انهار بيسان عند عين جالوت
لكثرت الما هناك وكان عسكره نازل نابلس الى

بعـد[1].ثم إن السلطان برقوق اهتم بالصوفية من أهل جنسه إذ افتتح مدرسته التى بناها بين القصرين فى أثناء سلطنته الأولى فى احتفال عظيم، وأوقف عليها الاوقاف الجليلة واستقدم لها عدداً من العلماء من كثير من أنحاء العالم الإسلامى [٢]، ورتب لها صوفية بعد العصر كل يوم، وجعل بها سبعة دروس قام بتدريسها علماء على المذاهب الأربعة، ثم جعل بها درساً للتفسير ، ودرساً للحديث ، وآخر للقراءات وأجرى على جميع مدرسيها وطلابها، الذين جمعهم من بنى جنسه، فى كل يوم الخبز واللحم، ورتب لهم مخصصات شهرية من الحلوى والزيت والصابون والدراهم والملابس والخدم، ووقف على ذلك الأوقاف الجليلة من الأراضى والدور ونحوها [٣].

وفى شوال سنه ٨٠١هـ ـ يونية سنة ١٣٩٩م ـ مرض السلطان برقوق مرض الموت. وحين شعر بدنو أجله فى ١٤ من شوال، وخشى أن ينهار هذا البناء الذى كافح من أجله طويلا، فكر فى أن يعهد إلى أولاده بالحكم من بعده، ولذا استدعى الخليفة المتوكل، والأمير ايتمش، وقاضى القضاة، وسائر الأمراء، وأجلس الخليفة عند رأسه، والقضاة الأربعة بين يديه،

(1) Ziadeh : Urban life, p. 85.

(٢) راجع السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١١٣.

قـصر معين الدين عند قنطرة اسامـة. وانفـذ ملك الهنكر يطلـب من السلطان المصـاف وقـال الملك لرسوله قول له اذا خرج من عكا الى برآ عنها فانا اصافيه فاعاد ر سوله عليه ما قاله السلطان فسار من يومـه فلمـا قـرب من عـسكر المسلمين راى السلطان ما هاله من كثرت الفرسان والرجاله لان ملك الهنكر وملك عكا وصاحب جبلة وطرابلس ومن كـان قـد بقى فى السـاحل من الملوك اتفـقـو

وأوعز إلى الخليفة والقضاة أن يحلفوا الأمراء على عهده بالسلطنة لأولاده من بعده، وهم فرج وعبدالعزيز وإبراهيم على التوالى، وأن من يتولى السلطنة منهم لا يخالفه أحد، وأن يستمر جميع الأمراء فى وظائفهم حسب ترتيبه، وأن يكون ايتمش أتابكاً لصغر سن فرج. وفى ليلة الجمعة ١٥ من شوال سنة ٨٠١ هـ ـ ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩م توفى السلطان برقوق بعد أن جاوز من العمر ستين سنة (١).

ومن الإنصاف أن نذكر طرفاً عن شخصية السلطان برقوق. ذلك الرجل الذى امتاز بهذه العقلية الفذة فى وسط مملوكى طغى عليه الضعف والجهل فى آن واحد. تحدث عنه العينى بأنه «كان حسن القامة، عريض الكتفين، فصيح اللسان، ذكى الفهم، عالماً بألوان الفروسية، ذا أدب وحشمة ووقار ومعرفة وتدبير حسن، وكان على درجة كبيرة من العقل والرزانة والصبر والتحمل...... لم يشتهر بشرب الخمر إلا أنه كان يشرب القمز ومشروباً يسمونه التمر بغاوى فى يومى الأحد والأربعاء مع الأمراء (٢)». وامتدحه الخطيب بأنه «كان كثير الإحسان للمحتاجين محبا لأهل العلم والخير والدين، متواضعاً معهم، ولم يعرف لأحد من السلاطين

(١) ابن تغرى النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٠٤.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٢ ، ٦٣ ـ القمز عبارة عن لبن مصنوع محمض وكان القمز يسكر راجع ابن إياس جـ١ ص ٢٦٩ ـ أما التمر بغاوى : فهو شراب صنعه الأمير تمربغا سنة ٧٩٧هـ من الزبيب أعجب به السلطان برقوق وسمى التمربغاوى: راجع الخطيب : نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٤٦.

وحلفو لبعضهم بعض كلمة واحدة ان لايخون
احد منهم صاحبه وصارو بقلب واحد لحرب
المسلمين فلما علم الملك العادل ذالك رحل من
على بيسان نزل عقبة فيق فكلمن لحقه من
عسكره مسلم فوقعو الافرنج على سوق
[مخيمات] العسكر ومن لحقوه فنهبوه وقتلو خلق
كثير واخذو الخيم والدواب وكلما كان في المنزلة
ونزلو تحت عقبة فيق في منزلة السلطان ـ وذكر

قبله هذه الصفات» (١). والخلاصة أن السلطان برقوق لم يشتغل باللهو والطرب كما فعل السلاطين الأواخر فى دولة المماليك الأولى، ولكن يؤخذ عليه كثرة مصادراته للدواوين والولاة والكشاف والوزراء وأرباب الوظائف من أجل تدبير أمور مملكته (٢)، ومع أنه حاول وقف تيار الرشوة. فى بداية سلطنته فى الوظائف المختلفة فإنه فشل (٣) كما فشل فى إيقاف تيار غش النقود (٤)، مما كان له أكبر الأثر فى الأحوال الاقتصادية وقتذاك.

وإذ حاول السلطان برقوق أن يؤكد مبدأ وراثة العرش الذى عرف فى بيت قلاون، فإن هذا المبدأ لم يعترف به الأمراء الجراكسة فيما بعد (٥). حقيقة لم يكن فى وسع أحد من مماليك السلطان برقوق أن يعارض فى تنفيذ وصيته لفضله عليهم، فسلطنوا ابنه فرج فى ١٥ من شوال سنة ٨٠١هـ ـ ٢٠ من يونيه سنة ١٣٩٩م ولقبوه بالناصر، وجعلوا أيتمش أتابكاً له، ولكن سرعان ما ناصب الخاصكية ـ بزعامة الأمير يشبك الخازندار ـ الأمراء الناصرين لأيتمش من التنافس على النفوذ ما دام السلطان طفلاً. وما زال الخاصكية بالسلطان حتى طلب من

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٢٢ب.
(٢) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٤.
(٣) المقريزى: المقفى الكبير جـ٣ ورقة ٢٨.
(٤) الأسدى: كتاب التيسير والاعتبار ورقة ٤٣.

(5) Devonshire: l' Egypte Musulmane p. 93.

من اخبر ان الملك العادل انفذ رسل الى اولاد اخوه صلاح الدين وغيرهم من ملوك المسلمين ان يجو اليه بعساكرهم ويساعدوه على الافرنج فلم يجيه واحد فتوجه الى دمشق ونزل فى مرج السعار [الصفر] وخلا مع ابنه الملك المعظم الفى فارس مع جماعة من الامرآ نازلين على القدس يحفظوه وفى يوم السبت النصف من شهر رمضان وصل كتاب جلدك والى دمياط كان يخبر فيه ان ملوك الافرنج قالو للميبازنه(*) والجنويين انتم الطور [جبل

(*) الميبازنه: يقصد هنا أهل مدينة بيزا بالساحل الغربى لإيطاليا، أما الجنويين فهم أهل مدينة جنوة.

أيتمش أن يرشده. كما نجحوا فى طرد أيتمش من القلعة فسكن خارجها. غير أن نجاح الخاصكية فى إبعاد أيتمش تبعه قيام صراع بين حزب أيتمش الذى لم يرض أفراده بهذا التشريد، وبين حزب يشبك الخازندار الذى استحوذ على النفوذ [1]. وانتهى الصراع بانتصار حزب يشبك الخازندار سنة ٨٠٢ هـ سنة ١٤٠٠م [2].

وما لبث أن انضم حزب يشبك إلى الحزب الثائر على فرج فى سورية. واجتمعت فى سورية الفئات المملوكية الثائرة على فرج بزعامة الأمير جكم نائب دمشق، وشيخ المحمودى نائب طرابلس،ويشبك الخازندار، ومع أن جميعهم من مشتروات السلطان برقوق الجراكسة، اتفق الثلاثة على الاستقلال بحكم سورية، ومنع الدعاء للسلطان فرج على منابر دمشق والاكتفاء بذكر اسم الخليفة، والتقدم إلى القاهرة لخلع فرج [3]. وظل فرج عاجزا عن إقماعهم حتى تقدم هؤلاء الثوار فى ذى الحجة سنة ٨٠٧ هـ لحصار القلعة. ولم ينقذ فرج سوى انقسام الثوار على أنفسهم، فتمكن جيشه من هزيمتهم، ففروا إلى سورية ولكنهم عادوا فى ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ فبراير سنة ١٤٠٥م، واشتركوا فى خلع فرج الذى اختفى فى

---

(١) المقريزى: السلوك (النسخة المصورة) جـ٣ ورقة ١٣.
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦١ ، ١٦٦.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

طابور] لكم امضو وقاتلوه وخذوه فخرجو من عند الافرنج اربعة الف رجل لانه حصن على جبل عال لايقدر فارس يصل اليه وكان معهم عرب من بنى عقبة المخالفين مع الفرنج وكانو يقاتلو معهم المسلمين فجا اليهم الملك المعظم ومعه الفى فارس وكانو قد صعدو الى الطور ونقبو القلعة واشرفو على اخذها فادركهم الليل فانفذ الملك المعظم الى العرب بنى عقبة فافسدهم على الفرنج وحلف لهم

بيت صديق له أذاع للناس أنه قضى عليه.. ولم تكن هناك أمام الثوار فرصة لترشيح أحدهم للسلطنة دون أن يحدث بينهم صراع دموى عنيف، ولذا اكتفوا مؤقتاً بسلطنة أخيه عبدالعزيز[1]. غير أن عبدالعزيز لم يستمر في السلطنة طويلا، إذ ظهر فرج فجأة ودخل بحزبه القلعة من باب خلفي وخلع أخاه وسجنه ، وأعاد نفسه إلى السلطنة بعد أن بقى مختفيا تسعة وستين يوماً، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٨٠٨هـ ـ أبريل سنة ١٤٠٥م. واستمر فرج في السلطنة حتى ١٥ من المحرم سنة ٨١٥هـ ـ يناير سنة ١٤١٢م [2]. ولم يكن معنى هذا أن الأمراء أجمعوا على بقاء فرج طول هذه المدة في السلطنة ، أو اعترفوا بضرورة بقاء السلطنة في بيت برقوق، ولكنهم ظلوا طوال هذه المدة ينازعون السلطان فرج . وشغلهم عن خلعه عاملان: أولهما إعداد الجيوش لصد هجوم التتر وغيرهم من أعداء دولة المماليك الثانية، وثانيهما أن شخصية السلطان برقوق كمؤسس لدولة جديدة قوامها عنصرهم ظلت مدة طويلة ذات أثر في أذهان مماليكه فلم يفكر أحد منهم في خلع السلطان فرج دون أن يعرض نفسه لمنافس خطير من حزب آخر، حتى إذا انمحت شخصية السلطان برقوق من نفوس مماليكه خلع شيخ المحمودى نائب دمشق السلطان فرج وقتله، وسلطن الخليفة المستعين

(١) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٦٨٨.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٦٩٠.

انه يدفع لهم مـالا قـرره مـعـهـم ويقطعـهـم بلاد
وحلف لهم على ذالك وقال لهم ما يحل لكم من
الله سـفك دمـا المسلمين بيـد الكفـار فى شـهـر
رمضـان فاطاعـوه وحلفو لرسـوله انهم لايقـاتلو مع
الفـرنج ولايكونو مـعـهـم على المسلمين. وقـالو له
الفـرنج ينامـو بالليل [فكبـسـهم] نصف الليل،
فتخلو عنهم العرب فانتصر عليهم وقتل اكثرهم
وسلم ونزل على الطور وقـواه بالعـدد والمال

فى ٢٠ من المحـرم سنة ٨١٥هـ [١]. وجعل الأمير شيخ المحمودى هذه الخطوة وسيلة لاغتصاب السلطنة لنفسه [٢]. ولكن محاولته سنة ٨٢٣هـ لإبقاء السلطنة فى بيته فشلت بدورها كما فشلت محاولات السلاطين ططر سنة ٨٢٤ هـ سنة ١٤٢١م. وبرسباى سنة ٨٢٥هـ ـ ٨٤١هـ وجقمق سنة ٨٤٢هـ ـ سنة ٨٥٧هـ وإينال سنة ٨٥٧هـ ـ سنة ٨٦٥ هـ فى تولية ابن كل منهم السلطنة بعده، ولم يستمر حكم الواحد منهم أكثر من شهور أو أيام، ومرجع هذا كثرة أحزاب المماليك بسبب توالى السلاطين فى دست الحكم وإفساح السلطان الجديد لمشترواته للظفر بالقوة والسلطة، فضلا عن الإكثار عن عددهم مما أوجد نوعاً من الصراع المستمر بين هؤلاء المشتروات والقرانيص وأصبح من العسير على المماليك أن ينقلوا و لاءهم من سلطان إلى آخر [٣]، وصارت السلطنة مجالاً للصراع بين أكثر الأمراء هيبة أو أبرزهم شخصية.

وهكذا صار المماليك فى دولة المماليك الثانية ينتخبون للسلطنة أوفرهم حظا من الكفاية

(١) العينى: السيف المهند ص ١٩٢.
(٢) ا لهيثمى : إتحاف إخوان الصفا ورقة ٣٢أ.
Demombynes : La Syrie Al'Epoque Des Mamlouks; intr. p XXV.
(٣) راجع العرينى: الفارس المملوكى ص ٦٧ ب.

والرجال. وفى مستهل جمادى الاول سنة تاريخه
ماتو الانفار فى جميع ديار مصر بامر الله وكانو
مطروحين موتا حول بلادهم الى [أن]. جافت
البلاد من روايحهم، وذكر قوما من العربان
والمسافرين ان ابقار الوحوش فى البرية ماتو وماتو
ابقار الجيش، وانا كاتب هذه السيره رايت موت
الابقار فى ديار مصر فى سنة اربع وخمسين
وخمس ماية للهجرة [١١٥٩م] قبل هذه الدفعة

والقوة والعنف والمقدرة، أو أكبرهم سنا فى بعض الأحيان، ولم يكن هؤلاء فى غالب الأحيان سوى الأوصياء أو أكثر الأمراء نفوذاً فى مصر أو سورية. ومنذ ذلك الحين تقلصت سلطات السلطان المطلقة، وانتهت شيئا بعد شئ إلى العدم وأصبح السلطان هو الأول بين أقرانه[١]. Primus Inter pares ، ذلك أن أحكامه وقراراته أمست خاضعة لتصديق مجلس للدولة قوامه الأوليجاركية العسكرية ممثلة فى زعماء المماليك المقدمين، وكان هؤلاء شديدى الغيرة على طبقتهم يبتغون أن يحتفظوا بها نقية صافية، فعهدوا فى تعزيز طبقتهم هذه بالعناصر الجديدة إلى عمال مخصوصين لإحضار المماليك من بلادهم الأصلية [٢]. والجراكسة على وجه الخصوص.

ومعنى هذا أن دولة المماليك الثانية أصطبغت بصبغة جديدة هى الصبغة الجركسية، وهى التى أصبحت أهم الصفات التى ميزت دولة المماليك الثانية عن دول المماليك الأولى، وكان السلطان برقوق هو البادئ بهذا الاتجاه، ذلك أنه منذ أن جلب والده وأقاربه سنة ى٧٨٢هـ ـ سنة ١٣٨٠م، وهو يوالى جلب الجراكسة من بلادهم وتشجيع التجار على جلبهم. من تجار

(1) Hitti : Hist. of the Arabs : P. 694.

(2) Brockelmann,C: Hist. of Islamic Peoples: P. 236.

وبعد تلك السنة بعشر ة سنين زالت دولة الخلفاء الفاطميين وملكو الغز [الاكراد] ارض مصر فى سنة اربع وستين وخمس مااية للهجرة [١١٦٩م] وعشت حتى رايتها في هذه الاخرى بعد ستين سنة. وتواصلت الاخبار ان ملك الافرنج لما رجع من الطور الى عكآ عبر على قرية من قرى الغور تسمى رحر النصار ة فيها خلق كثر نصارى ملكية وسريان ومسلمين كثير فخرجو للملك ولقيوه

السلطان برقوق الذين عاونوه فى هذه المهمة عثمان بن مسافر ومحمود شاه اليزدى [١]. وعلى حين بلغ عدد الجراكسة فى بداية سلطنة برقوق نحو ألفى مملوك، ارتفع هذا العدد فى نهاية حكمه إلى خمسة آلاف مملوك جركسى [٢]، من بين عدد مماليكه الذين قدرهم العينى بنحو عشرة آلاف مملوك [٣].

ويعتبر السلطان برقوق أول سلطان مملوكى اتجه هذا الاتجاه العنصرى. ووضح هذا التمييز العنصرى فى تقديم مماليكه الجراكسة على الترك والروم وما تبع هذا من إقطاعهم الإقطاعات الكبيرة وتوظيف شبابهم فى الوظائف الكبرى، حتى إنه كثيراً ما أعلن رأية صراحة فى قوله «هم أولاد عمى وعشيرتى» [٤] ولم تأت سنة ٨٠١هـ ١٣٩٩م حتى كان كل نواب سورية وأصحاب الوظائف بمصر من مماليك السلطان برقوق ومشترواته من الجراكسة [٥].

وبلغت حرب الإبادة التى شنها السلطان برقوق على العناصر التركية أن القلقشندى الذى

---

(١) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ١٨٩ب.
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٠٧.
(٣) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٦٣.
(٤) كتاب قهر الوجوه العابسة ص ١٢ ـ ١٣.
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٩١.

بالانجيل والصلبان والمباخر ووقفو بين يديه
فشكرهم وقال لهم بقي فى العسكر اربع فرسان
مرضى خذوهم عندكم وداووهم فاذا فاقو سيروهم
الى عكا مع من يوصلهم الى وتركهم عندهم
ومضى فقامو مسلمين القرية على النصاره
واخذوهم منهم وقتلوهم ولم يقدرو النصاره
يمنعوهم عنهم من خوف السلطان،و وصل خبرهم
الى الملك بعكا فسير عسكر قتل كلمن فى رحر

أنهى موسوعته: «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» سنة ١٤١٢م ، ذكر أنه فى وقته «قلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقايا أولادهم» [١] فضلا عن أن حروب تيمور لنك فى وسط آسيا أوقفت جلب العناصر التركية، وأدى هذا إلى تغير واضح لا فى العناصر التى كونت الجيش المملوكى فحسب، بل فى حياة المماليك الاجتماعية واتجاهاتهم السياسية كذلك، إذ أصبح الجراكسة الطبقة الأرستقراطية بين باقى العناصر المملوكية ـ وكما كونت العناصر التركية رأس النظام الإقطاعى فى دولة المماليك الأولى كون الجراكسة رأس هذا النظام فى دولة المماليك الثانية [٢].

ويبدو أن السلطان برقوق أراد بهذه الصبغة الجديدة أن يستغل الميل العنصرى فى ضمان بقاء السلطنة فى بيته، ولكن قدر للسلطان برقوق أن يرى نتيجة هذا الاتجاه العنصرى فى أواخر أيامه إذ رغم اعتزازه بالجركسة فإنهم لم يبقوا على إخلاصهم له، وذلك أنه فى ١٩ من ذى القعدة سنة ٨٠٠هـ ـ سنة ١٣٩٨م دبر الأمير على باى ـ رأس نوبة الأمراء وأحد الأمراء الجراكسة الذين اعتز بهم برقوق ـ مؤامرة لخلع السلطان برقوق وهو فى طريقه إلى حفل فتح

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص ٤٥٨.

(2) Poliak: le Caractére Colonial p. p. 212. 244.

النصـاره والمسلمين الرجال والنسـاء والأطفال لانه
كان قال للنصاره عندكم مسلمين قالو له لا فلما
رجـعـو اعـتـذرو ان المسلمين قـتلوهـم فلم يقـبل
عـذرهم وقتلو قـسيس كنيسـة رحـر وشـقـو بطنه
وعملو فيها كلب ميت لانه كان حلف لهم ان ما
في القـرية مـسلمـا. وبعـد هذه القـضـيـة عـاد ملك
الفرنج الى بيسـان وحمل ما كان فيـهـا من القـمح
الى عكا على رووس اهل الغـور، فـحـمل الصـبى

الخليج . ولكن أخبار هذه المؤامرة تواترت إلى السلطان فأخذ حذره، وعمل حتى فشلت خطة على باى ثم قبض عليه وخنقه [١].

وأثرت خيانة هذا الأمير الجركسي في نفس برقوق تأثيرا كبيرا جعلته يندم على اعتماده على بني جنسه، وبدت كأنما آماله تذهب بها الرياح لاسيما وأن الأمير على باى من مشترواته الذين رباهم، وعامله السلطان كأحد أبنائه ثم جعله دواداره، وأقطعه إقطاعاً وافرا. ولم تمضى مدة طويلة حتى جعله مقدم ألف ورأس نوبة كبير ثم قدمه على كثير ممن سبقوه [٢]. وبلغت منزلته عند السلطان برقوق أنه «لم يرد له كلام ولم يأخذ منه حساب الخزانة الشريفة» [٣]. والخلاصة أن السلطان أمن له في كل الأمور، ولم يتصور أن يقدم على باى على الخيانة، ولهذا لا نعجب أن تؤدى هذه الحادثة إلى حالة من الرعب سادت القلعة بعد اعتقال الأمير على باى وتعذيبه، إذ خشى مماليكه الجراكسة أن يكون على باى ذكر واحداً منهم من قسوة العقوبة. ثم إن السلطان برقوق ندم أواخر أيامه على أنه لم ينتصح بنصيحة زوجته التركية «خوند الكبرى

---

(١) العسقلاني : إنباء الغمر جـ١ ص ٤٣٨.
(٢) العيني: عقد الجمان جـ٥ ، ورقة ٣٦.
(٣) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٥٤أ.

القـوى نصف اردب، ومـا دونه ثلث اردب من
بيسان إلى عكا، إلى أن حملو كلما في بيسان من
القمح وكانو اذا تعب صبى وحط حمله حتى
يستريح قتلوه وحملوه لغيره من الاسارى. ولما
حملو القمح الى عكا اخذ ملك عكا النصف
وملك الهنكر النصف وكان عدد الجميع ثلثة الف
وستماية نفس. فاما ملك عكا فقيد الذى اسرهم
ولم يقتلهم واما ملك الهنكر [المجر] فقتل منهم

شيرين» التي طالما حذرته من اقتناء المماليك الجراكسة ومن خطر اعتماده على عنصر واحد بقولها: «اجعل عسكرك أبلق من أربعة أجناس: تتر، وجركس ، وروم، وتركمان، تستريح أنت وذريتك» [1]. وبالطبع لم تنصحه بأن يتخذ عسكراً من المصريين ولا قام هو بالتفكير في ذلك خشية أن ينشاء منهم من يعتمد على القوة لتحقيق مكانة في توازنات الحكم. ويبدو أن السلطان برقوق اقتنع بهذه النصحية بعد حادثة على باى حتى إنه قال لزوجته «الذى كنت أشرت به علي هو الصواب ولكن هذا كان مقدراً، ونرجو الله تعالى إصلاح الأمر من اليوم[2]».

وبرغم أن السلطان برقوق وعد زوجته بأن يغير من سياسته نحو مشترواته الجراكسة، وأخذ في ترقية بعض العناصر الأخرى [3]، فإن هذه العناصر لم يقدر لها الغلبة في دولة المماليك الثانية لعاملين : أولهما أن عدول السلطان عن تماديه في الاتجاه العنصرى جاء في أواخر أيامه، وثانيهما أن الدولة امتلأت بالجراكسة من مشترواته الذين شغلوا الوظائف الكبرى في

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٨٨.
(٢) نفس المرجع والجزء والصفحة.
(٣) راجع نفس المرجع والجزء ص ٩٧.

جماعة وقطع من كل مسلم كف يده اليمنى
وسير بقية الاحيا مع اكف القتلى الى بلاده فى
بطس الى بابا روميه وكتب اليه ويقول له انى قد
فتحت بلاد المسلمين وقد سيرة اليك قليلا من
الاحيا واكف القتلا حتى تراهم واما ملكهم فانه
ما يقف لى واذا طلبت المصاف يهرب من موضع
الى موضع ولايقف قدامى وانا افتح ما بقى من
القلاع والحصون واطلبه اين ما كان الى ان اخذه،

الجيش المملوكى حتى صار أكثر الأمراء والجند من الجراكسة، وهؤلاء بدورهم شجعوا الهجرة من بلادهم الأصلية إلى بلاد السلطنة المملوكية الثانية ومصر بالذات حيث الوفرة والنعيم والخانقاوات والتكايا التى يعيشون فيها دون عمل أو جهد، فهذا متروك للمصريين.

على أن تعصب برقوق لكل ماهو جركسى، وما نتج عن هذا التعصب من آثار بعيدة وقريبة، تعرض لنقد شديد من بعض المؤرخين المعاصرين الذين تشدقوا بمدح أيام دولة المماليك الترك، ولم يستطيعوا كبت كراهيتهم للجراكسة. ومن هؤلاء المؤرخين ابن تغرى بردى الذى امتدح حكم طشتمر العلائى التركى (سنة ٧٧٩هـ)، ووصفه بالازدهار على حين بين أن هذا الازدهار اختفى بعزله وقيام برقوق فى الحكم وتغييره لسياسة الدولة وتفضيله عنصره على غيره من العناصر المملوكية وإعطاء الجراكسة الإقطاعات الكبيرة والوظائف العالية مع صغر سنهم. وبين ابن تغرى بردى المرارة التى سادت الأوساط المملوكية غير الجركسية فى قوله : « أى أمر أعظم من تقديم الأصاغر على الأكابر، وهذا بخلاف المتقدمين (سلاطين الدولة الأولى) فإنهم حينما وجدوا فى شخص نجابة أو شجاعة قدموه وقربوه وأدنوه ، فكان لايلى وظيفة إلا من يستحقها» [1].

(١) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٢٢٨ب.

واما البيت المقدس فقد حصنوها بالرجال والاسوار
وانت قلت لايرمى فيه احدا من ملوك النصرانية
سهما ولاحجر منجنيق وكيف اخذه من المسلمين
بغير قتال عليه ولازحف اليه وهم ما اخذوه الا
بالقتال الشديد والمنجنيقات فان كنت تحضر الينا
فقدم حضورك لعل الله يدفعه لنا فنعيد فيه جميعا
ان شا الله. وهذا اخر ما وصل الينا عن ملك
الهنكر وكانو المسلمين يقولو انه قتل في الحرب

على أن سياسة الجركسة التي بدأها السلطان برقوق جلبت لابنه السلطان فرج متاعب كثيرة سببها الجراكسة أنفسهم . ويرجع هذا إلى مخالفة السلطان فرج لاتجاه أبيه، حيث مال إلى المماليك الروم لأن أمه « خوند شيرين» كانت رومية (١). وحين مال فرج إلى الروم وزاد في إكرامهم حقد عليه الجراكسة وأرادوا تولية الأمير لاجين الجركسي أكبر الجراكسة سنا لولا أن قبض عليه سنة ٨٠٣هـ (٢) ـ سنة ١٤٠١م ـ ثم عاد الجراكسة يتحينون الفرص لقتل فرج، وعلى حين أخذ فرج يلهو مع مماليكه في حمام في ربيع الأول سنة ٨٠٨هـ ـ سنة ١٤٠٥م، أمسك به أحدهم مدة طويلة تحت الماء حتى كاد يموت غرقاً لولا مساعدة مملوك رومي (٣) . وكان سبب اختفاء فرج في هذه السنة إحساسه بكراهية الجراكسة له، وأنهم لم يهتموا بشكواه في موضوع اعتداء بعض المماليك الجراكسة عليه في الحمام (٤). واعتقد الجراكسة أن سلطنة أخيه عبد العزيز ربما تبعد النفوذ الرومي الذى بدأ فرج في تشجيعه. غير أن عودة فرج إلى عرشة في جمادى الآخر سنة ٨٠٨هـ قضى على حلمهم، إذ تعقب

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٦٨ .
(٢) العينى عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ١٥٨ .
(٣) المرجع السابق و الجزء ص ٣٢٩.
(٤) المرجع السابق والجزء والصفحة.



ريتشارد يدخل عكا بعد سقوطها في عام ١١٨٩م.

وقالو انه اسر ولم اتحقق عنه شى انه قتل او اسر او عاد الى بلاده والله اعلم بما كان من امره وهو حسبى وبه استعين. ولما كان يوم الاثنين الثالث من ربيع الاول سنة خمسة عشر وستماية عشية النهار ضرب الراقوبى [المراقب] بدمياط على مراكب كثيرة فى اللجة [البحر]، فلما اصبح الصبح يوم الثلاثآ الرابع منه ضرب الراقوبى ذالك اليوم جميعه والمراكب تتواصل بعضها ببعض وترسى فى

السلطان فرج الجراكسة فى سلطنته الثانية حتى إنه قتل منهم فى يوم واحد مائة جركسى [١] ثم عاد وقتل ستمائة وثلاثين جركسيا فى سنة ٨١٤ هـ سنة ١٤١١م[٢]، ولما كان الجراكسة هم عماد هذه الدولة فإن السلطان فرج بانقسامه على نفسه جلب على سلطنته الخراب، ولم يكن عجيبا أن يتمكن واحد منهم من قتله فى ١٧ من صفر سنتة ٨١٥هـ [٣].

أما شيخ المحمودى الذى تسلطن بعد خلع الخليفة المستعين سنة ٨١٥هـ فإنه يبدو أن هذه الروح العنصرية لم تعجبه، وتردد فى سياسته نحو الجراكسة برغم أنه جركسى مثلهم، فلم يظهر ميلا نحوهم ، كما أنه لم يظهر ميله للروم كما فعل السلطان فرج، وأوضح ابن تغرى بردى سياسة شيخ فى قوله : «كان يقدم الشجاع ويبعد الجبان من كل جنس من المماليك ، لا يميل إلى جنسه ويترك غيره، بل حيثما ظهرت له النجابة من الشخص قربه ولا يلتفت إلى جنسه كغيره من الملوك [٤]». على أن ابن تغرى بردى عاد فذكر أن شيخ اعتمد على بعض

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٢٥١.
(٢) العسقلانى : إنباء الغمر جـ٢ ورقة ٣٠ب.
(٣) راجع المرجع السابق والجزء ص ٢٦٩، انظر ماسبق.
(٤) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى جـ٢ ورقة ٢٠٦.

اللجة مقابل البروج ولم تزل المراكب تتواصل مدة اسبوع حتى صار فى ربيع الاول عشرة ايام فلما كملو صعدو على البر(*). وضربو جميعهم من المسجد الذى على شط البروج ويعرف بمسجد ابن الخيار الى فوق من بوره وحفرو عليهم خندق عرضه ثلثون ذراعا وعمقه خمسون ذراعا وطوله من البحر الحلو [النيل] الى البحر المالح واطلقو فيه الماء من البحر الحلو فامتلأ مآ حلو وصار لهم

(*) حملة جان دبرين على دمياط سنة ١٢١٨ = ٩٣٤ للشهدا.

الترك لأن أكثر أمرائه كانوا منهم [١]. وكيفما كان الأمر فإن النكسة التى منى بها الجراكسة مهدت لتكتلهم لاستعادة قوتهم حتى ظهر أثر هذا واضحاً فى عهد برسباى.

ومهما يكن من شئ فإن هذه الصبغة المملوكية الجديدة جعلت تولى غير الجراكسة السلطنة أمراً غير مقبول لديهم [٢]، وأصبح هذا الاتجاه حقيقة آمن بها الجميع وليس أدل على هذا من أن السلطان شيخ حين عهد إلى ابنه أحمد بالسلطنة عين الطنبغا القرمشى أتابكاً له، وهو يعلم جيداً أن الطنبغا القرمشى ما دام تركيا فليس هناك من أمل لطمعه فى السلطنة، لأنه على قول ابن تغرى بردى «كان من جنس غير جنس القوم لاغير [٣]».

ولعل من أهم مظاهر هذه الدولة اتباع السلاطين والأمراء سياسة السلطان برقوق. فى

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٤٣٠.

(٢) بلغ تمادى سلاطين الدولة المملوكية الثانية فى سياسة الجركسة أن برسباى أطلق من بقى من ذرية سلاطين الدولة الأولى من القلعة سنة ٨٢٥هـ حتى تهتكوا فى المتنزهات وفسد حالهم وباع بعضهم ارزاقهم وصاروا يعيشون على الغناء مع الجوارى فى الأسواق (راجع ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ورقة ٢٦٥).

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ٦ ص ٥٤٧ ـ وثمة أدلة أخرى على أن عنصراً غير الجراكسة لم يتمكن من الوصول إلى السلطنة طيلة الدولة المملوكية الثانية، حالة الخليفة المستعين الذى جعل ألعوبة فى عملية التنافس السياسى حين انتخب سلطانا قبل سلطنة شيخ لمدة لم تزد على ستة =

حصنا وشرباً ونصبو من عندهم منجنيق كبير على كوم الحيرة مقابل دمياط فكانت حجارة تصل داخل دمياط الى دار الريس واى شى وقع عليه اهلكه ان كان انسان قتله او دار او حايط هدها او على شقف خسفه وقتل من تحته وغاص فى الارض فهدم دور كثير فيها واهلك خلقا عظيمة، فعملو المسلمين من داخل دمياط منجنيق وضربو به على منجنيق الافرنج اكسره فصاحو بالافرنج



(*) ريتشارد قلب الاسد

جلب أقاربهم من بلادهم الأصلية فى أعداد كبيرة [1]. ومع أنه لاينقصنا الدليل على هذا

= شهور فى سنة ٨١٥هـ ـ سنة ١٤١٢م (راجع .Arnold the Caliphate (p.p 100. 101) ثم فى الحالتين اللتين اعتلى فيهما السلطنة اثان من الروم وهما خشقدم وتمربغا (راجع ا بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة «كاليفورنيا» جـ٧ ص ٦٦٧، ٧٤٢ السيوطى: نظم العقيان ص ١٠٩) وفى سلطنة خشقدم فى ١٩ من رمضان سنة ٨٦٥هـ حين كانت المؤامرات تدبر لخلع السلطان أحمد بن إينال دارت الاتصالات بين بعض الأمراء لسلطنة الأمير جانم نائب الشام لأنه «رجل عظيم ومن الجنس» (نفس المرجع والجزء ص ٦٦٧).وإذا انقسم المماليك فرقاً وتمسكت كل فرقة باسم سلطانها برغم أنهم أصبحوا من القرانيص فإن أهم ما كان يعنيهم أن يتولى السلطنة واحد من فرقتهم ليمكنهم تحقيق مآربهم فى السيطرة على شئون الدولة. ولذا عرض الأمير جانبك المشد على الأمراء حسماً للموقف سلطنة الأمير خشقدم المؤيدى «فإنه من غير الجنس، يعنى كونه رومى الجنس، وأيضا إنه رجل غريب ليس له شوكة ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب فأعجب الجميع هذا الكلام». (راجع نفس المرجع والجزء والصفحة).ولعلنا نتساءل إنه ما دام الأمر كذلك فما سبب طول مدة خشقدم؟ أما الإجابه فتضح فى أن كثرة الفرق المملوكية جعلت هناك صعوبة فى سرعة إجماعها على خلع خشقدم (راجع Lane- poole Hist'of Egypt. p. 325) أما تمربغا الذى وصل إلى السلطنة فى ١٠ من جمادى الاولى سنة ٨٧٢هـ سنة ١٤٦٧م. فإنه لم يرشح للسلطنة إلا بسبب عمله أتابكا للسلطان يلباى سنة ٨٧٢هـ كما أنه كان بحكم أقدميته فى الإمارة مقدماً للمماليك الظاهرية الجراكسة وذلك منذ عهد خشقدم (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ «كاليفورنيا» ص ٧٥٧ ـ ٧٥٨) وتوهم تمربغا أن السلطنة لن تخرج عن الروم حتى إنه اختار قايتباى الجركسى والرجل الثانى فى فرقة الظاهرية الجراكسة أتابكا للعساكر. غير أن قايتباى أمكنه أن يجمع شمل الجراكسة ويخلع تمربغا دون كبير عناء وذلك فى ٦ من رجب من السنة نفسها (نفس المرجع والجزء ص ٨٥٨).

(١) راجع السخاوى : التبر المسبوك ص ٢٦٩، ٣٠٧.

صيحة عظيمة سقطت منها الجبال. وعملو
[الصليبيين] منجنيق اكبر من الاول ومعه اربعة
منجنيقات اخر وكانو يضربو بالكبير على دمياط
والصغار على برج السلسلة فلما لم يبلغو مرادهم
بالمنجنيقات فاوسعو الخندق الذى تقدم ذكره انهم
حفروه فاتسع حتى صار بحرا كبيرا فدخلو منه إلى
بحر النيل تسعين مركب شوانى وحراريق فلما
صارو فى بحر النيل عمرو مراكبهم بالرجال وقاتلو

الاتجاه في عهد دولة المماليك الأولى فإنه لم يكن بهذا الشكل الملحوظ. وبلغ هذا الجلب أكثره في منتصف القرن الخامس عشر الميلادى برغم مغالاة التجار فى أثمان المماليك الجراكسة لتهافت السلاطين على شرائهم [١]. وإذ شمل الجلبان نسبة كبيرة من البالغين، فإنه أصبح من الصعب أن يتدربوا تدريباً عسكرياً دقيقاً كما كانوا فى سن مبكرة عن هذا . وتولى هؤلاء الوظائف الكبيرة دون أن يتدرجوا في الوظائف الصغيرة أو ينالوا ألوان التربية المخصصة لهم سواء من الناحية الدينية أو العسكرية مع أهمية هذه التربية فى إعداد المملوك خلقياً وعسكرياً . ثم ساد فى دولة المماليك الثانية محاباة السلاطين وكبار رجال الدولة لأقاربهم والإنعام عليهم بالرتب والإقطاعات فى غير نظام [٢]. وتبع هذا كثرة المصادرات وانتزاع الأوقاف وتوزيعها إقطاعات[٣] وسرعة انتقال الأمراء من إقطاع إلى إقطاع مما أدى إلى ضعف الإقطاعيات [٤].

(١) البغدادى : عيون أخبار الأعيان: ورقه ٤٨١.
(٢) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ١ ص ٢٤٣ب، ٤٥٦أ، جـ٢ ورقة ٦٢أ، جـ٣ ورقة ٢٥ب.
(٣) المقدسى : نزهة الناظرين ص ٢٥٧.
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ٦«كاليفورنيا» ص ١٩٥ ـ ذكر ابن تغرى بردى فى نفس المرجع والجزء ص ٣٨٦، ٣٨٧ كيفية فساد الإقطاعات وأوضح أن مملوك الأمير حصل على ثلاثة رواتب من الإقطاع ومن الجوامك ومن راتب سيده، كما أوضح فساد الإقطاعات بسبب كثرة المغارم والظلم المستمر للمصريين وقلة نظر الحكام فى إحكام البلاد.

اهل دمياط يوم الجمعة الحادى والعشرون من ربيع
الاول سنة تاريخه [١٢١٨م] وكان بينهم قتال
شديد وقتل من المسلمين ومنهم وجرح من
الفريقين كثير وافترقو عند دخول الليل عليهم ولما
يظفرو بمرادهم لان المسلمين كانو يرموهم من
البرج بالنشاب ولعبه عليه يرمو بها مراكبهم
بالحجارة. وقد ذكر قوم ان الملك الذى كان

ويمكن القول بأن الفترة الأخيرة لحكم الجراكسة كانت فترة حكم أصهارهم وأقاربهم ومن هؤلاء إينال وقايتباى [١]. ولم يكن غريبا بعد هذا الاتجاه أن يأتى الجلبان من الجراكسة إلى مصر، وخيال السلطنة فى رأس كل واحد منهم حتى إن واحداً من الجلبان جلب وهو حقير فاحش القرع والعرج سأل دلاله عن إمكان تولية السلطنة [٢].

ولا شك، أن سرعة تخريج المماليك دون أن يحفل السلاطين بالمدة الكافية لتعليمهم صار عاملاً من عوامل ضعف نظام الفروسية فى دولة المماليك الثانية، ذلك النظام الذى كان ميزة امتازت بها دولة المماليك الأولى. وأنحى المقريزى باللائمة على السلطان برقوق لأنه كان البادئ بإفساد نظام الفروسية بسبب أنه «رخص للمماليك فى سكنى القاهرة وفى التزوج، فنزلوا من الطباق من القلعة، ونكحوا نساء أهل المدينة وأخلدوا إلى البطالة ونسوا تلك العوائد[٣]». ويضيف أيالون Ayalon إلى العوامل التى سببت ضعف نظام الفروسية منذ أول دولة المماليك الثانية عاملاً آخر هو إهمال تدريبات الفروسية والتمرينات الحربية، التى كانت من ألزم الأمور لتربية الفارس المملوكى فى الدولة الأولى، تلك التمرينات التى اعتمدت على

(١) راجع ابن إياس : بدائع الزهور جـ٢ ص ٦٤، ٢١٠.
(٢) البغدادى : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨١.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢١٤.

يدبرهم وحروبهم اسمه كند [كونت](*) الريش لانه كان على راسه اكليل ذهب مر صع بجواهر يخرج من جوانبه شبه الريش من ذهب مركب فيه فاسموه كندالريش. وقال قوم اخر ان مراكبهم الذى وصلو فيها ثلثماية بسطة وطريدة وقالو انها اكثر من ذالك ولم يتحقق عددهم. وذكر قوم ان فيهم سبعة ملوك مع كل ملك الف فارس وعشرة راجل، يكون الجملة سبعة الف راجل ولم يتحرر

(*) كونت : هوجان دى برين.

السيف والنشاب والقوس، واستبعد أيالون Ayalon أن يكون سبب الضعف طريقة استخدام الأسلحة النارية فى الجيش المملوكى وقتذاك (١). والواقع أنها ترجع إلى العوامل الداخلية التى أدت إلى فساد عام فى المجتمع الحربى المملوكى، ومن أهم هذه العوامل ـ إلى جانب ما ذكرنا ـ إبطال السلطان برقوق عادة الركوب إلى الميدان، وكانت تعتبر من محاسن دولة المماليك الأولى إذ كانت عادة السلاطين أن يصلوا صلاة العيدين فى الميدان بالقلعة ، ثم يشاهدون تمرينات الفروسية ولعب الأمراء بالكرة بعد الصلاة، غير أنه حين حدثت حادثة الأمير على إى سنة ٨٠٠هـ ـ سنة ١٣٨٩م ـ صلى السلطان برقوق صلاة عيد النحر بجامع القلعة، خوفه من المؤامرات وهجر الميدان (٢)، وهجره من جاء بعده من السلاطين، واقتصرت التدريبات بشكل محدود على الحوش السلطانى (٣). ثم ازداد ضعف نظام الفروسية أيام

(1) Ayalon : Gunpowder & Firearms. P. P. 52.54.

(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢٢٩.

(٣) راجع ابن تغرى بردى: منتخبات من حوادث الدهور ص ١١٨ : ظلت هجرة الميدان فى عهود باقى السلاطين حتى عهد الغورى حين بدأ فى صفر سنة ٩٠٩هـ يوليه ١٥٠٣م بإنشاء ميدان كبير رغبة فى عرض قوة مصر وفرسانها أمام رسل الصفوى وابن عثمان مع استمرار استخدام الأسلحة النارية راجع.
Ayalon : op. Cit . p. p. 57. 58.

ذالك عن يقين بل نقل سماع لانه لم يقدر احد يمضى اليهم ولا يجى من عندهم، واما المنجنيق الذى نصبوه على كوم الحيرة فعملو فى راسه صندوق رصاص وزنه قنطارين شامى واسموه المعرى وكان تحته يجره ستماية رجل وكان يرمى الى وسط دمياط حتى هد دار الريس واخلا ما حواليها وكان وزن الحجر الذى يخرج منه قنطار



(*) فردريك بربا روسا من مخطوط بمكتبة الفاتيكان

السلطان فرج بن برقوق لتفضيل المماليك الراتب النقدى، وانقطاع الرواتب من اللحوم وغيرها حتى عن مماليك الطباق مع قلة عددهم حتى صار غذاؤهم فى الغالب الفول المسلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره [1]. وأضاف المقريزى عوامل أخرى أسهمت فى ضعف هذا النظام في قوله : «وبقى الجلب من المماليك من الرجال الذين كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد فى تنور خباز ومحول ماء فى غيط أشجار وغير ذلك. واستقر رأى الناصر فرج على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم بل يتركون وشئونهم، فبدلت الأرض غير الأرض، وصارت المماليك أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدرا ، وأشحهم نفسا، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدين، مافيهم إلا من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب. لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام ، وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولى الأمر حتى إنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه [2]».

واقتضت أحوال الدولة الجديدة من السلطان برقوق عدة تغيرات فى نظم الحكم والإدراة .

(١) المرجع السابق والجزء ص ٢١٤.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢١٤.

شامي وقتلو به خلق كثير في مدة مقامهم على دمياط وفي عسكر الفرنج نسا كثيرا مسلمات من اهل الغور وأفرنجيات من اهل الساحل يطحنو لهم القمح ويخدموهم وكان معهم صغار كثير وبقر وخنازير ودجاج وكان في البحر مراكب كثير صيادين سمك يبيعوه في عسكر الفرنج فلما قالو للملك كندالريش عنهم مسكهم وضمنهم السمك بخمسين دينار في يوم. وقد كنا قلنا انهم فتحو

وأول هذه التغيرات ما أدى إلى ضعف منصب الوزارة حتى كادت تتلاشى، ومع أن هذه الوظيفة كانت أجل الوظائف وأرفعها رتبة في أوائل دولة المماليك الأولى [١] لكن استحداث نظام نيابة السلطنة قلل من قيمتها، واقتصر متوليها في دولة المماليك الأولى على التحدث في الأمور المالية، ووزعت باقي اختصاصات الوزير على ثلاثة: هم «ناظر المال، واختص بتحصيل المال وصرف النفقات، وناظر الخاص وعهد إليه بتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين، والثالث هو كاتب السر واختص بالتوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلالا[٢]. أما السلطان برقوق فإنه ركز السلطة في يده، وعمل على إضعاف شأن الوزارة بإنشاء الديوان المفرد الذى أقام فيه ناظراً وشادين وكتابا، وجعل مرجع هذا الديوان إلى الاستادار وقرر أن يصرف مايتحصل منه في جوامك مماليكه المشتروات، ثم أضاف إلى هذا الديوان كثيراً من أعمال مصر وبذلك قوى جانب الاستادار وضعفت الوزارة[٣]، حتى اقتصر اختصاص الوزير

(١) كان أول مملوك تولى الوزارة في الدولة المملوكية الأولى هو سنجر الشجاعي (٦٩٣هـ ١٢٩٤م) وقد ساد اعتقاد في هذا العصر مؤداه «أن الوزارة إن لم يتقلدها مملوك فسد الحال» ولذا فإن السلاطين اكتفوا بإضعاف شأن الوزارة دون إلغائها . راجع.

Ayalon: Studies, 111 p. 61.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٨ ٢٩ .

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج٢ ص ٢٢٢ ٢٢٣ ، راجع كذلك

Poliak : Feudalism: p. 4 .Ayalon: Studies, 111 p. 61.


(*) حصار الصليبين لدمياط

بحر من خلف البرج ودخلو فيه بالشوانى والحراقات لقتال المسلمين وكانو فى كل يوم يقاتلو اهل دمياط فيقتل بينهم قتلا كثير ثم يفرقو عند الليل فاقامو على ذالك ربيع الاول وربيع الاخر ثم اخذو مركبين كبار من مراكبهم وسمرو عليهم اخشاب جافيه وعملو فى وسطهم اربع صوارى وضمو الواحدة الى الاخرى بحكمتهم حتى صارو واحدة واسموها المرمة

على التحدث فى أمر المكوس، فيحصلها من جهاتها ويصرفها فى شراء اللحم وحاجات المطبخ وغير ذلك من حاجات إنفاق القصر السلطانى. وبلغ من ضعف شأن الوزارة آنئذ أن سعد الدين نصر الله بن البقرى وصفها بقوله «الوزارة اليوم عبارة عن حوايج كاش عفش، يشترى (الوزير) اللحم والحطب وحوايج الطعام، وناظر الخاص غلام صلف يشترى الحرير والصوف والنصافى والسنجاب وأما ما كان للوزراء ونظار الخاص فى القديم فقد بطل[1]».

والخلاصة أن منصب الوزارة كاد يتلاشى منذ عهد السلطان برقوق إذ وزعت اختصاصات الوزير بين أربعة، وهم كاتب السر والاستادار وناظر الخاص والوزير، فأخذ كاتب السر من الوزارة التوقيع على القصص بالولايات والعزل ونحو ذلك فى دارالعدل وفى داره، وأخذ الاستادار التصرف فى نواحى أرض مصر والتحدث فى أمور الدواوين السلطانية وفى كشف الأقاليم وولاية النواحى وفى كثير من أمور الوظائف، وأخذ ناظر الخاص جانباً كبيراً من الأموال الديوانية السلطانية ليصرفها فى متعلقات الخزانة السلطانية، وبقى للوزير شىء يسير جداً مما

(١) نفس المرجع والجزء والصفحة.

واسمروها بكل مسمار طوله ثلثة اذرع وذراعين
وذراع ونصف وشبر، كل شى منهم فى موضعه
وعملو على الاربعة صوارى سقف سفلى يحمل
ماية وخمسون رجل وسقف فوقه يحمل ماية
وخمسين رجل فيكون ثلثماية رجل مقاتله فقدموها
الى البرج الذى فى البحر فلم تلصق به لان زلاقة
من كل ناحية خارجية منه فلما يقدرو يلصقوها
للبرج [ثم] قوى عليها التيار فردها بامر الله الى

كان يتحدث فيه، فاقتصر على النظر فى المكوس وبعض الدواوين وناظر بيت المال وناظر الاهراء ومستوفى الدولة، وناظر الجهات. أما ناظر البيوت وناظر الاسطبلات فإن أمرهما يرجع إلى غيره[1].

وثمة تغير آخر فى نظم الحكم والإدارة أحدثه السلطان برقوق وهو الإكثار من عدد الحجاب حتى بلغ عددهم ستة بعد أن تراوح عددهم فى دولة المماليك الأولى بين ثلاثة أو أربعة حجاب[2]. وكانت رتبة الحاجب فى دولة المماليك الأولى رتبة جليلة. وتأتى فى الترتيب الوظيفى بعد نيابة السلطنة وأطلق على أكبر الحجبة حاجب الحجاب. والحجبة وظيفة من وظائف أرباب السيوف يجلس صاحبها بدار العدل لينظر فى مخاصمات الأمراء والأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات، ونحو ذلك تارة بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمشاورة النائب. وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند. وكثيراً ما قام الحاجب مقام النائب فى غيبته أو اعتقاله[3]. ويبدو أن السلطان برقوق زاد من عدد الحجاب بسبب كثرة مؤامرات

---

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ص ١٩٧ .
(٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٩ .

خلف وانكسرت الصوارى من ثقل الرجال بالسلاح ووقع منهم فى البحر جماعة كبيرة غرقو بلا حرب ولاقتال. وبعد هذه المرمة لم يرجعو يقدمو مرمة اخرى. ولما جرى عليهم ذالك فى المرمة نصبو منجنيقين اخرى على البرج [برج السلسلة] الذى فى وسط البحر وكانو يقاتلو بها وبالزنبورك، وكان له من دمياط [جسر] خشب معمول بالمراكب والاخشاب مسمورة عليها ولم

الأمراء وكثرة الخلافات بينهم وذلك حتى يمكنه الاستعانة بهم فى القبض على المتآمرين منهم بمجرد صدور أمر السلطان.

ولم يكن أحد من الحجاب فى دولة المماليك الأولى يتعرض للحكم فى شيء من الأمور الشرعية، غير أن ازدياد عدد الحجاب منذ عهد برقوق تبعه اتساع سلطته حتى صار للحاجب الحكم بين الناس مع بقاء سلطة مكاتبة الولاة فى مختلف الأعمال والأقاليم[١].

وفى عهد السلطان فرج ازداد عدد الحجاب حتى بلغوا ثمانية. ولكن الحجاب تبعاً لهذه الكثرة العددية لم ينلهم على الإمرة إقطاع، وانما ارتزقوا من النظر فى مظالم الناس، وصار الحاجب يحكم فى الناس جميعاً حتى فى الأحكام الشرعية، مما أدى إلى تنافس بين الحجاب والقضاة على النظر فى قضايا الناس، حتى صار الحاجب يأخذ الغريم من باب القاضى ويتحكم فيه بضربه أو أخذ ماله دون أن يلومه أحد على ذلك[٢].

واستحدث السلطان برقوق نيابة الوجه البحرى ونيابة الوجه القبلى. ولم تكن هناك بالوجه البحرى سوى نيابة الإسكندرية التى رتبها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٨ هـ بسبب

(١) المقريزى: نفس المرجع والجزء ص ٢٠٩ ، ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

يزالو يضربو الخشب حتى كسرو مراكبه واخشابه وقطعو حباله فلما كان يوم الجمعة الثامن من جمادى الاخر تكاثرو الافرنج على البرج بالمراكب والرجال فاخذوه وكان فيه ماية وخمسون من المسلمين قتل منهم وغرق منهم وهرب منهم من عام الى دمياط فسلم واسر منهم ستين رجل سيروهم الافرنج الى عكا وغيرها من بلادهم. ولم يرجعو من يوم اخذو البرج يقدمو مرمة. وذكر من

كثرة عدوان الفرنج على الإسكندرية. وفى عهد السلطان برقوق أصبحت دمنهور مقر نائب الوجه البحرى. وسبب إنشاء هذه الوظيفة هو كثرة ثورات العربان فى البحيرة، بل إن السلطان برقوق جعل لنائبها أهمية كبيرة. ويؤيد هذا الرأى ما ذكره القلقشندى أن نيابة دمنهور «ليست على قاعدة النيابات بل هى فى الحقيقة ولاية حرب كبيرة[1]».

وترتب على هذا التغيير الإدارى أن جعل للوجه البحرى كاشفاً من أمراء الطبلخاناة يحكم سائر بلاد الوجه البحرى فيما عدا البحيرة، ومقره ميت غمر ولكنه صار يرجع فى كل أموره إلى نائب الوجه البحرى[2]. وإلى جانب هذا أبقى السلطان برقوق على وظائف الولاة التى عرفت فى دولة المماليك الأولى فى الوجه البحرى فى بلبيس وفى منوف والمحلة؛ ولكن جعل مرجعهم جميعاً إلى نائب الوجه البحرى[3].

ثم إن ثورات العربان بالصعيد إلى جانب الأخطار التى هددت البلاد من الجنوب جعلت السلطان برقوق ينشىء نيابة أخرى بالوجه القبلى صار مقرها أسيوط وأصبح نائبها فى رتبة نائب الوجه البحرى بل لعله أعظم شأناً منه، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى

(١) القلشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٥ ، ٦٥ .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٧ .

اخبر ان الملك العادل مات بدمشق يوم الجمعة الثامن من جمادى الاخر سنة تاريخه وهو يوم اخذو الافرنج فيه برج دمياط وذكر من اخبر ان جاسوس السلطان اعلمه ان مراكب كثير من الفرنج تفللت [تسللت] وراحت الشام فعدى اليهم بالعسكر فاخذهم فلما كان يوم الثلثا الحادى عشر من رجب سنة خمسة عشر وستماية[١٢١٨م] امر الملك الكامل العسكر ان يعدى فاسرع نحو ثلثة

بأسرها[١] على أن هذه الوظيفة قبل عهد السلطان برقوق لم تكن لها هذه الأهمية بسبب هدوء الصعيد ولذا تولاها وقتذاك كاشف أطلق عليه والى الولاة. وحين ازدادت الأخطار التى هددت البلاد من النوبة والحبشة استحدث برقوق وظيفة والى أسوان، وكانت قبل ذلك مضافة إلى والى قوص. والخلاصة أن الوجه القبلى صار فيه خمسة ولاة فى البهنسا والأشمونين وأخميم وقوص وأسوان، وجميعهم تابعون لنائب الوجه القبلى[٢].

ثم إنه نظراً للأخطار الخارجية التى أحدقت بالسلطنة المملوكية فى بدايتها، جعل السلطان برقوق نواب الثغور والبلادالواقعة على الحدود من مقدمى الألوف بعد أن كانوا فى الدولة الأولى فى رتبة أقل. ومن هذه النيابات عينتاب ودندره وشيزر والأبلستين واياس وطرسوس والبيرة [٣].

دولة المماليك الثانية وجيرانهما
حتى سنة ١٤١٢ م

ظهور تيمور لنك فى الشرق الأوسط ـ علاقته بدولة المماليك الثانية ـ موقف السلطنة

(١) نفس المرجع والجزء ص ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٢٦ .
(٣) نفس المرجع والجزء ص ٢٢٦ ، ٢٢٨ .

الف راجل وعـدو الى بر الافـرنج قـبل ان يعـدى
العـسكر وكـان السلطان الملك الكامل قـد اوصـا
جـمـيع العـسكر الفـارس والراجل [المشـاة] ان
لايتقدمو للقتال حتى يرفع لهم العلم الذى له على
البرج الذى هو فيه من دمياط فنهض من الراجل
جماعة طلبو بجهلهم الكسب من قبل ان يكمل
العسكر فهجمو خيم الفرنج وقتلو وكسبو وتمادى
بهم الطمع وتطلعوا الفرنج لم يرو خلفهم عسكر

المملوكية الثانية من الدولة العثمانية ـ دولة المماليك الثانية والبنادقة والجنوية والروادس حتى سنة ١٤١٢م ـ سياسة السلطان برقوق إزاء بلاد المغرب ـ برقوق وإمارة مكة ـ اليمن والسلطنة المملوكية الثانية ـ علاقة السلطان برقوق بالحبشة والنوبة وآثارها.

* * *

اقترن قيام الدولة المملوكية الثانية على يد السلطان برقوق بظهور نفوذ هذه الدولة بين الدول التى تاخمت حدودها الشرقية، فأخذت هذه الدول تخطب ود السلطان برقوق رغبة فى التمتع بحمايته وطلب معونته، لاسيما حين بدأ التتار يكتسحون وسط آسيا وغربيها. ولم يتأخر السلطان برقوق فى أن يجعل من دولته حصناً وملاذاً لجيرانه، حتى إن أصحاب سنجار وقيصرية وتكريت حين كتبوا سنة ٧٨٥ هـ ـ سنة ١٣٨٣م إلى السلطان برقوق برغبتهم فى إعلان تبعيتهم له وخطبوا خطبة الجمعة باسم السلطان برقوق سار السلطان برقوق إلى إعلان موافقته على مطالبهم وكتب لكل منهم تقليداً بنيابة السلطنة فى بلده[١].

والواقع أن خطر التتار فى الشرق الأوسط وَضَحَ فى هذه السنة حيث ظهر تيمور لنك[٢]،

(١) راجع العسقلانى: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٠١.
المقريزى: اسلوك جـ ٣ ص ٤١٦، ٤٦٢.
(٢) أصله من قبيلة كوركان إحدى فروع قبيلة برلاس التترية وهو حفيد قراشور نويان وزير جقطاى الابن=

فـرجعـو عليـهم فـقتلوهم فى الخيم ورمـو البـحـر بسـلاحـهم ولبـاسـهم فـشـالوهم الفـرنج بالمراكب واخـذو مـا عليـهم وهـم موتا(*) وحـزن السلطان عليـهم وامـر ان يرجع العـسكر واعـرض الرجـالة فوجد الذى قتل منهم ثلثة الف رجل قتلا وغرقا. وفيما هو حزين عليهم تواصلت الاخبار بموت ابوه الملك العادل فى دمشق من تخمة اصابته فى مرج الصـغـار وحـمل الى دمـشق فـمـات فـيـهـا ودفنوه

(*) كــان چان دى برين هو الذى عــاود الهـجـوم على الاكـراد وهزمهم.

واستولى فى سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر، وجعل سمرقند عاصمة لدولة اسلامية كبرى ناطحت الإمارات والممالك الاسلامية فى غرب آسيا، وما لبث أن احتل خراسان وهرات وطبرستان وجرجان[1]. ثم زحف إلى مدينة تبريز واستولى عليها سنة ٧٨٨هـ ـ ١٣٨٦م وطرد حاكمها قرا محمد التركمانى. ومن هناك أرسل تيمور لنك إلى مجد الدين عيسى حاكم ماردين يستدعيه. غير أن حاكم ماردين الذى احتمى بالسلطنة المملوكية الثانية، أرسل إلى تيمور لنك يعتذر عن الحضور قبل أخذ رأى السلطان المملوكى فى هذه الزيارة[2]. وغضب تيمور لنك لهذا الرد. ورغبة منه فى إثارة روح العداء بين مجد الدين عيسى والسلطان برقوق عاود تيمور لنك الكتابة إليه بقوله: «ليس لصاحب مصر يملكك حكم»[3]، كما أوضح له أنه لا يهدف من وراء هذا سوى إقامة علاقات الود معه. وبرهن لصاحب ماردين على صدق

= الثانى لجنكيز خان، أطلق عليه تيمور كور كان ومعناه صهر الملوك؛ وأصل اسمه «تمر» ثم أضيف إليه «لنك» ومعناه الأعرج لإصابته فى فخذه حين كوّن عصابة لسرقة الأغنام وصار يعرج ـ وما لبث أن اتجه إلى قتل الملوك وامتلاك أرضهم حتى وصل إلى الملك ـ راجع ابن عربشاه: فاكهة الخلفا ص ٢٩١ ، دائرة المعارف الإسلامية.

(1) Sykes: A History Of Persia: VII P.P. 281 _ 202.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٤٣ .

(٣) المرجع نفسه والجزء والصفحة؛ الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ أ .

بجانب صلاح الدين اخوه فى المقبرة يوم الجمعة الثامن من جمادى الاخر سنة خمسة عشر وستماية وهو يوميذ ملك مصر والشام وبيت المقدس والساحل والقلاع ودمشق واليمن. [وكان] دفع دمشق وما معها من الشام وبيت المقدس والساحل والقلاع وما فتحه صلاح الدين من بلاد الفرنج لولده الملك المعظم يسمى عيسى ويعرف بالكريدى، ودفع مصر واعمالها لولده الكامل

نواياه بإرساله خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير(١). ولم ينتظر تيمور لنك رد صاحب ماردين إذ رحل فجأة فى سنة ٧٩٠هـ - ١٣٨٨م عن تبريز واتجه إلى بعض بلاد الشرق الأوسط ليفتحها فى غزوات سريعة مفاجئة ، ويبدو أن تيمور لنك لم يكن يهدف إلا إلى أن تدين له كل ملوك الأرض بالطاعة، وأن تظهر شخصيته المخيفة بين شعوب العالم المعروف وقتذاك كفاتح يقود جيشاً جراراً، وبكلمة منه تتحول مدينة عظيمة إلى رماد وينحسر سكانها أمامه(٢). ولاشك أن قيام دولة مملوكية جديدة اعترفت لها الدول المجاورة بالطاعة، أو ارتبطت معها بأواصر الصداقة والتحالف فى الوقت الذى قام فيه تيمور لنك بالتوسع رغبة فى إذلال حكام البلاد المفتوحة وإظهار قوته فى العالم المعروف وقتذاك، جعل وجود هذه الدولة شجاً فى حلقه. على أن اتساع رقعة البلاد التى فتحها جعل من الصعب أن تبقى كل هذه الدول ضمن أملاكه فى وقت واحد، ولم يكن أمام هذه الدول سوى أن تستجير بالسلطان برقوق بدليل أن تيمور لنك حين ترك تبريز أواخر سنة ٧٩٠هـ - ١٣٨٨م أسرع قرامحمد التركمانى واستعاد بلاده، ثم أرسل إلى السلطان برقوق يخبره بعودته إلى عرشه وأنه ضرب فى تبريز السكة باسم السلطان، ودعا له فيها على منابره، وسأله أن يكون نائباً عنه(٣).

(١) المقريزى: السلوك جـ ٣ (الخطية) ص ٧٠٦ .

(2) Malcom : Hist. Of Persia pp 482 _ 483 .

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٤٩٥ .

محمد، ودفع حران ومنبج واخلاط وكلما خلف نهر الفراة لولده الاشرف. وكان مدة ملكه تسعة عشر سنة وثلثه وخمسون يوما منذ دخل الى مصر ومات وعسكره عشرة الف طواشي. وملك ولده الملك الكامل محمد ديار مصر واليمن وسير ولده اقسيس الى اليمن فملكه واستقر هو فى مملكة مصر ونفذ امره وحده بعد موت ابوه لاستقال [لاستهلال] شهر رجب خمسة عشر وستماية للهجرة.

وعلى حين استعد مجد الدين عيسى صاحب ماردين ليبعث برسله إلى برقوق ينبئه بما جرى بينه وبين تيتمور لنك، عاد تيمور لنك، سنة ٧٩٥هـ ـ ١٣٩٣م فجأة وهاجم بغداد، فازداد خوف مجد الدين عيسى، وأسرع فى إرسال الرسل إلى السلطان برقوق طلباً لعونه السريع[١]. وبيّن مجد الدين عيسى فى رسالة إلى السلطان برقوق كيف أن تيمور لنك خدع السلطان أحمد بن أويس الجلايرى حاكم بغداد[٢]، بعد أن اكتسح فارس وقتل حاكمها شاه منصور فى مايو سنة ١٣٩٣م، ثم بعث برأسه إلى بغداد كما بعث بالخلع والسكة إلى أحمد بن أويس وطمأنه بأنه لن يغير على بلاده، وأنه لا يطلب سوى ضرب السكة فى بغداد باسمه. فلبس أحمد بن أويس الخلعة وطاف بها شوارع بغداد ونفذ مطالب تيمور لنك. ولم يشعر أحمد بن أويس إلا وتيمور لنك يقترب من بغداد ومن غربيها، وهى الناحية التى لم يكن ينتظر أن يقوم تيمورك لنك بهجومه منها. فأسرع السلطان أحمد بن أويس بقطع الجسر عن هذه الناحية، ورحل من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر[٣]. فتقدم تيمور لنك بجحافله لحصار

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٤١ .

(٢) هو السلطان أحمد ابن أويس بن حسن بن حسين بن اقبغا أيلكان الجلايرى تولى الحكم فى بغداد سنة ٧٨٤ هـ بعد موت أخيه الشيخ حسين بن أويس وهو من سلالة المغول الذين اجتاحوا العراق راجع العينى: السيف المهند ص ١٨ ـ ١٩ .

(3) Yazdi: Zafarnama VI, p. 434 .

سيرة الملك الكامل محمد[*] ابن الملك العادل ابو بكر ابو ايوب: وكان كتاب الملك العادل قبل موته وصل الملك الكامل ان العدو توجه من عكآ الى مصر مراكب كثيرة فاحترز على الثغور وما تقابله واخلى البلاد قدامه مسيرة ثلثة ايام فانه اذا غار يقطع مسافة اربعة ايام في يوم واحد يقتل ويسبى وينهب ويعود الى خيمه في بقية يومه. فاخلى الملك الكامل قدامه من الغربية مسيرة اربعة ايام

(*) سيرة الملك الكامل محمد.

بغداد سنة ٧٩٥هـ ـ يولية سنة ١٣٩٣م. وبرغم هذا فإن تيمور لنك لم يستطع دخول بغداد إلا بعد أن استمر حصاره لها مدة شهرين، قتل فى أثنائها أكثر سكانها وخرب أسوارها وجوامعها وأسواقها[١]. ومن بغداد أرسل تيمور لنك ابنه ميران شاه فى أثر ابن أويس فأدركه بالحلة[٢]. ونهب ماله، وسبى بعض حريمه وأسر وقتل كثيراً من أصحابه [٣]، وتمكن أحمد بن أويس من النجاة بنفسه فى نحو ثلاثمائة فارس وهم شبه عراه، واتجه غرباً لائذاً بالسلطان برقوق[٤].

ويبدو أن السلطان برقوق لم يفزع لهذه الأخبار التى أنبأه بها صاحب ماردين، إذ دأب السلطان برقوق على تأمين الحدود الشرقية لبلاده بإرساله العسكر إليها منذ سنة ٧٨٩ هـ ـ ١٣٨٧م حين سمع بتحركات التتار على هذه الأطراف الشرقية[٥]، كما أن السلطان برقوق

(١) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨٧ ـ ٤٨٨ .

(٢) مدينة بين الكوفة وبغداد ـ راجع ياقوت معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(3) Grousset : L'Empire Des Steppes . p. 512

(٤) ابن تغرى بردى: المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٣ ـ بدأت علاقة السلطان أحمد ابن أويس بالسلطان برقوق منذ سنة ٧٨٥هـ ـ حين بعث إلى السلطان برقوق هدية بمناسبة توليه السلطنة واشتملت الهدية على فهد وصقر وقماش. ثم حرص ابن أويس على استمرار علاقات الود بالدولة المملوكية الثانية حتى سنة ٧٨٨هـ ـ راجع المقريزى : السلوك جـ ص ٤١٦ ، وما بعدها.

(٥) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٤ .

واخلى المحلة وكلما حواليها وسنجار وسنهور وفوه
وكانو هذه المدن خالية وابوابهم مغلقة ولم يقدر
احد يخرج باكثر من ثيابه الذى عليه وما ينام فيه
وتركو كلما فى دورهم من القمح و الحبوب
والنبيذ وجميع القطانى فيها، فمنها من سالم
[سلم] ومنها ما نقص بعضه ومنها ما اخذ كله.
ومضو الناس الى القاهرة وقوم الى مصر
[الفسطاط] والى الشام ودمشق وتفرقو فى جميع

عرف أن تيمورلنك يعمل ألف حساب له، فضلاً عن أن تيمور لنك لم يكن قد نظم أحوال بلاده الداخلية[1]. على أن السلطان برقوق سرعان ما تقدم لحماية أحمد بن أويس ومعاونته؛ حين أرسل إليه ابن أويس من حلب يطلب عونه على إعادة ملكه والانتقام من عدوه، فكتب السلطان برقوق إلى نعير أميرا آل فضل بإكرامه، والقيام له بما يليق به. ثم جمع السلطان برقوق مجلساً من كبار الأمراء لبحث أمر ابن أويس. واتفق الجميع على السماح لابن أويس بالحضور إلى القاهرة ريثما تتم الاستعدادات لمعاونته على إعادة ملكه. وأنفق السلطان برقوق على سفر ابن أويس من حلب إلى القاهرة نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة وألف دينار، فضلاً عن بعثة سلطانية رافقت ابن أويس[2]. واستقبل السلطان برقوق أحمد ابن أويس استقبالاً رائعاً إذ خرج الأمراء للقائه فى ٢١ من ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٤م)، ونزل معهم ومع العسكر إلى الريدانية. وحين قرب أحمد بن أويس من مسطبة السلطان بوقوق نزل عن فرسه، ومشى عدة خطوات، فتقدم إليه حاجب الحجاب وقدم له الأمراء حيث قبل صغارهم يده واحداً بعد واحد، على حين عانقه كبار الأمراء [3]، ثم بكيا وسارا متشابكي الذراعين

---

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٢٤ .
(٢) ابن تغرى بردى: النجوم جـ ١٢ ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٣) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ٨٧ أ.

الدنيـا ومنـهم من رجع ومنهم من لـم يرجع وامـا
سـمنود فـما خليت وبقيت عامـرة وسكنوها ناس
كثيـر من اهل البـلاد وكـان واليها نعتـه نور الدين
علي وكان حازم طول ليله يدور حوالها والناس تنام
في المراكب وعلى البـحـر مـا يروعـهم مـروع
ولاخرج منها واحد ولما كان يوم الثلثا السابع عشر
من ذو القعدة حمل عماد الدين ابن المشطوب بين
الملك الكامل وبين اخوه الملك الفايز كـلام افسـد

نحو المصطبة السلطانية، حيث دارت المناقشات في طريقة إعادته عرشه. وخلع السلطان على ابن أويس بالخلع ثم عاد إلى القلعة حيث امتلأت صحراء الريدانية والشوارع المؤدية إلى القلعة بالناس، الذين خرجوا لاستقبال ابن أويس. وبعد انتهاء الموكب اتجه ابن أويس إلى قصر الضيافة في بركة الفيل حيث أرسل له السلطان مائتي ألف درهم فضة، ومائتي قطعة قماش وثلاثة أفراس وعشرين مملوكاً وعشرين جارية[1].

وكأنما أراد تيمور لنك أن يحدد طريق فتوحاته المقبلة فأرسل من بغداد سنة ٧٩٥ هـ ـ ١٣٩٣م إلى القاضي أبي العباسي أحمد صاحب قيصرية وتوقات وسيواس، رسالة سبّه فيها وهدده «بقوته التي لا تقام»، وبشره «بالمستقبل المظلم» إن لم يعلن طاعته له. غير أن أبا العباس أحمد الذي تحالف مع السلطان برقوق منذ ٧٨٥هـ قطع رءوس كبار رسل تيمور لنك وعلقها في أعناق باقي الرسل، ثم أرسل نصف الرسل إلى السلطان برقوق والباقين إلى السلطان العثماني بايزيد مع كتابين تعجل فيهما مساعدة كل منهما. وسرّ كل من السلطانين برقوق وبايزيد برسالة أبي العباس وما قام به، ورد كل منهما على رسالته باستعداده لتقديم كل عون لصاحب قيصرية لمقاومة تيمور لنك[2].

(١) ابن تغرى بردى: النجوم جـ ١٢ ص ٤٦ ـ ٤٧ .

(2) Ibn Arab Shah: Tamerlane, pp. 89 - 91.

قلوبهما بعضها ببعض وذكر عنه انه حالف الملك الفايز على قتل الملك الكامل ويملك الملك للفايز، وكان جنديا من اجناد الملك الكامل حاضر معهم فمضى اليه واعلمه بكلما جرى وقال له انج بنفسك فقام من خيمته وركب في الليل وساق مع اصحابه وخواصه ومماليكه ولم يشعر به احد الى اشمون(*) ونزل فيها. ولما اصبحو الاسرا طلبوه فلم يجدوه اضطرب العسكر فلما سمعو انه نزل

(*) اشمون: هي من أقدم المدن المصرية فتاريخها يمتد إلى الممالك الفرعونية وكان اسمها=

ثم إن تيمور لنك أرسل من بغداد فى نفس السنة «أكتوبر سنة ١٣٩٣م» بعثة إلى السلطان برقوق رأسها رجل ذو مواهب وقدرات خاصة هو الشيخ السواح، وزوده بهدايا عديدة وقيمة، وكتاباً إلى السلطان برقوق[١]، وحين وصلت بعثة تيمور لنك إلى الرحبة على الحدود الشرقية للدولة المملوكية الثانية[٢]. أرسل متولى تلك الناحية إلى السلطان برقوق يستأذنه فى تمكينهم من الدخول إلى البلاد، وأعلمه أن معهم هدية من ضمنها مماليك وجوار وغير ذلك. فأمر السلطان برقوق بالقبض عليهم بمكانهم وارسال ما معهم من الهدايا وكتاب تيمور لنك. وحين وصلت الهدايا إلى السلطان برقوق وجد فيها نفس الأسلوب الذى تعامل به مع ملوك الدول التى قهرها، إذا اشتملت الهدية على أسرى من أعيان بغداد وقضاتها[٣]. كما أن كتاب تيمور لنك إلى السلطان برقوق أشتمل على نوع من التهديد، إذ طالب تيمور لنك رسوله أن يناقش السلطان المملوكى فى أسباب الأضرار الجسيمة التى لحقت ممتلكات المغول من حكام مصر السابقين، وأن يلفت نظر السلطان برقوق إلى الاضطرابات التى قامت بها الدولة المملوكية الأولى عقب موت ايلخان بن سعيد سنة ٧٣٦هـ ـ ١٣٣٥م[٤]، وطالب

(١) مير خواند : كتاب روضة الصفا جـ ٦ ص ٢٠٩ .

(2) Bouvet: L'Empire Mongol, p. 49 .

(٣) السلوك جـ ٣ خطية ص ٧١٤ .

(٤) انظر Browne: Litrary Hist. of Persia, VII, p. 159.

على اشمون لحقوه وكان فى العسكر ضجة حتى تركو خيمهم واموالهم ومواشيهم فلما اصبح الصبح يوم الثلثا سابع عشر ذو القعدة عدت حراقة من الفرنج للقتال فلما يخرج لها احد فدخلت البر فلم يرو فى الخيم احد والخيم كلها منصوبة والبسط فيها مفروشة والخيل والبغال والجمال حولها مربوطة وليس فيها انسان، عادة [عادت] الحراقة واخبرة الفرنج فقالو هذه مكيدة

= الفرعوني «شمون» أى «ثمانية» و ذلك لأنه كان بها ثامون مقدس ـ ومنه جاء الاسم القبطى: Chemoun Erman الذى عرف فى العربية باسم أشمون الرمان، ثم بأشمون طناح لأنها كانت مدينة أعمال الدقهلية والمرتاحية. و تنسب أشمون إلى طناح لأنها كانت معها فى كورة واحدة. وفى فترة الاحتلال العثمانى أعيد إليها اسمها القبطى وهو شمون أرمان محرفاً إلى أشمون الرمان. وكانت من هذه الفترة من أزهى

كذلك بطرد أحمد الجلايرى[1]. ثم بين تيمور لنك فى كتابه أن حدود بلاده أصبحت تمتد من سمر قند إلى حدود العراق العربى الملاصقة لحدود بلاد الدولة المملوكية الثانية. وأن أهالى هذه المنطقة يتمتعون بحمايته، وعلى السلطان المملوكى أن يرعى الحدود الجوار وأن يقوى أواصر الصداقة معه بتبادل الرسل، وأن يمكن تجاره من ممارسة عملهم والانتقال من مكان لآخر آمنين[2].

غير أن الكلام المسعول الذى ورد فى نهاية هذه الرسالة لم يعجب السلطان برقوق. وبرغم أن السلطان خالف القواعد المرعية بين الدول وقتذاك، فأمر نائبه بقتل رسل تيمور لنك[3]، وأعلن عداءه الصريح له، فإنه كان على حق فى مسلكه مع هذا الداهية الذى لم يكن يؤمن جانبه مطلقاً.

ووضح أن ثمة تعاوناً فعلياً بدأ فى هذه السنة (٧٩٥هـ) بين السلطنة المملوكية الثانية وجيرانها من الدول الإسلامية فى الشرق الأوسط من أجل صد خطر التتار الذى هددهم جميعا. يضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن قرا يوسف التركمانى زعيم قبيلة قرة قويونلو «الشاة

(1) Bouvet: op. cit. p 49 .

(2) Price: Memoirs, VIII. p 160' Yazdi: Op. Cit. pp. 440 _ 441.

(٣) ميرخواند : كتاب روضة الصفا جـ ٦ ص ٢٠٩ .

عملوها علينا المسلمين فطلعو منهم قوم الى منارة جامع الحيرة لينظرو ان كان تم كمنا [كمينا] فلم يرو احد فنزلو اعلمو الملك فامر ان يعمر شنى [مركب] برجال ابطال يعدى الى الخيم بكشف الخبر فعدو وكشفو الخيم من اولها الى اخرها فلم يجدو فيها احد فعادو واعلموهم فسير المراكب والرجال فحملو الخيم وكلما فيها من الاموال والاوانى والدواب وشون القمح و الشعير والحبوب

=واشهر المدن المصرية. وفى الدول الناصرى سنة ٧١٥هـ ضم إقليما الدقهلية والمرتاحية إلى بعضهما وجعلت أشمون هذه قاعدة لهما لتوسطها بينهما بعد أن كانت دقهله قاعدة لإقليم الدقهلية و فى أوائل الاحتلال العثمانى أى فى سنة ٩٣٣هـ جعلت المنصورة قاعدة لولاية الدقهلية ومن ذلك الوقت أضمحلت أشمون الرمان وأصبحت قرية عادية من قرى مركز دكرنس.

السوداء»[١]. اشتبك رتحذاك مع «أطلمش توجين» قائد «قلعة أزنيك[٢]» وقريب تيموز لنك. وبعد أن اعتقله أرسله إلى السلطان برقوق الذين سجنه بنوره[٣]. وبرغم غضب تيمور لنك من هذا العمل الجرىء ومن رد كل من السلطان المملوكى وصاحب قيصرية، وتحدى كل منهما له، فضلاً عن تحدى السلطان العثمانى له كذلك، فإن تيمور لنك لم يتحرك نحو واحد منهم خشية أن يتقدم لمعاونته الآخران[٤].

بيد أن تيمور لنك وجد أن بقاءه فى بغداد يعرض قواته لخسارة كبيرة بسبب قلة المئونة بهـا[٥] ولذا اتجه نحو الشمال الغربى ليهاجم أعداءه على انفراد قبل أن تتوحد جهودهم. فاستولى فى ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ ـ مارس ١٣٩٣م على ماردين بعد حصار قاس، ثم اكتسح أرمينيا الكبرى، ثم عرج على بلاد قرا يوسف التركمانى، واكتسح بعدها بلاد الجراكسة فى شمال شرق البحر الأسود. ولم تقف السلطنة المملوكية الثانية مكتوفة الأيدى إزاء تحركات تيمور لنك ، بل اصطدمت جيوش نائب حلب، ونائب ملطية، بطلائع جيوش

(١) تقع على حدود جورجيا ـ راجع Grousset: Op. Cit. p 512

(٢) تقع هذه القلعة فى كورة باسين فى ارزروم ـ راجع مراصد الاطلاع جـ ١ ص ١٠٤.

(٣) خواند امير: حبيب السير جـ ٣ ص ٥٦ .

(4) Ibn Arab Shah: Op. Cit. p 94.

(5)Yazdi: op. Cit.p 442.

وكلمـا للسلطان والامـرا والتـجـار وملكو امـوال
لاتحصى بلاسيف ولاقتال بامر الله ومشيته واخذو
من النعم والامـوال والدواب والزاد والسـلاح مـالا
يدرك له قـيـمـة ولايحـصى له عـدد واتو به الى
خيمـهم واخذو اساره [أسرى] كثير من المسلمين
غلمان وغيرهم خلاف ما قتلوه خلق كثير. وفى
بقيـة يومـهم قدمو البطس والمراكب الكبـار وعـدو
بالخيل والفـرسـان الى بر دمـيـاط ونزلو الفـرنج فى

تيمور لنك عندالرها. وتمكن جيشا النائبين من هزيمتها وأسرا من اللنكية عدداً كبيراً على حين هرب باقى التتار[1].

وحين وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرع السلطان برقوق بإعداد جيش ضخم لمحاربة تيمور لنك ، كما قرر التوجه بنفسه على رأس هذا الجيش. وعلى حين كنت الاستعدادات لتعبئته على قدم وساق ورد على السلطان برقوق كتاب آخر من تيمور لنك. وبدأ تيمور لنك كتابه بتهديد السلطان برقوق بالويل والثبور إن لم يعلن تبعيته له، كما اتهمه بظلمه لرعيته وقبوله الرشوة من الحكام وغير ذلك من عناصر الإثارة، ثم عنفه على قتله لرسله السابقين، وأنكر عليه إيواءه لأحمد بن أويس، وطالبه بإرساله ورد جوابه[2].

أما السلطان برقوق فإنه كتب رده مبدوءاً بالبسلمة، ثم أخذ فى نقد ما جاء فى كتاب تيمور لنك من العبارات الشديدة اللهجة واتهم تيمور لنك بالكفر والإلحاد وأعلن نفسه حامياً للإسلام ضد أى اعتداء، وأنه لن يعلن طاعته إلا «لأمير المؤمنين وخليفة رب العالمين»[3].

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) راجع المقريزى: السلوك جـ ٣ الخطية ص ٧٢٠ ، ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٦٦ ـ ٦٧.

خيم المسلمين على العادليه وتقدمو الى دمياط ونزلو عليها واختلطو بها، فقطعو اهل دمياط قنطرة باب الريس وكانو يقاتلو الفرنج الى ان وصل الملك المعظم عيسى الى اشمون يوم الاثنين الثالث والعشرون من ذو القعدة سنة تاريخه فوجد الفرنج محيطين بدمياط فسال اخوه الملك الكامل عن القضية فاعلمه ان عماد الدين ابن المشطوب افسد عليه العسكر واستحلف الاكراد ان يقتلوه


وصول كونت أرتوا أخي الملك لويس التاسع إلى القصر السلطاني بالمنصورة.

وتعطينا المصادر المعاصرة صورة واضحة عن مدى استعدادات السلطان برقوق لمواجهة تيمور لنك إذ تذكر أنه جند كل القوى للسفر معه إلى الشام[١]. ونظراً لأن منطاش ترك خزائن الدولة خاوية فإن السلطان اضطر لاقتراض مبالغ طائلة من تجار القاهرة لتغطية النفقات[٢]، ثم قبض على ثلاثمائة من الأجناد البطالين وسجنهم بخزانة شمائل[٣]، وأشرف السلطان برقوق بنفسه على ترتيب الجيش الذى سار «فى أبهج زى وأفخر هيئة وأحسن ملبس، كما كانت آلات الحرب مذهبة ومفضضة ومزركشة[٤]. وسار السلطان فى ربيع الثانى سنة ٧٩٦هـ ـ أبريل سنة ١٣٩٤م على رأس هذا الجيش الضخم، وصحب معه أحمد بن أويس وأتباعه.

ويبدو أن تيمور لنك وجد أن الظروف غير ملائمة للدخول فى معركة مكشوفة مع السلطان برقوق لاسيما وأن طقتمش ايلخان بلاد الدشت والسراى وما جاورها هاجم بلاده، فاضطر إلى الاشتباك معه، ثم زحف شرقاً نحو الهند تاركاً بغداد تحت حكم ابنه ميران شاه[٥].

(١) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٧٢٤ .
(٢) العينى: عقد الجمان جـ ٢٤ ورقة ٣٦٢ ـ ٣٦٣ .
(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٧٨ .
(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٤ ـ ٥٥ .
(٥) العزاوى: تاريخ العراق جـ ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .

ويملكو الفـايز ، وانه هرب منهم في الليل وترك كل شي له خوفا على نفسـه، فلما سـمع كـلامه جـهـز ثلثـون فـارس وثلثين هجين بثلثين راجل (مـشـاة) من العـرب و احـضـر عـمـاد الدين ابن المشطوب فلمـا حـضـر بين يديه قـال له: مـا هذه الاعـمـال التي فـعلتـهـا[؟] طلبت تقـتـل السـلطان وتكون سلطـان ولو علـمت قـدر نعـمـة الله عليك علـمت انك اروح سـر من السـلطان واهنى عيـشـا



مندوبى الصليبيين يطلبون اسراهم من مندوبى توران شاه بعد هزيمتهم فى المنصورة.

أما السلطان برقوق فإنه برغم علمه برحيل تيمور لنك فإنه استمر يتقدم بالجيش حتى وصل إلى دمشق فى ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ ـ مايو ١٣٩٤م ومن هناك أرسل عسكره إلى الحدود الشرقية والشمالية لمواجهة أى هجوم مفاجئ قد يقوم به تيمور لنك[١]. وفى دمشق لمس السلطان برقوق موقف الدول المجاورة مرة أخرى، إذ أن رسل طقتمش ، الذى تقهقر أمام تيمور لنك إلى حدود بلاده، قدموا يعرضون معاونة طقمش للسلطان ورغبتهم فى عقد معاهدة دفاعية مع السلطان ضد تيمور لنك[٢]. كما أرسل السلطان العثمانى بايزيد رسله يعرض رغبته فى محالفة السلطان برقوق فى حربه مع تيمور لنك[٣]. ورد السلطان برقوق على كل منهما بالشكر فقط على هذا العون ضد الخطر التتارى[٤]، غير أنه لم يرتبط مع واحد منهما بارتباط معين، بل جعل همه أن يكون شرف استعادة بغداد من نصيب الدولة المملوكية الثانية فقط.

وكتب السلطان برقوق لأحمد بن أويس تقليداً بنيابة السلطنة[٥] ببغداد، وزوده «بالأمراء

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٥٦ .
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٣٨١ .
(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٠٢ .
(٥) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٣٧١ .

منه فاى شي طلبت تكون. وامر الاجناد القيام قدامه فرموه. [هذا] اخر ما وجد من اخبار الابا البطاركة بالكرسي المرقصي رزقا الله تعالى قبول دعاهم الصالح(*).

(*) هذا آخر الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع والأخير من المخطوط.

والمماليك والخيل والجمال والسلاح والنقد بما أدهشه»[1]. ثم بعث أحمد بن أويس على رأس هذا الجيش إلى بغداد فى أواخر جمادى الثانى سنة ٧٩٦هـ - يونية سنة ١٣٩٤م فتمكن أحمد بن أويس بهذ الجيش المملوكى وبمعاونة قرا يوسف التركمانى من هزيمة ميران شاه واستعادة بغداد. وأخذ فى بناء سورها وتعميرها[2].

والواقع أن دولة المماليك الثانية أثبتت وجودها، وبرهنت على قوتها بين دول الشرق كله إذا أصبحت بغداد تابعة لها، ولو على هذه الصورة الشكلية التى أصبح بمقتضاها أحمد بن أويس نائباً من قبَل السلطان برقوق فيها، وضربت سكتها باسم السلطان برقوق. ثم إنه حين شاعت أخبار هذا النصر أرسل السلطان العثمانى بايزيد إلى السلطان برقوق يخبره بأنه وضع تحت طلبه مائتى ألف مقاتل لعونه على حرب تيمور لنك، كما قدم حكام الأمارات التركمانية المحيطة بدولة المماليك الثانية يعلنون طاعتهم للسلطان برقوق[3].

غير أن السلطان برقوق الذى أحرز هذا النصر رأى أن يقف عند هذا الحد، دون أن يهمل

(١) العسقلانى: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣٧١ .

(٢) البغدادى: عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٨ ، ذكر العسقلانى فى إنباء الغمر أن الأمير العربى نعير أرسل إلى السلطان برقوق أنه استولى على بغداد وخطب له فيها، غير أن باقى المصادر اجمعت على أن أحمد بن أويس، بمعاونة الجيش المملوكى ، طرد ابن تيمور لنك من بغداد واستولى عليها.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ (خطية) ص ٧٣٣ ، ص ٧٤٧ .

مراقبة حركات تيمور لنك، ثم إنه حين بدا للسلطان برقوق ابتعاد الخطر التيمورى عاد إلى القاهرة بعد أن جدد قلاع سوريه وترك عدداً من العساكر كافياً للمحافظة على سلامتها(١).

بيد أن تيمور لنك رغم انشغاله فى غزواته لقلعة تكريت فى ربيع الأول سنة ٧٩٧هـ فبراير ١٣٩٥م، وروسيا فى ربيع الثانى من السنة نفسها، والهند سنة ٧٩٩هـ وسنة ٨٠هـ ـ سنة ١٣٩٨م (٢) واكتساحه لعدد كبير من بلاد الشرق الأوسط، لم يكف عن مناوأة السلطنة المملوكية الثانية، إذ أرسل فى ديسمبر سنة ١٣٩٨م رسله إلى السلطان برقوق يطلب منه مرة أخرى أن يطلق سراح قريبه أطلمش. وحين وصلت الرسل إلى حدود سورية أمر السلطان برقوق بإبقائهم وإرساله الكتب التى معهم إلى مصر؛ ثم أمر السلطان برقوق أطلمش أن يكتب إلى تيمور لنك كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه «من الخير والإحسان بالديار المصرية (٣)». وأرسل السلطان برقوق كتاب أطلمش مع كتابه الذى تضمن أنه لن يطلق من عنده من جهة تيمور لنك إلا إذا أطلق تيمور لنك من هم عنده من جهة السلطان برقوق(٤).

ومهما يكن من شيء فقد بلغت قوة السلطان برقوق درجة أفزعت تيمور لنك حتى إنه لم يجرؤ على التقدم غرباً نحو بلاد الدولة المملوكية الثانية إلا بعد أن وصلته أنباء وفاة السلطان برقوق والقاضى أبى العباس أحمد صاحب قيصرية، وما تبع وفاتهما من اضطراب بلادهما.

وأظهر تيمور لنك سروره لهذه الأنباء(٥). واتخذ من مسألة أطلمش ذريعة للاشتباك بالسلطان فرج، وبدأ تيمور لنك يجهز للزحف على الدولة المملوكية الثانية قبل أن يتمكن السلطان المملوكى الجديد من ترتيب أموره، أو محاولة الاتصال بالدولة المجاورة، وعلى الأخص الدولة العثمانية التى حمل تيمور لنك لها أشد الكراهية؛ لأن السلطان بايزيد استولى على بلاد كثيرة من أملاك السلاجقة من بنى قليج أرسلان، الذين سبق أن احتموا بتيمور لنك (٦).

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ٤ (خطية) ص ٣٣ .

(2) Browne: op. Cit. p 193 .

(٣) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ ٩ ص ٤٥٢ .

(٤) العينى: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٤ .

(5) Ibn Arab Shah : tamerlane p. 100.

(٦) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ ٢ ص ٥٥

وفي صفر سنة ٨٠٢هـ ـ يوليه سنة ١٣٩٩م غادر تيمور لنك الهند، وبعد أن وصل أذربيجان اتخذ من تبريز مركزاً له لإرسال الحملات إلى الجهات التى أزمع غزوها[١]. ومن هناك كذلك أرسل كتبه إلى هذه الجهات، ومنها كتاب بايزيد يطلب منه برقة ألا يساعد قرايوسف التركمانى أو أحمد بن أويس، وأن يقف محايداً فى هذه الحرب القادمة معهما، كما وقف هو محايداً فى حرب بايزيد مع الفرنج سنة ١٣٩٦[٢]، غير أنه لم يكن من الميسور أن يتخلى السلطان بايزيد عن هذه الدول التى طلبت أن تكون فى حمايته، فضلاً عن أن بايزيد أدرك تماماً نوايا تيمور لنك، فرد على كتابه بكتاب شديد اللهجة جاء فيه: «ليس من عادة الأتراك أن يتركوا رجلاً طلب مساعدتهم». ثم أعلن أنه سيزحف عليه بجيش قوى يتبعه أينما ذهب[٣].

وأدرك تيمور لنك أنه لا فائدة من محاولة الاتفاق مع بايزيد أو غيره، وتصادف وقتذاك أن اضطربت الأحوال فى بغداد بسبب ثورة أمرائها على أحمد بن أويس وطرده فتقدم تيمور لنك فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٨٠٢هـ ـ ديسمبر سنة ١٣٩٩م ، واستولى على بغداد للمرة الثانية. أما السلطان أحمد بن أويس وحليفه قرا يوسف التركمانى فإنهما اتجها غرباً لا ئذين بالسلطان المملوكى حتى أشرفا على حلب، وبعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب فى نزولهما لديه. غير أن دمرداش لم يكن مستعداً لتحمل نتيجة وجودهما فى حلب فى نحو سبعة الاف من فرسانهما[٤]. فقاتلهما بمعاونة عسار دقماق نائب حماة. ولكن دمرداش هزم وفر إلى حلب ولحقه دقماق بعد أن فدى نفسه من الأسر مائة ألف درهم[٥]، وكتب ابن أويس وقرا يوسف إلى السلطان فرج يعتذران بأنهما إنما اضطرا إلى الاصطدام بجيوش نائب حلب وحماة دفاعاً عن أنفسهما، وأنهما جاءا إلى بلاد الدولة المملوكية مستجيرين على عادتهما، غير أن سوء سياسة الناصر فرج ومجلس المشورة من كبار أمرائه دفعتهم إلى إهمال كتب أحمد بن أويس

(1) Lamb: La VieDe Tamerlane p. 204.

(٢) حرب نيقوبوليس، أنظر Yazdi : Zafarnama VII pp. 149 - 150.

(3) Ibid p. 150 .

(٤) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦٢ .

(٥)ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢١٥ .

وقرا يوسف التركماني، ومناصبتهما العداء. وبدلاً من الاستعانة بقواتهما في هذه الظروف الحرجة، وبدلاً من ظهوره بمظهر والده في سياسة الحرص على تزعم العالم الإسلامي والحرص على وحدته، كتب السلطان فرج إلى نائب دمشق بمسيره لقتالهما، فاضطرا إلى الالتجاء إلى السلطان بايزيد الذى أكرمهما، وعقد معهما محالفة مما أثار حفيظة تيمور لنك على بايزيد وجعله يتقدم نحو حدود بلاد السلطنة العثمانية[1].

وبدأ تيمورلنك عملياته الحربية بالإغارة على سيواس ونائبها أمير مصطفى التابع لابن عثمان[2]. وهنا تقدمت الجيوش العثمانية بقيادة سليمان بن بايزيد في سنة ٨٠٣هـ ـ يوليه سنة ١٤٠٠م وحمل تيمور لنك على الجيوش العثمانية وهزمها؛ وفر سليمان إلى أبيه في مدينة بروصا ومعه حليفه قرا يوسف التركماني، وأخذ تيمور لنك مدينة سيواس، «وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وهدم أسوارها وأزال بهجتها»[3].

غير أن ثمة خطأ آخر وقع فيه السلطان فرج وأمراء الدولة المملوكية الثانية في هذا الوقت بالذات، ولو لم يحدث لغيّر مجرى الحوادث، ذلك أن السلطان العثماني بايزيد طلب محالفة السلطان المملوكي فرج لإمكان الوقوف في وجه الخطر التيموري، غير أن الذين بيدهم أمور الدولة رفضوا محالفة السلطان العثماني بسبب تحركات الجيوش العثمانية عقب وفاة السلطان برقوق واستيلائها على ملطية سنة ٨٠١ هـ. ويبين ابن تغرى بردى خطر موقف أمراء دولة المماليك الثانية من هذه المحالفة، وأوضح أهميتها آنذاك في قله الدراية الحربية التي كانت تنقص الجيش المملوكي والتي كان يمكن تعويضها من ناحية الجيش العثماني في فنون الحرب، في حين أن قلة عدد عساكر «ابن عثمان» يمكن أن يعوضها كثرة العساكر المملوكية[4].

وكيفما كان الأمر، فقد تقدم تيمور لنك وزحف على ملطية في ٢٥ المحرم سنة ٨٣هـ ـ

(١) البغدادي : عيون أخبار الأعيان ورقة ٤٩٠ .
(٢) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٦٣ أ.
(٣) نفس المرجع والجزء ورقة ٦٣ ب.
(٤) بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢١٧ .

أكتوبر سنة ١٤٠٠م وأبادها على عادته[١]. ومن هناك أرسل تيمور لنك كتابه الأول إلى السلطان فرج. وفي هذا الكتاب فند تيمور لنك للسلطان فرج أخطاء أبيه، من قتله لرسله واعتقاله لأطلمش وغير ذلك، وتوعده بالانتقام المريع إن لم يسارع بإطلاق سراحه، وأنه سيصب انتقامه على الشعبين السورى والمصرى إن لم يجبه إلى مطالبه[٢]. وحين وصل رسل تيمور لنك إلى حلب بهذا الكتاب قبض عليهم نائبها ـ كالعادة ـ ليخبر السلطان أولا بمجيئهم . غير أن فرج، جرياً على تقاليد والده، أرسل يأمره بربط الرسل وإلقائهم فى السجن.وأضاف هذا التصرف الشائن من جانب فرج دليلا آخر على جهله وأمرائه بأمور السياسة فى هذا الوقت الذى تحرج فيه الموقف على حدود سورية. وحين عرف تيمور لنك هذا الأمر تحركت فيه مكامن الغيظ والرغبة في الانتقام مما فعله برقوق وابنه فرج فى رسله؛ وقرر فوراً ترك الانتقام من السلطان العثمانى والزحف أولا على بلاد السلطنة المملوكية الثانية ليبيد كل ما فيها بالنار والسلاح[٣].

زحف تيمور لنك في رجب سنة ٨٠٣هـ ـ نوفمبر سنة ١٤٠٠م على البهسنا[٤]. التى أعد نائبها «الأمير مقبل» عدته للدفاع عنها، غير أنه حين وجد ضخامة جيش تيمور لنك تملكه الذعر، وأرسل إلى تيمور لنك يعرض رغبته فى التسليم مع الاعتراف بعجزه وحاجته لمعونة تيمور لنك، فأجابه لما أراد وأحسن استقباله، وفى الحال سكت نقود جديدة باسم تيمور لنك، ودُعى له فى خطبة الجمعة بهذه المدينة[٥]. وبعد أن استولى تيمور لنك على البهسنا بهذه الصورة السهلة، زحف إلى عينتاب شمال حلب. وعلى الرغم من أن عينتاب امتازت بأسوارها الضخمة ومناعتها فإن مفاتيحها سُلمت إليه، وفتحت أبوابها، فعين تيمور لنك عليها نائباً من قبله، وفر نائب عينتاب إلى حلب[٦].

---

(1) Ibn Arab Shah: Tamerlene p. 116

(٢) Yazdi: Op. Cit VII p. 159 .

(3) Ibid: p. 160

(٤) البهسنا قلعة بغرب مرعش وسميساط وهى من أعمال حلب. انظر مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٨٣ .

(5) Ibid: p.p. 163 _ 164.

(6) Ibid: p.p. 164 _ 165 .

والعجيب أنه حين تحدق الأخطار بدولة المماليك الثانية ويزداد الرعب في سورية من زحف تيمور لنك يزداد تنافس الأمراء فى مصر على النفوذ، ويدبرون الفتن من أجل ذلك[1]. وتحت الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة التى أحاطت بالدولة، اجتمع السلطان فرج والأمراء بالخليفة والقضاة وأعيان الدولة لطلب المال من التجار للمعاونة فى نفقة العساكر. ولم يكن فى وسع القضاة الامتناع عن الفتوى فى أخذ نصف الأوقاف لإقطاعها للأجناد البطالين لإمكان تعبئتهم لقتال تيمور لنك[2].

وتحايل تيمور لنك لصرف أمراء سورية عن القتال فكاتب سودون نائب دمشق أنه إنما زحف على سيواس لتأديب السلطان العثمانى، وأنه بقدومه إلى مصر أراد أن تُضرب السكة باسمه، وأن يذكر اسمه فى الخطبة، ثم يرجع بعد أن يقر فى مصر سلطاناً يرضى عنه، وأنه ليس له من قصد سوى طلب أطلمش قريبه المقبوض عليه[3]. غير أن سودون نائب دمشق فوت عليه حيلته وأمر برسول تيمور فوسّط[4].

وإزاء هذا التحدى الصارخ من نائب دمشق، زحف تيمور لنك على حلب التى اجتمع فيها نواب سورية بجيوشهم ، فنزل فى أول ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ ـ نوفمبر سنة ١٤٠٠ م على بزاعة (إحدى قرى حلب)[5]، فتصدى له الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس، وحدثت بينهما مناوشات جعلت تيمور لنك يتوقف قليلاً عن الزحف. وتؤكد المصادر الفارسية أن جيش السوريين كان ضخماً، وتكون من أحسن المحاربين، وزود بأسلحة كافية لصد أى هجوم[6]. غير أن فقدان التعاون بين الأمراء أضاع الكثيرمن الفرص وعرّض سورية للضياع، وليس أدل على هذا من أن الأمير شيخ جمع نواب دمشق وطربلس وحماه وصفد وغزة فى حلب، وعرض عليهم خطورة الموقف، وقوة تيمور لنك ودهاءه ونصحهم بضرورة التعاون

(1) Grousset: Op, Cit. p. 527

(٢) المقريزى: السلوك (شمسية) مجلد ١ ورقة ٢٣ .

(٣)ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٢ .

(٤) العينى: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ١٢٤ .

(٥) راجع الأنصارى: نخبة الدهر ص ٢٠٥ .

(6) Yazdi: Op. Cit. VII p. 161

بينهم جميعاً، وبين الأعراب والأكراد والتركمان لمواجهة هذا الخطر ، كما أشار شيخ فى هذا الاجتماع بغلق المدينة وضرورة خروجهم جميعاً إلى خارجها للقاء تيمور لنك ، ووضع خطة ملخصها أن يتقدم العرب والأكراد والتركمان لمناوشة تيمور لنك حتى يمكن للفرسان والمشاة من الجند السورى أن يهاجموه من جميع النواحي[١]. غير أن هذه الخطة لم تحظ بقبول أكثر الأمراء. ومع أن نواب سورية فى عهد برقوق أسهموا بقسط كبير فى صد الإغارات الآسيوية عن دولة المماليك الثانية، فإنه من المخجل أن يختلف الأمراء وقتذاك فى سورية على الزعامة فى هذا الوقت الحرج الذى تأخر فيه السلطان فرج عن الحضور بسبب انصراف امراء مصر كذلك إلى التنافس على النفوذ والسلطة[٢].

وكيفما كان الأمر، فقد عمد تيمور لنك مرة أخرى إلى سياسة التفرقة بين الأمراء، فأرسل إلى دمرداش المحمدى نائب حلب يعده باستمراره على نيابته لو قبض على سودون نائب دمشق، وجاء فى كتاب تيمور لنك إلى دمرداش نائب حلب «إنا لما وصلنا فى العام الماضى إلى البلاد الحلبية لأخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة.. فلما وصلنا العراق بلغنا موت برقوق ، فبلغنا أمر الهند وما هم عليه من الفساد، فتوجهنا إليهم، فأظفرنا الله بهم، ثم رجعنا إلى الكرج، فأظفرنا الله بهم، ثم بلغنا قلة أدب الصبى ابن عثمان فأردنا عرك أذنه ، فشغلنا بسيواس، وغيرها من بلاد ما بلغكم ثم قصدنا بلاد مصر لنضرب بها السكة ويذكر اسمنا فى الخطبة ثم نرجع بعد أن نقر سلطان مصر بها،... ونحن نرسل الكتب إلى مصر فلا يعود جوابها فنعلمكم أن ترسلوا قريبنا أطلمش، وإن لم تفعلوا، فدماء المسلمين فى أعناقكم والسلام[٣]».

ونشر تيمور لنك بوساطة رسله جواسيسه الذين انتشروا بين العساكر بأن دمرداش كاتبه لاحتلال حلب[٤]. غير أن هذه السياسة لم تفلح لإدراك الجميع مكر تيمور لنك ودهاءه، بل

---

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٨٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٧ .

(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلامن مجلد ٢ ورقة ١٧٣ .

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢١ .

على العكس زادتهم تمسكاً وعزماً على القتال دون انتظار وصول السلطان. على أنه مما يؤسف له أنه لم تكن لهم خطة واضحة يرضى عنها الجميع، بدليل أن دمرداش حين رأى مطاولة تيمور لنك ومهادنته ريثما ترتب الأمور، اتهمه الأمراء بالعمل مع العدو، وغضب دمرداش وبرأ جانبه بقتل رسول تيمور لنك، واحتفظ برأيه لنفسه(١).

وعلى حين أخذ النواب في الإعداد لمواجهة القتال داخل حلب استولى تيمور لنك على قرية جيلان، خارج حلب في ٩ ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ (نوفمبر سنة ١٤٠٠م). ثم تقدم لحصار حلب. وبرغم هذا الانقسام الذى ساد الأمراء، فإن أهل حلب استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم، وركبوا أسوار المدينة، وقاتلوا تيمور لنك أشد قتال، مما أخجل النواب وجعلهم يخرجون الجند خارج المدينة، ورتبوا عساكرهم فوقف سودون نائب دمشق فى الميمنة، ووقف دمرداش نائب حلب في الميسرة وكوّن عساكر النواب الآخرين قلب الجيش. غير أن سوء التعبئة والجهل بالنظم الحربية ظهرحين وضع الأمراء المشاة من جند حلب وأهلها ونساءها، وصبيانها، فى مقدمة الجيش مما سهل على تيمور لنك اكتساحهم(٢). ولم تجد مقاومة عساكر سورية بسبب مفاجأة تيمور لنك لهم بجيوشه وفيلته، ففرزا قاصدين داخل حلب رغبة فى الاحتماء بأسوارها(٣). فتتبعهم جيش تيمور لنك وهاجم المدينة بكل قواته التى قدّمت بنحو ثمانمائة ألف جندى(٤)، فهلك تحت حوافز الخيل من البشر ما لا يدخل تحت حصر. وتناقل المعاصرون هول الواقعة وازدحام الناس عند دخولهم من أبواب المدينة وكيف داس بعضهم بعضا «حتى صارت الرمم طول قامة»(٥). ولجأ تيمور لنك إلى إشعال النار بالمدينة حتى هرب سائر نساء البلد والأطفال إلى مساجد حلب، فهجم أصحاب تيمورلنك عليهم وربطوهم بالحبال وأعملوا فيهم السيف. ثم «صارت الأبكار تفتض من غير تستر والمخدرات يفسق فيهن

(1) Yazdi; Op. Cit. II p. 168.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٣.

(3) Price : Memoirs VIII. p. 330.

(4)Thoumin: Hist. De Sryie p. 245.

(٥) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ٩١.

من غير احتشام» وبذل عساكر تيمورلنك السيف فى عامة حلب وأجنادها، حى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى [١].

ومع أن القتال استمر أربعة أيام، فإن تيمورلنك لم يستطع ـ الاستيلاء على قلعة حلب[٢]. التى نقل إليها الناس أموالهم، والتى كافح فيها سودون ودمرادش كفاحا مريراً، حتى أعلن تيمورلنك تأمينهم ومن معهم من الأعيان والقضاة. ولكنهم بعد أن اطمأنوا إليهم أمر بحبسهم، ثم سيق إليه من بقى من نساء حلب سبايا، وبعد أن أخذ الأموال والجواهر والآلات الفاخرة ووزعها على أمرائه وأخصائه، أباح النهب والسلب والقتل فيمن بقى من أهل حلب، ثم أمر بقطع الأشجار، وهدم البيوت، وإحراق المساجد حتى «جافت حلب ظواهرها من القتلى بحيث صارت الأرض منهم فراشاً لايجد الشخص مكانا يمشى عليه إلا وتحت رجليه رمة»[٣]. وتسلى تيمورلنك برءوس القتلى «فجعل منها منائر عدة مرتفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع فى دور عشرين ذراعاً»[٤]. وقبض تيمورلنك على سودون ودمرادش، وأرسل كتاباً إلى السلطان فرج يكرر فيه طلب الإفراج عن أطلمش حتى يمكنه الإفراج عن نائبيه وباقى الأسرى. ولكن السلطان فرج وأمراءه كانوا فى واد آخر.

وينعى ابن عربشاه على حكام حلب سبب هذه الهزيمة ويعز وها إلى سوء تدبيرهم مع قلة عدد عساكرهم فى وقت أخذ بعضهم يتهم الآخر بأنهم من عملاء العدو حتى فقدت بقيتهم الثقة فى قدرتهم على الدفاع عن المدينة. أما العسقلانى فيرى أن غباء دمرداش من أسباب هزيمة العسكر المملوكى خارج حلب، إذ أن دمرداش أثار الفتنة. بين التركمان والعرب حين أعان بعض التركمان على نهب أموال نعير أمير آل فضل، فغضب نعير من ذلك وانسحب بعربة قبل حضور تيمورلنك، وفقد دمرداش بذلك معونة العرب التى لم يكن يستهان بها فى مثل هذا الظروف[٥].

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٣.
(٢) تسمى هذه القلعة الشهباء لبياض حجرها ــ راجع الأنصارى: نخبة الدهر ص ٢٠٢.
(٣) القرمانى: أخبار الدول ص ٢٠٨.
(4)Yazdi: Op. Cit. VIII p. 176.
(٥) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٥٣١.

وبعد أن أقام تيمورلنك فى حلب مدة شهر تركها خاوية على عروشها خالية «من سكانها وأنيسها» مظلمة بآثار الحريق، وسار قاصداً دمشق، ومر ابنه ميران شاه بمدينتى حماه وحمص واستولى عليهما، وقام بنفس الدور الذى قام به والده فى حلب [١]. ثم احتل تيمورلنك بعلبك التى دهش جنده من جمال أسوارها وعظمتها[٢].

وأما أهل دمشق فإنه حين قدم عليهم نبأ استيلاء تيمورلنك على حلب وما فعله فيها، وأنه فى طريقه إليهم، ازداد رعبهم وتردد البعض بين البقاء فيها أو الفرار منها[٣]. وتحمس المخلصون منهم فى الدفاع عن مدينتهم ونادوا فى الناس بأن«من سافر نهب [٤]. وأن عليهم الرحيل من ظاهر المدينة إلى داخلها والاستعداد لقتال العدو، وهكذا بدأ الناس فى تحصين المدينة ونصبوا المجانيق على قلعتها، والمكاحل على أسوارها.

وكما قاوم أهل حلب أثبت أهل دمشق تصميما رائعا وإيمانا قوياً بقدرتهم على الدفاع عن المدينة، حتى ولو لم يحضر السلطان. وحين حاول تيمورلنك الاستيلاء على المدينة بخداع نائبها الجديد وهم النائب بالفرار ، رده العامة رداً قبيحا [٥].

والواقع أن تأخر السلطان فرج عن الحضور أضاع الكثير من الفرص لإبعاد الخطر التيمورى، فضلاً عن أنه فقد احترام العالم الإسلامى لتقاعسه عن مواجهة تيمورلنك .

وعلى الرغم من وصول السطان فرج إلى دمشق فى ٦ جمادى الأول سنة ٨٠٣هـ يناير ١٤٠١م فإن الأمراء بها ظلوا منقسمين، وأخذوا يكيلون الاتهامات بعضهم لبعض. وعاد الجراكسة يتهمون دمرداش نائب حلب، الذى تمكن من الفرار من الأسر، بالتواطؤ على هزيمة الجيش فى حلب، لأنه من الأتراك، وأنه فعل ذلك بغضاً فى الجراكسة، وأنه لوثبت بعسكره لاستطاع هزيمة تيمورلنك [٦].

---

(١) السلامى: مختصر التواريخ ورقة ٩٠ ب.

(2)Yazdi: Zafarnama II p. 180.

(٣) ابن عربشاه : عجائب المقدور ص ٩٥.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٢٧.

(٥) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤.

(٦) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٧٤ ـ ١٧٥.

بيد أن وصول السلطان فرج إلى دمشق أعاد الثقة والطمأنينة إلى نفوس أهل دمشق الذين أخذوا يبتهلون إلى الله بنصرته. وعسكر فرج بجيشه في سهل يلبغا على بعد ميلين من الأسوار القبلية لدمشق؛ أما تيمورلنك فإنه زحف بسرعة من بعلبك إلى قطنة - إحدى قرى دمشق - ثم عسكر على المرتفعات المشرفة على قبة يلبغا في نقطة يشرف منها على تحركات الجيش المملوكي. وظل على هذه الحال مدة شهر اشتبك فيه الجيشان ثلاث مرات دون نتيجة حاسمة[1]. وفي المرة الأخيرة حمل تيمورلنك بنفسه على الجيش المملوكي، فدفعته ميمنة السلطان وردته إلى موقفه بعد أن كبدته خسائر فادحة حتى اضطر تيمورلنك إلى أن يبعث إلى السلطان فرج مرة أخرى في طلب الصلح على أساس إطلاق أطلمش، وسك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة [2]. واستقبل السلطان فرج رسول تيمورلنك هذه المرة على غير العادة بالحفاوة والإكرام اللائقين. وبعد عرض عسكرى كبير أمام رسول تيمرولنك الثانى، الذى وعد فيه السلطان فرج تيمورلنك بإطلاق أطلمش في ظرف خمسة أيام، وأنه على استعداد لإعادة علاقات الود معه بعد هذا [3].

ولم يكد تيمورلنك يقرأ خطاب السلطان فرج حتى لمس من عباراته علامات الضعف، فزحف على غوطة دمشق [4] بعد ذلك بعشرة أيام، فسلمت له دون قتال. وعقد مجلس الأمراء للمشاورة في أمر التقدم للهجوم على تيمورلنك بدلاً من انتظار وقوع الكارثة، وأبدى معظم الأمراء فشل التقدم بسبب خسائر الجيش المملوكي، وما لحق الناس من الضرر وأن ما بقي من قوات من أجل الدفاع فقط [5]. وعاود الأمير تغرى بردى النصح في ضرورة قبول الصلح في هذه الظروف الحرجة، وبسبب ما عليه العسكر من اختلاف الكلمة. فكتب

---

(١) ابن خلدون: التعريف ص ٣٦٧.

(٢) Yazdi : Op. Cit VIII p. 184.

(٣) شرف الدين على يزدى: ظفر نامة جـ٢ ص ٣١٧.

(٤) غوطة دمشق سهل يحيط بدمشق طوله نحو ١٨ ميلاً وفى أطرافه جبال عالية وترويه عدة أنهار راجع Le Strange : Palesline p. 33.

(٥) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٥.

السلطان فرج إلى تيمورلنك مرة أخرى بموافقه على الصلح مع الاعتذار عن الهجوم الذى قام به بعض الأمراء فى الليلة السابقة ١٩من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ ـ سنة ١٤٠١م، وأنه سيطلق الاسرى من عنده فى اليوم التالى. غير أن هذا الخطاب زاد موقف فرج ضعفاً، ولاسيما أن عيون تيمور لنك أوقفوه على حقيقة الحال فى داخل دمشق مما جعله يرفض موافقة السلطان فرج، وتقدم لإحكام الحصار على المدينة.

وحقيقة الحال أن السلطان فرج فقد كل أمل فى النصر بعد أن فوجئ باختفاء جماعة من أمرائه، ومن المماليك السلطانية، وتبعتهم جماعة أخرى، وهرب الجميع إلى القاهرة ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسى؛ فاضطر بعض الأمراء إلى أخذ السلطان فرج ، وتبعهم لمواجهة هذه الفتنة، تاركين دمشق وأهلها وعساكرهم لقمة سائغة لتيمور، وذلك فى ليلة الجمعة ٢١من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ [(١)].

وعرف تيمور لنك هذه الحقيقة فنشر الذعر فى صفوف الجيش المملوكى حين قبض على ثلاثة من الجند وشوى اثنين منهم وأطلق الثالث ليذيع هذا النبأ، كما أضرم ناراً فى أماكن متعددة ليبين للجيش المملوكى أن عساكره ملئوا جميع نواحى المدينة بقدر أماكن النار [(٢)].

على أن خروج السلطان فرج على هذا النحو فى ٢٠من جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ ـ يناير سنة ١٤٠١م ـ أدى إلى تسلل بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم، وألقوا بأسلحتهم ليخف ذلك عن خيولهم وخوفاً من تتبع تيمورلنك لهم [(٣)]. وتتابع دخول الفارين من المماليك السلطانية وغيرهم إلى القاهرة، وهم فى أسوأ حال بسبب ما تعرضوا له فى الطريق من الجوع والعرى [(٤)].

أما العساكر الذين بقوا فى داخل دمشق فإنهم على الرغم من فقدان سلطانهم وهروب أمرائهم، فإنهم أغلقوا أبواب دمشق وركبوا أسوارها، ونادوا بالجهاد وتهيأ أهل دمشق للقتال

---

(1) Ibn Arab Shah: Op. Cit p. 141.

(٢) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ٢ ص ٥٩.
(٣) ابن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٥٢.
(٤) العسقلانى: إنباء الغمر جـ١ ص ٥٣٣.

دون أن يعلموا برحيل السلطان [1]. ولكن تيمور لنك زحف عليهم بعساكره بعد أن اشتد عزمه حين علم برحيل السلطان. غير أن الدمشقيين قاتلوه من أعلى السور أشد قتال، حتى ردوه بعيداً عن السور والخندق وأسروا عدداً كبيراً من جنده ، ثم أخذوا من خيولهم عدداً كبيراً وقتلوا منهم نحو الألف [2]. وإزاء تصميم أهل دمشق على القتال اضطر تيمور لنك إلى معاودة التحايل فطلب الصلح، ونجح في هذه المرة إذ أرسل إليه الأمراء قاضي القضاة إبراهيم بن مفلح الحنبلي للمفاوضة على رأس بعثة من القضاة كان ابن خلدون واحداً منهم [3].

وحين اجتمعت البعثة بتيمور لنك عرض عليهم تيمور لنك أنه لايريد سوى أن يخرج إليه أهل دمشق «الطرقزات» [4]. ثم يعود، وخدع ابن مفلح بكلام تيمور لنك وعاد ليثني عزائم الناس عن القتال مما أدى إلى انقسام الصفوف حيث مالت طائفة إلى كلامه على حين صممت الأخرى على مواصلة القتال [5]. وعلى الرغم من أن بعض الأمراء في قلعة دمشق حاولوا جاهدين منع ابن مفلح من نشر رأيه، فإن رأى ابن مفلح سرعان ما غلب بسبب مناداته بأن من خالفه قتل. فضلاً على أن أكثر الأهالي حين لاحظوا احتراق خيمة السلطان وعرفوا أنه رحل إلى القاهرة كفوا عن القتال وسلموا بالأمر الواقع.

وإذ اتجه ابن مفلح ومعه بعض القضاة لإخراج «الطقزات» من باب النصر منعه. نائب القلعة، وهدد بإحراق المدينة. فأخرجوا الطقزات من السور، واتجهوا إلى معسكر تيمور لنك الذى رحب بهم وعينهم في وظائف عدة وردهم بأمان إلى أهل دمشق [6]. وحين قرئ الأمان بالجامع الأموى فتح الباب الصغير (باب المدينة القبلي)، ثم طمأن تيمور لنك الناس حين بعث

---

(1) Ibn Arab Shah: Op. Cit. p. 141.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٨.

(3) Fischel : Op. Cit. p. p. 33 - 34.

(٤) كانت عادة تيمورلنك عند أخذ مدينة صلحاً أن يخرج إليه أهلها من كل نوع من الأكل والشراب والدواب والملابس والتحف «تسعة» ويسمون ذلك «طقزات»، والطقز باللغة التترية معناه تسعة. راجع ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٣٩.

(٥) القرماني أخبار الدول ص ٢٠٩.

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ١٤٠.

بأحد أمرائه ليحفظ الباب من العساكر التيمورية، وصلب تيمورلنك بعض عسكره الذين نهبوا بعض سوقة دمشق [١].

وانتقم تيمور لنك من المدنية أبشع انتقام؛ فلم يكتف بأخذ ألف دينار حملها إليه ابن مفلح من أهل دمشق، بل أخذ كل أموال أهل دمشق وذهبهم ومتاعهم وجميع مافي المدينة من السلاح والخيول والجمال والقماش، كما قبض على ابن مفلح وزملائه وألزمهم بأن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها [٢]. وبعد أن قسم المدينة على أمرائه، ونزل كل أمير بقسمة، أجرى على أهل دمشق أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار والتعليق منكسين، وغم أنف الفرد بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق، وإذا أشرف على الهلاك، يخلى عنه حتى يستريح ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً. وتؤخذ نساؤه وبناته وأولاده ويقسم الجميع على أصحاب تيمورلنك، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو ابنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به ويصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط. وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملاء من الناس... كما رأى أهل دمشق أنواعاً أخرى من العذاب ، إذ أخذ التتار الرجل وشدوا رأسه بحبل كما وضعوا الحبال بكتفي الرجل، وأخذوا يلوون بعصاه حتى تنخلع كتفاه. واستمر هذا البلاء والعذاب حتى يوم ٢٨ رجب سنة ٨٠٣هـ ـ فبراير سنة ١٤٠١م بعد أن هلك في هذه المدة في أهل دمشق خلق كثير [٣] ولم يحترم يتمورلنك في ذلك الأخوة الاسلامية التي كانت تجمعه مع أهل هذه البلاد.

وحين عزم تيمور لنك على دك معالم الحضارة فيها، أشعل النار بها في يوم عاصف، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام، حتى احترق كله وسقطت سقوف الجامع الأموى وزالت أبوابه [٤]. وفنيت مساجد دمشق ودورها وأسواقها وحماماتها. والخلاصة أن تيمور لنك ترك

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب جـ٧ ص ٦٤.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ مجلد ١ (مصورة) ورقة ٢٧ .
(٣) نفس المرجع والجزء والورقة.
(٤) ذكر علي شرف الدين يزدى أن سقوف ا لجامع الأموى احترقت مصادفة غير أن المؤرخين العرب ذكروا أن تيمورلنك تعمد إحراقها وأيد هذا الرأى شاهد عيان هو الرحالة البافارى Schiltbeger الذى ذكر أنه=

دمشق أطلالاً بالية، وفيها أطفالها معرضين للجوع والموت، وأخذ معه أشهر الفنانين والبنائين إلى سمرقند عاصمة بلاده حيث استخدم هؤلاء في تجميل عاصمته [١] الإسلامية الجديدة.

على أن غزو تيمور لنك لسورية تمخض عنه عدة نتائج، أولها ما أصاب مدن سورية وقراها من نقص في السكان، فضلاً عما أصابها من الخراب، حتى إن السلاطين بذلوا جهوداً كبيرة في إعادة الحياة إليها وإصلاح ما أفسده تيمور لنك [٢]؛ ثانيها اختفاء الكثير من الصناعات التي اشتهرت بها مدن سورية وعلى الأخص صناعة الزجاج [٣]. وثمة نتيجة ثالثة لغزو تيمور لنك لسورية هو نشاط طرق التجارة عبر البحر الأحمر ومصر، بعد أن انعدم الأمن بسبب حروب هؤلاء التتار في طرق وسط اسيا وغربيها [٤].

أما صدى غزوة تيمور لنك لسورية في القاهرة فإنه عند عودة السلطان فرج بجيشه إلى القاهرة على هذه الصورة المزرية المفاجئة، ظن الناس أنه عاد بسبب هزيمة التتار له، وما لبثت أنباء خراب المدن السورية أن لاحقت عودته، فانتشر الرعب بين الناس. وزاد سوء الأحوال الاقتصادية «لأن الناس أخذوا يبيعون ما عندهم ويستعدون للهرب من مصر خشية زحف تيمور لنك على القاهرة» [٥]. وغلت أسعار المواد الغذائية غلاء فاحشا لشدة الحاجة إليها، على حين هبطت أسعار المنقولات بسبب كثرة المعروض منها. ومما زاد الحال سوءا أن السلطان فرج عاد فجأة وقرر إرسال تجريدة أخرى لقتال تيمور لنك، وفرض على سائر أراضى مصر وأوقافها ضرائب كثيرة، ثم عاد فجبى من سائر أملاك القاهرة ومصر أجرة شهر واستدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم قروضاً، وأخذ يلبغا السالمى ا ستاداره يهاجم الفنادق والحواصل في الليل،

= بعد أن امتلأ المسجد بالناس أشعل تيمور فيه النار- راجع Schiltberger : The Bondage and Travels p. 23.

(1) Hitti: Hist. of The Arabs p. 701.

(٢) راجع ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ٣٧ و ٤٢، ٥٧.

(3) Huart: Hist. Des Arabes T11 p. 94.

(4) Ibid: P. 115.

(٥) ابن عربشاه: عجائب المقدور ص ١٨٣.

فمن وجده حاضراً من أصحابها ، فتح خزائنه، وأخذ نصف مايجده فيها، وإذا لم يجد صاحب المال، أخذ جميع ما يجده، كما استولى على ماوجد من حواصل الأوقاف[1]. وأدى هذا إلى ارتفاع سعر الخبز وهلاك الكثيرين من الفقراء حتى صاروا لايستطيعون دفن موتاهم لكثرة الأمراض [2].

على أن تيمور لنك بعد أن انتقم من السلطنة المملوكية الثانية اتجه للانتقام من عدوه الآخر وهو السلطان العثماني. على أننا نلاحظ من حركات تيمور لنك أنه لم يهدف من كل فتوحاته أن يحتفظ بما فتحه، بل قصد أولاً من فتحه للبلاد الواقعة في أطراف بلاده أن ينتقم ممن لم يعلنوا طاعتهم له. ولهذا بعد أن انتقم من السلطان المملوكي ودك معالم الحضارة في سورية، اتجه إلى الشمال ليفاجئ بايزيد قبل أن يفاجئه. ولعل هذا هو الذى أنقذ الدولة المملوكية الثانية من السقوط السريع، إذ وجد تيمور لنك السلطان بايزيد يقظاً لحركاته، فإنه بعد أن اجتاز على حلب وماردين وأعاد تخريبهما اتجه فجأة شرقاً إلى بغداد [3]. ومن هناك بدأ يلتمس المعاذير للاصطدام بالسلطان العثماني، فأرسل تيمور لنك إلى بايزيد يعلن أن صاحب ارسنجا تابع له، وأن أى تعد على أملاكه يعتبر تعدياً على أملاكه هو [4]. ثم بعث تيمور لنك إلى السلطان بايزيد أن يرسل إليه أحمد بن أويس وقرا يوسف التركمانى اللذين احتميا به وهدده بالزحف على بلاده إن لم يرسلهما إليه . وإذ أصبح الجيش العثمانى قوة لايستهان بها خاصة بعد أنتصار نيقوبوليس سنة ١٣٩٦م فإن بايزيد تحدى تيمور لنك ورد عليه رداً خشناً مما دفع تيمور لنك إلى الإغارة عليه في سبعمائة ألف فارس وثلثمائة ألف من المشاة وذلك في سنة ٨٠٥هـ ـ يوليه سنة ١٤٠٢ [5].

وحين وصل تيمور لنك إلى حدود الدولة العثمانية أرسل إليه عما نوبل باليولوغوس إمبراطور القسطنطينية، كما أرسل إليه الجنوية يعرضون عليه مساعدتهم بإرسال قوات من

(١) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٤٧، ٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) ابن قاضى شهبة : ذيل تاريخ الإسلام مجلد ورقة ١٧٩.
(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٢٦٥.
(4) De Clavijo: Op. Cit p. 73 - 74.
(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ مجلد ١ (شمسية) ورقة ٣٦.

المشاة والفرسان. كما عرضوا الإسهام بالأموال اللازمة للحرب [١]..ولم ينتظر تيمور لنك مساعدة هذا أوذاك كما أنه لا يوجد مايشير إلى عقد محالفة مع الغرب، بل تذكر المصادر أن تيمور لنك تقدم بسرعة ليهاجم بايزيد، واستخدام الحيلة في سيره عبر الجبال إلى أنقرة في طريق غير الطريق التى توقع بايزيد أن يسير فيها تيمور لنك [٢]، ولم يدر بايزيد إلا وتيمور على أبواب أنقرة، فعاد بايزيد إليها حيث بلغ التعب من جنده أشده، ولم تجد شجاعة الإنكشارية أمام جحافل تيمور لنك [٣]. ودارت الدائرة على جيش بايزيد ووقع بايزيد نفسه فى أسر تيمور لنك.. وصار يبدو أن الامبراطورية ستزول بالسيف بعد أن احتل التتار بروسة العاصمة الثانية، وأعادوا جميع الأمراء السلاجقة إلى أملاكهم التى استولى عليها العثمانيون[٤].

ولانتصار تيمور لنك على السلطنتين المملوكية الثانية والعثمانية ـ وهما القوتان اللتان حاولت كل منهما تزعم العالم الإسلامى آنئذ ـ أثر كبير فى محاولة الغرب النيل منهما، وذلك حين أرسل هنرى الثالث ملك أسبانيا فى يوليه سنة ١٤٠٢ سفارة سياسة من playo De satomayor ومن Fernando لدعم علاقات بلاده مع تيمور لنك وقابل تيمورلنك السفيرين بعد معركة أنقره وعاملهما معاملة طيبة، ثم أعادهما إلى أسبانيا مع رسول من عنده هو محمد القاضى، وحمله خطاباً وذياً وهداياً من جملتها جواهر وجوار إلى هنرى الثالث. وشجع هذا الود هنرى الثالث على محاولة الارتباط بأى نوع من التحالف مع تيمور لنك فأرسل فى ٢٢ مايو سنة ١٤٠٣م بعثة أخرى برئاسة De Glavijo[٥].

---

(1) De Clavijo : Op. Cit . pp. 76 - 77.
(2) Ibid . pp. 76 - 77.
(٣) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٠ ـ ٥١.
(4)Gibbons:foundation of the Ottoman Empire, p:225
Oman: The Byzantie Empire,p334
(٥) De Glvijo pp.76-77 هناك ما يشير إلى أن تيمورلنك كتب خطاباً بعد انتصاره فى أنقره إلى هنرى الرابع ملك انجلترا منح فيه رعاياه حرية التعامل التجارى مع بلاده، ورد هنرى الرابع عليه بالتهنئة بانتصاره على العثمانين وأصول هذين الخطابين موجود فى
Vide Originah Letters llustratus Of English History, 3rd series VI By Henri Ellis pp 56-58

غير أنه برغم إكرام تيمور لنك لهذه البعثة فإنه لايوجد ما يشير إلى إى تحالف رسمى بينهما. ويبدو أن السبب هو مرض تيمورك مرة أخرى(١).

علـى أن ثمة نتيجة هامة لانتصار تيمور لنك عـلى الدولة العثمانية ثم انسحابه في نوفمبر سنة ١٤٠٢، وهى ضياع أرمينية من أيدى السلطنة المملوكية الثانية وتركها تحت رحمة القبائل التركمانية المعروفة بقبائل الشاة السوداء، والشاة البيضاء، (قراقويونلو، آق قويونلو)(٢).

وفي طريق تيمور لنك إلى بلاده أرسل كتاباً آخر إلى السلطان فرج أنبأه فيه بغزوه للدولة العثمانية وطالبه بإطلاق أطلمش، وأنه إذا قدم عليه، أرسل تيمور ما عنده من الأمراء والنواب المماليك المأسورين. وأما إذا امتنع السطان فرج عن تنفيذ مطالبه، فإنه سيعود إلى تخريب مصر(٣).وحسما للموقف طلب السلطان فرج أطلمش من سجنه بالقلعة، ويقال إنه أحضر مصحفاً حلف له أطلمش عليه أن يكون عيناً له عما من أمور تيمولنك فضلا عن إشادته بما لفرج ولوالده من أفضال عليه (٤).فخلع عليه السلطان فرج وأنعم عليه بخمسة آلاف درهم واطلقه مصحوباً ببعثة من أمرائه (٥).

وهكذا تم الصلح بين السلطان فرج وبين تيمور لنك.

ولم تقف علاقات تيمور لنك بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل إن تيمور لنك حين استقبل أطلمش في المحرم سنة ٨٠٦هـ - ١٤٠٣م أرسل رسله بكتاب آخر للسلطان فرج، وعرض فيه تيمور لنك رغبته في إقامة علاقات المودة مع السلطنة المملوكية الثانية، فشكر الأمراء على إرسال أطلمش، ولكنه أظهر احتقاره لشخصية السلطان فرج، إذ ارسل إليه هدية شملت على علمين لونهما أخضر وخلعة للسلطان عليها ما يفيد بأن يكون السلطان فرج

(١) صادف وصول بعثه De Clavijo وصول بعثة من السلطان فرج إلى بلاط تيمور ومعها هدايا - راجع Le strange: Clavijo Embassy To Tamerlane pp.9_12

(2) Kevork:Armenia p. 101

(٣) مير خواند: روضة جـ ٦ص ٢٤٦ .

(٤) ابن قاضى شهبة. ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ورقة ٢٠٤ .

(٥) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ص ٥٣٨ .

نائبه على الديار المصرية والشامية. نتج عن هذه للإساءة إلى السلطان فرج أنه رفض الهدية واعادها.

ولم يفتأ تيمور لنك يظهر عدم تقديرة للسلطان فرج إذ أرسل إليه فى ربيع الأول سنة ٨٠٦هـ كتاباً آخر يذكر فيه أن قرا يوسف وأحمد بن أويس تعديا على طاهر بن أحمد ابن أويس الذى عينه تمورلنك حاكماً على بغداد من قبله. وذكر تيمورلنك فى خطابه أنه أرسل إليهما ولده مير ان شاه فى مائه ألف فارس فهربا منه. وحذر تيمورلنك السلطان فرج من هذين الفارين، وأنه إن سمح لواحد منهما بالدخول إلى بلاده فإنه ربما يأخذها منه لضعفه[١].

وعلى هذا يمكن القول إنه إذا كان العامل الداخلى الذى تمثل فى إحلال العصبية الجركسية مكان العصبية التركية أعطى قيام دولة المماليك الثانية صبغة خاصة، فإن العامل الخارجي الذى تمثل فى غزو تيمورلنك لبلاد الدولة المملوكية الثانية أضاف فارقاً كبيراً بين هذه الدولة ودولة المماليك الأولى؛ إذ أنه على حين بدت دولة المماليك الأولى متماسكة فى وقت الحروب حتى انتصرت على المغول فى واقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ـ ١٢٥٧م وفى مرج الصفر فى رمضان سنة ٧٠٢هـ ـ ١٣٠٣م، فإن انقسام أمراء دولة المماليك الثانية بسبب العصبيات سبب هزيمتها أمام التتار (تيمور لنك). وصار هذا الانقسام مظهراً من مظاهر هذه الدولة حتى عهد السلطان برسباى الذى تمكن من توحيد الصفوف حتى تمكن من غزو قبرص فى حملات كسبت نصراً مؤزراً وضع حداً للأخطار التى تعرضت لها دولة المماليك الثانية من جانب هذه الجزيرة[٢].

على أن العلاقات بين دولة المماليك الثانية الناشئة وبين الدولة العثمانية ارتبطت بمسألة الحدود والمنافسة على تزعم العالم الإسلامي. وبدأت هذه العلاقات ودية مادامت حدودها متباعدة وتبادل سلطان كل من الدولتين، الهدايا مع صاحبه [٣]. ثم زاد فى أواصر هذه

(١) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الأسلام مجلد ٣ورقة ٢١٣ .

(٢) راجع عاشور: قبرص والحروب الصليبية الفصل الرابع.

(٣) زيادة نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ١٩٩.

الصداقة ظهور تيمورلنك وتعرض كل من الدولتين لهذا الخطر. والبداية التاريخية لهذا الاتصال هي سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨ م حين أرسل السلطان العثماني رسله الذين أكرمهم السلطان برقوق، وبعد أن قدموا هدية سلطانهم عرضوا كتابه الذى تحدث فيه عن تحركات تيمورلنك من تبريز نحو حدود الدولتين، وأنه يلزم اتخاذ كافة الاحتياطات لرده (١). وبلغ من ثقة السلطان برقوق، وبعد نظره أنه لم يربط بتحالف مع السلطان العثماني، وإنما أظهر استعداده لقبول كل معاونة يعرضها السلطان العثماني. وسبب هذا أن السلطان برقوق أدرك خطورة الدولة العثمانية على بلاده وعلى سياسته في الوقت الذى لم يكترث فيه بخطر تيمورلنك بدليل قوله«إني لاأخاف من اللنك فإن كل أحد يساعدني عليه وإنما أخاف من ابن عثمان» (٢). ويبدو أن برقوق كان على حق فى اعتقاده هذا لأن بايزيد أغار سنة ٧٩٣هـ ـ سنة ١٣٩١م على قيصرية وقبض على صاحبها وهي وقتذاك فى حماية السلطان برقوق. غير أن اقتراب خطر تيمورلنك سنة ٧٩٦هـ ـ سنة ١٣٩١ م جعل بايزيد يبعث باعتذراه إلى برقوق وهو فى سورية كما أرسل مفاتيح المدنية وهدية قيمة (٣). ولم يتأخر السلطان برقوق فى قبول الاعتذار، بل إنه أرسل رسوله حسن الكجكنى إلى بايزيد، وعقد الصلح بينه صاحب قيصرية (٤).ووجد السلطان بايزيد في صداقة السلطان المملوكى خير معين له على دفع الخطر التيمورى.. فرد فى نفس السنة ٧٩٦هـ على بعثه السلطان برقوق بهدية جليلة وكتاب يحذر فيه السلطان برقوق من خطر تيمولنك، وأنه وضع تحت تصرفه مائتى ألف فارس، كما سأل السلطان برقوق فى تجهيز طبيب من أطباء القاهرة ليداوية (٥). غير أن السلطان برقوق ظل عند موقفه واكتفى بشكر السلطان العثماني وإكرام رسلة وأرسل له الطبيب محمد بن محمد الصغير، ومعه من الأدوية والعقاقير ما يحتاج إليه ابن عثمان (٦).

....

(١) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ١٦ب.

(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٣٨٥.

(٣) ابن قاضي شهبة: ذيل تاريخ الإسلام ورقة٦٩.

(٤) العسقلاني: إنباء الغمر جـ ١ص ٣٣٦، ٣٤٠.

(٥) المقريزى: السوك جـ١ ص ٧٠٨.

(٦) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان و رقة ١٤٥أ.

وفي أواخر سنة ٧٩٦هـ ـ بعث بايزيد إلى الخليفة العباسي بالقاهرة بكتاب طلب فيه منحه تفويضاً شرعياً بالسلطنة. ومع أنه لايوجد ما يشير إلى إجابة الخليفة العباسي في القاهرة لهذا الطلب ، إلا أنه في خطاب بايزيد الذى كتبه حوالى سنة ٨٠٣هـ ـ سنة ١٤٠٠م إلى تيمورلنك ذكره بالعباسيين «ورثاء عرش الخلافة» الذين لجئوا إلى مصر، ليذكر هذا الحاكم الفظ أنه لاتزال توجد قوة إسلامية تستطيع مواجهته أوعلى الأقل يبين مدى إمكان ارتباط العثمانيين بالمصريين في فكرة الدولة الإسلامية الواحدة التى يمكنها الوقوف في وجه تيمورلنك(١).

وظلت العلاقات ودية حتى رمضان سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م حين وصل إلى القاهرة رسل السلطان بايزيد ومعهم هديه للسلطان برقوق؛ منها مائة أسير من الفرنج الفرنسيين والإيطاليين كانوا يقطعون الطرق على المسلمين في البحر (٢). ؛ وأخبرت البعثة العثمانية بانتصار بايزيد الحاسم على الفرنج في نيقوبوليس سنة ٧٩٨هـ سنة ١٣٩٦م (٣).

بيد أن العلاقات بدأ يشوبها السوء عقب وفاة السلطان برقوق، إذ انتهز السلطان بايزيد فرصة انقسام الأمراء في مصر وأغار في أواخر شوال سنة ٨٠١هـ على الحدود السورية واستولى على ملطية ودارندة (٤). وارتكب السلطان بايزيد بهذا الإجراء خطأ شنيعاً دل على ما في نفوس السلاطين العثمانيين من رغبة في تزعم العالم الإسلامي، والاتجاه إلى حرمان سلاطين دولة المماليك الثانية من هذه الزعامة، كما دلّ ذلك على مدى استهتارهم بالعلاقات السياسة بين البلدين في تلك الظروف العصيبة التى أحاطت بالدولتين، وصار لهذا الخطا أثره في نفوس أمراء مصر، بدليل أنه حين زحف تيمورلنك غرباً نحو الحدود المشتركة بين الدولتين العثمانية والمملوكية الثانية، وأرسل بايزيد يطلب محالفه السلطان فرج لصد خطر تيمورلنك

(1) Arnold: The Caliphate p. 105, D'Ohosson : Tableau De L'Empire Othoman VI p. 233-234.

(٢) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٤١٤.
(٣) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٢٣.
(٤) االعيني: عقد الجمان جـ ٢٥ ورقة ٧٨.

رفض الأمراء محالفته، مذكرين إياه بإغارته على ملطية سنة ٨٠١هـ. ولم يدرك السلطان فرج أن الأمراء بانتهاجهم سياسة العداء مع الدولة العثمانية أوجدوا فرصة ذهبية طالما تمناها تيمورلنك ليستطيع مواجهة كل عدو على حدة، وهى الفرصة التي لم يمكنه منها السلطان برقوق حين تبادل الرسل مع جيرانه حتى غير تيمورلنك اتجاهه وزحف شرقاً.

وإذ شعر تيمورلنك بأن الظروف لم تعد تسمح بقيام تحالف بين السلطانين العثماني والمملوكي زحف على الدولة المملوكية سنة ٨٠٣هـ-١٤٠٠م. وبعد أن أباد حلب وحماة ودمشق انتقم من الإهانات التي لحقته من تحدى بايزيد له عدة مرات وذلك في واقعة أنقرة التي أسر فيها بايزيد، والتي أباد بعدها عدة مدن عثمانية [١]. وفضلاً عما سببته هزيمة العثمانين من ضعف للإمارات التركية وغيرها من القلاع المسيحية فى شبه جزيرة اسيا الصغرى، فإن هزيمة بايزيد أمام تيمور وأسره كانت مخجلة حقاً، حتى أن البعض ذكر أنه لو تأخرت حرب نيقوبوليس الصليبية (١٣٩٦م). إما مصادفة أو بناء خطة مرسومة لمدة ست سنوات لتحطمت قوة العثمانين إلى الأبد.

على أن هزيمة تيمورلنك لكل من السلطانين المملوكي والعثماني والاصطدام بينهما حوالى قرن من الزمان تأرجحت فيه علاقة الدولتين بين الود والعداء. وبقاء تيمورلنك على قيد الحياة جعل السلطان العثمانى محمد بن بايزيد ينتبه لخطورة الموقف بعد هزيمة والده ووقوع شرق بلاده كلها تحت رحمة الملوك الذين حالفوا تيمورلنك، فأسرع بعقد صلح مع السلطان فرج أواخر سنة ٨٠٥هـ - ١٤٠٢م وبدأ الطرفان يتبادلان الهدايا فى كثير من المناسبات [٢].

على أن وفاة تيمورلنك آخر سنة ٨٠٧هـ - يناير سنة ١٤٠٥م أزال منافساً خطيراً من طريق العثمانين الذين أرادوا تحقيق أطماعهم في الشرق. وبدأ ميزان القوى فى الشرق الأوسط يتأرجح بين السلطنتين العثمانية والمملوكية الثانية. وأصبحت صداقة الدولتين صورية، الغرض منها إظهار قوة كل من السلطانين للآخر ، إذ صاركلما اتفق لإحدى الدولتين نصر أو فتح

(١) الزبانى: الترجمان المعرب ورقة ٩٠.

(٢) دحلان: الفتوحات الإسلامية جـ٢ ص ٦١.

قريب أو بعيد امتلأت العاصمتان بأنواع الاحتفال والزينة [1]. وتبادل السلطانان الهدايا ورسائل التهنئة والتبريك، حتى إذا شعر السلطان العثمانى بقوته زحف على دولة المماليك الثانية وازالها سنة ١٥١٧م.

وكما واجهت دولة المماليك الثانية فى بدء قيامها مشكلات من جانب الشرق، فإنها واجهت مشكلات إخرى من جانب الغرب، مرجعها أن التجارة فى البحر المتوسط أصبحت احتكاراً للبندقية التى تخلصت من منافستها جنوا [2].واستطاع السلطان برقوق والسلطان فرج أن يحققا مع البنادقة أرباحاً طائلة من احتكار التجارة. ونتج عن هذا الاحتكار تعرض شواطئ دولة المماليك الثانية لهجمات القراصنة الجنوية والقطالونيين ومن انضم إليهم من الروادسة (جزيرة رودوس) والقبارصة.

وشغلت أعمال القرصنة التى قام بها هؤلاء الفرنج جهداً كبيراً من السلطان برقوق ومن ابنه فرج. ففى جمادى الآخرة سنة ٧٨٥هـ ـ يولية سنة ١٣٨٣م هاجم الجنوية صيدا وبيروت، ونزلوا إلى البر [3].فاتجه اينال اليوسفى أتابك دمشق إلى الساحل ، وحاول أن يقذف بهؤلاء الفرنج فى البحر حين احتموا بمراكبهم، لولا أن أسرع لنجدتهم الفرنج المقيمون فى بيروت ومكنوهم من النجاة بأنفسهم [4].

وفى الوقت نفسه قضى السلطان برقوق على محاولات بعض تجار الفرنج الجنوية لتهريب بضائع فى مراكبهم من الاسكندرية [5]. ويبدو أن فشل هؤلاء الجنويه جعلهم يتجهون إلى مهاجمة ثغرى رشيد ودمياط. غير أن السلطان برقوق رصد لهم فرق فى ثغر رشيد بقيادة الأمير

(١) راجع زيادة: نهاية السلاطين المماليك فى مصر ١٩٩ وما بعدها.

(٢) Kirk : Ashort. Hist. Of The Middle East p. 53 انتهت أعمال القرصنة من جانب القبارصة والبنادقة والجنوية بصلح عقد سنة ١٣٧٠م وعادت تجارة الدولة المملوكية الأولى معهم: بيد أن التنافس سرعان ما نشأ بين البندقية وجنوا حتى تخلصت الأولى من الثانية واحتكرت التجارة مع سلاطين الدولة الثانية. راجع عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٨٢.

(٣) ابن يحيى: تاريخ بيروت ص ٢٢٩.

(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٢ ورقة ٢٨٨.

(٥) الخطيب: نزهة النفوس والأبدان ورقة ٥ أ.

أحمد بن يلبغا الخاصكى، وفرقة أخرى فى ثغر دمياط بقيادة الأمير ايدكار[1]. فتعذر على هؤلاء الجنوية غزو رشيد ودمياط، ولذا أعادوا الكرة على ثغر بيروت وقتلوا عدداً من سكانه حتى اضطر نائب بيروت إلى الاستعانة بقوات نائب حلب فى طردهم[2].

وحين تكرر هجوم الجنوية على بلاد السلطنة المملوكية الثانية عهد السلطان برقوق سنة ٧٨٦هـ ـ ١٣٨٤م إلى الأمير الطنبغا الجوبانى ببناء أغربة وشوانى لغزو الجنوية فى بحر الروم . غير أن هذا الأسطول قبل أن يبحر إلى مياه جنوا اشتبك مع عدة مراكب على مقربة من ساحل دمياط سنة ٧٨٧هـ سنة ١٣٨٥م، وبعد قتال شديد تمكن الأسطول المملوكى من قتل عدد كبير من الجنوية وأسر نحو خمسة وثلاثين منهم، وقيل إن ثلاثة بذلوا ما قيمته خمسة عشر ألف دينار حتى فك أسرهم. وبعد هذا الانتصار وصلت الأغربة إلى بولاق فى جمادى الآخرة سنة ٧٨٧هـ ـ يونيه سنة ١٣٨٥م بالأسرى والغنائم حيث عرضوا على السلطان فى اليوم التالى من وصولهم [3].

على أن أعمال القرصنة من جانب الجنوية لم تؤثر فى حصول بعض تجارهم على ارتباطات تجارية وقنصلية [4]. ولذا فإن الجنوية لجئوا فى سنة ٧٨٨هـ ـ سنة ١٣٨٦م إلى مصالحة السلطان برقوق [5]. ولم يتأخر السلطان فى قبول الهدايا منهم حرصاً على مصالحه التجارية فى البحر المتوسط.

غير أن الجنوية عادوا سنة ٧٩٠هـ ـ ١٣٨٨ م منتهزين فرصة انشغال السلطان برقوق بالنزاع الداخلى مع الترك ـ إلى اعمال القرصنة، وذلك حين كانت جماعة من تجار السلطان برقوق قادمة فى المياه السورية فى مراكب مشحونة بالجراكسة الذين جلبوا من بلادهم ، ومن بين هؤلاء الجراكسة أخت السلطان برقوق وجماعة من أقاربه. فهاجم

---

(١) نفس المرجع والجزء ورقة ٧ أ.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٤٦٣.

(٣) العسقلانى: إنباء الغمر جـ ١ ص ٢٢٤.

(٤) Lammens: la Syrie, VII p. 36 .

(٥) المقريزى: السلوك جـ ٣ ص ٤٦٣ .

الجنوية مراكب السلطان وأخذوا ما فيها وأسروا أقاربه ومن فيها من الجراكسة، فثار السلطان برقوق، وأمر نواب البلاد الساحلية بالقبض على كل من عندهم من الفرنج سواء كانوا تجاراً أوقناصل أورعايا، ونهض نائب الإسكندرية في القبض على عدد كبير منهم، وصادر أموالهم وممتلكاتهم وأمتعتهم (١).

وإذ تحرج الموقف دارت المراسلات بين الجنوية وبين السلطان حتى اتفق الجنوية على أن يطلقوا من بأيديهم من الأسرى مقابل إلغاء السلطان قراره بمصادرة أموال الفرنج والإفراج عنهم، وأسرع الجنوية بتنفيذ الاتفاقية، وقدم بالأسرى الجراكسة تاجر السلطان الخاص الخواجا على بن مسافر وحمل معه هدية ملك جنوا إلى السلطان برقوق في آخر ذى الحجة سنة ٧٩٠ هـ ـ ١٣٨٨م (٢).

وفي سنة ٧٩٢ هـ ـ ١٣٩٠م تحرك أسطول مكون من اثنتى عشرة سفينة جنوية وثلاث من صقلية وخمس من بيزا، وهاجموا جميعا ميناء طرابلس، وحين أشرفوا على الميناء هبت عليهم ريح أغرقت مركبا واضطرت البقية إلى الانسحاب واتجهوا غربا حيث استولوا على جزيرة Jerba في خليج قابس التابعة لأبى العباس أبى بكر سلطان تونس (٣) ومنها هاجموا ثغر المهدية وحاصروه، وقامت حرب شديدة بينهم وبين المغاربة انتصر فيها المغاربة على الفرنج، وقتلوا الكثيرين منهم (٤).

وفي عهد السلطان فرج كثر هجوم الفرنجة على موانى الدولة المملوكية الثانية بسبب الانقسام الداخلي ففي سنة ٨٠٤هـ ـ ١٤٠١م وصل هؤلاء القراصنة إلى طرابلس حيث استولوا على سفينتين تجاريتين مشحونتين بالبضائع المعدة للتصدير لمصر، وأسروا من فيها، وتوغل هؤلاء القراصنة في إحدى القرى الداخلية ولكن الأهالي تمكنوا من اعتقالهم (٥).

---

(١) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك جـ٩ قسم ١ ص ٢٣.
(٢) نفس المرجع والجزء ص ٤٩ ـ ٥٠.
(3) Atiya : Op. Cit. P. 398.
(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥١ ـ ٦٥٣.
(٥) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٣ ورقة ١٩٥.

وعلى الرغم من أن البنادقة تمتعوا بمركز ممتاز بسبب صلتهم التجارية بالسلاطين فإن هذا المركز تعرض للضعف في سنة ٨٠٦هـ -١٤٠٣م حين تقدم اندريه جستنيان قنصل البنادقة بشكوى إلى السلطان فرج، عرض فيها مدى جهود البنادقة في إنعاش تجارة الإسكندرية سواء الصادرة أو الواردة، وأنهم برغم هذا تعرضوا للمعاملة السيئة من خمسة من الأمراء. ولم يكن قنصل البنادقة موفقاً حين هدد السلطان فرج بالرحيل عن البلاد إن لم يحسن الأمراء معاملة رعاياه، وأنهم (أي البنادقة) إذا عادوا بعد فترة ودخلوا البلاد «بقوة الله» فإنهم في هذه المرة سيكونون «ذوي مكانة مرموقة». أما السلطان فرج فإنه رد على هذه الشكوى بكلام هادئ أوضح به عدم اكترائه برحيلهم أو بعودتهم لغزو بلاده، لأن الغرب المسيحي منقسم على نفسه بدليل وجود أكثر من «بابا على حين اتحد العالم الإسلامي في اعترافه بشخص الخليفة الواحد»[1].

أما جنوا فإنها استأنفت أعمالها الحربية ضد دولة المماليك الثانية سنة ٨٠٦هـ، وفي هذه المرة ضمت إليها قراصنة من الروادسة والقبارصة، وذلك حين تحرك De Boucicaut حاكم جنوا على رأس أسطول مكون من ١٨ سفينة واتجه إلى رودس حيث انضم إليه عدد من سفنها؛ وأعلن هناك أنه اعتزم شن غارة على قبرص التي كانت في حالة حرب مستمرة مع جنوا. غير أن غرض De Boucicaut لم يكن كذلك، بل إنه عزم على ضرب الإسكندرية، بدليل أنه أرسل إلى حنا لوزيجنان ملك قبرص وعقد معه الصلح [2]. بيد أن السلطان فرج عرف بمهمة De Boucicaut منذ أن وصل إلى رودس، وأخذ أهبته لصد الهجوم. أما De Boucicaut فإنه من جانبه أرسل إلى الإسكندرية - ذر للرماد - سفينة بها سفيرين من لدنه أعلنا أنهما جاءا لعقد الصلح مع السلطان. وحين علم السلطان بهذا النبأ أرسل بسرعة فحضر إليه واحد من السفيرين، غير أن المفاوضات حين طالت مع السلطان فرج أرسل De Boucicaut إلى سفيره، الآخر بالعودة إلى رودس. وأدرك De Boucicaut عدم

(1) Piloti : l' Egypte Au Commencement Du XVS. pp. 83- 84.

(2) De laville le Roulx : La France En Orient, p. 422.

جدوى هذه المفاوضات فاتجه باسطوله، وهاجم ميناء انطالية فى آسيا الصغرى، ليوهم السلطان فرج أنه ابتعد عن بلاد الدولة المملوكية الثانية. ولكنه بعد أن قا م بعملياته الحربية فى ميناء انطالية عاد إلى فاما جوستا ومن هناك أرسل عشر سفن لمهاجمة الإسكندرية؛ على حين قرر أن يلحق بهذه السفن بعد أن يتزود بالمؤن من فاماجوستا. غير أن حملته فشلت فى الاستيلاء على الإسكندرية فى أغسطس سنة ١٤٠٣م بسبب استعدادات السلطان فرج (١) ولم تجن جنوا من وراء هذه الحملة سوى مانشب من قتال شوارع الإسكندرية مع الفرنج، وكذلك فشل فى إعادة تجارة جنوا بصفة رسمية مع الدولة المملوكية الثانية (٢).

على أن De Boucicaut لم يكتف بفشله فى الإسكندرية بل جرب حظه فى طرابلس، أكبر ميناء تجارى سورى وقتذاك، ولكنه فشل حين هاجمها فى ١٥ أغسطس سنة ١٤٠٣م، فرحل إلى بيروت (٣). وهاجمها من ناحية لم يكن فيها سكان من ناحية متاجر البنادقة. وبعد أن نهبها رحل من بيروت مسرعا إلى فاماجوستا غير أنه فى الطريق اصطدم بأسطول للبنادقة، الذى انتقم للرعايا البنادقة فى بيروت (٤).

وهكذا عاد De Boucicaut بعد فشله الذريع فى القيام بعمل واضح من أجل إعادة نشاط جنوا التجارى فى منطقة شرق البحر المتوسط (٥).

على أن القبارصة ـ وأعنى الملك يوحنا لوزيجنان بالذات ـ يعتبر مسئولاً عن الهجوم الذى شنه حاكم جنوا على بيروت إذ أن يوحنا أمد De Boucicaut بأربع سفن قبرصية (٦). كما أنه فى المفاوضات التى دارت بين البندقية وجنوا سنة ١٤٠٦م وعد بتعويض التجار البنادقة فى المدينة لما أصابهم من الجنوية (٧).

(1) Piloti: Op. Cit. pp. 89 - 90. (2) Ibid : p. 90.

(٣) كرد على : خطط الشام جـ٢ ص ١٨٦.

(4) Piloti : Op. Cit. pp. 29.

(5) De Bouard : La Roulx : Op. Cit. VI pp. 475 - 477.

(٦) راجع المقريزى: السلوك جـ٣ (شمسية ورقه ٤١).

(7) Delaville La Roulx: Op. Cit. VI pp. 475 ` 477.

غير أن فشل هذه الحملة جعل جنوا تفكر جدياً في السعي لعقد الصلح من السلطان فرج رغبة في إعادة علاقاتها مع دولة المماليك الثانية. وفي هذا الصلح الذى تم سنة ١٤٠٧م تعهدت جنوا بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار تعويضاً عما أحدثته من الخسائر وأنه إذا تكررت هذه الحادثة فإن الجنوية في مصر سيقبض عليهم جميعاً (١).

وكما عادت التجارة مع جنوا، فإنها عادت مع البنادقة الذين أسرعوا بعقد الصلح مع السلطان فرج سنة ١٤٠٨م، وتوسط في هذا الصلح بيلوتي Piloti التاجر الكريتي بمصر، وشرط عليهم السلطان شروطاً قاسية. وأخذ منهم الضمانات الكافية لحماية رعاياه وبلاده من عبثهم (٢).

أما ملوك المغرب فإنهم اعترفوا بدولة المماليك الثانية (٣)، واعتبروا سلاطينهم ورثاء دولة المماليك الأولى في «ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين» (٤). فضلاً عن العلاقات التجارية بين التجار المغاربة وتجار الإسكندرية (٥)، إلى جانب حاجة ملوك المغرب لقوة سلاطين دولة المماليك الأولى في صد الأخطار الصليبية التي تعرض لها المغرب كثيراً.

---

(1) Piloti : Op, Cit. pp. 94- 95.

(٢) تعرضت الموانى المصرية لهجمات القراصنة القطالونيين، ونهبوا السفن الراسية فيها، وكثيرا ما لجنوا بأسلابهم إلى قبرص وبعض جزر بحر إيجه وخاصة جزيرة ناكسوس. وقد حدث أواخر سنة ١٤٠٧م أن هاجم القرصان بطرس القطالوني سفينة تجارية مصرية محملة بالبضائع وأسر بحارتها الذين بلغوا نحو مائة وخمسين فرداً باعهم إلى جاك كريسبوس في جزيرة ناكسوس الموالية للبندقية. وغضب السلطان= = فرج على سكوت البندقية واستدعى قنصلها وعاتبه وطلب منه الاتصال بحكومته لإطلاق سراح الأسرى. وصادر فرج سفينة للبندقية كانت رأسية بميناء الإسكندرية حتى يعود الأسرى من ناكسوس، ووسط بيلوتي في هذه المهمة، وحين نجح كافأة فرج بأن صرح له باستيراد حمولة خمس سفن شهرياً بدون ضرائب راجع : Miller: The Latins In The Levant : p. 399

(٣) ابن أبي السرور : عيون الأخبار ونزهة الأبصار ورقة ٢٩١.

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.

(5) Piloti : Op. Cit. pp. 57- 87.

ومنذ أن وصل ابن خلدون إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ ـ سنة ١٣٨٢م قادماً من المغرب عمل على توثيق الروابط بين بلاده وبين السلطنة المملوكية الثانية. وإذ احتاج السلطان برقوق للجياد الأصيلة كاتب ابن خلدون ملوك وسلاطين بلاد المغرب لانتقاء أفضل الجياد وإرسالها للسلطان برقوق. ثم إنه حين تمسك سلطان تونس أبو العباس الحفصي بأولاد ابن خلدون رغبة في عودة ابن خلدون إليه، أرسل إليه السلطان برقوق في ١٥ صفر سنة ٧٨٧ هـ ـ ١٣٨٤م خطاباً يرجوه فيه أن يرسل هؤلاء الأولاد إلى مصر (١) وأجاب أبو العباس مطلب السلطان وأرسل أولاد ابن خلدون مع هدية من الجياد. غير أن سوء الحظ صادف السفينة التي وصلت تحمل أولاد ابن خلدون وهدية أبي العباس إذ غرقت بمرسى الإسكندرية وغرق معها أولاد ابن خلدون ونجا رسول سلطان تونس ليخبر بهذه الكارثة فأحسن إليه السلطان برقوق وأعاده إلى سلطانه بهديه من الملابس الفاخرة (٢).

وظلت علاقات الود المتصلة بين دولة المماليك الثانية وملوك المغرب بعد عودة السلطان برقوق إلى عرشه، إذ أرسل أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى بن أبي بكر سلطان تونس سنة ٧٩٢هـ كتاباً وجهه للخليفة المتوكل على الله مع هدية قيمة. وتضمن الكتاب رفع تهنئة صاحب تونس إلى السلطان برقوق بمناسبة عودته إلى ملكه. واستقبل السلطان برقوق رسوله بمظاهر الإكرام وأمر له بمائة درهم فضة يومياً مدة إقامته بالقاهرة (٣).

ونظراً لكثرة حروب السلطان برقوق وحاجته إلى الخيول استمر وده لبلاد المغرب، حتى إنه في سنة ٧٩٣هـ حين وصل إلى القاهرة يوسف بن على بن غانم شيخ أعراب المعقل بالمغرب ناجياً من سخط السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم ـ من ملوك بني مرين بفاس ـ سنة ٧٧٥هـ ـ ٧٩٦هـ (٤). كتب السلطان برقوق إلى سلطانه كتابا شفع له فيه، وبعث إليه بهدية، كما أوصاه بانتقاء الخيل له، وقبل السلطان أبو العباس هدية السلطان برقوق وشفاعته،

(١) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣.
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ٥ ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠.
(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ ص ٦٥٢.
(٤) السلامي : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٢ ص ١٤٠.

وانتقى الخيول الرائعة لإهدائها للسلطان برقوق، ولكن المنية عاجلته فتولى ابنه أبو فارس سنة ٧٩٦هـ ـ سنة ١٣٩٧م [١]. فاستكمل الهدية وبعثها بصحبة رسوله يوسف بن علي. وحين أبطأ وصول الخيل من المغرب أراد السلطان برقوق أن يبعث من أمرائه من يشترى له الخيل. فعين لذلك مملوكه قطلوبغا الخليلي، وكتب كتابا إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن أبي حفص سلطان تونس، و كتاباً إلى سلطان تلمسان من بني عبد الواد، وكتاباً آخر لسلطان فاس. وحمله لكل واحد منهم هدية خفيفة من القماش والطيب والقسي، وما أن وصل قطلوبغا إلى فاس حتى وجد هدية فاس مستكملة ومعدة للإرسال وأفاض سلطان فاس على رسول برقوق بالكثير من المنح[٢]. وحين وصل قطلوبغا إلى تلمسان أخذ هدية سلطانها أبي زيان بن أبي حمو، ثم وصل إلى تونس وأخذ هدية سلطانها من أحسن الجياد. ثم عاد قطلوبغا بالهدايا إلى القلعة حيث عرضت على السلطان، ووزع السلطان ما بها من القماش والسيوف والبسط على أمرائه [٣].

ولم يغير قيام دولة المماليك الثانية من تبعية الحجاز لها، ولقب السلطان برقوق بسلطان مصر والحجاز [٤]. وجرت العادة أن يولي السلطان المملوكي على مكة أميراً من اهلها وله حق عزله إذا ثبت مخالفته لأوامره. بيد أن إمرة مكة شغلت السلطان برقوق مدة طويلة بعد أن أصبح السلطان برقوق يعتمد على التجارة كمورد هام من موارده، فضلاً عن احتكاره بعض السلع التجارية. واهتم السلطان برقوق أن يشغل هذه الوظيفة بأمير قوى يدين له بالطاعة، حتى يضمن أمان طرق التجارة. في البحر الأحمر. وفي بداية سلطنة برقوق كانت إمرة مكة مثار نزاع بين الشريف أحمد بن عجلان وابني عمه حسن بن ثقبة وعنان بن مغامس فأشركهم جميعاً في إمرة مكة، غير أنه حدث خلاف بين عنان بن مغامس وحسن بن ثقبة من ناحية، وبين أحمد بن عجلان من ناحية أخرى، فسافر عنان وحسن إلى مصر وشكيا

(١) نفس المرجع والجزء ص ١٤١ ـ ١٤٢.
(٢) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٣) نفس المرجع ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.
(4) Piloti : Op. Cit. p. 41

أحمد بن عجلان إلى السلطان برقوق، فأمر السلطان لهما بربع ما يحصله أمير مكة [١].
ولم تفلح جهود أحمد بن عجلان في رشوة رجال مصر إرضاء السلطان برقوق بالهدايا، بل إنه حين رأى كبيش ـ رسوله إلى مصر ـ إقبالاً من رجال الدولة على عنان، وافق على مارسمة السلطان لعنان وحسن وصالحهما حتى وصل إلى مكة، وعرف أحمد بن عجلان بما دار في مصر، وخيره بين الموافقة على ما أمر به السلطان برقوق أوقتل عنان، فقرر الرأى الأخير. وتمكن أحمد بن عجلان من القبض على عنان وعلى حسن بن ثقبة وإخوته الخمسة وقيدهم جميعاً سنة ٧٨٧هـ ـ ١٣٨٥م . وبرغم وصول كتاب السلطان برقوق إلى أحمد بن عجلان بإطلاقهم، فإنه ماطل في تنفيذه وبقى الإخوة بالسجن. أما عنان فإنه تمكن من الهرب واستجار بالسلطان برقوق، فأرسل أحمد إلى السلطان يطلب رد عنان ولكن السلطان برقوق رفض [٢] ، ورد عليه بقوله تعالى «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه» كما أعاد السلطان برقوق عليه طلب إطلاق سراح الأشراف الخمسة [٣].

غير أن أحمد بن عجلان رفض تنفيذ قرار السلطان برقوق، وغدا بهذا مصدر قلق للسلطان، حتى إنه لم يعد يأمن على مصالحة في الحجاز، وتجارته في البحر الأحمر، فدعا أحمد بن عجلان عدة مرات لزيارة مصر. غير أن أحمد تعمد الاعتذار لعاملين: أولهما، عزم السلطان على التخلص منه، وثانيهما، خوفه من انتزاع أقاربه الولاية منه. ومهما يكن من شئ فإن السلطان برقوق تمكن سنة ٧٨٨هـ ـ سنة ١٣٨٦م من إرسال من دس السم لأحمد بن عجلان في الطعام [٤].

وحين مات أحمد بن عجلان في ٢٠ شعبان سنة ٧٨٨هـ أراد السلطان برقوق تولية عنان بن مغامس فخدع محمد بن أحمد بن عجلان، الذى طالب السلطان بأن يخلف أباه، بأن أرسل إليه العهد والخلعة بولاية مكة، على حين أنه أذن لعنان في التوجه صحبة بعثة الحج [٥].

---

(١) الفاسي: الثمين في تاريخ البلد الأمين جـ١ ورقه ٢٤ب.

(٢) نفس المرجع: والجزء ورقة ١٢٥أ.

(٣) الخزرجي: درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٣.

(4) De Gaury : Rulers of Mecca. p. 102.

(٥) المرجع السابق والصفحة.

وأمر أمير الحج بقلة مراعاته لعنان فى الطريق حتى لا يفهم محمد بن أحمد بن عجلان الأمر. والخلاصة أن أمير الحج تمكن من قتل محمد بن أحمد بن عجلان بعد مائة يوم من موت والده كما ساعد قاتله على الاختفاء بين الحجاج، ومكن عنان من تولى إمرة مكة [1].

غير أن عودة عنان إلى مكة لم تجد السلطان برقوق شيئاً، إذ ظهر ضعفه من عدم قدرته على التغلب على ابن عجلان، الذى اغار على جدة واستولى على ما فيها من أموال وغلال تجار الكارم ومتاجر السلطان حتى إنه اضطر إلى إشراك أحمد بن ثقبة وعقيل بن مبارك معه فى إمرة مكة، وصار يدعى لهما معه فى الخطبة[2]. وحين بلغ السلطان برقوق ذلك عزل عناناً وولى على بن عجلان إمرة مكة. غير أن أصحاب عنان تحمسوا وامتنعوا عن تنفيذ أمر السلطان، وتمكن عنان وأصحابه من هزيمة على بن عجلان الذى حضر لاستلام المدينة، واضطر السلطان برقوق إلى الاعتراف بعنان أميراً على مكة مشاركاً لعلى بن عجلان. غير أنه طلب عناناً لخدمة المحمل فى مصر حتى يمكنه اعتقاله، ولكن عناناً اعتذر عن الحضور بحجة خشيته من آل عجلان. ولم يجد السلطان بدأ من أن يترك المسألة جانباً، وأرسل سنة ٧٨٩هـ ـ سنة ١٣٨٧م إلى عنان يقول له «انت على ولايتك فافعل ما تقدر عليه» [3]. غير أن عناناً لم يستطع مقاومة نفوذ آل عجلان الذين نهبوا التجارة الكارمية وذلك لاختلاف أصحابه معه [4] فاضطر عنان للهرب سنة ٧٩٠هـ سنة ١٣٨٨م إلى مصر، حيث لم يجد هناك الإقبال الذى عهد من قبل. وظل بها حتى عاد السلطان حاجى إلى العرش وسعى عند يلبغا الناصرى لإعادته فأجابه، غير أن اشتباك الناصرى مع منطاش واعتقال الناصرى وقدوم محمد بن عجلان وسعيه لدى منطاش للقبض على عنان أفقده كل آماله فى إمرة مكة، وحبس منطاش عناناً مع بعض مماليك برقوق سنة ٧٩١هـ ـ سنة ١٣٨٩م، ولكنهم تمكنوا من الفرار من السجن حين هزم منطاش وفر إلى دمشق. وحين حضر السلطان برقوق إلى مصر

(١) العينى : عقد الجمان جـ٢٤ قسم ٣ ورقة ٣١١.

(٢) الفاسى: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٥.

(٣) نفس المرجع، ورقة ١٩٦.

(٤) ابن قاضى شهبة: ذيل تاريخ الإسلام مجلد ٢ ورقة ٢٨.

شفع بطا، كبير مماليكه، لعنان فأجابه السلطان مع إقرار على بن عجلان على نصف إمرة مكة معه [1]، وأتفق على أن كلا منهما يدخل مكة لحاجته، فإذا قضاها خرج منها ولكل منهما فيها نواب، بعضهم يتسلم ما يخص كلا منهما من المتحصل؛ وبعضهم للحكم بها، «وأن يكون القواد مع عنان والإشراف مع على» [2].

غير أنه لم يقدر لهذه الاتفاقية النجاح لمدة طويلة، إذ قطع آل عجلان الدعاء لعنان سنة ٧٩٤هـ ـ سنة ١٣٩٢م، وهموا بقتله وأخرجوا نوابه من مكة، فانعدم الأمن فى داخل البلاد. وحين عرف السلطان برقوق بالأمر استدعى عناناً وعلياً مع جماعة من أعيان الأشراف والقواد. واذ حضر على وعنان فوض السلطان إمرة مكة إلى على بمفرده، وذلك بسبب ما قدمه على إلى السلطان من الهدايا الوافرة [3]. ثم أمر عناناً بالإقامة بمصر، ورتب له ما ينفقه ثم عاد فسجنه بالقلعة فى ٣ جمادى الأولى سنة ٧٩٥هـ ـ ١٣٩٣م [4].

وحين قامت الحرب سنة ٧٩٧هـ بين ابنى حسن وقواد مكة ببطن مر، وقتل فيها الشريف على بن عجلان، وامتنع القواد بمكة وصدوا عنها بنى حسن، أفرج السلطان برقوق عن الشريف حسن بن عجلان، الذى كان معتقلاً منذ سنتين بسبب خلافه مع أخيه، وولاه إمرة مكة وبعث معه الأمير يلبغا السالمى ليمكنه من تولى مهام وظيفته، وأوصى السلطان حسن بن عجلان أن يحفظ طرق الحج والتجارة التى نهبت فى العام الماضى [5]. وتمكن حسن بن عجلان من إعادة الثقة إلى التجار، وخاصة تجار السلطان، وتجار اليمن. وبلغ اهتمام حسن بن عجلان بتأمين الطرق وكسب رضى السلطان برقوق من أنه كان يسافر مع كل قافلة إلى جدة ويحيطها بالحراس حتى تصل القافلة بالمتاجر إلى السفن، كما أسقط عن التجار ثلث الجباية،

(1) De Gaury : Op. Cit. p. 103.

(٢) الفاسى: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٦ ب، ١٩٧أ.

(٣) الخزرجى: درر الفرائد المنظمة ص ٢٧٦.

(٤) الفاسى: العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٧أ.

(٥) كان السلطان برقوق قد أرسل قمحا إلى ينبع للبيع فاستولى عليه أميرها ـ الفاسى العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٥ أ.

ونتيجة هذا ازداد عدد الحجاج ونشطت التجارة في البحر الأحمر، وسر السلطان برقوق بجهود حسن بن عجلان وأرسل إليه خلعتين سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م [١].

وظل حسن بن عجلان على ولائه للسلطان برقوق ولابنه فرج من بعده، وأثرى من النشاط التجارى ثراء كبيراً، حتى اقتنى عدداً كبيراً من المماليك سنة ٨٠٣هـ. وفي العام الثاني أصبح لحسن بن عجلان من القوة والنفوذ ماجعله يحصل من السلطان فرج على مرسومين، في أحدهما؛ ألا يمنع الدعاء بمكة لسلطان اليمن، وذلك توثيقاً للروابط الاقتصادية مع اليمن، وفي الآخر أنه ليس لأحد من الأمراء الوافدين من مصر في أثناء السنة على صاحب مكة «يد ولا حكم» بل «يعضدونه ويقرون كلمته ويعلون شأنه وإن لم يصنع الأمير وخالف وطلبكم للقتال قاتلوه» [٢]. ويبدو أن قصد حسن بن عجلان من وراء هذا المرسوم الأخير هو ألا يجعل نفسه ألعوبة في أيدى أمراء مصر الذين صار بيدهم الأمر. وبمقتضى هذا المرسوم استطاع حسن بن عجلان أن يتحدى الأمير يسق أمير الحج سنة ٨٠٤ ـ سنة ١٤٠١م [٣].

غير أن سياسة حسن بن عجلان أغضبت السلطان فرج وأمراء الدولة وخاصةحين استولى سنة ٨٠٥هـ ـ سنة ١٤٠٢م ـ على الذهب الموجود بمركب في طريقه إلى اليمن، يملكه ابن القاضي برهان الدين إبراهيم بن عمر، فسعى هذا التاجر حتى أفرج السلطان فرج عن عنان ليهدد به حسن بن عجلان ، ولكن المنية عاجلت عناناً قبل أن يصل إلى مكة [٤] ولم يكن هناك بد من الصلح مع حسن بن عجلان، فأرسل إليه السلطان فرج سنة ٨٠٨هـ هدية وكتاباً بعودته إلى إمرته. وفي سنة ٨٠٩هـ ـ سنة ١٤٠٦م ـ وافق على ما طلبه حسن بن عجلان من مشاركة ابنه بركات له في إمرة مكة، ولعبت الرشوة دوراً كبيراً في علاقة

---

(١) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٦ أ.

(٢) الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٧ ب.

(٣) أمر هذا الأمير سنة ٨٠٤ هـ ـ ١٤٠١م بسد النوافذ التي بالجانب الغربي من الكعبة: فأمر حسن بفتحها، كما تحداه حين أمر بنقل السوق من المسعى فألغى قراره. راجع الفاسي: العقد الثمين جـ١ ورقة ١٥٧ ب.

(٤) الفاسي : العقد الثمين جـ٣ ورقة ١٩٧.

الدولة المملوكية الثانية بإمرة مكة. وبها حصل حسن بن عجلان سنة ٨١١هـ ـ ١٤٠٨م على مرسوم آخر بمشاركة ابنه أحمد لأخيه بركات فى الحكم، وأن يلقب حسن بنائب السلطنة بالأقطار الحجازية(١).

غير أن محاولة حسن بن عجلان غزو اليمن ٨١٢هـ ـ سنة ١٤٠٩م، وما تبع هذا من اضطراب الأمن والتجارة أدت إلى غضب السلطان فرج، وأمره بالقبض على حسن وولديه. غير أن السلطان فرج عجز عن تنفيذ قراره بسبب رشوة حسن لأمراء مصر وارساله هدية للسلطان فرج بيعت بخمسين ألف مثقال (٢).

والخلاصة أن حسن بن عجلان وجد أنه برغم أن والده حكم الحجاز بشكل استقلالى فى عهد دولة المماليك الأولى، فإنه وجد نفسه مضطراً لتحمل سيطرة حكام مصر فى عهد دولة المماليك الثانية. على أن السلاطين بعد الناصر فرج اتجهوا إلى مداراة حكام مكة والاكتفاء بذكر أسمائهم فى الخطبة وارسالهم الهدايا (٣).

على أن السلطان برقوق اتبع سياسة ودية مع الدولة الرسولية باليمن، وسبب هذا حرصه على سلامة التجارة مع اليمن وضمان مرور التجارة الشرقية دون تعرض اليمنيين لها. وروضحت هذه السياسة فى تبادل الهدايا بين الدولتين. بيد أن السلطان برقوق هو الذى بدأ بإرسال هديته سنة ٧٨٧هـ. سنة ١٣٨٥م ثم توالت هدايا سلاطين الدولة الرسولية باليمن من هذه السنة بعد أن كانت العلاقات سيئة فى نهاية الدولة المملوكية الأولى (٤). ومن هذه الهدايا ما أرسله الأشرف إسماعيل بن عباس ملك الدولة الرسولية باليمن سنة ٧٩٩هـ ـ ١٣٩٧م إلى السلطان برقوق. واشتملت هذه الهدية على عشرة من العبيد وست جوار، وسيف محلى بالذهب ومرصع بالعقيق، وشطرنج من العقيق الأحمر والأبيض، وأربع مراوح مذهبة، وعدد من العدد الحربية المذهبة، والكثير من غلات اليمن كالعنبر واللبان والجاوى

(١) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٥٩ ب.
(٢) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٦١ ب، ١٦٢أ.
(٣) نفس المرجع جـ١ ورقة ١٦٣ ب.
(٤) الخزرجى: العقود اللؤلؤية جـ٢ ص ١٨٢.
راجع كذلك السلامى: مختصر التواريخ ورقه ١٨٨أ.

والعمود والبخور والعطور وغير ذلك وقومت هذه الهدية بستين ألف دينار. وصحب رسول ملك الدولة الرسولية التاجر الكارمي برهان الدين المحلى [١].

وظلت العلاقات ودية مع الدولة الرسولية باليمن مادام ملك اليمن يعمل على ضبط التجارة في ميناء عدن التي أصبحت مركزاً هاماً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب[٢].

بيد أن هذه العلاقات بدأت تضطرب بسبب اتجاه سلاطين الدولة المملوكية الثانية إلى تشجيع أمراء مكة على إنعاش ميناء جدة ـ من أجل تجارتهم في الحجاز ـ على حساب ميناء عدن. ولم يكن سبب هذا التشجيع من جانب السلاطين رغبة منهم في مساعدة أمراء مكة بل على العكس فإنه خشى قوة أمراء مكة، ودليل هذا أن الناصر فرج غضب على حسن بن عجلان حين قام بمحاولته سنة ٨١٢هـ سنة ١٢٠٩م لغز وبلاد اليمن [٣].

وكما حرص السلطان برقوق على علاقات الود مع اليمن فإنه حرص على نفس هذه العلاقات مع الحبشة، ومن المعروف أن الكنيستين المصرية والحبشية ترتبطان بالمذهب الأرثوذكسى، وتعتبر الكنيسة الحبشية جزءاً من الكنيسة القبطية. ومن مظاهر الارتباط بين الكنيستين تعيين بطرك اليعاقبة بمصر أسقفاً للحبشة بناء على طلب ملك الحبشة من سلطان مصر في ذلك بكتاب وهدية يبعثهما مع رسوله إلى السلطان [٤].

غير أن ملك الحبشة داود بن سيف أرعد سنة ١٣٨١ ـ ١٤١١م انتهز فرصة الاضطرابات القائمة في مصر والناتجة عن التطاحن بين الأمراء من أجل السلطة وهاجم أسوان في أواخر سنة ١٣٨١م، وضرب بعض نواحيها فأرسل أهلها يستصرخون السلطان برقوق الذى أسرع بعلاج المشكلة بالطرق الودية، فاستدعى الأنبا متاؤس بطريرك الإسكندرية السابع والثمانين، واتفق معه على أن يرسل البطريرك من لدنه رسولاً إلى ملك الحبشة بكتاب من عنده ينكر

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٤ ص ٢٣.

(2) Piloti : Op. Cit. P. 42.

(3) Piloti: Op. Cit. p. 42.

(٤) المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٣.

عليه هذا الهجوم، ويطلب منه العودة إلى بلاده، وعدم التعرض للمسلمين في الحبشة. وحمل رسالة البطريرك الأسقف إبراهيم وصحبه رسول السلطان القاضي برهان الدين إبراهيم الدمياطي[١].

ويبدو أن الملك داود بن سيف أرعد حرص بدوره على اتصال الود[٢]. فلم يتردد في إجابة الطلب ، ورد على رسالة البطريرك برسالة إلى السلطان برقوق في سنة ١٣٨٢م وبعث مع الرسالة هدية حملها واحد وعشرون جملاً، واشتملت على طرائف بلادهم، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ على هيئة الحمص[٣]. ونفى الملك داود ما أشيع من أخبار عن أحوال المسلمين في الحبشة، وأكد أنهم في حالة طيبة، وأن لهم مطلق الحرية في التنقل والكسب. وطلب من السلطان برقوق أن يحسن معاملة البطريرك القبطي والمصريين القبط، وأن يعيدهم إلى مناصبهم التى عزلوا منها كما بين له أن حسن معاملة المسيحيين في مصر يقابل بحسن معاملة المسلمين في بلاده والعكس[٤].

ولم تقتصر العلاقات الحبشية بدولة المماليك الثانية عند هذا الحد بل نشطت التجارة في نفائس البلدين بسبب تأمين السلطان برقوق لطرق التجارة في البحر الأحمر[٥].

غير أن داود عاد في سنة ٨٠٥هـ ـ ١٤٠٢م، وانتهز فرصة الشحناء بين الأمراء في سلطنة فرج، وهاجم السلطنات الإسلامية في عدل وزيلع، وقتل من أهلها من المسلمين عدداً كبيراً[٦].

على أن قبط مصر برغم هذا أسهموا بقسط كبير في تطوير الحياة في الحبشة، إذ قدم على الملك إسحق بن داود بن سيف أرعد الذى تولى سنة ١٤١٢م فخر الدولة هارباً من اضطهاد الدولة للمصريين القبط، فرتب له أمور مملكته، ونظم له طريق جباية الأموال، كما أنشأ له ديواناً،

---

(١) العسقلاني : إنباء العمر جـ١ ص ١٦٢.
(٢) راجع: الحيمي سيره الحبشة ص ٢٨.
(٣) ا لمقريزى: السلوك جـ٣ (خطيبه) ص ٤٧١.
(٤) راجع اسكاروس: نوابغ الأقباط ص ٤٨ ـ ٥٨ .
(٥) العسقلاني: إنباء الغمر جـ٢ ورقة ٢٥٣ أ، ب.
(6) Budce: AHist. of Ethiapia VI p. 300.

وروضع له القوانين التى ضبطت سائر أحوال بلاده، ثم جعل له زياً يمتاز به عن سائر الرعية فأصبح الملك الحبشي يلبس الملابس الفاخرة بعد أن كان يخرج عرياناً، وقد عصب رأسه بعصابة خضراء (١).

ويبدو أن هذا العمل الذى قام به فخر الدولة لملك الحبشة شجعه على استقدام عدداً من المماليك الجراكسة ممن عملوا في وظائف «ذرد كاش» بمصر فعمل هؤلاء لملك الحبشة ذرد خانات عظيمة تشتمل على آلات السلاح والسيوف والرماح والزرديات ونحو ذلك. وأوضح المقريزى أثر هذا التقدم فى السلاح فى الحبشة التى ظلت حتى ذلك الوقت تحارب بالحراب، إذ أن هؤلاء المماليك الجراكسة علموا الجيش الحبشي فنون الفروسية من رمى النشاب والرمح والضرب بالسيف، ولعل أهم حدث فى تاريخ الحبشة الحربى هو ما أسهم به المصريون فى تعليم الأحباش استخدام النفط فى الحروب (٢).

أما عن موقف بلاد النوبة من الدولة المملوكية الثانية فإنه منذ أن تغلب بنوكنز على بلاد النوبة أصبحوا يشكلون خطراً على جنوبى مصر وفى سنة ٧٨٥هـ ـ ١٣٨٥م هاجم بنوكنز أسوان ونهبوها، وقتلوا عدداً من أهلها وفروا إلى أسوان مما دفع برقوق إلى تعيين الأمير حسين بن قرط التركماني والياً على أسوان (٣). غير أنه كثيراً ما التجأ حكام النوبة إلى السلطان برقوق لمعاونتهم فى النزاع على الملك، ومثال هذا ما حدث سنة ٨٠٠هـ ـ ١٣٩٨م حين حضر إلى مصر الملك الناصرى ملك النوبة هارباً من ابن عمه، فرحب به السلطان برقوق وشفع له عند ابن عمه، ووافقه على تعيين إبراهيم الشهابى والياً على أسوان، وأعاده إلى بلاده(٤). ومع ذلك كثيراً ما تأثر جنوبى مصر فى عهد فرج بهجمات بنى كنز.

وخاتمة المطاف أن سياسة السلطان برقوق أنقذت مصر وسورية من عوامل الضعف التى تعرضت لها من الداخل والخارج أواخر دولة المماليك الأولى. وجعلت هذه السياسة لدولة المماليك الثانية شخصيتها ونفوذها فى الداخل والخارج.

---

(١) المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ص ٤ ـ٥.
(٢) نفس المرجع ص ٤.
(٣) العسقلاني: إنباء الغمر جـ١ ص ٢٢٤.
(٤) العينى: عقد الجمان جـ٢٥ ورقة ٢١.

ملاحق توضيحية
من مصادر عربية وفارسية

الملحق الأول من هذه الملاحق منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف المؤرخ الفارسى شرف الدين على يزدى (جـ١ : ص ٦٤٢ ـ ص ٦٤٣) وهذا الملحق كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان برقوق وتاريخه سنة ٧٩٥هـ. ويبدو منه أنه أول خطاب بعثه هذا العملاق التترى إلى السلطان برقوق يدعوه فيه إلى مراعاة حسن الجوار، وإقامة العلاقات الطيبة لتأمين طرق المواصلات والتجارة.

والملحق الثانى منقول من المؤرخ المصرى أحمد بن على المقريزى: «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤ تاريخ جـ ٣ ص ٢٣٧ ـ ص ٢٣٨) وهذا الملحق الثانى كتاب ثان من عند تيمورلنك إلى السلطان برقوق ويرجع تاريخه إلى ٧٩٦هـ وهو يختلف عن الكتاب الأول من حيث اللهجة والتطويل اللفظى، ويحتوى على تهديد بالحرب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق إذا هو لم يعلن طاعته له.

أما الملحق الثالث فهو جواب السلطان برقوق على الكتاب الثانى من تيمورلنك وهو منقول كذلك عن أحمد بن على المقريزى: «السلوك لمعرفة دول الملوك» (صور شمسية بدار الكتب المصرية جـ٣ ص ٢٣٧ ـ ص ٢٣٨) وتاريخه سنة ٧٩٦هـ، وفى هذا الجواب حرص السلطان برقوق على الظهور بعدم الاكتراث لتهديدات تيمورلنك.

والملحق الرابع كتاب باللغة الفارسية من تيمورلنك إلى السلطان فرج بن برقوق وتاريخه ٨٠٣ هـ، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين على يزدى (جـ٢ ص ٢٦٧)، واشتمل هذا الكتاب على تهديد من تيمورلنك إلى السلطان فرج إذا هو لم يطلق أسيراً تترياً كبيراً من أسرة تيمورلنك، هو القائد أطلمش الذى وقع فى يد السلطان برقوق سنة ٧٩٥هـ

ويشتمل الملحق الخامس على تهديد ثان من تيمورلنك للسلطان فرج، ومطالبته بإعلان الطاعة، والدعاء له فى خطبة الجمعة بالقاهرة. وهذا الكتاب مكتوب بالفارسية، وهو منقول كذلك من كتاب «ظفرنامه» تأليف شرف الدين على يزدى (حـ٢ ص ٣١٥ ـ ص ٣١٦)

وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ وهو خطاب جاف مختصر، ويبدو أن تيمورلنك أمر بكتابته، وهو في الطريق إلى دمشق ليلحق بها كارثته المروعة.

ويشتمل الملحق السادس على جواب السلطان فرج على هذا الكتاب التيمورى الجاف وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (جـ٢ ـ ٣١٧) وتاريخه سنة ٨٠٣هـ، ويتضح من هذا الكتاب استعداد السلطان فرج لإعلان الطاعة لتيمورلنك بشرط قيام تيمورلنك من جانبه بالاعتذار عما قام به من هجوم على دمشق.

والملحق السابع كتاب ثان باللغة الفارسية من السلطان فرج إلى تيمورلنك، وهو منقول من كتاب «ظفرنامه» (جـ٢ ص ٣٢٧)، وتاريخه سنة ٨٠٣ هـ ويبدو أن السلطان فرج أمر بكتابة هذا الكتاب وهو في داخل دمشق وتيمورلنك محيط بأسوارها ، وفيه يؤكد السلطان فرج وعده السابق ويطلب وقف القتال.

والملحق الثامن منقول من مخطوط، «كتاب روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء» (مكتبة جامعة القاهرة رقم ٩٧٨ فا حـ ٦ ص ٣٤٦)، وهو من تأليف محمد بن خواندشاه ميرخواند، هذا الكتاب بالفارسية كذلك، وتاريخه سنة ٨٠٥هـ؛ وهو خطاب من تيمورلنك إلى السلطان فرج بعد انتصار تيمورلنك على السلطان بايزيد العثمانى فى واقعة أنقره، وفيه طلب تيمورلنك من السلطان فرج سك نقود مصر والشام باسمه والدعاء له فى خطبة الجمعة.

أما الملحق التاسع والأخير فهو كتاب منقول من ذيل كتاب «برلام ويواصف»، وهو مخطوط بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة (رقم ٤٢ تاريخ ص ٣٣١ ـ ٣٣٩)، وهو كتاب من النجاشي داود ملك الحبشة إلى السلطان برقوق يشرح ما عليه المسلمون فى الحبشة من رغد العيش ورعاية ملكية، وينفى النجاشي ما نقله بعض الرسل إلى السلطان برقوق من أخبار عن سوء معاملة النجاشي للرعايا المسلمين فى بلاده، ثم يدعو السلطان برقوق إلى رعاية النصارى فى بلاده ويهدد بقطع مياه النيل، وإساءة معاملة المسلمين الذين تحت حكمه إذا حدثت إساءة من جانب السلطان لقبط مصر.

الملحق(١)

كتاب من تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٥ هجرية (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، حـ١ ، ص ٦٤٢ ـ ٦٤٣).

ترجمة الكتاب:

«لما كان بيت جنكيزخان فى حروب مع أسلافكم السلاطين الذين ظلموا شعب الشام، وأن هذه الحروب أنهت بسلام اختلاف الرسل، عاد الأمن والتعاون بين الدولتين؛ غير أنه منذ وفاة الايلخان العظيم سعيد أبو سعيد بهادر لم يحكم فى بلاد فارس حاكم من نسل جنكيزخان الذى نظم أمور الناس، ولكن على العكس قام حكام فى كل الإمارات فى هذه الامبراطورية الكبيرة مكان ملوكها، وسببوا متاعب لا نهاية لها لشعوب هذه الامبراطورية. أما وقد اختارنا الإله الواحد بفضل من عنده لإصلاح ما فسد، وأدان لسيفنا المظفر كل بلاد فارس والعراق العربى الذى تتاخم حدوده حدود بلادكم، فإن المحبة التى ندين بها لشعبنا تتطلب بحكم الجوار أن نتبادل الكتب، وأن يأتى الرسل، ويعودوا فى يسر بين بلدينا، وأن ينتقل تجار البلدين فى أمن حتى تنتعش البلاد، ويكثر السكان، ويعيشوا فى سلام. ولهذا السبب أرسلنا رسولنا إليكم ضارعين إلى الله أن يكلأكم بعنايته إن سلكتم حسب هذا . والسلام على من اتبع الهدى والحمد لله رب العالمين. ».

الملحق(٢)

كتاب تيمورلنك (الكتاب الثانى) إلى السلطان برقوق في سنة ٧٩٦هـ (المقريزى، أحمد بن علي: السلوك صور شمسية حـ٣ ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

«قل اللهم مالك الملك»[١] ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٢] اعلموا أنا جند الله مخلوقون من سخطه، ومسلطون على

(١) ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ١٢، ص ٥٠ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).
(٢) القرآن الكريم: سورة الزمر: ٤٦.

من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكى [1]، ولا نرحم لباكى [2]، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا ومن جهتنا. قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد، وأظهرنا فى الأرض الفساد، وذلت لنا أعزتها، وملكنا بالشوكة أزمتها، فإن خيل ذلك على السامع وأشكل وقال إن فيه عليه مشكل [3] فقل له:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [4]، وذلك بكثرة عددنا وشدة بأسنا، فخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وأسنتنا بوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وجيوشنا كعدد الرمال، ونحن أبطال وأقيال، وملكنا لا يرام، وجارنا لا يضام ـ وعزنا أبدا لسؤدد منقام، فمن سالمنا سلم، ومن رام حربنا ندم، ومن تكلم فينا بما لا يعلم جهل. وأنتم فإن أطعتم أمرنا وقبلتم شرطنا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم، فلا تلوموا [5] إلا أنفسكم، فالحصون منا مع تشديدها لا تمنع، والمدائن بشدتها لقتالنا لا ترد ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب فينا ولايسمع، فكيف يسمع الله دعاءكم، وقد أكلتم الحرام، وظلمتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الحكام، وأعدت لكم النار وبئس المصير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [6]، فلما فعلتم ذلك أوردتم أنفسكم موارد المهالك، وقد قتلتم العلماء وعصيتم رب الأرض والسماء، وأرقتم دم الأشراف، وهذا والله هو البغى والإسراف، فأنتم بذلك فى النار خالدون، وفى غد ينادى عليكم: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [7]، فأبشروا بالمذلة والهوان، يا أهل البغى والعدوان، قد غلب عندكم أننا كفرة، وثبت عندنا أنكم والله الكفرة الفجرة، وقد سلطنا عليكم الإله، له أمور مقدرة وأحكام محررة، فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل، لأننا

(١) ، (٢) كذ فى الأصل.
(٣) كذا فى الأصل.
(٤) القرآن الكريم: سورة النمل : ٣٤.
(٥) كذا فى الأصل.
(٦) القرآن الكريم سورة النساء: ١٠.
(٧) القرآن الكريم سورة الأحقاف : ٢٠.

ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منكم كل سفينة غصبا، وقد أوضحنا لكم الخطاب، فأسرعوا برد الجواب، قبل أن ينكشف الغطاء، وتضرم الحرب نارها، وتضع أوزارها، وتصير كل عين عليكم باكية، وينادى منادى الفراق: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾[1]، ويسمعكم صارخ الفناء بعد أن يهزكم هزا، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[2]. قد أنصفناكم إذ راسلناكم فلا تقتلوا المرسلين كما فعلتم بالأولين، فتخالفوا كعادتكم سنن الماضين وتعصوا رب العالمين، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[3]، وقد أوضحنا لكم الكلام فأرسلوا برد الجواب والسلام».

الملحق(٣)

جواب السلطان برقوق على هذا الكتاب وتاريخه سنة ٧٩٦هـ:

(المقريزى، أحمد بن على: السلوك، صور شمسية، جـ٣ ص ٢٣٨)

«بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾[4] حصل الوقوف على ألفاظكم الكفرية ونزعاتكم الشيطانية، وكتابكم يخبرنا عن الحضرة الجنابية وسيرة الكفرة الملائكية، وأنكم مخلوقون من سخط الله، ومسلطون على من حل عليه غضب الله، وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك، وقد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فذلك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، وتكفيكم هذه الشهادة الكافية، وبما أوقفتم به أنفسكم ناهية، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[5]، ففى كل كتاب لعنتم، وعلى لسان كل مرسل نعتم، وبكل قبيح

(١) القرآن الكريم سورة الحاقة: ٨.
(٢) القرآن الكريم سورة مريم: ٩٨.
(٣) القرآن الكريم سورة النور: ٥٤.
(٤) القرآن الكريم سورة آل عمران: ٢٥.
(٥) القرآن الكريم: سورة الكافرون.

وصفتم، وعندنا خبركم من حين خرجتم، أنكم كفرة، ألا لعنة الله على الكافرين، من تمسك بالأصول فلا يبالى بالفروع. نحن المؤمنون حقاً لا يدخل علينا عيب، ولا يضرنا ريب، القرآن علينا نزل، وهو سبحانه بنا رحيم لم يزل، فتحققنا نزوله، وعلمنا ببركة تأويله، فالنار لكم خلقت، ولجلودكم أضرمت، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾[1]، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت[2] بالتوت[3]، والسباع بالضباع، والكماة بالكراع. نحن خيولنا برقية وسهامنا عربية، وسيوفنا يمانية، وليوثنا مضرية، وأكفنا شديدة المضارب، وصفتنا مذكورة في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وإن قتل منا أحد فبينه وبين الجنة ساعة، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. وأما قولكم : قلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالى بكثرة الغنم، وكثير الحطب يفنيه القليل من الضرم، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[5]. الفرارا الفرار من الرزايا، وطول البلايا، واعلموا أن هجوم المنية عندنا غاية الأمنية، إن عشنا عشنا سعداء، وإن قتلنا قتلنا شهداء، ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[6]. عد أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، تطلبون منا طاعة، لا سمع لكم ولا طاعة، وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أنا ينكشف الغطاء، ففي نظمه تركيك. وفي سلكه تلبيك، لو كشف الغطاء لبان القصد بعد بيان، أكفر بعد إيمان. أم اتخذتم إلها ثان، وطلبتم من معلوم رأيكم أن نتبع ربكم. ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[7] قل لكاتبك الذى وضع رسالته ووصف مقالته. وصل كتابك كضرب رباب أو كطنين ذباب، ﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا

---

(١) القرآن الكريم: سورة الانفطار: ١.
(٢) الرتوت جمع رت وهو الرئيس والسيد (المعجم الوسيط).
(٣) كذا في الأصل.
(٤) القرآن الكريم : سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١.
(٥) القرآن الكريم. سورة البقرة: ٢٤٩.
(٦) القرآن الكريم : سورة المائدة : ٥٦.
(٧) القرآن الكريم : سورة مريم : ٨٩ ـ ٩٠.

يقـول﴾ [1] إن شاء الله تعالى [لقد خلطتم فى الأمر فى الذى أرسلتم][2] ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [3] والسلام».

الملحق(٤)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج كتبه من ملطية فى شهر المحرم سنة ٨٠٣هـ (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه جـ٢، ص ٢٧٦).

ترجمة الكتاب:

«لقد بدرت من والدك حركات مستهجنة من جملتها قتله رسلنا دون سبب، وحبسه أطلمش الذى كان من رجال بلاطنا وعدم إرجاعه. ولما أسلم والدك وديعة الحياة فإن سؤاله وجزاءه قد أوكل إلى البارى يوم القيامة. وينبغى عليك أنت أن ترحم نفسك وأهل مملكتك، وأن تعيد أطلمش إلينا حتى تنجى أهل مصر والشام من انتقام جيشنا الذى يتحرق إلى الثأر. وإذا سلكت غير هذا الطريق بدافع من وسوسة شيطان اللجاج وعناد الخلاف، فإن جميع تلك الديار والبلاد سوف تصير خراباً بمجرد مرور عساكرنا المنصورة وعبورها فيها. وسيكون وزر ووبال دماء المسلمين وأموالهم فى عنقك».

الملحق(٥)

كتاب تيمورلنك إلى السلطان فرج فى جمادى الأولى سنة ٨٠٣ هـ حين تقدم تيمورلنك لحصار دمشق (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، جـ٢ ص ٣١٥ ـ ٣١٦).

ترجمة الكتاب:

«لقد علمت آثار حزمنا وعزمنا فى الأمور، وعلو همتنا فى تحصيل المطالب، وإتمام المقاصد والمآرب، وإن العقلاء ليعلمون أن تشبث الرجال بالأمور هو نزع من الغيرة والحمية، سواء كان الرجال ملوكا أو من أفراد الشعب. وإن الهدف الأصلى للملوك من قيادة الجيوش وفتح

(١) القرآن الكريم : سورة مريم: ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) ما بين الحاصرتين من ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ١٢ ص ٥٢ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦).
(٣) القرآن الكريم: سورة الشعراء : ٢٢٧.

الممالك مع كل هذا الرعب والخطر هو رعاية الناموس في الحال وبقاء الذكر الجميل في المآل، وليس هو مجرد جمع المال وتكثير المنال.

إن أهم الأعمال في الدنيا رعاية الناموس وإبقاء الذكر الطيب، وإلا فإن المرء يكفيه نصف رغيف من الخبز.

وقد طلبت أطلمش مرات، ولكنكم لم ترسلوه وتعللتم بعلل واهية لتأخير إرساله، حتى ثارت فينا النخوة لنسير إلى بلادك، وننزل أنواع الخراب والدمار بالناس والأحوال في دياركم.

« إذا نطق الصخر، فسيجيب بأن شجرة الخطأ لا تعطى ثمراً».

وبرغم هذا كله فإنك إذا أرسلت أطلمش، وزينت السكة والخطبة باسمنا وألقابنا، وطويت بساط النزاع بيننا، ورحمت نفسك وأهل ديارك، لانتهى كل شئ ، وإلا جيشنا الجرار المتعطش إلى احتساء الدماء سوف يعصف المخالفين، ويقهر المعاندين، ويستولى على الديار ويقتلع الرسم المعهود ويبلغ غاية المقصود.

«هناك طريقان طريق المداراة وطريق اللجاج»

«الأول يؤدى إلى الأمن والثاني يؤدى إلى الحرب»

«وقد أظهرت لك العقل فانتصح»

«واختر طريقاً من الطريقين».

الملحق(٦)

جواب السلطان فرج على كتاب تيمورلنك السابق وتاريخه جمادى الأولى سنة ٨٠٣هـ (شرف الدين على يزدى : ظفرنامه جـ٢ ص ٣١٧)

ترجمة الكتاب:

« نحن عبيد في مقام الطاعة والانقياد. وسنرسل أطلمش في خلال خمسة أيام. فإذا تجاوز السلطان الأعظم عن جرائمنا فإننا لن نهمل أو نقصر في أداء وظائفنا وإطاعة الأوامر، وإظهار الخضوع وسنفعل كل ما في مكنتنا ومقدورنا لإرضاء خاطركم الشريف ومشاعركم السلطانية».

الملحق(٧)

كتاب من السلطان فرج إلى تيمورلنك كتبه من دمشق وقت حصار تيمورلنك لها وتاريخه جمادى الأولى ٨٠٣ هـ (شرف الدين على يزدى: ظفرنامه، جـ٢ ص ٣٢٧).

«إن ما حدث أمس كان من فعل بعض الغوغاء دون رغبة منا، إذ أن جمعاً من الجهال والأوباش قد تجرأوا عن جهل للهجوم فلقوا جزاءهم. ونحن باقون على العهد الذى عرضناه، فإذا أوقف الجيش القتال اليوم، فإننا سوف ننفذ غدا كل ما تأمرون به، ونقوم بتقديم العذر عن التقصيرات السابقة حسب المقدور».

الملحق(٨)

كتاب من تيمورلنك بعد واقعة أنقره إلى السلطان فرج وتاريخه ٨٠٥هـ (مير خواند: روضة الصفا، جـ٦ ، ص ٢٤٦).

ترجمة الكتاب: «أصبح ملك جميع بلاد الروم بنصرة الله، وعناية السلطان تحت حكم أتباعنا فينبغى أن تزين سكة بلاد الشام ومصر وخطبتها باسمنا ولقبنا العظيم، وأن تطلقوا سراح اطلمش فى الحال، وترسلوه إلى بلاطنا الذى هو ملجأ للعالم، وإذا تغافلتم فى هذا الأمر أدنى تغافل فتيقنوا أن راياتنا المظفرة ستتجه بعد عودتها من بلاد الروم إلى مصر وترفرف على ربوعها. وقد قلت كل ما فى نفسى وأنت تعرف ما بعد ذلك. وقد أعذر من أنذر».

الملحق(٩)

كتاب من النجاشى داود إلى السلطان برقوق: (ضمن مجموعة سيرة برلام ويواصف: مخطوطه بمكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس تاريخها ١٦ كيهك سنة ١١٧٩ ش رقم ٤٢ تاريخ ذيل المخطوطة ص ٣٣١ ـ ٣٣٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

«من المحب داود المدعو قسطنطين إلى المقام العالى المولوى الكبيرى السلطان الملكى العادلى سيف الدين الملك الظاهر أبى سعيد برقوق سلطان المسلمين والإسلام بديار مصر والشام. ملك الأنام، الخاص منهم، أعز الله أنصاره وضاعف علوه واقتداره. ورفع لواءه ومناره. ومحا بعدله

أسباب الظلم وآثاره، وجعل الفضل بالعدل شعاره. أما بعد رحمة الله تعالى، يقلد ملك أرضه من يشاء من عباده، وحافظ عدل أوليانه وأنبيائه الصادقين القائمين بأوامره ومراده، نحمده على ما أولانا من جزيل نعمائه. فنشكره شكراً على جزيل آلائه، ونسأله الإعانة على القيام بما يرضيه فيما خولنا إياه من التخصص بهذه المملكة الوسيعة والدرجة الرفيعة. إنه على ما يشاء قدير، وقد شهد عند كل عارف ومتردد علو مقدار مملكة الحبشة ومحل ملوكها عند سائر الملوك، وأنهم منصورون من الله تعالى فى تصرفاتهم، فإن مقاصدهم الخير لكل الناس أجمعين، ويتعمدون العدل، والإنصاف فى عنايتهم والشفقة عليهم وردع الظالمين، ومنع كل المفسدين من الأذى للرعية أجمعين، وإيصال الحقوق إلى المستحقين وأمن السبيل والإحسان إلى الرعية وحفظ العهود لأولياء العهد ما داموا عليه حافظين، وانصاف المظلوم من الظالمين. السلام عليكم سلاما جزيلاً وافراً كما يليق لعظيم سلطانكم. السلام على أمراء دولتكم الأعزاء والأخصاء بكم ومقدمى جيوشكم الصغار والكبار ورحمة الله وبركاته عليكم أجمعين. آمين.

نعلمكم بعد تجديد السلام عليكم، أنه لما أراد الله تعالى برحمته ومشيئته وأحكامه غير المدركة جلوسنا على كرسى الملك وتقليدنا أمور المملكة، واتفاق سائر الملوك والأمراء، ومقدمى الدولة والوزراء وكل جيوش وعساكر السلطنة العظيمة النجاشية فجلسنا على كرسى الملك الموروث من داود لسليمان ابنه عليهما السلام فقابلنا ذلك بالحمد والشكر، ثم نظرنا فى أمر الرعية وأمرنا بإطلاق المحابيس والمأسورين. وفتحنا أبواب السبل للتجار والمسافرين وأمعنا النظر فى مصالح بلادكم، وفى الوصية بأولادكم والتجار الكارمية وغيرهم فى البر والبحر، وأمرنا بتجهيز الغلال وحملها إلى السواحل الإسلامية لما سبقت به العهود للملوك المتقدمين ببلادنا وبلادكم، وبالخاصة ما كان بين الملك الشهيد الأكمل عبد سنون جدى، وبين الملك الناصر محمد بن قلاون من المحبة والاتفاق وما كان يعتمد الملك الناصر رحمه الله تعالى الوصية بأبينا البطريرك وإخوتنا النصارى بالديار المصرية والأقاليم الشامية ومراعاتهم ومنع من يتعرض لهم بأذية. و الآن فقد ورد علينا كتاب أبينا ورئيسنا ومربينا البطريرك أنبامتاوس بطريرك الإسكندرية والديارالمصرية والحبشة والنوبة على يد الأسقف المكرم إبراهام ورفقته، وكتابكم الشريف على يد رسولكم القاضى برهان الدين ورفقته الفقهاء. فقابلناهما ثم قابلناهما بالإكرام والتبجيل،

وهما يتضمنان أن قوماً أنهوا عندكم بأننا قد تسلطنا على المسلمين المقيمين ببلادنا بالقتل والإساءة والإكراه على الدخول فى ديننا بالجبر والقهر، وأنهم فى أمور صادرة، وهذه الأمور أكثرها سقيمة وينبغى لمن له النظر فى تدبير المملكة الإسلامية ومقابلة القوم المنفيين بما يستحقونه من القصاص الواجب على الكاذبين، لأن هؤلاء القوم المذكورين الذين أنهوا عنهم إنما هم مقيمون فى بلادنا راضين غير مكرهين، وكانوا فقراء فصاروا تجاراً متقلين، ويتجرون ويمشون شرقاً وغرباً من غير جزية ولاحق ولامكس يطالبون به بل هم أكثر من أهل البلاد يكرمون. ومن اختار منهم الإقامة ببلادنا، فلا نمنعه من ذلك، وأما الإكراه على الدخول فى ديننا فهذا غير واجب فى كتبنا، وإن اتفق شئ من ذلك فيكون منهم بالرضا والرغبة الشافية، وأما إحساننا لجماعة المسلمين فى كل وقت وحين فهو ظاهر للعارفين. أول ذلك بحر النيل المبارك الذى يجرى فى بلاد الحبشة إلى أرض مصر وأعمالها بطرق جريانها للديار المصرية بعيدة صعبة المسالك. ونحن نأمر بإقامة أناس أشداء يسوقونها ويسهلون سبلها وطرقها، ثم يصرفونها إلى أماكن أخرى، ولو وصل للديار المصرية لغرقها وغرق كل ما فيها، ثم نأمر كل وقت بإرسال الغلال إلى السواحل ونواحيها، والكور والمدن الإسلامية لأجل من يرد من التجار الكارمية والصادرين والواردين من الديار المصرية والبلاد اليمنية والمسافرين إلى الأقطار الحجازية، والمقيمين المزودين إلى ثغر سواكن وغيرها بحراً وبرا . ونأمر بحفظ الطرقات من المتخوفين ومن العربان المؤذيين، وتقفية آثار المعتدين. وأما طرق الإقامة بالبلاد الحبشية فكل من يرد عليها من المسلمين نأمر بالوصية عليهم إن كانوا صادرين أوواردين، حتى لو سار إنسان واحد بمفرده فى البلاد مع وسعها وكثرة أهلها، فهو على نفسه وماله من الآمنين ثم الاحتفال بالملوك المسلمين وببلادهم التى تحت سلطاننا وحوزتنا ونحن بها ظافرين. ولك من توفى منهم إلى رحمة الله تعالى نقيم مكانه من ذريته ونسله، ونسلم إليهم بلاد النصارى من أهلنا والتزامنا ونسلطهم عليهم، يعطونهم الخراج بالحقوق الواجبة على الرعية للملوك وهم مكرمون مبجلون أكثر من النصارى وعندنا مع الإنصاف بلا شكوى، ومن له ظلامة منهم ومن غيرهم فهى واجبة على حكم العدل والإنصاف وهؤلاء القوم الذين أنهوا إليكم بما قد طالعتمونا به لا يعرفون عنا شيئاً لأنهم أصحاب غرض وأهوية فاسدة وهم مفتنون بين الملوك، ولكن من أساء إلينا وعاندنا وخامر علينا ومانعنا بما يلزمه من الخراج أيضاً، والقطيعة التى

عليه في كل بلاده أسوة بمن كان قبله فنغزو عليه على عادة الملوك إذا خامر عليهم أحدمن الأمراء مثل ما تفعلون مع العربان ببلادكم ولكن اسألوا من التجار المترددين إلى بلادنا عن أخبارنا. وأما جماعة المسلمين عليهم مزيد الأمن والأمان ببلادنا. وأنتم تعاملون الرعية وأهل الذمة بضد ذلك حتى فى أيام والدى الملك الأعز سيف أرعد، أرسل رسله مع الهدايا إلى السلطنة الشريفة الإسلامية والديار لما سمع أنكم تضرون أبانا البطريرك، وأخوتنا النصارى والأكابر والمشايخ الذين فيها، وأنكم عزلتموهم من خدمتهم وعوائدهم المستقرة فى أيام الملوك السالفين فقابلتموهم بضد الإحسان، وحصل فى حقهم مالم يحصل من السالفين فيما تقدم من السنين. إذا وجهنا بهم إليكم تقابلونهم بالفرح الزايد والإكرام والاحترام، وتسمعون منا ما سألناكم فيه وتجيبوننا عنه بالقول، ويأتوننا من عندكم فرحين مسرورين، وتعيدون لنا الجواب بأحسن الخطاب مع الهدايا الفاخرة والسلاح والثياب المثمنة وغير ذلك. فلما نقضتم العهود والعوائد المستقرة بين الملوك صعب ذلك على والدنا المرحوم سيف أرعد، وامتنع عنك وعن مرأسلاتكم، وكان فى عقابه بدا من جهتكم مالا يلائم من وجوه اللوم والانجماع حتى تعملوا ما يحصل من مصالح لكم من جهتنا إذا نقضناه ومقدار الإحسان والمراعاة لبلادكم وتجاركم وجذبنا حبل الوصل عنكم وصرمناه.

ولكن لما وصل إلينا كتاب أبينا وراسنا ورئيسنا السيد الأب البطرك، فإننا تحت طاعته ولا نستطيع مخالفته. والآن فقد جهزنا إليكم أحسن تجهيز مع أولادنا الخصيصين بنا، ومن أكابر دولتنا وهم زرع ضمانون الكيتى، وزرع الأمانة بمحل مارى سعاده بمحل اخر سطوس (عبد المسيح) وعلى أيديهم المكرمة التى تليق بمثلكم . وكتبنا لأجل الوصاية الأكيدة على أبينا البطرك واخوتنا النصارى بالديار المصرية بما حوته الأقاليم الإسلامية وأجرائهم على عوائدهم القديمة ومراعاتهم واكرامهم ورجوع كنائسهم وأديرتهم التى أخذتموها وجعلتموها مساجد . وهذا بخلاف ما أمربه صاحب شريعتكم من حفظ الذمة. فإن كنتم تقرونهم على عوائدهم بين الملوك المتقدمين من حفظهم كنائسهم ورزقهم وأرزاقهم وأموالهم ومواشيهم وركوبهم معتدلين كجارى العوائد القديمة وحفظهم ما سألنا كم فيه ، فالعهد باق بيننا وبينكم والمودة باقية ونعامل المسلمين بأكثر من ذلك.ومهما فعلتموه مع أبينا البطريرك وأخوتنا النصارى من الخير والشر فنحن فاعلوه من سائر المسلمين الذين فى حوزتنا وفى سلطاننا وأنتم

مطالبون بما يأتيهم. أعاذكم الله من ذلك. ولابد من أن عظمتكم علمتم من التجار المترددين إلى بلادنا وغيرها من سعة بلاد الحبشة وكثرة ملوكها وكيف وعدهم الله فى آخر الزمان وقد قرب الميعاد أن نفعل ما يأمر الله به، وكيف يسهل لنا الطرقات ولا يخفى على علمكم ما نطقت به الكتب. ونعلمكم أن الله تعالى كشف لنا فى توزيع مجارى النيل المبارك وصده عن الديار المصرية مالم يكشف لأحد من الملوك المتقدمين قبلنا . وتعلمون أن النصارى تحت سلطانكم بالديار المصرية وغيرها ما يوازون الكثير من إقليم واحد من أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا، والواصلون إليكم من رسلنا تقابلونهم بما يليق بمثلكم ، وتقضون جميع أشغالهم من جميع ما كتبناه إليكم من أمور إخوتنا النصارى وكنائسهم وأديرتهم وركوبهم معتدلين وتدعونهم يتوجهون إلى القدس الشريف للزيارة والتبرك به ويسيحون لنا فيه الآثار المقدسة الشريفة. وقد بلغنا أن بعض أجساد الشهداء الذين لنا وهو أبو إسحق الذى من دفرا أخرجوه من كنيسته وذكروا أنه عند بعض الأمراء في بيته، والقصد من سياستكم تشرفون بإرسال الشهيد المشار إليه صحبة رسلنا وواحد من رءوس بلادالمسلمين يسمى الحاج عيسى بن عبد الله وفقهاء البلاد، فهم يعرفون أحوال المسلمين عندنا وما هم فيه من الخير وركوبهم معتدلين على الخيول والبغال المثمنة. ولكن نحن منتظرون ما يرد علينا من الأخبار على يد رسلنا سريعاً فمهما فعلتموه بإخوتنا النصارى فنحن فاعلوه مع المسلمين الذين تحت سلطاننا، خيراً كان أوشراً. وقد بلغنا من المترددين أن جماعة من إخوتنا الحبوش توجهوا إلى الديار المصرية قاصدين القدس الشريف للتبرك به، وجماعة من رسلنا أيضاً تخاصمهم عبيد التجار الكارمية وغيرهم وأخذوهم باليد العالية ليعملوهم مسلمين، وهذا غير واجب فى الشريعة ولاجرت به عادة في زمن المسلمين السالفين.

وبلغنا أيضاً من المترددين إلينا أخبار الملك، وما هو عليه من العدل والإنصاف، والإحسان والشفقة على سائر خليقة الله تعالى فسررنا بذلك كثيراً، وفرحنا الفرح الكامل بما خصكم الله تعالى من الجلوس على كرسى المملكة بالديار المصرية والأقاليم الشامية فيجب عليكم أن تحمدوا الله تعالى على ما أولاكم من النعم. ثم نسألكم أيضاً أن تتواصوا بأبينا البطرك وإخوتنا النصارى وكنائسهم التى أخذتموها وعملتموها مساجد بغير حكم حق فتعيدونها لهم، وتأمروا بركوب إخوتنا النصارى معتدلين والاراخنة الذين منهم، والكتاب الذين فى الدولة ومن تجرد

منهم على عوائدهم التى كانت فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون. فإذا سمعنا أنكم فعلتم هذا جميعاً مع إخواتنا النصارى فنحن نتوصى بالمسلمين الذين تحت سلطاننا والصادرين والواردين من عندكم. ومتى والعياذ بالله تعالى حصل لأبينا البطرك وإخوتنا النصارى جور من قبلكم أو من جهة الذين يرمون الفتن بين الملوك فليس علينا لوم فيما يصدر منا لسائر أقاليم المسلمين الذين تحت سلطاننا وإلى البلاد المصرية من قطع بحر النيل المبارك وتوزيعه إلى الأقاليم الأخرى كما أعلمناكم فى أعلى كتابنا، ومهما يحل بهم يكون الذى كان السبب فيه مطالباً بدمائهم.

ونعلمكم سعة البلاد وما نقاتل به المسلمين وهذه أسماؤهم:

سلطان سنقرا وأقاليمه. سلطان كنزا وأقاليمه. سلطان من وأقاليمه. سلطان فانا وأقاليمه سلطان أنون وأقاليمه. وبأرض الدواريت عشرة سلاطين مسلمين. سلطان بر بأرض نوحا وأقاليمه. سلطان هاره وتحت يده ملوك مسلمين مائة وثلاثون ملكا. سلطان تاكيا وتحت يده سلاطين مسلمون مائة وثلاثة وستون سلطاناً. سلطان طاعة تحت يده ملوك مسلمون مائة وخمسون ملكا وملوك المسلمين بأرض داروا أربعين ملكا. وسلطان دفاه. فكل التجار يعرفونكم سعة مملكتى. سلطان سرجه وأقاليمه. سلطان أحواره وأقاليمه. سلطان باراتا وأقاليمه. فهؤلاء جميعاً يعطون الخراج من ذهب وفضة وقماش وحرير وخيول وبغال وغير ذلك. وأما الذمة الذين فى وسط بلادنافلا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى. وإنا ما ذكرنا لكم الأقاليم البعيدة إلاليحاط علمكم بذلك ويستدرك فارطه فى رجوع الكنائس والأديرة بغير حكم حق وعملت مساجد. فمتى والعياذ بالله لم تجيبونا إلى ما سألناكم فيه جميعه وإلا فنحن موقعون الفعل بجميع أقاليم المسلمين وسلاطينهم، وتكونون أنتم المطالبين بدمائهم ـ لكن أجروا أبانا البطرك وإخوتنا النصارى على عوائدهم التى كانت فى أيام السلطان محمد بن قلاوون. والمرجو من الله تعالى إصلاح الأمور لنا ولكم والله تعالى يسمعنا أخباراً تسر القلوب، وتشرح الصدور بصالح الأمور بمنه وكرمه وخفى لطفه، فإنه سابغ مراحمه ونعمته من بعد فراغ السلام الوافر عليكم وعلى أمراء دولتكم ومقدمى بلادكم وكل من يلوذ بكم وبمقامكم الشريف. ونشكر الله تعالى على الدوام فى مدى الليالى والأيام أجمعين آمين.

المراجع

أولا.المخطوطات العربية

* ابن أبى السرور ، محمد بن السيد (١٠٨٧هـ):
أ ـ عيون الأخبار ونزهة الأبصار ـ دار الكتب بالقاهرة رقم ٧٢.
ب ـ النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ـ دار الكتب القاهرة برقم ٢٢٦٦ تاريخ.
* ابن أيبك أبو بكر عبد الله : (ق ٨هـ):
كنز الدرر وجامع الغرر ٩ أجزاء مصورة بدار الكتب القاهرة برقم ٢٥٧٨ تاريخ. ابن بهادر.
* ابن بهادر. محمد بن محمد (القرن ٩ هـ): فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر، جزءان، مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٣٩٩ تاريخ.
* ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+ ٨٧٤هـ): المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ٣ مجلدات ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١١١٣ تاريخ.
* ابن حبيب، الحسن بن عمر (+ ٧٧٩هـ): درة الأسلاك فى دولة الأتراك ؛ ٣ أجزاء مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٦١٧٠ ح.
* ابن دقماق : صارم الدين إبراهيم بن محمد (+٨٠٩هـ): الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ـ النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٢٢ تاريخ والمصورة برقم ١٥٨٧ تاريخ.

* ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد بن محمد (+٨٥١هـ): ذيل تاريخ الإسلام (الإعلام بتاريخ أهل الإسلام) ٧ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٣٩٢ تاريخ.
* الأسدى، محمد بن أحمد: التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ـ دار الكتب بالقاهرةرقم ٥٤٨٦ تاريخ.
* البسطامي، عبدالرحمن بن محمد على (+٨٤٣هـ): مفاتيح الأسرار ومصابيح الأنوار ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٥ مجاميع.
* البغدادى، أحمد بن عبدالله (١١٠٢هـ): عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصور والأزمان ـ مصورة في مجلدين بدار الكتب بالقاهرة برقم ٣٨١٠ تاريخ.
* الخزرجي، عبدالقادر بن محمد الأنصارى (ق٩هـ): درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٧م.
* الخطيب، على بن داود (ق٩هـ): نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ـ نسخة بخط مؤلفه بدار الكتب القاهرة برقم ١١٦م. وكذلك نسخة الجامعة الأزهرية برقم ٤٢٤تاريخ.
* الزيانى، أبو القاسم عبدالله (ق١٣هـ): الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٠٤تاريخ.
* السلامى، شهاب الدين أحمد (ق٩هـ): مختصر التواريخ ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٣٥ تاريخ.
* السيوطى، جلال الدين عبدالرحمن (+٩١١هـ): تاريخ السلطان الأشرف قايتباى – دار الكتب بالقاهرة برقم ٦١ تاريخ.
* الصفدى، صلاح الدين خليل، (+٧٦٤هـ):
(أ) أعيان العصر وأعوان النصر ـ ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٩١ تاريخ.
(ب) الوافى بالوفيات ـ ١٧ مجلداً مصورة دار الكتب بالقاهرة برقم ١٢١٩تاريخ.
* الطيب، أبو محمد بن عبدالله (ق١٠هـ): قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر ـ ٣ أجزاء فى ٦ مجلدات مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٦٧ تاريخ.
*العسقلانى، أحمد بن حجر (+٨٥٣هـ):
(أ) إنباء الغمر بأنباء العمر ـ جزءان بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٤٧٦ تاريخ.
(ب) تاريخ المائة التاسعة ـ مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٧٦٧ تاريخ.
* العينى، بدر الدين محمود (ـ٨٥٥هـ):
(أ) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ـ فى ٧٠ مجلدا بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٥٨٤ تاريخ (مصورة).
(ب) السيف المهند فى تاريخ الملك المؤيد ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٣٣٥٤.

* الفاسى، أبو الطيب محمد بن أبي العباس (+٨٣٢ه):
العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ـ ٤ مجلدات بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٧٨ تاريخ.
* القدسى، محمد أبى حامد (ق٩هـ): دول الإسلام الشريفة ـ ضمن مجموعة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٠٣٣ تاريخ.
* الكتبى، عبدالله محمد بن أحمد بن شاكر (+٧٦٤هـ): عيون التواريخ ـ ١٦ مجلداً مصورة بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩٧ تاريخ.
* المقدسى، مرعى بن يوسف (+١٠٣٣هـ): نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين ـ بدار الكتب بالقاهرة برقم ٢٠٧٦ تاريخ.
* المقريزى، تقى الدين أحمد بن على (+٨٤٥هـ):
(أ) كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك جـ٣، جـ٤ النسخة الخطية بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٥٥ تاريخ والمصورة برقم ٤٦٤ تاريخ.
(ب) المقفى الكبير ـ ٤ مجلدات مصورة برقم ٣٥٧٢ تاريخ.
(جـ) كتاب جنى الأزهار من الروض المعطار فى عجائب الأقطار ـ دار الكتب القاهرة برقم ٤٥٨ جغرافية، وربما تكون لأحد تلاميذ المقريزى.
* النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (+٧٣٢هـ): نهاية الأرب فى فنون الأدب ـ من جـ١٨ حتى جـ٣١ خطية دار الكتب بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة.
* النويرى، محمد بن قاسم بن محمد الإسكندرى (+٧٧٥): الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ فى مجلدين بدار الكتب بالقاهرة برقم ١٤٩ تاريخ.
* الهيثمى، أبو العباس أحمد بن حجر (+٩٧٤هـ): إتحاف إخوان الصفا بنبذ من أخبار الخلفا ـ دار الكتب بالقاهرة برقم ٢٧٦ تاريخ.
* بيبرس الدوادار (+٧٢٥هـ):
(أ) التحفة الملوكية فى الدولة التركية ـ مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩.
(ب) زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ـ مصورة بجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٨.
* يوساب، أسقف فوه (ق١٥م): كتاب تاريخ البطاركة مخطوط بمكتبة دير السريان بوادى النطرون.

ثانيا.المصادر العربية المطبوعة

* ابن أبى الفضائل، مفضل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ـ نشر E. Blochet (باريس ١٩١١ ـ ١٩٣٢م).
* ابن الشحنة الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب.
* ابن الطولونى، حسن بن حسين (ق٩هـ): النزهة السنية فى أخبار الخلفاء والملوك المصرية (القاهرة ١٢٩٤هـ).

* ابن العماد، عبدالحى (+١٠٨٩هـ): شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١٨ جزءاً (القاهرة ١٣٥١هـ).
* ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم (+٨٠٧هـ): تاريخ الدول والملوك جـ٧، جـ٨، جـ٩ نشر الدكتور قسطنطين رزيق والدكتورة نجلاء عز الدين (بيروت ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢).
* ابن إياس، محمد بن أحمد (+٩٣٠هـ): بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ١، جـ٢ (بولاق ١٣١١هـ).
* ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (+٨٧٤هـ):
(أ) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ـ جـ١ دار الكتب (القاهرة ١٩٥٦م).
(ب) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة حتى ـ جـ١٢ (سنة ٨٠٨هـ) طبعة دار الكتب بالقاهرة ٩٣٠ ـ ١٩٥٦. طبعة كاليفورنيا جـ٥، جـ٦، جـ٧ (١٩١٥ ـ ١٩٣٩).
(جـ) منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ـ نشر Popper (كاليفورنيا ١٩٣٠ ـ ١٩٣١).
(د) مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة ـ كمبردج ١٩٧٢م.
* ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (+٨٠٤هـ):
(أ) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ـ نشر محمد بن تاويت الطنجى (القاهرة ١٩٥١).
(ب) المقدمة.
(جـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ـ جـ٥، جـ٦ (بولاق ١٢٧٤هـ).
* ابن شاهين، غرس الدين خليل الظاهرى (+٨٧٣): كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. نشر Ravaisse (باريس ١٨٩٤م).
* ابن عربشاه، شهاب الدين محمد بن أحمد (٨٤٦هـ):
(أ) عجائب المقدور فى أخبار تيمور (القاهرة ١٣٠٥هـ).
(ب) فاكهة الخلفا ومفاكهة الظرفا (بولاق ١٢٩٠هـ).
* ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل بن محمد (+٧٧٤هـ): البداية والنهاية ـ ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٥٨هـ).
* ابن مماتى، أبو المكارم بن سعيد (+٦٠٦هـ): كتاب قوانين الدواوين ـ نشر عطية (القاهرة ١٩٤٣).
* أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل (ـ٧٣٢هـ): المختصر فى أخبار البشر (الاستانة ١٢٨٦هـ).
* اسكاروس، توفيق: نوابغ الأقباط بالقاهرة فى القرن التاسع عشر ـ جـ٢ (القاهرة ١٩١٠).

* الإسحاقى، محمد بن عبدالمعطى (القرن ١١هـ): لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول (القاهرة ١٢٩٦هـ).
* الأنصارى، أبو عبدالله: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر (بطرسبرج ١٨٦٦م).
* الجبرتى، عبدالرحمان (١٢٣٧هـ): خمسة أجزاء: تحقيق عبدالعزيز جمال الدين. القاهرة.
* الذهبى، أبو عبدالله (+ ٧٤٨ هـ)دول الإسلام ـ جزءان فى مجلدين (الهند ١٣٣٣هـ).
* الحيمى: سيرة الحبشة - نشر الدكتور مراد كامل (القاهرة ١٩٥٨).
* الخزرجى، أبو الحسن على بن الحسن: العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدول الرسولية (القاهرة ١٩١١م).
* السخاوى، محمد بن عبدالرحمن (+٩٠٢هـ):
(أ) التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق سنة ١٨٩٦م).
(ب) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ١٢ مجلد (القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥هـ).
* السلاوى، أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ٢ (القاهرة ١٣١٢هـ).
* السيوطى، جلال الدين عبدالرحمن (+٩١١هـ):
(أ) تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٣٠٥هـ).
(ب) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩هـ).
(جـ) نظم العقبان فى أعيان الأعيان (نيويورك ١٩٢٧).
* الشوكانى،محمد بن على اليمنى (+١٢٥٠هـ): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ جزءان (القاهرة سنة ١٣٤٨هـ).
* العرينى، دكتور السيد الباز: الفارس المملوكى ـ بحث فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس (١٩٥٦).
* العزاوى: تاريخ العراق بين احتلالين جزءان (بغداد ١٩٣٥م ـ ١٩٣٦م).
* العسقلانى، أحمد بن على بن حجر (+٨٥٢هـ):
(أ) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ـ ٤ أجزاء ـ حيدر أباد الهند ١٣٤٨ ـ ١٣٥٠هـ).
(ب) رفع الأصر عن قضاة مصر ـ جـ١ (تحقيق حامد عبدالمجيد وآخرين ـ القاهرة ١٩٥٧).
* القرمانى، أبو العباس أحمد (+١٠١٩هـ): أخبار الدول وآثار الأول (بغداد ١٢٨٢هـ).
* القلقشندى، أبو العباس أحمد (+٨٢١هـ):
(أ) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣).
(ب) ضوء الصبح المسفر و جنى الدوح المثمر (القاهرة ١٩٠٦م).
* الكتبى، صلاح الدين محمد بن شاكر (٧٦٤هـ): فوات الوفيات (بولاق ١٢٨٣هـ).
* المقريزى، أحمد بن على (+٨٤٥هـ):

(أ) إغاثة الأمة بكشف الغمة ـ نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال.
(ب) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٩٥م).
(جـ) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب (القاهرة ١٩١٦م).
(د) السلوك لمعرفة دول الملوك ـ جـ١، جـ٢ نشره ووضع حواشيه الدكتور محمد مصطفى زيادة (القاهرة ١٩٣٤ ـ ١٩٥٨).
(هـ) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ جزءان (بولاق ١٢٧٠هـ).

* النويرى، أحمد بن عبدالوهاب (+٧٣٢هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب من جـ١ حتى جـ١٧ (القاهرة ١٩٢٣).
* حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (ليبزج ١٨٣٥).
* خريطة القاهرة والوجه البحرى الدولية. دائرة المعارف الإسلامية.
* دحلان، أحمد بن زيني: الفتوحات الإسلامية جزءان القاهرة ١٣٢٣هـ).
* رشدى، راسم: مصر والشراكسة (القاهرة ١٩٤٨).
* رمزى، محمد: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤).
* زترستين: تاريخ سلاطين المماليك من ٦٩٠ هـ إلى ٧٤١ هـ (باريس ١٩١٩).
* زيادة، دكتور محمد مصطفى:
(أ) المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (القاهرة ١٩٤٩).
(ب) نهاية السلاطين المماليك فى مصر ـ بحث فى المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع مايو سنة ١٩٥١.

* سرور، دكتور محمد جمال الدين: دولة بنى قلاوون فى مصر (القاهرة ١٩٤٧).
* صالح بن يحيى، (ق٩هـ): تاريخ بيروت ـ نشر لويس شيخو (بيروت ١٩٠٢م).
* عاشور، دكتور سعيد عبدالفتاح: قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧).
* عزت، يوسف: تاريخ القوقاز.
* فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية (القاهرة ١٩١٢م).
* كرد علي، محمد: خطط الشام ـ ٤ أجزاء (دمشق ١٩٢٧).
* مؤلف مجهول: كتاب قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش (بولاق ١٢٨٧هـ).
* مؤلف مجهول: مراصد الاطلاع فى أسماء الأماكن والبقاع (ليدن ١٨٥٠ ـ ١٨٥٩).
* هازارد، أ. و: أطلس التاريخ الإسلامى ـ ترجمة إبراهيم خورشيد ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة.
* ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموى (+٦٢٦هـ): معجم البلدان ١٢ جزءاً (القاهرة ١٩٠٦م).

ثالثاً.مراجع أفرنجية

* Arnold, T.W: The Caliphate, Oxford, 1924.
* Atiya, A.S.: The Crusade in the Latar Middle Ages, London, 1938.
* Ayalon, D.:

  A) Studies on the Structure of the Mamluk Army. Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V. 16, Part I, 1954.

  B) Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom, London 1956.

  C) The Circassians in the Mamluk Kingdom, J.A.O.S 1949.
* Browne, E.G. : Literary History of Persia. VIII, Cambridge 1951.
* Bouvet, L.: L'Empire Mongol, Paris 1927.
* Brockelman, C. :

  A) History of Islamic Peoples, London 1949.

  B) Geschichte Der Arabischen Literatur (Weimar and Berlin) 1898-1902.
* Budge: A History of Ethiopia VI, London 1928.
* Bulletin of the School of Oriental and African Studies, V, 16, Part 1 and 111, 1954.
* De Bouard, M.: La France et l'Italie au temps du Grand Schisme d'Occident, Paris1936.
* De Clavijo, R.G.: Embassy to Tamerlanc, London 1859.
* De Gaury, G.: Rulers of Mecca, London 1951.
* Delaville Le Roulx, J.: La France en Orient au XIVéme siécle, 2 Vol., Paris 1886.
* Demombynes, G.: La Syrie á l'époque des Mamelouks Paris 1922.
* Devonshire, L.: L'Egypte Musulmane, Paris 1926.
* D'Ohsson: Tableau Général de l'Empire Ottoman, VI, Paris 1824.
* Dozy, R.: Supplément aux dictionnaires arabes (Supplément Dict. Ar.), 2 Vols., Paris 1927.
* Dussaud, R. Topographie Historique de la Syria Antique et Médiévale, Paris 1927.
* Encyclopedia of Islam.
* Fischel, W.J. : Ibn Khaldun and Tamerlanc, California 1952.

* Gibbons, H.A.: The Foundation of the Ottoman Empire, Oxford 1916.
* Grousset, R.: L'Empire des Steppes, Paris 1939.
* Heyd, W.: Histoire du Commerce du Levan, 2 Vols., Leipzig 1885.
* Hitti, Ph, K.: History of the Arabs, London 1937.
* Huart: Histoire des Arabes, 2 Vols. Paris 1913.
* Ibn Arab Shah: Tamerlanc or Timur the Great Amir, Eng. tr. by Sanders J.H., London 1936.
* Ibn Iyas: Histoire des Mamluks Circassiens, 2 Vols., tr. by G. Wiet, Le Caire 1945.
* Iorga: Notes et Extraits pour servir á l'Histoire des Croisades au XV siécle, T. 11, Paris 1899-1916.
* Journal Asiatique (J.A.).
* Journal of American Oriental Studies (J.A.O.S.).
* Kevork, A.: Armenia and the Armenians, New York 1920.
* Kirk, G.E.: A Short History of the Middle East, London 1949.
* Lamb, H.: La vie de Tamerlanc. Trad. de l'anglais par Robert P.J.
* Lammens, H.: La Syrie, Précis Historique, VII, Beyrouth 1921.
* Lane-Poole, S. : History of Egypt in the Middle Ages, London 1914.
* Le Strange, C.:
  A) Clavijo Embassy to Tamerlanc, London 1918.
  B) Palestine under the Moslems, London 1990.
* Malcolm, J.: History of Persia, London 1815.
*Malet and Isaac: L'Histoire du XIV, XV et XVI siécles, Paris 1927.
* Miller: The Latins in the Levant, London 1908.
* Morgan, J.: Etudes Arch. et Hist. au Caucase, T. 11, Paris 1899.
* Muir, W.E.:
  A) The Mamluk or Slave Dynasty of Egypt, London 1896.
  B) The Caliphate, its Rise, Decline and Fall., Oxford 1902.
* Oman, C.W.C.: The Byzantine Empire, London 1915.
* Piloti, E.: L'Egypte au commencement du Quinziéme Siécle. Trad. par Dopp. P.H., Le Caire 1950.

* Poliak, A.N. :

A) Les Révoltes Populaires en Egypte á l'Epoque des Mamelouks et leurs Causes Economiques, ex. de la Revue des Etudes Islamiques, Paris 1934.

B) Le Caractére Colonial de l'Etat Mamluk, Paris 1935.

C) Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, London 1939.

* Price, D. : Memoirs of the Principal of Mahommedan History from the Deat of the Arabian Legislator to the Accession ot the Emperor Akber. from Original Persian Authorities, London 1820, VIII.
* Quatremere, E.: Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte, 2 Vols., Paris 1834-1845.
* Sauvaget, J.: Noms et Surnoms des Mamluks, J.A., Paris 1950.
* Schiltberger: The Bondage and Travels of Johan Schiltberger, 1396 to 1427, E.D., London Hakluyt Soc. V. LVIII, 1879.
* Sykes, P. : A History of Persia VII, London 1951.
* Thoumin, R.: Histoire de Syrie, Paris 1929.
* Wiet, G.:

A) Histoire de la Nation Egyptienne, T. IV (L'Egypte Arabe), Paris 1926.

B) Précis de l'Histoire D, Egypte, T. 11, Le Caire 1933.

C) Biographie du Manhal Safi.

* Yazdi, A. Ch.: Zafarnama. Vol IXII

En. Trans by Darly, London 1723.

* Ziadeh, N. : Urban Life in Syria under the Early Mamluks, Beiruth 1953.

فهرس الجزء السابع

• رقم الايداع: ٢٦٤٢/ ٢٠١٢
• الترقيم الدولى: 978-977-704-939-9

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موريفيتلى سابقاً)
ت: 23904096 - 23952496